تفسير السمرقندي
المسمّى
بحر العلوم

لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن ابراهيم السمرقندي
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ علي محمد معوض
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الجزء الثاني

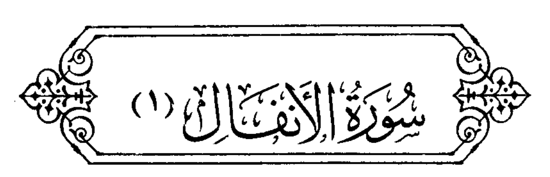
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le -
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠



سورة الأنفال (١)

وهي سبعون وخمس آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ يعني الغنائم وأحدها غنيمة نفل. وكذلك قال لبيد[٢]:

إن تقوى ربنا خير نفل[٣] وبإذن الله رَيْثي والعَجَلْ

(١) ابتدأت هذه السورة ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها. والأمر بتقوى الله في ذلك وغيره. والأمر بطاعة الله ورسوله وفي أمر - الغنائم وغيرها. وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم وأن ذلك من مقومات معنى الإيمان الكامل.
وذكر الخروج إلى غزوة بدر وخوفهم من قوة عددهم وما لقوا فيها من نصر.
وتأييد من الله ولطفه بهم.
وامتنان الله عليهم بأن جعلهم أقوياء.
وعدهم بالنصر والهداية وإن اتقوا بالثبات للعدو، والصبر.
والأمر بالاستعداد لحرب الأعداء.
والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع.
والأمر بأن يكون قصد النصرة لفدين نصب أعينهم.
ووصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر.
وذكر مواقع الجيشين وما جرى من القتال.
وتذكير النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكة وخلصه من عنادهم وإن مقامه بمكة كان أماناً لأهلها فلما فارقهم فقد حق عليهم عذاب الدنيا بما اقترفوا من الصد عن المسجد الحرام.
ودعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام وإيذانهم بالقتال والتحذير من المنافقين.
وضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله ولم يشكروا نعمة الله.
وأحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتب على نقضهم العهد ومتى يحسن السلم. وأحكام الأسرى.
وأحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية.

(٢) لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات، عاش حتى أدرك الإسلام فأسلم. توفي سنة ٤١ هـ انظر الأعلام ٥/ ٢٤٠ خزانة الأدب ١/ ٣٣٧ - ٣٣٩.

(٣) انظر ديوانه ١٧٤.

قال ابن عباس: عن صلة في الكلام[١] وإنّما هو يسألونك الأنفال أي: الغنائِم ويقال فيه تقديم ومعناه يسألون عنك الأنفال، ويقال: يسألونك لمن الأنفال؟ يقال: إنما سألوا عنها لأنها كانت محرمة من قبل فسألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل (يسألونك عن الأنفال) يعني الغنائم. قال الفقيه: حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال حدثنا إبراهيم بن أبي داود قال حدثنا سعيد بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن الحارث عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت[٢] قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلقي العدو فلما هـزمهم الله تعالى أتبعهم طـائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم واستولت طائفة بالعسكر والنهب، فقال الذين طلبوهم نحن طلبنا العدو وبنا نفاهم الله تعالى وهزمهم فلنا النفل. وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدو منه غرة فهو لنا، وقال الذين استولوا على العسكر والنهبة والله ما أنتم بأحق منا بل هو لنا نحن حويناه واستوليناه. فأنزل الله تعالى يسألونك عن الأنفال ﴿**قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾ فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بينهم عن فواق أي: عن سواء وروى أسباط عن السدي[٣] قال: كانت الأنفال لله ورسوله فنسخ بقوله ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ وعن عكرمة ومجاهد مثل قوله تعالى ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم**﴾ يعني: اخشوا الله وأطيعوه في أمر الغنيمة وأصلحوا ذات بينكم أي: ما بينكم من الاختلاف في الغنيمة ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ يعني: في أمر الصلح والغنيمة ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ يعني: إن كنتم صادقين ويقال معناه اتركوا المراء في أمر الغنيمة بأن كنتم مصدقين ثم نعت المؤمنين المصدقين فقال عز وجل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ ويقال إنما المصدقون الذين إذا أمروا بأمر في الغنيمة وغيرها من قبل الله عز وجل خافت قلوبهم، ويقال إنما المصدقون الذين إذا ذكر الله أي ذكر عندهم أمر الله، ويقال إذا أمروا بأمر من الله تعالى وجلت قلوبهم يعني قبلت قلوبهم فسمي قبول القلوب وجلاً لأن بالوجل يثبت القبول. لأنهم وجلوا عقوبة الله تعالى فقبلوه. ثم قال: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ**﴾ يعني: قرئت عليهم آياته بالأمر والنهي في أمر الصلح أو غيره ﴿**زَادَتْهُمْ إِيمَاناً**﴾ أي تصديقاً ويقيناً. وقال الضحاك: يعني زادتهم يقيناً[٤] بحكم الناسخ مع تصديقهم بحكم المنسوخ. وقال الزجاج: تأويل «الإيمان» التصديق، فكل ما يتلى عليهم من عند الله صدقوا به فزادهم تصديقاً، فذلك زيادة إيمانهم، وروي عن ابن عباس أنه قال: زادتهم تصديقاً بالفرائض مع تصديقهم بالله[٥] ﴿**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ يعني يفوضون أمرهم إلى الله تعالى ويثقون به ولا يثقون بما في أيديهم من الغنائم ويعلمون أن الله هو رازقهم قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾ يعني: يتمونها في مواقيتها بركوعها وسجودها ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ يعني: يتصدقون مما أعطيناهم من الأموال وينفقونها في طاعة الله قوله تعالى ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً**﴾ يعني: أهل هذه الصفة هم المؤمنون الموحدون صـدقاً، وهم المصـدقون ﴿**لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ يعني: فضائل عند ربهم في الآخرة، ويقال لهم منازل في الرفعة على قدر أعمالهم ﴿**وَمَغْفِرَةٌ**

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٢٢٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن جرير ١٣/٣٧٠ وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه وانظر تخريج الحديث الثاني من الدر المنثور.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ انظر الدر المنثور ٣/١٦١.

(٤) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/٢٢٩ دون نسبه.

(٥) انظر شرح الجوهرة ٣٥.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مغفرة لذنوبهم وثواب حسن في الجنة، ويقال الفتوح والغنيمة. قال ابن عباس: المؤمن مؤمن حقاً والكافر كافر حقاً[1] (في قوله هم المؤمنون حقاً قال:)[2] قوله تعالى:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ قال القتبي معناه: كراهتهم فيما فعلته في الغنائم ككراهتهم الخروج معك. ويقال معناه أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك [من بيتك بالحق. . . . قيل الحق هنا القرآن وقيل الحرب، ويقال لهم مغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك] من بيتك بالحق وإنْ كان فريقاً من المؤمنين لكارهون. فكذلك ننفل الغنيمة لمن نشاء وإنْ كرهوا ذلك. ويقال هذا ابتداء القصة ومعناه امض على وجهك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ وكان هذا بعد خروجه إلى بدر. وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وفي تلك السنة حولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام وكانت غزوة بدر في شهر رمضان وكانت قصته أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن عير قريش خرجت من الشام فيهم أبو سفيان بن حرب ومخرمة بن نوفل في أربعين رجلاً من تجار قريش ويقال أكثر من ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه هذه عير قريش قد أقبلت فاخرجوا إليها. فلعل الله أن ينفلكموها وتتقووا بها على جهاد عدوكم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من جهينة، حليفين من الأنصار بأن ينظرا ويأتيا بخبر العير، فخرجا وأتيا وادي الصفراء وهي منزل على طريق الشام. فقالا لأهل الصفراء هل أحسستم من أحد؟ قالوا لا، فخرجا فمرا بجاريتين متلازمتين، فقالت إحداهما للأخرى اقضيني درهماً لي عليك. فقالت لا والله ما عندي اليوم، ولكن عير قريش نزلت بموضع كذا، يقدمون غداً فأعمل لهم وأقضيك درهمك فسمع الرجلان ما قالت الجاريتان فرجعا، فجاء أبو سفيان بن حرب حين أمس الصفراء فقال لأهل الصفراء هل أحسستم من أحد؟ قالوا لا. إلاَّ رجلين نزلا عند هذا الكثيب ثم ركبا. فرجع أبو سفيان إلى ذلك الموضع فرأى هناك بعر الإبل فأخذ بعرة ففتها فوجد فيها النوى فقال علائق أهل يثرب واللات والعزى، فأرسل من الطريق ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يخبرهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اعترض لعيركم فأدركوه. وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل أن يقدم ضمضم بن عمرو بثلاثة أيام في منامها كأنّ راكباً أقبل على بعير أورق[3] ومعه راية سوداء فدخل المسجد الحرام ثم نادى بأعلى صوته يا آل فلان ويا آل فلان انفروا إلى مصارعكم إلى ثلاث، ثم ارتقى على أبي قبيس ونادى ثلاث مرات ثم قلع صخرة من أبي قبيس فرماها على أهل مكة فتكسرت فلم يبق أحد من قريش إلا أصابته فلقة منها، فلما أصبحت قصت رؤياها على أخيها العباس وقالت إني أخاف أن

---

(١) سقط في أ.
(٢) انظر معالم التنزيل ٢/٢٢٩.
(٣) وهو ما في لونه بياض إلى سواد انظر ترتيب القاموس ٤/٥٤١.

يصيب قومك سوء، فاغتم العباس لما سمع منها وذكر العباس ذلك للوليد بن عتبة وكان صديقاً له فذكر الوليد ذلك لأبيه عتبة بن ربيعة فذكر ذلك عتبة لأبي جهل بن هشام وفشى ذلك الحديث في قريش فخرج العباس إلى المسجد وقد اجتمع فيه صناديد قريش يتحدثون عن رؤيا عاتكة. فقال أبو جهل يا أبا الفضل: متى حدثت فيكم هذه النبية؟ أما رضيتم أن قلتم منا نبي حتى قلتم منا نبية: فوالله لننتظرن بكم ثلاثاً، فإن جاء تأويل رؤياها وإلا كتبنا عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب. فقال له العباس: يا كذاب يا مصفر الاست[1] بالله أنت أولى بالكذب واللؤم منا. فلما كان اليوم الثالث جاء ضمضم وقد شق قميصه وجزع أذن ناقته وجعل التراب على رأسه وهو ينادي: يا معشر قريش الغوث الغوث أدركوا عيركم فقد عرض لها أهل محمد، فاجتمعوا وخرجوا وهم كارهون مشفقون من رؤيا عاتكة ومعهم القينات والدفوف بطراً ورياء كما قال الله تعالى: ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَـاءَ النَّـاسِ﴾، وكل يوم يطعمهم واحد من أغنيائهم، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة وأمر أصحابه بالخروج فخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار. وخرجوا على نواضحهم ليس لهم ظهر غيرها ومعهم ثلاثة أفراس ويقال فرسان فخرجوا بغير قوت ولا سلاح لا يرون أنه يكون ثمة قتالاً، فلما نزلوا بالروحاء نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بخروج المشركين من مكة إلى عيرهم وقال: يا محمد إن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين إما العير وإما العسكر، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بخروج المشركين من مكة إلى عيرهم فشق ذلك على بعضهم وقالوا: يا رسول الله هلا كنت أخبرتنا أنه يكون ثمَّ قتالاً فنخرج معنا سلاحنا وقوسنا. إنما خرجنا نريد العير والعير كانت أهون شوكة وأعظم غنيمة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أشيروا عليَّ. فكان أبو بكر وعمر يشيران عليه بالمسير وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول أشيروا عليَّ وكان يحب أن يتكلم الأنصار فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله امض حيث شئت وأقم حيث شئت فوالله لئن أمرتنا أن نخوض البحر لنخوضنه، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَـاعِدُونَ﴾ ولكن نقول: (اذهب أنت وربك فقاتلا فنحن معكما متبعون) فنزل[2] **﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾** يعني: القتال. **﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾** يخاصمونك في الحرب[3] **﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾** يعني: بعد ما تبين لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به **﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾** يعني ينظرون إلى القتل ثم قال تعالى: **﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾** يعني إما العير وإما العسكر **﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾** أي: تمنون غير ذات السلاح. وقال القتبي: ومنه قيل فلان شاك السلاح، ويقال غير ذات الشوكة يعني: شدة القتال **﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾** الغنيمة **﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾** يعني أن يظهر الإسلام بتحقيقه بما أنزل عليك من القرآن **﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾** يعني يهلك الشرك ويستأصله **﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾** أي يظهر الإسلام **﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾** يعني الشرك **﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾** أي: المشركون. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم سيروا على بركة الله فإني رأيت مصارع القوم. وجاءت قريش وأدركوا العير وأفلتوهم. فقال بعضهم لبعض: إنما خرجتم لأجل العير فلما وجدتم العير فارجعوا سالمين. فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نقتل محمداً ومن معه. فسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل بَدْراً بجانب الوادي الأدنى. ونزل المشركون على جانبه الأقصى على الماء والوادي فيما بينهما. فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة حتى أوتر. وكانت ليلة النصف من شهر رمضان وقال في قنوته: اللهم لا تفلتن أبا جهل بن هشام وفلاناً وفلاناً، فباتوا تلك الليلة وقد أجنبوا

---

(١) كلمة تقال للجبان.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٠١، وانظر الدر المنثور ٣/١٦٦.

(٣) سقط في أ.

وليس معهم ماء فأتاهم الشيطان عند ذلك ووسوس إليهم فقال لهم تـزعمون أنكم على دين الله وأنكم تصلون محدثين مجنبين والمشركون على الماء. وكان الوادي ذا رمل تغيب فيه الأقدام. فمطرت السماء حتى سال الوادي فاشتد ذلك الرمل واغتسل المسلمون من جنابتهم وشربوا وسقوا دوابهم. فذلك قوله ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ إلى قوله ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وكان عليّ والزبير يحرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء سقاة قريش يسقون الماء فأخذهم عليّ والزبير فسألاهم عن أبي سفيان فقالوا ما لنا بأبي سفيان من علم فقالا «فمع» من أنتم؟ فقالوا مع قريش من أهل مكة فقالا كم هم؟ قالوا لا ندري هم كثير. فضرباهم، فقالوا هم قليل فتركاهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضربونهم إن صدقوكم وتتركونهم إن كذبوكم. فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كم القوم؟ فقالوا هم كثير. فلا ندري كم هم. فقال كم ينحر لهم في كل يوم؟ فقالوا في يوم ينحر لهم عشرة جزر وفي يوم تسعة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم القوم ما بين تسعمائة إلى ألف وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين. وكانوا قد خرجوا من مكة ألفاً ومائتين وخمسين فرجع الأخنس بن شريق مع ثلاثمائة من بني زهرة مع العير وبقي تسعمائة وخمسون رجلاً فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة ورفع يديه وقال: اللهم لا تهلك هذه العصابة فإنك إن أهلكتهم لا تعبد على وجه الأرض أبداً. فقال أبو بكر يا رسول الله قد دنا القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أبشر يا أبا بكر فإني رأيت جبريل معتجراً بعمامة يقود فرساً بين السماء والأرض. فأمده الله بجبريل في ألف من الملائكة وميكائيل في ألف من الملائكة وإسرافيل في ألف من الملائكة فذلك قوله ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ فقال أبو جهل: اللهم انصر أحب الدينين إليك ديننا العتيق ودين محمد الحديث وقال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش: إنّ محمداً رجل منكم فإن يكن نبياً فأنتم أسعد الناس به وإن يكن ملكاً تعيشوا في ملك أخيكم وإن يكن كاذباً يقتله سواكم. لا يكون هذا منكم وإني مع ذلك لأرى قوماً زرق العيون لا يموتون حتى يقتلوا عدداً منكم. فقال أبو جهل يا أبا الوليد جبنت وانتفخ سحرك. فقال له عتبه: يا كذاب ستعلم اليوم أينا الجبان فلبس لأمته وخرج معه أخوه شيبة بن ربيعة وخرج معه ابنه الوليد بن عتبة فتقدموا إلى القوم وقالوا يا محمد ابعث لنا أكفاءنا. فخرج إليهم قوم من الأنصار فقالوا لهم من أنتم؟ فقالوا نحن أنصار الله ورسوله فقالوا لا نريدكم ولكن نريد إخواننا من قريش. فانصرفوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا بني هاشم تقدموا إليهم. فقام عليٌّ بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعليهم البيض فقال لهم عتبة تكلموا حتى نعرفكم. فقال حمزة أنا أسد الله وأسد رسوله. فقال عتبة كفوء كريم. قال فمن هذان معك؟ فقال عليّ بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فذهب الشيخ إلى الشيخ والشاب إلى الشاب والكهل إلى الكهل، فذهب إلى شيبة بن ربيعة وكلاهما شيخان. وذهب عليّ إلى الوليد بن عتبة وكلاهما شابان، وذهب حمزة إلى عتبة بن ربيعة وكلاهما كهلان. فقتل حمزة بن عبد المطلب عتبة بن ربيعة، وقتل عليّ بن أبي طالب الوليد بن عتبة واختلف عبيده بن الحارث وشيبة بن ربيعة في ضربتين، ضرب عبيدة بالسيف على رأس شيبة بن ربيعة، وضرب شيبة ضربة في رجل عبيدة، فمال حمزة وعليٌّ على شيبة بن ربيعة فقتلاه وحملا عبيدة إلى العسكر فمات عبيدة في حال انصرافهم قبل أن يصل إلى المدينة فدفن بمضيق الصفراء. ففي هذا الخبر دليل من الفقه أن المشركين إذا طلبوا البراز فلا بأس للمؤمنين بأن يخرجوا بغير إذن الإمام ما لم ينههم عن ذلك، لأن الأنصار قد خرجوا قبل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه دليل أنه لا بأس بأن ينصر أحد المبارزين صاحبه لأن حمزة وعليًّا قد أعانا عبيدة على قتل شيبة، وفيه دليل أنه لا بأس بالافتخار عند الحرب لأن حمزة قال أنا أسد الله وأسد رسوله، ولا بأس بأن يتبختر في مشيته في حال القتال.

ثم خرج مهجع مولى عمر بن الخطاب فأصابته رمية بين الصفين فكان أول قتيل يوم بدر، وحرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس على القتال فقال عمير بن الحمام السلمي وهو قائم وفي يده تمرات يأكلها. يا رسول الله إن قتلت في سبيل الله فلي الجنة؟ قال نعم فألقى التمرات وأخذ سيفه وشد على القوم فقاتل حتى قتل، فخرج أبو جهل بن هشام على جمل له لعنه الله، فخرج إليه شاب من الأنصار يقال له معاذ بن عمرو بن الجموح فضربه ضربة على فخذه فخر أبو جهل عن بعيرة فخرج إليه عبد الله بن مسعود، فلما رآه أبو جهل قال: يا ابن أم عبد لمن الدولة؟ وعلى من الدائرة؟ فقال له ابن مسعود لله ولرسوله يا عدو الله لأنت أعتى من فرعون. لأن فرعون جزع عند الغرق وأنت لم يـزدك هذا الصرع إلّا تمادياً في الضلالة، ثم وضع رجله على عاتق أبي جهل. فقال له أبو جهل لأنت رويعنا بالأمس لقد ارتقيت مرتقاً عظيماً، فقتله ابن مسعود «وحز رأسه»، وجاء برأسه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فخر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساجداً، ثم قال لأبي بكر ويقال لعليّ ناولني كفاً من تراب، فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبضة من التراب ورَمَاهَا في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فدخلت في أعين القوم كلهم، فأقبل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقتلونهم ويأسرون منهم وحملوا على المشركين والملائكة معهم، وقُذِفَ في قلوب المشركين الرعب، فقتلوا في تلك المعركة منهم سبعين وأسروا سبعين واستشهد يومئذ من المهاجرين ثلاثة عشر رجلاً، ورجع رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بـالأسارى والغنائم إلى المدينة، واستشار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمر الأسارى، فأقبل على أبي بكر فقال ما تقول يا أبا بكر؟ فقال قومك وبنو عمك فإن قتلتهم صاروا إلى النار وإن تفدهم فلعل الله يهديهم إلى الإسلام ويكون ما نأخذه منهم قوة للمسلمين وقوة على جهاد أعدائهم. ثم أقبل على عمر فقال: ما تقول يا أبا حفص؟ فقال عمر: إن في يديك رؤوس المشركين وصناديدهم فاضرب أعناقهم وسيغني الله المؤمنين من فضله. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنّ مثلك يا أبا بكر من الملائكة مثل ميكائيل فإنه لا ينزل إلا الرحمة، ومثلك من الأنبياء مثل إبراهيم حيث قال ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عصاني فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثل عيسى حيث قال (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). ومثلك يا عمر مثل جبريل فإنه ينزل بالعذاب والشدة، ومثلك من الأنبياء مثل نوح «حيث» قال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دياراً) ومثل موسى حيث قال (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حتى يروا العذاب الأليم) وروى سماك بن حرب عن عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين فرغ من بدر عليك بالعير فإنه ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو أسير في وثاقه إنه لا يصلح. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم؟ قال لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك[1] قوله تعالى:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٦٩ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسّنه وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رأى كثرة المشركين علم أنه لا قوة لهم إلا بالله. فدعا ربه فقال: اللهم إنك وعدتني النصر وإنك لا تخلف الميعاد. فاستجاب له ربه ونزل «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» يقول واذكروا إذ تسألون ربكم وتدعونه يوم بدر بالنصرة على عدوكم، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ يعني فأجابكم ربكم ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ يعني: أزيدكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ يعني متتابعين «بعضهم» على أثر بعض. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر مُرْدَفِينَ[1] بالنصب وقرأ الباقون بالكسر. وكلاهما يرجع إلى معنى واحد، وهو التتابع. وقال عكرمة: أمدهم يوم بدر بألف من الملائكة وعددهم ثلاثة آلاف من الملائكة لغزوة بعده بدعائه وزاده ألفين فذلك خمسة آلاف من الملائكة، ويقال هذا كله كان يوم بدر. ثم قال عز وجل ﴿وَمَاجَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى﴾ يقول ما أنزل الله من الملائكة إلا للبشارة. وقال بعضهم: إن الملائكة لم يقاتلوا وإنّما كانوا مبشرين. وروي عن ابن عباس أنه قال: قاتلت الملائكة يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ولا يوم حنين، «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ» يعني مدد الملائكة إلاّ بُشْرَى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني لتسكن إليه قلوبكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني ليس النصر بقلة العدد ولا بكثرة العدد ولكن النصرة من عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز بالنقمة، حكيم حكم بالنصرة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين والهزيمة للمشركين. قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ يقول ألقى عليكم النوم ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ يعني: أمناً من عند الله. وروى عاصم عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس عند القتال أمنة من الله وهو في الصلاة من الشيطان. قرأ نافع يُغْشِيكُمْ[2] (النُّعَاسَ) بضم الياء وجزم الغين ونصب النعاس ومعناه يُغْشِيكُمْ اللَّهُ النُّعَاسَ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ بالألف ونصب الياء وضم النعاسُ. يعني أخذكم النعاسُ. وقرأ الباقون بضم الياء وتشديد الشين ونصب النعاس (يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ) ومعناه يغشيكم اللَّهُ النعاسَ أمنةً منه، والتشديد للمبالغة ثم قال ﴿وَيُنَزِّلَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ يعني بالماء من الأحداث والجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني وسوسة الشيطان وكيده. وقال القتبي: أصل الرجز العذاب كقوله: (رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ) ثم سمى كيد الشيطان رجزاً. لأنه سبب العذاب. ثم قال: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني يشدد قلوبكم بالنصرة منه عند القتال ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ يعني لتستقر الرجل على الرمل حتى أمكنكم الوقوف عليه، ويقال ويثبت به الأقدام في الحرب. ثم قال تعالى

---

(١) قرأ نافع: (مردفين) بفتح الدال مفعول بهم أي الله أردفهم أي ـ بعثهم على آثار من تقدمهم. قال أبو عبيد: (تأويله أن الله تبارك وتعالى أردف المسلمين بهم) وكان مجاهد يفسرها: (ممدّين) وهو تحقيق هذا المعنى.

وقرأ الباقون: (مردِفين) بكسر الدال أي جاؤوا بعدهم على آثارهم أي (ردفوا) أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ و (أردف) بمعنى ـ ردف، قال الشاعر:

إذا الجوزاءُ أرْدَفتِ الثريا ظننت بآل فاطمة الظُّنُونا

قال أبو عبيد: أراد بقوله (أردفت): (ردفت) أي جاءت بعدها ألا ترى أن الجوزاء تطاع بعد طلوع الثريا وعلى أثرها) ـ وقال ابن عباس: (مردفين أي متتابعين) وقال آخرون منهم أبو عمرو: (مردفين) أي أردف بعضهم بعضاً فالإرداف أن يجعل الرجل صاحبه خلفه، تقول: (ردفت) الرجل أي ركبت خلفه، ـ وأردفته إذا أركبته خلفي) وقال آخرون منهم أبو بكر بن مجاهد: (مردفين أي متقدمين لمن وراءهم، كأن من يأتي بعدهم ردف لهم أي أتوا في ظهورهم، فعلى هذا الوجه لا يكون (أردف) بمعنى (ردف)، لأنهم أردفوا خلفهم. انظر حجة القراءات ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٠٨، سراج القارىء ٢٣٣.

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني ألهم ربك الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي معينكم وناصركم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بشروا المؤمنين بالنصر. فكان الملك يمشي أمام الصف فيقول أبشروا فإنكم كثير وعدوكم قليل. والله ناصركم ﴿سَأُلْقِي﴾ يعني سأقذف ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يعني الخوف من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «والمؤمنين». ثم علم المؤمنين كيف يضربون ويقتلون فقال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ يعني على الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني أطراف الأصابع وغيرها. ويقال كل مفصل. قال الفقيه: سمعت من حكى عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: أراد الله ألاَّ يلطخ سيوفهم بفرث المشركين فأمرهم أن يضربوا على الأعناق ولا يضربوا على الوسط، ويقال معناه اضربوا كل شيء استقبلكم من أعضائهم ولا ترحموهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني ذلك الضرب والقتل بسبب أَنَّهُمْ ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني عادوا الله ورسوله وخالفوا الله ورسوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ ورسوله يعني من يخالف الله ﴿وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ يعني ذلكم القتل يوم بدر ﴿فَذُوقُوهُ﴾ في الدنيا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ يوم القيامة مع القتل في الدنيا، يعني إن القتل والضرب لم يصر كفارةً لهم. قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني إذا لقيتم الذين كفروا بتوحيد الله تعالى يوم بدر ﴿زَحْفاً﴾ يعني مزاحفة، ويقال زحف القوم إذا دنوا للقتال، ومعناه إذا وافقتموهم للقتال ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ يعني منهزمين. ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ يعني ظهره منهزماً يومئذ يعني يوم حربهم. وقال الكلبي[١]: يعني يوم بدر خاصة. ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ يعني مستطرداً للكرة يريد الكرة للقتال ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾ يعني ينحاز من فئة إلى فئة من أصحابه يمنعونه عن العدو. قال أهل اللغة[٢] تحوزت وتحيزت أي: انضممت إليه ومعناه إذا كان منفرداً فينحاز ليكون مع المقاتلة. ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وفي الآية تقديم، يعني ومن يولهم يومئذ دبره فقد باء بغضب من الله، أي استوجب الغضب من الله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة. وروي عن الحسن أنه قال: كان هذا يوم بدر وغيره، وعن الضحاك قال: هذا يوم بدر خاصة لأنه لم يكن لهم فئة ينحازون إليها، وعن داود بن أبي هند عن أبي[٣] نضرة قال: نزلت يوم بدر لأنهم لم ينحازوا إلا إلى المشركين، لم يكن في الأرض مسلمون غيرهم. وقد قال بعضهم بأن الآية غير منسوخه، لأنه لا يجوز للواحد أن يهرب من الاثنين وأن يهرب من الجماعة، وإذا لم يكن معه سلاح جاز له أن يهرب ممن معه سلاح، وإذا لم يكن رامياً جاز له أن يهرب من الرامي. فإذا كان عدد المسلمين نصف عدد الكفار ومعهم سلاح لا يجوز لهم أن يهربوا

(١) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٣٨.
(٢) انظر ترتيب القاموس ١/٧٣٦.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٧٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

منهم، وإذا كان المسلمون اثني عشر ألفاً ومعهم سلاح لا يجوز لهم أن يهربوا من الكفار وإن كانوا مائة ألف، لأنه روي عن رسول[1] الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة إذا كانت كلمتهم واحدة. فينبغي لهم أن يجعلوا كلمتهم واحدة ويقاتلوهم حتى ينصرهم الله تعالى. والآية نزلت في الذي لا يجوز له الهرب. وروى سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي المغيث[2] عن أبي هريرة عن النبي[3] ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات. قيل وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات. قوله تعالى

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يقولون قتلنا فلاناً وقتلنا فلاناً. فأراد الله تعالى أن لا يعجبوا بأنفسهم فقال: «فلم تقتلوهم» يقول فما قتلتموهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ يعني الله تعالى نصركم عليهم وأمدكم بالملائكة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ يعني الله تعالى[4] تولى ذلك وذلك حين رمى النبي عليه السلام قبضة من التراب فملأ الله تعالى أعينهم بها فانهزموا. قال الله تعالى «وما رميت» يعني: لم تصب رميتك ولم تبلغ ذلك المبلغ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ تعالى: تولى ذلك ويقال: رمى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد بالحربة فأصاب أبي بن خلف الجمحي فقتله. قرأ حمزة والكسائي[5] وَلَكِنِ اللَّهُ رمى بكسر النون والتخفيف اللَّهُ بالضم وكذلك في قوله ولكِنِ اللَّهُ قتلهم. وقرأ الباقون بنصب النون مع التشديد ونصب ما بعده، (وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) . ثم قال ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾ يعني لينصرهم نصراً جميلاً ويختبرهم بالتي هي أحسن، ويقال ولينعم المؤمنين نعمة بينة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني سميع لدعاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليم بإجابته. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الهلاك والهزيمة للكفار، ويقال معناه الأمر من ربكم. ثم إبتدأ فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني مضعف كيد الكافرين يعني: صنيع الكافرين ببدر. قرأ إبن كثير ونافع وأبو عمرو[6] مُوَهِّنٌ كَيْدَ الكافرين بنصب الواو والتشديد

(١) أخرجه أبو داود ٣/٣٦ في الجهاد باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا (٢٦١١)، وأخرجه الترمذي (١٥٥٥) وأحمد في المسند ١/٢٩٤، ٢٩٩، وابن خزيمة (٢٥٣٨)، وعبد الرزاق (٩٦٩٩)، والحاكم في المستدرك ١/٤٤٣، ٢/١٠١.

(٢) سالم المدني مولى ابن مطيع روى عن أبي هريرة وعنه ثور بن يزيد الديلي وخلق وثقه ابن سعد ذكره ابن حيان في الثقات. انظر التهذيب ٣/٤٤٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥/٣٩٣ وذكره ابن حبان في الثقات. انظر التهذيب ٣/٤٤٥.

(٤) أخرجه البخاري ٥/٣٩٣ في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم ١/٩٢ في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (١٤٥/ ٨٩).

(٥) سقط في أ.

(٦) حجة القراءات ٣٠٩، وسراج القارىء ٢٣٣.

(٧) انظر حجة القراءات ٣٠٩، سراج القارىء ٢٣٤.

منونة. كَيْدَ بنصب الدال وقرأ عاصم في رواية حفص مُوهِنُ كَيْدَ بضم النون بغير تنوين، كَيْدِ بكسر الدال على معنى الإضافة. وقرأ الباقون مُوهِنٌ كَيْدَ: بالتنوين والتخفيف كَيْدَ بالنصب فالموُهِنُ والمُوهَنُ واحد، ويقال وهنت الشيء وأوهنته إذا جعلته واهناً ضعيفاً. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يقول إن تستنصروا فقد نصركم الله حين قلتم، وذلك أن أبا جهل بن هشام قال: اللهم انصر أحب الدينين وأحب الجندين وأحب الفئتين إليك، فاستجيب دعاؤه على نفسه وعلى أصحابه. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن قتاله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من قتاله ويقال إن أهل مكة حين أرادوا الخروج إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم أي الفئتين أحب إليك فانصرهم فنزل إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا عن قتال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن الكفر (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) من الإقامة عليه ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لقتال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿نَعُدْ﴾ على القتل والأسر والهزيمة ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ يعني جماعتكم ﴿شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ في العدد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني معين لهم وناصرهم قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين[1] وأَنَّ اللَّهَ بالنصب. والباقون بالكسر (وإِنَّ اللَّه) على معنى الاستئناف ويشهد لها قراءة عبد الله بن مسعود واللَّهُ مع المؤمنين ثم قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر الغنيمة والصلح ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ يعني لا تعرضوا عن أمره، ويقال عن طاعته، ويقال عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ المواعظ في القرآن وفي أمر الصلح، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني لم يفهموا ولم يتفكروا فيما سمعوا، ويقال قوله: ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا يعني: وهم لا يسمعون يعني: لا يطيعون. قال الكلبي وهم بنو عبد الدار لم يسلم منهم إلا رجلان، مصعب بن عمير وسويد بن حرملة، وقال الضحاك ومقاتل: أي سمعنا الإيمان وهم لا يسمعون يعني: المنافقين ثم قال تعالى:

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني شر الناس. عند الله ﴿الصُّمُّ﴾ عن الهدى ﴿الْبُكْمُ﴾ يعني الخرس الذين لا يتكلمون بخير ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الإيمان يعني بني عبد الدار وغيرهم من الكفار، لم يسلموا. قوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾ يقول لو علم الله تعالى فيهم صدقاً لأعطاهم الإيمان وأكرمهم به ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ يعني لو أكرمهم بالإسلام ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني أعرضوا عن الإيمان بما سبق في علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون. وقال الزجاج معناه ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم الجواب عن كل ما يسألون عنه ولو أسمعهم يعني لو

(١) انظر حجة القراءات ٣١٠، سراج القارىء ٢٣٤.

بين لهم كل ما يختلج في نفوسهم لأعرضوا عنه لمعاندتهم. قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ يعني أجيبوا الله بالطاعة، في أمر القتال ﴿وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ إلى القتال أو غيره، وإنّما قال إذا دعاكم ولم يقل إذا دعواكم لأن الدعوة واحدة. ومن يجب الرسول فقد أجاب الله تعالى. قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني القرآن الذي به حياة القلوب، ويقال لما يحييكم يعني يهديكم في أمر الحرب الذي يعزكم ويصلحكم ويقويكم بعد الضعف، ويقال لما يحييكم أي: يهديكم، ويقال لما يحييكم يعني لما يكون سبباً للحياة الدائمة في نعيم الآخرة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا فارس بن مردويه عن محمد بن الفضل عن أبي صالح مطيع عن حماد بن سلمة عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس[1] قال: يحول بين المؤمن ومعاصيه التي تسوقه وتجره إلى النار، ويحول بين الكافر وطاعته التي تجره إلى الجنة. ويقال تحول بين المرء وإرادته لأن الأمر لا يكون بإرادة العبد وإنما يكون بإرادة الله تعالى. كما قال أبو الدرداء:

يريد المرءُ أن يعطى مناه ويأبى الله إلاَّ ما أرادَا

ويقال: يحال بين المرء وأجله لأن الأجل حال دون الأمل. وقال سعيد بن جبير: يحول بين الكافر والإيمان وبين المؤمن والكفر[2]. وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه يعني: حتى يتركه ولا يفعله[3] ثم قال: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يعني في الآخرة فتثابون بأعمالكم. قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ قال مقاتل نزلت الآية في شأن عليّ وطلحة والزبير.

قال الفقيه: حدثنا عمر بن محمد قال حدثنا أبو بكر الواسطي قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا قبيصة عن سفيان عن جويبر عن الضحاك[4] في قوله تعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) قال نزلت في شأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. قال حدثنا عمر بن محمد قال حدثنا أبو بكر الواسطي قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو معاوية عن السدي عن المعلى عن أبي ذَر أن عمر رضي الله عنه أخذ بيده يوماً فغمزها فقال خل عني يا قفل الفتنة. فقال عمر ما قولك قفل الفتنة؟ قال إنك جئت ذات يوم فجلست في آخر القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تصيبنكم فتنة ما دام هذا فيكم. وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: جعلت أنا وعثمان فتنة لهذه الأمة. وقال بعضهم قوله لا تصيبن. هذا على وجه النهي. ومعناه اتقوا فتنة ثم نهى فقال لا تصيبن يعني الذين ظلموا منكم خاصة أي: لا يتعرض الذين ظلموا منكم خاصة لما نزل بهم. وقال بعضهم: هذا جواب الأمر بلفظ النهي مثل قوله تعالى: (لَا يحطمنكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنودُهُ) ثم قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لمن وقع في الفتنة. ثم ذكرهم النعم فقال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ يعني واحفظوا نعمة الله عليكم إذ كنتم قليلاً في العدد، وهم المهاجرون ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني مقهورون في أرض مكة ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يعني يختلسكم ويذهب بكم الكفار ﴿فَآوَاكُمْ﴾ بالمدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ بنصره يوم بدر. وقال قتادة[5] كانوا بين أسدين بين قيصر وكسرى يخافون أن يتخطفهم الناس وهم أهل فارس والروم والعرب

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٧٦ وعزاه لابن أبي حاتم وذكره أيضاً وعزاه لابن أبي شيبة وحشيش بن أصرم في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٧٠.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٧٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٧٧ وعزاه لابن المنذر وابن جرير وأبي الشيخ.

ممن حول مكة ثم قال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال وهو الغنيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني لكي تشكروا الله وتطيعوه وتعرفوا ذلك منه. قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ روى أسباط عن السدي[١] قال: كانوا يسمعون من النبي عليه السلام الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ)، ويقال كل رجل مؤتمن على ما فرض الله عليه إن شاء أداها وإن شاء خانها. وقال القتبي: الخيانة أن يؤتمن على شيء فلا يؤدي إليه. ثم سمى العاصي من المسلمين خائناً لأنه قد ائتمن على دينه فخان. كما قال في آية أخرى (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) ويقال نزلت[٢] الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة أن لا ينزلوا على حكم سعد وأشار إلى حلقه إنه الذبح. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني قريظة من بعد انصرافهم من الخندق ووقف بباب الحصن وفيه ستمائة رجل من اليهود وقد كانوا ظاهروا قريشاً على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداهم: يا إخوة القردة والخنازير انزلوا على حكم الله ورسوله. فقالت اليهود: يا محمد ما كنت فحاشاً قبل هذا، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة بن عبد المنذر فدخل على اليهود فركنوا إليه وقالوا: يا أبا لبابة أتأمرنا بالنزول إلى محمد صلى الله عليه وسلم فأشار بيده إلى حلقه يعني: إنه الذبح إن نزلتم إليه. فقال أبو لبابة: والذي نفسي بيده ما زالت قدماي من مكاني حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، وأوثق نفسه إلى سارية المسجد حتى أنزل الله تعالى توبته ونزل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ)﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ يعني لا تخونوا أماناتكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها خيانة. قال محمد بن إسحاق[٣] لا تخونوا الله والرسول يعني لا تظهروا له من الحق ما يرضى عنكم ثم تخالفوه في السر. قال فإن ذلك هلاكاً لأنفسكم وخيانة لأماناتكم. ثم قال عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني بلاء عليكم، لأن أبا لبابة إنما ناصحهم من أجل ماله وولده الذي كان عند بني قريظة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الجنة لمن صبر ولم يخن. قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني إن تطيعوا الله ولا تعصوه ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ يعني يجعل لكم مخرجاً في الدنيا ونجاة ونصراً في الدين، ويقال المخرج من الشبهات.

وقال مجاهد[٤]: مخرجاً في الدنيا والآخرة. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يقول يمحو عنكم ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني يستر ذنوبكم وعيوبكم ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني ذو الكرم والتجاوز عن عباده. قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وذلك أن نفراً من قريش اجتمعوا في دار الندوة، وكانت قريش إذا اجتمعوا للمشورة

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٨٣. (٢) انظر أسباب النزول ١٧٥. (٣) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٨٤.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٧٩ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.

والتدبير كانوا يجتمعون في تلك الدار، فاجتمعوا فيها وأغلقوا الباب لكيلا يدخل رجل من بني هاشم، ليمكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ويحتالوا في أمره، فدخل إبليس في صورة شيخ وعليه ثياب أطمار وجلس معهم فقالوا: من أدخلك أيها الشيخ في خلوتنا بغير إذننا؟ فقال: أنا رجل من أهل نجد، ورأيت حسن وجوهكم وطيب ريحكم فأردت أن أسمع حديثكم واقتبس منكم خيراً وقد عرفت مرادكم فإن كرهتم مجلسي خرجت عنكم. فقالوا هذا رجل من أهل نجد وليس من أرض تهامة لا بأس عليكم منه، فتكلموا فيما بينهم.

فقال عمرو بن هشام: أرى أن تأخذوه وتجعلوه في بيت وتسدوا بابه وتجعلوا له كوة لطعامة وشرابه حتى يموت. فقال إبليس بئس الرأي «الذي» رأيت تعمدون إلى رجل له فيكم أهل بيت وقد سمع به من حولكم فتحبسونه وتطعمونه، يوشك أهل بيته الذين فيكم أن يقاتلوكم أو يفسدوا جماعتكم. فقالوا صدق والله الشيخ. ثم تكلم أبو البحتري بن هشام. قال: أرى أن تحملوه على بعير ثم تخرجوه من أرضكم حتى يموت أو يذهب به حيث شاء. فقال إبليس عدو الله بئس الرأي الذي رأيت. تعمدون إلى رجل أفسد جماعتكم ومعه منكم طائفة فتخرجوه إلى غيركم فيأتيهم سوء فيفسد منهم أيضاً جماعة ويقبل إليكم ويكون فيه هلاككم. فقالوا صدق والله الشيخ. فقال أبو جهل: أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجل، ثم تعطونهم السيوف فيضربونه جميعاً. فلا يدري قومه من يأخذون وتؤدي قريش ديته. فقال إبليس. صدق والله هذا الشاب. فتفرقوا على ذلك. فأمر الله تعالى بالهجرة وأخبره بمكر المشركين. فنزلت هذه الآية[1]﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يعني ليحبسوك في البيت أوْ يقتلوك بالبيت ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً بن أبي طالب بأن يبيت في مكانه، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه، ونام عليّ مكانه وأهل مكة يحرسونه ويظنون أنه في البيت. ثم دخلوا البيت فإذا هو عليّ رضي الله عنه فقالوا: يا عليّ: أين محمد؟ فقال لا أدري فطلبوه فلم يجدوه ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ يعني ويمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويريدون به الشر ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ يعني يريد بهم الهلاك حين أخرجهم إلى بدر فقتلوا ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ يعني أصدق الماكرين فعلاً وأفضل الصانعين صنعاً وأعدل العادلين عدلاً. قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ يعني قد سمعنا قولك ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي مثل هذا القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ نزلت في شأن نضر بن الحارث[2] كان

(١) انظر تفسير البحر المحيط ٤/٤٨٧.
(٢) انظر أسباب النزول ١٥٨.

يحدث عن الأمم الخالية من حديث رستم وإسفنديار، فقال إن الذي يخبركم محمد مثل ما أحدثكم من أحاديث الأولين وكذبهم. فقال له عثمان بن مظعون اتق الله يا نضر فإنه ما يقول إلاّ حقاً. فقال النضر بن الحارث قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ يعني إن كان ما يقول محمد من القرآن حقاً ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ قال أبو عبيدة: كل شيء في القرآن أمطر فهو من العذاب، وما كان من الرحمة فهو مطر. وروى أسباط عن السدي[1] قال: قال النضر بن الحارث اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿أوِ ائْتِنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزل (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) فأستجيب دعاؤه وقتل في يوم بدر قال سعيد بن جبير[2] قتل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة صبراً النضر بن الحارث وطعمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط، وكان النضر أسره المقداد، فقال المقداد يا رسول الله أسيري فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه كان يقول في الله ورسوله ما يقول، فقال يا رسول الله أسيري فقال اللهم اغن المقداد من فضلك. فقال المقداد هذا الذي أردت فنزل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾. وكان ذلك القول من النضر حين كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة. فأخبر الله تعالى أنه لا يعذبهم وأنت بين ظهرانيهم حتى يخرجك عنهم كما أخرج الأنبياء قبلك عن قومهم ثم عذبهم. ثم قال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني يصلون لله الخمس وهم أهل الإيمان وقال مجاهد[3]: وهم يستغفرون يعني وهم مسلمون. ويقال وفيهم من يؤول مرة إلى الإسلام، ويقال وهم يستغفرون يعني: وفي أصلابهم من يسلم. وروي عن أبي موسى[4] الأشعري أنه قال: كان أمانان في الأرض رفع الله أحدهما وبقي الآخر. (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) وقال عطية[5]: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يعني المشركين حتى يخرجك منهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المؤمنين.

ثم عاد إلى ذكر المشركين فقال ﴿وَمَا لَهُمْ أَن لاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني بعد ما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني المشركين. قال الكلبي يعني ما كانوا أولياء المسجد الحرام، ويقال وما كانوا أولياء الله[6] ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني: ما كان أولياء الله إلا المتقون من الشرك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله تعالى. ثم قال ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ﴾ معناه وما لهم ألا يعذبهم الله وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ ﴿عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ يعني لم تكن صلاتهم حول البيت إلاّ مكاءً يعني إلا الصفير، وتصديةً يعني التصفيق باليدين[7] إذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام.

قرأ الأعمش (ما كان صَلاَتَهم) بالنصب إلاّ مكاءٌ وتصديةٌ بالضم. وهكذا قرأ عاصم في إحدى الروايتين. فجعل الصلاة خبر كان. وجعل المكاء والتصدية اسم كان وقرأ الباقون صَلاَتُهُمْ بالضم فجعلوه اسم كان. ومكاءً وتصديةً بالنصب على معنى خبر كان. ثم قال ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بتوحيد الله تعالى فأهلكهم الله تعالى في الدنيا ولهم عذاب الخلود في الآخرة قوله تعالى:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٠٢ وعزاه لابن أبي شيبة.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨١ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.
(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للترمذي وانظر تفسير الطبري ١٣/٥١٣.
(٥) انظر البحر المحيط ٤/٤٩٠.
(٦) انظر تفسير الخازن ٣/٢٥ وانظر تفسير البغوي ٢/٢٤٧.
(٧) انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٧.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم [(ليصدوا عن سبيل الله) يعني ليصرفوا الناس عن دين الله وطاعته][(١)] قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية في المطعمين يوم بدر، وهم الذين كانوا يطعمون أهل بدر حين خرجوا في طريقهم. قال الله تعالى ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ وكانوا ثلاثة عشر رجلاً أطعموا الناس الطعام فكان على كل رجل منهم يوماً، منهم أبو جهل وأخوه الحارث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وغيرهم. يقول الله تبارك وتعالى «فَسَيُنْفِقُونَهَا» ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يعني تكون نفقاتهم عليهم حسرة وندامة. لأنه تكون لهم زيادة العذاب فتكوى بها جنوبهم وظهورهم. وقال مجاهد[(٢)]: هو نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أحد. وقال الحكم[(٣)]: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقية ذهباً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ يعني يهزمون ولا تنفعهم نفقتهم شيئاً. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يعني إن القتل والهزيمة لم تكن كفارة لذنوبهم فيحشرون في الآخرة إلى جهنم. ثم قال تعالى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ يعني الخبيث من العمل والطيب من العمل ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾ قول الكلبي[(٤)]. وقال مقاتل: ليميز الله الكافرين من المؤمنين ويجعل في الآخرة الخبيثة أنفسهم ونفقاتهم وأقوالهم فيركم، بعضه على بعض جميعاً فيجعله في جهنم. ويقال ليميز الله الخبيث من الطيب بين نفقة المؤمنين ونفقة المشركين فيقبل نفقة المؤمنين ويثيبهم على ذلك ويجعل نفقة الكفار وبالاً عليهم ويجعل ذلك سبباً لعقوبتهم فتكوى بها جباههم. وقال القتبي فيركمه أي يجعله ركاماً بعضه على بعض ثم قال ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المغبونين في العقوبة.

قرأ حمزة والكسائي لِيُمَيِّزَ اللَّهُ بضم الياء مع التشديد والباقون لِيَميزَ بالنصب مع التخفيف. ومعناهما واحد. مَازَ يُمِيزُ ومَيَّزَ يُمَيِّزُ. قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ومن كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الشرك وعن قتال محمد وعن المؤمنين ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني يتجاوز عنهم ما

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٨.

سلف من ذنوبهم وشركهم ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتال محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ بنصرة أوليائه وقهر أعدائه، ويقال يعني القتل. بحذرهم بالعقوبة لكيلا يعودوا فيصيبهم مثل ما أصابهم. وقال الكلبي: فقد مضت سنة الأولين أن ينصر الله أنبياءه ومن آمن معهم كقوله (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) ثم حث المؤمنين على قتال الكفار فقال تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني لا يكون الشرك بمكة، ويقال حتى لا يتخذوا شركاء ويوحدوا ربهم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ يعني يظهر دين الإسلام ولا يكون دين غير دين الإسلام ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن الشرك وعن عبادة الأوثان وقتال المسلمين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فينبئهم بأعمالهم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني أبوا وأعرضوا عن الإيمان يا معشر المسلمين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ يعني حافظكم وناصركم. ثم قال ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني الحفيظ والمانع. قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ﴾ فعلمهم قسمة الغنيمة وجعل أربعة أخماسها للذين أصابوها وأمر بأن يقسم الخمس على خمسة أسهم. وقال بعضهم. على ستة أسهم. وقال أبو العالية[١] الرياحي: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة أسهم، أربعة لمن شهدها، ويأخذ الخمس فيجعله على ستة أسهم، سهم لله تعالى للكعبة [سهم الرسول وسهم لذوي القربى أي: قرابة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسهم لليتامى وسهم للمساكين][٢]، وسهم لابن السبيل، وقال بعضهم: سهم الله ورسوله واحد[٣]. وروى سفيان عن قيس بن مسلم قال: سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية عن قوله ﴿فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ فأن لله خمسه قال: هذا مفتاح الكلام لله الدنيا والآخرة. ثم قال وقد اختلف بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سهم الرسول وسهم ذوي القربى. فقال بعضهم[٤]: للخليفة، وقال بعضهم لقرابة الخليفة، فاجتمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والعدة في سبيل الله تعالى. فكانا كذلك في خلافة أبي بكر وعمر. وروى أبو يوسف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان الخمس على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم على خمسة أسهم، سهم الله ورسوله واحد، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وقسم بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبو بكر وعمر وعثمان

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٥ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير ١٣/٥٥٠ وابن المنذر وابن أبي حاتم وانظر تفسير البغوي ٢/٢٤٩.

(٢) سقط في ظ.

(٣) وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي والشعبي، انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٩.

(٤) وهو قول قتادة. انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٩.

وعليّ على ثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل. وبهذا أخذ أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابه أن الخمس يقسم على ثلاثة أسهم ولا يكون لأغنياء ذوي القربى شيء، ويكون لفقرائهم فيه نصيب كما يكون لسائر الفقراء، وكذلك يتاماهم وابن السبيل منهم. وذلك قوله ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ يجوز أن تكون متعلقة بقوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ إن كنتم آمنتم بالله عز وجل، ويجوز أن يكون معناه فاقبلوا ما أمرتم به من الغنيمة في الخمس إن كنتم آمنتم بالله يعني إذ كنتم صدقتم بتوحيد الله ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يعني وصدقتم بما أنزلنا على عبدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن يوم الفرقان، يعني يوم بدر. قال الكلبي أي: يوم النصرة ويوم بدر في أمر الغنيمة، فَرَّقَ بين الحق والباطل. وقال مقاتل: معناه وما أنزلنا من الفرقان يوم بدر فاقرُّوا بحكم الله تعالى في أمر الغنيمة. ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ يعني يوم جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني على نصرة المؤمنين وهزيمة الكافرين. ثم قال الله تعالى ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ يعني اذكروا هذه النعمة إذ كنتم بالعدوة الدنيا. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[1] بالعِدْوَةِ بالكسر. وقرأ الباقون بالضم ومعناهما واحد، وهو شفير الوادي، ويقال عِدْوَة الوادي وعُدْوته، يعني كنتم على شاطىء الوادي مما يلي المدينة، ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ يعني من الجانب الآخر مما يلي مكة، ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يعني العير أسفل منكم بثلاثة أميال على شاطىء البحر حين أقبلوا من الشام ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ يعني ولو تواعدتم أنتم والمشركون بالإجماع للقتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أنتم والمشركون ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع الله بينكم على غير ميعاد ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ يعني كائناً، وكان من قضائه هزيمة الكفار ونصرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه. قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليكفر من أراد الكفر بعد البيان له من الله تعالى ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ يقول ويؤمن من أراد أن يؤمن بعد البيان له من الله تعالى. وقال الكلبي: ليهلك من هلك على الكفر بعد البيان، ويحيى من حي بالإيمان عن بينة. ويقال هذا وعيد من الله تعالى لأهل مكة. يقول ليقم على كفره من أراد أن يقيم بعد ما بينت له الحق ببدر حين فرقت الحق من الباطل، ويحي يعني يقم على الإيمان من أراد أن يقيم بعد ما أرسلت إليه الرسول وأقمت عليه الحجة. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر، وابن كثير في رواية شبل البزي[2] مَنْ حَيِيَ بإظهار اليائين. والباقون بياء واحدة. وأصله بيائين إلا أن أحد الحرفين أدغم في الآخر لأنهما من جنس واحد ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قوله تعالى

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا

(١) انظر حجة القراءات ٣١٠ ـ ٣١١، سراج القارىء ٢٣٤.
(٢) انظر حجة القراءات ٣١١، سراج القارىء ٢٣٥.

تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى في المنام أن العدو قليل قبل أن يلتقوا فأخبر أصحابه بما رأى في المنام أن العدو قليل[1]. فقالوا رؤيا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق، والقوم القليل، فلما التقوا ببدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين لتصديق رؤيا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ثم قال ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ﴾ يعني لجبنتم وتركتم الصف ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني اختلفتم في أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ يعني ولكن الله أتم للمسلمين أمرهم على عدوهم. ويقال: سلم يعني قضى بالهزيمة على الكفار والنصرة للمؤمنين. ويقال: إذ يريكهم الله في منامك قليلاً يعني في عينك. لأن العين موضع النوم، أي في: موضع منامك. وروي عن الحسن[2] قال: معناه في عينيك التي تنام بها ثم قال ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني إني عالم بسرائركم. ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ يعني يوم بدر ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ في العدد. وروى أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود[3] قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة. حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال كما ألفاً. ثم قال ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ معشر المؤمنين في أعين المشركين وذلك حين لقوا العدو، قلل الله المشركين في أعين المؤمنين لكيلا يجبنوا وقلل المؤمنين في أعين المشركين ليزدادوا جرأة على القتال حتى قتلوا ولكي يظهر الله عندهم فضل المؤمنين ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ يعني إذا قضى الله تعالى أمراً فهو كائن، وهو النصرة للمؤمنين والذل لأهل الشرك بالقتل والهزيمة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يعني: عواقب الأمور في الآخرة. ثم حرض المؤمنين على القتال فقال: تبارك وتعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ يعني جماعة من الكفار فاثبتوا لهم وقاتلوهم مع نبيكم ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ يعني في الحرب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني تفوزون به ثم قال الله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمركم من القتال ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ يعني: لا تختلفوا فيما بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ يعني فتجبنوا من عدوكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. قال مجاهد[4]: يعني نصرتكم، وذهب ريحهم يوم أحد حين نازعتموه. وقال الأخفش: يعني دولتكم. وقال قتادة[5] ريح الحرب. وأصله في اللغة تستعمل في الدولة، ويقال الريح له اليوم يراد به الدولة. ثم قال ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يعني لقتال عدوكم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني معين لهم وناصرهم. ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا﴾ معناه قاتلوا لوجه الله تعالى. ولا تقاتلوا رياءً وسمعةً ولا تكونوا يا أصحاب النبي ـ عليه السلام ـ كالذين خرجوا ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم أهل مكة ﴿بَطَراً﴾ يعني أشراً وأصله الطغيان في النعمة ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ يعني لكي يذْكروا بمسيرهم ويقولوا تسامع الناس بمسيرنا. وقال محمد بن إسحاق: خرجت قريش وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً ومعهم مائتا فرس يقودونها وخرجوا ومعهم القيّنات يضربون بالدفوف ويغنون بهجاء المسلمين. ثم قال ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني يصرفون الناس عن دين الإسلام ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني: عالم بهم وبأعمالهم. قوله تعالى

---

(١) ذكر ذلك البغوي عن مقاتل انظر اتفسير ٢/٢٥٢.

(٢) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٩ وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه وانظر تفسير الطبري ١٣/٥٧٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٨٩ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير ١٣/٥٧٦ وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/٥٧٢.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: مسيرهم ومعناه أن خروجهم لما كان للشيطان زين لهم الشيطان أعمالهم وذلك أن أهل مكة لما وجدوا العير أرادوا الرجوع ألى مكة فأتاهم إبليس على صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني فقال لهم لا ترجعوا حتى تستأصلوهم فإنكم كثير وعدوكم قليل ثم قال ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني لا يطيقكم أحد لكثرتكم وقوتكم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ يعني اجتمع الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أي: راجعاً وراءه فقال له الحارث بن هشام[1] أين ما ضمنت لنا؟ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ فقال له الحارث وهل ترى إلا جعاشيش أهل يثرب، والجعاشيش جمع جعشوش وهو الرجل الحقير الدميم القصير فقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. قال ابن عباس[2]: خاف إبليس أن يأخذه جبريل أسيراً فيعرفه الناس فيراه الكفار فيعرفونه بعد ذلك فلا يطيعونه، ولم يخف على نفسه الموت والقتل لأنه كان يعلم أن له بقاء إلى يوم ينفخ في الصور، قال إبليس إني أرى ما لا ترون أي أرى جبريل معتجراً بردائه يقود الفرس، فلما تولى قالوا هزم الناس سراقة، فسار سراقة بعد رجوعهم إلى مكة وقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم. فقالوا له ألم تأتنا يوم كذا وكذا؟ فخلف أنه لم يحضر. فلما أسلموا علموا أنه كان إبليس. وقال مقاتل: لم يجتمع جمع قط منذ كانت الدنيا أكثر من يوم بدر وذلك أن إبليس جاء بنفسه وحضرت الشياطين وحضر كفار الجن كلهم وتسعمائة وخمسون من المشركين وثلاثمائة وثلاثة عشر من المؤمنين، وتسعون من مؤمني الجن وألف من الملائكة وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه السورة كان يقول: طوبى لجيش كان قائدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومبارزهم أسد الله، وجهادهم في طاعة الله ومددهم ملائكة الله وجارهم أمين الله وثوابهم رضوان الله. قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني شكاً ونفاقاً. قال الحسن[3]: هم قوم من المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أبيّ وأصحابه. ويقال معناه. إذ يقول المنافقون وهم الذين في قلوبهم مرض. قال ابن عباس[4]: نزلت الآية في الذين أسلموا بمكة وتخلفوا عن الهجرة فأخرجهم أهل مكة إلى بدر كرهاً. فلما رأوا قلة المؤمنين ارتابوا ونافقوا وقالوا لأهل مكة ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ وقاتلوا مع المشركين فقتل عامتهم. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني يثق بالله ولا يثق بغيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بالنقمة ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بهزيمة المشركين. فلما قتلوا ضربت

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٤/٩.
(٢) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٥.
(٣) ذكره السيوطي في الدر ٣/٩١ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن المنذر.
(٤) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٥.

الملائكة وجوههم وأدبارهم فنزل ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني ولو ترى يا محمد إذ يتوفى الذين كفروا، يعني حين يقبض أرواح الذين كفروا ﴿الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ عند قبض أرواحهم ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ﴿وَ﴾ يقول لهم الملائكة يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ولم يذكر الجواب لأن في الكلام دليلاً عليه ومعناه لو رأيت ذلك لرأيت أمراً عظيماً. قرأ ابن عامر إذ تَتَوَفَّى الذين بلفظ التأنيث وقرأ الباقون[1] يَتَوَفَّى بلفظ التذكير. وروي عن ابن مسعود أنه كان يُذَكِّر الملائكة في جميع القرآن خلافاً للمشركين بقولهم الملائكة بنات الله. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني ذلك العذاب بما قدمت أيديكم من الكفر والتكذيب وبترككم الإيمان ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يقول لم يعذبهم بغير ذنب ثم قال عز وجل:

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني صنيعهم كصنيع آل فرعون، ويقال كأشباه آل فرعون في التكذيب والجحود ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الخالية ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني جحدوا بعذاب الله في الدنيا أنه غير نازل بهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني عاقبهم وأهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وشركهم ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يعني: قوي في أخذه، شديد العقاب لمن عصاه. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ في الدين والنعم، فإذا غيروا غير الله عليهم ما بهم من النعم، وهذا قول الكلبي. وروى أسباط عن السدي[2] في قوله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم. قال أنعم الله تعالى بمحمد ـ عليه السلام ـ على أهل مكة وكفروا به فنقله إلى الأنصار. ويقال أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف فلم يشكروا فجعل لهم مكان الأمن الخوف ومكان الرخاء الجوع. وهذا كقوله (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً) إلى قوله (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ). وقال الضحاك: ما عذب الله قوماً قط وسلبهم النعم ولا فرق بينهم وبين العافية حتى كذبوا رسلهم فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل وسلبهم العز فذلك قوله تعالى: ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ثم قال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لمقالتهم، عليم بأفعالهم ثم قال ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ في الهلاك ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني بكفرهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: فرعون لإدعائه الربوبية وآله لأنهم عبدوا غيري ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني مشركين، ومعناه كصنيع آل فرعون قد أعطاه الله تعالى الملك والعز في الدنيا ولم يغير عليه تلك النعمة حتى كذب بآيات الله فغير الله عليه النعمة وأهلكه مع قومه.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ

---

(١) حجة القراءات ٣١١، وسراج القارىء ٢٣٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٦١ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني شر الناس. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في بني قريظة[1]، كعب بن الأشرف وأصحابه لأنهم عاهدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نقضوا العهد وأعانوا أهل مكة بالسلاح على قتال النبي ـ عليه السلام ـ. ثم قالوا نسينا وأخطأنا، فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ نقض العهد قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ يقول إن تظفر بهم في الحرب يعني في القتال، ويقال إن أدركتهم في القتال ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ يقول نكل بهم في العقوبة ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ يعني ليتّعظ بهم من بعدهم الذين بينك وبينهم عهد، ويقال افعل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يفرق به من رواءهم من أعدائك. وقال أبو عبيدة: «فشرد بهم» إنها لغة لقريش سمع بهم أي خوف والتشريد في كلامهم التشريد والتفريق ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني: النكال فلا ينقضون العهد. قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ يعني وإن علمت من قوم نقض العهد، والخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة، وسمي ناقض العهد خائناً لأنه اؤتمن بالعهد فغدر ونكث ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: فأعلمهم بأنك قد نقضت العهد وأعلمهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء. وقال القتبي إذا أردت أن تعرف فضل العربية على غيرها فانظر في الآية وقد ترجموا سائر الكتب، ومن أراد أن يترجم القرآن إلى لغة أخرى فلا يمكنه ذلك، لأنك لو أردت أن تنقل قوله وإما تخافن من قوم خيانة لم تستطع بهذا اللفظ ما لم تبسط مجموعها وتظهر مستورها فتقول إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضاً، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ يعني الناقضين للعهد. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعين لا يظنن الذين كفروا من العرب وغيرهم من الذين جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿سَبَقُوا﴾ يعني فاتوا بأعمالهم الخبيثة ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ يقول لن يفوتوا الله تعالى حتى يعاقبهم. ويقال لا يجحدون الله تعالى عاجزاً عن عقوبتهم. قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص (ولا يَحْسَبَنَّ) بالياء على وجه المغايبة ونصب السين، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر[2] (ولا تَحْسَبَنَّ) بالتاء على وجه المخاطبة ونصب السين، وقرأ الباقون على وجه المخاطبة وكسر السين. وقرأ ابن عامر[3] (أَنَّهُم) بالنصب على معنى البناء. وقرأ الباقون بالكسر على معنى الابتداء. فمن قرأ بالنصب معناه لأنهم لا يعجزون يعني لا يفوتون. وقرأ بعضهم بكسر النون (لا يُعْجِزُونِ) يعني لا يعجزونني وهي قراءة شاذة. قوله تعالى:

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ

(١) ذكر ذلك البغوي عن الكلبي انظر التفسير ٢/٢٥٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٣١٢، وسراج القارىء ٢٣٥.

(٣) انظر حجة القراءات ٣١٢ سراج القارىء ٢٣٥.

لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ﴾ يعني السلاح. وروى عقبة بن عامر[1] أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ على المنبر وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة «قال ألاَ إنَّ القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ثلاثاً. وفي خبر آخر: وزيادة لهو المؤمن في الخلاء وقوته عند القتال. وروي عن عكرمة[2] قال: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. قال الحصون. ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ قال الإناث من الخيل ثم قال ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي: تخوفون بالسلاح ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني تخوفون بالسلاح كفار العرب ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ يعني بني قريظة ثم قال ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ يعني لا تعرفونهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم ويعرفكم فأعدوا لهم أيضاً. وقال مقاتل[3]: وآخرين من دونهم أي من دون كفار العرب يعني اليهود. وقال السدي[4]: وآخرين من دونهم أهل فارس. ثم قال ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني السلاح والخيل ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً. ويقال إن الجن لا تدخل بيتاً فيه قوس وسهام قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ يقول إن أرادوا الصلح ومالوا إليه ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ يعني مل إليها، يعني صالحهم. قرأ عاصم[5] في رواية أبي بكر وإن جنحوا للسِّلْمِ بالكسر، وقرأ الباقون بالنصب (للسَّلْم) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يقول ثق بالله وإن نقضوا العهد والصلح فإني أنصرك ولا أخذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني سميع بمقالتهم، عليم بنقض العهد. قال الفقيه: إنما يجوز الصلح إذا لم يكن للمسلمين قوة القتال. فأما إذا كان للمسلمين قوة فلا ينبغي أن يصالحوهم وينبغي أن يقاتلوهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية إن لم يكونوا من العرب، وإنّما لم توضع الجزية على العرب وتوضع على غيرهم حتى لا تبقى بقية كفر في أنساب النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن العرب كلهم من نسبه ولا توضع حتى يسلموا أو يقتلوا، إنما أمر الله تعالى نبيه بالصلح حين كانت الغلبة للمشركين وكانت بالمسلمين قلة. ثم قال ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح يعني يهود بني قريظة أرادوا أن يصالحوك لتكف عنهم حتى إذا جاء مشركو العرب أعانوهم عليك. قال الله تعالى ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ يعني إن أرادوا إن يخدعوك فإن حسبك الله بالنصرة لك ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ أي: وأعانك وقواك ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الأنصار وهم قبيلتان، الأوس والخزرج. قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني لين قلوبهم من العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني ما قدرت أن تؤلف بينهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالإسلام ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ حكم بالألفة بين

(١) أخرجه مسلم ٣/١٥٢٢ في الإمارة باب فضل الرمي (١٦٧/ ١٩١٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٩٢ وعزاه لأبي الشيخ والبيهقي في الشعب وانظر تفسير الطبري ١٤/٣١، وانظر تفسير البغوي ٢/٢٥٩.

(٣) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٩.

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) انظر حجة القراءات ٣١٢، سراج القارىء ٢٣٥.

الأنصار بعد العداوة، وحكم بالنصرة على أعدائه. وروى أبو أسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود[١] قال: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وقال عبد الله: المؤمن متآلف يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ يعني: حسبك الله بالنصرة والعون لك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال بعضهم مَنْ في موضع رفع ومعناه وحسبك من اتبعك من المؤمنين وهم الأنصار ويقال يعني عمر بن الخطاب. ويقال هذه الآية خاصة من هذه السورة نزلت بمكة حين أسلم عمر، وكان المسلمون تسعة وثلاثين. فلما أسلم عمر، تم عددهم أربعون وظهر الإسلام بمكة بإسلام عمر. وقال بعضهم: من في موضع النصب، يعني حسبك ومن اتبعك من المؤمنين وقال الضحاك: ومن آتبعك من المؤمنين حسبهم الله وهو ناصرهم في الدنيا والآخرة. ثم قال عز وجل ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ يعني حثهم على قتال الكفار ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ﴾ يعني محتسبين في الجهاد ﴿يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ﴾ يعني يقاتلوا مائتين ويثبتوا على القتال لينصرهم الله ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكِمْ مِائَةٌ﴾ يعني محتسبة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أمر الله تعالى. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[٢]. فإن يكن منكم مائة. صابرة يغلبوا ألفاً يوم بدر. جعل على كل رجل منهم قتال عشرة فرفعوا أصواتهم بالدعاء فضجوا فجعل على كل رجل قتال رجلين تخفيفاً من الله وهو قوله ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ يعني هوَّن الله عليكم القتال الذي افترضه عليكم يوم بدر ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ يعني عجزاً عن القتال ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ يعني محتسبه صادقة ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ من المشركين ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ من المشركين ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: بأمر الله تعالى وبنصرته ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر لهم على عدوهم. وقال مقاتل: لم يكن فريضة ولكن كان تحريضاً فلم يطق المؤمنون فخفف الله عنهم بعد قتال بدر فنزل (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال فرض على المسلمين أن لا يفر رجل من عشرة، ولا عشرة من مائة فجهد الناس وشق عليهم فنزلت هذه الآية الأخرى «الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ» ففرض عليهم أن لا يفر رجل من رجلين ولا قوم من مثلهم فنقص من النصرة بقدر ما نقص من العدد. وروى عطاء عن ابن عباس[٣] قال: من فر من رجلين

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/٤٧ وابن المبارك في الزهد (٣٦٣) وابن أبي الدنيا في الإخوان (١٤) والبزاز كما في الكشف (٢٢١٥) والحاكم في المستدرك ٢/٣٢٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٠١ وعزاه لأبي الشيخ وانظر تفسير الطبري ١٤٥/ ٥٤.

(٣) أخرجه الطبري مرفوعاً ١١/٩٣ وذكره البيهقي في المجمع ٥/٢٣١ ـ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأخرجه موقوفاً كما في الدر ٣/٢٠٠ ابن المنذر وابن أبي حاتم.

فقد فر ومن فر من ثلاثة لم يفر. قال الفقيه: إذا لم يكن معه سلاح ومع الآخر سلاح جاز له أن يفر. لأنه ليس بمقاتل. قوله تعالى:

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

﴿مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ يقول ما ينبغي وما يجوز لنبي أن يبيع الأسارى. يقول لا يقبل الفدية عن الأسارى ولكن السيف ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: حتى يغلب في الأرض على عدوه. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر[1] فإن تكن كلاهما بالتاء بلفظ التأنيث لأن لفظ المائة جماعة العدد مؤنث. وقرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو الأولى خاصة بالياء والأخرى بالتاء. وقرأ الباقون كليهما بالياء بلفظ التذكير لأن الفعل مقدم. وقرأ حمزة وعاصم[2] وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً بنصب الضاد وجزم العين. وقرأ الباقون بضم الضاد ومعناهما واحد. ضَعْف وضُعْف وهما لغتان. وقرأ بعضهم ضُعَفاً بضم الضاد ونصب العين وهي قراءة أبي جعفر المدني يعني عجزة. قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني أتريدون عرض الدنيا وهي الفداء؟ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسروا الأسارى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما. ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ قال أبو بكر: هم بنو العم والعشيرة أرى لهم أن تأخذ منهم الفدية فتكون لنا عدة على الكفار ولعل الله يهديهم الإسلام. وقال عمر أرى أن تمكننا منهم فنضرب أعناقهم. فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يفعل ما قال أبو بكر. قال عمر: فلما كان من الغد جئت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان. فقلت يا رسول الله من أي شيء تبكي؟ فقال أبكي للذي عرض عليَّ لأصحابك من أخذهم الفداء. فنزل «مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى»[3]. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه أحد غير عمر. قرأ أبو عمرو[4] أَنْ تَكُونَ لَهُ أَسْرَى بلفظ التأنيث. والباقون بلفظ التذكير لأن الفعل مقدم. ثم قال ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ يعني عز الدين ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز في ملكه حكيم في أمره. قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يقول لولا أن الله أحل الغنائم لأمة محمد ـ عليه السلام ـ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ يعني لأصابكم فيما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم طيبها لهم وأحلها لهم فقال عز وجل ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾ وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لم تحل الغنيمة لقوم سود الرؤوس قبلكم. كان تنزل نار من السماء فتأكلها حتى كان يوم بدر فوقعوا في الغنائم فأحلت لهم فأنزل الله تعالى لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ.[5] وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أعطيت خمساً لم يعطها[6] أحد قبلي. بعثت إلى الناس كافة، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وجعلت

---

(١) انظر حجة القراءات ٣١٣، سراج القارىء ٢٣٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٣١٣، سراج القارىء ٢٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٢٥٣ في التفسير (٣٠٨٤) وانظر أسباب النزول ١٦٠.

(٤) انظر حجة القراءات ٣١٣، سراج القارىء ٢٣٥.

(٥) انظر تفسير الطبري ١٤/٦٦. (٦) تقدم.

لي شفاعة لأمتي يوم لقيامة. وروى الضحاك في قوله تعالى «مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى» قال إنه لما كان يوم بدر ووقعت الهزيمة على المشركين، أسرع أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أخذ أسلاب المشركين، ممن قتل منهم وأخذ الغنائم وفداء الأسرى وشغلوا أنفسهم بذلك عن القتال. فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله: ألا ترى إلى ما يصنع أصحابك؟ تركوا قتال العدوا وأقبلوا على أسلابهم وإني أخاف أن تعطف عليهم خيل من خيل المشركين. فنزل «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» يعني أتطلبون الغنائم وتتركون القتال «وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» يعني قهر المشركين وإظهار الإسلام «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» لولا ما سبق في الكتاب يعني أن الغنائم تحل لهذه الأمة لأصابكم عذاب عظيم. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[1] لو نزل من السماء عذاب ما نجا أحد غير عمر لأنه لم يترك القتال. وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (لولا كتاب من الله سبق) قال سبقت من الله الرحمة لهذه الأمة قبل أن يعملوا بالمعصية[2]. وقال الحسن: سبقت المغفرة لأهل بدر[3]. وعن الحسن أنه قال: لولا كتاب من الله سبق. قال: في الكتاب السابق من الله تعالى أن لا يعذب قوماً إلا بعد قيام الحجة عليهم. وقال سعيد بن جبير لولا ما سبق لأهل بدر من السعادة لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ من الفداء عَذَابٌ عَظِيمٌ ويقال لولا كتاب من الله سبق أن لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون[4]. ثم قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ولا تعصوه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي متجاوز يعني: ذو تجاوز فيما أخذتم من الغنيمة قبل حلها وحين إذ أحلها لكم.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾.. قرأ أبو عمرو[5] من الأسارى بالضم وزيادة الألف وقرأ الباقون الأسرى بالنصب بغير الألف... فمن قرأ الأسرى فهو جمع الأسير يقال أسير وأسرى مثل جريح وجرحى ومريض ومرضى وقتيل وقتلى من قرأ الأسارى فهو جمع الجمع ويقال هما لغتان بمعنى واحد وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما وضع الفداء على كل إنسان من الأسارى أربعين أوقية من الذهب فكان مع العباس عشرون أوقية من ذهب فأخذها منه ولم يحسبها من فدائه وكان قد خرج بها معه ليطعم بها أهل بدر مَن المشركين لأنه أحد الثلاثة عشر الذين ضمنوا أطعام أهل بدر وقد جاءت نوبته فأراد أن يطعمهم فاقتتلوا يومئذ فلم يطعمهم حتى أخذ وأخذ ما معه فكلم العباس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل العشرين أوقية من فدائه فأبى عليه وقال هذا شيء خرجت لتستعين به علينا فلا نتركه لك فوضع عليه فدائه وفدى ابن أخيه عقيل فقال العباس تترك عمك يسأل الناس بكفه فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أين الذهب الذي أعطيت لأم الفضل وقلت لها كيت وكيت فقال له من أعلمك بهذا يا ابن أخي قال الله أخبرني فأسلم العباس وأمر ابن أخيه أن يسلم فنزل قل لمن في أيديكم من الأسارى يعني: العباس وابن أخيه ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ يعني معرفة وصدقاً وإيماناً كقوله «لن يؤتيهم الله خيراً» أي إيماناً ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ يعني يعطيكم في الدنيا أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿ويغفر

---

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض ٢/٣٦٤.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير ١/٥٣١ وزاد السيوطي في الدر ٣/٢٠٣ لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) انظر البحر المحيط ٤/٥١٩. (٤) انظر تفسير الطبري ١٤/٦٨. (٥) انظر النشر ١/٢٧٧.

لكم﴾ ذنوبكم **﴿والله غفور﴾** لما كان منكم في الشرك **﴿رحيم﴾** بكم في الإسلام روى سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال بعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البحرين بثمانين ألفاً ما آتاه من مال أكثر منه لا قبل ولا بعد قال فنثرت على حصير ونودي بالصلاة فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمثل على المال قائماً، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضاً. قال فجاء العباس فقال يا رسول الله أعطيت فدائي وفداء عقيل يوم بدر، ولم يكن لعقيل مال فأعطني من هذا لمال. قال خذ من هذا المال. قال فجثا في خميصته وهب فأراد أن يقوم فلم يستطع فرفع رأسه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله ارفع عَلَيَّ. فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أعد من المال طائفة وقم بما تطيق قال ففعل. فجعل العباس يقول وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله تعالى فقد أنجزها فلا ندري ما يصنع في الأخرى وهو قوله **﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**. وعن أبي صالح أنه قال: رأيت للعباس بن عبد المطلب عشرين عبداً كل واحد منهم يتجر بعشرة آلاف. قال العباس أنجزني الله أحد الوعدين فأرجو أن ينجز الوعد الثاني. ويقال يؤتكم خيراً مما أخذ منكم يعني الجنة. قوله تعالى:

وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ يعني خلافك ويميلوا إلى الكفر بعد الإسلام **﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾** يعني عصوا الله وكفروا من قبل **﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾** يعني فأمكنك منهم وأظهرك عليهم يوم بدر حتى قهرتهم وأسرتهم **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾** بخلقه **﴿حَكِيمٌ﴾** حيث أمكنك منهم. يعني أن خانوك أمكنتك منهم لتفعل بهم مثل ما فعلت من قبل. قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾** يعني صدقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن **﴿وَهَاجَرُوا﴾** من مكة إلى المدينة أي: **﴿وَجَاهَدُوا﴾** العدو **﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** يعني في طاعته وفيما فيه رضاه. ثم ذكر الأنصار فقال **﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا﴾** يعني أووا ونصروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمهاجرين، يعني أنزلوهم وأسكنوهم ديارهم ونصروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسبق **﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾** يعني في الميراث وفي الولاية ليرغبهم في الهجرة. وكانت الهجرة فريضة في ذلك الوقت ثم قال **﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾** إلى المدينة **﴿مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾** في الميراث. قرأ حمزة[1] وِلَايَتِهِمْ بكسر الواو. وقرأ الباقون وَلَايَتِهِمْ بالنصب يعني النصرة. ومن قرأبالكسر فهو من الإمارة والسلطان. ثم قال: **﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾** يعني إلى المدينة. يا رسول: هل نعينهم إذا استعانوا بنا؟ يعني الذين آمنوا ولم يهاجروا. فنزل **﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾** يعني استعانوا بكم على المشركين فانصروهم **﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾** على من قاتلهم **﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾** يعني إلا أن يقاتلوا قوماً بينكم وبينهم عهد فلا تنصروهم عليهم وأصلحوا بينهم **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** في العون والنصرة قوله تعالى:

---

(١) انظر حجة القراءات ٣١٤ سراج القارىء ٢٣٦.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني في الميراث يرث بعضهم من بعض ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ يعني إن لم تفعلوا، يعني ولاية المؤمنين للمؤمنين والكافرين للكافرين ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بلية ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ يعني سفك الدماء. فافعلوا ما أمرتم واعرفوا أن الولاية في الدين. وقال الضحاك: والذين كفروا: يعين كفار مكة وكفار ثقيف بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه يعني إن لم تطيعوا الله في قتل الفريقين تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وقال مقاتل: وفي الآية تقديم وتأخير ومعناه وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا تفعلوه يعني إن لم تنصروهم على غير أهل عهدكم من المشركين تكن فتنة في الأرض. يعني كفر وفساد كبير في الأرض قم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أو الذين ءَاوَوْا﴾ يعني أنزلوا وأوطنوا ديارهم المهاجرين ﴿وَنَصَرُوا﴾ النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما سُمِّي المهاجرون مهاجرين لأنهم هجروا قومهم وديارهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقاً﴾ يعني صدقاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني ثواب حسن في الجنة. ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا هُمْ مِنْ بَعْدُ﴾ يعني من بعد المهاجرين ﴿وَهَاجَرُوا﴾ يعني من بعد المهاجرين ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ يعني على دينكم. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ يعني في الميراث من المهاجرين والأنصار. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة[٢] قال: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة وبالمؤاخاة التي آخى بينهم النبي - عليه السلام - وكانوا يتوارثون بالإسلام وبالهجرة وكان الرجل يسلم ولا يهاجر فلا يرثه أخاه. فنسخ ذلك بقوله «وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ» وروى الحسن بن صالح عن ابن عباس[٤] أنه قال: هيهات «هيهات» أين ذهب عبد الله بن مسعود: إنما كان المهاجرين يتوارثون دون الأعراب فنزل «وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ» ثم قال ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يعني في حكم الله. كقوله تعالى (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ) يعني حكم الله تعالى، ويقال في كتاب الله أي: مبين في القرآن، ويقال في كتاب الله يعني في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من قسمة المواريث وبما فرض عليكم من المواريث «والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد»

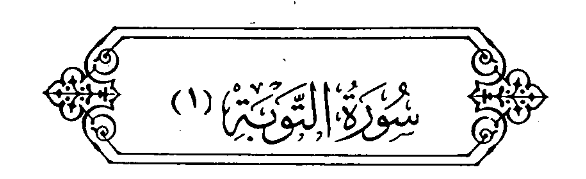
---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٢٩٧/٣ وعزاه لابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي عن ابن عباس في الدر ٢٠٧/٣ وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم.

(٤) انظر الدر المنثور ٢٠٧/٣.



مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال ابن عباس كلها مدنية وقال مقاتل مدنية إلا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية

---

(١) انظر من التحرير ١٠/٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠.

سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كلام السلف «سورة براءة» ففي الصحيح عن أبي هريرة في قصة حج أبي بكر بالناس قال أبو هريرة: (فأذّن معنا علي بن أبي طالب في أهل منى ببراءة) وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال (آخر سورة نزلت سورة براءة) وبذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه وهي تسمية لها بأول كلمة منها.

وتسمى سورة التوبة في كلام بعض السلف في مصاحف كثيرة فعن ابن عباس (سورة التوبة هي الفاضحة) وترجم لها الترمذي في جامعه باسم التوبة. ووجه التسمية: أنها وردت فيها توبة الله تعالى على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهو حدث عظيم.

ووقع هذا الاسمان معاً في حديث زيد بن ثابت في صحيح البخاري في باب جمع القرآن قال زيد (فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) حتى خاتمة سورة براءة.

وهذان الاسمان هما الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

ولهذه السورة أسماء أخر وقعت في كلام السلف من الصحابة والتابعين فروي عن ابن عمر عن ابن عباس: كنا ندعوها (أي سورة براءة) - المقشقشة (بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قشقشه إذا أبراه من المرض) كان هذا لقباً لها ولسورة (الكافرون) لأنهما تخلصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص ولما فيهما من وصف أحوال المنافقين.

وكان ابن عباس يدعوها (الفاضحة): قال ما زال ينزل فيها (ومنهم ومنهم) حتى ظننا أنه لا يبقى أحد إلا ذكر فيها.

وعن حذيفة: أنه سماها سورة العذاب لأنها نزلت بعذاب الكفار أي عذاب القتل والأخذ حين يثقفون.

وعن الحسن البصري أنه دعاها الحافرة كأنها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق فأظهرته للمسلمين.

وعن قتادة: أنها تسمى المثيرة لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها. وعن ابن عباس أنه سماها المبعثرة لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين أي أخرجتها من مكانها وفي الإتقان أنها تسمى المخزية - بالخاء والزاي المعجمة وتحتية من بعد الزاي وأحسب أن ذلك لقوله تعالى (إن الله مخزي الكافرين). وفي الإتقان أنها تسمى المنكّلة بتشديد الكاف. وفيه أنها تسمى المشدّدة. وعن سفيان أنها تسمى المدمدة بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك لأنها كانت سبب هلاك المشركين فهذه أربعة عشر اسماً.

وهي مدنية بالاتفاق قال في الإتقان: واستثنى بعضهم قوله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) الآية، ففي صحيح البخاري أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال (يا عم لا إله إلاّ الله كلمة أحاج لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية (يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب) فكان آخر قول أبي طالب: أنه على ملة عبد المطلب فقال النبي (لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عنك) وتوفي أبو طالب فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين).

وشذ ما روي عن مقاتل: أن آيتين من آخرها مكيتان وهما (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة وسيأتي ما روي أن قول =

قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق قال أخبرني أسامة قال حدثنا عوف بن أبي جميلة قال حدثني يزيد الفارسي وهو كاتب ابن عباس عن ابن [1] عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان ما حملكم على أن عدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المائين فقرنتموهما معاً ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان النبي ـ صلى الله عليه

= تعالى (أجعلتم سقاية الحاج) الآية نزل في العباس إذ أسر يوم بدر فعيّره علي بن أبي طالب بالكفر وقطيعة الرحم فقال: نحن نحجب الكعبة إلخ. وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة والشام والبصرة: مائة وثلاثون آية، وفي عدد أهل الكوفة مائة وتسع وعشرون آية.

افتتحت السورة بتحديد مدة العهود التي بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المشركين وما يتبع ذلك من حالة حرب وأمن وفي خلال مدة الحرب مدة تمكينهم من تلقي دعوة الدين وسماع القرآن.

وأتبع بأحكام الوفاء والنكث وموالاتهم.

ومنع المشركين من دخول المسجد الحرام وحضور مناسك الحج.

وإبطال مناصب الجاهلية التي كانوا يعتزون بأنهم أهلها.

وإعلان حالة الحرب بين المسلمين وبينهم.

وإعلان الحرب على أهل الكتاب من العرب حتى يعطوا الجزية وأنهم ليسوا بعيداً من أهل الشرك وأن الجميع لا تنفعهم قوتهم ولا أموالهم.

وحرمة الأشهر الحرام.

وضبط السنة الشرعية وإبطال النسيء الذي كان عند الجاهلية.

وتحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير للقتال في سبيل الله ونصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وذم المنافقين المتثاقلين والمعتذرين والمستأذنين في التخلف بلا عذر وصفات أهل النفاق.

وذكر أذاهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقول وأيمانهم الكاذبة وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف وكذبهم في عهودهم وسخريتهم بضعفاء المؤمنين.

والأمر بضرب الجزية على أهل الكتاب ومذمة ما أدخله الأحبار والرهبان في دينهم من العقائد الباطلة ومن التكالب على الأموال.

وأمر الله بجهاد الكفار والمنافقين.

ونهي المؤمنين عن الاستعانة بهم في جهادهم والاستغفار لهم.

ونهي نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الصلاة على موتاهم.

وضرب المثل بالأمم الماضية.

وذكر الذين اتخذوا مسجد الضرار عن سوء نية وفضل مسجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة.

وانتقل إلى وصف حالة الأعراب من محسنهم ومسيئهم ومهاجريهم ومتخلفهم.

وقوبلت صفات أهل الكفر والنفاق بأضدادهم صفات المسلمين وذكر ما أعد لهم من الخير.

وذكر في خلال ذلك فضل أبي بكر وفضل المهاجرين والأنصار.

والتحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

والجهاد وأنه فرض على الكفاية والتذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

والتنويه بغزوة تبوك وجيشها.

والذين تاب الله عليهم من المتخلفين عنها.

والامتنان على المسلمين بين أرسل فيهم رسولاً منهم جبله على صفات فيها كل خير لهم.

وشرع الزكاة ومصارفها والأمر بالفقه في الدين ونشر دعوة الدين. انظر التحرير ١٠/٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وأبي داود والترمذي وحسنه، والنسائي وابن أبي داود في المصاحف وابن المنذر والنحاس في ناسخه وابن حبان وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

وسلم ـ تنزل عليه السور ذوات العدد. فكان إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب له ويقول: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أول ما أنزل عليه بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتهما يشبه بعضها بعضاً فظننت أنها منها. وقبض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم وذكر الكلبي أنه قال: براءة من الأنفال فلذلك لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم وهي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين. وروي عن عليّ بن أبي[1] طالب أنه سئل عن ذلك فقال لأنها نزلت في السيف وليس في السيف أمان وبسم الله الرحمن الرحيم من الأمان. وروي عن عائشة[2] أنها قالت: نسي الكاتب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في أول هذه السورة فتركت على حالها. قوله تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي تبرؤ من الله ورسوله إلى من كان له عهد من المشركين، من ذلك العهد، ويقال براءة أي قطيع من الله ورسوله إلى من كان له عهد من المشركين من ذلك العهد. ويقال معناه هذه الآية براءة من الله ورسوله، ويقال هذه السورة براءة من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال ابن عباس، البراءة نقض العهد إلى الذين عاهدتم من المشركين يقول من كان بينه وبين رسول الله عهد فقد نقضه، وذلك أن المشركين نقضوا عهودهم قبل الأجل وأمر الله تعالى نبيه فيمن كان له عهد أربعة أشهر أن يقره إلى أن يمضي أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك أن يحطه إلى أربعة أشهر. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[3] قال: أقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج. ثم قال إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا في الناس بذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يجتمعون بها فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر وهي الأشهر الحرام ثم لا عهد لهم فذلك قوله تعالى ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ يعني فسيروا في الأرض أربعة أشهر آمنين غير خائفين ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ يعني غير سابقي الله بأعمالكم وغير فائتين بعد الأربعة الأشهر ومعناه إنكم وإن أجلتم هذه الأربعة الأشهر فلن تفوتوا الله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ يعني واعلموا أن الله ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ يعني مذل الكافرين ويقال معذب الكافرين في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. ثم قال عز وجل:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٠٩ وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) وهذا خبر باطل لا يصح بوجه الوجوه عن السيدة الطاهرة عائشة رضي الله عنها علاوة على أنه يصادم صريح القرآن الكريم فانظر إلى قوله تعالى: ﴿إن نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٠٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤﴾

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني إعلام من الله ورسوله. وروي عن أبي هريرة رضي[1] الله عنه أنه قال: كنت مع عليّ بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة ببراءة فقيل له ما كنتم تنادون قال كنا نادي إنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد فإن أجله إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج بعد العام مشرك . ويقال بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بكر ومعه عشر آيات وأمره أن يقرأها على أهل مكة، ثم بعث علياً وأمره أن يقرأ هذه الآيات. ويقال إنما أمر علياً بالقراءة لأن أبا بكر كان خفيض الصوت وكان عليّ جهوري الصوت فأراد أن يقرأ عليّ حتى يسمعوا جميعاً فذلك قوله تعالى: (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وروى الأعمش عن عبد الله بن أبي سنان قال خطبنا المغيرة[2] بن شعبة يوم النحر فقال هذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر. وقال[3] الحسن إنما سمي الحج الأكبر لأنه حج أبو بكر فاجتمع فيها المسلمون والمشركون ووافق أيضاً عيد اليهود والنصارى فلذلك سمي الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين في ذلك اليوم. وروي عن عليّ رضي الله عنه قال: الحج الأكبر يوم النحر وروي عن محمد بن قيس بن مخرمة أن النبي ـ عليه السلام ـ قال الحج الأكبر يوم عرفة. وإنما سمي يوم عرفة يوم الحج الأكبر لأنه يوقف بعرفة[4]. ويقال الحج الأكبر هو الحج والحج الأصغر هو العمرة. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما العمرة هي الحجة الصغرى. وقال ابن أبي أوفى الحج الأكبر يوم إهراق الدماء وحلق الشعر وهو يوم النحر. ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ يعني ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقرأ بعضهم ورسُولَهُ بنصب اللام ومعناه أن رسوله بريء من المشركين وهي قراءة شاذة ثم قال ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ يعني: رجعتم من الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الإقامة عليه ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني: أبيتم الإسلام وأقمتم على الكفر وعبادة الأوثان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ يعني: لن تفوتوا من عذابه. ثم قال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة إلى الأبد في النار. ثم استثنى الذين لم ينقضوا العهد فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾وهم بنو كنانة وبنو ضمرة﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ من عهودكم ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ يقول ولم يعاونوا عليكم أحداً ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ يعني: إلى إتمام أجلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون نقض العهد. قوله تعالى:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى (٢٩٥٨)، وأحمد في المسند ٢/٢٩٩ والدارمي ١/٣٣٢ ـ ٣٣٣، ٢/٢٣٧. وابن حبان في الصحيح ٦/٤٩ ـ (٣٨٠٩) والحاكم في المستدرك ٢/٣٣١ وزاد نسبته السيوطي في الدر ٣/٢٠٩. لابن المنذر وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١٢ عن الشعبي وقال أخرجه ابن أبي شيبة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ يقول إذا مضى الأشهر التي جعلتها أجلهم ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في الحل والحرم، يعني المشركين الذين لا عهد لهم بعد ذلك الأجل. ويقال إن هذه الآية (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) نسخت سبعين آية في القرآن من الصلح والعهد والكف مثل قوله (قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ) وقوله (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) وقوله (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) وقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وما سوى ذلك من الآيات التي نحو هذا صارت كلها منسوخة بهذه الآية ثم قال ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ يعني أيسروهم وشدوهم بالوثاق ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ يعني إن لم تظفروا بهم فاحصروهم في الحصن والحصار. قال الكلبي: يعني واحبسوهم عن البيت الحرام أن يدخلوه وقال مقاتل: واحصروهم يعني التمسوهم. ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ يعني: ارصدوا لهم بكل طريق. **وقال الأخفش: يعني اقعدوا لهم على** كل مرصد. وكلمة على محذوفة من الكلام ومعناه **واقعدوا لهم على كل طريق** يأخذون ﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: وأقروا بالصلاة ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ يعني: وأقروا بالزكاة المفروضة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ يعني: اتركوهم ولا تقتلوهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني غفور لما كان من الذنوب في الشرك، رحيم بهم بعد الإسلام. فقال رجل من المشركين يا عليّ. إن أراد رجل منا بعد انقضاء الأجل أن يأتي لمحمد ويسمع كلامه أو يأتيه لحاجة أيقتل؟ فقال عليّ لا. يقول الله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ يعني: استأمنك. ويقال فيه تقديم، ومعناه وإن استجارك أحد من المشركين، يقول إن طلب أحد من المشركين منك الأمان ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: فأمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني: أعرض عليه القرآن حتى يسمع قراءتك كلام الله تعالى. فإن أبى أن يسلم. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ يقول فرده إلى مأمنه من حيث أتاك ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أمرتك بذلك لأنهم قوم لا يعلمون حكم الله تعالى، وفي الآية دليل أن حربياً لو دخل دار الإسلام على وجه الأمان يكون آمناً ما لم يرجع إلى مأمنه. ثم قال على وجه التعجب ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ ويقال على وجه التوبيخ، يعني: لايكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله. ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني بني كنانة. وبني ضمرة وهم لم ينقضوا العهد فأمر الله بإتمام عهدهم، ويقال هم بنو خزاعة وبنو مدلج وبنو خزيمة. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ على وفاء العهد ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ بالوفاء على التمام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون ربهم ويمتنعون عن نقض العهد. قوله تعالى:

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن

نَكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يقول كيف تقاتلوهم، ويقال كيف يكون لهم عهد وقد سبق في الكلام ما يدل على هذا الإضمار، وإن يظهروا عليكم. يقول: يغلبوا عليكم ويظفروا بكم. ﴿لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ يعني: لا يحفظوا فيكم قرابة ولا عهداً. وقال سعيد بن جبير الإل هو الله. وقال ابن[1] عباس الإل القرابة والذمة العهد. وقال مجاهد لا يرقبون الله ولا عهداً. وعن الضحاك أنه قال الإل القرابة والذمة العهد. ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: بألسنتهم مثل قول المنافقين ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ يعني وتنكر قلوبهم، يقولون قولاً بغير حقيقة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: عاصون بنقض العهد. قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قال مقاتل. باعوا الإيمان بعرض من الدنيا قليل، وذلك أن أبا سفيان كان يعطي الناقة والطعام والشيء ليصد بذلك الناس عن متابعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقال الكلبي: اشتروا بآيات الله ثمناً. يقول: كتموا صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتابهم بشيء من المآكلة، يأخذونه من السفلة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بئسما كانوا يعملون بصدهم الناس عن دين الله. قوله تعالى: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ يعني: لايحفظون في المؤمنين قرابة ولا عهداً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ بنقض العهد وترك أمر الله تعالى. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصلاة وَآتَوُا الزَّكَاة﴾ يعني: أقروا بهما ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يعني: هم مؤمنون مثلكم ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يعني بين العلامات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ يقول: وإن نقضوا عهودهم ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ يقول من بعد أجله ﴿وَطَعَنُوا﴾ يقول وعابوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ الإسلام ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ يعني: قادة أهل الكفر ورؤساؤهم ﴿إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر لا إيمان بالكسر وهي قراءة الحسن البصري أي: لا إسلام لهم والباقون بالنصب يعني لا قرار لهم قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر[2]. أية بهمزة واحدة والباقون بهمزتين. ثم قال ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ يعني لعلهم ينتهون عن نقض العهد ـ ثم حث المؤمنين على قتال كفار قريش وذلك قبل فتح مكة. فقال عز وجل ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ يقول: نقضوا عهودهم من قبل أجلها ﴿وهمُّوا بإخراج الرسول﴾ يقول: هموا بقتال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١٤ وعزاه للطستي.

(٢) انظر حجة القراءات ٣١٥.

قرأ ابن عامر: (إنهم لا إيمان لهم) بكسر الألف. أي لا إسلام ولا دين لهم. وقال آخرون: معناه لا أمان لهم، مصدر (آمنته أومنه إيماناً) المعنى إذا كنتم أنتم آمنتموهم فنقضوا هم عهدهم فقد بطل الأمان الذي أعطيتموهم.

وقرأ الباقون: (لا أيمان لهم) بالفتح جمع يمين. وحجتهم قوله: (اتخذوا أيمانهم جنة) وهو الاختيار لأنه في التفسير لا عهود لهم ولا ميثاق ولا حلف، فقد وصفهم بالنكث في العهود.

مَرَّةٍ﴾ بنقض العهد حين أعانوا بني بكر على خزاعة ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ لا تقاتلوهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ في ترك أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى. ثم وعد لهم النصرة فقال تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يعني: بالقتل والهزيمة ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يعني: ويذلهم بالهزيمة ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على قريش ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ويفرح قلوب بني خزاعة. وفي الآية دلالة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين على لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعذب الكفار بأيديهم ويخزهم وينصركم فأنجز وعده ولم يظهر خلاف ما وعد لهم. قال الفقيه: حدثنا أبي قال حدثنا أحمد بن يحيى السمرقندي قال حدثنا محمد بن الحسن الجورباري قال حدثنا حماد بن زيد عن عكرمة قال: لما وادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل مكة، وقد كانت بنو خزاعة حُلفاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الجاهلية، وكانت بنو بكر حلفاء قريش، فدخلت بنو خزاعة في صلح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ودخلت بنو بكر في صلح قريش، ثم كان بين بني بكر وبين بني خزاعة فقال، فأمدت قريش بني بكر بسلاح وطعام وظلوا عليهم، ثم إن قريشاً خافوا أن يكونوا قد نقضوا العهد وغدروا، فقالوا لأبي سفيان اذهب إلى محمد وجدد العهد، فليس في قوم أطعموا قوماً ما يكون فيه نقض العهد، يعني الذي أطعم الطعام لا ينقض عليه العهد. فانطلق أبو سفيان في ذلك. فلما قصد أبو سفيان المدينة. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قد جاءكم أبو سفيان وسيرجع راضياً بغير قضاء حاجته، فلما قدم أبو سفيان المدينة أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر جدد الحلف وأصلح بين الناس، فقال له أبو بكر: الأمر إلى الله وإلى رسوله، ثم أتى عمر فقال له نحو ما قال لأبي بكر فقال له عمر: نقضتم؟ فما كان منه جديداً فأبلاه الله وما كان منه متيناً أو شديداً فقطعه الله تعالى. فقال له أبو سفيان: ما رأيت كاليوم شاهد عشيرة مثلك. يعني شاهداً على هلاك قومه. ثم أتى فاطمة رضي الله عنها فقال لها يا فاطمة: هل لك في أمر تسودين فيه نساء قريش؟ ثم قال لها نحو ما قال لأبي بكر وعمر فقالت الأمر إلى الله وإلى رسوله. ثم أتى علياً فذكر له نحواً من ذلك. فقال له عليّ ما رأيت كاليوم رجلاً أضل منك. أنت سيد الناس فجدد وأصلح بين الناس، فضرب أبو سفيان يمينه على يساره وقال أجرت الناس بعضهم من بعض ثم رجع إلى قومه فأخبرهم بما صنع فقالوا. ما رأينا كاليوم وافد قوم. والله يا أبا سفيان ما جئتنا بصلح فنأمن ولا بحرب فنحذر فقدم وافد بني خزاعة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بما صنع القوم ودعاه إلى النصرة فقال في ذلك شعراً:

اللهم إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
وهم أتونا بالوتين هجدا ... نتلوا الكتاب ركعاً وسجدا
ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا ... فانصر رسول الله نصرا أعتدا
وابعث جنود الله تأتي مددا ... فيهم رسول الله قد تجردا

فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرحيل[1]. وروي في خبر أن النبي[2] ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١٥ وعزاه لابن إسحاق والبيهقي في الدلائل.

(٢) أخرجه أبو داود ٣/٢٣١ في الأيمان والنذور (٣٢٨٥)، والطحاوي في مشكل الآثار ٢/٣٧٨، ٣٧٩، وعبد الرزاق في المصنف (١١٣٠٦، ١٦١٢٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٤٧ ـ ٤٨، والطبراني في الكبير ١١/٢٨٢ والخطيب في التاريخ ٧/٤٠٤.

والله لأغزون قريشاً. والله لأغزون قريشاً. وقال: والله لا نصرت إن لم أنصركم. فخرج إلى مكة ومعه عشرة آلاف رجل. ثم رجعنا إلى حديث عكرمة. قال فتجهزوا وأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالناس حتى نزلوا برمال الظهران. فخرج أبو سفيان من مكة فرأى النيران والعسكر فقال ما هذه؟ فقيل هؤلاء بنو تميم. فقال والله هؤلاء أكثر من أهل مِنًى. فلما علم أنه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ تنكر وأقبل يقول دلوني على العباس. فأتاه فانطلق به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أدخله عليه فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا سفيان أسلم تسلم. فقال كيف أصنع باللات والعزى. قال حماد بن زيد حدثني أبو الخليل عن سعيد بن جبير أن عمر رضي الله عنه قال وهو خارج من القبة وفي عنقه السيف أخر عليهما. أما والله لو كنت خارجاً عن القبة ما سألت عنهما أبداً. قال من هذا؟ فقالوا عمر بن الخطاب فأسلم أبو سفيان. فانطلق به العباس إلى منزله فلما أصبح رأى الناس قد تحركوا للوضوء والصلاة فقال أبو سفيان للعباس يا أبا الفضل أَوَ أمروا فيَّ بشيء؟ قال لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة. فتوضأ ثم انطلق به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. فلما قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصلاة قاموا فلما كبر كبروا فلما ركع ركعوا فلما سجد سجدوا. فقال أبو سفيان يا أبا الفضل مارأيت كاليوم طاعة قوم، لا فارس الأكارم ولا الروم ذات القرون. قال حماد بن زيد فزعم يزيد بن حازم عن عكرمة أنه قال يا أبا الفضل أصبح ابن أخيك عظيم الملك. فقال له العباس إنه ليس بملك ولكنها نبوة قال هو ذاك. وقال حماد. قال أيوب ثم قال واصباح قريش. وقال العباس يا رسول الله لو أذنت لي فأتيتهم ودعوتهم وأمنتهم وجعلت لأبي سفيان شيئاً يذكر به. قال فافعل. فركب العباس بغلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدخل مكة فنادى يا أهل مكة أسلموا تسلموا فقد استبطأتم بأشهب باذل. قد جاءكم الزبير من أعلا مكة. وجاء خالد من أسفل مكة، وخالد وما خالد، والزبير وما الزبير. ثم قال من أسلم فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن. ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظهر عليهم فآمن الناس جميعاً إلا بني بكر من خزاعة. فقاتلتهم خزاعة إلى نصف النهار فأنزل الله تعالى (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) وهم خزاعة

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: حقد قلوب خزاعة. وروى مصعب بن سعد عن أبيه قال لما كان يوم فتح مكة آمن الناس إلا ستة ونفر عكرمة بن أبي جهل وعبد الله ابن أخطل ومقيس بن ضبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح وامرأتين. فقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. وروى عبد الله بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ عليه السلام ـ حين سار إلى مكة ذكر إلى أن قال دخل صناديد قريش من المشركين إلى الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم. فطاف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبيت فصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: ما تقولون وما تظنون؟ قالوا نقول أخ كريم وابن عم حليم رحيم. قال أقول كما قال يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم) قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور ودخلوا في الإسلام، وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الباب الذي يلي الصفا فخطب والأنصار أسفل منه، فقالت الأنصار

بعضهم لبعض أما إن الرجل أخذته الرأفة بقومه وأدركته الرغبة في قرابته، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقلتم كذا وكذا؟ والله إني رسول الله حقاً، إن المحيا لمحياكم وإن الممات لمماتكم فقالوا يا رسول الله قلنا مخافة أن تفارقنا ضنـاً بك. قال أنتم الصادقون عند الله وعند رسوله. قال الله تعالى ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: من أهل مكة يهديهم الله لدينه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يؤمن من خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره. قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ وذلك أنه لما أمرهـم الله تعالى بالقتال شق ذلك على بعض المؤمنين. فنزل قوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا) يعني أظننتم أن تتركوا على الإيمان أيها المؤمنون ولا تبتلوا بالقتال ولا تؤمروا به ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ يعني لم يميز الذين جاهدوا منكم من الذين لم يجاهدوا، وقد كان يعلم الله تعالى ذلك منهم قبل أن يجاهدوا وقبل أن يخلقهم، ولكن كان علمـه علم الغيب ولا يستوجبـون الجنة والثـواب بذلـك العلم وإنما يستوجبون الثواب والعقاب بما يظهر منهم من الجهاد. ويقال معناه أظننتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد وبغير تعب النفس. وهكذا قال في آية أخرى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) وكما قال في رواية أخرى (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا) الآية. ثم قال ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ﴾ يعني: لم يتخذوا من دون الله تعالى ولا رسوله يعني ولا من دون رسوله ﴿وَلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ويميز الذين لا يتخذون ولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين، يميزهم من غيرهم ﴿وَلِيجَةً﴾ يعني: بطانة من غير أهل دينه يفشي إليه سره. وقال الزجاج: الوليجة البطانة وهي مأخوذة من ولج الشيء في الشيء إذا دخل، يعني: ولم يتخذوا بينهم وبين أهل الكفر خُلَّةً ومودة، ويقال نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب ألى أهل مكة يخبرهم بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الخروج إليهم، وأراد بذلك مودة أهل مكة، وفيه نزلت يا أيها الذين آمنوا (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ) الآية ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني من الخير والشر والجهاد والتخلف ومودة أهل الكفر، قوله تعالى:

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ﴾. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي[1] مَسَاجِدَ بلفظ الجماعة وكذلك الثاني يعني جميع المساجد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأول مَسْجِدَ بغير ألف والثاني بألف. وروي عن ابن كثير كلاهما بغير ألف، يعني المسجد الحرام. ومن قرأ مساجد أيضاً يجوز أن يحمل على المسجد الحرام لأنه يذكر المساجد ويراد به مسجد واحد كما قال (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ) يعني به النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم قال تعالى: (شَاهِدِينَ ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ يعني ما كانت لهم عمارة المسجد في حال إقرارهم بالكفر، يعني لا ثواب لهم بغير إيمان ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني بطل ثواب أعمالهم، ويقال شاهدين على أنفسهم يعني كلامهم يشهد عليهم بالكفر ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني يكونون في النار هم خالدين، ويقال شاهدين عليهم يوم القيامة، فلا ينفعهم عمارة المسجد بغير إيمان. وروى أسباط عن السدي[2] في قوله شاهدين على أنفسهم بالكفر أنه قال: يسأل النصراني ما أنت؟ فيقول نصراني. ويسأل اليهودي ما أنت؟ فيقول يهودي، ويسأل المشرك ما أنت؟

---

(١) انظر حجة القراءات ٣١٦، شرح شعلة ٤١٠ ـ ٤١١.
(٢) انظر تفسير الطبري ١٤/١٦٥.

فيقول مشرك. فذلك قوله تعالى: «شاهدين على أنفسهم بالكفر». ويقال هذه الآية نزلت في شأن العباس حين أُسِرَ يوم بدر فأقبل عليه نفر من المهاجرين وعيروه بقتال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبقطيعة الرحم. فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقال له عليٌّ فهل لكم من المحاسن شيء؟ فقال نعم إنا نعمر المسجد الحرام ونحج الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني ونفادي الأسير ونؤمن الخائف ونقري الضيف. فنزل (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ يعني صدق بوحدانية الله تعالى ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني آمن بالبعث بعد الموت، لأن عمارة المسجد بإقامة الجماعات وهم كانوا لا يقيمون الصلاة. فلم يكن ذلك عمارة المسجد فذلك قوله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني يداوم على الصلوات الخمس ويقيمها بركوعها وسجودها في مواقيتها ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني ولم يوحد إلا الله ولم يعبد غيره ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1] يعني: أُولئك هم المهتدون لدينه ولهم ثواب أعمالهم. قوله تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني كإيمان من آمن بالله وجاهد. وقال القتبي: أجعلتم سقاية الحاج يعني: صاحب سقاية الحاج كمن آمن بالله. ويقال أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله. كما قال في آية أُخرى (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِد يذكر فيها اسم الله كثيراً) والصلوات لا تهدم وإنما أراد به بيوت الصلوات كما قال (مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ) يعني أهل قريتك، كذلك ههنا سقاية الحاج. أراد به صاحب السقاية. قرأ[2] بعضهم سُقَاة الحاج وعُمْرَةَ المسجد الحرام يعني جمع الساقي والعامر وهي قراءة شاذة. ثم قال ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني لا يستوون عند الله في الثواب والعمل عند الله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا يرشد المشركين إلى الحجة، ويقال لا يكرمهم بالمعرفة ما لم يتركوا كفرهم. كما قال في آية أُخرى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ يعني صدقوا بوحدانية الله يعني: وهاجروا إلى المدينة ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني هؤلاء أفضل عند الله وأفضل درجة في الجنة من الذين لم يهاجروا ولم يؤمنوا ولم يعمروا المسجد الحرام ولم يسقوا الحاج ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الناجون من النار. قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ يعني يفرحهم

(١) سقط في ظ.

(٢) ابن الزبير وسعيد بن جبير إلا أن ابن جبير نصب المسجد على إرادة التنوين في عَمَرة انظر تفسير القرطبي ٨/٥٩.

﴿رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ يعني بالجنة منه ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ يعني: رضي الله تعالى عنهم. كما قال في آية أخرى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) بالثواب الذي أعطاهم وقال ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ يعني: دائماً لا ينقطع عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: مقيمين دائمين في الجنات ﴿أَبَداً﴾ هو تأكيد للخلود ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهي الجنة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني لا تتخذوا الذين بمكة أولياء. قال مقاتل[1]: نزلت الآية في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهاهم الله تعالى عن ولايتهم. وقال في رواية الكلبي: لما أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهجرة إلى المدينة، فجعل الرجل يقول لامرأته ولأخيه إنا قد أمرنا بالهجرة فتخرج معه، ومنهم من تعلقت به زوجته وعياله فيقولون له تدعنا لمن حتى نضيع؟ فيرق لهم ويجلس معهم، فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ» في الدين والعون ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ يعني إن اختاروا الكفر ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾ ويقال اختاروا الجلوس مع الكفار على الجلوس مع المؤمنين ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ بعد نزول هذه الآية ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الضارون بأنفسهم. قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ يعني قومكم. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[2] وَعَشِيرَاتُكُمْ بالألف بلفظ الجماعة وقرأ الباقون بغير ألف ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يعني اكتسبتموها بمكة ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ يعني تخشون أن تبقى عليكم فلا تنفق ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ يعني منازلكم التي بمكة تعجبكم الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني أن كان هذه الأشياء أحب إليكم من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة ـ ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ يعني في طاعة الله تعالى ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يعني: فانتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني فتح مكة، ويقال الموت والقيامة. وقال الضحاك. حتى يأتي الله بأمره يعني: حتى يأمر الله بقتال آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وعشيرتكم. ثم قال ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهذا وعيد من الله تعالى للذين لم يهاجروا. ويقال من أول سورة براءة إلى قوله «وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» نزلت بعد فتح مكة، ثم من قوله «وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» إلى ههنا كان نزل قبل فتح مكة، فوضع ههنا، ثم ما بعد هذا نزل بعد فتح مكة وهو قوله تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ». فأمرهم الله تعالى بأن يقاتلوا ويتوكلوا على الله ويطلبوا النصرة منه ولا يعتمدوا على الكثرة والقلة لأن النصرة من الله تعالى. فذلك قوله تعالى: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» يعني: نصركم الله في مواطن كثيرة (وهو يوم بدر ويوم بني قريظة ويوم خيبر ويوم فتح مكة)[3] وخاصة يَوْمَ حُنَيْنٍ. ﴿إِذْ

---

(١) انظر تفسير الخازن ٥٨/٣.

(٢) انظر حجة القراءات ٣١٦، سراج القارىء ٢٣٦.

(٣) سقط في ظ.

﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ يعني: جماعتكم **﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾** يعني: عن قضاء الله تعالى كثرتكم شيئاً، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى حنين في اثني عشر ألفاً وعشرة آلاف التي خرجت معه من المدينة إلى فتح مكة، وخرج معه ألفان من أهل مكة، فقال رجل من المسلمين يقال له سلمة بن سلام[1] لن نغلب اليوم من قلة، وقد كان فتح مكة في شهر رمضان وبقيت عليه أيام من رمضان، فمكث حتى دخل شوال، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً من بني سليم عيناً له يقال له عبد الله بن أبي حدرد، فأتى حنيناً، وكان بينهم يسمع أخبارهم، فسمع من مالك بن عوف أمير القوم يقول لأصحابه أنتم اليوم أربعة آلاف رجل فإذا لقيتم العدو فاحملوا عليهم حملة رجل واحد واكسروا جفون سيوفكم، فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئاً إلا أفرج لكم، وكان مالك بن عوف على هوزان. فأقبل ابن أبي حدرد حتى أتى النبي ـ عليه السلام ـ فأخبره بمقالتهم. فقال رجل من المسلمين فوالله يا رسول الله لا نغلب اليوم من كثرة، فساء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمته، وابتلى الله المؤمنين بكلمته تلك[2]. قال الفقيه حدثنا أبو جعفر قال حدثنا الفقيه علي بن أحمد الفارسي قال حدثنا نصير بن يحيي قال حدثنا أبو سليمان. قال حدثنا الفقيه محمد بن الحسن عن مجمع بن يعقوب عن إسحاق بن عبد الله عن أبي طلحة قال سمعت أنس بن مالك يقول: لما انتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى وادي حنين وهو وادي من أودية تهامة له مضايق وشعاب، فاستقبلنا من هوازن جيش لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من السواد والكثرة، وقد ساقوا أموالهم ونساءهم وأبناءهم وراءهم ثم صفوا فحملوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ثم جاؤوا بالإبل والغنم وراء ذلك لكيلا يفروا بزعمهم، فلما رأينا ذلك السواد حسبناهم رجالاً كلهم فلما انحدرنا والوادي وهو وادي حدور، فبينا نحن فيه إن شعرنا. أي: ما شعرنا إلا بالكتائبُ قد خرجت علينا من مضايق الوادي وشعبه فحملوا علينا حملة رجل واحد، وقد كانت قريش بمكة طلبوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخرجوا معه إلى حنين فلم يقل لهم لا، ولا نعم، فخرجوا وكانوا هم أول من انهزم من الناس. قال أنس: فولوا دبرهم وأتبعهم الناس منهزمين مايلوون على شيء، فسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ يقول: والتفت عن يمينه وعن يساره يا أنصار الله وأنصار رسوله: أنا عبد الله ورسوله، صابر اليوم، ثم تقدم بحربته أمام الناس. فوالذي بعثه بالحق ما ضربنا بسيف ولا طعنا برمح حتى هزم الله تعالى. ثم رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المعسكر وأمر بطلبهم وأن يقتل كل من قدر عليه منهم وجعلت هوازن تولي، وثاب من انهزم من المسلمين.

قال الراوي: فقالت: أم سليم وكانت يومئذ تقاتل شادة على بطنها بثوب تقول: أرأيت يا رسول هؤلاء الذين أسلموا وفروا عنك وخذلوك، لا تعف عنهم، إن أمكنك الله تعالى منهم فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أم سليم عفو الله أوسع. وروي في خبر آخر أن دريد بن الصمة كان شيخاً كبيراً في عسكر مالك بن عوف، وكان صاحب تدبير،وكان لا يبصر شيئاً ما لم ترفع حاجباه، فقال مالي أسمع رغاء الإبل وثغاء الغنم وصوت الصبيان. فقالوا له إن مالك بن عوف أمر بإخراج الأموال لكي يقاتل كل واحد منهم عن ماله. فقال لهم هلا أخبرتموني بذلك قبل الخروج، فالرجل إذا جاءته الهزيمة متى يبالي بماله وولده؟ ولكن إذا فعلتم ذلك فاكسروا جفون سيوفكم واحملوا حملة رجل واحد. ففعلوا ذلك فانهزم المسلمون، ولم يبق مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا العباسَ بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعدة من الأنصار. فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن بغلته وأخذ السيف ومضى نحو العدو وجعل ينادي يا أصحاب الشجرة

---

(١) انظر تفسير الخازن ٣/٧٢. (٢) أخرجه الطبري عن السدي ١٤/١٨٢.

يا أصحاب سورة البقرة إليّ إليّ، فأمده الله تعالى بخمسة آلاف من الملائكة. ورجع إليه المسلمون وانهزم المشركون وأخذ المسلمون أموالهم، وهو الذي يسمى يوم أوطاس فنزلت هذه الآية: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) فأخبر الله تعالى أن الغلبة ليست بكثرتكم ولكن بنصرة الله تعالى وكان ذلك من آيات الله ثم قال ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني برحبتها وسعتها من خوف العدو ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ يعني منهزمين لا يلوون على أحد. قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يعني: رحمته ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنوداً لَم تَرَوْهَا﴾ يعني خمسة آلاف من الملائكة، وفي الآية دليل أن المؤمن لا يخرج من الإيمان وإن عمل الكبيرة لأنهم ارتكبوا الكبيرة حيث هربوا، وكان عددهم أكثر من عدد المشركين فسماهم الله تعالى مؤمنين ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بالقتل والهزيمة ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني: ذلك العذاب[1] ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي عقاب. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من أصحاب مالك بن عوف من كان أهلاً للإسلام. وروي عن محمد بن كعب القرظي قال لما انهزم مالك بن عوف سار مع ثلاثة آلاف، فقال لأصحابه هل لكم أن تصيبوا من محمد مالاً؟ قالوا نعم فأرسل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إني أريد أن أسلم فما تعطيني؟ فأرسل إليه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إني أعطيك مائة من الإبل ورعاتها، فجاء فأسلم، فأقام يومين أو ثلاثة فلما رأى المسلمين ورقتهم وزهدهم واجتهادهم رق لذلك، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا ابن عوف ألا نفي لك بما أعطيناك من الشرط؟ فقال يا رسول الله أمثلي من يأخذ على الإسلام شيئاً؟. قال فكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن افتتح عامة الشام. ثم قال الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما كان من الشرك ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم في الإسلام. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ يعني: قذر ورجس ولم يقل أنجاس لأن النَّجس مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فهذه الآية من الآيات التي قرأها عليهم عليّ بن أبي طالب بمكة. يعني لا يدخلوا أرض مكة. وقال مقاتل يعني الحرم كله. وقال مالك بن أنس لا يجوز للكفار أن يدخلوا المساجد، لأن الله تعالى قال إنما المشركون نجس، كما أن الجنب لا يجوز له أن يدخل المسجد. وقال الزهري: له أن يدخل جميع المساجد إلا المسجد الحرام. وهو قول الشافعي رحمه الله وقال أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابه[2] يجوز للذمي

---

(١) سقط في أ.

(٢) قال ابن العربي في أحكام القرآن ٢/٩١٣ وقد اختلف الناس في هذا كثيراً ـ أي في دخول الكفار المسجد ـ فرأى الشافعي أن هذا مخصوص بالمسجد الحرام لا يتعداه إلى غيره من المساجد وهذا جمود منه على الظاهر الذي يسقط هذا الظاهر فإن الله لم يقل: =

أن يدخل جميع المساجد لأن الكفار كانوا يدخلون مسجد المدينة إذا قدموا وافدين من قومهم. وهذه الآية نزلت في شأن أهل الحرب. إنهم لا يدخلون المسجد الحرام بغير أمان، ولا يكون لهم ولاية البيت. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: لا يدخلون المسجد الحرام إلا برق أو عهد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ يعني حاجة وفقراً. وقال الزجاج: العيلة الفقر. كما قال الشاعر:[1]

وما يدري الفقير متى غناه ولا يدري الغني متى يعيل

ثم قال ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وذلك أنه لما منع المشركون من مكة قال أناس من التجار لأهل مكة من أين تأكلون إذا فعلتم هذا؟ فنزل «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله» يعني من رزقه ففرحوا بذلك، فأسلم أهل جده وصنعاء من أهل اليمن فحملوا الطعام إلى مكة من البر والبحر وأغناهم الله تعالى بذلك يعني أغناهم عن تجار الكفار بالمؤمنين ثم قال ﴿إِنْ شَاءَ﴾ يعني: يدوم لكم بمشيئة الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره. قوله تعالى:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: لا يصدقون بتوحيد الله ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ يقول لا يخضعون لدين الحق ولا يقرون بشهادة لا إله إلا الله ومعناه: لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين لأن أهل الكتاب كانوا يقرون بالله ولكنهم قالوا لله ولد، وأقروا بالبعث ولكنهم لا يقرون لأهل الجنة بالنعمة لأنهم لا يقرون بالأكل والشرب والجماع، فليس يدينون دين الحق يعني دين الإسلام، ويقال دين الله تعالى لأن الله تعالى هو الحق، فأمر الله تعالى بقتلهم إلا أن يعطوا الجزية وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قال بعضهم: عن قهر وذل كما يقال اليد في هذا لفلان. يعني الأمر النافذ لفلان، ويقال عن يده يعني: عن إنعام عليهم بذلك. لأن قبول الجزية وترك أنفسهم يد ونعمة عليهم، ويقال عن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم، ويقال عن يدٍ يعني: عن قيام

= لا يقرب هؤلاء المسجد الحرام فيكون الحكم مقصوراً عليهم ولو قال: لا يقرب المشركون والأنجاس المسجد الحرام لكان تنبيهاً على التعليل بالشرك أو النجاسة أو العلتين جميعاً بل أكد الحال ببيان العلة وكشفها فقال: (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام) يريد ولا بد لنجاستهم فتعدت العلة إلى كل موضع محترم بالمسجدية ومما قاله مع غيره من الناس أن الكافر يجوز له دخول المسجد بإذن المسلم واستدل عليه بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربط «ثُمامة بن أثال» في المسجد وهو مشرك. قال علماؤنا: هذا الحديث صحيح لكن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كان علم إسلامه وهذا وإن سلمناه فلا يضرنا لأن علم النبي بإسلامه في المال لا يحكم له به في الحال، وقال جابر بن عبد الله العموم بمنع المشركين عن قربان المسجد الحرام مخصوص في العبد والأمة. وهذا قول باطل وسند ضعيف لا يخص العمومات المطلقة فكيف ـ المعللة بالعلة العامة المتناولة لجميعها وهي الشرك؟. انظر أحكام القرآن ٩١٣/٢، ٩١٤.

(١) أحيحة بن الجلاس الدوسي. انظر جمهرة أشعار العرب ١٢٥.

يمشون بها صاغرين تؤخذ من أيديهم. وقال الأخفش: يعني: كرهاً وهم صاغرون يعني ذليلين. قال الفقيه قتال الكفار على ثلاثة أنواع. في وجه يقاتلون حتى يسلموا. ولا يقبل منهم إلا الإسلام. وهم مشركو العرب والمرتدون من الأعراب أو من غيرهم، وفي وجه آخر يقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وهم اليهود والنصارى والمجوس، فأما اليهود والنصارى بهذه الآية وأما المجوس بالخبر. وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[1] وفي الوجه الثالث واختلفوا فيه، وهم المشركون من غير العرب وغير أهل الكتاب مثل الترك والهند ونحو ذلك. في قول الشافعي لا يجوز أخذ الجزية منهم. وفي قول أبي حنيفة وأصحابه يجوز أخذ الجزية منهم كما يجوز من المجوس لأنهم من غير العرب. قوله تعالى:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قرأ عاصم والكسائي عزيرٌ بالتنوين[2] وقرأ الباقون بغير تنوين. فمن قرأ بالتنوين لأن الابن خبر وليس بنسبة، ومن قرأ بغير تنوين فلالتقاء الساكنين. كما قرأ بعضهم (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/٢٢٤، ١٢/٢٤٣، وعبد الرزاق في المصنف (١٠٠٢٥، ١٩٢٥٣)، ومالك في الموطأ (٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/١٨٩، وذكره السيوطي في المنثور ٣/٢٢٩ وابن كثير في التفسير ٣/٣٧. والطبراني في الكبير ١٩/٤٣٧ وانظر تلخيص الحبير ٣/١٧١.

(٢) وحجته أنه اسم خفيف فوجهة الصرف لخفته وإن كان أعجمياً وقال قوم: يجوز أن تجعله عربياً لأنه على مثال المصغرات من الأسماء العربية وهو يشبه في التصغير (نصيراً) أو (بكيراً) فأجرى وإن كان في الأصل أعجمياً، وأخرى أن الكلام عند السكوت على (عزير ابن الله) ناقص وأن قوله (ابن) خبر عن (عزيز) فنون من أجل حاجة الكلام إليه كقولك: (زيد ابن عمنا) فلما كانت الفائدة في (ابن) أوقعت التنوين وإذا تركت التنوين كان (الابن) نعتاً وكانت الفائدة بعد النعت كقولك: زيد ابن عمنا ظريف.

وقرأ الباقون: (عزير ابن الله) بغير تنوين وحجتهم أن التنوين حرف الإعراب مشبه للواو والياء والألف كما يسقطن إذا سكن وسكن ما بعدهن كذلك يسقط التنوين إذا سكن وأتى بعده ساكن. فكأنهم ذهبوا إلى أنه مصروف وأن التنوين سقط الساكنين وأنشد الفراء:

إذا غطيفُ السلمي فرا

فأسقط التنوين من (غطيف) والدليل على صحة هذا القول أن هارون قال: سألت أبا عمرو من هُزَير فقال: (أنا أصرف (عزيراً) ولكني أقول هذا الحرف (عزير ابن الله) فدل قوله (أنا أصرف عزيراً) على أنه عنده مصروف، وأنه حذف التنوين عنده لغير ترك صرفه بل هو لما أخبرتك به من حذفه للساكنين.

ويجوز أن نقول أن «عزير» اسم أعجمي غير مصروف قال الزجاج: (يجوز حذف التنوين لالتقاء الساكنين وقد روي (قل هو الله أحد الله الصمد) فحذف التنوين لسكونه وسكون اللام فكذلك حذف التنوين من «عزير ابن الله» لسكونه وسكون الباء.

وفيه وجه آخر: أن يكون الخبر محذوفاً فيكون معناه (عزير ابن الله معبودنا) فيكون (ابن نعتاً ولا اختلاف بين النحويين أن أثبات التنوين أجود). قال: (والوجه إثبات التنوين لأن (ابن) خبر وإنما يحذف التنوين في الصفة نحو قولك: (جاءني زيد بن عمرو) فبحذف التنوين لالتقاء الساكنين ولأن ابن مضاف إلى علم وإن النعت والمنعوت كالشيء الواحد وإذا كان خبراً فالتنوين.

الصَّمَدُ) بغير تنوين فلا اختلاف بين النحويين أن إثبات التنوين أجود من طريق أهل اللغة. وإنما قالت اليهود لأنه لما خرب بُخْتُنَصَّر بيت المقدس وأحرق التوراة حزنوا على ذهاب التوراة فأملاها عليهم عزير صلوات الله عليه عن ظهر قلبه فتعلموها وفي أنفسهم منها شيء مخافة أن يكون قد زاد فيها أو نقص منها شيئاً، فبينما هم كذلك إذ وقعوا على جراب مدفونة في قرية فيها التوراة، فعارضوا بها على ما كتبوا من عزير عليه السلام. فلم يزد شيئاً ولم ينقص حرفاً. فقالوا عند ذلك ما علم عزير هذا إلا وهو ابن الله. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك لأن المسيح كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى. فقالوا لم يكن يفعل هذا إلا وهو ابن الله، ويقال إنّ الإفراط في كل شيء مذموم، لأن النصارى أفرطوا في حب عيسى ـ عليه السلام ـ تغالوا وقالوا فيه ما قالوا. حتى كفروا بسبب ذلك، واليهود أفرطوا بحب عزير وقالوا فيه ما قالوا حتى كفروا، كما أفرطت الروافض[1] في حب عليّ حتى أبغضوا غيره. وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما[2]. ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني: ذلك كذبهم بألسنتهم، ويقال معناه يقولون بأفواههم قولاً بلا فائدة ولا برهان ولا معنى صحيح تحته ثم قال ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: يوافقون قول الذين كفروا ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين قالوا الملائكة بنات الله. وقال قتادة: يشبهون قول الذين كفروا، يعني إنَّ قول اليهود يوافق قول النصارى، وقول النصارى يوافق قول اليهود، ويقال: يتشابهون في قولهم هذا من تقدم من كفر منهم، يعني أنما قالوا اتباعاً لهم بدليل قوله تعالى (ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ). قرأ عاصم يُضَاهِئُونَ بكسر الهاء مع الهمزة وهي لغة لبعض العرب. وقرأ الباقون بالسكون بغير همزة وهي اللغة المعروفة. وقال القتبي: يضاهون يعني: يشبهون يعني: قول من كان في عصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اليهود والنصارى قول أوليهم الذين كانوا قبلهم. ثم قال ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: من أين يكذبون بتوحيد الله تعالى. ثم قال عز وجل ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ﴾ يعني علماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ يعني: أصحاب الصوامع والمتعبدين منهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: اتخذوهم كالأرباب. يطيعونهم في معاصي الله تعالى. قال الفقيه الزاهد حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال حدثنا إسحاق بن عبد الرحمن القاري قال حدثنا محمد بن عيسى قال حدثنا الحسن بن يزيد الكوفي عن عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين

---

(١) قال ابن قتيبة بلغني عن الأصمعي أنه قال سميت الرافضة لأنهم رفضوا «زيد بن علي» وتركوه، ثم لزم هذا الاسم كل من غلامنهم في مذهبه وببعض السلق، وقال بعض أصحاب الكلام إنما سموا رافضة: لرفضهم «زيد بن علي» وتركهم الخروج معه انظر تفصيل ذلك في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ٢٧٠.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة والطبراني عن عمر وابن عمرو والدارقطني وابن عدي والبيهقي عن علي موقوفاً، والبخاري في الأدب المفرد في معناه قول بعضهم: «لا يكن حبُك كلفاً ولا بغضك تلفاً». وأخرج الخرايطي من الحسن «تنقوا الإخوان والأصحاب والمجالس، وأحبوا هوناً وأبغضوا هوناً، فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا، وإن رأيت دون أخيك ستراً فلا تكشفه» وقد رمز السيوطي لحسنه ولعله لاعتضاده وإلا فقد تكلموا في كثير من رجاله، وما أحسن ما أخرجه الرافعي عن أبي إسحاق السبيعي من أنه قال: كان علي بن أبي طالب يذآكر أصحابه وجلساؤه في حسن الأدب بقوله:

وكُنِ معدناً للخير واصْفَحْ عن الأذى ... فإنك راءٍ ما عملتَ وسَامِعُ
وأحْبِبْ إذا أحْبَبْتَ حُبّاً مُقَارِباً ... فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبْغِضْ إذا أبغضتَ بُغْضاً مقارباً ... فإنك لا تدري متى الحب راجع

انظر كشف الخفاء ١/٥٤، ٥٥.

عن مصعب بن سعيد عن عدي بن حاتم قال[١]: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ من سورة براءة «اتخذوا أحْبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» قال أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوا وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموا. ثم قال ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يعني اتخذوا المسيح ابن مريم رباً من دون الله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يقول: وما أمرهم عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يعني إلا قوله اعبدوا الله ربي وربكم. ويقال وما أمروا في جميع الكتب إلا ليعبدوا إلهاً يعني ليوحدوا الله تعالى (إلهاً وَاحِداً) ثم نزه نفسه فقال تعالى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني عما يعبدون من دونه. ثم قال عز وجل:

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿يُرِيدُونَ﴾ يعني اليهود النصارى ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني يريدون (أن) (يردوا القرآن تكذيباً بألسنتهم ويقال: يريدون أن يغيروا دين الإسلام بألسنتهم ويقال: يريدون أن)[٢] يبطلوا كلمة التوحيد بكلمة الشرك ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ يعني لا يرضى الله تعالى ولا يترك ﴿إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ يعني يظهر دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فيظهره ثم قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ يعني بالقرآن والتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ يعني دين الإسلام ويقال دين الله تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يعني: يظهره بالحجة على الدين كله. ويقال بالقهر والغلبة والرعب في قلوب الكفار. وقال ابن عباس: ليظهره على الدين كله. يعني بعد نزول عيسى عليه السلام لا يبقى أحد إلا دخل في دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ قال[٣] السدي: الأحبار اليهود والرهبان النصارى. وقال ابن عباس: الأحبار العلماء والرهبان أصحاب الصوامع ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يعني: بالظلم بغير الحق ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن دين الله، ثم بين الله تعالى حالهم للمؤمنين لكي يحذروا منهم ولا يطيعوهم. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يجمعونها

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٢٣٠ وعزاه لابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٣١ وعزاه لأبي الشيخ.

ويمنعون زكاتها. قال بعضهم هذا نعت للأحبار والرهبان. وقال بعضهم هذا ابتداء في كل من جمع المال ومنع منه حق الله تعالى. وقال ابن[1] عباس: الكنز الذي لا يؤدى عنه زكاته وروى نافع عن ابن[2] عمر أنه قال: أي مال كان على وجه الأرض لا تؤدى زكاته فهو كنز يعذب صاحبه يوم القيامة. وما كان في بطن الأرض يؤدى زكاته فليس بكنز. وروي عن عليّ بن[3] أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة وما كان أكثر منها فهو كنز. ثم قال ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني أهل هذه الصفة الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله. يعني لا يؤدون حقها في طاعة الله تعالى. وقال «ولا ينفقونها» ولم يقل ينفقونهما لأنه انصرف إلى المعنى، يعني لا ينفقون الكنوز. ويقال لا ينفقون الأموال. ويقال يعني الفضة. وقال بعضهم نزلت في شأن الكفار. وقال بعضهم: كان هذا في أول الإسلام، ووجب عليهم أن يؤدوا الفضل ثم نسخ بآية الزكاة. وقال بعضهم: كل مؤمن لا يؤدي الزكاة فهو من أهل هذه الآية. وهو قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يعني يوقد على الكنوز ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ويقال لهم ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ يعني: فذوقوا العذاب بما كنتم تكنزون. قال الفقيه حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله[4] بن مسعود رضوان الله عليهم أنه قال: والذي لا إله غيره لا يعذب رجل بكنز فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً. ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم على حدة وكل دينار على حده. وروى أبو أمامة الباهلي قال: مات رجل من أهل الصُّفة فوجد في مؤتزره دينار. فقال رسول[5] الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كية، ومات رجل آخر فوجد في مؤتزره ديناران فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيتان. والمعنى في ذلك أنه قد أصاب ذلك من الغلول. ولو لم يكن أصابه من الغلول لكان لا يستحق العقوبة لأن الزكاة لا تجب في أقل من عشرين ديناراً. وقال بعضهم كان هذا في الوقت الذي وجب عليه أن ينفق الفضل. قوله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فأعلم الله تعالى المسلمين أن عدة الشهور التي يعدون، اثنا عشر شهراً على منازل العمر. فجعل حجهم وأعيادهم وصيامهم على هذا العدد. فالحج والصوم يكون مرة في الشتاء ومرة في الصيف. وكانت أعياد أهل الكتاب في متعبداتهم في سنتهم على حساب دوران الشمس،

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٣٣ وعزاه لابن المنذر وذكره أيضاً وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لمالك وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم أبي الشيخ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٣٣ وعزاه لابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/١٣٧، ١٣٨ وابن حبان، وأورده ـ الهيثمي في المورد (٢٤٨١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٦٤٩)، وابن أبي شيبة ٣/٣٧٢، والطبراني في الكبير ٨/١٤٨ وذكره السيوطي في الدر ٢/٥٧، ٥/١٤٨ والهيثمي في المجمع ١٠/٢٤٠ وابن كثير في التفسير ٤/٨٥.

على كل سنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، فجعل شهور المسلمين بالأهلة كما قال الله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) ويقال إن عدة الشهور يعني عدد الشهور التي وجبت عليكم الزكاة فيها، اثنا عشر شهراً في كتاب الله يعني في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كتبها عليكم ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ يعني رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يعني: ذلك الحساب المستقيم لا يزاد ولا ينقص. وقال مقاتل بن حيان: ذلك الدين القيم. يعين: ذلك القضاء البين. وهكذا قال الضحاك. ثم قال ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال بعضهم في الأربعة أشهر. وقال قتادة:[1] الظلم في الشهر الحرام أعظم وزراً مما سوى ذلك. وإنْ كان الظلم على كل حال غير جائز ولكن الله تعالى يعظم من أمره ما يشاء. ويقال فلا تظلموا فيهن أنفسكم يعني: في هذه الاثني عشر شهراً، ويقال هو على وجه التقديم، إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فلا تظلموا فيهن أنفسكم منها أربعة حرم. يعني وخاصة في الأربعة أشهر. ثم قال ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ يعني جميعاً في الشهر الحرام وغيره. وكان القتال في الشهر الحرام محرماً. فنسخ بهذه الآية. وصار مباحاً في جميع الشهور. وقال بعضهم: هو غير مباح. ومعنى هذه الآية وقاتلوا المشركين كافة إن قاتلوكم في الشهر الحرام. وإنْ لم يقاتلوكم لا يجوز. والقول الأول أصح لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حاصر الطائف في الشهر الحرام ثم افتتحها بعد ما مضى الشهر الحرام. فلو كان القتال حراماً لم يحاصرهم في الشهر الحرام. ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ ثم قال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني معينهم وناصرهم. قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٣٧﴾

﴿إِنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني تأخير المحرم إلى صفر زيادة الأثم في كفرهم. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[2] أنه قال: كانوا يحجون في ذي الحجة عامين ثم يحجون في المحرم عامين ثم يحجون في صفر عامين وكانوا يحجون في كل سنة في كل شهر عامين حتى وافقت حجة أبي بكر رضي الله عنه الآخر من العامين في ذي القعدة قبل حجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم حج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قابل في ذي الحجة وقال في خطبته: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض[3]. وروى أسباط عن السدي أنه قال: كان رجل من بني مالك بن كنانة يقال له جنادة بن عوف يكني أبا أمامة ينسيء عدد الشهور[4]. وقال في رواية الكلبي[5]: كان اسمه نعيم بن ثعلبة من بني كنانة، وقال في رواية مقاتل كان اسمه ثمامة الكناني، وكانت العرب

---

(١) ذكره البغوي في التفسير ٢/٢٨٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٣٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البخاري ٣/٥٧٣ في الحج باب الخطبة أيام منى (١٧٤١)، ٨/١٠٨ في المغازي (٤٤٠٦، ٥٥٥٠، ٧٤٤٧) مسلم ٣/١٣٠٥ ـ ١٣٠٧ في القسامة (٢٩ ـ ٣١/١٦٧٩).

(٤) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/٢٩١.

(٥) انظر المصدر السابق.

يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أرادوا أن يغيروا قام الكناني يوم منى، وخطب الناس وقال إني قد أحللت لكم المحرم وحرمت لكم صفر مكانه. فقاتل الناس في المحرم. فإذا كان صفر غمدوا السيوف ووضعوا الأسنة، ثم يقوم من قابل ويقول إني قد أحللت صفر وحرمت المحرم فذلك قوله تعالى: ﴿**يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً**﴾. قرأ ورش عن نافع، وقرأ ابن كثير[1] إنما النَّسيُّ بتشديد الياء بغير همز. وقرأ الباقون بالهمز ومعناها واحد. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص يُضَلُّ به بضم الياء ونصب الضاد على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون يُضِلُّ به بكسر الضاد ويكون معناه أن أخيرهم عمل يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويقاتلون فيه ويحرمونه عاماً ولا يقاتلون فيه ﴿**ليواطئوا**﴾ يعني: ليوافقوا ﴿**عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ**﴾ يعني: حسن لهم قبح أعمالهم ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ يعني لا يرشدهم إلى دينه مجازاة لكفرهم قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني في الجهاد ﴿**اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ**﴾ يعني: تثاقلتم. فأدغم التاء في الثاء وأجلب الألف لتسكين ما بعد هذه يعني: قعدتم ولم يخرجوا. وذلك أن النبي[2] - صلى الله عليه وسلم - أمر الناس بالخروج إلى غزوة تبوك وكان في أيام الصيف حين اشتد الحر وطابت الثمار والظلال فكانوا يتثاقلون عن الخروج فعاتبهم الله فقال: ﴿**أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ**﴾. يقول آثرتم واخترتم عمل الدنيا على عمل الآخرة. ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ يعني: منفعة الدنيا ﴿**فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ يعني: بجنب منفعة الآخرة إلا ساعةً. ويقال معناها ما يتمتع به في الدنيا قليل عندما يتمتع به أولياء الله تعالى في الجنة. ثم خوفهم فقال ﴿**إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ**﴾ الله وأصله إن لا تنفروا. فأدغم النون في اللام ومعناه إن لم تنفروا. يعني إن لم تخرجوا إلى الغزو مع نبيكم - صلى الله عليه وسلم - يُعَذِّبْكُمْ ﴿**عَذَاباً أَلِيماً**﴾ يعني: يسلط عليكم عدوكم ويهلككم ﴿**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ**﴾ خيراً منكم وأطوع لله تعالى ﴿**وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً**﴾ يقول ولا تنقصوا من ملكه شيئاً بجلوسكم عن الجهاد ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ أن يستبدل بكم قوماً غيركم. قوله تعالى:

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ

---

(١) انظر حجة القراءات ٣١٨، وسراج القارىء ٢٣٦.

(٢) انظر تفسير البغوي ٢/٢٩٢.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يعني إن لم تنصروه وتخرجوا معه إلى غزوة تبوك فالله ينصره كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة من مكة ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ يعني كان واحداً من اثنين يعني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبا بكر رضي الله عنه ولم يكن معهما غيرهما. فنصرهما الله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وذلك حين أراد أهل مكة قتله فهاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة فجاء النبي ـ عليه السلام ـ إلى بيت أبي بكر فلم يجده فجلس إلى أن جاء أبو بكر فقبَّل رأس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال مالك بأبي أنت وأمي؟ قال ما أرى قريشاً إلا قاتلي. فقال أبي بكر دمي دون دمك ونفسي دون نفسك لا يصنع بك شيء حتى يبدأ بي. فقال اخل بي. قال أبو بكر ليس بك عين إنَّما هما ابنتاي أسماء وعائشة قال قد أذن لي بالخروج من مكة فقال أبو بكر يا رسول الله إن عندي بعيرين حبستهما للخروج فخذ أحدهما واركبه. قال لا آخذه إلا بالثمن. فأخذه بالثمن وهي ناقته القصوى فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ علياً بـن أبي طالب بأن يبيت مكانه، وخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أبو بكر حتى أتيا جبل ثور[1] جبل بأسفل مكة.

قال الفقيه حدثنا أبو جعفر قال حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سهل القاضي. قال حدثنا يحيى بن أبي طالب عن عبد الرحمن بن إبراهيم الرازي قال حدثنا الفرات عن ميمون بن مهران عن عتبة بن محصن عن أمير المؤمنين[2] عمر رضي الله عنه أنه قال: والله لليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر. فقيل وأي ليلة هي؟ قال لما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هارباً من أهل مكة ليلاً فتبعه أبو بكر فجعل أبو بكر يمشي أمامه ومرة خلفه ومرةً عن يمينه ومرة عن يساره. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هذا يا أبا بكر؟ قال يا رسول الله أذكر الرصد فأكونِ أمامك. وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك وعن يسارك لا آمن عليك. قال فمشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت. فلما رآها أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار. فأنزله وقال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله أنا. فإن كان من شيء نزل بي قبلك. فدخل، فلم ير شيئاً فحمله وأدخله وقال في رواية محمد بن إسحاق كان الغار معروفاً بالهوام فجعل أبو بكر يسد الجحور حتى بقي جحران فوضع عقبيه عليهما حتى أصبح. وقال في رواية عمر وكان في الغار خرق فيه حيات، فخشي أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فألقمه قدمه فجعلن يضربنه ويلسعنه وجعلت الدموع تنحدر على خده من شدة الألم ما يجده ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول يا أبا بكر لا تحزن فذلك قوله تعالى إذ يقول لصاحبه (لا تحزن إنّ اللّه معنا فأنزل اللّه سكينته) يعني الطمأنينة لأبي بكر، فهذه ليلته.

قال الفقيه حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا أبو بكر القاضي قال حدثنا أحمد بن جرير قال حدثنا عمرو بن عليّ قال حدثنا عون بن عمرو القيس عن مصعب المكي قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يذكرون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الغار. أمر الله تعالى شجرة فخرجت في وجه النبي ـ صلى الله

(١) انظر البغوي ٢/٢٩٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٤١ وعزاه البيهقي في الدلائل وابن عساكر.

عليه وسلم ـ فسترت وجه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن الله تعالى بعث العنكبوت فنسجت ما بينهما فسترت وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا تزقان حتى وقفتا بين العنكبوت وبين الشجرة، فأقبلت فتيان قريش من كل بطن، معهم عصيهم وقسيهم وهراوتهم حتى إذا كانوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قدر مائتي ذراع. قال الدليل وهو سراقة بن مالك انظروا إلى هذا الحجر. ثم قال لا أدري أين وضع رجله. قال الفتيان أنت لم تخطىء منذ الليلة أثره حتى إذا أصبحنا. قال انظروا في الغار. فاستقدم القوم حتى إذا كانوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قدر خمسين ذراعاً نظروا فإذا حمامتان وحشيتان بفم الغار. فرجعوا وقالو رأينا حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفنا أنه ليس فيه أحد فسمعهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرف أن الله درأ بهما عنه فشمت عليهما. يعني أنه بارك عليهما فأحرزهما الله تعالى في الحرم فأفرختا فيه كما هما إلى الآن. وفي خبر آخر زيادة وقد كان أبو بكر أمر عامر بن فهيرة أن يرعى له غنمه بثور. فكان يريح إليهما غنمه وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بأخبار أهل مكة فكانا فيه ثلاث ليال، وكانا يريحان الغنم. ويحلبان كل ليلة ما أرادا فلما هدأوا من الالتماس وجاءهم عبد الله بن أبي بكر فأخبرهم بذلك، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وعامر بن فهيرة واستأجرا رجلاً من بني الدئل يهديهم الطريق يقال له عبد الله بن أريقط. أخذ بهم أسفل مكة حتى خرجوا قريباً من جدة ثم عارضوا الطريق قريباً من عسفان، ففطن سراقة بن مالك آثارهم فلبس لأمته وركب فرسه حتى أدرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرسخت قوائم فرسه فقال يا محمد ادع الله أن يطلق فرسي فإني أرى الحي قد التمسوني. فإن أكن وراءك خير لك فأرد عنك من وراءي من الناس فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم إن كان صادقاً فأطلق فرسه. فانطلق فرسه. فقال يا محمد خذ سهماً من كنانتي فمر به على إبلي، فإن أردت لبوناً فخذ، وإن أردت حمولة فخذ، فرجع سراقة فوجد الناس يلتمسون أثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ههنا وقد عرفتم من بصيرتي بالآثار. قال فرجعوا عنه. فقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أبي بكر المدينة فذلك قوله تعالى (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ) قوله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا**﴾ وإنما كان يخاف أبو بكر على نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ذهاب التوحيد والإسلام لا على نفسه. (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) في الدفع عنا ﴿**فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ**﴾ يعني: طمأنينته عليه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يعني: على أبي بكر، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تزل السكينة معه. وقال حبيب بن أبي ثابت «فأنزل الله سكينته عليه» يعني: على أبي بكر، وقال في رواية الكلبي: فأنزل الله سكينته على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى سكن واطمأن. قال حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا أحمد بن محمد الحاكم القاضي قال حدثنا أحمد بن جرير قال حدثنا الحسن بن عرفة قال حدثنا أبو سوار عن أبي العطوف عن الزهري.قال: قال رسول[1] الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحسان بن ثابت هل قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال نعم. قال فقل حتى أسمع فقال[2]:

وَثَانِيَ اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ ... طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ يَصْعَدُ الْجَبَلا
وَكَانَ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا ... مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٢٣/١/٣ والحاكم في المستدرك ٧٧/٣، ٨٨ وذكره السيوطي في المنثور ٢٤١/٣ والهندي في الكنز (٣٥٦٧٣، ٣٥٦٨٥).

(٢) انظر ديوانه ٣٠٠.

قال فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه. وقال صدقت يا حسان هو كما قلت. ثم قال تعالى ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: يوم بدر والأحزاب وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يعني: الشرك بالله تعالى ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ يعني: شهادة أن لا إله إلا الله. قرأ الأعمش ويعقوب الخضرمي وَكَلِمَةَ اللَّهِ بالنصب يعني وجعل كلمةَ اللَّهِ. وقراءة العامة وكلمةُ اللَّهِ بالضم على معنى الاستئناف ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ حكم بإظهار التوحيد وإطفاء دعوة المشركين. قوله تعالى:

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ قال الكلبي[١]. خفافاً. يعني أهل العسرة من المال وقلة العيال، وثقالاً يعني أهل الميسرة في المال والصبية العيال. وقال الكلبي: ويقال فيها وجه آخر. انفروا خفافاً يقول نشاطاً في الجهاد. وثقالاً غير نشاط في الجهاد. وكذا قال مقاتل. ويقال[٢] انفروا خفافاً وثقالاً يعني شباناً وشيوخاً وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن أبا[٣] طلحة الأنصاري قرأ هذه الآية انفروا خفافاً وثقالاً فقال ما أرى الله تعالى إلا سينفرنا شباناً وشيوخاً. قال جهزوني. فقلنا قد غزوت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وعمر. وأنت اليوم شيخ كبير. قال جهزوني فجهزناه، فركب البحر فمات في غزاته. وروى سفيان عن منصور عن الحكم[٤] قال: مشاغيل وغير مشاغيل. وروى مسروق عن أبي الضحى[٥] قال: أول ما نزلت من سورة براءة هذه الآية (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً) ثم نزل أولها وآخرها. وروي عن ابن عباس أنه قال نسختها هذه الآية (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) وقال بعضهم ليست بمنسوخة ولكنها في الحالة التي وقع فيها النفير وجب على جميع الناس الخروج إلى الجهاد وإذا لم يكن النفير عاماً يكون قرضاً عاماً. فإذا خرج بعض الناس سقط عن الباقين وبه نأخذ. ثم قال تعالى ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني الجهاد خير لكم من الجلوس ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني تصدقون

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٢٩٦.

(٢) من كلام عكرمة رضي الله عنه ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٤٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن سعد وابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حيان وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للفريابي وأبي الشيخ.

بثواب الله ويقال معناه ان كنتم تعلمون أن الخروج إلى الجهاد خير لكم من القعود فانفروا خفافاً وثقالاً. ثم نزل في شأن المنافقين الذين تخلفوا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ يعني: غنيمة قريبة ويقال سهلاً قريباً ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ يعني هيناً يقيناً ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ يعني: لو علموا أنهم يصيبون مغنماً (لاتّبعوك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة السفر يعني: ثقل عليهم السفر ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي الذين تخلفوا ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ يعني: لو قدرنا. ولو كانت لنا سعة في المال والزاد ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى الغزو. وقال الله تعالى ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني بحلفهم كذباً ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بحلفهم وأن لهم سعة للخروج ولكنهم لم يريدوا الخروج. قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ وذلك أن بعض المنافقين استأذنوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ولم يكن لهم عذر. فأذن لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) وقال عون بن عبد الله أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب ويقال إن النبي ـ عليه السلام ـ فعل فعلين قبل أن يؤذن له فعاتبه الله على ذلك وعفا عنه. أحدهما في فداء أسارى بدر، والثاني في إذنه للمنافقين بالتخلف فقال له عَفَا اللَّهُ عَنكَ ولم يقل يعافيك لم أذنت لهم في التخلف والقعود عن الجهاد.

قال الفقيه سمعت من يذكر عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال معناه: عافاك الله يا سليم القلب لم أذنت لهم. فيقال إن الله تعالى إذا قال لعبده لم فعلت كذا وكذا؟ يكون ذلك أشد عليه من الموت كذا وكذا مرةً لهيبة قوله لم فعلت كذا؟ ولو أنه بدأ للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله لم أذنت لكان يخاف على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام إلا أن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ثم قال « لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ» بالقعود عن الجهاد ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني معرفة الذين صدقوا بعذرهم وإيمانهم ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ في عذرهم وإيمانهم ويقال معناه حتى يتبين لك المؤمن المخلص من المنافق. ثم بين له علامة المؤمنين وعلامة المنافقين فقال الله تعالى ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ يعني: بغير عذر ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في السر والعلانية ﴿أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ يعني بالمؤمنين المخلصين. ثم ذكر علامة المنافقين فقال ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ يعني: في القعود عن الجهاد ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني لا يصدقون في السر ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: شكت قلوبهم ونافقت قلوبهم (ولا يتوبون ولا يرجعون عن ذلك)[1]﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يعني في شكهم ونفاقهم يتحيرون. قوله تعالى:

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك إلى الغزوة ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ يعني: اتخذوا لأنفسهم قوة من السلاح. معناه إن

(١) سقط في ظ.

تركهم العدة دليل على إرادتهم التخلف ثم قال: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ يعني: لم يرد الله خروجهم معك لخبثهم وسوء نياتهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ يعني: حبسهم وأقعدهم عن الخروج. ويقال ثقلهم عن الخروج. ويقال جعل حلاوة الجلوس في قلوبهم حتى أقعدهم عن الخروج ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ يعني ألهموا وخيل لهم القعود مع المتخلفين. ثم أخبر الله تعالى أن لا منفعة للمسلمين في خروجهم معهم بل عليهم مضرة منهم فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾ يعني: المنافقين لو خرجوا معكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ يعني فساداً. ويقال شراً وجبناً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ يقول: ساروا بينكم، والإيضاع في اللغة هو إسراع الإبل. كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أفاض من عرفات: أيها الناس عليكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل ولا في إيجاف الخيل يعني إن المنافقين لو خرجوا معكم يسرعون الإبل فيما بينكم ويؤتونكم. ثم قال ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يعني يطلبون منكم الشرك ويطلبون هزيمتكم وعيوبكم ويفشون سركم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ يعني: وفي عسكركم عيون وجواسيس للمنافقين. ويقال: وفيكم من يسمع ما يقول المنافقون ويقبلون منه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعني بالمنافقين، وهذا وعيد لهم. يعني: عليم بعقوبتهم ثم قال عز وجل ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: من قبل غزوة تبوك. لأنهم قصدوا قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل كثرة المؤمنين. ويقال طلبوا إظهار الشرك قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ يعني: احتالوا في هلاكك من كل وجه. ويقال: قلبوا لك الأمور ظهراً لبطن، فانظر كيف يصنعون ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني: كثر المسلمون، ويقال حتى جاء الحق يعني: الإسلام ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: ظهر دين الله الإسلام ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ يعني: كارهون الإسلام. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾ يعني جد بن قيس كان من المنافقين، حرضه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الخروج إلى الغزو فقال يا رسول الله: إن قومي يعلمون حرصي على النساء فأخشى إني لو خرجت وقعت في الإثم ولا تفتني ببنات الأصفر. وكان الأصفر رجلاً من الحبش ملك ناحية من الروم فتزوج رومية فولدت له بنات اجتمع فيهم سواد الحبش وبياض الروم، فكن فتنة فقال جد بن قيس لا تفتني ببنات الأصفر فإني أخاف أن لا أصبر وأضع يدي على الحرام فأذن له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقعود. فنزل «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي» يعني من المنافقين من يقول ائذن لي في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ يعني: ولا توقعني في الفتنة ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يعني: في الكفر والنفاق وقعوا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني: جعلت جهنم للكافرين، وهو جد بن قيس ومن تابعه قوله تعالى:

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ**﴾ يعني إن أصابك الغنيمة والنصر ساءهم ذلك ﴿**وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ**﴾ يعني الشدة والنكبة الهزيمة ﴿**يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ**﴾ يعني: حذرنا بالقعود والتخلف من قبل المصيبة ﴿**وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ**﴾ بما أصابك وبتخلفهم. قال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**﴾يعني: إلّا ما قضى لنا وقدر علينا من شدة أو رخاء. ويقال إلّا ما كتب الله لنا يعني في اللوح المحفوظ، ويقال إلّا ما كتب الله لنا في القرآن وهو قوله تعالى (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) ثم قال ﴿**هُوَ مَوْلَانَا**﴾ أي: ولينا وناصرنا وحافظنا ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ يعني وعلى المؤمنين واجب أن يتوكلوا على الله. ويقال: وعلى الله فليثق الواثقون، ثم قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**﴾ إمّا الشهادة وإمّا الغنيمة ﴿**وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ**﴾ يعني ننتظر بكم ﴿**أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ**﴾ وهو الموت ﴿**أَوْ بِأَيْدِينَا**﴾يعني: فيأمرنا أن نقتلكم، ويقال معناه قل هل تربصون بنا إلّا إحدى الحسنيين يعني: إلا إحدى الخيرين. ونحن نتربص بكم إحدى الشرين. فبين ما ننتظر وتنتظرونه فرق عظيم. ﴿**فَتَرَبَّصُوا**﴾ يعني: انتظروا بنا الهلاك ﴿**إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**﴾ يعني: المنتظرين لإهلاككم، ثم قال عز وجل: ﴿**قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً**﴾ يعني: قل للمنافقين أنفقوا طوعاً من قبل أنفسكم أو كرهاً مخافة القتل ﴿**لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ**﴾ النفقة ﴿**إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾ يعني: منافقين. فقوله أنفقوا اللفظ لفظ الأمر والمعنى معنى الخبر يعني إن أنفقتم. كما إنه يذكر لفظ الخبر والمراد به الأمر كقولك غفر الله لك وقولك رحم الله فلاناً. يعني اللهم اغفر له. وههنا اللفظ لفظ الأمر ومعناه الخبر والشرط يعني إن أنفقتم طوعاً أو كرها لن يتقبل منكم. قرأ حمزة والكسائي[1] كُرْهاً بضم الكاف. وقرأ الباقون كَرْهاً بالنصب. ثم بين المعنى الذي لم تقبل نفقاتهم من أجله فقال تبارك وتعالى ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**﴾ يعني في السر. قرأ حمزة والكسائي[2] لَنْ يُقْبَل بالياء على لفظ التذكير. وقرأ الباقون بلفظ التأنيث لأن الفعل مقدم، فيجوز أن يذكر ويؤنث قوله: ﴿**وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى**﴾ يعني: متثاقلين ولا يرونها واجبة عليهم ﴿**وَلَا يُنْفِقُونَ**﴾ في الجهاد ﴿**إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ غير محتسبين. ثم قال عز وجل ﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ**﴾ يعني: كثرة أموالهم ﴿**وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ في الآية تقديم وتأخير. قال ابن عباس: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ثم قال ﴿**وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ**﴾ يعني تذهب أنفسهم وتقبض أرواحهم. وأصله الذهاب كقوله تعالى: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وزَهَقَ الْبَاطِلُ) ﴿**وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ يعني يقبض أرواحهم على الكفر. قوله تعالى:

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ

---

(١) حجة القراءات ٣١٩.

(٢) انظر المصدر السابق.

وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يعني إنهم مؤمنون على دينكم في السر وهم كاذبون في ذلك القول ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ يعني ليسوا على دينكم في السر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يعني: يخشون. فأظهروا الإيمان وأسروا النفاق قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ يعني حرزاً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ يعني الغيران في الجبل. وقال القتبي: كل شيء غرت فيه فغبت فيه غار ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾يعني: سرياً في الأرض ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾يعني ذهبوا إليه وتركوك ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في المشي ومنه قيل: فرس جموع إذا ذهب في عدوه فلم يفته شيء ويقال الجمح مشي بين مشيتين وهو من لغات اليمن. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ روي عن ابن كثير أنه قرأ يَلْمُزُكَ بضم الميم والباقون بالكسر وهما لغتان ومعناهما واحد. يقول من المنافقين من يطعنك ويعيبك، ويقال لمزته إذا عبته. وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري[1] قال: بينما رسول الله ـ عليه السلام ـ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة، التميمي فقال اعدل يا رسول الله، فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله أتأذن لي فأضرب عنقه. فقال دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدُكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمْرُق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود إحدي ثدييه[2] مثل ثدي المرأة البضعة يخرجون على حين فرقة من الناس. ويروى على حين الفتن من الناس فنزلت فيهم «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ» الآية. قال أبو سعيد أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ـ عليه السلام ـ وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه أتى بالرجل بالنعت الذي نعته رسول الله ـ عليه السلام ـ وروي عن ابن عباس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعطى المؤلفة قلوبهم من الصدقات فقال أبو الخواص والنبي ـ عليه السلام يعطي وروى بعضهم أبو الجواظ ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم؟ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أبالك أما كان موسى راعياً؟ أما كان داود راعياً؟ فذهب أبو الخواص فقال النبي ـ عليه السلام ـ احذروا هذا وأصحابه[3]فنزل (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ يعني الصدقات ﴿رضوا﴾ بالقسمة ﴿وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ لا يرضون بالقسمة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يعني إنهم لو رضوا بما رزقهم الله تعالى وبما يعطيهم رسول الله من العطية ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ يعني يقيننا بالله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني سيعطينا الله من رزقه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ يعني سيعطينا رسول الله من الغنيمة إذا كان عنده سعة وفضل ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ يعني طامعون وراجون. ولم يذكر جوابه لأن في الكلام دليلاً عليه، ومعناه ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم. ثم بين لهم موضع الصدقات فقال

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ يعني ليست الصدقات للذين يلمزونك في الصدقات وإنما الصدقات ﴿لِلْفُقَرَاءِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٠، ٥٠٥٨، ٦١٦٣، ٦٩٣١، ٤٣٥١، ٤٦٦٧، ٧٤٣٢) وأخرجه مسلم في الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاته (١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٠٦٤) وانظر الدر المنثور ٣/ ٢٥٠.

(٢) في الحديث في إحدى يده.

(٣) قال الحافظ ابن حجر ٢/ ٢٨٢ في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف لم أجده.

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ قال بعضهم الفقراء الضعفاء الأحوال الذين لهم بلغة من العيش بدليل قول الشاعر[1]

أمـا الفقيـر الـذي كـانت حَلُوبَتُـه   وَفْقَ العِيـال فلم يُتـرك لـه سَبَـدُ

والمسكين الذي لا شيء له بدليل قول الله تعالى (أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) يعني الذي لم يكن بينه وبين التراب شيء يقيه منه. وقال بعضهم الفقير الذي لا شيء له والمسكين الذي له أدنى شيء. كما قال الله تعالى (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) سماهم مساكين وإن لهم سفينة. وقال بعضهم: الفقير الذي لا يسأل الناس إلحافاً. كما قال الله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إلى قوله (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) والمسكين الذي يسأل الناس. وقال بعضهم الفقير الذي يسأل الناس والمسكين الذي لا يسأل الناس كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ليس المسكين الذي يطوف على أبوابكم فتردونه باللقمة واللقمتين وإنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه. وقال قتادة، الفقير الذي به زمانة والمسكين الصحيح المحتاج. وقال بعضهم الفقير الذي يكون عليه زي الفقر ولا تعرف حاجته والمسكين الذي يكون عليه زي الفقر وتكون حاجته ظاهرة ثم قال: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السعاة الذين يجبون الصدقات فيعطون على قدر حاجتهم ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم قوم كان يعطيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتألفهم بالصدقات على الإسلام وكانوا رؤساء في كل قبيلة، منهم أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وصفوان بن أمية وغيرهم. فلما توفي رسول الله ـ عليه السلام ـ جاؤوا إلى أبي بكر وطلبوا منه، فكتب لهم كتاباً فجاؤوا بالكتاب إلى عمر بن الخطاب ليشهدوه. فقال أي شيء هذا؟ فقالوا سهمنا. فأخذ عمر الكتاب ومزقه وقال إنما كان يعطيكم النبي ـ عليه السلام ـ يتألفكم على الإسلام. فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف، فرجعوا إلى أبي بكر. فقالوا أنت الخليفة أم هو؟ قال: هو إن شاء. فبطل سهمهم ثم قال ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: وفي فك الرقاب وهم المكاتبون ثم قال ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ يعني: أصحاب الديون الذين استدانوا في غير فساد ولا تبذير. وقال مجاهد[2] ثلاثة من الغارمين رجل ذهب السيل بماله ورجل أصابه حريق فهلك ماله ورجل ليس له مال وله عيال فهو يستدين وينفق على عياله. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الذين يخرجون إلى الجهاد ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يعني المسافر المنقطع من ماله. قال بعضهم وجب أن يقسم الصدقات على ثمانية أصناف وهو قول الشافعي كما بين في هذه الآية. وقال أصحابنا إذا صرف الصدقات إلى صنف من هذه الأصناف جاز وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال إذا اعطى الرجل الصدقة صنفاً واحداً من الأصناف الثمانية جاز. وعن عبد الله بن عباس أنه قال إذا وضعتها في صنف واحد فحسبك. إنّما قال «إنّما الصدقات للفقراء» لأن لا تجعلها في غير هذه الأصناف. وعن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه أتي بصدقة فبعث بها إلى أهل بيت واحد. ثم قال تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ يعني وضع الصدقات في هذه المواضع فريضة من الله وهو مما أمر الله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأهلها ﴿حَكِيمٌ﴾. حكم قسمتها وبينها لأهلها. قوله تعالى:

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ

(١) وهو قول الراعي انظر تفسير القرطبي ١٠٧/٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣٥٢/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ قال ابن عباس نزلت في جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد ومحشر بن خويلد وأبو ياسر بن قيس وذلك أنهم كانوا يتنالون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رجل منهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه الخبر. فقال الجلاس نقول ما نشاء فإنما (هُوَ أُذُنٌ) سامعه ثم نأتيه فيصدقنا. والأذن الذي يقبل كل ما قيل له. قال تعالى: (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ) يعني: إن كان الأمر كما تذكرون فهو خير لكم ولكنه (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) يعني يصدق الله ويصدق المؤمنين لا أنتم. والباء واللام زائدتان يعني ويصدق محمد المؤمنين فذلك قوله تعالى (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ) يعني من المنافقين من يؤذي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يعني سامع لمن حدثه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ[1]﴾ قرأ العامة قل أُذُنُ بغير تنوين خَيْرٍ لَكُمْ بالكسر. وقرأ بعضهم قل أذُنٌ بالتنوين وَخَيْرٌ بالتنوين والضم. فمن قرأ أُذُنٌ بالتنوين فمعناه إن كان محمد كما قلتم أذنٌ فهو خيرٌ لكم. أي صلاح لكم ومن قرأ بالكسر أُذُنُ خَيْرٍ فهو على معنى الإضافة أي أذن خير وأذن نعمة. وقرأ نافع قل أُذْن بجزم الذال والباقون بالضم وهما لغتان ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يعني: يصدق بالله تعالى في مقالته ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني يصدق قول المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يعني هو نعمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: هو نعمة الذين آمنوا في السر والعلانية. قرأ حمزة ورحمةٍ على معنى الإضافة يعني: أذن رحمة. وقرأ الباقون ورحمةٌ بالضم على معنى الاستئناف. ثم قال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: وجيع. ثم جاؤوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحلفوا فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون في حلفهم فقال ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ بحلفهم الكاذب ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ قال الزجاج: لم يقل أحق أن يرضوهما لأن في الكلام دليلاً عليه لأن في رضى الله تعالى رضى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحذف تخفيفاً ومعناه والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلفُ

أي نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راضٍ. ويقال يكره أن يجمع بين ذكر الله تعالى وذكر رسوله في كتابة واحدة ويستحب أن يكون ذكر الله تعالى مقدماً و ذكر النبي ـ عليه السلام ـ مؤخراً. وذكر في بعض الأخبار أن خطيباً قام عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال النبي ـ عليه السلام ـ بئس الخطيب أنت. لأنه كان يجب أن يقول ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى. ثم قال ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بقلوبهم في السر قوله تعالى:

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ

---

(١) قرأ نافع: (قل هو أُذْن) بإسكان الذال في كل القرآن. كأنه استثقل ثلاث ضمات فسكن وقرأ الباقون بضم الذال على أصل الكلمة، قرأ أبو بكر في رواية الأعشى: (قل هو أذنٌ) منون (خير لكم) بالرفع والتنوين المعنى: (قل يا محمد فمن يستمع منكم ويكون قريباً منكم قابلاً للعذر خير لكم).

وقرأ الباقون (أذن خيرٍ) بالإضافة وهو نفي لما قالوه المعنى: (أذن خير لا أذن شر) أي مستمع خير ثم بين ممن يقبل فقال: (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أي يسمع ما ينزله الله عليه فيصدق به ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه ولا يصدق المنافقين والباء واللام زائدتان المعنى: يصدق الله ويصدق المؤمنين). انظر حجة القراءات ٣١٩ ـ ٣٢٠.

ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أنه مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يخالف الله ورسوله، ويقال يخالف أمر الله وأمر رسوله. يعني أمر الله تعالى في الفرائض وأمر رسوله في السنن وفيها بيِّن. وقال الأخفش يحادد الله يعني يعادي الله ورسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ بعضهم فإن له بالكسر على معنى الاستئناف. وقرأ العامة بالنصب على معنى البناء ﴿خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: العذاب الشديد قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال الزجاج. قوله يحذر لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر. أي ليحذر المنافقون. ويقال هو على وجه الخبر يحذر. يعني: يخشى المنافقون. وذلك أن بعضهم قال لو أني جلدت مائة جلدة أحب إليّ من أن ينزل فينا شيء يفضحنا. فنزل (يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّؤُهُمْ﴾ يعني سورة براءة (تُنَبِّؤُهُمْ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق. وكانت سورة براءة تسمى الفاضحة. ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ يعني مظهر ما تخافون من إظهار النفاق. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وذلك أن رسول الله ـ عليه السلام ـ حين رجع من تبوك وبين يديه هؤلاء الثلاثة يسيرون ويقولون إن محمداً يقول إنّه نزل في إخواننا الذين تخلفوا بالمدينة كذا وكذا وهم يضحكون ويستهزؤون. فأتاه جبريل فأخبره بذلك فبعث إليهم النبي ـ عليه السلام ـ عمار بن ياسر وقال له اذهب إلى أولئك واسألهم عماذا يتحدثون ويضحكون وأخبره أنهم يستهزؤون بالقرآن وأنه إذا أتاهم وسألهم يقولون إنّما كنا نخوض ونلعب. فلما جاء إليهم عمار بن ياسر قال لهم ما كنتم تقولون؟ قالوا إنما كنا نخوض ونلعب فيما يخوض فيه الركب إذا ساروا ونضحك بيننا. فقال عمار صدق الله وبلغ رسوله هكذا أخبرني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنكم تقولون ذلك. غضب الله عليكم هلكتم فعرفوا عند ذلك أنه نزل فيهم شيء فجاؤوا واعتذروا فنزل[1]: ﴿قُلْ﴾ يعني: قل لهم يا محمد ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ القرآن ﴿وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تستهزؤون﴾وقال قتادة إذا رأيا العبد يقول الله انظروا إلى عبدي يستهزىء قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون فجاؤوا إلى النبي واعتذروا فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يعني: كفرتم في السر بعد إيمانكم في العلانية. (ويقال قد أقمتم على كفركم الأول في السر بعد إيمانكم مع إقراركم في العلانية)[3] بالإيمان ﴿إِنْ نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ وكان فيهم مخلص واحد، ولم يقل معهم شيئاً ولكن ضحك معهم فقال (إن نعف عن طائفة منكم) وهو المؤمن المخلص ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ يعني المنافقين. وقال القتبي: قد يذكر الجماعة ويراد به الواحد كقوله «إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ) وهم المخلصون (نُعَذِّبْ طَائِفَةً) وهم الطَّيِّبَاتِ) وأراد به النبي ـ عليه السلام ـ. ويقال (إن نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ) وهم المخلصون (نُعَذِّبْ طَائِفَةً) وهم المنافقون ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني: مذنبين كافرين في السر. قرأ عاصم[4] إنْ نَعْفُ بالنون نُعَذِّبْ بالنون

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٣٠٨.

(٢) سقط في «أ».

(٣) سقط في «أ».

(٤) انظر حجة القراءات ٣٢٠، وسراج القارىء ٢٣٧.

وكسر الذال طائفةً بالنصب. وقرأ الباقون إنْ يُعفَ بالياء والضم تُعَذَّب التاء ونصب الذال طائفةٌ بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله. قوله تعالى:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ**﴾ يعني: من الرجال والنساء ﴿**بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾ يعني: بعضهم على دين بعض في السر ﴿**يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ**﴾ يعني: بالتكذيب بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالشرك وبما لا يرضي الله تعالى. ويقال: المنكر ما يخالف الكتاب والسنة ﴿**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾ يعني: عن التوحيد واتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**﴾ يعني: يمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله ويقال كفوا عن الحق ﴿**نَسُوا اللَّهَ**﴾ يقول: تركوا طاعة الله ﴿**فَنَسِيَهُمْ**﴾ يعني تركهم في النار ويقال تركهم في الحرمان والخذلان كقوله تعالى (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ يعني: الخارجين عن طاعة الله تعالى. وكل منافق فاسق وقد يكون فاسقاً ولا يكون منافقاً. ولا يكون منافقاً إلا وهو فاسق. ثم قال عز وجل: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ**﴾ الوعد يكون بالخير ويكون بالشر إذا قيد به والوعيد لا يكون إلّا بالشر فقال (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ) ﴿**وَالْمُنَافِقَاتِ**﴾ يعني المنافقين الذين كانوا بالمدينة ومن كان على مذهبهم ويكون إلى يوم القيامة ﴿**وَالْكُفَّارَ**﴾ وهم أهل مكة ومن كان يمثل حالهم ﴿**نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ**﴾ يعني: تكفيهم النار جزاءً لكفرهم ﴿**وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ**﴾ يعني: طردهم الله من رحمته ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾ يعني: دائم. قوله ﴿**كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ يعني صنيعكم مع نبيكم كما صنع الأمم الخالية مع أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ. وقال الضحاك: يعني: لعن المنافقين كما لعن الذين من قبلكم من الأمم الخالية. ويقال ولهم عذاب دائم كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿**كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلَاداً**﴾ يعني: لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً ولا ينفعكم أموالكم ولا أولادكم أيضاً ﴿**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ**﴾ يعني: فانتفعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا ﴿**فَاسْتَمْتَعْتَمْ بخلاقكم**﴾ كما يقول انتفعتم أنتم بنصيبكم من الآخرة في الدنيا ﴿**كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ من الأمم الخالية ﴿**بِخَلَاقِهِمْ**﴾ أي بنصيبهم ﴿**وَخُضْتُمْ**﴾ في الباطل ﴿**كَالَّذي خَاضُوا**﴾ ويقال كذبتم الرسول كما كذبوا رسلهم ﴿**أُولَئِكَ**﴾ يعني أهل هذه الصفة حبطت أعمالهم ﴿**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ يعني: بطل ثواب أعمالهم. فلا ثواب لهم لأنها كانت في غير إيمان ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ يعني: في الآخرة. قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: ألم يأتهم خبر الذين من قبلهم في القرآن عند التكذيب، كيف فعلنا بهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف أغرقناهم ﴿وَ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ كيف أهلكناهم بالريح العقيم ﴿وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح كيف أهلكناهم بالصيحة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو النمرود بن كنعان كيف أهلكناه بأضعف الخلق وهو البعوض ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب كيف أهلكناهم بعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ يعني: مدائن قوم لوط. والمؤتفكات جمع المؤتفكة لأنها ائتفكت بهم. يعنى انقلبت. كقوله تعالى (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) يعني أمطرت عليهم الحجارة، وقال مقاتل: المؤتفكات يعني المكذبات ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي فتركوا طاعتي فأهلكتهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني: لم يهلكهم بغير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتركهم طاعتي وتكذيبهم الرسل قوله تعالى:

وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني: بعضهم على دين بعض وبعضهم معين لبعض في الطاعة ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: بالإيمان واتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يعني: عن الشرك ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعين: يقرون بها ويقيمونها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي ويقرون بها ويؤدونها قوله: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يطيعون الله في فرائضه ويطيعون الرسول في السنن وفيما بَيَّنَ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني ينجيهم الله من العذاب الأليم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره، حكم للمؤمنين بالجنة وللكافرين بالنار قال الفقيه: ذكر عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: سيرحمهم الله في خمسة مواضع: عند الموت وسكراته، وفي القبر وظلماته، وعند الكتاب وحسراته، وعند الميزان ونداماته، وعند الوقوف بين يدي الله تعالى وسؤالاته. قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾أي: المصدقين من الرجال والمصدقات من النساء ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ يعني: منازل طاهرة تطيب فيها النفس ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ في قصور من الدُّر والياقوت.

وقال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل وعبد الله بن محمد قالا حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضيل العابد قال: حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا سفيان بن حصين عن يعلى بن مسلم عن مجاهد قال: قرأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبر «جَنَّاتِ عَدْنٍ» فقال هل تدرون ما جنات عدن؟ قال: قصر في الجنة من ذهب له خمسمائة ألف باب وعلى كل باب خمسة وعشرون ألفاً من الحور العين لا يدخلها إلا نبي. وهنيئاً لصاحب القبر وأشار الى قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو صديقٍ وهنيئاً لأبي بكر أو شهيد. وأنَّى لعمر بالشهادة. ثم قال ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يقول رضاء الرب عنهم أعظم مما هم فيه من الثواب والنعيم في الجنة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: النجاة الوافرة. قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾

﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِي جَاهِدِ ٱلْكُفارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ**﴾ يعني جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالقول الشديد. قال ابن[1] مسعود في قوله جاهد الكفار والمنافقين. قال جاهد بيدك فإن لم تستطع فبلسانك فإن لم تستطع فبقلبك والقه بوجه مكفهر. وعن الحسن[2] قال جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحدود. يعني أقم عليهم حدود الله ﴿**وَٱغْلظْ عَلَيْهِمْ**﴾ يعني: أشدد عليهم. يعني على الفريقين جميعاً في المنطق. ثم بين مرجعهم جميعاً في الآخرة وقال: ﴿**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**﴾ يعني مصيرهم ومآلهم إلى جهنم ﴿**وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ الذي صاروا إليه. ثم بين خبثهم وسؤ معاملتهم وفعالهم فقال الله تعالى: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا**﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجساً. فقال الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير. فسمع عامر بن قيس ذلك فقال والله ان محمداً لصادق ولأنتم شر من الحمير فلما رجعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاه عامر بن قيس فأخبره فقال الجلاس بل كذب عليّ وأمرهما أن يحلفا عند المنبر. فقام الجلاس وحلف ثم قام عامر بن قيس وحلف إنه قد قاله وما كذبت عليه. ثم رفع يديه فقال اللهم أنزل على نبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيِّن الصادق منا. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون آمين. فنزل جبريل قبل أن يتفرقوا بهذه الآية (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴿**وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ**﴾ يقول كفروا في السر بعد أن أقروا في العلانية ﴿**وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾ يعني: أرادوا قتل عامر بن قيس. ويقال قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنهم اجتمعوا ذات ليلة في مضيق جبل ليقتلوه إذا مر بهم. فدفعهم الله عنه. ويقال «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» وهو قول عبد الله بن أُبي بن سلول لأصحابه (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ) وقال: سَمِّن كلبك يأكلك. يعني نحن سلطناهم على أنفسنا فنزل: (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) وقال مقاتل كان المنافقون أصحاب العقبة هموا ليلاً بقتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعقبة في غزوة تبوك. فنزل وهموا بما لم ينالوا. وهكذا قال الضحاك. ثم قال تعالى ﴿**وَمَا نَقَمُوا**﴾ يعني: وما عابوا وما طعنوا على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم المدينة وكان أهل المدينة في شدة من عيشهم لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة. فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة استغنوا (فذلك قوله إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ثم)[3] قال الله تعالى ﴿**فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ**﴾ يعني إن تابوا من الشرك والنفاق، يكون خيراً لهم من الإقامة عليه ﴿**وَإِنْ يَتَوَلَّوْا**﴾ أبوا عن التوبة ﴿**يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ**﴾ يعني: في الدنيا بإظهار حالهم وفي الآخرة في نار جهنم ﴿**وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ يعني مانع يمنعهم من العذاب وذكر أنه لما نزلت هذه الآية تاب الجلاس بن سويد وحسنت توبته. قوله تعالى:

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٥٨ وعزاه البيهقي في شعب الإيمان.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق عن قتادة وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٣) سقط في أ.

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ قال في رواية الكلبي: نزلت الآية في شأن حاطب بن أبي بلتعة كان له مال بالشام فجهد بذلك جهداً شديداً فحلف بالله ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني المال الذي بالشام ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منه ولأؤدين حق الله تعالى منه. فلم يفعل لمَّا أعطاه الله المال. قال مقاتل نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري. كان محتاجاً فقال (لَئِنْ آتَانَا) الله (مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ). فابتلاه الله فرزقه ذلك. وذلك أن مولًى لعمر بن الخطاب قتل رجلاً من المنافقين خطأ فدفع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ديته إلى عصبته وهو ثعلبة فبخل ومنع حق الله تعالى

قال الفقيه حدثنا أبو الفضل ابن أبي حفص قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال حدثنا الربيع بن سليمان المرادي قال: حدثنا أسد بن موسى قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: حدثنا معاذ بن رفاعة عن عليّ بن يزيد عن القاسم عن أبي[1] أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني مالاً. فقال ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. قال ثم رجع إليه فقيل يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال ويحك يا ثعلبة أما ترضى أن تكون مثلي. والله لو سألت الله تعالى أن يسيل عليّ الجبال ذهباً وفضة لسالت. ثم رجع إليه فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فوالله لئن آتاني الله مالاً لأؤدين لكل ذي حق حقه. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم ارزق ثعلبة مالاً. فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، حتى ضاقت بها أزقة المدينة فتنحى بها. وكان يشهد الصلوات مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يخرج إليها. ثم نمت حتى تعذرت عليها مراعي المدينة فتنحى بها وكان يشهد الجمعة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يخرج إليها. ثم نمت فترك الجمعة والجماعات وجعل يتلقى الركبان ويقول ماذا عندكم من الخير وما كان من أمر الناس فأنزل الله تعالى على رسوله (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ) فاستعمل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين على الصدقات رجلاً من الأنصار ورجلاً من بني سليم وكتب لهما كتاب الصدقة وأمرهما أن يصدقا الناس وأن يمرا بثعلبة فيأخذا منه صدقة ماله، فأتيا ثعلبة وطلبا منه فقال صدقا الناس فإذا فرغتما فمرا بي. ففعلا فلما رجعا إليه وطلبا منه فأبى وقال ما هذه إلا أخية الجزية فانطلقا. حتى أتيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبراه فأنزل الله تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فركب رجل من الأنصار هو ابن عم لثعلبة راحلته حتى أتى ثعلبة فقال ويحك يا ثعلبة هلكت. قد أنزل الله فيك من القرآن كذا وكذا. فأقبل ثعلبة بن حاطب وجعل على رأسه التراب وهو يبكي ويقول يا رسول الله اقبض مني صدقة مالي. فلم يقبض منه صدقةً حتى قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أتى إلى أبي بكر فلم يقبل منه صدقته ثم أتى إلى عمر فلم يقبل صدقته ثم أتى إلى عثمان فلم يقبل صدقته ومات في خلافة عثمان فذلك قوله (فَلَمَّا آتَاهُمْ) يعني:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٦٠ وعزاه للحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال والطبراني وابن منده والبارودي وأبي نعيم في معرفة الصحابة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر.

لما أعطاهم (مِنْ فَضْلِهِ) يعني: من المال (بَخِلُوا بِهِ) بمنع حق اللّهِ تعالى (وَتَوَلَّوْا) عن الصدقة (وَهَمْ مُعْرِضُونَ) فلم يفوا بما قالوا (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ) يقول جعل عاقبتهم على النفاق (إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) وهو يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بقوله لئن آتانا الله من فضله لنصدقن. وقال عبد الله بن[1] مسعود: اعتبروا المنافق بثلاث. إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر. ثم قرأ (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللّهَ) إلى قوله (وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ). فقد ذكر الثلاثة في هذه الآية. قوله تعالى:

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في أصحاب العقبة حين هموا بما لم ينالوا. وهذا عطف على قوله (لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ. ﴿وَأَنَّ اللّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي علم غيب كل شيء مما هموا به. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعني يطعنون ويعيبون ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراد أن يخرج إلى غزوة تبوك حثَّ الناس على الصدقة. فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وزن كل درهم مثقالاً. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثرت هل تركت لأهلك شيئاً؟ فقال يا رسول الله كان مالي ثمانية آلاف درهم فأما أربعة آلاف درهم فأقرضتها ربي عز وجل، وأما أربعة آلاف فأمسكتها لنفسي. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله فيه حتى إنّه بلغ ماله حين مات أنه طلق إحدى نسائه الثلاث في مرضه فصالحوها عن ثلث الثمن لها بثمانين ألف درهم ونيف وفي رواية أُخرى ثمانين ألف دينار ونيف. وجاء عاصم بن عدي بسبعين[2] وسقاً من تمر وكل واحد منهم جاء بمقدار طاقته حتى جاء أبو عَقيل بن قيس بصاع من تمر وقال آجرت نفسي الليلة بصاعين فصاع أقرضته لربي وصاع تركته لأهلي. فأمره بأن ينثره في الصدقة[3]. وروي أن امرأة جاءت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتمرةٍ واحدة. فلم ينظر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها. فنزل (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) إلى آخره وكان نفر من المنافقين جلوساً يستهزؤون فقالوا لقد تصدق عبد الرحمن وعاصم بن عدي على الرِّب، فلقد كان الله غنياً عن صاع أبي عقيل. فنزل الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين يعني يطعنون المتصدقين الذين يتصدقون بأموالهم وهم عبد الرحمن وعاصم وغيرهما. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ قال أهل اللغة الجُهْدُ بالضم الطاقة والجَهْدُ بالفتح المشقة. وقال الشعبي الجُهْدُ هو العسرة يعني القلة والجَهْد بالنصب هو الجَهْدُ في العمل. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يقول: يستهزؤون بهم ﴿سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ﴾ يعني يجازيهم جزاء سخريتهم. وهذا كقوله: (اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) ثم قال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني وجيع دائم. فلما

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٦١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) وفي تفسير البغوي ٢/٣١٥ بمائة وسق.

(٣) انظر المصدر السابق.

نزلت هذه الآية جاؤوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا يا رسول الله استغفر لنا فنزل ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر. أي إن شئت استغفر لهم وإن شئت فلا تستغفر لهم. يعني للمنافقين ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ثم بَيَّنَ المعنى الذي لم يغفر لهم بسببه فقال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني في السر. وقال قتادة[1] ومجاهد لما نزلت هذه الآية قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأزيدنّ على سبعين. فاستغفر لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله يغفر لهم. فأنزل الله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني المنافقين الذين كفروا بالله ورسوله في السر والله تعالى لا يهديهم ما داموا ثابتين على النفاق. قوله تعالى:

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يقول عجب ورضي المتخلفون عن الغزو وهم المنافقون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ يعني: بتخلفهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ يعني: قال بعضهم لبعض لا تخرجوا إلى الغزو فإن الحر شديد. قال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ يعني لو كانوا يفهمون ويعقلون. وفي قراءة ابن مسعود لو كانوا يعلمون. ثم قال عز وجل ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به التوبيخ. قال الحسن[2] يعني (فليضحكوا قليلاً) في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة في النار ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني عقوبة لهم بما كانوا يكفرون. وعن أبي رزين أنه قال في قوله تعالى: فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً قال يقول الله تعالى: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا فإذا صاروا إلى النار بكوا بكاءً لا ينقطع فذلك الكثير. وروى الأعمش عن عمارة بن عمير عن أبي عامر عن عمرو بن شرحبيل قال: مر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ملأ من قريش وفيهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة فقال أبو جهل هذا نبيكم يا بني عبد مناف. فقال عتبة وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك. فسمعه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقبل عليهم وقال: أما أنت يا عتبة فلم تغضب لله ولا لرسوله وإنما غضبت للأصل. وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك إلا غير كثير من الدهر حتى تبكي كثيراً وتضحك قليلاً. وأما أنتم يا ملأ قريش فوالله لا يأتي عليكم إلا غير كثير من الدهر حتى تدخلوا في هذا الأمر الذي تنكرون طائعين أو كارهين. قال فسكتوا كأنما ذر على رؤوسهم التراب فلم يردوا عليه شيئاً[3]. وروى أنس بن[4] مالك عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يرسل الله تعالى البكاء على أهل النار فيبكون حتى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ومثله عن ابن عباس انظر الدر المنثور ٣/٢٦٥.

(٣) أخرجه الطبري في التاريخ ٢/٣٤٧، ٣٤٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٢/١٤٤٦ في كتاب الزهد (٤٣٢٤) وذكره المنذري في الترغيب ٤/٤٩٢ والمتقي الهندي في الكنز ٣٩٥٢٦ـ وبنحوه ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٥.

تنقطع الدموع. ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود. قوله تعالى:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: إن رجعك الله من تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً﴾ إلى الغزو ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً﴾ ويقال معناه لن تخرجوا إلّا مطوعين من غير أن تكون لكم شركة في الغنيمة ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالتخلف عن غزوة تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ يعني: مع المتخلفين الذين تخلفوا بغير غذر. ويقال الخالف الذي يخلف الرجل في أهله وماله. ويقال الخالف الذي خالف قومه. ويقال الخالف الفاسد ويقال الخالف المرأة والخوالف النساء. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾ يعني لا تصل أبداً على من مات من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ يعني: لا تدفنه ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في السر ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني ماتوا على الكفر. قال مقاتل ذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء إليه ابن عبد الله بن أُبي بن سلول وهو رأس المنافقين حين مات أبوه فقال: أنشدك الله أن لا تشمت بي الأعداء. فطلب منه أن يصلي على أبيه. فأراد النبي أن يفعل. فنزلت هذه الآية. فانصرف النبي ـ عليه السلام ـ[1] ولم يصل عليه وقال في رواية الكلبي: لما اشتكى عبد الله بن أُبي بن سلول عاده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطلب منه عبد الله أن يصلي عليه إذا مات وأن يقوم على قبره وأن يكفنه في القميص الذي يلي جلده، فقبل ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عمر. فجئت إلى رسول الله ـ عليه السلام ـ حين أراد أن يصلي عليه، فقلت يا رسول الله أتصلي عليه وهو صاحب كذا وكذا؟ فقال دعني يا عمر. ثم عدت ثانياً ثم عدت ثالثاً، فنزلت هذه الآية. وروى عكرمة عن ابن[2] عباس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد صلى عليه وقام على قبره وكفنه في قميصه فنزل «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً» الآية. فنهي أن يصلي على أحد من المنافقين بعده. قال ابن عباس والله لا أعلم أي صلاة كانت؟ وما خادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنساناً قط. وفي خبر آخر: إنّ عمر قال: يا رسول الله أتصلي عليه وتعطيه قميصك وهو كافر منافق؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما علمتَ يا عمر عسى أن يسلم بسبب هذا القميص خلق كثير ولا يغنيه قميص من عذاب الله شيئاً. فأسلم من أهاليه ومن بني الخزرج خلق كثير. وقالوا لولا أن عبد الله عرفه حقاً ما تبرك بقميصه وما طلب منه أن يصلي عليه. ثم قال تعالى ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ يعني بالأموال في الآخرة على وجه التقديم ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. قوله تعالى:

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٣١٦ وانظر البخاري (١٢٦٩) (٥٧٩٦) ومسلم (٤/٢٧٧٤). والترمذي (٣٠٩٨) والنسائي (١٩٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٦٦، ٤٦٧١ وأخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٩٧) والنسائي في المجتبى (١٩٦٦).

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعني سورة براءة ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ صدقوا بقلوبكم كما أقررتم بلسانكم ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّولِ مِنْهُمْ﴾ يعني: استأذنك في القعود، أهل السعة والغنى من المنافقين ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ يعني: دعنا وائذن لنا نتخلف ونقعد مع القاعدين الذين تخلفوا في المدينة عن الجهاد ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ يعني: بأن يجالسوا النساء بالمدينة. يقال الخوالف هم خساس الناس ودناتهم يقال: خالفه أهل إذا كان دونهم ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ التوحيد. ويقال لا يعلمون ثواب الخروج إلى الجهاد. ثم قال عز وجل ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ﴾ يعني إن لم يجاهد المنافقون فالله تعالى غني عنهم ويجاهد الرسول ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ يعني إن لم تخرجوا أنتم. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ يعني الحسنات. ويقال زوجات حسان في الجنة، والخيرة الزوجة، والخيرة الثواب. وقال القتبي والأخفش الخيرات واحدها خيرة وهن الفواضل، وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال في قوله (وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ) قال: لكل مسلم خيرةٌ ولكل خيرةٌ خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من الله تعالى تحفة وكرامة وهدية لم يكن قبل ذلك، لا طمحات ولا مرحات ولا بخرات ولا دفرات (حورٌ عينٌ) كأنهن الآية. قال أهل اللغة طمحات يعني ناكسات رؤوسهن. مرحات خفيفة الروح. بخرات منتن ريح الفم. ودفرات منتن ريح الإبط. ثم قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: الناجون في الآخرة. قوله تعالى:

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني النجاة الوافرة والثواب الجزيل قوله تعالى ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قرأ ابن عباس المُعْذَرُونَ بالتخفيف وهكذا قرأ الحضرمي. وقراءة العامة المُعَذِّرُونَ بالتشديد[1] فمن قرأ بالتخفيف يعني الذين أعذروا وجاؤوا بالعذر. ومن قرأ بالتشديد يعني

(١) وقرأ الكسائي في رواية قتيبة: (وجاء المعذرون) بالتخفيف أي الذين يعذروا وجاؤوا بعذر. وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ويسون: =

المعتذرين إلا أن التاء أدغمت في الذال لقرب المخرجين يعني: الذين يعتذرون، كان لهم عذر أو لم يكن لهم، وهذا قول الزجاج. وروي عن ابن[1] عباس رضي الله عنه أنه قال: وجاء المُعْذَرُونَ بالتخفيف وهم المخلصون أصحاب العذر. وقال لعن الله المُعَذِّرِينَ بالتشديد لأن المعذِّرين هم الذين يعتلُّون بلا علة ويعتذرون بلا عذر ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فمن قرأ بالتشديد يكون هذا نعتاً لهم. ومن قرأ بالتخفيف يكون صنفين ويكون معناه وجاء الذين لهم العذر وسألوا العذر وقعد الذين لا عذر لهم. وهم الذين كفروا بالله ورسوله في السر. ثم بين أمر الفريقين فقال ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهم الذين تخلفوا بغير عذر. ثم بين حال الذين تخلفوا بعذر فقال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ يعني على الزمني، والشيخ الكبير ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ في الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ أي: لا إثم عليهم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يعني ليس على الموحدين المطيعين من حرج إذا تخلفوا بالعذر ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لهم بتخلفهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾ يعني ولا حرج على الذين ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الجهاد. روى أسباط عن السدي أنه قال: أقبل رجلان من الأنصار أحدهما عبد الله بن الأزرق والآخر أبو ليلى. فسألاه أن يحملهما. ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾. وروي عن محمد بن كعب[2] القرظي أنه قال: أتاه سبعة نفر من أصحابه. سالم بن عمير وحزم بن عمرو وعبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى وسلمان بن صخر وعتبة بن زيد وعمرو بن عتمة وعبد الله بن عمرو المزني يستحملونه. فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ يعني: تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ في الخروج إلى الجهاد. قوله تعالى:

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

= (هم أهل العذر) أي جاؤوا معذرين ولهم عذر والمعذر الذي قد بلغ أقصى العذر. والعرب تقول: (أعذر من أنذر) أي بالغ في العذر.

وقرأ الباقون: (وجاء المعّذرون) بالتشديد أي المعتذرون، إلا أن التاء أدغمت في الذاك لقرب المخرجين قال الزجاج: ومعنى المعتذرين الذين يعتذرون: كان لهم عذر (أو لم يكن لهم عذر) وهو ها هنا أشبه بأن يكون لهم عذر وأنشدوا:

إلى الحَـوْل ثـم اسْم السَّـلامِ عَلَيْكُمَـا ... ومـن يَبْـك حَـوْلاً كـامِـلا فَـقـدِ اعْـتَـذَرْ

بريد: قد أعذر. وقد يكون لا عذر له. وقال الله تعالى ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ ثم قال: ﴿لا تعتذروا﴾ أي لا عذر لكم.

وكان ابن عباس يقول: (رحم الله المعذرين ولعن الله المعذرين) ذهب إلى من يعتذر بغير عذر: وقال آخرون: المعذرون المقصرون أي الذين يوهمون أن لهم عذراً ولا عذر لهم. انظر ابن زنجلة ٣٢١.

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٦ وعزاه لابن الأنباري في كتاب الأضداد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٧ وعزاه لابن جرير.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ الحرج ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في التخلف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ يعني: لهم سعة للخروج ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ختم ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوحيد قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من الغزو ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ يعني: لا نصدقكم إن لكم عذراً ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ يعني: أخبرنا الله تعالى بأنه ليس لكم عذر. ويقال أخبرنا الله عن نفاقكم. ويقال أخبرنا الله عن أعمالكم سرائركم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فيما تستأنفون وسيرى المؤمنون ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ يعني: ترجعون بعد الموت ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوا ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. قوله ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: إذا رجعتم إليهم من الغزو ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يعني: لتتجاوزوا وتصفحوا عنهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يعني أصفحوا وتجاوزوا عنهم في الدنيا. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ يعني قذر ونجس ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني مصيرهم في الآخرة إلى جهنم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من النفاق. قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ يعني إن أنت رضيت عنهم يا محمد والمؤمنون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني المنافقين. قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ يعني أسد وغطفان وأعراب حاضري المدينة، هم أشد في كفرهم ونفاقهم من غيرهم ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ يعني: أحرى وأولى وأحق (أَلَّا يَعْلَمُوا) ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ لأنهم كانوا أجهل وأقل علماً من غيرهم. وقال الكلبي: يعني لا يعلمون الفرائض التي أنزل الله على رسوله. وقال مقاتل: هم أقل علماً بالسنن من غيرهم. وروى الأعمش عن إبراهيم[1] قال: كان زيد بن صوحان جالساً يحدث وقد أصيبت يده يوم نهاوند، فجاء أعرابي وقال والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني. فقال له زيد أو ليس الشمال؟ قال الأعرابي والله لا أدري الشمال يقطعون أو اليمين. فقال زيد: صدق الله «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» ويقال أن لا يعلموا أحكام الله في كتابه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهم (حكيم) في أمرهم. ونزل فيهم ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً﴾ يعني: ما ينفق في الجهاد، يحسبه غُرْماً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ يعني ينتظر بكم الموت. يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة وقال القتبي: الدوائر دوائر الزمان وهي صروفه التي تأتيه مرة بالخير ومرة بالشر. يقول الله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يعني: عاقبة السؤ والهلاك. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[2] دائرة السُّوءِ بضم السين يعني عاقبة المضرة والشر. وقرأ الباقون بالنصب. يقال رجل سوء إذا كان خبيثاً. وعن الفراء أنه قال الفتح مصدر والضم اسم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بهلاكهم ثم ذكر من أسلم من الأعراب جهينة وغفار وأسلم فقال تعالى:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٨ وعزاه لابن سعد وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٢١ ـ ٣٢٢، سراج القارىء ٢٣٧.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾

﴿ومِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ في الجهاد ﴿قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: قربة إلى الله تعالى ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ يعني طلب دعاء الرسول ـ عليه السلام ـ واستغفاره. يقول الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: نفقاتهم قربة لهم إلى الله تعالى وفضيلة ونجاة لهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يعني: في جنته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم قرأ نافع في رواية ورش قُرُبَةٌ بضم الراء[١]. وقرأ الباقون بجزم الراء ومعناهما واحد. قوله

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

﴿وَالسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وهم الذين صلوا إلى القبلتين ﴿مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ﴾ وشهدوا بدراً عن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب من المهاجرون الأولون؟ قال من صلّى إلى القبلتين مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو من المهاجرين الأولين. وقال السدي: كانت الهجرة قبل أن تفتح مكة فلما فتحت مكة كان من أسلم بعده ولحق بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو تابع. وروي عن مجاشع بن مسعود النهدي أنه جاء بابن أخيه ليبايعه على الهجرة فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا بل بايع على الإسلام. فإنه لا هجرة بعد الفتح. ويكون من التابعين بإحسان قرأ العامة والأَنْصَارِ بالكسر. وقرأ الحضرمي والأَنْصَارُ بالضم[٢]. فمن قرأ بالضم فهو عطف على السابقين التابعين ومعناه والسابقون والأنصار ومن قرأ بالكسر فهو عطف على المهاجرين. ومعناه ومن المهاجرين ومن الأنصار. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) بغير واو. وقراءة العامة بالواو[٣]. فمن قرأ بغير واو يكون نعتاً للأنصار. ومن قرأ بالواو يكون نعتاً لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة. وروي عن محمد بن كعب[٤] القرظي أنه قال: سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقرأ هذه الآية «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ». فقال له عمر. من أقراك هذه الآية؟ فقال أقرأنيها أُبي بن كعب. فقال لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاءه قال يا أُبي أنت أقرأته هذه الآية هكذا؟ قال نعم. قال أنت سمعتها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال نعم قال: كنت أظن أنا قد ارتفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا. قال أُبي. تصديق هذه الآية أول سورة الجمعة وأوسط سورة الحشر وآخر سورة الأنفال، أما أول سورة الجمعة (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) وأوسط سورة الحشر (وَالَّذِينَ جَاؤوا مِنْ بَعْدِهِمْ)وآخر سورة الأنفال(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا) وقال الشعبي: السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يعني: على دينهم بإحسانهم ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يعني عن الله تعالى بثوابه لهم في الجنة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ ابن

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٢ وسراج القارىء ٢٣٧.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٨/ ١٥٠.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٨/ ١٥١ ـ ١٥٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٢٦٩ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

كثير[١] «مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ» بزيادة «من» وقرأ الباقون جنات تجري تحتها الأنهار بغير «من». صار «تَحْتَهَا» نصباً لنزع الخافض ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني الثواب الوافر. قوله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ يعني الأعراب الذين حوالي المدينة ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهو عبد الله بن أُبَي وأصحابه ﴿مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ يعني: مرنوا وثبتوا على النفاق، فلا يرجعون عنه ولا يتوبون ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يقول: لا تعرفهم أنت لسبب إيمانهم بالعلانية ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لأني عالم السر والعلانية. ونعلم نفاقهم ونعرفك حالهم ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال مقاتل: أحد العذابين عند الموت، ضرب الملائكة الوجوه والأدبار، والعذاب الثاني عذاب القبر، وهو ضرب منكر ونكير. وقال الكلبي: أول العذابين أنه أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر، وروى أسباط بن النضر الهمداني عن إسماعيل بن عبد الملك السدي قال عن أبي مالك عن ابن[٢] عباس أنه قال: قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطيباً يوم الجمعة فقال يا فلان اخرج فإنك منافق. ثم قال يا فلان اخرج إنك منافق. ثم قال يا فلان اخرج فإنك منافق. فأخرجهم بأسمائهم. وكان عمر لم يشهد الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا واختبأوا من عمر وظنوا أنه قد علم بأمرهم. فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم يصلوا. فقال له رجل من المسلمين أبشر يا عمر، قد فضح الله المنافقين«وهـذا هو العذاب الأول» والعذاب الثاني عذاب القبر. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[٣] في قوله: سنعذبهم مرتين قال الجوع والقتل. ويقال القتل والسبي. وقال الحسن: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يعني عذاب جهنم. أعظم مما كان في الدنيا. قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني بتخلفهم عن الغزو. وهم أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن خزام. ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً﴾ وهو التوبة ﴿وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ بتخلفهم عن غزوة تبوك. وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: تخلف أبو لبابة عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية المسجد ثم قال: والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ. فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى كاد يخر مغشياً عليه. حتى تاب الله عليه. فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذي يحلني. فجاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحله بيده. ثم قال أبو لبابة يا رسول الله: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب. وأن انخلع من مالي كله واجعله صدقة لله تعالى ولرسوله. فقال: يجزيك الثلث يا أبا لبابة[٤]. وروي عن الزهري عن كعب بن مالك قال: أول أمر عتب

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٢ سراج القارىء ٢٣٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر عن ابن مسعود ٣/٢٧٢ وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٧١ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) وهو عند عبد الرزاق ٩٧٤٥ وانظر زاد المسير ٣/٣٤٤ وانظر تفسير البغوي ٢/٣٢٤.

على أبي لبابة أنه كان بينه وبين يتيم عذق. فاختصما إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقضى به لأبي لبابة. فبكى اليتيم. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعه فأبى قال: فاعطه إيّاه ولك مثله في الجنة. قال لا. فانطلق أبو الدحداحة فقال لأبي لبابة بعني هذا العذق بحديقتي؟ قال نعم. ثم انطلق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله: أرأيت إن أعطيت هذا اليتيم هذا العذق إلي مثله في الجنة؟ قال نعم. فأعطاه إيّاه. قال: وأشار أبو لبابة إلى بني قريظة حين نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وأشار إلى حلقه يعني الذبح. والثالث أنه نخلف عن غزوة تبوك ثم تيب عليه فذلك قوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وعسى من الله واجب أن يتجاوز عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ يعني من الذين قبلت توبتهم. جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: هذه أموالنا فخذها وتصدق بها عنا فكره أن يأخذها فنزل: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) (تطهرهم بها من ذنوبهم)[1] ويقال هذا ابتداء، يعني خذ من أموال المسلمين صدقة. يعني الصدقة المفروضة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ يعني تطهر أموالهم ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ يعني تصلح بها أعمالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يعني استغفر لهم وادع لهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يعني دعاءك واستغفارك سكن لهم يعني: طمأنينة لهم إن الله تعالى قد قبل منهم الصدقة. ويقال إن الله قبل منهم التوبة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بثوابهم. قرأ نافع وابن كثير (وأبو عمرو وابن عامر) وعاصم في رواية أبي بكر[2] إنَّ صَلَوَاتِكَ بلفظ الجماعة. وقرأ الباقون صَلَاتَكَ. وقال أبو عبيدة وهذ أحب إليّ لأن الصلاة أكثر من الصلوات. ألا ترى إلى قول الله تعالى «أقيموا الصلاة» وإنَّما هي صلاة الأبد. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يعني ويقبل الصدقات ومعناه وما منعهم عن التوبة والصدقة فكيف لم يتوبوا ولم يتصدقوا. ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده والصدقة. وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله يقبل الصدقة إذا كانت من طيب فيربيها كما يربي أحدكم فصيله أو مهره حتى تكون اللقمة[3] مثل أحد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يعني المتجاوز لمن تاب الرحيم بالمؤمنين قوله تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني ويراه رسوله ويراه المؤمنون. وقال ابن مسعود

---

(١) سقط في أ.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٢٢ ـ ٣٢٣، سراج القارىء ٣٢٨.
(٣) أخرجه البخاري ٣/٢٧٨ في الزكاة باب الصدقة من كسب طيب (١٤١٠) ومسلم ٢/٧٠٢ في الزكاة (٦٣/ ١٠١٤).

رضي الله عنه: إن الناس قد أحسنوا القول كلهم. فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه ومن خالف قوله فعله فإنما يذبح نفسه. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. قوله ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني موقوفون لأمر الله. وقال القتبي: مؤخرون على أمر الله. ويقال: متروكون لأمر الله ماذا يأمر الله تعالى لهم. ويقال مؤخر أمرهم ولم يتبين شيء. فنزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا وهم: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع. ثم بين توبتهم في الآية التي بعدها: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا». قرأ حمزة والكسائي[١] ونافع مُرْجَوْنَ بغير همز. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهمز. واختلف عن عاصم وابن عامر[٢]. وأصله من التأخير. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بتخلفهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يتجاوز عنهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم في أمرهم ما يشاء. قوله تعالى

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً﴾ يعني بنوا مسجداً مضرة للمسلمين. وقال القتبي يعني مضارة ليضاروا به مخالفيهم ليدخلوا عليهم المضرة ﴿وَكُفْراً﴾ يعني وإظهاراً للكفر ﴿وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ نافع وابن عامر «الذين» بغير واو. وقرأ الباقون بالواو ومعناهما واحد. إلا أن الواو للعطف. نزلت الآية في سبعة عشر من المنافقين من بني غنم بن عوف قالوا تعالوا نبني مسجداً يكون فيه متحدثنا ومجمع رأينا. فانطلقوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألوه أن يأذن لهم في بناء المسجد وقالوا قد بعد علينا المسير إلى الصلاة معك فتفوتنا الصلاة فأذن لنا أن نبني مسجداً لذوي العلة والليلة المطيرة. فأذن لهم. وكانوا ينظرون رجوع أبي عامر الراهب من الشام. وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سماه فاسقاً. وقال: لا تقولوا راهباً ولكن قولوا فاسق وقد كان آمن بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتين ثم رجع عن الإسلام فدعا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمات كافراً. فلما ظهر أمرهم ونفاقهم جاؤوا يحلفون (إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى) أي أردنا ببناء المسجد[٣] فنزل «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً». يعني بنوا المسجد للضرار والكفر وللتفريق بين المؤمنين لكي يصلي بعضهم في مسجد قباء وبعضهم في مسجدهم وليجتمع الناس إلى مسجدهم ويتفرق أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني انتظاراً لمن هو كافر بالله ورسوله من قبل بناء المسجد أن يقدم عليهم من قبل الشام، وهو أبو عامر الراهب ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أي: ما أردنا ببناء المسجد إلّا صواباً لكيلا تفوتنا الصلاة بالجماعة ولكي يرجع أبو عامر[٤] فيسلم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما حلفوا، وإنّما اجتمعوا فيه لإظهار النفاق

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٣.

(٢) وفي السراج ٢٣٨ قرأ شعبة وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بزيادة همزة مضمومة بعد الجيم وتعيين للباقيين القراءة بحذف الهمزة وانظر شرح شعلة ٤١٥، وحجة القراءات ٣٢٣.

(٣) في أ [ببنائه]. (٤) في أ [أبو عامر الراهب].

والكفر ثم قال ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعني لا تصل فيه أبداً. لأنهم طلبوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتي ويصلي فيه لكي يتبرك بصلاته فيه فنهاه الله عن ذلك ونزل «لا تقم فيه أبداً» ثم قال ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يعني المسجد الذي بني على التوحيد من أول يوم. قال الأخفش: بني لوجه الله تعالى منذ أول يوم. ويقال بني للذكر والتكبير والتهليل وإظهار الإسلام وقهر الشرك من أول يوم بني. ثم قال ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ يعني أولى وأجدر أن تصلي فيه ثم قال ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ يعني الاستنجاء بالماء. ويقال يحبون أن يتطهروا يعني يطهروا أنفسهم من الذنوب وذلك أن ناساً من أهل قباء كانوا إذا أتوا الخلاء استنجوا بالماء وهم أول من فعل ذلك واقتدى بهم من بعدهم. وروي في الخبر أن النبي[1] ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف بباب المسجد، بعد نزول الآية وقال لمن فيه: إنّ الله قد أحسن عليكم الثناء في طهوركم. فبم تطهرون؟ قالوا: نستنجي بالماء فقرأ عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الآية وذلك قوله (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ وقال سعيد[2] بن المسيب: المسجد الذي أسس على التقوى مسجد المدينة الأعظم. وعن سهل بن[3] سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد الذي أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد رسول الله وقال الآخر هو مسجد قباء فذكر ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: هو مسجدي هذا. وروي عن ابن عباس[4] أنه قال هو مسجد قباء. ثم قال

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ يعني أصل بنيانه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ يعني على توحيد الله تعالى ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ من الله عز وجل. قرأ نافع وابن عامر[5] أَفَمَنْ أُسِّسَ بضم الألف وكسر السين بُنْيَانُهُ بضم الألف والنون (على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون أسس بنصب الألف وبنيانه بنصب النون) ومعنى الآية إن البناء الذي يراد به الخير ورضاء الرب تبارك وتعالى ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ يعني مسجد الضرار أصل بنائه ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ انْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يعني على طرف هار، ليس له أصل. قرأ حمزة وابن عامر وأبي بكر عن عاصم جُرْفٍ بجزم الراء

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٢٢، وابن خزيمة في الصحيح (٨٣) ـ والطبراني في الكبير ١٧/ ١٤٠، وذكره الهيثمي في الجمع ١/٢١٢ وذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٤١٧) وابن كثير في التفسير ٤/١٥١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٨٧ وعزاه لابن أبي شيبة وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والزبير بن بكار في أخبار المدينة وأبي يعلى وابن حبان ـ والطبراني والحاكم في الكنز وابن مردوية وأخرجه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري مسلم في كتاب الحج باب بيان أن المسجد الذي ـ أسس على التقوى هو مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٥١٤/ ١٣٩٨) والنسائي في المجتبى (٦٩٧) وأحمد في المسند ٣/٨، ٢٣، ٢٤، ٩١ وابن أبي شيبة ٢/٣٧٢ وأبو يعلى (٩٨٥) وأخرجه ابن حبان كما في الإحسان (١٦٠٦، ١٦٢٦) والحاكم ٢/٣٣٤ والبيهقي في الدلائل ٢/٥٤٤.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

(٥) انظر حجة القراءات ٣٢٣، سراج القارىء ٢٣٨.

والباقون بالضم ومعناهما واحد. وقال القتبي: يعني على شفا جرف هائر والجرف ما ينجرف بالسيول من الأودية والهائر الساقط. يقال تهور البناء وانهار وهار إذا سقط. وهذا على سبيل المثل. يعني إن الذي بنى المسجد إنّما بنى على جرف جهنم فانهار بأهله في نار جهنم. وقال الكلبي: بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين بعد رجوعه من غزوة تبوك فأحرقاه وهدماه ثم قال ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى دينه. يعني الذين كفروا في السر. قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً﴾يعني مسجد الضرار ريبةً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني حسرة وندامة بما أنفقوا فيه وبما ظهر من أمرهم ونفاقهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني لا يزال حسرة في قلوبهم إلى أن يموتوا. لأنهم إذا ماتوا انقطعت قلوبهم. ويقال إلا أن تقطع قلوبهم. أي في القبر. قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص[1] إلا أنْ تَقَطَّعَ بالنصب فيكون الفعل للقلوب يعني إلاَّ أنْ تَتَقَطَّعَ قلوبهم وتتفرق. والباقون بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بهدم مسجدهم قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ معناه إنه طلب من المؤمنين أن يعدوا أنفسهم وأموالهم ويخرجوا إلى الجهاد [والقتال][2] في سبيل الله تعالى ليثيبهم (الجنة). وذكر الشراء على وجه المثل، لأن الأموال والأنفس كلها لله تعالى، وهي عند أهلها عارية، ولكنه أراد به التحريض والترغيب في الجهاد. وهذا كقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) ثم قال ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني في طاعة الله تعالى مع العدو ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ يعني العدو ويقتلهم العدو. قرأ حمزة والكسائي[3] فَيُقْتَلُونَ بالرفع وَيَقْتُلُونَ بالنصب على معنى التقديم والتأخير. وقرأ الباقون يَقْتُلُونَ بالنصب ويُقْتَلُونَ بالرفع ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يعني واجباً لهم ذلك بأن يفي لهم ما وعد (وبين ذلك) ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني ليس أحد أوفى من الله تعالى في عهده وشرطه. لأنه عهد أن مَنْ قتل في سبيل فله الجنة فيفي عهده وينجز وعده ثم قال ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ وهذا (إعلان)[4] لهم أنهم يربحون في مبايعتهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الثواب الوافر والنجاة والوافرة. قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى آخره. لهم الجنة أيضاً. ويقال هم التائبون. ويقال صار رفعاً بالابتداء وجوابه مضمر قرأ عاصم التائبين العابدين. يعني اشترى من المؤمنين التائبين العابدين إلى آخره

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٥٤، وسراج القارىء ٢٣٩.
(٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات ٢٣٥.
(٤) في أ [إعلام].

ويقال: اشترى من عشرة نفر أولهم الغزاة، ومن التائبين الذين يتوبون عن الذنوب والذين هم (الْعَابِدُونَ) يعني الموحدون. ويقال المطيعون لله تعالى، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله تعالى على كل حال ﴿السَّائِحُونَ﴾ قال ابن عباس[1] وابن مسعود[2] ومجاهد[3] والحسن[4] يعني الصائمين. وأصله السائح في الأرض. لأن السائح في الأرض ممنوعاً عن الشهوات. فشبه الصائم به. وذكر عن بعضهم أنه قال: هم الذين يصومون شهر الصبر وهو [شهر][5] رمضان وأيام البيض. ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ يعني الذين يحافظون على الصلوات ﴿السَّاجِدُونَ﴾ الذين يسجدون لله تعالى في الصلوات ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني يأمرون الناس بالتوحيد وأعمال (الخير)[6] ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الذين ينهون الناس عن الشرك والأعمال الخبيثة ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ يعني العاملين بفرائض الله عليهم. وذكر عن خلف بن أيوب أنه أمر امرأته في بعض الليل أن تمسك الرضاع عن الولد فقالت لم؟ فقال لأنه قد تمت سنتان. فقيل له لو تركتها حتى ترضع تلك الليلة أيش يكون فقال: أين قول الله تعالى «والحافظون لحدود الله» ثم قال ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين بهذا الشرط والعاملين به

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني ما ينبغي وما جاز للنبي والذين آمنوا ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان (فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال ألم يستغفر إبراهيم لأبويه وهما مشركان؟ فذكرت ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فنزل (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾[7] يعني ذا قرابة في الرحم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني أهل النار وماتوا على الكفر وهم في النار. ويقال أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يستغفر لأبويه وهما مشركان واستأذن منه المسلمون أن يستغفروا لآبائهم فنهاهم الله عن ذلك وقال «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ» (وَالَّذِينَ آمَنُوا أن يستغفروا للمشركين). وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرجنا معه حتى انتهينا إلى قبر فجلس إليه فناجاه طويلاً ثم رفع رأسه باكياً فبكينا لبكاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - أقبل إلينا فتلقاه عمر رضي الله عنه وقال ما الذي أبكاك يا رسول الله؟ فأخذ بيد عمر وأقبل إلينا فأتيناه فقال أفزعكم بكائي؟ فقلنا نعم يا رسول الله فقال: إن القبر الذي رأيتموني أناجيه قبر آمنة بنت وهب بن عبد مناف وإني استأذنت ربي بالاستغفار لها فلم يأذن لي. فأنزل الله[8] (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا . .) فأخذني ما يأخذ الولد للوالدين من الرقة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٨١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأبي نعيم في الحلية.

(٥) سقط في ظ. (٦) في أ [الخيرات]. (٧) ذكره البغوي في التفسير ٢/٣٣١.

(٨) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٨٣ وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

فذلك الذي أبكاني. وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال استأذنت ربي أن استغفر لوالدي فلم يأذن لي. واستأذنته أن أزور قبرهما فأذن لي[١]. فنزلت هذه الآية. ثم قال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وذلك أن أباه وعده أن يسلم وكان يستغفر له رجاء أن يسلم. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال مازال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، ﴿فَلَمَّا﴾ مات ﴿تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، يعني ترك الدعاء له ولم يستغفر له بعد ما مات على الكفر. وللآية [هذه][٢] وجه آخر. روي عن الزهري عن سعيد بن المسيب[٣]عن أبيه المسيب بن حرب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي طالب يا عم قل لا إله إلا الله كلمة النجاة أشهد لك بها عند الله تعالى، فقال أبو جهل أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه ويعانده أبو جهل بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما والله لاستغفرن لك ما لم أنه عنه. فأنزل الله تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاء) ونزل «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الآية. وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ وروى سماك عن عكرمة عن ابن عباس[٤] أنه قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعة، غسلين وحناناً والأواه والرقيم. وروي عن عبد الله بن عباس في رواية أخرى أنه قال: الأواه الذي يذكر الله في الأرض الوحشية. وروي عن ابن مسعود[٥] أنه قال الأواه الرحيم. وقال مجاهد[٦]: الموقن وقال الضحاك الداعي الذي يلح إلى الله تعالى المقبل إليه بطاعته. ويقال المؤمن بلغة (الحبش)[٧]ويقال الأواه معلم الخير. وقال كعب الأواه الذي إذا ذكر والله قال أواه من النار. وقال القتبي: المتأوه حزناً وخوفاً. (حليم) يعني عن الجهل.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنزل الله

---

(١) أخرجه مسلم ٢/٦٧١ في الجنائز باب استئذان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه (١٠٨/ ٩٧٦).

(٢) سقط في أ.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١) ومسلم في الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (٣٩، ٤٠/ ٢٤). وأخرجه النسائي في المجتبى (٤٠٣).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٨٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ.

(٦) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم.

(٧) في أ [الحبشة].

تعالى عليه الفرائض ففعل بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنون. ثم إن الله تعالى أنزل ما ينسخ الأمر الأول، وقد غاب الناس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يبلغهم ذلك (فعملوا)[١] بالمنسوخ وكانوا يصلون إلى القبلة الأولى ولا يعلمون ويشربون الخمر ولا يعلمون تحريمها فذكروا ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) وإن عملوا بالمنسوخ ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يعني ما نسخ من القرآن. يعني إنه قبل منهم ما عملوا بعد النسخ ولا يؤاخذهم بذلك. ويقال وما كان الله ليهلك قوماً حتى يقيم عليهم الحجة، ويقال لَيُعَذِّبَهُمْ في الآخرة، يعني يبين لهم ما يتقون. ويقال لا يتركهم بلا بيان بعد أن أكرمهم بالإيمان حتى يبين لهم ما يحتاجون، ويقال لا ينزع الإيمان عنهم بعد أن هداهم إلى الإيمان حتى يبين لهم الحدود والفرائض فإذا تركوا ذلك ولم يروه حقاً عذبهم الله تعالى ونزع عنهم المعرفة ويقال «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً» على الإبتداء «حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» فيصيروا فيه ضلالاً. وهذا طريق المعتزلة والطريق الأول أصح بـه نأخذ ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني عليم بكل ما يصلح للخلق ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني يحكم فيهما بما يشاء من الأمر بعد الأمر. يأمر بأمر ثم بغيره ما يشاء ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يعني يحيي الموتى ويميت الأحياء ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني من عذاب الله تعالى ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني من قريب ينفعكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني مانعاً يمنعكم. وقال الكلبي: يحيي ويميت يعني في السفر ويميت في الحضر يعني إن هذا ترغيب في الجهاد لكي لا يمتنعوا مخافة القتل. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي تجاوز عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذنه للمنافقين بالتخلف. كقوله (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) ويقال: لقد تاب الله على النبي يعني غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. كما ذكر في أول سورة الفتح. ثم قال ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ يعني تجاوز عنهم (ذنوبهم) لما أصابهم من الشدة في ذلك الطريق ثم نعتهم فقال ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ يعني وقت الشدة في غزوة تبوك. كانت لهم العسرة في أربعة أشياء، عسرة النفقة والركوب والحر والخوف ﴿مِنْ بَعْدِ مَاكَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ يعني تميل قلوب طائفة منهم عن الخروج إلى الغزو. ويقال من بعد ماكادوا أن يرجعوا من غزوتهم من الشدة. ويقال هم قوم تخلفوا عنه ثم خرجوا فأدركوه في الطريق ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني تجاوز عنهم ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حين تاب عليهم. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص[٢] «يَزِيغُ (قُلُوبُ)[٣] بالياء بلفظ المذكر والباقون بالتاء بلفظ التأنيث[٤]. والتأنيث إذا لم يكن حقيقياً جاز التذكير والتأنيث لأن الفعل مقدم فيجوز التذكير والتأنيث.

---

(١) في أ [فكانوا يعملون بالمنسوخ.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٢٥، سراج القارىء ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣) سقط في أ.

(٤) اعلم أن فعل جماعة يتقدم لمذكر أو مؤنث إن شئت أنثت فعله إذا قدمته وإن شئت ذكرته كما قال جل وعز: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾، فإذا أنثت أردت جماعة وإذا ذكرت أردت جمعاً. ومن قرأ (يزيغ) باليا ـ جعل في (كاد) اسماً وترتفع (القلوب) بـ (يزيغ)، والتقدير (كاد الأمر يزيغ قلوب فريق منهم). وإنما قدرنا هذا التقدير لأن. (كاد) فعل، و (يزيغ) فعل، والفعل لا يلي الفعل، وعلى هذه القراءة لا يجوز أن يرتفع القلوب بـ (كاد). ومن قرأ بالتاء ارتفعت (القلوب) بـ (كاد) فلا يجوز حينئذ إلا ـ (تزيغ) بالتاء، لأن فيه إضماراً للقلوب ومعناه التأخير، والتقدير: (من بعدما كاد قلوب فريق منهم تزيغ).

ومن رفع (القلوب) بـ (تزيغ) أضمر في (كاد): (الأمر) كما ذكرنا في قراءة حمزة وحجة التاء قوله: (وتطمئن قلوبنا) ولم يقرأ أحد بالياء في هذا الموضع.

(فإن) قيل: لم أنث (تزيغ) ولم تؤنث (كاد) وهما فعلان؟

الجواب: قال الفراء: (كاد) فعل و (تزيغ) فعل ذلك أن تذكرهما جميعاً ولك أن تؤنثهما جميعاً، فلما كان لك الوجهان ذكرت الأول=

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾

قوله ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ يعني وتاب على الثلاثة وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. قال الفقيه: سمعت أبي رحمه الله يذكر بإسناده عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لم أتخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدراً، فلم يعاتب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحداً تخلف عن بدر، إنّما خرج يريد العير فخرجت قريش معينين لعيرهم فالتقوا على غير موعد. ثم لم أتخلف عن غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها. فأذن للناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوتهم وذلك حين طابت الظلال وطابت الثمار. وكان كل ما أراد غزوة إلا ورى بغيرها. وكان يقول الحرب خدعة. فأراد في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبتهم. وأنا أيسر ما كنت، قد جمعت راحلتّين. وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحال وأنا في ذلك أصبو إلى الظلال وطيب الثمار فلم أزل كذلك حتى قام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غازياً، بالغداة وذلك يوم الخميس وكان يحب أن يخرج الناس يوم الخميس فأصبح غادياً، فقلت انطلق غادياً إلى السوق غداً (فأشتري)[1] ثم ألحق بهم. فانطلقت إلى السوق من الغد فعسر على بعض شأني فرجعت فقلت أرجع غداً إن شاء الله فألحق بهم، فعسر علي بعض شأني فلم أزل كذلك حتى التبس بي الريب وتخلفت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف في المدينة فيحزنني أن لا أرى أحداً تخلف إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، وكان الجميع من تخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بضعاً وثمانين رجلاً ولم يذكرني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بلغ تبوك فلما بلغ تبوك قال: فما فعل كعب بن مالك فقال رجل من قومي خلّفَه يا رسول الله حسن برديه والنظر إلى عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت (يا هذا)[2] والله يا نبي الله ما نعلم منه إلّا خيراً. فلما قضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غزوة تبوك وقفل ودنا من المدينة جعلت أتذكر بماذا أخرج من سخطة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل ذي رأي من أهلي حتى إذا أقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ راح عني الباطل وعرفت ألا أنجو (إلّا بالصدق ودخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضحى فصلى في المسجد ركعتين وكان إذا جاء من السفر فعل ذلك فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم جلس فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه ويستغفر لهم ويقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى. فدخلت المسجد فإذا هو جالس فلما رآني تبسم (تبسم المُغضب) فجئت فجلست بين يديه فقال: ألم تكن ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى يا نبي الله: فقال ما خلفك؟ فقلت (والله)[3] لو أني بين أحد من الناس غيرك جلست فخرجت من سخطه عليّ بعذر، ولقد أوتيت جَدَلاً. ولكني قد علمت يا رسول الله أني لو أخبرتك اليوم بما تجد عليّ فيه وهو حق فإني أرجو فيه عفو الله. وإن حدثتك حديثاً ترضى علي فيه وهو كذب أوشك الله أن يطلعك عليّ. والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حالاً حين تخلفت عنك. قال أما هذا فقد صدقكم الحديث. قم حتى

= لأن بعده فعلاً آخر ملتزماً بالقلوب، فذكرت الأول لأنه تباعد من (القلوب)، وأنثت الذي يجنب (القلوب).

وقال آخرون: (كاد) ليس بفعل متصرف ولا يكادون يقولون منه فاعلاً ولا مفعولاً به فذكرته وأنثت (تزيغ) لأنه فعل مستقبل متصرف. انظر حجة القراءات ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(١) في أ [فاشترى جهازي]. (٢) سقط في أ. (٣) في أ [والله يا نبي الله]

يقضي الله فيك. فقمت فسار على أثري ناس (من قومي)[١] يؤنبونني، وقالوا والله ما نعلمك أذنبت ذنباً قط قبل هذا فهلا اعتذرت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بما يرضى عنك فكان استغفاره سيأتي من وراء ذلك ولم تقف نفسك موقفاً لا تدري ما يقضى لك فيه، فلم يزالوا يؤنبونني حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي. فقلت هل قال هذا القول أحد غيري؟ قالوا نعم. فقلت من هو؟ فقالوا هلال بن أمية ومرارة بن الربيع فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة. فقلت والله لا أرجع إليه في هذا أبداً ولا أكذب نفسي. قال فنهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن كلامنا الثلاثة. قال فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمني أحد وتنكر لنا الناس حتى ماهم بالذين نعرفهم وتنكرت لنا الأرض حتى ما هي باللتي نعرف وكنت أقوى أصحابي فكنت أخرج وأطوف بالأسواق وآتي المسجد وآتي النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلم عليه وأقول هل حرك شفتيه بالسلام فإذا قمت أصلي إلى سارية فأقبلت على صلاتي نظر [إلي][٢] بمؤخر عينيه فإذا نظرت إليه أعرض عني. واستكان صاحباي فجعلا يبكيان الليل والنهار ولا يطلعان رؤوسهما. فبينما أنا أطوف بالسوق، إذا برجل نصراني جاء بطعام له يبيعه يقول من يدلني على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ فأتاني، وأتاني بصحيفة من ملك غسان، وإذا فيها: أما بعد فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولست بدار مضيقة ولا هوان. فالحق بنا نواسيك. فقلت هذا أيضاً من البلاء يعني الدعوة إلى الكفر. فسجَّرْت لها التنور فأحرقتها فيه. فلما مضت أربعون ليلة إذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أتاني فقال: اعتزل امرأتك. فقلت أطلقها؟ فقال لا. ولكن لا تقربها. فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت يا نبي الله إن هلالاً شيخ ضعيف فهل تأذن لي أن أخدمه؟ قال نعم ولكن لا يقربنك فقالت يا نبي لله والله مابه حركة من شيءٍ ما زال مكباً يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان. قال كعب فلما طال علي البلاء اقتحمت على أبي قتادة حائطه وهو ابن عمي. فسلمت عليه فلم يرد عليّ جواباً. فقلت أنشدك الله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسولَهُ؟ فسكت. ثم قلت أنشدك بالله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ حتى عاودته ثلاث مرات. قال الله ورسوله أعلم. فلم أملك نفسي أن بكيت. ثم اقتحمت الحائط خارجاً. حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - الناس عن كلامنا صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر (ثم جلست)[٣] وأنا في المنزلة التي قال الله تعالى (ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) إذ سمعت نداء من ذروة سلع، اسم جبل، أن أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً وعرفت أن الله تعالى قد جاء بالفرج. ثم جاء رجل يركب على فرس يركض، يبشرني فكان الصوت أسرع من فرسه. فأعطيته ثوبي بشارة ولبست ثوبين آخرين وانطلقت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وجعل الأنصار يستقبلونني فوجاً فوجاً ويهنئونني ويبشرونني، ولم يقم أحد من المهاجرين غير طلحة بن عبيد الله. قام وتلقاني بالتهنئة. فما نسيت ذلك منه. وانطلقت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون وهو يستنير كاستنارة القمر. وكان إذا سُرَّ بالأمر استنار وجهه كالقمر. فجئت فجلست بين يديه. فقال أبشر يا كعب بخير يوم أتى عليك منذ ولدتك أمك فقلت يا نبي الله أمن عندك أم من عند الله؟ قال بل من عند الله. قوله تعالى: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ) إلى قوله «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» الآية فقلت يا نبي الله إن من توبتي ألا أحدث إلاَّ صدقاً. وأن أنخلع من مالي كله صدقة لله ورسوله. قال أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قال فما أنعم الله عليّ نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين صدقته أنا وصاحباي ألا نكون كذبنا فهلكنا كما هلكوا وإني لأرجو ألا يكون

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في أ.

الله أبلى أحداً في الصدق كما أبلاني. ما تعمدت لكذبة قط وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. وروى الزهري عن كعب بن مالك قال: كانت توبتنا نزلت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلثا الليل. فقالت أم سلمة يا نبي الله ألا نبشر كعباً بن مالك؟ قال إذاً يحطمنكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليلة. وكانت أم سلمة محسنة في شأني تحزن بأمري. وذلك قوله تعالى: (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خلِّفُوا) يعني وتاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ويقال وعلى الثلاثة الذين تخلفوا عن التوبة يعني أبا لبابة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني بسعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني ضاقت قلوبهم ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني علموا وأيقنوا أن لا مفر من عذاب الله ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ يعني إلا بالتوبة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ يعني يتجاوز عنهم حتى تابوا. ويقال أكرمهم فوفقهم للتوبة كي يتوبوا. ويقال تاب عليهم ليتوب من بعدهم ويقتدي بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يعني المتجاوز لمن تاب الرحيم بهم بعد التوبة

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اخشوا الله ولا تعصوه، يعني من أسلم من أهل الكتاب ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال الضحاك يعني مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الغزو بإخلاص ونية. ويقال هذا الخطاب (للمنافقين)[1] الذين كانوا يعتذرون بالكذب، ومعناه يا أيها الذين آمنوا في العلانية اتقوا الله وكونوا مع الثلاثة الذين صدقوا. وروي عن كعب بن مالك أنه قال فينا نزلت «وكونوا مع الصادقين». وقال الكلبي يعني الأنصار والمهاجرين الذين صلوا القبلتين. وقال مقاتل الذين وصفهم الله تعالى في آية أخرى (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) الآية. ويقال مع الصادقين في إيمانهم يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضوان الله عليهم. حدثنا الفقيه (أبو جعفر) قال: حدثنا أبو بكر القاضي. حدثنا أحمد بن جرير. حدثنا قتيبة حدثنا عبد الرحمن (البخاري)[2] عن جويبر عن الضحاك[3] في قوله «وكونوا مع الصادقين». قال أمروا أن يكونوا مع أبي بكر وعمر وأصحابهما، رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ يعني المنافقين الذين بالمدينة وحوالي المدينة ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في الغزو ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم أبر وأشفق من نفس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يتركوا محبته، ويقال ولا يرغبوا بأنفسهم يعني بإبقاء أنفسهم على إبقاء نفسه. يعني ينبغي لهم أن

(١) في ج [إلى المنافقين]. (٢) سقط في ظ.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٨٩ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

يتبعوه حينما يريد ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني النهي عن التخلف. ويقال ذلك التحضيض الذي حضهم عليه ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في غزوهم ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ يعني ولا تعب ولا مشقة في أجسادهم، ثم قال ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ يعني مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ يعني أرضاً وموضعاً من سهل أو جبل ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يعني يحزن الكفار ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ يعني لا يصيبون من عدو قتلاً أو غارة أو هزيمة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ يعني ثواب عمل صالح. يعني يضاعف حسناتهم على حسنات القاعدين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول لا يبطل ثواب المجاهدين. وفي هذاه الآية دليل أن ما أصاب الإنسان من الشدة يكتب له بذلك ثواب. وقال بعضهم لا يكتب له بالشدة ثواب ولكن يحط عنه الخطيئة. وقال بعضهم لا يكون بالمشقة أجر ولكن بالصبر على ذلك. ثم قال عز وجل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في الجهاد ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ يعني قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ من الأودية مقبلين إلى العدو أو مدبرين ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ يعني كتب لهم ثواب ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول ليجزيهم بأعمالهم. ويقال يجزيهم أحسن من أعمالهم، لأنه يعطي بحسنة واحدة عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا يدرك حسابه. ويقال ليجزيهم بأحسن أعمالهم ويصير سائر أعمالهم فضلاً.

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ روي عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله «وما كان المؤمنون لينفروا كافة». يعني ما كان للمؤمنين لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده (بالمدينة)[1] ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ يقول فهلا خرج ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني عصبة من جماعة ويقم طائفة مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يعني ليتعلموا العلم وشرائع الدين. فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن وتعلمه القاعدون من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيعلمونهم. ويقولون إن الله تعالى قد أنزل على نبيكم بعدكم كذا وكذا، وهذا قوله ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يعني يتعظون بما أمروا ونهوا عنه. ولها وجه آخر وهو ما روي أيضاً عن معاوية بن صالح عن علي بن طلحة عن ابن عباس[2] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما دعا على مضر بالسنين أجدبت بلادهم. وكانت القبيلة تقبل بأسرهم حتى يلحقوا بالمدينة ويعلنوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجهدوهم فأنزل الله تعالى يخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم ليسوا بمؤمنين فردهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم بعد ذلك، وهو قوله (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) وروى أسباط بن السدي قال: أقبلت أعراب هذيل وأصابتهم مجاعة واستعانوا بتمر المدينة وأظهروا الإسلام. وكانوا (يفخرون)[3] على المؤمنين فيقولوا نحن أسلمنا طائعين بغير قتال. وأنتم قوتلتم فنحن خير منكم، فآذوا المؤمنين فأنزل الله تعالى فيهم يخبرهم بأمرهم. قال (وَمَاكَانَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) أي جميعاً. (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ) يعني من كل بطن طائفة فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسمعوا كلامه ثم رجعوا إلى قومهم فأخبروهم (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) يعني يتعظون فيعملون به ولا يعملون بخلافه. وفي هذه الآية دليل أن أخبار الآحاد مقبولة ويجب

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكرع السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٩٢ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) في أ [يفتخرون].

العمل بها لأن الله تعالى أخبر أن الطائفة من الفرقة إذا تفقهت في الدين وأنذرت قومهم صح ذلك. ولفظ الطائفة يتناول الواحد والأكثر لأن أقل الفرقة اثنان والطائفة من الإثنين واحد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ يعني ما حولكم وبقربكم وهم بنو قريظة والنضير وفدك وخيبر. فأمر الله تعالى كل قوم بأن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار. قال أبو جعفر الطحاوي. منع الله تعالى نبيه عن قتال الكفار بقوله (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ثم أباح قتال من يليه بقوله (قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ) ثم أباح قتال جميعهم بقوله (فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني معين لهم، ينصرهم على عدوهم. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَاناً﴾ يعني تصديقاً (بهذه السورة مع تصديقكم)[1] استهزاء بها قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيماناً﴾ يعني تصديقاً بهذه السورة مع تصديقهم بالله تعالى وثباتاً على الإيمان ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بما أنزل من القرآن. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الشنابازي قالا: حدثنا فارس بن مردويه قال حدثنا محمد بن الفضل العابد قال حدثنا يحيى بن عيسى قال حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص؟ قال لا. الإيمان مكمل في القلب زيادته ونقصانه[2]

---

(١) سقط في أ.

(٢) هذا باطل وانظر في بطلان ما ورد في أحاديث الإيمان يزيد وينقص ميزان الاعتدال ٥٣٩، ٨١٠٣ وتنزيه الشريعة ١/١٤٩ ـ ١٥١، واللآلىء المصنوعة ١/١٩ ـ ٢١، لسان الميزان ١/٨٠٥، ٥/١١٥٨ الموضوعات لابن الجوزي ١/١٣٢، فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ـ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ـ فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان؟ فأقول: السلف هم ـ الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشيء لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن، فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود، ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان. فإن قلت: فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة؟ فأقول: إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغيب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول: الإيمان إسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول: أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الإعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الإعتقاد عقدة عن القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلاً. ولا تستبعد هذا... واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصراني والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده =

كفر قال الفقيه حدثنا أبو أسحاق إبراهيم بن أحمد المستملي قال حدثنا أبو عمران المؤدب الدستجردي قال حدثنا صخر بن نوح قال حدثنا مسلم بن سالم عن ابن الحويرث عن عون بن عبد الله قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في خطبته لو كان الأمر على ما يقول الشكاك الضلال إن الذنوب تنقص الإيمان لأمسى أحدنا حين ينقلب إلى أهله وهو لا يدري ما ذهب من إيمانه أكثر او أبقى. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ قال الكلبي: شكاً إلى شكهم. وقال مقاتل: إثماً على إثمهم. وقال القتبي: أصل الرجس النتن ثم قد سمي الكفر والنفاق رجساً لأنهما نتن ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني ماتوا على الكفر لأنهم كانوا كفاراً في السر ولم يكونوا مؤمنين في الحقيقة.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ قرأ حمزة[1] «أولا ترون» بالتاء ويكون الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه. وقرأ الباقون بالياء يعني المنافقون، ولا يعتبرون (أنَّهم يُفْتَنُونَ ﴿فِي كُلِّ عَامٍ﴾ يقول: يبتلون بإظهار ما في صدورهم من النفاق في كل عام ﴿مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم [وكفرهم في السر][2] ﴿وَلَا هم يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني لا يتعظون ولا يتفكرون. قال الكلبي: كانوا ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين فيعاقبون ثم يتوبون عن نقض العهد. وقال مقاتل وذلك أنهم إذا خلوا تكلموا بما لا يحل لهم. فإذا أتوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرهم بما تكلموا به فيعرفون أنه نبي ثم يأتيهم الشيطان فيحدثهم أنه يخبرهم بما بلغه عنهم فيشكون فيه، فذلك قوله (يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) يعني يعرفون مرة أنه نبي وينكرون مرة أُخرى (ثُمَّ لَا يَتُوبُون) عن ذلك (وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) فيما أخبرهم. ويقال يفتنون يعني يبتلون بالأمراض والأسقام ويعاهدون الله لو زال عنا لفعلنا كذا وكذا. ثم لا يفون به ولا يتوبون من النفاق ولا هم يذكرون. أي لا يتعظون بما أنزل عليهم. قوله ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل سورة براءة فيها عيب المنافقين ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ويتغامزون ويقولون فيما بينهم ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا رآهم أحد

= بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضاً والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار ولذلك قال الله تعالى: ﴿فزادتهم إيماناً﴾ وقال تعالى: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلَّا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل: وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسن من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزدها. انظر الإحياء ١/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٦، سراج القارىء ٢٤٠، شرح شعلة ٤١٦.

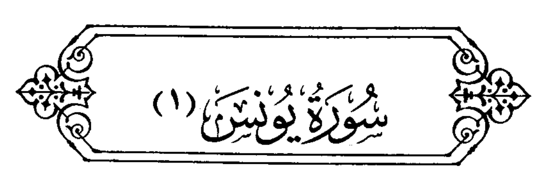
(٢) سقط في ظ.

قاموا وصلوا وإن لم يرهم أحد لم يصلوا، قال تعالى ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ يعني خرجوا من المسجد. ويقال انصرفوا من الإيمان ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان وعزل قلوبهم عن الفهم بخروجهم من المسجد وانصرافهم عن الإيمان، ويقال هذا على وجه الدعاء واللعن كقوله (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ) ويقال هذا على معنى التقديم. ومعناه صرف الله قلوبهم لأنهم انصرفوا عن الإيمان. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أمر الله تعالى

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال مقاتل: يعني يا أهل مكة قد جاءكم رسول من أنفسكم تعرفونه ولا تنكرونه. ويقال هذا الخطاب لجميع العرب. «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ» يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - مِنْ أَنْفُسِكُمْ يعني من جميع العرب. لأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها قرابة وهذا من المجاز والاستعارة لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان فيهم ولم يجيء من موضع آخر. معناه ظهر فيكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. ويقال هذا الخطاب لجميع الناس «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» يعني آدمياً مثلكم. قرأ بعضهم من أَنْفَسِكُمْ بنصب الفاء يعني من أشرفكم وأعزكم وهي قراءة شاذة. ثم قال تعالى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني شديد عليه ما أثمتم وعصيتم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال الكلبي: يعني على إيمانكم. وقال مقاتل: حريص عليكم بالرشد والهدى. وقال قتادة حريص على من لم يسلم أن يسلم. ثم قال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي رفيق بجميع المؤمنين رحيم بهم ثم قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني إن أعرضوا عنك ولم يؤمنوا بك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يعني قل كفاني الله وفوضت أمري إلى الله ووثقت به ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا ناصر ولا رازق ولا معين إلاّ هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني به أثق ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعني خالق السرير العظيم. أعظم من السموات والأرض. وقرأ بعضهم الْعَظِيمُ بالرفع فجعل العظيم من نعت الله تعالى وقراءة العامة الْعَظِيمِ بالخفض ويكون العظيم نعتاً للعرش، وذكر عن عثمان بن[1] عفان أنه لما جمع القرآن في المصحف. [كان لا يثبت آية في المصحف][2] حتى يشهد بها رجلان، فجاء خزيمة بن ثابت بهاتين الآيتين «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ» إلى آخر السورة فلم يطلب منه البينة وأثبته في المصحف. وروي عن حذيفة أنه قال: يسمون سورة براءة سورة التوبة وهي سورة العذاب. عن ابن عباس أنه قال كنا نسميها الفاضحة. فما زالت تنزل [في المنافقين][3] «ومنهم» حتى أشفق كل واحد على نفسه « والله أعلم بالصواب»

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٩٦ وعزاه ابن أبي داود في المصاحف.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ظ.



وهي مائة وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ

---

(١) انظر التحرير ١١/٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠.

ابتدئت هذه السورة بمقصد إثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن دلالة نبه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بني على الكناية بتهجية الحروف المقطعة في أول السورة كما تقدم في مفتتح سورة البقرة ولذلك اتبعت تلك الحروف بقوله تعالى: ﴿**تلك آيات الكتاب الحكيم**﴾ إشارة إلى أن إعجازه لهم هو الدليل على أنه من عند الله. وقد جاء التصريح بما كني عنه هنا في قوله ﴿**قل فاتوا بسورة مثله**﴾.

وأتبع بإثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإبطال إحالة المشركين أن يرسل الله رسولاً بشراً.

وانتقل من ذلك إلى إثبات انفراد الله تعالى بالألهية بدلالة أنه خالق العالم ومدبره فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيته وإلى إبطال معاذير المشركين بأن أصنامهم شفعاء عند الله.

واتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء فذلك إبطال أصول الشرك.

وتخلل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات وبيان حكمة الجزاء وصفة الجزاء وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للناس.

ووعيد منكري البعث المُعْرضين عن آيات الله وبصد أولئك وعد الذين آمنوا فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول.

فمن ذلك التنبيه على أن إمهال الله تعالى الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمة منه.

ومن ذلك التذكير بما حل بأهل القرون الماضية لما أشركوا وكذبوا الرسل.

والاعتبار بما خلق الله للناس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر وما في أحوال السير في البحر من الألطاف.

وضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها وأن الأخرة هي دار السلام.

واختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة وتبرؤ الآلهة الباطلة من عبدتها. وإبطال إلهية غير الله تعالى بدليل أنها لا تغني عن الناس شيئاً في الدنيا ولا في الأخرة.

وإثبات أن القرآن منزل من الله وأن الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة وتحدي المشركين بأن يأتوا بسورة مثله ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين. وإنذار المشركين بعواقب ما حال بالأمم التي كذبت الرسل، وأنهم إن حل بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم، وأن ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب.

وتوبيخ المشركين على ما حرّموه مما أحل الله من الرزق. وإثبات عموم العلم لله تعالى. وتبشير أولياء الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة وتسلية الرسول عما يقوله الكافرون وأنه لو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم.

ثم تخلص إلى الإعتبار بالرسل السابقين نوح ورسلٍ من بعده ثم موسى وهارون. ثم استشهد على صدق رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشهادة أهل الكتاب.

وختمت السورة بتلقين الرسول عليه الصلاة والسلام مما يعذر به لأهل الشك في دين الإسلام وأن اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها وأن الله سيحكم بينه وبين معانديه. انظر التحرير ١١/٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾

قوله تعالى: ﴿آلَر﴾، قال إبن عباس[١] يعني: أنا الله أرى (من العرش إلى الثرى فهل يرى أحد مثل ما أرى) وهكذا عن الضحاك[٢]، وقد ذكرنا تفسير الحروف في أول سورة البقرة، قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وإبن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (الر) بإمالة الرا[٣]. وقرأ ابن كثير وحفص بنصب الراء. وقرأ نافع بين ذلك. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني هذه آيات الكتاب الذي أنزل عليك يا محمد تلك الآيات التي وعدتك يوم الميثاق أن أوحينا إليك الكتاب. ﴿الْحَكِيمِ﴾ قال مقاتل يعني المحكم من الباطل لا كذب فيها ولا اختلاف. وقال الكلبي: يعني بما حكم أحكم بحلاله وحرمته ويقال الحكيم[٤]يعني الحاكم على الكتب كلها. ويقال تلك آيات يعني حجج وبراهين. وهي التي احتج بها النبي - صلى الله عليه وسلم - على دعواه ثم قال ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ لأن أهل مكة كانوا يتعجبون ويقولون (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً) فنزل «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ يقول: أعجب أهل مكة أن اختار عبداً من عبيدي وأرسله إلى عبادي، من جنسهم وحسبهم حتى يقدروا أن ينظروا إليه، يعرفونه ولا ينكرونه، ثم بين ما أوحى الله تعالى إليه فقال ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾يعني: خوف أهل مكة بما في القرآن من الوعيد. ويقال في الآية تقديم ومعناه تلك آيات الكتاب الحكيم للناس أكان عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وقال غلبة المفسرين على ظاهر التنزيل ثم قال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بما في القرآن من الثواب في الجنة ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل يعني بأن أعمالهم التي قدموها بين أيديهم سلف خير عند ربهم وهي الجنة. وقال ابن عباس[٥] يعني: الصحابه عند ربهم وهي الجنة وروي عن أبي سعيد[٦] الخدري أنه قال: يعني شفاعة محمد - صلى الله عليه وسلم - لهم شفيع صدق عند ربهم. وقال الحسن: هي رضوان الله في الجنة. وقال القتبي يعني عملاً صالحاً قدموه. ﴿قالَ الكافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر[٧] لَسِحْرٌ بغير ألف يعني إن هذا القرآن لسحر مبين. كذب ظاهر. قرأ الباقون لَسَاحِرٌ مُبِينٌ فإن قيل. إنما قال الكفار هذا القول فما الحكمة في حكاية كلامهم في القرآن؟ قيل: الحكمة فيه من وجوه أحدها: أنهم كانوا يقولون قولاً فيما بينهم فيظهر قولهم عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فكان في ذلك علامة لنبوته لمن أيقن به. والثاني: أن في ذلك تعزية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليصبر على ذلك كما قال (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) والثالث: أن في ذلك تنبيهاً لمن بعده أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يمتنع بما يسمع من المكروه

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾

(١) تقدم الكلام على أوائل السور وانظر الدر المنثور ٣/٢٩٩.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) سراج القارىء (٢٤١) شرح شعلة (٤١٧) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (٣٢٧).
(٤) في أ [الكتاب الحكيم].
(٥) انظر تفسير البغوي ٢/٣٤٣.
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠٠ وعزاه لابن مردويه.
(٧) انظر حجة القراءات (٣٢٧).

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقد ذكرناه ثم قال ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يعني يقضي القضاء وينظر في تدبير الخلق. وروى الأعمش عن عمرو بن مرة عن ابن سابق قال: يدبر أمر الدنيا أربعة، جبريل وميكاييل وملك الموت وإسرافيل. أما جبريل فعلى الرياح والوحي والجنود، وأما ميكاييل فعلى النبات والمطر، وأما ملك الموت فعلى الأنفس، وأما إسرافيل فينزل إليهم بما يؤمرون ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ لأن الكفار كانوا يعبدون الأصنام ويقولون هم شفعاؤنا عند الله. وبعضهم كانوا يعبدون الملائكة. فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة لأحد إلّا بإذن الله تعالى. ويقال: ما من شفيع إلا من بعد إذنه يعني لا يشفع أحد لأحد يوم القيامة من الملائكة ولا من المرسلين إلا من بعد إذنه في الشفاعة لهم ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني الذي يفعل هذا من خلق السموات والأرض وتدبير الخلق هو ربكم وخالقكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فدل أولاً على وحدانيته [وتدبيره][1] ثم أمرهم بالتوحيد والطاعة فقال «فَاعْبُدُوهُ» يعني وحدوه وأطيعوه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني أفلا تتعظون بالقرآن. ويقال أفلا تتعظون بأن لا تعبدوا من لا يملك شيئاً وتعبدون من يملك الدنيا وما فيها. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص تَذَكَّرُونَ بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، لأن أصله تتذكرون فأدغم إحدى التاءين في الذال وأقيم التشديد مقامه. ثم خوفهم فقال ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ يعني مرجع الخلائق كلهم يوم القيامة ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ يعني البعث كائناً وصدقاً. وقال الزجاج: «وَعْدَ اللَّهِ» صار نصباً على معنى وعدكم الله وعداً. لأن قوله إليه مرجعكم معناه الوعد بالرجوع ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ قال أهل اللغة[2] الياء صلة ومعناه إنه بدأ الخلق ثم يعيده يعني خلق الخلق في الدنيا ثم يحييهم بعد الموت يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني لكي يثبت الذين آمنوا بالبعث [بعد الموت][3] ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ يعني عملوا الطاعات بالعدل. وقال الضحاك: يعني الذين قاموا بالعدل وأقاموا على توحيده، يعطيهم من رياض الجنة حتى يرضوا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني ويجزي الذين كفروا. ثم بين جزاءهم فقال ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني ماءً حاراً قد انتهى حره ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يعني يجحدون الرسالة والكتاب. ثم ذكّرهم النعم لكي يستحيوا منه ولا يعبدوا غيره فقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾[4] بالنهار ﴿وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ بالليل. ويقال جعل الشمس ضياء مع الحر والقمر نوراً بلا حر ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ يعني جعل الليل والنهار منازل، يزيد أحدهما وينقص الآخر ولا يجاوزان

---

(١) في أ [وقدرته].

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن ٢/١٨٢ مغني اللبيب ١/١٠١.

(٣) سقط في أ.

(٤) قرأ ابن كثير في رواية القواس: (جعل الشمس ضِئاء) بهمزتين. وحجته: قوله تعالى: ﴿رئاء الناس﴾ وضِئاء جمع ضوء مثل بحر وبحار والأصل (ضِواء) فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصارت ضياء كما تقول (ميزان وميقات)، وجائز أن يكون الضياء مصدراً مثل (الصوم والصيام) والأصل (صِوام) فقلبت الواو ياء تقول أضاء القمر يضوء ضوءاً وضياء) كما تقول: (قام يقوم قياماً). انظر حجة القراءات ٣٢٨.

المقدار الذي قدره ويقال قدره يعني القمر منازل كل ليلة بمنزلة من النجوم وهي ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر. وهذا كقوله «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ» ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ يعني لتعلموا بالقمر حساب السنين والشهور، كقوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ) ثم قال ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني لتعلموا عدد السنين والحساب وتعتبروا وتعلموا أن له خالقاً ومدبراً وهو قادر على أن يحيي الموتى. ثم قال ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني يبين العلامات يعني علامة وحدانيته ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لمن كان له عقل وذهن وتمييز. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص[1] **يُفَصِّلُ** الآيات بالياء. وقرأ الباقون بالنون ومعناهما قريب.

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ائتنا بعلامة كما أتت بها الأنبياء قومهم فنزل «إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» يعني في مجيء الليل وذهاب النهار ومجيء النهار وذهاب الليل ما يأخذ النهار من الليل وما يأخذ الليل من النهار ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من العجائب يعني: فيما خلق الله ﴿آيَاتٍ﴾ يعني: لعلامات ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخشون عقوبته. ويقال لقوم يتقون الشرك، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني لا يخافون البعث بعد الموت. ويقال لا يرجون ثوابنا بعد الموت ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني اختاروا ما في الحياة الدنيا يعني: على ثواب الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ يقول: ورضوا بها وسكنوا إليها وآثروها وفرحوا بها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يعني عن محمد والقرآن معرضون فلا يؤمنون. ويقال تاركين لها ومكذبين بها، ويقال لم يتفكروا فيها. قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يعني أهل هذه الصفة مصيرهم إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: جزاء لكفرهم وتكذيبهم، ثم أنزل فيما أعد للمؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وقال مقاتل: يهديهم على الصراط إلى الجنة بالنور بإيمانهم، يعني بتوحيدهم الله تعالى [في الدنيا][2] وقال الضحاك: يدعوهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة. وقال الكلبي: نحو هذا. ويقال هذا على معنى التقديم ومعناه إن الذين يهديهم ربهم بإيمانهم حتى آمنوا وعملوا الصالحات. ويقال يهديهم ربهم في الدنيا يعني يثبتهم على الإيمان ويدخلهم في الآخرة الجنة بإيمانهم. ويقال ينجيهم ربهم بإيمانهم، وقال الحسن: يرحمهم ربهم بإيمانهم ثم قال ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يتنعمون فيها. ثم قال ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ يعني قولهم في الجنة ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يعني: فهذه علامة بينهم وبين خدمهم في الجنة فإذا قالوا هذه المقالة جاءهم الخدام بالموائد بين أيديهم (وأوتوا) بما يشتهون، فإذا فرغوا من الطعام قالوا الحمد لله رب العالمين فذلك قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٢٨، سراج القارىء ٢٤٢.
(٢) سقط في أ.

رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني وآخر قولهم بعد ما فرغوا من الطعام أن يقولوا الحمد لله رب العالمين. «وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام» على معنى التقديم. وقال الضحاك في قوله عز وجل «دَعْوَاهُمْ فِيهَا» وذلك أن أهل الجنة إذا دخلوا القيامة وصاروا إلى الجنة يكون فاتحة كلامهم: سبحانك اللهم على ما مننت به علينا وتحيتهم فيها سلام. يقول يسلم عليهم الملائكة من الله تعالى. ويقال يسلم بعضهم على بعض ويقال يسلمون على الله تعالى. ويقال تحيتهم لله تعالى بالسلام كقوله (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) «وآخر دعواهم» يعني بعد ما رأوا من الكرامات وبعد ما أكلوا من الطعام حمدوا الله تعالى على ما أعطاهم من الخير.

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ قال مقاتل: وذلك حين تمنى النضر بن الحارث العذاب فنزل قوله «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ» يقول لو استجيب لهم في الشر استعجالهم بالخير كما يحبون أن يستجاب لهم في الخير ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ في الدنيا بالهلاك. وقال مجاهد[1] والضحاك والكلبي ولو يعجل الله للناس الشر. يعني العقوبة إذا دعا على نفسه وولده وعلى صاحبته مثل أخزاك الله ولعنك الله. كما يعجل لهم الخير إذا دعوه بالرحمة والرزق والعافية لماتوا وهلكوا. وقال القتبي: هذا من (الإضمار)[2] ومعناه ولو يعجل الله للناس الشر. يعني إجابتهم بالشر. استعجالهم بالخير. يعني كإجابتهم بالخير. وإنَّما صار «اسْتِعْجَالَهُمْ» نصباً على معنى مثل استعجالهم. قرأ ابن عامر[3] «لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ» بالنصب يعني لقضى الله أجلهم لأنه اتصل بقوله ولو يعجل الله. وقرأ الباقون «لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ» بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله ثم قال ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني نترك الذين لا يخافون البعث بعد الموت ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: في ضلالهم يعمهون يعني: يتحيرون ويترددون. قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ يقول إذ مس الكافر ما يكره من المرض والفقر والبلاء ﴿دَعَانَا﴾ يقول: أخلص في الدعاء إلينا ﴿لِجَنْبِهِ﴾ يعني وهو مطروح على جنبه إذا اشتد به المرض ﴿أَوْ قَاعِداً﴾ إذا كانت العلة أهون ﴿أَوْ قَائِماً﴾ إذا بقي فيه أثر العلة. ويقال دعانا في الأحوال كلها مضطجعاً كان أَوْ قَائِماً أَوْ قَاعِداً. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ رفعنا عنه بلاءه ﴿مَرَّ﴾ يقول: استمر على ترك الدعاء ونسي الدعاء، ويقال مر في العافية على ما كان عليه قبل أن يبتلى ولم يتعظ بما ناله ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ يعني: إلى بلاء أصابه قبل ذلك فلم يشكره. ويقال معناه أمن من أن يصيبه مثل الضر الذي دعا فيه حين مسه ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) في أ [الاقتصار].

(٣) انظر حجة القراءات ٣٢٨ سراج القارىء ٢٤٢.

يعني المشركين (ما كانوا يعملون) يعني: بالدعاء عند الشدة وترك الدعاء عند الرخاء. قوله ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعني أهلكناهم بالعذاب لما كذبوا الرسل وأقاموا على كفرهم، خوَّف أهل مكة بمثل عذاب الأمم الخالية لكيلا يكذبوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالآيات بالأمر والنهي ﴿وَمَاكَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لم يصدقوا الرسل ولم يرغبوا في الإيمان. ويقال وما كانوا ليصدقوا بنزول العذاب بما كذبوا من قبل يوم الميثاق ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ يعني نعاقب ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين

ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ يعني جعلناكم يا أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ «خَلَائِفَ ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد هلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا على معنى التهديد. يعني إنْ كانت معاملتكم مثل معاملتهم في تكذيب الرسل أهلكتكم كما أهلكت تلك القرون. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني كفار قريش لما سمعوا القرآن، قالوا ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يعني امحه وانسخه فإنا نجد فيه تحريم عبادة الأوثان وما نحن عليه، وهذا قول الضحاك. وقال الكلبي «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ» يعني المستهزئين وكانوا خمسة رهط «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» يعني لا يخافون البعث بعد الموت «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ» ائت يا محمد، أو اجعل مكان آية الرحمة آية العذاب ومكان آية العذاب آية الرحمة. وقال الزجاج: معناه بقرآن ليس فيه ذكر البعث والنشور وليس فيه عيب آلهتنا، أو بدل منه ذكر البعث والنشور. ﴿قُلْ مَايَكُونُ لِي﴾ يعني قل: ما يجوز لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ يقول: من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ يعني: لا أعمل إلا ما أومر به وأنزل عليَّ من القرآن ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ يعني أعلم أني لو فعلت ما لم أؤمر به أصابني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني يوم القيامة. قال مقاتل والكلبي: نسختها (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِك وما تأخرَ) يعني: ما قرأته ولا عرضته عليكم ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم به، ومعناه أن الله تعالى لو لم يجعلني رسولا (إليكم) ما تلوته عليكم كما لم أتل عليكم قبل الوحي. ويقال معناه لو رضي الله لكم ما أنتم عليه من الكفر والجهل ما بعثني إليكم رسولا. قرأ أبو عمرو وحمزة ونافع في رواية ورش والكسائي ولا أَدْرِيكُمْ بكسر الراء[1]. وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان، ومعناهما واحد. وعن الحسن أنه قرأ ولا أدرأتكم بالتاء قال أبو عبيدة ما أرى ذلك إلا غلطاً منه في الرواية لأنه لا مخرج لها في العربية ثم قال ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني إلى أربعين سنة من قبل هذا القرن. فهل سمعتموني أقرأ شيئاً من هذا عليكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّي لم أتقوله من تلقاء نفسي. ولكنه وحي الله من عنده لأنه لو كان من تلقاء نفسي لسمعتم مني قبل هذا شيئاً منه.

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٨ ـ ٣٢٩، سراج القارىء ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني من أشد في كفره ممن اختلق على الله كذباً أنَّ معه شريكاً ﴿أَوْكَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: المشركون. وقال الضحاك «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّه كَذِباً» يعني مسيلمة الكذاب «إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ» يعني أتباعه وأشياعه ونظراؤه. قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوها ﴿وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ﴾ يعني الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يشفعون لنا في الآخرة ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ أتخبرون الله ﴿بِمَا لاَ يَعْلَمُ﴾ من الآلهة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني الأصنام بأنها تشفع لأحد يوم القيامة. ويقال معناه أتخبرون الله بشفاعة آلهتكم. أما علموا أنها لا تكون أبداً. ويقال معناه أتشركون مع الله بجاهل لا يعلم ما في السموات ولا ما في الأرض. ثم نزه نفسه عن الولد والشريك فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعني تنزيهاً له ﴿وَتَعَالَى﴾ يعني ارتفع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الآلهة ويقال معناه هو أعلا وأجل من أن يوصف له شريك. قرأ عاصم وأبو عمرو (وابن عامر)[1] يُشْرِكُونَ بالياء على معنى المغايبة. وقرأ الباقون بالتاء على وجه المخاطبة ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال مقاتل: وما كان الناس إلا على ملة واحدة. يعني على عهد آدم وعلى عهد نوح من بعد الغرق. كانوا كلهم مسلمين ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ في الدين بعد ذلك. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً (على عهد آدم فاختلفوا حين قتل أحد بني آدم أخاه فتفرقوا مؤمناً وكافراً. [وقال الكلبي: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً) كافرة على عهد إبراهيم فتفرقوا مؤمناً وكافراً][2]. وقال الزجاج (وَمَا كَانَ النَّاسُ) يعني العرب. كانوا على الشرك قبل مجيء النبي - صلى الله عليه وسلم - فاختلفوا بعده فآمن بعضهم وكفر بعضهم. قال الزجاج: وقيل أيضاً (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً) يعني: ولدوا على الفطرة واختلفوا بعد الفطرة ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ [لولا أنَّ الله جعل لهم أجلاً للقضاء بينهم «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» في وقت اختلافهم. ويقال][3] (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) في اللوح المحفوظ بأن لا يعجل بعقوبة العاصين ويتركهم لكي يتوبوا ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وقال مقاتل (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) في الدنيا. وقال الكلبي: لولا أن الله تعالى أخبر هذه الأمة أن لا يهلكهم كما أهلك الذين من قبلهم لقضى بينهم في الدنيا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ﴾

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٢٩، سراج القارىء ٢٤٣.

(٢) سقط في أ. (٣) سقط في ظ.

﴿ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَّبِّهِ﴾ وذلك حين قال عبد الله بن أمية: (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعاً) وسألته قريش أن يأتيهم بآية فقال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ نزول الآية من عند الله تعالى ﴿فَٱنْتَظِرُوا﴾ نزولها ﴿إِنِّي مَعَكُم مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ﴾ لنزولها. ويقال فانتظروا بي الموت إني معكم من المنتظرين لهلاككم. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أصبنا الناس ﴿رَحْمَةً﴾ يعني المطر. ويقال العافية ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ من بعد القحط ومن بعد الشدة والبلاء ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني تكذيباً بالقرآن. ويقال تكذيباً بنعمة الله تعالى ويقولون سقينا بنوء كذا ولا يقولون هذا من رزق الله تعالى. وقال القتبي إذا لهم مكر في آياتنا يعني قولهم بالطعن والحيلة ليجعلوا لتلك الرحمة سبباً آخر ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ يعني: أشد عذاباً وأشد أخذاً ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني [الحفظة يكتبون][1] ما تقولون من التكذيب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يعني يحملكم في البر على الدواب وفي البحر في السفن. ويقال هو الذي يحفظكم إذا سافرتم في برٍ أو بحر. قرأ ابن عامر[2] يَنْشُرُكُمْ بالنون والشين من النشر يعني يبثكم. والقراءة المعروفة يُسَيِّرُكُمْ من التسيير. يعني يسهل لكم السير ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ يعني: في السفن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ﴾ يقال للسفينة الواحدة جَرَتْ وللجماعة جَرَيْنَ. واسم الفلك يقع على الواحد وعلى الجماعة، ويكون مذكراً إذا أريد به الواحد ومؤنثاً إذا أريد به الجماعة كقوله (فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ) وقال (وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ) ذكرا بلفظ التأنيث مرة، وبلفظ التذكير مرة، وفيه الدليل أن الكلام يكون بعضه على وجه المخاطبة وبعضه على وجه المغايبة، كما قال ههنا «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ» بلفظ المخاطبة ثم قال «وَجَرَيْنَ بِهِمْ» بلفظ المغايبة «بِرِيحٍ ﴿طَيِّبَةٍ﴾ يعني لينة (ساكنة ﴿[وَفَرِحُوا بِهَا]﴾)[3] بالريح الطيبة ﴿جَاءَتْهَا﴾ يعني: السفينة ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ يعني: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: من كل النواحي ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ يعني: علموا وأيقنوا أنه قد دنا هلاكهم، وقال القتبي وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بالقرية يقال

(١) سقط في ظ.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٢٩، سراج القارىء ٢٤٣.
(٣) سقط في ظ.

دنا القوم من الهلكة قال الله تعالى «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» وأُحِيطَ بثمره، فصار ذلك كناية عن الهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني أخلصوا لله تعالى يعني: الدعاء وقالوا ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ يعني من هذه الريح العاصف، ويقال من هذه الأهوال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يعني: الموحدين المطيعين ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ يعني: يعصون ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني الدعاء إلى غير عبادة الله تعالى والعمل بالمعاصي والفساد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني إثم معصيتكم عليكم وهذا كقوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) ويقال مظالمكم فيما بينكم يعني: على أنفسكم أي جنايتكم عليكم. وهذا كما يقال في المثل (المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء يكفيه مساويه) يعني وباله يرجع إليه ثم قال ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: تمتعون فيها أيام حياتكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ ويقال عيشكم في الدنيا قليل، ويقال عمر الدنيا في حياة الآخرة قليل ثم إلينا مرجعكم أي بعد الموت في الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: نخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص[1] «مَتَاعَ» بالنصب ويكون نصباً على المصدر. ومعناه تمتعون متاع الحياة الدنيا. وقرأ الباقون «مَتَاعُ» بالضم ومعناه هو متاع الحياة، ثم ضرب للحياة الدنيا مثلاً فقال ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: في فنائها وبقائها ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ يعني يدخل الماء في الأرض فينبت به النبات فاتصل كل واحد بالآخر فاختلط ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ يعني مما يأكل الناس من الحبوب والثمار ومما تأكل الأنعام والدواب من العشب والكلأ ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ يعني زينتها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ يعني حسنت بألوان النبات. وأصله تزينت فحذفت التاء وأقيم التشديد مقامها. وهذا كقوله (ادَّارَكَ) وأصله تدارك ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ يعني: وحسب أهل الزرع ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ يعني على غلاتها وأنها ستتم لهم الآن ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ قال أبو عبيدة. الحصيد المستأصل. ويقال الحصيد كحصيد السيف ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ يعني صار كأن لم يكن بالأمس فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان فيظن أنه قد نال مقصده فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن، أو رجل ولد له مولود فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده فيموت ويصير كأنه لم يكن ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني نبين [علامات][2] غرور الدنيا وزوالها لكيلا يغتروا، ونبين بقاء الآخرة ليطلبوها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بأمثال القرآن ويعتبرون بها

وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ يعني: يدعو إلى عمل الجنة ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الدين القيم. ويقال إن عطاءه على قسمين خاص وعام. فأما العطاء الخاص فالتوفيق والعصمة واليقين. وأما العطاء العام فالصحة والنعمة والأمن. والدعوة هنا عامة والهداية خاصة. فقد دعا جميع الناس بقوله «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ» ثم قال «وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فجعل الهداية خاصة لأنها فضله، وفضل الله يؤتيه من يشاء. وقال قتادة: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ»، والله هو السلام وداره الجنة. ويقال السلام هو السلامة وإنما سميت الجنة دار السلام لأنها سالمة من الآفات والأمراض وغير ذلك. روى أبو أيوب عن أبي قلابة عن أنس أن[3] النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: نامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني. ثم قيل لي إن سيداً

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٣٠، سراج القارىء ٢٤٣.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر من حديث أنس وعزاه لابن مردويه ـ انظر الدر المنثور ٣/٣٠٥.

بني داراً وصنع مائدة وأرسل داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ورضي عنه السيد. فالله تعالى هو السيد والدار الإسلام والمائدة الجنة والداعي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، «وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ» يكرم من يشاء بالمعرفة من كان أهلاً لذلك «إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» إلى دين الإسلام.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ للذين وحدوا الله وأطاعوه في الدنيا لهم الجنة في الآخرة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي فضلاً. قال عامة المفسرين [الزيادة][1] هي النظر إلى وجه الله تعالى. وهكذا روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [2] وعن أبي بكر الصديق[3] وحذيفة بن اليمان[4] وأبي موسى الأشعري[5] وغيرهم. قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو العباس السراج قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: حدثنا عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ثم قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار نادى منادٍ: «يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً يحب أن ينجزكموه، فيقولون وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ولم يبيض وجوهنا وأدخلنا الجنة ونجانا من النار. قال ثم يكشف الحجاب فينظرون إلى الله تعالى. فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجه الله تعالى[6] قال الفقيه رضي الله عنه: وأخبرنا الثقة بإسناده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة قالا: الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى. وعن أبي موسى الأشعري قال: الحسنى هي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى. وعن عامر بن سعد وقتادة وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعكرمة[7] مثله

قال الفقيه سمعت محمد بن الفضيل العابد قال: سمعت علي بن عاصم قال: أجمع أهل السنة والجماعة أن الله تعالى لم يره أحد من خلقه (في الدنيا) وأن أهل الجنة يرونه يوم القيامة. وقال الزجاج: القول في النظر إلى وجه الله تعالى كثير في القرآن. والتفسير مروي بالأسانيد الصحاح أنه لا شك في ذلك. وقال مجاهد[8]: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

---

(١) سقط في (ظ).

(٢) انظر صحيح مسلم ٢٩٧، ٢٩٨ (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، والنسائي في الكبر كتاب النعوت، وابن ماجه (١٨٧).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبي الشيخ والدارقطني وابن منده في الرد على الجهمية وابن مردويه واللالكائي والآجري والبيهقي كلاهما في الرؤية.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والدارقطني واللالكائي والآجري والبيهقي.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعنادين السري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والدارقطني واللالكائي والبيهقي.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة (٢٩٧، ٢٩٨/ ١٨١) وتقدم في الحاشية.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٨) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال الحسنى مثلها والزيادة المغفرة والرضوان. وروي عن علقمة[١] قال: الحسنى مثلها وزيادة عشر أمثالها. ويقال الحسنى الجنة وما فيها من الكرامة، والزيادة ما يأتيهم كل يوم من التحف والكرامات من الله تعالى: فيأتيهم رسول رب العالمين فيقول لهم أنا رضيت عنكم فهل رضيتم عني ثم قال تعالى ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ يعني لا يعلو ولا يغشى وجوههم سواد، وهو كسوف الوجوه عند معاينة النار. ويقال حزن ولا ذلة يعني ولا مذلة ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. يعني دائمين. ثم بين حال أهل النار فقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ يعني أشركوا بالله وعبدوا الأصنام والشمس والقمر والملائكة والمسيح، فهذه كلها من السيئات ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ بلا زيادة يعني لا يزاد على ذلك. وهذا موصول بما قبله. فكأنه قال ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها بلا زيادة. وهذا كقوله تعالى (مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) ويقال جزاء سيئة بمثلها. يعني جزاء الشرك النار فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أشد من النار فيكون العذاب موافقاً لسيئاتهم كقوله تعالى (جَزَاءً وِفَاقاً) أي موافقاً لشركهم ثم قال ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني: يغشى وجوههم الذلة وهي سواد الوجوه من العذاب ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعني: مانع يمنع من عذاب الله تعالى، ثم وصف سواد وجوههم فقال: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ يعني سواد الليل مظلماً ويقال قطعاً من الليل. يعني بعضاً من الليل وساعة منه.

قال الفقيه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا محمد بن عقيل الكندي قال حدثنا العباس الدوري قال حدثنا يحيى بن أبي بكر عن شريك عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٢] أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم. قرأ ابن كثير والكسائي[٣] قِطْعاً بجزم الطاء وهو اسم ما قطع منه يعني طائفة من الليل قرأ الباقون قطعاً بنصب الطاء يعني: جمع قطعة وإنما أراد به سواد الليل «مُظْلِماً» وصار نصباً للحال أي في حالة الظلام ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: مقيمون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ وهذا كله في يوم نجمعهم جميعاً. يعني الكفار وآلهتهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ يعني قفوا أنتم وآلهتكم. ويقال الرؤساء والأتباع ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يعني ميزنا وفرقنا بين المشركين وبين آلهتهم. وأصله في اللغة[٤] من زال يزول. وأزلته وزيلته بمعنى واحد. ويقال فرقنا بينهم

---

(١) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/٦١٢ في كتاب صفة جهنم، باب منه ما جاء أن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم (٢٥٩١) وابن ماجه ٢/٤٤٥ في الزهد (٤٣٢٠).

(٣) انظر حجة القراءات ٢٣٠، سراج القارىء ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٤) انظر ترتيب القاموس ٢/٤٤٩.

من التواصل والألفة، يعني بين الرؤساء والأتباع. ويقال يأمر الله تعالى أن تلحق كل أمة بما كانوا يعبدون من دون الله. فيتفرق أهل الملل، وذلك قوله «فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ» يعني بين أهل الشرك وأهل الإسلام «ثم قال للمشركين ماذا كنتم تعبدون فينكرون ويحلفون ثم يقرون بعدما يختم على أفواههم وتشهد أعضاؤهم أنهم كانوا يعبدون الأصنام ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ يعني: آلهتهم لمن عبدها ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا بأمرنا، ولا نعلم بعبادتكم إيانا ولم تكن فينا روح فنعقل عبادتكم إيانا. فيقول من عبدها قد عبدناكم وأمرتمونا فأطعناكم فقالت الآلهة ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ يعني عالماً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ يعني: ولم نعلم أنكم تعبدوننا والفائدة في إحضار الأصنام أن يظهر عند المشركين ضعف معبودهم فيزيدهم حسرة على ذاك ثم قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] «تَتْلُوا» بالتائين، يعني عند ذلك نقرأ كل مفس، برة أو فاجرة ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ يعني: ما عملت من خير أو شر وهذا قوله (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)، ويقال تتلو يعني تتبع كقوله (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) يعني تبعها، والباقون تَبْلُو بالتاء والباء يعني عند ذلك تجد. ويقال تظهر. كقوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) وقال القتبي أي يختبر. ثم قال ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ يعني رجعوا في الآخرة إلى الله مولاهم الحق ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني: اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسها ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: يختلقون من الأوثان فلا يكون لهم شفاعة. ويقال بطل افتراؤهم واضمحل.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني قل يا محمد للمشركين من يرزقكم من السماء بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ ومن الأرض بالنبات ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي من يخلق لكم السمع والأبصار ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ ومن يقدر أن يخرج الحي من الميت، يعني الفرخ من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يعني البيضة من الطير والنطفة من الإنسان والمؤمن[2] من الكافر والكافر من المؤمن ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يعني من يقدر أن يدبر الأمر بين الخلق وينظر في تدبير الخلائق. ويقال من يرسل الملائكة بالأمر ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ يفعل ذلك كله (لا الأصنام) لأن الأصنام لم يكن لهم قدرة على هذه الأشياء ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشرك فتوحدونه إذ تعلمون أن لا يقدر أحد أن يفعل هذه الأشياء إلا الله تبارك وتعالى. ويقال أفلا تتقون. أي تطيعون الله الذي يملك ذلك ثم قال تعالى ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ وغيره من الآلهة باطل ليس بشيء ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يعني فما عبادتكم. بعد ترك عبادة الله تعالى إلا عبادة الشيطان. ويقال فماذا بعد التوحيد إلا الشرك ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعني فمن أين تمتنعون عن الإيمان بالله. ويقال فأنى تصرفون عن هذا الأمر بعد المعرفة. وقال مقاتل: فمن أين تعدلون

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٣١، سراج القارىء ٢٤٤.

(٢) في أ [المسلم].

به غيره. ويقال كيف ترجعون عن هذا الإقرار. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يعني: هكذا وجبت كلمة العذاب من ربك كقوله (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ) ويقال وجبت كلمة ربك وهو قوله: (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) قوله ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ يعني: كفروا بربهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بعلم الله تعالى السابق فيهم. ويقال أنَّهم لا يؤمنون. يعني لأنهم لا يؤمنون، فوجب عليهم العذاب بترك إيمانهم. قرأ نافع وابن عامر[١] «كَلِمَاتُ رَبِّكَ» بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون «كَلِمَةُ رَبِّكَ». وكذلك الاختلاف في قوله(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني أصنامكم التي تعبدونها هل يقدرون أن يخلقوا خلقاً من غير شيء ثم يبعثونهم في الآخرة كما يفعل الله تعالى. فإن أجابوك وإلا فـ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني إن معبودكم لا يستطيع ذلك ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يعني من أين تكذبون. ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يقول هل يقدر [أحد][٢] من آلهتكم أن يهدي إلى الحق. أي يدعو الخلق إلى الإسلام، فقالوا لا ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ يعني: يدعو الخلق إلى الإسلام ويوفق من كان أهلاً لذلك ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ أي يدعو إلى الحق أحق أن يعمل بأمره ويعبد ﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي﴾ طريقاً ولا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ يعني [لا][٣] يمشي بنفسه إلا أن يحمل من مكان، قرأ نافع وأبو عمرو «أَمَّنْ لَا يَهْدِّي» بجزم الهاء وتشديد الدال. لأن أصله في اللغة يهتدي فادغم التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه، وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع في رواية ورش «يَهَدِّي» بنصب الياء والهاء وتشديد الدال. لأن حركة التاء وقعت على الهاء، وقرأ عاصم في رواية حفص «يَهِدِّي» بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال لأنه لما اجتمع الساكنان حرك أحدهما بالكسر. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر[٤] «يِهِدِّي» بكسر الياء والهاء (وتشديد الدال) فأتبع الكسرة الكسرة. وقرأ حمزة والكسائي «يَهْدِي» بجزم الهاء وتخفيف الدال. ويكون معناه لا يهتدي. قال الكسائي قوم من العرب يقول هديت الطريق. بمعنى اهتديت. فهذه خمس من القراءات في هذه الآية، ثم قال ﴿فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كيف تقضون لأنفسكم يعني تقولون قولاً ثم ترجعون ويقال «مَالَكُمْ» كلام تام فكأنه قيل لهم أي شيء لكم في عبادة الأوثان. ثم قيل لهم «كَيْفَ تَحْكُمُونَ» أي على أي حال تحكمون، ويقال معناه كيف تعبدون آلهتكم بلا حجة ولا تعبدون الله بعد هذا البيان لكم.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣١.
(٢) سقط في (ظ).
(٣) سقط في (أ).
(٤) انظر حجة القراءات ٣٣١ - ٣٣٢، سراج القارىء ٢٤٤.

تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾

ثم قال﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾ يعني لا يستيقنون أن اللات والعزى آلهة بالظن. ومعناه أنهم يتركون عبادة الله تعالى وهو الحق لأنهم يقرون بأن الله خالقهم فيتركون الحق ويتبعون الظن ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يعني علمهم لا يغني من عذاب الله شيئاً. ويقال وما يتبع أكثرهم يعني [ما قذف الشيطان في أوهامهم «إنَّ الظَّنَّ»][1] يعني ما قذف الشيطان في أوهامهم، لا يستطيعون أن يدفعوا (الحق بالباطل)، ويقال وما يتبع. يعني وما يعمل أكثرهم إلا ظنّاً، يظنون في غير يقين وهم الرؤساء، وأما السفلة فيطيعون رؤساءهم «إنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من عبادتهم الأصنام وما يقولون من القول المختلف والكذب ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ يعني لهذا القرآن مختلف ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى. وقال القتبي: ما كان هذا القرآن أن يضاف إلى غير الله تعالى أو يختلق ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن نزل بتصديق الذي بين يديه من التوراة والإنجيل. ويقال معناه ولكن بتصديق النبي الذي أنزل القرآن بين يديه، يعين الذي هو قبل سماعكم، لأن القرآن تصديق لما جاء من أنباء الأمم السابقة وأقاصيص أنبيائهم[2] يعني بيان كل شيء ويقال بيان الحلال والحرام ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني: لا شك فيه عند المؤمنين إنه نزل. ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: أيقولون؟ وهم كفار مكة ﴿افْتَرَاهُ﴾ تقوله من ذات نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يعني مثل القرآن ﴿وَادْعُوا﴾ استعينوا على ذلك ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ممن تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه تقوله من تلقاء نفسه. فلما قال لهم ذلك سكتوا ولم يجيبوا فنزل قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ يعني القرآن لم يعلموا ما فيه. ويقال: لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يعني ولما يأتهم عاقبة ما وعدوا في هذا القرآن. يعني: سيئاتهم، ما وعد لهم وهو كائن في الدنيا بالعذاب وفي الآخرة بالنار ثم قال ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هكذا كذب الأمم الخالية رسلهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: كيف صار جزاء المكذبين لرسلهم، فيه تعزية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحث له على الصبر وتخويف لهم بالعقوبة، قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: بعقوبة من لم يؤمن به، قال مقاتل: وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ (من أهل الكتاب)، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ من أهل مكة، وقال الكلبي ومنهم من يؤمن به من اليهود، يعني: يؤمن به قبل موته، ومنهم من لا يؤمن به يعني: بعلم الله تعالى السابق فيه. وقال الزجاج معناه ومنهم من يعلم أنه حق فيصدق بقلبه ويعاند ويظهر الكفر. ومنهم من لا يؤمن به أي يشك ولا يصدق. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يعني المشركين بما أتيتهم به ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي﴾ يعني: ديني ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ يعني: دينكم ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ وأدين ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وتدينون به غير الله تعالى. وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ولما نزلت آية القتال نسخت هذه الآية ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قال الكلبي: نزلت في شأن اليهود قدموا مكة وكانوا يسمعون قراءة القرآن فيعجبون به ويشتهونه وتغلب عليهم الشقاوة فلا يسلمون قال الله تعالى ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ يعني تفقه الكافر الذي لا يعقل الموعظة، وقال الضحاك: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» وذلك أن كفار قريش دخلوا المسجد الحرام والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم عند المقام يصلي وهو يقرأ سورة طه، قال الوليد بن المغيرة يا معشر قريش إنما يتلو محمد ليأخذ بقلوبكم. فقال أبو جهل اللعين وأصحابه لا

---

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في ظ.

تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه. فنزل «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ» وذلك أنهم صموا عن الحق. ويقال أفأنت تسمع الصم أي من يتصامم ولا يستمع إليك ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾ يقول: أي وإن كانوا مع ذلك لا يرغبون في الحق. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعني بغير رغبة ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ يعني: ترشد من يتعامى ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ﴾ الحق ولا يرغبون فيه. قال (مقاتل): والقتبي: هذا من جوامع الكلم حيث بَيَّنَ فضل السمع على البصر حيث جعل مع الصم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان البصر.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ يقول: لا ينقص من (أجور) الناس شيئاً ولا يحمل عليهم من أوزار غيرهم ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يعني يضرون أنفسهم بتركهم الحق. قرأ حمزة والكسائي وَلَكِنِ النَّاسُ بكسر النون مع التخفيف وضم السين. وقرأ الباقون ولكنَّ النَّاسَ بالنصب والتشديد ونصب السين قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يقول: يجمعهم في الآخرة ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾[1] قال الكلبي: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاّ ساعةً من النهار، وقال الضحاك كأن لم يلبثوا في القبور إلا ما بين العصر إلى غروب الشمس أو ما بين صلاة الغداة إلى طلوع الشمس. ويقال يعني بين النفختين، لأنه يرفع عنهم العذاب فيما بين ذلك. وقال مقاتل: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال الكلبي يعني: يتعارفون بينهم حين خرجوا من قبورهم ثم تنقطع عنهم المعرفة فلا يعرف أحد أحداً. وقال الضحاك: يتعارفون بينهم حين خرجوا. وذلك أن أهل الإيمان يبعثون يوم القيامة على ما كانوا عليه في [دار][2] الدنيا من التواصل والتراحم، يعرف بعضهم بعضاً محسنهم لمسيئهم. وأما أهل الشرك فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. قال الله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ يعني بالبعث بعد الموت ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ يقول لم يكونوا مؤمنين في الدنيا قال تعالى ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْنَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نرينك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم في الآخرة، وروي عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما. أنهما قالا: أخبر الله تعالى نبيه أن يستخلف أمته من بعده ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب. قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ يعني لأهل كل دين رسول أتاهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ يعني فأبلغهم فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين رسولهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يعني بالعدل ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً. وقال مجاهد: فإذا جاء

(١) قرأ حفص «ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا» بالياء إخبار عن الله وقرأ الباقون: بالنون: الله يخبر عن نفسه انظر حجة القراءات ٣٣٢.

(٢) سقط في (ظ).

رسولهم يعني يوم القيامة قضي بينهم بالعدل وهم لا يظلمون. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهو قوله تعالى (فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب ينزل بنا ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَراً وَلَا نَفْعاً﴾ يعني ليس في يدي دفع مضرة ولا جر منفعة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يقويني عليه، قال مقاتل: معناه قل لا أملك لنفسي أن أدفع عنها (سوءاً)(١) حين ينزل، ولا أن أسوق إليها خيراً إلا ما شاء الله فيصيبني، فكيف أملك (نـزول) العذاب بكم وقال القتبي: «الضُّر»بضم الضاد الشدة والبلاء. كقوله (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ) وكقوله (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ) «والضَّر» بفتح الضاد ضد النفع ومنه قوله تعالى «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضراً وَلَا نَفْعاً» يعني: قل لا أملك جر نفع ولا دفع ضَرٍّ. ثم قال ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقته في العذاب. ويقال لكل أمة أجل. يعني: مهلة، ويقال أجل الموت. ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وقتهم بالعذاب ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يعني لا يتأخرون (عنه ساعة) ولا يتقدمون عنه ساعة فكذلك هذه الأمة إذا نزل بهم العذاب لا يتأخر عنهم ساعة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ يعني عذاب الله تعالى ﴿بَيَاتاً﴾ ليلاً كما جاء إلى قوم لوط ﴿أَوْ نَهَاراً﴾ يعني مجاهرة كما جاء إلى قوم شعيب ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يقول بأي شيء يستعجل منه المجرمون يعني المشركين. ويقال ماذا ينفعهم استعجالهم منه، أي من عذاب الله تعالى. قوله ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعني إذا وقع العذاب صدقتم به. يعني بالعذاب، ويقال بالله ﴿ءَآلآنَ﴾(٢) يعني يقال لهم آمنتم بالعذاب حين لا ينفعكم ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهذا اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التهديد. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني قالت لهم خزنة جهنم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الذي لا ينقطع ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾يقول: هل تثابون ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب.

وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟

---

(١) في أ [شراً].

(٢) قرأ نافع: (آلان) (بفتح) اللام وإسقاط الهمزة، نقل فتح الهمزة إلى اللام كما قرأ ورش: (الأرض) (الأخرة). وقرأ إسماعيل عن نافع: (الآن) بإسكان اللام وبه قرأ الباقون على أصل الكلمة. انظر حجة القراءات ٣٣٣.

هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ قال قتادة ومقاتل، وذلك أن حيي بن أخطب حين قدم مكة قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحق هذا العذاب؟ قال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ يعني إي والله إنَّه لكائن، ويقال معناه ويسألونك عن البعث أحق هو؟ ويسألونك عن دينك أحق هو؟ «قُلْ إِي وَرَبِّي» يعني قل يا محمد نعم ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ يعني العذاب «نازل بكم إن لم تؤمنوا» ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ «بفائتين من العذاب حتى يجزيكم به. ثم أخبر عن حالهم حين نزل بهم العذاب فقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ يعني كفرت وأشركت بالله تعالى لو كان لها ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ يعني النفس لافتدت من سوء العذاب ولا يقبل منها ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ يعني أخفوا الندامة. يعني القادة من السفلة ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ حين نزل بهم العذاب ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بين القادة والسفلة بالعدل. ويقال قضي بينهم. يعني بين الخلق بالعدل فيعطى ثوابهم على قدر أعمالهم. ويقال يقضى بين الكفار بالعدل وبين المؤمنين بالفضل. ثم قال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً. ثم بيَّن استغناءه عن عبادة (الخلق)[1] وقدرته عليهم فقال ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني كلهم عبيده وإماؤه وهو قادر عليهم، ويقال كل شيء يدل على توحيده وأن له صانعاً ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني البعث بعد الموت هو كائن ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا يصدقون به ثم قال تعالى ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني يا أهل مكة. ويقال جميع الناس ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني نهياً من ربكم عن الشرك على لسان نبيكم ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يعني القرآن شفاء للقلوب من الشرك ويقال شفاء من العمى لأن فيه بيان الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ويقال صواباً وبياناً ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني القرآن نعمة الله على المؤمنين، نعمة من العذاب لمن آمن وعمل بما فيه. قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني قل يا محمد للمؤمنين بفضل الله والإسلام. ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ (القرآن) وروي عن ابن عباس[2] أنه قال: بفضل الله يعني القرآن. وبرحمته الإسلام، يعني بنعمته عليكم إذ أكرمكم بالإسلام والقرآن. وهكذا قال أبو سعيد الخدري. وقال الضحاك ومجاهد[3]: بفضل الله القرآن وبرحمته الإسلام. وقال مقاتل: بفضل الله الإسلام وبرحمته القرآن، وعن الحسن[4] مثله. وقال القتبي مثله قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني بالقرآن والإيمان ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال. قرأ ابن عامر[5] (فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) بالتاء. كلاهما على معنى المخاطبة[6] وقرأ الباقون (يجمعون)[7] بالياء على معنى المغايبة

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠٨ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.

(٥) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٣.

(٦) اعلم أن كل أمر للغائب والحاضر لا بد من لام تجزم الفعل كقولك (ليقم زيد) (لينفق ذو سعة) وكذلك إذا قلت: قم واذهب، فالأصل: (لتقم) و(لتذهب) بإجماع النحويين فتبين أن المواجهة كثر استعمالهم لها فحذفت اللام اختصاراً وإيجازاً واستغنوا بـ(افرحوا) عن (لتفرحوا) وبـ(قم) عن (لتقم). فمن قرأ بالتاء فإنما قرأ على الأصل وحجته أنها عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: عن أبي بن كعب قال: قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (أمرت أن أقرأ عليك) قال: قلت (وقد سماني ربك؟) قال: (نعم) قال: فقرأ علي (يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ): (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون) بالتاء. وقد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (لتأخذوا مصافكم) أي: خذوا مصافكم فهذا أمر المواجهة. انظر حجة القراءات ص ٣٣٣.

(٧) سقط في أ.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ في الكتاب ويقال من السماء، ويقال ما أعطاكم الله من الرزق والحرث والأنعام والبحيرة والسائبة وبَيَّنَ في كتابه تحليلها ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً﴾ حراماً على النساء وحلالاً على الرجال ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ يعني الله عز وجل أمركم بتحريمه وتحليله ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ يعني بل على الله تفترون يعني تختلقون على الله كذباً ما لم يقله ولم يأمر به. فقال قل الله أذن لكم؟ فقالوا بلى أمرنا بها. قال الله تعالى «أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» بل على الله تختلقون. ثم قال تعالى ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يعني وما ظنهم حين ينزل بهم العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكيف ينجون منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لذو مَنٍّ على الناس بتأخير العذاب عنهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (نعمة الله تعالى)[1] عليهم بتأخير العذاب عنهم. قوله تعالى: ﴿وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: وما تكون يا محمد في أمر من الأمور ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ وما تقرأ من الله من قرآن مما أوحي إليك. فخاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخاطب أمته أيضاً فقال ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ يعني عالماً بكم وبأعمالكم فلا تنسوه. ويقال إلّا جعل عليكم شاهداً من الملائكة وهم الحفظة ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يعني حين تأخذون في قراءة القرآن. ويقال حين تخوضون فيه «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ» قرأ الكسائي[2] ﴿وَمَا يَعْزِبُ﴾ بكسر الزاي. وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان جيدتان. وهكذا (ذكر عن) الفراء يعني وما يغيب ﴿عن ربك مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ قال الكلبي: وهي النملة الحميراء. وقال مقاتل: أصغر نملة في الأرض. ويقال الذّر ما يرى في شعاع الشمس. والمثقال عبارة عن الوزن. يعني لا يغيب عنه وزن الذرة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني ولا أخف من وزن الذرة ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ يعني ولا أثقل من وزن الذرة. ويقال لا أقل منه ولا أعظم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني مكتوباً في اللوح المحفوظ. قرأ حمزة[3] «ولا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ» بضم الراءين. ومعناه ولا يغيب عنه أصغر من ذلك ولا أكبر منه. فيصير رفعاً لأنه فاعل. وقرأ الباقون بالنصب، لأن معناه ولا يغيب عنه بمثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا بمثقال ذرة أصغر من ذلك. فموضعه خفض إلا أنه لا ينصرف. فصار نصباً.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى

---

(١) في أ [النعمة عليهم].

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٤، سراج القارىء ٢٤٥.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٣٤، سراج القارىء ٢٤٥.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ يعني المؤمنين. ويقال: أحباء الله. وهم حملة القرآن والعلم. ويقال الذين يجتنبون الذنوب في الخلوات ويعلمون أن الله تعالى مطلع عليهم، وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن أولياء الله تعالى فقال: هم الذين (إذا رُؤوا) ذُكِرَ اللَّهُ تعالى، وقال وهب بن منبه[١]: [قال][٢] الحواريون لعيسى بن مريم يا روح الله من أولياء الله؟ قال الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها. ونظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة ويحبون الله تعالى ويحبون ذكره. وقال الضحاك: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ» يعني المخلصين لله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لا يخافون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين زفرت جهنم، ثم نعتهم فقال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعني أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى ويتقون الشرك والفواحش «لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا» يعني البشارة وهي الرؤيا الصالحة يراها العبد المسلم لنفسه أو يرى له غيره. وروي عن عبد الله بن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة[٣]، وفي خبر آخر من أربعين جزءاً[٤]. وفي خبر آخر من ستة وأربعين جزءاً[٥]. وروى عطاء بن يسار عن رجل كان يفتي بالبصرة، قال سألت أبا الدرداء عن هذه الآية ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال أبو الدرداء ما سألني عنها أحد منذ (سألت عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) فقال ما سألني عنها أحد قبلك. هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوتُرى له[٦] ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة. وعن عبادة بن الصامت أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأجابه بمثل ذلك[٧]. ويقال لهم البشرى في الحياة الدنيا يعني عند الموت يبشره الملائكة كما قال في آية أخرى (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠٩ وعزاه لأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) سقط في (أ).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١١ وعزاه لأحمد وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي بلفظ جزء من ستة وأربعين جزءاً، وبلفظ المصنف أخرجه مسلم ٤/١٧٧٥ في كتاب الرؤيا (٩/٢٢٦٥).

(٤) ذكره الحافظ في الفتح ١٢/٣٨٠ وعزاه للترمذي والطبري من حديث أبي رزين العقيلي، قلت وأشار له الترمذي في جامعه ٤/٤٦٢.

(٥) أخرجه البخاري من رواية أنس بن مالك ١٢/٣٦١ باب رؤيا الصالحين (٦٩٨٣)، ومسلم (٧/٢٢٦٤) وأخرجه البخاري من رواية أبي سعيد الخدري ١٢/٣٧٣ (٦٩٨٩).

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي، وحسنه والحكيم في نوادر الأصول، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للطيالسي وأحمد والدارمي والترمذي وابن ماجه والهيثم بن كليب الشامي والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

تُوعَدُونَ) وفي الآخرة يبشره الملائكة حين يخرج من القبر ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير ولا تحويل لقول الله تعالى. لأن قوله حق بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا. ويقال لا تبديل لكلمات الله يعني لا خلف لمواعيده التي وعد في القرآن ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: الثواب الوافر. ويقال النجاة الوافرة. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يقول يا محمد لا يحزنك تكذيبهم ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ بأن النعمة والقدرة لله تعالى. وجميع من يتعزز إنما هو بإذن الله تعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لمقالتهم العليم بهم وبعقوبتهم على ترك توحيدهم ثم قال ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني من الخلق كلهم عبيده وإماؤه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: وما يعبد الذين يعبدون من دون الله، الأوثان والأصنام. ولم يأت بجوابه. وجوابه مضمر ومعناه ما هي لي شركاء ولا نفع لهم في عبادتها ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني ما يعبدون الإصنام إلاّ بالظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقول وما هم إلا يكذبون. يقول ما أمرهم الله تعالى بعبادتها ولا تكون لهم شفاعة. ثم دل بصنعه على توحيده فقال عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني خلق لكم اللّيل لتقروا فيه من النصب والتعب ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ يعني: خلق النهار مطلباً للمعيشة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في تقليب الليل والنهار ﴿لَآيَاتٍ﴾ يعني لعبرات وعلامات لوحدانية الله ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يعني: المواعظ، ثم رجع إلى ذكر كفار مكة فقال تعالى ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ حين قالوا: الملائكة بنات الله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق سماهم عبيده وإمائه ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ يعني ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بغير حجة.

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بأن له ولداً ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ «يعني: لا يأمنون من عذابه ولا ينجون منه ﴿مَتَاعٌ﴾. . . .» يعني منفعتهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ قليل ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يعني مصيرهم في الآخرة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ فإن لم تعتبروا بذلك. فاتل عليهم، يعني إقرأ عليهم خبر نوح في القرآن ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: عظم وثقل ﴿مَقَامِي﴾ طول مقامي (فيكم) ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: وعظي لكم بالله تعالى. وعظته بالله تعالى ما ذكر في سورة نوح وهو قوله (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً) إلى قوله (كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً) الآية فلما وعظهم بذلك أرادوا قتله حين قالوا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) أي من المقتولين بالحجارة فقال لهم نوح «إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي» فيكم وعظتي لكم ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت وفوضت أمري إلى الله

تعالى ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ يعني كيدكم. ويقال قولكم (وعملكم)، ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ يعني وادعوا شركاءكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: امضوا إلى ﴿وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ أي: ولا تمهلون ويقال: اقضوا ما أنتم قاضون واستعينوا بآلهتكم ويقال: اعملوا بما في أنفسكم من الشر وروي عن نافع أنه قرأ فاجمعوا بالوصل والجزم من جمعت وقرأ الباقون فأجمعوا بالقطع من الإجماع وقرأ الحسن البصري ويعقوب الحضرمي شركاءكم أي: أين شركاؤكم ليجمعوا أمرهم معكم ويعينوكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة يقول: أظهروا أمركم فلا تكتموه يعني: القتل وقال القتبي: الغمة والغم واحد كما يقال: كربة وكرب أي: لا يكن أمركم غماً عليكم ثم اقضوا إليَّ أي: اعملوا بما تريدون كقوله: اقض ما أنت قاض ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني اعرضتم وأبيتم عن الإيمان وأبيتم أن تقبلوا (ما أتيتكم به) وأمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني ما سألتكم بذلك أجراً في الدنيا ومعناه إن أعرضتم عن الإيمان لا يضرني لأني لا أطلب منكم بذلك أجراً في الدين ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ما ثوابي إلا على الله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني وأمرت أن أستقيم على التوحيد مع المسلمين قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب بأنه غير نازل بهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ من الغرق ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ يعني خلفاء من بعد هلاك كفارهم ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني كذبوا نوحاً بما أتاهم به ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ كيف كان آخر أمر من أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد هلاك قوم نوح ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾مثل هود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ﴿فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالأمر والنهي. ويقال بالآيات والعلامات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال مقاتل: يعني ما كان كفار مكة ليصدقوا بالعذاب أنه نازل بهم كما لم يصدق به أوائلهم من قبل كفار مكة. وقال الكلبي: فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به عند الميثاق حين أخرجهم من صلب آدم. وقال وما كانوا ليؤمنوا. يعني أولئك القوم بعد ما كان دعاهم الرسل بما كذبوا به من قبل أن يأتيهم الرسل ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني: نختم على قلوب المعتدين من الحلال والحرام، ويقال صار تكذيبهم طبعا على قلوبهم فمنعهم عن الإيمان. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تكبروا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ يعني مشركين. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني ظهر لهم الحق ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: الذي أتيتنا به كذب بين ف﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ وفي الآية مضمر ومعناه أتقولون للحق لما جاءكم إنه سحر؟ ثم قال أسحر هذا؟ يعني أيكون مثل هذا سحراً؟ فليس ذلك بسحر. ولكن ذلك علامة للنبوة ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. ويقال لا ظفر لهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ يعني: قال

فرعون وقومه لموسى عليه السلام «أجئتنا ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ يعني لتصرفنا وتصدنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يقول: عما كان يعبد آباؤنا ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ يعني السلطان والشرف والملك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني في أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بمصدقين بأنكما رسولا رب العالمين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: حاذق (بالسحر)[1] قرأ حمزة والكسائي[2] «سَحَّارٍ» على معنى المبالغة وقرأ الباقون «سَاحِرٍ» ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ يعني: اطرحوا ما في أيديكم من العصي والحبال ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما معهم من الحبال والعصي إلى الأرض ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ يعني العمل الذي عملتم به هو السحر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ يعني سيهلكه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا يرضى عمل المفسدين. قرأ أبو عمرو آلسحر. بالمد على وجه الاستفهام. ويكون معناه «قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ يعني ما الذي جئتم به؟ وتم الكلام. ثم قال «آلسِّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» يعني عمل السحرة. قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني يظهر دينه الإسلام بتحقيقه ونصرته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني فرعون وقومه. قال الله تعالى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ يعني ما صدق بموسى ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني: قبيلته من قومه الذين كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط. وروى مقاتل عن ابن عباس[3] أنه قال: «إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ». يعني: من قوم موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل[4]، وهم ستمائة ألف، قال وكان يعقوب حين ركب إلى مصر من كنعان في اثنين وسبعين إنساناً فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف، ويقال «إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» يعني خربيل، وهو الذي قال في آية أُخرى (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) ثم قال ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ [يعني: فما آمن لموسى عليه السلام خوفاً من فرعون][5] ﴿وَمَلَإِهِمْ﴾ إشارة إلى فرعون بلفظ الجماعة كقوله (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة. ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ يعني (يقتلهم) ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لعات ويقال الغالب. ويقال المخالف والمتكبر في أرض مصر

---

(١) سقط في أ.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٣٥، سراج القارىء ٢٤٥.

(٣) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية﴾ قال: الذرية القليل.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) سقط في (ظ).

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني لمن المشركين روى موسى بن عبيدة عن محمد بن المنكدر قال: عاش فرعون ثلاثمائة سنة. منها مائتين وعشرين سنة لم ير مكروهاً، ودعاه موسى عليه السلام ثمانين سنة ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ يعني ثقوا بالله تعالى وذلك حين قالوا له (أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) فلما قال لهم هذا موسى عليه السلام ﴿قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يعين فوضنا أمرنا إليه ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ بلية وعبرة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا تنصرهم علينا. قال مجاهد[1]: يعني لا تعذبنا بأيدي فرعون ولا بعذاب من عندك. فيقولوا لو كانوا على الحق ما عذبوا وما سُلّطنا عليهم فيفتتنوا بنا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ يعني: بنعمتك ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾هارون وذلك لما منعهم فرعون وقومه الصلاة علانية وخربوا مساجدهم ﴿أَنْ تَبَوءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ يعني اتخذوا لقومكما بمصر مساجد في جوف البيوت. ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ يعني مساجد، فتصلون (فيها) ويقال حولوا بيوتكم نحو القبلة. وقال مجاهد[2] كانوا يصلون في البيع فأمرهم بأن يصلوا في البيوت، وقال إبراهيم النخعي: كانوا خائفين فأمرهم بالصلاة في بيوتهم. وكان إبراهيم النخعي خائفاً من الحجاج وكان يصلي في بيته. ثم قال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: أتموها بركوعها وسجودها. ولم يأمرهم بالزكاة لأن فرعون (عليه اللعنة) قد استعبدهم وأخذ أموالهم فلم يكن لهم مال يجب عليهم الزكاة فيه، ثم قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين بتوحيد الله تعالى بالجنة. قرأ عاصم في رواية حفص «أَنْ تَبَوَيَا» بالياء بلا همز. لأنه كره الهمزة بين حرفين فجعلها ياء. وقرأ الباقون بغير ياء بالهمزة. إلا أنه روي عن حمزة أنه كان لا يهمز. قوله تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾وذلك أن أهل مصر لما عذبوا بالطوفان والجراد والسنين قالوا «لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ» ثم نكثوا العهد ولم يؤمنوا فغضب موسى عليهم ودعا الله تعالى عليهم وقال «رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ» يعني الأشراف من قومه ﴿زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا﴾ يعني أعطيتهم ليضلوا ﴿عَنْ سَبِيلِكَ﴾ عن دينك الإسلام. قرأ أهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائي[3] «لِيُضِلُّوا» بضم الياء يعني ليضلوا الناس ويصرفونهم عن دينك. وقرأ الباقون «لِيَضِلُّوا» بنصب الياء يعني يرجعون عن دينك ويمتنعون جملة (واحدة) عنه ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ يعني: غير دراهمهم ودنانيرهم. وذلك حين وعد فرعون بأن يؤمن ويرسل معه بني إسرائيل. ثم نقض العهد فدعا عليهم موسى عليه السلام. وروى

(١) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن السندر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٣٥.

معمر عن قتادة[١]: في قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» قال بلغنا أن حروثاً لهم صارت حجارة. وعن السدي[٢] أنه قال: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة وعن أبي العالية[٣] (الرياحي) أنه قال: صارت أموالهم حجارة. وقال مجاهد[٤] في قوله تعالى: (ربنا اطمس على أموالهم) يعني أهلكها وقال القتبي في قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» أي اقسها. ويقال اَطبع قلوبهم وأمتهم على الكفر فلا توفقهم للإيمان لكي لا يؤمنوا ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهو الغرق. ودعا موسى عليه السلام (وأَمَّن هارون) عليه السلام ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ قال محمد بن[٥] كعب (القرظي) دعا موسى وأمن هارون. وعن أبي العالية[٦] وعكرمة[٧] وأبي صالح[٨] مثله. وعن أبي هريرة[٩] مثله وعن أنس بن مالك أنه قال: كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن الله تعالى أعطاني خصالاً ثلاثاً: أعطاني صلاة بالصفوف وأعطاني تحية (هي) تحية أهل الجنة. وأعطاني التأمين ولم يعط أحداً من النبيين قبلي إلا أن يكون الله تعالى أعطاه لهارون، يدعو موسى ويؤمن هارون قال مقاتل: فمكث موسى بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وهكذا روى الضحاك أن الاجابة ظهرت بعد اربعين سنة وقال بعضهم بعد أربعين يوماً وقال بعضهم، هذا الدعاء حين خرج موسى ببني إسرائيل وأيس من إيمانهم. ثم قال تعالى ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: على الرسالة والدعوة ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٠] يعني طريق فرعون وآله من أهل مصر. وروى ابن ذكوان عن ابن عامر أنه قرأ «تَتْبَعَانِّ» بجزم التاء ونصب الباء. وقرأ الباقون تَتَّبِعَانِّ (بنصب التاء) والتشديد وكسر الباء ومعناهما واحد. وهذه النون (أدخلت) مؤكدة.

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

ثم قال تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ يعني: بحر قلزم. ويقال هو نهر مصر وهو النيل ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ يعني: لحقهم. وقال القتبي أتبعت القوم أي لحقتهم. وتبعتهم كنت في أثرهم ثم قال ﴿بَغْياً وَعَدْواً﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.

(٦) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.

(٨) أخرجه ابن جرير كما في الدر المنثور ٣/٣١٥.

(٩) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأبي الشيخ.

(١٠) انظر حجة القراءات ٣٣٦، سراج القارىء ٢٤٦.

يعني تكبراً، «وَعَدْواً» يعني ظلماً. ويقال: بغياً في المقالة حيث قال (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) وعدواً يعني اعتدوا عليهم وأرادوا قتلهم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ يعني كربة الموت. ويقال ألجمه الماء. ويقال بلغه الموت [والأجل][١] وذلك أن بني إسرائيل لما رأوا فرعون ومن معه قالوا هذا فرعون وقد كنا نلقى منه ما نلقى فكيف بنا وأين المخرج في البحر. فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر. فضرب فصار اثني عشر طريقاً يابساً. فلما انتهى فرعون إلى البحر فرآه قد يبس فقال لقومه إن البحر قد يبس خوفاً مني. فصدقوه وهو قوله (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) ولما جاوز قوم موسى، ودخل قوم فرعون فلما هَمَّ أولهم أن يخرج من البحر ودخل آخرهم طم عليهم البحر فغرقهم و﴿قَالَ﴾ فرعون عند ذلك ﴿آمَنْتُ أَنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[٢] إِنَّهُ بالكسر على معنى الابتداء والباقون بالنصب على معنى البناء. يعين صدقت بأنه «لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ على دينهم. ويقال أنا من المخلصين على التوحيد. قال الله تعالى ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ يعني: أتؤمن في هذا الوقت حين عاينت العذاب وقد عصيت قبل نزول العذاب. وهذا موافق لقوله تعالى: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) الآية. ويقال إن جبريل: هو الذي قال له «آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني من الكافرين. قال الفقيه أبو الليث حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا علي بن أحمد قال حدثنا نصر بن يحيى قال حدثنا أبو مطيع عن الحسن بن دينار عن حميد بن هلال قال: كان جبريل عليه السلام يناجي النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له ذات يوم يا محمد ما غاظني عبد من عباد الله تعالى مثلما غاظني فرعون لما أدركه الغرق «قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ» فخشيت أن تدركه الرحمة، فضربت بيدي إلى البحر. فأخذت كفاً من حمئه وربما قال من طينه فكبسته في فيه فما نبس بكلمة[٣]. قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نخرجك من البحر بجسدك. وقال أبو عبيدة نلقيك على نجوة من الأرض، والنجوة من الأرض ما ارتفع منها ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ يعني عبرة لمن بعدك من الكفار لكيلا يدعوا الربوبية. وقال قتادة لما أغرق الله فرعون لم يصدق طائفة من الناس بذلك فأخرجه الله تعالى ليكون لهم عظة وآية ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا﴾ يعني عن هلاك فرعون ﴿لَغَافِلُونَ﴾ فلا يخافون ولا يعتبرون ثم قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني أنزلنا بني إسرائيل ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يعني منزل صدق وهو أرض مصر وذلك أن الله تعالى قد وعد لهم بأن يورثهم أرض مصر. فلما غرق فرعون رجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض مصر فنزلوا بها وسكنوا الديار. ويقال مبوأ صدق يعني أرضاً كريمة يعني أرض أردن وفلسطين. ويقال منزل حسن. وقال قتادة[٤]: أرض الشام ويقال الأرض المقدسة ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني من ميراث أهل مصر وأهل الشام ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في الدين حتى جاءهم البيان. يعني جاءهم موسى عليه السلام بعلم التوراة فاختلفوا من بعد يوشع بن نون. ويقال: فما اختلفوا في أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى جاءهم العلم. يعني: خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - وجاءهم بالقرآن. لأنهم لم يزالوا مؤمنين به. وذلك أنهم يجدونه مكتوباً عندهم. فلما جاءهم محمد - صلى الله

---

(١) سقط في (ظ).

(٢) انظر حجة القراءات ٣٣٦، سراج القارىء ٢٤٧.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٢٦٨ في كتاب التفسير (٣١٠٧، ٣١٠٨) وأخرجه أحمد في المسند ١/٢٤٠، ٢٤٥، ٣٠٩، ٣٤٠، وانظر مجمع الزوائد ٧/٣٦.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٦ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

عليه وسلم ـ جحدوا به بعد العلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الذين آمن بعضهم وكفر بعضهم.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني مؤمني أهل التوراة. وذلك أن كفار قريش قالوا إن هذا الوحي يلقيه إليه الشيطان. فأنزل الله تعالى «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» فسيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أسأل أحداً ولا أشك فيه. بل أشهد أنه الحق[1]، وقال القتبي فيه تأويلان. أحدهما أن تكون المخاطبة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد فيه غيره من الشكاك لأن القرآن أنزل عليه بمذاهب العرب وهم يخاطبون الرجل بشيء ويريدون به غيره كما قالوا «إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة» وكقوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) أراد به الأمة يدل عليه قوله تعالى في آخره (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) وكقوله (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) ووجه آخر، إن الناس كانوا على ثلاث مراتب. منهم من كان مؤمناً ومنهم من كان كافراً ومنهم من كان شاكاً. وإنّما خاطب بهذا الشاك. ثم قال ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يعني من الشاكين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني بالكتاب (وبالرسالات) ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني من المغبونين. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يعني وجبت عليهم كلمة ربك بالسخط وقدر عليهم الكفر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن انه من الله تعالى ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ يعني: علامة ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعني الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، قرأ نافع وابن عامر «كَلِمَاتُ رَبِّكَ» وقرأ الباقون «كَلِمَةُ رَبِّكَ» قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ يقول لم يكن أهل قرية كافرة آمنت عند نزول العذاب ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ وقبل منها الإيمان ودفع عنهم العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ قال مقاتل: فلولا على ثلاثة أوجه الأول يعني فلم. مثل قوله «فلولا كانت قرية آمنت» (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ). الثاني: فلولا يعني فهلا، كقوله (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا) (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) والثالث: فلولا يعني فلوما. كقوله (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ). ويقال فلولا ههنا بمعنى فهلا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها. ومعناه فهلا آمنت في وقت ينفعها إيمانها. فأعلم الله تعالى أن الإيمان لا ينفع عند نزول العذاب، ثم قال «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ» معناه لكن قوم يونس (لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ) يعني إنهم آمنوا قبل المعاينة فكشفنا عنهم وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا» كما نفع قوم يونس، وعن قتادة إنَّ قوم

(١) انظر الدر المنثور ٣/٣١٧.

يونس عليه السلام خرجوا ونزلوا على تل فدعوا الله تعالى أربعين ليلة حتى تاب الله عليهم. وروي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم: أن يونس بعثه الله تعالى إلى قومه فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وترك ما هم فيه من الكفر، فأبوا فدعا ربه فقال يا رب قد دعوتهم فأبوا فأوحى لله تعالى إليه أن ادعهم فإن أجابوك وإلا فأعلمهم أن العذاب يأتيهم إلى ثلاثة أيام، فدعاهم فلم يجيبوه فأخبرهم بالعذاب. فقالوا ما جربنا عليه كذباً مذ كان معنا فإن لم يلبث معكم وخرج من عندكم فاحتالوا لأنفسكم، فلما كان بعض الليل خرج يونس من بينهم. فلما كان اليوم الثالث رأوا حمرة وسواداً في السماء كهيئة النار والدخان فظنوا أن العذاب نازل بهم فجعلوا يطلبون يونس عليه السلام فلم يجدوه. فلما كان آخر النهار أيسوا من يونس وجعل يهبط السواد والحمرة. فقال قائل منهم إن لم تجدوا يونس عليه السلام فإنكم تجدون رب يونس. فادعوه وتضرعوا إليه، فخرجوا من القرية إلى الصحراء وأخرجوا النساء والصبيان والبهائم وفرقوا بين كل إنسان وولده وبين كل بهيمة وولدها ثم (عجوا) إلى الله تعالى مؤمنين مصدقين وارتفعت أصوات الرجال والنساء والصبيان (وخوار) البهائم وأولادها واختلطت الأصوات وقربت منهم الحمرة والدخان حتى غشي السواد سطوحهم وبلغهم حر النار، فلما عرف الله تعالى منهم صدق التوبة رفع عنهم العذاب بعدما كان غشيهم. فذلك قوله تعالى «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ» يعني لم يكن أهل قرية «آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا» عند نزول العذاب «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا» يعني صدقوا بالألسن والقلوب عرف الله تعالى منهم الصدق «كَشَفْنَا عَنْهُمْ» يعني رفعنا وصرفنا **﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾** يعني عذاب الهون **﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾** يعني إلى منتهى آجالهم. وفي هذه الآية تخويف وتهديد لكفار مكة ولجميع الكفار إلى يوم القيامة أنهم (إن) لم يؤمنوا ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم إيمانهم عند نزول العذاب.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: **﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾** يعني وفقهم لذلك وهداهم. ويقال في الآية مضمر ومعناه ولو شاء ربك أن يؤمنوا لآمنوا كلهم جميعاً **﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾** يعني الكفار **﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** ويقال هو عمه أبو طالب. ولها وجه آخر. ولو شاء ربك لأراهم علامة لضطروا إلى الإيمان كما فعل بقوم يونس، ولكن لم يفعل ذلك لأن الدنيا دار ابتلاء ومحنة، ثم قال تعالى **﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾** يعني بإرادة الله تعالى وتوفيقه **﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾** يعني: الكفر **﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾** يعني: يترك حلاوة الكفر في قلوب الذين لا يرغبون في الإيمان. ويقال ويجعل الرجس يعني الاثم ويقال الرجس يعني: العذاب. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] «وَنَجْعَلُ الرِّجْسَ» بالنون وقرأ الباقون ويجعل بالياء. ثم أخبر أنه لا عذر لمن تخلف عن الإيمان لأنه قد بين العلامات وهو قوله **﴿قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ﴾** من الدلائل من الشمس والقمر والنجوم

(١) انظر سراج القارىء ٧٦٨، شرح شعلة ٤٢٥.

﴿وَ﴾ ما في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الجبال والبحار والأشجار والثمار فاعتبروا (به) ثم قال حين لم يعتبروا به ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ﴾ ما تنفع العلامات التي في السموات والأرض ﴿وَالنُّذُرُ﴾ يعني: الرسل ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يرغبون في الإيمان ولا يطلبون الحق. وقال أبو العالية لا تنفع الآيات والرسل عن قوم قد قدر عليهم أنهم لا يؤمنون. ويقال «عَنْ» ههنا صلة ومعناه وما تغني الآيات والنذر قوماً لا يؤمنون يعني علم الله (في الأزل) أنهم لا يؤمنون. ثم خوفهم فقال تعالى ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني أن يصيبهم العذاب مثل ما أصاب الأمم الخالية ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ يعين انتظروا بالعذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ويقال انتظروا لهلاكي فإني معكم من المنتظرين بهلاككم. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ يعني أنجيناهم من العذاب والهلاك ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معهم. انصرف هذا إلى قوله «مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا»، يعني أنجيناهم من العذاب والذين آمنوا يعني أنجيناهم معهم، ومعناه إذا جاءهم العذاب ينجي الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن آمن معه كما انجي سائر الرسل والذين آمنوا معهم ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ يعني: هكذا واجب علينا ﴿نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب، قرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص[1] «ثُمَّ نُنْجِي» بجزم النون وتخفيف الجيم. وقرأ الباقون «نُنَجِّي» بالنصب والتشديد. وكذلك في قوله «نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ» ومعناها واحد نجيته وأنجيته.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

ثم قال عز وجل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة وذلك حين دعوه إلى دين (آبائهم)[2] فقال ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ (الإسلام)، وترجون أن أرجع إلى دينكم وأترك هذا الدين فلا أفعل ذلك وهو قوله ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الآلهة. ويقال معناه إن كنتم في شك من ديني فأنا مستيقن في دينكم ومعبودكم أنهما باطلان «فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ يعني أوحده وأطيعه ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يعني: يميتكم عند انقضاء آجالهم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من (الموقنين)[3] على دينهم ولا أرجع عن ذلك. قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ يعني إنَّ الله تعالى قال لي في القرآن أن أخلص عملك ودينك ﴿لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ يعني استقم على التوحيد مخلصاً ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أو يقال «وأمرت أن أكون من المسلمين» إلى ههنا أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول ذلك للكفار وقد تم الكلام إلى هذا الموضع ثم قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا أمرتك «وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً» يعني وأمرتك أن تخلص عملك ودينك للدين حنيفاً. يعني استقم على ذلك. والحنف في اللغة هو الميل والإقبال إلى شيء لا يرجع عنه أبداً. لهذا سمي الرجل أحنف

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٣٧، شرح شعلة ٤٢٥.

(٢) في أ [أبائه]. (٣) في أ [المؤمنين].

إذا كان أصابع رجليه مائلاً بعضها إلى بعض. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: لا تعبد غير الله ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ يعني مالا ينفعك إن عبدته ولا يضرك إن عصيته وتركت عبادته ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ذلك يعني فإن عبدت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني من الضارين بنفسك. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني: إن يصيبك الله بشدة أو بلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا دافع لذلك الضر إلا هو يعني لا تقدر الأصنام على دفع الضر عنك ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يعني وإن يصيبك بسعة في الرزق وصحة في الجسم ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ يعني: لا مانع لعطائه ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ يعني: بالفضل ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من كان أهلاً لذلك ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم. فأعلم الله تعالى أنه كاشف الضر ومعطي الفضل في الدنيا وهو الغفور للمؤمنين الرحيم بقبول حسناتهم. [(قال الفقيه أبو الليث)][1]حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا شيخ بصري عن الحسن[2] أنه قال: قال عامر بن عبد قيس ما أبالي ما أصابني من الدنيا وما فاتني منها بعد ثلاث آيات ذكرهن الله تعالى في كتابه. قوله (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) وقوله (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) وقوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

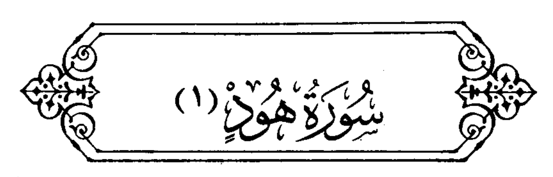
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ يعني من آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ يعني ثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ يعني ومن كفر ولم يؤمن ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يعني جنايته على نفسه وإثم الضلالة على نفسه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني لست عليكم بمسلط. وهذا قبل الأمر بالقتال ثم قال تعالى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ يعني إن لم يصدقوك فاعمل بما أنزل إليك من القرآن ﴿وَاصْبِرْ﴾ على تكذيبهم ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ يعني يقضي لله تعالى بعذابهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: أعدل العادلين، ويقال واصبر حتى يحكم الله يعني حتى يأمر الله المؤمنين بقتالهم، ويقال فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه يعني من اجتهد حتى اهتدى فإنما يهتدي لنفسه. ومن ضل فإنما يضل عليها. يعني ومن تغافل عن الحق حتى ضل فعقوبته عليها «والله أعلم».

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٨ وعزاه لأبي الشيخ.



سُورَةُ هُودٍ (١)

وهي مائة وثلاث وعشرون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿**آلر**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني أنا الله أرى. ويقال الألف آلاؤه واللام لطفه والراء ربوبيته ﴿**كِتَابٌ**﴾ يعني: هذا الكتاب وهو القرآن. ﴿**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**﴾ من الباطل فلم يوجد فيه عوج ولا تناقض ﴿**ثُمَّ**

---

(١) انظر التحرير ١١/٣١١ ـ ٣١٢ ـ ٣١٤.

سميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها ولأن عاداً وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله: ﴿**ألا بعداً لعاد قوم هود**﴾.

وهي مكية كلها عند الجمهور وروي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير وقتادة إلا آية واحدة وهي ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار ـ إلى قوله ـ للذاكرين**﴾.

وقال ابن عطية: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة. وهي قوله تعالى: ﴿**فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك**﴾. وقوله ﴿**أفمن كان على بينة من ربه ـ إلى قوله ـ أولئك يؤمنون به**﴾ قيل نزلت في عبد الله بن سلام وقوله ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار**﴾ الآية قيل نزلت في قصة «أبي اليسر» كما سيأتي والأصح أنها كلها مكية وأما ما روي من أسباب النزول في بعض آياتها توهّم لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ على أن الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنها مكية.

ابتدأت هذه السورة بالإيماء إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومىء إليه الحروف المقطعة في أول السورة وبإتلائها بالتنويه بالقرآن وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى وبأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى وإثبات الحشر والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس وأن الله مدبر أمور كل حي على الأرض وخلق العوالم بعد أن لم تكن وأن مرجع الناس إليه وأنه ما خلقهم إلاَّ للجزاء وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته عما يقول المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم ﴿**أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك**﴾. وأن حسبهم آية القرآن الذي تحداهم بمعارضته فعجزوا عن معارضته فتبين خذلانهم فهم أحقاء بالخسارة في الآخرة. وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين. وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حل بهم وعاد وثمود وإبراهيم وقوم لوط ومدين ورسالة موسى تعريضاً بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر فإن أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها وأن في تلك الأنباء عظة للمتبعين بسيرهم وأن ملام ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك. وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

ثم عرض باستئناس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته باختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه فما على الرسول وأتباعه إلاَّ أن ـ يستقيم فيما أمره الله وأن لا يركنوا إلى المشركين وأن عليهم بالصلاة والصبر والمضي في الدعوة إلى الصلاة فإنه لا هلاك مع الصلاة. وقد تخلل ذلك عظات وعبر والأمر بإقامة الصلاة. انظر التحرير ٣١١، ٣١٢، ٣١٣.

﴿فُصِّلَتْ﴾ يعني: بين أمره ونهيه. وقال الحسن[١] أحكمت آياته بالأمر والنهي، وفصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقال مجاهد[٢]: فصلت أي فسرت. وقال القتبي أحكمت فلم تنسخ. ثم فصلت بالحلال والحرام. ويقال فصلت أي أنزلت شيئاً بعد شيء فلم تنزل جملة واحدة ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ يعني أنزل جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الله تعالى. حكيم في أمره خبير بالعباد وبأعمالهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني: نزل جبريل بالقرآن. وقد بين فيه ألا توحدوا ولا تطيعوا غير الله ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ﴾ يعني: قل لهم يا محمد إنني لكم من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ يعني: مخوف من عذابه للكافرين ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة للمؤمنين ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني وآمركم أن تستغفروا ربكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني: وتوبوا إليه من الشرك والذنوب ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً﴾ يعني: يعيشكم في الدنيا عيشاً حسناً في خير وعافية ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى منتهى آجالكم. وقال القتبي أصل الإمتاع الإطالة. يقال حبل ماتع وقد متع النهار إذا طال، يمتعكم يعني يعمركم ويقال: يمتعكم متاعاً حسناً يعني: يجعلكم راضين بما يعطيكم ويقال ويجعل حياتكم (في الطاعة)[٣] ثم قال ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ يعني: (يعطي في الآخرة كل ذي فضل في العمل في الدنيا فضله «في الآخرة» في الدرجات. وروى جويبر عن الضحاك قال يؤت كل ذي عمل ثواب عمله. وقال سعيد بن جبير في قوله: ويؤت كل ذي فضل فضله قال:) من عمل حسنة كتبت عشر حسنات ومن عمل سيئة كتبت عليه سيئة واحدة، فإن لم يعاقب بها في الدنيا أُخذ من العشرة واحدة وبقيت له تسع حسنات[٤]. ثم قال ابن مسعود رضي الله عنه هلك من غلب آحاده أعشاره ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: قل لهم يا محمد إني أخاف عليكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يعني القحط. قال مقاتل: فحبس الله تعالى عنهم المطر سبع سنين حتى أكلوا الموتى. ويقال: (عذاب يوم كبير) يعني: عذاب النار يوم القيامة. ويقال إنّي أخاف. يعني أعلم فيوضع الخوف موضع العلم لأن فيه طرفاً من العلم.

إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾

ثم قال ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني مصيركم في الآخرة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني هو قادر على بعثكم بعد الموت. قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال الكلبي يقول يكتمون ما في صدورهم من العداوة ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يعني ليستروا ذلك منه ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يعني يلبسون ثيابهم. يعني حين يُغشي

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) في أ [راضيين بالطاعة].

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٠ وعزاه لابن جرير.

الرجل نفسه بثيابه يعني ﴿يَعْلَمُ﴾ ما تحت ثيابه ويعلم ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾من العداوات﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم. قال الكلبي نزلت في شأن أخنس بن شريق. وقال مقاتل ألا إنهم يثنون صدورهم يعني يلوون. وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن نكسوا رؤوسهم على صدورهم كراهية استماع القرآن «ليستخفوا منه»يعني من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة[1]قال: أخفى ما يكون الإنسان إذا أسر في نفسه شيئاً وتغطى بثوبه فبذلك أخفى ما يكون. والله تعالى يطلع على ما في نفوسهم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: ما في قلوب العباد من الخير والشر. قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ يعني: إلا الله القائم على رزقها، ويقال الله ضامن لرزقها. ويقال يرزقها الله حيث ما توجهت ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ يعني يعلم مستقرها حيث تأوي بالليل ومستودعها حيث تموت وتدفن. وروي عن عبد الله بن مسعود[2]قال: مستقرها الأرحام ومستودعها الأرض التي تموت فيها. وقال عبد الله[3]: إذا كان موت الرجل بأرض أتيت له حاجة، حتى إذا كان عند انقضاء أمده قبض فتقول الأرض يوم القيامة هذا ما استودعتني. وقال سعيد بن جبير ومجاهد المستقر الرحم. والمستودع الصلب. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: المستقر والمستودع وبيان كل شيء ورزق كل دابة مكتوب في اللوح المحفوظ خلق من درة بيضاء. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال ابن عباس يعني: من أيام الآخرة وقال الحسن من أيام الدنيا ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلق السموات والأرض لأنه لم يكن تحته شيء سوى الماء. قال حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن (محمد)[4] قال حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا أبو مطيع عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام. وبين السماء السابعة وبين الكرسي مسيرة خمسمائة عام. [وبين الكرسي وبين الماء خمسمائة عام][5] والعرش فوق الماء والله فوق العرش بعلوه وقدرته يعلم ما أنتم فيه. وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أنس[6] قال: كان عرشه على الماء. فلما خلق الله تعالى السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفه تحت العرش وهو البحر المسجور وجعل النصف الآخر تحت الأرض السفلى وهو مكتوب في الكتاب الأول ويسمى اليم وعن سعيد بن جبير قال سئل ابن عباس[7] عن قول الله تعالى «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» على أي شيء كان الماء؟ قال على متن الريح ويقال: كان عرشه على الماء يعني فوق الماء كقولك السماء فوق الأرض لا أنه ملتزق بالماء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾يعني: ليختبركم أيكم أحسن أي: أخلص عملاً وأزهد في الدنيا، والاختبار من الله تعالى هو إظهار ما يعلم من خلقه ثم قال ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ما هذا إلا كذب بين حيث يخبرنا أنه يكون البعث. قرأ حمزة والكسائي سَاحِرٌ مبين بالألف. وقرأ الباقون (سحر مبين) بغير ألف

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) في أ [عبد الرحمن بن عوف].

(٥) سقط في أ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٢ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق في المصنف والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ يعني سنيناً معلومة. يعني إلى الوقت الذي جعل أجلهم. وقال القتبي يعني: إلى حين بغير توقيت وقوله (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) إنما هو سبع سنين ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعني العذاب على وجه الاستهزاء ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ يعني العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾ يعني: ليس أحد يصرف العذاب عنهم إذا نزل بهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ يعني: نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يعني: أصبنا الإنسان منا (رحمة) يعني نعمة وخيراً وعافية ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾ يعني آيس من رحمة الله كفور بنعم الله تعالى. ثم قال ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ يعني: أعطيناه خيراً وعافية وسعة في الرزق ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ يعني: أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ يعني لا يشكر الله تعالى. ذكر في الابتداء لَيَقُولَنَّ بنصب اللام بلفظ الواحد (لتقديم الفعل) على الاسم. وفي الثاني بضم اللام لأنه فعل الجماعة ولم يذكر الاسم، وفي الثالث بنصب اللام لأنه فعل الواحد ويقول ذهب السيئات عني ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ يعني بطراً فرحاً بما أعطاه الله تعالى وهو الطغيان في النعمة، فخور في نعم الله تعالى ومتكبر على الناس. ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وهم المؤمنون الذين صبروا على الطاعات والشدائد، ليسوا كذلك وليسوا من أهل هذه الصفة إذا ابتلوا صبروا وإذا أعطوا شكروا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾ بينهم وبين ربهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم في الدنيا ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني ثواباً عظيماً في الجنة. قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ يعني لا تترك ﴿بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا كيف لا ينزل إليه ملك أو يكون له كنز وطلبوا منه بأن لا يعيب آلهتهم فهمَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يترك عيبها رجاء أن يتبعوه فنزل فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك من أمر الآلهة ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ في البلاغ ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ يعني المال ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يعينه ويصدقه، فأمره بأن لا يترك تبليغ الرسالة فقال: يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ يعني إنما عليك تبليغ الرسالة والتخويف ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يعني: شهيد بأنك رسول الله تعالى. قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني: أيقولون؟ والميم صلة. افتراه. يعني اختلقه من تلقاء نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ يعني مختلقات، قال الكلبي يعني بعشر سور مثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود. لأن العاشرة هي سورة هود. وقال بعضهم: هذا التفسير لا يصح، لأن سورة هود مكية والبقرة وآل عمران

والنساء والمائدة مدنيات أنزلت بعد سورة هود بمدة طويلة. ولكن معناه فأتوا بعشر سور مثل سور القرآن. أي سورة كانت مفتريات. يعني مختلفات أن كنتم تزعمون أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يختلقه من ذات نفسه **﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** يعني استعينوا بآلهتكم **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** في مقالتكم، فسكتوا فلم يجيبوا فنزل قوله تعالى: **﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾** فإن لم يجيبوك، خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلفظ الجماعة كما قال (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ) ويقال أراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾** يقال فاعلموا يا أهل مكة انما أنزل بعلم الله. يعني أنزل جبريل هذا القرآن بإذن الله تعالى وبأمره. وقال القتبي بعلم الله يعني من علم الله والباء مكان من. ثم قال تعالى: **﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** يعني فاعلموا أن لا إله إلا هو. يعني أن الله تعالى هو منزل الوحي وليس أحد ينزل الوحي غيره **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** يعني: مقرين بأن الله أنزله على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويقال مخلصون بالتوحيد. ويقال «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» هذا على وجه الأمر يعني أسلموا.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾** يعني من كان يريد بعمله الدنيا ولا يريد به وجه الله **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾** يعني: ثواب أعمالهم في الدنيا **﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾** يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم شيء في الدنيا **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾** قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل القبلة. وقال الحسن نزلت في المنافقين والكافرين **﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾** يعني ثواب أعمالهم (في الدنيا) لأنه لم يكن لوجه الله تعالى **﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** وروى أنس بن مالك[1] عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق، فرقة يعبدون الله تعالى خالصاً، وفرقة يعبدون الله تعالى رياءً، وفرقة يعبدون الله تعالى ليصيبوا بها الدنيا. فيقول الله تعالى للذي كان يعبد الله للدنيا: وماذا أردت بعبادتك؟ فيقول الدنيا. فيقول الله عز وجل لا جرم، لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، ويقول انطلقوا به إلى النار. ويقول للذي كان يعبد الله رياء ماذا أردت بعبادتك؟ فيقول الرياء. فيقول الله تعالى انطلقوا به إلى النار. ويقول للذي كان يعبد الله تعالى خالصاً ماذا أردت بعبادتك؟ فيقول أنت أعلم به مني. كنت أعبدك لوجهك وذاتك. قال صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: **﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾** يعني على بيان من ربه، وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾** يقول: يقرأ جبريل هذا القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو شاهد منه. يعني: من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٣ وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان وهو في الشعب ٥/٣٢٦ ـ ٣٢٧ (٦٨٠٨).

الله تعالى. وهذا قول ابن عباس[١] وأبي العالية ومجاهد وقتادة وإبراهيم النخعي ويقال: أفمن كان على بينة من ربه. يعني أن الله بين أمره ونبوته بدلائل أعطاها محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَيَتْلُوهُ) أي: يقرأ القرآن جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (شَاهِدٌ مِنْهُ) أي ملك أمين من الله تعالى وهو جبريل. وقال شهر بن حوشب: القرآن شاهد من الله تعالى. ومعناه: يتلـو القرآن وهو شاهد من الله تعالى. وقال الحسن[٢]: ويتلوه شاهد منه. يعني لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال قتادة: لسانه شاهد منه وكذلك قال عكرمة[٣]. قال حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج قال: حدثنا أبو إسماعيل قال: حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم قال: حدثنا الخليل عن قتادة عن عروة عن محمد بن علي[٤] قال: قلت لعليّ إنَّ الناس يزعمون في قوله تعالى: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أنك أنـت التالي. قال وددت أني أنا هو، ولكنه لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويقال: الشاهد القرآن ويتلوه يعني بعده، ويقال يتلوه يعني يتبعه كقوله (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) قـال القتبي: هذا كلام على الاختصار ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه كالذي يريد الحياة الدنيا وزينتها فاكتفى من الجواب بما تقدم كقوله (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً) يعني: كمن هو بخلاف ذلك ثم قال ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ يعني جبريل قرأ التوراة على موسى عليه السلام من قبل أن يتلـو القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا قول الكلبي ومقاتل. ويقال عبد الله بن سلام يتلو القرآن وكان من قبله يتلو التوراة. والتأويل الأول أصح. لأن هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم في المدينة. ويقال هم الذين آمنوا بمكة من أهل الكتاب حين قدموا من الحبشة ثم قال ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ يعني: إماماً يُهتدى به ويعمل به. ورحمةً. يعني ونعمة من العذاب لمن آمن به. يعني كتاب موسى عليه السلام ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني بالقرآن وهذا كقوله (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) يعني بالقرآن ثم قال ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: من يجحد بالقرآن ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يعني: مصيره. قال سعيد بن جبير[٥] ما بلغني حديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وجدت مصداقه في كتاب الله تعالى حتى بلغني عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار. فجعلت أقول وأتفكر أين هذا في كتاب الله؟ حتى أتيت على هذه الآية: ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده. قال هي في أهل الملل كلها ثم قال ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ يعني: فلا تك في شك (أن موعده النار) ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: فلا تك في شك أن القرآن من الله تعالى وأنه الحق من ربك. أي الصدق من ربك. رداً لقولهم إنه يقول ذلك من شيطان يلقيه إليه يقال له الري. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما من أحد إلا ومعه شيطان فاغر بين يديه. إلا أن الله تعالى أعانني عليه وأسلم[٦] ثم قال ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن بأنه من عند الله تعالى.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ

(١) انظر الدر المنثور ٣/٣٢٤.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبي الشيخ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٥ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٦) ذكره الحافظ في المطالب ٤/٢٩ (٣٨٧٦) وقال البوصيري: وعزاه لمسدد رواه مسدد وأبو يعلى والبزار وقال: لا نعلم روى شريك إلَّا هذا وآخر ورواه ابن حبان وقال الحافظ رواه أبو يعلى.

هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني ومن أشد في كفره ممن افترى. يقول ممن اختلق على الله كذباً بأن معه شريكاً ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني يساقون إلى ربهم يوم القيامة ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني الرسل قد بلغناهم الرسالة. وقال الضحاك ويقول الأشهاد يعني الأنبياء. وقال قتادة[(١)] ومجاهد[(٢)]: ويقول الأشهاد يعني الملائكة. وقال الأخفش الأشهاد. واحدها شاهد. مثل أصحاب وصاحب. ويقال شهيد وأشهاد مثل شريف وأشراف. قال الله تعالى ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني افتروا على الله عز وجل بأن معه شريكاً وقال الله ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني: عذابه وغضبه على المشركين ثم وصفهم فقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني يصرفون [الناس][(٣)] عن دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يطلبون بملة الإسلام زيفاً وغيراً ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ينكرون البعث قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: لم يفوتوا ولم يهربوا من عذاب الله تعالى حتى يجزيهم بأعمالهم الخبيثة ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني ما كان لهم من عذاب الله تعالى مانع يمنعهم من العذاب ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾. يعني الرؤساء. يكون لهم العذاب بكفرهم وبما أضلوا غيرهم ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ في العذاب. لايقدرون أن يسمعوا ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ في النار شيئاً. ويقال ذلك التضعيف لهم لأنهم كانوا لا يستطيعون الاستماع إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدنيا من بغضه وما كانوا يبصرون أي [عمياً][(٤)] لا ينظرون إليه من بغضه. وقال الكلبي: يضاعف لهم العذاب بما كانوا لا يستطيعون سماع الهدى وبما كانوا لا يبصرون الهدى. ويقال كانوا يستطيعون أن يسمعوا فلم يسمعوا وكانوا يستطيعون أن يبصروا فلم يبصروا. ويقال يعني لم يكن لهم سمع القلب وما كانوا يبصرون أي لم يكن لهم بصر القلب. قرأ ابن كثير وابن عامر «يُضَعَّفُ لَهُمُ»[(٥)] بتشديد العين بغير ألف. وقرأ الباقون «يُضَاعَفُ» بالألف ومعناهما واحد. ثم بين أن ضرر ذلك يرجع إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني غبنوا حظ أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: ويبطل عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، فات عنهم ولا ينفعهم شيئاً. ثم قال تعالى ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال القتبي يعني حقاً. ويقال يعني: نعم ويقال: لا جرم يعني: لا شك. ويقال: لا كذب. ويقال: لا جرم أي لا بلى. وذكر عن الفراء أنه قال: لا جرم كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة حقاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٥ وعزاه لأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.
(٣) سقط في ظ.
(٤) سقط في ظ.
(٥) تقدم وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٢٣.

﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ يعني الخاسرين. ويقال «الأخسر» إذا قلت بالألف واللام يكون بمعنى الخاسر. وإذا قلت أخسر. بغير اللام يكون أخسر من غيره. ثم أخبر عن المؤمنين وما أعد لهم في الآخرة فقال **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾** يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وعملوا الصالحات يعني الطاعات فيما بينهم وبين ربهم **﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾** قال القتبي يعني: تواضعوا. والإخبات التواضع. وقال: مقاتل: أخلصوا. ويقال يخشعوا فرقاً من عذاب ربهم **﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾** يعني: أهل الجنة **﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** يعني دائمون لا يموتون ولا يخرجون منها ثم ضرب مثل المؤمنين والكافرين

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

فقال تعالى **﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾** يعني مثل المؤمن والكافر ومثل الذي يبصر الحق ومثل الذي لا يبصر الحق **﴿كَٱلْأَعْمَى﴾** يعني عن الإيمان ولا يبصره **﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾** عن الإيمان ولا يسمعه، وهو الكافر **﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾** وهو المؤمن **﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾** في الشبه ويقال معناه: مثل الفريقين ـ يعني الذي لا يسمع ولا يبصر. هل يستوي بالذي يسمع ويبصر. ويقال معناه كالأعمى والبصير والأصم السميع. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكفار مكة: هل يستوي الأعمى والبصير والسميع؟ قالوا لا قال: **﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** أنهما لا يستويان. قرأ حمزة والكسائي وحفص (عن عاصم) أفلا تَذَكَّرُونَ بالتخفيف[١]. وقرأ الباقون تَذَّكَّرُونَ بالتشديد. ثم قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾** قرأ نافع وعاصم وحمزة وابن عامر إِنِّي بكسر الألف[٢]. ومعناه قال لهم إِنِّي لكم نذير وقرأ الباقون أَنِّي لكم بالنصب ومعناه ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بالإنذار. وفي الآية تهديد لأهل مكة معناه: واتل عليهم نبأ نوح يعني إن لم يتعظوا بما ذكرت فاتل عليهم خبر نوح. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن نوحاً أوحي إليه وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعا قومه مائة وعشرين سنة وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة ومكث بعد هلاك قومه ثلاثمائة وخمسين سنة. فذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً. وذكر عن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى: إلى نوح وهو (ابن تسعمائة ودعا قومه) خمسين سنة فلما هلك قومه عاش بعدهم خمسين سنة فتمام عمره ألف وخمسون وقال عكرمة: إنما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه. ويقال كان اسمه شاكر، فمن

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٢٣.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٢٨٨، حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٧.

كثرة نوحه على نفسه سمي نوحاً. فدعا قومه إلى الله وقال لهم إنِّي لكم نذير مبين من العذاب. ويقال: مبين يعني مبين بلغة تعرفونها ﴿أن لَّا تَعْبُدُوا إلَّا اللَّهِ﴾ يعني ألَّا تطيعوا ولا توحدوا إلَّا الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: الغرق قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني الأشراف من قومه ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ يعني آدمياً مثلنا ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ يعني آمن بك ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ يعني: سفلتنا وضعفاؤنا ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قال الكلبي: ظاهر الرأي. يعني إنهم يعرفون الظاهر فلا تمييز لهم. وقال مقاتل يعني: بدا لنا أنهم سفلتنا وضعفاؤنا بادي الرأي وقال القتبي أراذلنا يعني شرارنا وهو جمع أرذل. وقوله: بادي الرأي: بغير همز أي ظاهر الرأي من بدأ يبدو. وأما باديء بالهمزة يعني أول الرأي من قولك بدأ يبدأ. قرأ أبو عمرو باديء الرأي بالهمز[1] وقرأ الباقون على ضد ذلك. ثم قال: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قوم نوح قالوا لنوح ما نرى لكم علينا من فضل في ملك ولا مال ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ يعني نحسبك من الكاذبين. وقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة. ويقال إنما أراد به نوحاً ومن آمن معه ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي﴾ يعني إن كنت على دين ويقين وبيان من ربي ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ يقول أكرمني بالرسالة والنبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني عميت عليكم هذه البينة. ويقال عميتم عن ذلك. يقال عمي عليه هذا إذا لم يفهم. ويقال التبست عليكم هذه النعمة وهذه البينة التي هي من الله تعالى فلم تبصروها ولم تعرفوها. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[2]، «فعُمِّيتْ» بضم العين وتشديد الميم على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون بنصب العين والتخفيف. ومعناه واحد يعني: خفيت عليكم هذه النعمة والرحمة واتفقوا في سورة القصص (فَعَمِيتْ عَلَيْكُمْ الأنباءُ) بالنصب. ثم قال ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ يعني: كيف نعرفكموها وأنتم للنبوة كارهون؟ قال قتادة أماوالله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكن لم يملك ذلك. ويقال أفنفهمكموها وأنتم لها كارهون، يعني منكرون. ويقال أنحملكموها. يعني معرفتها. ويقال أنعلمكموها وأنتم تكذبونني ولا تناظرونني في ذلك. ثم أخبرهم عن شفقته وقلة طمعه في أموالهم فقال ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ يعني لا أطلب منكم على الإيمان أجراً يعني رزقاً ولا جعلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يعني ما ثوابي إلا على الله[3] ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنهم طلبوا منه

---

(١) انظر النشر ٢/٢٨٨، . حجة القراءات ٢٣٨.

(٢) انظر النشر ٢/٢٨٨، وحجة القراءات ٣٣٨، إتحاف فضلاء البشر ٢/١٢٤.

(٣) أعلم أن الواجب على اتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض على ذلك وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام.

ويعتضد ذلك بأحاديث تدل على نحوه فمن ذلك ما رواه ابن ماجه والبيهقي والروياني في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: علمت رجلاً القرآن فأهدى لي قوساً فذكرت ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: (إن أخذتها أخذت قوساً من نار) فرددتها. قال البيهقي وابن عبد البر في هذا الحديث: هو منقطع أي بين عطية الكلاعي وأبي بن كعب وكذلك قال المزي.

وتعقبه ابن حجر بأن عطية ولد في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعله ابن القطان بأن راوية عن عطيه المذكور هو عبد الرحمن بن مسلم وهو مجهول.

وقال فيه ابن حجر في التقريب. شامي مجهول. وقال الشوكاني في نيل الأوطار: وله طرق عن أبي. قال ابن القطان: لا يثبت منها شيء قال الحافظ وفيما قاله نظر، وذكر المزي في الأطراف له طرقاً وممن قال بهذا: الإمام أحمد من إحدى الروايتين وأبو حنيفة والضحاك وابن قيس وعطاء. وكره الزهري وإسحاق تعليم القرآن بأجر. وقال عبد الله بن شقيق: هذا الرغف التي يأخذها المعلمون من السحت، وممن كره أجرة التعليم مع الشرط: الحسن وابن سيرين وطاوس، والشعبي والنخعي قاله في المغني وقال: إن ظاهر كلام الإمام أحمد جواز أخذ المعلم ماأعطيه من غير شرط وذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أخذ الأجرة على تعليم ≡

أن يطرد من عنده من الفقراء والضعفاء فقال ﴿إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ فيجزيهم بأعمالهم. ويقال إنهم ملاقو ربهم فيشكونني إلى الله تعالى إن لم أقبل منهم الإيمان وأطردهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ ما أمرتكم به وما جئتكم به

وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ يعني لو طردتهم فيعذبني الله بذلك فمن يمنعني من عذاب الله إن طردتهم عن مجلسي ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون ولا تفهمون أن من (آمن)[1] بالله لا يطرد ثم قال ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ يعني مفاتيح الله في الرزق ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أن الله يهديكم أم لا. ويقال ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يعني علم ما غاب عني ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من (الملائكة)[2] ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعني: تحتقر أعينكم من السفلة ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً﴾ يعني لا أقول إن الله تعالى لا يكرم بالإيمان ولا يهدي من هو حقير في أعينكم ولكن الله يهدي من يشاء. ثم قال ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني بما في قلوبهم من التصديق والمعرفة ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني إن طردتهم فلم أقبل منهم الإيمان بسبب ما لم أعلم ما في قلوبهم كنت ظالماً على نفسي. فعجز قومه عن جوابه. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ قال مقاتل: ماريتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ يعني مرانا. وقال الكلبي: دعوتنا فأكثرت دعاءنا. ويقال وَعظتنا فأكثرت موعظتنا﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ يعني لا نقبل موعظتك فأتنا بما تعدنا من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأن العذاب نازل بنا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ إن شاء يعذبكم وإن شاء يصرفه عنكم ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ يعني: إن أراد أن يعذبكم لا تفوتون من عذابه. ثم قال ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ يعني دعائي وتحذيري ونصيحتي ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾

= القرآن وهو مذهب مالك والشافعي. وممن رخص في أجور المعلمين: أبو قلابة وأبو ثور وابن المنذر ونقل أبو طالب عن أحمد أنه قال: التعليم أحب إليَّ من يتوكل لهؤلاء السلاطين ومن أن يتوكل لرجل من عامة الناس في ضيعة ومن أن يستدين ويتجر لعله لا يقدر على الوفاء فيلقى الله تعالى بأمانات الناس التعليم أحب إليَّ. وهذا يدل على أن منعه منه في موضع منعه للكراهة لا للتحريم قاله ابن قدامة في المغني. انظر أضواء البيان ٣/ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٣ ـ ٢٤.

(١) في أ [يؤمن]. (٢) في ظ [من السماء].

يعني: إن أردت أن أدعوكم من الشرك إلى التوحيد والتوبة والإيمان ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ يعني لا تنفعكم دعوتي إن أراد الله أن يضلكم عن الهدى ويترككم على الضلالة ويهلككم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يعني هو أولى بكم. ويقال هو ربكم رب واحد ليس له شريك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم. ثم قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ قال مقاتل: الخطاب لأهل مكة. معناه أتقولون إن محمداً تقوله من ذات نفسه ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ من ذات نفسي ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ يعني خطيئتي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ يعني: من خطاياكم. وقال الكلبي: الخطاب أيضاً لقوم نوح أم يقولون: افتراه يعني: قوم نوح يقولون افتراه أي: اختلقه من تلقاء نفسه فقال لهم نوح: افتريته فعليَّ إجرامي أي: آثامي وأنا بريء مما تجرمون أي: مما تأثمون قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (قال الحسن[1]: إن نوحاً عليه السلام لم يدع على قومه حتى نزلت هذه الآية) إنَّه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن. فدعا عليهم عند ذلك فقال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) ثم قال ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وذلك أن نوحاً ندم على دعائه وجعل يحزن عليهم. فقال الله تعالى «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» يعني: لا يحزنك إذا نزل بهم الغرق ما كانوا يفعلون من الكفر. قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ يقول اعمل السفينة. ويقال للواحد وللجماعة الفلك بأعيننا. قال الكلبي يعني: بمنظرٍ منا، ووحينا. يعني بوحينا إليك. وقال مقاتل يعني: بتعليمنا وأمرنا ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني (فلا تراجعني في قومك ولا تدعني بصرف العذاب عنهم ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ بالطوفان. ويقال ولا تخاطبني في الذين ظلموا يعني ابنه كنعان). وقال عكرمة: كان طول سفينة نوح ثلاثمائة ذراع وعرضها ورفعها أحدهما ثلاثون والآخر أربعون. وقال الحسن[2] طولها ألف ومائتا ذراع وعرضها ستمائة ذراع. وقال ابن عباس[3] طولها ثلاثمائة ذراع وطولها في الماء ثلاثون ذراعاً وعرضها خمسون ذراعاً. وقال القتبي قرأت في التوراة: إن الله تعالى أوحى إليه أن اصنع الفلك وليكن طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وارتفاعها ثلاثون ذراعاً وليكن بابها في عرضها وادخل أنت في الفلك وامرأتك وبنوك ونساء بنيك ومن كلٍ زوجين من الحيوان ذكراناً وإناثاً. فإني منزل المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة فأتلف كل شيء خلقته على الأرض. فأرسل الله تعالى ماء الطوفان على الأرض في سنة ستمائة من عمر نوح ولبث في الماء مائة وخمسين يوماً وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: مكث نوح ينجر السفينة مائة سنة، فلما فرغ من عملها أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كلٍ زوجين اثنين. فحمل فيها امرأته وبنيه ونساءهم فركب فيها لسبع عشرة ليلة خلت من صفر، فمكث في الماء سبعة أشهر لم يقر لها قرار فأرسيت على الجودي خمسة أشهر فأرسل الغراب لينظر كم بقي من الماء فمكث على جيفة. فغضب عليه نوح ولعنه. ثم أرسل الحمامة فوقعت في الماء فبلغ الماء قدر حمرة رجليها فجاءت فأرته فبارك عليها نوح.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في الدرر ٣/٣٢٨ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٧ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ يعني ينجر السفينة. ويقال إن الله تعالى أمره بأن يغرس الأشجار فغرسها حتى أدركت وقطعها حتى يبست ثم اتخذ منها السفينة. فاستأجر أجراء ينحتون معه ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني الأشراف من قومه ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ يعني استهزؤوا به وكانوا يقولون إن الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً، ومرة كانوا يقولون أتجعل للماء إكافاً[1] فأين الماء ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ يعني إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم بعد الهلاك. يعني يصيبكم جزاء السخرية ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منا. يعني بما تسخرون ويقال إن تستجهلوا بنا بهذا الفعل فإنا نستجهلكم بترك الإيمان كما تستجهلوننا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني (تعرفون بعد هذا)[2] من أحق بالسخرية. وهذا وعيد لهم ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني يهلكه ويذله ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ يعني ينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع عنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني قولنا بالعذاب. ويقال عذابنا وهو الفرق ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يعني نبع الماء من أسفل التنور وقال مقاتل التنور الذي يخبز فيه في أقصى داره بالشام وقال (ابن عباس) وفـار التنور يعني: نبع الماء من وجه الأرض. وقال علي بن أبي طالب[4] يعني طلوع الفجر. أي تنوير الصبح (يعني إذا طلع الفجر كان وقت الهلاك) وروي عن [5] عليّ رضي الله عنه أيضاً أنه قال فار منه التنور وجرت منه السفينة أي مسجد الكوفة ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ يعني في السفينة ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني من كل صنفين ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني واحمل أهلك فيها معك ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بالغرق. يعني سوى من قدرت عليه الشقاوة والكفر فلا تحمله. يعني امرأته الكافرة وابنه كنعان. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ معه ـ يعني احمل في السفينة من آمن معك

قال الفقيه: أخبرني الثقة بإسناده عن وهب بن منبه قال أمر نوح بأن يحمل من كلٍ زوجين اثنين فقال رب كيف أصنع بالأسد والبقرة؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب وكيف أصنع بالحمام والهرة؟ قال يا نوح من ألقى بينهم العداوة؟ قال أنت يا رب. قال فإني أؤلف بينهم حتى يتراضوا. قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق قال حدثنا قبيصة بن عقبة قال حدثنا سفيان عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس[6] قال: كثر الفأر في السفينة حتى خافوا على حبال السفينة. فأوحى الله تعالى إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها فعطس فخرج منها سنوران فأكلا الفأر. وكثرت العذرة في السفينة فشكوا إلى نوح فأوحى الله تعالى إلى نوح أن امسح ذنب الفيل فمسحه فخرج خنزير فأكل العذرة. [وفي خبر آخر فخرج منه خنزيران فأكلا العذرة][7] قال الفقيه أبو الليث رحمه الله في خبر وهب بن منبه دليل أن الهرة كانت من قبل وفي هذا الخبر أن الهرة لم تكن من قبل والله أعلم بالصواب منهما. وروي عن ابن عباس أنه قال لما فار (الماء من) التنور فأرسل الله تعالى من السماء بمطر شديد، فأقبلت الوحوش حين أصابتها السماء إلى نوح وسخرت له فحمل في السفينة من كل طير

---

(١) الإكاف والأكاف من المراكب شبه الرحال والأقتاب. لسان العرب ١/ ١٠٠.

(٢) في أ [بعد هلاكهم].

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٨ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٩ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٨ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٣١ وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٧) سقط في أ.

زوجين ومن كل دابة زوجين ومن كل بهيمة زوجين ومن كل سبع زوجين يعني الذكر والأنثى. فقال نوح رب هذه الحية والعقرب كيف أصنع بهما فبعث الله تعالى جبريل فقطع فقار العقرب وضرب فم الحية. وكان نوح جعل للسفينة ثلاثة أبواب بعضها (أسفل من بعض)[1] فجعل في الباب الأسفل السباع والهوام، وجعل في الباب الأوسط البهائم والوحوش، وجعل في الباب الأعلى بني آدم من ذكر منهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: هم ثمانون إنساناً. وقال الأعمش في قوله: وما آمن معه إلا قليل: كان نوح وثلاثة بنين ونساؤهم، وقال مقاتل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. قرأ عاصم في رواية حفص[2] من كلٍّ بالتنوين يعني من كل شيء ثُمَّ قال زوجين. على وجه التفسير للكل. وقرأ الباقون من كلِّ زوجين بغير تنوين على معنى الإضافة

وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ يعني ادخلوا في السفينة ويقال: الجأوا فيها من الغرق (بسم الله مجراها) يعني: إذا ركبتموها فقولوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْراهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية[3] حفص «مَجْرِيهَا» بنصب الميم وهكذا قرأ ابن مسعود والأعمش. وقرأ الباقون بضم الميم (واتفقوا في مُرْسَاهَا أنها بضم الميم) إلا أن حمزة والكسائي قرآ بالإمالة. فأما من قرأ بضم الميم فيكون بمعنى المصدر ومعناه: يعني إجراؤها وإرساؤها بأمر الله تعالى وهذا قول الفراء ويقال معناه بسم الله من حيث تجري وتحبس، ومن قرأ بالنصب فمعناه بسم الله جريها وحبسها، يعني بأمر الله تعالى. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾ يعني أمواجاً ﴿كَالجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ﴾ كنعان. وقرأ بعضهم[4] ابنها. يعني ابن امرأته. وقرأ بعضهم نوح ابنه بضم الألف. وهي بلغة طيء، ويقال إنه لم يكن ابنه ولكن كان ابن امرأته، وقراءة العامة ونادى نوح ابنه. قالوا ﴿وَكَانَ﴾ ابن نوح ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ يعني في ناحية من السفينة ويقال من الجبل. ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ أسلم واركب في السفينة معنا ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ يعني ولا تثبت على الكفر ولا تتخلف مع الكافرين. قرأ عاصم[5] «يَا بُنَيَّ اركب» بنصب الياء وقرأ الباقون «يَا بُنَيِّ اركب» بالكسر. وقال أبو عبيدة: القراءة عندنا بالكسر[6] للإضافة

---

(١) في أ [بعضها فوق بعض].

(٢) انظر حجة القراءات ٣٣٩، النشر ٢/٢٨٨.

(٣) انظر النشر ٢/٢٨٨، حجة القراءات ٣٤٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/١٢٥.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٩/٢٧.

(٥) انظر النشر ٢/٢٨٩، حجة القراءات ٣٤٠.

(٦) قال الزجاج: كسرها من وجهين: أحدهما أن الأصل (يا بني) والياء تحذف في النداء أعني ياء الإضافة وتبقى الكسرة تدل عليها ويجوز أن تحذف الياء لسكونها وسكون الراء من قوله (اركب) وتقر في الكتاب على ما هي في اللفظ. والفتح من وجهتين: =

إلى نفسه. كما اتفقوا في قوله (يا بني لا تقصص رؤياك) وفي لقمان (يَابُنَيَّ إِنَّهَا). وإنما فرق عاصم فيما يرى الألف الخفيفة الحقيقية التي في قوله اركب. ﴿قَالَ سَآوِي﴾ يعني قال ابنه سأصعد ﴿إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يعني يمنعني من الماء أم من الغرق ولا أومن ولا أركب السفينة ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يقول: لا مانع اليوم من عذاب الله أي: الغرق لا جبل ولا غيره ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ يعني إلا من قد آمن فعصمه الله ثم قال ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ يعني فرق بين كنعان وبين الجبل الموج وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل وحال بينهما يعني بين نوح وابنه الموج ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ يعني: فصار من المغرقين. وروي عن ابن عباس[١] أنه قال أمطرت السماء أربعين يوماً وخرج ماء الأرض أربعين يوماً الليل والنهار. فذلك قوله (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) وارتفع الماء على كل جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً. وروي عن الحسن أنه قال: ارتفع الماء فوق كل جبل وكل شيء ثلاثين ذراعاً وسارت بهم السفينة فطافت بهم الأرض كلها في خمسة أشهر ما استقرت على شيء حتى أتت الحرم [(فلم تدخله]][٢] ودارت بالحرم أسبوعاً ورفع البيت الذي بناه آدم إلى السماء السادسة وهو البيت المعمور) وجعل الحجر الأسود على أبي قبيس. ويقال أودع فيه ثم ذهبت السفينة في الأرض حتى انتهت بهم إلى الجودي، وهو جبل بأرض الموصل فاستقرت عليه بعد خمسة أشهر. قال ابن عباس: ركب نوح السفينة لعشر مضين من رجب، وخرج منها يوم عاشوراء، فذلك ستة أشهر. فلما استقرت على الجودي كشف نوح الطبق الذي فيه الطير فبعث الغراب ليأتيه بالخبر فأبصر جيفة فوقع عليها، فأبطأ على نوح فلم يأته. ثم أرسل الحدأة على أثره فأبطأت عليه ثم أرسل بالحمامة فلم تجد موقفاً في الأرض فجاءت بورق الزيتون فعرف نوح أن الماء قد نقص فظهرت الأشجار ثم أرسلها فوقفت على الأرض فغابت رجلاها في الطين فجاءت إلى نوح فعرف أن الأرض قد ظهرت وذلك وقوله ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ معناه انشفي ماءك الذي خرج منك ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ يعني احبسي وامسكي ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ يعني نقص الماء وظهرت الجبال والأرض ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يعني فرغ من الأمر. ومعناه نجا من نجا وهلك من هلك ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ يعني استقرت السفينة على الجودي وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أني أنزل السفينة على جبل. فتشامخت الجبال وتواضع الجودي لله تعالى فأرسيت عليه السفينة. وقال الحكيم خرج قوس قزح بعد الطوفان أماناً لأهل الأرض أن يغرقوا جميعاً ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني سحقاً ونكساً للقوم الكافرين. وهو التبعيد من رحمة الله تعالى.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ

= الأصل: (يا بنياً) بالألف فتبدل الألف من ياء الإضافة العرب تقول: (يا غلاماً أقبل) ثم تحذف الألف لسكونها وسكون الراء وتقر في الكتاب على ما هي في اللفظ ويجوز أن تحذف الألف للنداء كما تحذف ياء الإضافة (وإنما حذفت ياء الإضافة) وألف الإضافة في النداء كما تحذف في التنوين لأن ياء الإضافة زيادة في الاسم كما أن التنوين زيادة. انظر حجة القراءات ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٤ وعزاه لابن سعد وابن عساكر.

(٢) سقط في ظ.

أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فإنك قد وعدتني أن تنجيهم من العذاب ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾ يعني أنت الصادق في وعدك ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ﴾ يعني أعدل العادلين ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذي وعدتك أن أنجيهم. وروي عن الحسن أنه قال: إنه تخلف لأنه لم يكن ابن نوح. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: كنت عند الحسن. قال ونادى نوح ابنه. فقال لعمر الله ما هو ابنه. قلت يا أبا سعيد يقول الله تعالى «وَنَادَى نُوحٌ ابنهُ» وأنت تقول هو ليس بابنه، قال أفرأيت قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ». قلت انه ليس من أهلك الذي وعدتك أن أنجيهم. (ولا يختلف)[1] أهل الكتاب أنه ابنه. قال إن أهل الكتاب يكذبون. وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أنه ابنه غير أنه خالفه في العمل. وقال بعض الحكماء إن الابن إذا لم يفعل ما يفعل الأب انقطع عنه، والأمة إذا لم يفعلوا ما فعل نبيهم أخاف أن ينقطعوا عنه. ثم قال ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ الكسائي[2]. إنه عَمِلَ غَيْرَ صَالح بكسر الميم ونصب الراء. وروت أم سلمة[3] عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يقرأ هكذا ومعناه إن ابنك عمل عمل المشركين ولم يعمل عمل المؤمنين. وقرأ الباقون «عَمَلٌ غَيْرُ» بالتنوين والضم وضم الراء. ومعناه إن سؤالك ودعاءك لابنك الكافر عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني بياناً. وقرأ أهل الكوفة فلا تسألن بتخفيف النون[4] بغير ياء لأن الكسر يقوم مقام الياء. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: رأيت في مصحف عثمان هكذا. وقرأ أبو عمرو «فَلَا تَسْأَلْنِي» بإثبات الياء بغير تشديد وهو الأصل في اللغة. وقرأ ابن كثير «فَلَا تَسْأَلَنَّ» بنصب النون والتشديد بغير ياء ويكون معناه التأكيد في النهي. وقرأ ابن عامر ونافع في رواية قالون «فلا تسألنِّ» بالكسر بغير ياء مع التشديد. وقرأ نافع في رواية ورش «فلا تسألنيِّ» بالياء مع التشديد ثم قال ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أنهاك أن تكون من الجاهلين يعني من يترك أمري. ويقال من المكذبين يقدر الله تعالى ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾ يعني اعتصم وامتنع بك ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني احفظني بعد اليوم لكيلا أسألك ما ليس به علم ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ يعني إن لم تغفر لي ولم ترحمني ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ يعني انزل من السفينة مسلماً من عذابنا وغرقنا. ويقال بسلام عليك كما قال (سلام على نوح في العالمين) ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ يعني وسعادات ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ يعني: الذين كانوا في السفينة معه ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني من كان من أهل الشقاء سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يصيبهم في الآخرة. وقال مقاتل: اهبط من السفينة بسلام منا. فسلمه الله ومن معه من الغرق وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك. يعني بالبركة إنهم توالدوا وكثروا وأمم سنمتعهم، وهم قوم هود وشعيب ولوط. وقال محمد بن كعب[5] القرظي في قوله: (اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) قال: دخل في السلام والبركة كل مؤمن ومؤمنة إلى

---

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٤١، النشر ٢/٢٨٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٦ وعزاه لأحمد وأبي داود والترمذي والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية.

(٤) حجة القراءات ٣٤٣، النشر ٢/٢٨٩.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

يوم القيامة. ودخل في المتاع والعذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. ويقال إنهم لما خرجوا من السفينة بنوا مدينة وسموها مدينة ثمانين. ويقال ماتوا كلهم ولم يكن منهم نسل إلا من أولاد نوح وكان له ثلاثة بنين سام وحام ويافث سوى الذي غرق. كما قال في موضع آخر (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ)

تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعني ما سبق من ذكر نوح وقومه في أخبار الغيب يعني: من (أحاديث ما غاب عنك) فكان في إخبار النبي - صلى الله عليه وسلم - عن قصته دلالة نبوته لأنه لا يعرف ذلك إلا بالوحي ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يعني إخبار الغيب ينزل بها عليك جبريل ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن ﴿فَاصْبِرْ﴾ يعني إن لم يصدقوك فاصبر على تكذيبهم ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: آخر الأمر للموحدين الذين يتقون الشرك والفواحش قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ يعني أرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمْ﴾ نبيهم ﴿هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني وحدوا الله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني ليس لكم من رب سواه ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يعني: ما أنتم إلا تكذبون في مقالتكم بأن لله شريكاً. قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الإيمان ﴿أَجْراً﴾ يعني جعلاً ورشوة، ومعناه لست بطامع في أموالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ يعني ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الذي خلقكم هو ربكم وهو أحق بعبادتكم من غيره ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ قال الضحاك يعني وحدوا ربكم. وقال الكلبي: يعني صلوا لربكم. ويقال معناه قولوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني توبوا إليه من شرككم ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ يعني إن تبتم يغفر لكم ذنوبكم ويرسل عليكم المطر متتابعاً دائماً وينبت لكم كل ما تحتاجون إليه ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ يعني شدة مع شدتكم بالمال والولد. ويقال صحة الجسم وطول العمر ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ يقول (لا تعرضوا كافرين)[1]. ويقال لا تعرضوا عما أدعوكم إليه من الإيمان والتوحيد. ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ يعني بحجة وبيان ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ يقول: لا نترك عبادة آلهتنا بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لا نصدقك بأنك رسول الله. ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ يعني ما نقول إلا أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يعني بشر من بعض الأوثان الجنون والخبل فاجتنبها

(١) سقط في أ.

سالماً. ويقال: ما نقول لك إلا نصيحة كيلا يصيبك من بعض آلهتنا شدة فرد عليهم هود ف﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾ أنتم ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ يعني اعملوا بي أنتم وآلهتكم ما استطعتم واحتالوا في هلاكي ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ أي لا تمهلون، ثم قال تعالى ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني فوضت أمري إلى الله ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يعني خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ يعني قادراً عليها يحييها ويميتها وهو يرزقها وهي في ملكه وسلطانه ثم قال ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يعني على الحق][1] وإن كان هو قادراً على كل شيء فإنه لا يشاء إلا العدل. وقال مجاهد[2]: إن ربي على صراط مستقيم. يعني على الحق. ويقال على صراط مستقيم. يعني بيده الهدى وهو يهدي إلى صراط مستقيم وهو دين الإسلام. ويقال يعني: يدعوكم إلى طريق الإسلام ويقال معناه أمرني ربي أن أدعوكم إلى صراط مستقيم

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني تتولوا. ومعناه إن أعرضتم عن الإيمان فلم تؤمنوا وهذا كقوله (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) ثم قال ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ يعني إن تتولوا فأنا معذور. لأني قد أبلغتكم الرسالة ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ إن شاء ويقال: قد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم من التوحيد ونزول العذاب في الدنيا ويستخلف ربي بعد هلاككم قوماً غيركم. يعني خيراً منكم وأطوع لله تعالى ﴿وَ لاتَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ يعني إن لم تؤمنوا به فلا تنقصون من ملكه شيئاً ويقال إهلاككم لا ينقصه شيئاً. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يعني حافظاً ولا يغيب عنه شيء. ويقال: معناه: حفظ كل شيء عليه. ثم قال ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني عذابنا وهو الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يعني بنعمة منا ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني من العذاب الذي عذب به عاد في الدنيا ومما يعذبون به في الآخرة. ثم قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني كذبوا بعذاب ربهم أنه غير نازل بهم. ومعناه يا أهل مكة: انظروا إلى حالهم كيف عذبوا في الدنيا وفي الآخرة. وهذا كقوله تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) فكذلك ههنا. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم. بين جرمهم ثم بين عقوبتهم. فقال ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هوداً خاصة. ويقال معناه كذبوا هوداً بما أخبرهم عن الرشد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني عملوا بقول كل جبار. ويقال أخذوا بدين كل جبار. والجبار الذي يضرب ويقتل عند الغضب، عنيد يعني معرضاً ومجانباً عن الحق. ثم بين عقوبتهم فقال ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ يعني ألحقوا ﴿فِي هذه الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يعني العذاب والهلاك وهي الريح العقيم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنة أخرى وهو عذاب النار إلى الأبد ﴿أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [وهذا تنبيه للكفار أن عادا كفروا ربهم][3] فأهلكهم الله تعالى. فاحذوروا كيلا يصيبكم بكفركم ما أصابهم بكفرهم. ويقال «أَلَا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» يعني ينادي منادٍ يوم القيامة لإظهار حالهم ألا إن عاداً كفروا ربهم وقال

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٣٧/٣ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) سقط في ظ.

الضحاك: ترفع لهم راية الغدر يوم القيامة فينادي منادٍ [يوم القيامة][1] هذه غدرة قوم عاد. فيلعنهم الملائكة وجميع الخلق فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ يعني خزياً وسحقاً ﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ يعني وأرسلنا إلى ثمود. وإنما لم ينصرف لأنه اسم لقبيلة. وفي الموضع الذي ينصرف جعله اسماً للقوم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوا الله وأطيعوه ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني ليس لكم رب غيره ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ يعني هو الذي خلقكم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني خلق آدم من أديم الأرض وأنتم ولده ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني أسكنكم وأنزلكم فيها. وأصله أعمركم، يقال أعمرته الدار إذا جعلتها له أبداً وهي العُمْرَى. وقال مجاهد[2]: واستعمركم يعني أطال عمركم فيها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني توبوا من شرككم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ يعني قريباً ممن دعاه. مجيباً بالإجابة لمن دعاه من أهل طاعته. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ يعني كنا نرجو أن ترجع إلى ديننا قبل أن تدعونا إلى دين غير دين آبائنا ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يعني يريبنا أمرك ودعاؤك إيانا إلى هذا الدين ومعناه إنا مريبون في أمرك. ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ يقول أخبروني إن كنت على بيان وحجة ودين أتاني من ربي ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ يقول أكرمني الله تعالى بالإسلام والنبوة أيجوز لي أن أترك أمره ولا أدعوكم إلى الله وإلى دينه ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ يقول: فمن يمنعني من عذاب الله إن رجعت إلى دينكم وتركت دين الله تعالى ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يقول: ما تزيدونني في مقالتكم إلا بصيرة في خسارتكم. ويقال: معناه فما تزيودنني غير تكذيب لأن التكذيب سبب لخسارتهم. ويقال معناه: فما تزيدونني إن تركت ما أوجب الله عليَّ من الدعوة غير تخسير. لأن العذاب إذا نزل بي لا تقدرون على دفعه عني

﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن

(١) سقط في ظ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٨ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

صالحاً لما دعا قومه إلى الإسلام كذبوه. فضاق صدره فسأل ربه أن يأذن له بالخروج من عندهم. فأذن له فخرج وانتهى إلى ساحل البحر. فإذا رجل يمشي على الماء. فقال له صالح ويحك من أنت؟ فقال أنا من عباد الله. قال كنت في سفينة كان قومها كفرة غيري. فأهلكهم الله تعالى ونجاني منهم فخرجت إلى جزيرة أتعبد هناك. فأخرج أحياناً وأطلب شيئاً من رزق الله تعالى ثم أرجع إلى مكاني. فمضى صالح وانتهى إلى تل عظيم فرأى رجلاً (يتعبد)[1] فانتهى إليه وسلم عليه فرد عليه السلام. فقال له صالح: من أنت؟ قال كانت ههنا قرية كان أهلها كفاراً غيري. فأهلكهم الله تعالى ونجاني منهم فجعلت على نفسي أن أعبد الله تعالى ههنا إلى الموت وقد أنبت الله تعالى لي شجرة رمان وأظهر لي عين ماء فآكل من الرمان وأشرب من ماء العين وأتوضأ منه. فذهب صالح وانتهى إلى قرية كان أهلها كفاراً كلهم غير أخوين مسلمين يعملان عمل الخوص. فضرب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً. قال لو أن مؤمناً دخل قرية فيها ألف رجل، كلهم كفار وفيها مؤمن واحد فلا يسكن قلبه مع أحد حتى يجد المؤمن. ولو أن منافقاً دخل قرية فيها ألف رجل مؤمن ومنافق واحد فلا يسكن قلب المنافق مع أحد ما لم يجد المنافق. فدخل صالح فانتهى إلى الأخوين ومكث عندهما أياماً وسألهما عن حالهما فأخبراه أنهما يصبران على إيذاء المشركين وأنهما يعملان عمل الخوص ويمسكان قوتهما ويتصدقان بالفضل. فقال صالح: الحمد لله الذي أراني في الأرض من عباده الصالحين الذين صبروا على أذى الكفار. فأنا أرجع إلى قومي وأصبر على أذاهم، فرجع إليهم وقد كانوا خرجوا إلى عيدٍ لهم فدعاهم إلى الإيمان فسألوا منه أن يخرج لهم ناقة من الصخرة، فدعا الله تعالى فأخرج لهم ناقة عشراء. فذلك قوله (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً) أي علامة وعبرة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ يعني في أرض الحجر ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ يعني لا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ يعني يصيبكم ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ فولدت الناقة ولداً، وكانت لهم بئر (واحدة)[2] عذبة. قال ابن عباس: كان للناقة شرب يوم لا يقربونها. ولهم شرب يوم وهي لا تحضرها وكانوا يستقون الماء في يومهم ما يكفيهم للغد فيقسمونه فيما بينهم فإذا كان يوم شربها كانت ترتع في الوادي. ثم تجيء إلى البئر فتبرك فتدلي رأسها في البئر فتشرب منها ثم تعود فترعى ثم تعود إلى البئر فتشرب منها فتفعل ذلك نهارها كله. وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، منهم قدار بن سالف ومصدع بن دهر ـ وكانت في تلك القرية امرأة جميلة غنية وكانت تتأذى بالناقة لأجل سايمتها فقالت: من عقر الناقة أزوج نفسي منه، فخرج قدار بن سالف ومصدع بن دهر وكمن لها مصدع في مضيق من ممرها ورماها بسهم فأصاب رجلها، فمرت بقدار وهي تجر رجلها فضربها بالسيف فعقرها وقسموا لحمها على جميع أهل القرية وكان في القرية تسعمائة أهل بيت ويقال ألف وخمسمائة. فذلك قوله ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ يعني عيشوا وانتفعوا في داركم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم يأتيكم العذاب ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فقالوا له ما العلامة في ذلك؟ قال: أن تصبحوا في اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة. ثم خرج صالح من بينهم. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾يعني عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ يعني بنعمة منا ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يعني من عذاب يومئذ قرأ نافع والكسائي[3] وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ بنصب الميم لأنه إضافة إلى اسم غير متمكن فيجوز النصب وقرأ الباقون «يَوْمِئِذٍ» بكسر الميم على معنى الإضافة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أخبر الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قادر في أخذه المنيع ممن عصاه

---

(١) في أ [هناك].

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٤٤، والنشر ٢/ ٢٨٩.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة جبريل، صاح صيحة فماتوا كلهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ يعني: صاروا خامدين ميتين ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يعني صاروا كأن لم يكونوا في الدنيا ويقال كأن لم ينزلوا في ديارهم ولم يكونوا ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يعني حجدوا وحدانية الله. فهذا تنبيه وتخويف لمن بعدهم ﴿أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ يعني خزياً وسحقاً لثمود في الهلاك. قرأ الكسائي[1] «أَلَا بُعْداً لِثَمُودٍ» بكسر الدال مع التنوين، وجعله اسماً للقوم، فلذلك جعله منصرفاً. وقرأ الباقون بنصب الدال لأنه اسم القبيلة. وإنما يجري في قوله «أَلَا إِنَّ ثَمُودا» إتباعاً للكتابة في مصحف الإمام. وأما الكسائي فأجراه لقربه من قوله ألا إن ثمودا كفروا ربهم

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ يعني ببشارة الولد، وذلك أن مدينة يقال لها «سدوما» (ويقال «سدوم»)[2] وكانت بلدة فيها من السعة والخير ما لم يكن في سائر البلدان. وكان الغرباء يحضرون من سائر البلدان في أيام الصيف ويجمعون من فضل ثمارهم مما كان خارجاً من الكروم والحدائق. فجاء إبليس لعنه الله فشبه نفسه[3] بغلام أمرد وجعل يدخل كرومهم وحدائقهم ويراودهم إلى نفسه حتى أظهر فيهم الفاحشة. وجاء إلى نسائهم وقال إن الرجال قد استغنوا عنكن فعلمهن أن يستغنين عن الرجال حتى استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء. فأوحى الله تعالى: إلى لوط ليدعوهم إلى الإيمان ويمتنعوا عن الفواحش فلم يمتنعوا فبعث الله جبريل ومعه أحد عشر من الملائكة بإهلاكهم فجاؤوا إلى إبراهيم كهيئة الغلمان فدخلوا على إبراهيم فنظر فرأى اثني عشر غلاماً أمرد. ويقال كانوا ثلاثة جبريل وميكاييل وإسرافيل ويقال كانوا أربعة فسلموا عليه. ﴿قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾ يعني رد عليهم السلام. قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر[4] قالوا سلاماً قال سَلَامٌ كلاهما سلام إلا أن الأول صار نصباً لوقوع الفعل عليه والآخر رفعاً بالحكاية. ومعناه قال قولا فيه سلام وقرأ حمزة والكسائي «قالوا سلاماً قال سِلْمٌ» بكسر السين وسكون اللام يعني أمري سلم ما أريد إلا السلامة ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ يعني فما مكث ﴿أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ قال السدي: الحنيذ السمين. كما قال في آية أُخرى (بِعِجْلٍ سَمِينٍ) ويقال: حنيذ يعني نضيح. ويقال المشوي الذي يقطر منه الدسم. وقال أهل اللغة بأجمعهم الحنيذ المشوي بغير تنور. وهو أن يتخذ له في الأرض حنذاً فيلقى فيه. قال مقاتل: إنما جاءهم بعجل لأنه كان أكثر ماله البقر. فلما قربه إليهم ووضع بين أيديهم كفوا ولم يأكلوا ولم يتناولوا منه ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ يعني (لا تصل إلى الطعام)[5]

---

(١) انظر النشر ٢/ ٢٩٠، وحجة القراءات ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٣٤٦، وانظر النشر ٢/ ٢٩٠.

(٥) في أ [ولم يمدوا أيديهم إلى الطعام.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ يقول أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ يعني وأضمر منهم خوفاً حيث لم يأكلوا من طعامه وظن أنهم لصوص. وذلك أنه في ذلك الزمان إذا لم يأكل أحد من طعام إنسان يخاف عليه عائلته ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ بهلاكهم. وقال السدي[١] لما لم يأكلوا من الطعام قال لهم إبراهيم ما لكم لا تأكلون طعامي؟ قالوا إنا قوم لا نأكل طعاماً إلا بثمن. فقال إبراهيم إن لطعامي ثمناً فأصيبوا منه. قالوا: وما ثمنه؟ قال تذكرون اسم الله عليه في أوله وتحمدونه في آخره. فقال جبريل لميكاييل حق له أن يتخذه الله خليلاً. قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وفي الآية تقديم يعني بشرناها بإسحاق فضحكت سروراً. ويقال ضحكت تعجباً من خوف إبراهيم ورعدته في حشمه وخدمه ولم يخف ولم يرتعد من نمرود الجبار حين قذفه في النار. وهذا قول القتبي. وقال عكرمة[٢]: ضحكت يعني حاضت: يقال ضحكت الأرنب إذا حاضت. وغيره من المفسرين يجعلها الضحك بعينه، وكذلك هو في التوراة، قرأت فيها إنها حين بشرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت من بعد ما بليت أعود شابة. وقال قتادة[٣]. ضحكت من أمر القوم وغفلتهم وجبريل جاءهم بالعذاب يعني قوم لوط ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ قال الشعبي[٤] الوراء ولد الولد. وروى حبيب بن أبي ثابت أن رجلاً دخل على ابن عباس[٥] ومعه ابن ابنه فقال له من هذا؟ فقال ابن ابني. فقال ابنك من وراء. فوجد الرجل في نفسه. فقرأ إبن عباس «وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» وقال مقاتل يعني ومن بعد إسحاق يعقوب. وقال أبو عبيدة الوراء ولد الولد. وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص بنصب الباء[٦]. وقرأ الباقون بالضم. فمن قرأ بالضم فهو على معنى الابتداء يعني ويكون من وراء إسحاق يَعْقُوبُ. ومن قرأ بالنصب فهو عطف على الباء في قوله بإسحاق. فيكون في موضع الخفض إلا أنه لا ينصرف ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ يعني عقيماً لم ألد قط وقد كبرت في السن ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ قال الكلبي: كانت ساره بنت ثمان وتسعين سنة وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة، أكبر منها بسنة وقال الضحاك: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة وسارة بنت تسع وتسعين سنة ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي لأمر عجيب ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني من قدرة الله ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني نعمته وسعادته عليكم ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يعني يا أهل البيت ويقال: أتعجبين أي ألا تعلمين أن رحمة الله وبركاته عليكم أن يستخرج الأنبياء كلهم من هذا البيت. وقال السدي: أخذ جبريل عوداً من الأرض يابساً فدلكه بين أصبعيه فإذا هو شجرة تهتز فعرفت أنه من الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ في فعاله، ويقال حميد لأعمالكم ﴿مَجِيدٌ﴾ يعني شريف.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ يعني الفزع من الرسل ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ يعني يخاصم ويتشفع في قوم لوط، وكان لوط ابن أخيه وهو لوط بن هازر بن آزر، وإبراهيم بن آزر. ويقال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٠ وعزاه لابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤١ وعزاه لابن الأنباري.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذروابن أبي حاتم.

(٦) انظر النشر ٢/٢٩٠، حجة القراءات ٣٤٧.

ابن عمه. وسارة كانت أخت لوط. (فلما سمعا بهلاك قوم لوط اغتما لأجل لوط) وروى معمر عن قتادة[(١)] قال لهم: أرأيتم لو كان فيها خمسون من المسلمين أتعذبونهم؟ قالوا لا نعذبهم. قال أربعون؟ قالوا ولا أربعون قال ثلاثون؟ قالوا ولا ثلاثون. حتى بلغوا عشرة. قال مقاتل: فما زال ينقص خمسة خمسة حتى انتهى إلى خمسة أبيات. يعني لو كان فيها خمسة أبيات من المسلمين لم يعذبهم. ثم قال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ الأواه الذي إذا ذكر الله تعالى تأوه. منيب أي راجع إليه بالتوبة وقد ذكرناه في سورة التوبة. ثم قال جبريل ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعني اترك جدالك ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني عذاب ربك ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ يعني غير مصروف عنهم. ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين إلى قوم لوط (فانتهوا)[(٢)] إليهم نصف النهار، فإذا هم بجواري يسقين من الماء فأبصرتهم ابنة لوط وهي تستقي من الماء فقالت لهم ما شأنكم ومن أين أقبلتم وأين تريدون؟ قالوا أقبلنا من مكان كذا ونريد مكان كذا. فأخبرتهم عن حال أهل المدينة وخبثهم فأظهروا الغم من أنفسهم فقالوا هل أحد يضيفنا؟ قالت ليس فيها أحد يضيفكم إلا ذلك الشيخ وأشارت إلى أبيها لوط وهو على بابه. فأتوا لوطاً. فلما رآهم وهيئتهم ساءه ذلك فذلك قوله تعالى:

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ يقول ساءه مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ يعني صدره اغتماماً ومخافة عليهم. لا يدري أيأمرهم بالرجوع أم بالنزول ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يعني شديد. ثم قال لامرأته ويحك قومي واخبزي ولا تعلمي أحداً. وكانت امرأته كافرة منافقة فانطلقت تطلب بعض حاجتها وجعلت لا تدخل على أحد إلا أعلمته وتقول إن عندنا قوماً من هيئتهم كذا وكذا فلما علموا بذلك جاؤوا إلى باب لوط فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني يسرعون إليه وهو مشي بين المشيتين. ويقال يدفعون إليه دفعاً. ويقال يشتدون إليه شداً ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني من قبل أن يبعث إليهم لوط. ويقال من قبل إتيان الرسل كانوا يعملون الفواحش وهي اللواطة والكفر. فلما أرادوا الدخول ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يعني أحل لكم من ذلك (وكان لوط يناظرهم. ويقول هن أطهر لكم. وكان جبريل مع أحد عشر من الملائكة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤١ وعزاه لعبد الرزاق وأبي الشيخ.

(٢) حين انتهوا.

وكسروا الباب فضرب أعينهم)[١] قال الضحاك «هؤلاء بناتي» عرض عليهم بنات قومه. وقال قتادة[٢]: أمرهم لوط أن يتزوجوا النساء وقال هن أطهر لكم ولم يعرض عليهم بناته. وروى سفيان عن ليث عن مجاهد[٣] قال: لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي هو أب أمته. وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» وهو أب لهم. وهي قراءة أبي بن كعب. وهكذا قال سعيد بن جبير[٤] إنه أراد بنات أمته. ويقال إن رؤساءهم كانوا خطبوا بناته وكان يأبى. فقال لهم إني أزوجكم بناتي. هن أطهر لكم من الحرام. وكان النكاح بين الكافر والمسلم جائزاً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ يقول لا تفضحوني في أضيافي ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يعني مرشداً صالحاً يزجركم عن هذا الأمر. ويقال رجل عاقل. ويقال رجل على الحق يستحي مني ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ يعني من حاجة. ويقولون ما لنا في النساء من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الأضياف ف﴿قَالَ﴾لوط ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ يعني منعة بالولد ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (أي أرجع إلى عشيرة كثيرة)[٥] يعني لو كانت عشيرة ومنعة لمنعكم مما تريدون. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: رحم الله لوطاً لقد أوى إلى ركن شديد[٦]. يعني إن الله ناصره. وروى عكرمة عن ابن عباس[٧] قال: ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في عز من قومه. ويقال لما أرادوا الدخول وضع جبريل يده على الباب فلم يقدروا على فتحه فكسروا الباب ودخلوا فامتلأت داره، فمسح جبريل جناحه على وجوههم فذهبت أعينهم. كما قال في آية أخرى (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) فرجعوا وقالوا يا لوط جئت بالسحرة حتى طمسوا أعيننا والله لنهلكنك غداً. فلما سمع لوط تهديدهم إياه ساءه صنيع القوم وخاف. فلما رأى جبريل ما دخله ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ يعني لن يقدروا أن يصنعوا بك شيئاً ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ يعني: سر وادلج بأهلك[٨] ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال الكلبي: القطع من الليل آخر السحر وقد بقيت منه قطعة. وقال السدي: سألت أعرابياً عن قوله «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» قال ربع الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني لا يتخلف منكم أحد ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب. ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير ونافع[٩] فاسر بجزم الألف وقرأ الباقون فَأَسْرِ. ومعناهما واحد. يقال سريت وأسريت إذا سرت بالليل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[١٠] «إِلَّا امْرَأَتُكَ» بضم التاء وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب انصرف إلى الإسراء يعني أسر بأهلك إلا امرأتَكَ على معنى الاستثناء. وفي قراءة ابن مسعود فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتَكَ. ومن قرأ بالضم فهو ظاهر يعني أنها تتخلف مع الهالكين وقال لوط لجبريل عليه السلام إن أبواب المدينة قد أغلقت فجمع لوط أهله وابنتيه ريثا وزغورا فحمل جبريل لوطاً وابنتيه وماله على جناحه إلى مدينة ذعر وهي إحدى مدائن

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٢ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) سقط في أ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن قتادة وقال أخرجه ابن جرير وعن الحسن وقال أيضاً أخرجه ابن جرير. انظر الدر المنثور ٣/٣٤٣.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لسعيد بن منصور وأبي الشيخ.

(٨) سقط في ظ.

(٩) انظر حجة القراءات ٣٤٧، النشر ٢/٢٩٠.

(١٠) انظر المصدرين السابقين.

(١١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٥ وعزاه لابن عبيد وابن جرير.

لوط وهي (خمس مدائن)[١] وهي على أربعة فراسخ من سدوما ولم يكونوا على مثل عملهم فقال له جبريل ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ يعني هلاكهم وقت الصبح. فقال لوط يا جبريل الآن عجل هلاكهم. فقال له جبريل ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فلما كان وقت الصبح أدخل جبريل جناحه تحت أرض[٢] المدائن الأربعة فاقتلعها من الماء الأسود ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح وصياح الديك ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض. فذلك قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ قال وهب بن منبه: لما رفعت إلى السماء أمطر الله عليهم الكبريت والنار ثم قلبت. وقال مقاتل أمطر على أهلها من كان خارجاً من المدائن الأربعة حجارة ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يعني من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر ﴿مَنْضُودٍ﴾ يعني متتابع بعضه على أثر بعض. وقال مجاهد[٣] سجيل بالفارسية سنج وجك كقوله (حِجَارَةً مِنْ طِينٍ) وروي عن ابن عباس[٤] في بعض الروايات قال سنك وكل وقال أبي عبيدة السجيل الشديد. منضود أي ملتزق بالحجارة ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قال الفراء مخططة بالحمرة والسواد في البياض. وقال أبي عبيدة: مسومة أي معلمة. ويقال مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يصيبه. ويقال مختمة، وقال وكيع رفع إلى حجر منها بطرسوس ثم قال ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني من قوم لوط عليه السلام. ويقال هذا تهديد لأهل مكة وغيرهم من المشركين فقال وما هي من الظالمين ببعيد لكيلا يعملوا مثل عملهم. ويقال وما هن من الظالمين ببعيد قريات لوط ليست ببعيدة من أهل مكة فأمرهم بأن يعتبروا بها وقال الزجاج: سجيل يعني ما كتب لهم أن يعذبوا به. ويقال سجيل من سجلته يعني أرسلته. ومعناه حجارة مرسلة عليهم. ويقال كثيرة شديدة

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ يعني وأرسلنا إلى مدين (أخاهم ﴿شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٥ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وحدوا الله (وأطيعوه)[١] ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني ليس لكم رب سواه ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ في البيع والشراء ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يعني بسعة في المال والنعمة ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ يعني: إن لم ترجعوا عن نقصان المكيال والميزان تزول عنكم النعمة والسعة ويصيبكم القحط والشدة وعذاب الآخرة. وقال مجاهد[٢] إني أراكم بخير. يعني برخص السعر. ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ يعني أتموا الكيل والوزن ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يقول بالعدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يعني لا تنقصوا الناس حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني لا تسعوا في الأرض بالفساد والمعاصي ونقصان الكيل والوزن. وقال سعيد بن المسيب إذا أتيت أرضاً يوفون المكيال والميزان فأطل المقام بها وإذا أتيت أرضاً ينقصون المكيال والميزان فأقل المقام بها. وقال عكرمة: أشهد أن كل كيال ووزان في النار. قيل له فمن وفى الكيل والوزن قال ليس رجل في المدينة يكيل كما يكتال ولا يزن كما يتزن والله تعالى يقول (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) ثم قال تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: ما أبقى الله لكم من الحلال خير لكم من الحرام ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني مصدقين فصدقوني فيما أقول لكم. وقال مجاهد بقية الله خير لكم. يعني طاعة الله خير لكم ويقال (ثواب الله خير لكم في الآخرة)[٣] ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يعني رقيباً ووكيلاً، وإنما عليَّ البلاغ. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ يعني: قال له قومه. قرأ حمزة والكسائي[٤] وعاصم في رواية حفص «أصلاتُك» بلفظ الوحدان يعني أقراءتك. ويقال أدعاؤك. وقرأ الباقون «أَصَلَوَاتُكَ» بلفظ الجماعة. يعني أكثرة صلواتك يأمرك ﴿أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وكان شعيب كثير الصلاة ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ من نقصان الكيل والوزن ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يعني السفيه الضال استهزاء منهم به ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ يعني على دين وطاعة وبيان وأتاني رحمة من ربي ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ يعني بعثني بالرسالة فهداني لدينه ووسع عليَّ من رزقه. وقال الزجاج جواب الشرط ههنا متروك. المعنى إن كنت على بينة من ربي أتبع الضلال. فترك الجواب لعلم المخاطبين بالمعنى. ثم قال ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يعني: لا أنهاكم عن شيء وأعمل ذلك العمل من نقصان الكيل والوزن. ومعناه أختار لكم ما أختار لنفسي نصيحة لكم وشفقة عليكم ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ﴾ يقول ما أريد إلا العدل ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ يعني ما قدرت يعني لا أترك جهدي في بيان ما فيه مصلحة لكم. ثم قال ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (يعني وما تركي هذه الأشياء ودعوتي إلا بالله)[٥] يعني إلا بتوفيق الله وبأمره ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني وثقت به ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يعين أقبل وأدعو إليه بالطاعة ثم قال تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يعني لا يحملنكم بغضي وعداوتي أن لا تتوبوا إلى ربكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ يعني: يقع بكم العذاب ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ يعني مثل عذاب قوم نوح بالغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بالريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ الصيحة. فإن طال عهدكم بهم فاعتبروا بمن هو أقرب منكم وهم قوم لوط فقال ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾يعني كان هلاكهم قريباً منكم ولا يخفى عليكم أمرهم.

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي

(١) سقط في أ.

(٢) ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٦ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر النشر ٢/٢٩٠، حجة القراءات ٣٤٨.

(٥) سقط في أ.

أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني وتوبوا إلى الله. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بعباده ﴿وَدُودٌ﴾ يعني متودد إلى أوليائه بالمغفرة. ويقال محب لأهل طاعته. ويقال الودود بمعنى الواد. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ يعني لا نعقل ما تدعونا إليه من التوحيد ومن وفاء الكيل والوزن. يعنون إنك تدعونا إلى شيء خلاف ما كنا عليه وآباؤنا ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ يعني ومع ذلك أنت ضعيف فينا. وقال مقاتل يعني ذليلاً لا قوة لك ولا حيلة. وقال الكلبي يعني ضرير البصر. ويقال إنه ذهب بصره من كثرة بكائه من خشية الله تعالى. ويقال وحيداً لم يوافقك من عظمائنا أحد ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ يعني لولا عشيرتك لقتلناك، لأنهم كانوا يقتلون رجماً. وقال القتبي: أصل الرجم الرمي. كقوله (وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ) ثم قد يستعار ويوضع موضع الشتم. إذ الشتم رمي. كقوله (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) يعني لأشتمنك ويوضع موضع الظن كقوله (رَجْماً بِالْغَيْبِ) أي ظناً. والرجم أيضاً الطرد واللعن. وقيل للشيطان رجيم لأنه طريد يرجم بالكواكب. وقد يوضع الرجم موضع القتل لأنهم كانوا يقتلون بالرجم ولأن ابن آدم قتل أخاه بالحجارة. فلما كان أول القتل رجماً سمي القتل رجماً وإن لم يكن بالحجارة ثم قالوا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ يعني بكريم ويقال بعظيم يعني: لا خطر لك عندنا لولا حرمة عشيرتك. ويقال وما قتلك علينا بشديد ثم ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني حرمة قرابتي أعظم عندكم من حرمة الله تعالى. ويقال خوفكم من عقوبة قرابتي أكبر من خوف الله. ويقال عشيرتي أعظم عليكم من كتاب الله تعالى. (ومن أمره) ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ يقول تركتم أمر الله تعالى وراءكم خلف[1] ظهوركم وتعظمون أمر رهطي وتتركون تعظيم الله تعالى ولا تخافونه وهذا قول الفراء. وقال الزجاج: معناه: اتخذتم أمر الله وراءكم ظهرياً. أي نبذتموه وراء ظهوركم. (والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر قد جعل فلان هذا الأمر بظهره. وقال الأخفش وراءكم ظهرياً)[2] يقول لم تلتفتوا إليه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني عالماً بأعمالكم من نقصان الكيل والوزن وغيره والإحاطة هي إدراك الشيء بكماله ثم قال تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني اعملوا في هلاكي وفي أمري ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ في أمركم، والمكانة والمكان بمعنى واحد. ثم قال ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني يهلكه ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ يعني ستعلمون من هو كاذب. ويقال معناه: من يأتيه عذاب يخزيه ويخزي أمره من هو كاذب على الله، بأن معه شريكاً ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ يعني انتظروا بي العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ يعني منتظر بكم العذاب في الدنيا.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

---

(١) سقط في ظ.
(٢) سقط في أ.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني عذابنا. وذلك أنه أصابهم حر شديد فخرجوا إلى غيضة لهم فدخلوا فيها فظهرت لهم سحابة كهيئة الظلة فأحرقت الأشجار وصاح جبريل صيحة فماتوا كلهم. كما قال في آية أخرى (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) وذلك قوله تعالى (ولما جاء أمرنا) يعني عذابنا ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحة جبريل ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ يعني صاروا في مواضعهم ميتين لا يتحركون. قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يعني كأن لم يعمروا فيها ﴿أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ﴾ يعني بعداً من رحمة الله تعالى ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ من رحمته. وروى أبو صالح عن إبن عباس قال: لم تعذب أمتان بعذاب واحد إلا قوم شعيب وصالح. صاح بهم جبريل فأهلكهم. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يعني حجة بينة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يعني قومه ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني أطاعوا قول فرعون حين قال: (مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى) فأطاعوه في ذلك. وحين قال لهم (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) فأطاعوه وتركوا موسى. قال الله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ يقول ما قول فرعون بصواب. قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول يتقدم أمام قومه يوم القيامة وهم خلفه كما كانوا يتبعونه في الدنيا ويقودهم إلي النار ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ يقول أدخلهم النار ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ يقول بئس المدخل المدخول. يعني بئس المصير الذي صاروا إليه قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ يعني جعل عليهم اللعنة في الدنيا وهو الغرق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنة أُخرى وهي النار ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ يعني اللعنة على أثر اللعنة. ومعناه بئس الغرق وزفرة النار ترادفت عليهم اللعنتان. لعنة الدنيا الغرق، ولعنة الآخرة النار. وقال القتبي: بئس الرفد المرفود يعني: بئس العطاء المعطى. يقال رفدته أي أعطيته وقال الزجاج: كل شيء جعلته عوناً لشيء وأسندت به شيئاً فقد رفدته. وقال قتادة[1] في قوله «يَقْدُمُ قَوْمَهُ» يعني يمضي بين أيديهم حتى يهجم بهم على النار وفي قوله «بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ» قال لعنة في الدنيا وزيدوا بها اللعنة في الآخرة. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القرَى﴾ يعني هذا الذي وصفت لك وقصصت عليك من أخبار الأمم والقرون الماضية ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ يعني ينزل جبريل ليقرأ عليك، ليكون فيها دلالة نبوتك ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ يعني من تلك القرى قائم ومنها ما هو حصيد والقائم يعني الظاهر ينظر إليه الناظر. (والحصيد الذي قد أبيد)[2] وحصد يعني خرب وهلك أصحابه. ويقال القائم على بنيانه والحصيد ما خرب. وقال قتادة: منها قائم يعني خاوية على عروشها وحصيد يعني مستأصلة. وقال الضحاك منها قائم يعني مدينة عاد هلكوا وبقيت مساكنهم. وحصيد يعني مدائن قوم لوط حصدت أي قلعت من الأرض السفلى ثم قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ يعني لم نعذبهم بغير ذنب ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني أضروا بأنفسهم حيث أكلوا رزق الله وعبدوا غيره وكذبوا رسله ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ يعني ما نفعتهم عبادة آلهتهم ﴿الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إنما سماهم آلهة على وجه المجاز يعني آلهتهم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٨ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) سقط في ظ.

بزعمهم ولم يكونوا آلهة في الحقيقة. ومعناه لم تقدر أصنامهم أن تمنعهم من عذاب الله من شيء ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني حين جاء عذاب ربك. وقال القتبي: إذا رأيت لِلَمَّا جواباً فهو بمعنى حين كقوله تعالى (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) يعني حين أغضبونا وكقوله «لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ» يعني حين جاء أمر ربك. يعني عذاب ربك ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يعني: غير تخسير كقوله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) أي خسرت.

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ يعني هكذا عقوبة ربك ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ يعني إذا عاقب القرى ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾يعني أهلها كفار جاحدون بوحدانية الله تعالى. قرأ عاصم الجحدري «إِذْ أَخَذَ» بألف واحدة لأن إذ تستعمل للماضي وإذا تستعمل للمستقبل وهذه حكاية من الماضي. يعني حين أخذ ربك القرى وهي قراءة شاذة. وقراءة العامة «إِذَا أَخَذَ» بألفين ومعناه أخذ ربك متى أخذ القرى ثم قال ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: عقوبته مؤلمة شديدة. وروى أبو موسى الأشعري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة» الآية ثم قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: في الذي أخبرتك عن الأمم الخالية لعبرة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ويقال في عذابهم موعظة وعبرة بالغة لمن آمن بالله واليوم الآخر. ويقال فيه عبرة لمن أيقن بالنار وأقر بالبعث ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ يعني مجموع فيه الأولون والآخرون ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ يشهده أهل السموات وأهل الأرض قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ يعني: إلى حين معلوم. ويقال: لانقضاء أيام الدنيا ومعناه أنا قادر على إقامتها الآن ولكن أؤخرها إلى وقت معدود ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ يعني إذا جاء يوم القيامة. ويقال يوم يأت ذلك اليوم ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يعني: لا تتكلم نفس بالشفاعة إلا بأمره. ويقال معناه لا يجتريء أحد أن يتكلم من هيبته وسلطانه بالإحتجاج وإقامة العذر إلا بإذنه. قرأ عاصم وإبن عامر وحمزة[2] «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء في الوصل والقطع. وقرأ الباقون بالياء عند الوصل. قال أبو عبيدة القراءة عندنا على حذف الياء في الوصل والوقف. قال ورأيت في مصحف (الإمام)[3] عثمان «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء. وهي لغة هذيل. قال وروي عن عثمان أنه عرض عليه المصحف فوجد فيه حروفاً من اللحن فقال: لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف. فكانت قدم هذيلاً في الفصاحة. ثم قال ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ يعني: يوم القيامة من الناس، شقي معذب في النار، وسعيد. يعني: مكرم في الجنة. قوله

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٣٥٤ في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم ١٩٩٧/٤ في كتاب البرو الصلة في باب تحريم الظلم (٦١/٢٥٨٣).

(٢) انظر حجة القراءات ٣٤٨.

(٣) سقط في أ.

تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ يعني كتب عليهم الشقاوة ﴿فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال الربيع بن أنس[١]: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر. وروي عن إبن عباس[٢] أنه قال زفير كزفير الحمار وهو أول ما ينهق الحمار، والشهيق وهو أول ما يفرغ من نهيقه في آخره. ويقال زفير وشهيق معناه أنيناً وصراخاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين دائمين في النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يعني سماء الجنة وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني إلا من أخرجهم منها وهم الموحدون. وقال الكلبي ومقاتل خالدين فيها ما دامت السموات والأرض. يعني كما تدوم السموات والأرض لأهل الدنيا فكذلك يدوم الأشقياء في النار إلا ما شاء ربك أي الموحدون يخرجون من النار وقال الضحاك يعني سماء القيامة وأرضها وهما باقيتان. ويقال العرب كانت من عادتهم أنهم إذا ذكروا الأبد يقولـون ما دامت السموات والأرض فذكر على عادتهم. ومعناه إنهم خالدون فيها أبداً. ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ إن شاء أدخل النار خالداً وإن شاء أخرجه إن كان موحداً وأدخله الجنة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٣] سُعِدُوا بضم السين. وقرأ الباقون بنصب السين. فمن قرأ بالنصب فمعناه الذين استوجبوا السعادة في الجنة. ومن قرأ بالضم فمعناه وأما الذين سُعِدُوا أي قدر لهم السعادة وخلقوا للسعادة ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن يحبس في المحشر وعلى الصراط. ويقال الذين شقوا يعني الكفار والذين سعدوا المؤمنين ومعناه الكفار في النار إلا ما شاء الله أن يسلموا، والمؤمنون في الجنة إلا ما شاء الله أن يرجعوا عن الإسلام. ويقال إلا ما شاء ربك يعني قد شاء ربك ثم قال ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يعني رزقاً غير منقطع عنهم ولا ينقص من ثمارهم ولا من نعمتهم. ثم قال تعالى ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ يعني في شك ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ إن الله تعالى يعاقبهم بذلك ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: لا يرغبون في التوحيد كما لم يرغب آباؤهم من قبل الذين هلكوا ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ يعني نوف لهم ولآبائهم حظهم من (العذاب غير منقوص عنهم، وهو قول مقاتل، وقال سعيد بن جبير: نصيبهم من الكتاب)[٤] الذي كتب في اللوح المحفوظ من السعادة والشقاوة. وقال مجاهد[٥] وإنا

---

(١) ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٦ وعزاه لابن الأنباري في الوقف.

(٣) انظر النشر ٢/٢٩٠، حجة القراءات ٣٤٩.

(٤) سقط في ظ.

(٥) ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

لموفوهم نصيبهم يعني ما قدر لهم من خير أو شر. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ يعني أعطينا موسى التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يعني آمن به بعضهم وكفر به بعضهم وهذا تعزية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يصبر كما صبر موسى على تكذيبهم ثم قال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني وجب قول ربك بتأخير العذاب عن أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني لجاءهم العذاب ولفرغ من هلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يعين من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني ظاهر الشك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ قرأ إبن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وإنْ كل بجزم النون. وقرأ الباقون بالنصب والتشديد. فمن قرأ بالجزم معناه وما كلّ إلا ليوفينهم كقوله (وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ) يعني ما كلٌ. ومن قرأ بالتشديد يكون إنَّ لتأكيد الكلام. وقرأ حمزة وإبن عامر وعاصم في رواية حفص[1]

---

(١) ونزيد ذلك تفصيلاً ونقول قرأ أبو عمرو والكسائي (وإنَّ كلا لَمَا) بتشديد (إن) وتخفيف (لما). وجهة بين وهو أنه نصب (كلا) بـ (إن) و (إن) تقتضي أن تدخل على خبرها اللام أو (على) اسمها إذا حل محل الخبر فدخلت هذه اللام وهي لام الإبتداء على الخبر في قوله تعالى: ﴿وإن كلا لما﴾ وقد دخلت في الخبر لام أخرى وهي لام القسم وتختص بالدخول على الفعل ويلزمها في أكثر الأمر إحدى النونين فلما اجتمعت اللامان فُصِل بينهما بـ (ما)، فلام (لما) لام (إن) وما دخلت للتوكيد ولم تغير المعنى ولا العمل. واللام التي في (ليوفينهم لام القسم. وقال أهل الكوفة: في (ما) التي في (لما) وجهان أحدهما أن يكون بمعنى (من) أي (وإن كلا لمن ليوفينهم ربك) كما قال سبحانه «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» وإن أكثر استعمال العرب لها في غير بني آدم والوجه الآخر أن يجعل (ما) التي في (لما) بمعنى (ما) التي تدخل صلة في الكلام ويلي هذا الوجه في البيان قراءة نافع وابن كثير.

فأما تخفيف (إن) وترك النصب على خاله فلأن (إن) مشبهه بالفعل فإذا حذف التشديد بقي العمل على حاله وهي مخففة من (إن) قال سيبويه: (حدثني من أثق به أنه سمع من العرب من يقول: إن عمراً لمنطلق). فإن سأل سائل فقال: إنما نصبت بـ (إن) تشبيها بالفعل فإذا خففت زال شبه الفعل فلم نصبت بها؟

فالجواب أن من الأفعال: ما يحذف منه فيعمل علم التام كقولك (لم يك زيد منطلقاً) فكذلك (إن) جاز حذفها وإعمالها. وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص: (كلاً لمَّا) بالتشديد فيهما، قال الكسائي: من شدّد (إن) و (لما) فالله أعلم بذلك وليس لي به علم. وقال الفراء: (أما الذين شددوا فإنه والله أعلم) (لمما).

(ثعلب يروي بكسر الميم: (لمن) أراد: لمن ما ليوفينهم). فلما اجتمعت الميمات حذفت واحدة فبقيت ثنتان أدغمت واحدة في الأخرى كما قال الشاعر:

وإني لـمـمـا أصدر الأمـر وجـهـه إذا هـو أعـيـا بـالـسـبـيـل مـصـادره

وقال آخرون معنى ذلك: (وإن كلا لما) (بالتشديد أراد: لما) بالتنوين ولكن حذف منه التنوين كما حذف من قوله ﴿أرسلنا رسلنا تترى﴾. قال الفراء: وحدثت أن الزهري قرأ: (وإن كلا لما) بالتنوين يجعل (اللم): شديداً كقوله: ﴿أكلا لما﴾ أي شديداً فيكون المعنى: ﴿وإن كلا شديداً وحقاً ليوفينهم أعمالهم﴾ بمنزلة قولك في الكلام: وإن كلا حقاً ليوفينهم.

وقال آخرون منهم المازني: إن أصلها: (لمما) ثم شددت اليمين زيادة للتوكيد وكيلاً يحذفها الإنسان ويشبهها بقوله ﴿فبما رحمة من الله﴾، فيقول: (وإن كلا ليوفينهم) فيجتمع لامان لهذا شددت. قال الفراء: وأما من جعل (لما) بمنزلة (إلا) فإنه وجه لا نعرفه كما لا يحسن (إن زيداً إلاّ منطلق) فكذلك لا يحسن (وإن كلا إلا ليوفينهم) شرح هذا أن (إن) إثبات للشيء وتحقيق له و (إلا) تحقيق أيضاً وإيجاب وإنما تدخل نقضاً لجحد قد تقدمها كقولك: «ما زيد إلا منطلق»، وكقوله ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ أي (﴿ما كل نفس إلاّ عليها حافظ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وإن كلا لما﴾ لم يتقدمه حرف جحد فيقول إن (لما) بمعنى (إلاّ) كما ذكرنا. وإنما تقدم ها هنا (إن) التي للتحقيق فقد بطل قول من قال: (إن لما بمعنى إلاّ) ووجهها ما قد ذكرنا عن أهل النحو. وقرأ أبو بكر: (وإن كلا) خفيفة (لما) مشددة (وإن) مخففة من (إن) وقد ذكرنا أن العرب تقول؛ (إن عمراً لمنطلق) ولا يجوز أن يجعل (إن) بمعنى التي تكون بمعنى الجحد لأنها قد نصبت و (إن) إذا كانت بمعنى الجحد لا تنصب. قال الكسائي: من خفف (إن) وشدد (لما) (لست أدري) والله أعلم بوجهه إنما نقرأ كما أقرئنا قال: وذلك أن (إن) إذا نصبت بها وإن كانت مخففة كانت بمنزلتها مثقلة و (لما) إذا شددت كانت بمنزلة (إلاّ) قلت: وجه هذه القراءة ما قد ذكرنا في قراءة حمزة وابن عامر والله أعلم. انظر حجة القراءات ٣٥٠ ـ ٣٥١ ـ ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم. وقرأ الباقون بالتخفيف. فمن قرأ بالتخفيف يكون لصلة الكلام، ومعناه وإنَّ كلاً ليوفينهم. فتكون ما صلة كقولهم عما قليل يعني عن قليل. ومن قرأ بالتشديد يكون بمعنى إلَّا يعني: وإنَّ كُلًّا إلا ليوفينهم كقوله (إنْ كُلُّ نِفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) (فمن قرأ بالتشديد كتلك الآية يكون معناه إلا عليها حافظ)[1] ومعنى الآية إن كلا الفريقين ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ ثواب ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بالخير خيراً وبالشر شراً ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الخير والشر. قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ يعني استقم على التوحيد والطاعة كما أمرت ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أيضاً يستقيموا على التوحيد ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي لا تعصوا الله في التوحيد وطاعته ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال: حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو حفص عن سعيد عن قتادة[2] في قوله تعالى فاستقم كما أُمرت قال إن الله تعالى أمر بالاستقامة على التوحيد وأن لا يطغى في نعمته. وقال القتبي فاستقم كما أُمرت: يعني امضي على ما أمرت به

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ قال قتادة ولا ترجعوا إلى الشرك فتمسكم النار يعني تصيبكم النار. وقال أبو العالية[3]: ولا ترضوا بأعمال أهل البدع. والركون هو الرضا. ويقال: ولا تميلوا إلى دين الذين كفروا. ويقال ولا ترضوا قول الذين ظلموا. وروى أبو هريرة عن النبي[4] ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: المرء على دين خليله لينظر أحدكم من يخالل وعن عبد الله بن مسعود أنه قال اعتبروا الناس باخدانهم. ثم قال ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني حين تمسكم النار لم يكن لكم من عذاب الله من أولياء. يعني من أقرباء ينفعكم ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا تمنعون من العذاب. قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني واستقم كما أُمرت وأقم الصلاة أي أتممها ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ صلاة الفجر والظهر والعصر ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني دخولاً من الليل ساعة بعد ساعة. واحدها زلفة. وهي صلاة المغرب والعشاء ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني الصلوات الخمس يكفرن السيئات فيما دون الكبائر ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ يعني الصلوات الخمس توبة للتائبين. قال الكلبي: نزلت الآية في عمرو بن غزية الأنصاري ويقال نزلت في شأن أبي اليسر. كان يبيع التمر فجاءته امرأة تشتري تمراً فأدخلها في الحانوت وفعل بها كل شيء إلا الجماع. ثم ندم فأخبر بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية. ويقال نزلت في شأن أبي مقبل الثمار. وروي عن إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود[5] أنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال إني لقيت امرأة في البستان

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٠٣ وأبو داود ٥/١٦٨ في الأدب (٤٨٣٣) والترمذي ٤/٥٥٩ في كتاب الزهد (٢٣٧٨) وقال حسن غريب والحاكم في المستدرك ٤/١٧١ في كتاب البر وقال صحيح إن شاء الله تعالى ووافقه الذهبي.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٢ وعزاه لابن حبان.

فضممتها إليَّ[١] وقبلتها وفعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها. فسكت عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية. فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرجل وقرأها عليه. فقال عمر رضي الله عنه أله خاصة أم للناس كافة؟ قال بل للناس كافة وروى حماد بن سلمه عن علي بن زيد عن أبي عثمان قال كنت مع سلمان[٢] فأخذ غصناً من شجرة يابسة فحته ثم قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق ثم قرأ هذه الآية «وأقم الصلاة طرفي النهار» إلى آخرها. ثم قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد على التوحيد ولا تركن إلى الظلمة واصبر على ما أصابك. ويقال واصبر أي أقم على هذه الصلوات الخمس حتى لا تترك منها شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني ثواب الموحدين المخلصين ويقال المقيمين على الصلوات.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ يعني فهلا كان ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ يعني ذووا بقية من آمن. وقال مقاتل: يعني فلم يكن من القرون من قبلكم أولوا بقية يعني ذو بقية من دين ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين ينهون عن الفساد في الأرض. وقال القتبي: فهلا أولوا بقية من دين. يقال: قوم لهم بقية إذا كان فيهم خير. قال القتبي: إذا رأيت فلولا بغير جواب يريد به هلا كقوله (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا) (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ) وقال بعض المفسرين جعل «لولا» ههنا وفي سورة يونس بمعنى لم. وقال الزجاج: معناه أولوا تمييز، ويجوز أولوا طاعة وفضل، ومعنى بقية. إذا قلت في فلان بقية معناه فيه فضل فيما يمدح به. إلا قليلاً ممن أنجينا منهم. استثناء منقطع. والمعنى لكن قليلاً ممن أنجينا ممن ينهي عن الفساد. وروى سيف بن سليمان المكي بإسناده عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة[٣]. ثم قال ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول اشتغل الذين كفروا ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ يعني ما أنعموا وأعطوا من المال. ويقال: ارتكبوا على ما خولوا في الدنيا واشتغلوا عما سواها من أمر الآخرة. ويقال واتبع الذين ظلموا. يعني السفلة. ما أترفوا يعني: من أترفوا وهم القادة والرؤساء. وقال الفراء: اتبعوا في دنياهم ما عودوا من النعيم وإيثار الدنيا على الآخرة ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني مشركين قوله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ يعني: لم يكن ربك يعذب أهل قرية بظلم بغير جرم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ يعني موحدين مطيعين. وروي عن إبن عباس أنه قال: ما أهلك الله قوماً إلا بعملهم ولم يهلكهم بالشرك، يعني لم يهلكهم بشركهم وهم مصلحون لا يظلم بعضهم بعضاً.

---

(١) في أ [إلى نفس وباشرتها].

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٣ وعزاه للطيالسي وأحمد والدارمي وابن جرير والطبراني والبغوي في معجمه وابن مردويه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٩٢، والطبراني في الكبير ١٧/١٣٨، ١٣٩ والدولابي في الكنى والأسماء ١/٤٤، والبغوي في شرح السنة ١٤/٣٤٦ وذكره الهيثمي في المجمع ٧/٢٦٧ - ٢٦٨، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٧٦)، وذكره ابن كثير في التفسير ٣/١٥٤، ٥٧٨.

لأن مكافأة الشرك النار لا دونها. وإنما أهلكهم الله بمعاصيهم زيادة على شركهم. مثل قوم صالح بعقر الناقة، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة، وقوم شعيب بنقصان الكيل والوزن وقوم فرعون بإيذائهم موسى عليه السلام وبني إسرائيل. ويقال وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون. أي فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقال الفراء: لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحق فيما بينهم وإن كانوا مجرمين

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول لجمع الناس على أمة الإسلام وأكرمهم بدين الإسلام كلهم. ولكن علم أنهم ليسوا بأهل لذلك ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني عصم ربك من الإختلاف. وقال عطاء ولا يزالون مختلفين يعني اليهود والنصارى والمجوس إلا من رحم ربك الحنيفية ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني الحنيفية خلقهم للرحمة. وقال الحسن[١]: لذلك خلقهم يقول للإختلاف هؤلاء لجنته وهؤلاء لناره. وقال ابن عباس[٢] ولذلك خلقهم يعني: فريقين فريقاً يرحم ولا يختلف وفريقاً لا يرحم ويختلف. ويقال ولذلك خلقهم يعني: للأمر والنهي بدليل قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) يعني للأمر والنهي. وقال الضحاك وللرحمة خلقهم. وقال مقاتل: وللرحمة خلقهم وهو الإسلام. وروى حماد بن سلمة عن الكلبي قال خلقهم أهل الرحمة أن لا يختلفوا. وقال قتادة ولذلك خلقهم للرحمة والعبادة ولا يزالون مختلفين يقول: لا يزال أهل الأديان مختلفين في دين الإسلام. ثم استثنى بعضاً وقال «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» وهم المؤمنون أهل الحق ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: سبق ووجب قول ربك للمختلفين ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا لام القسم فكأنه أقسم أن يملأ جهنم من كفار الجنة والناس أجمعين. قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ يعني ننزل عليك من أخبار الرسل ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يقول ما نشدد به قلبك ونحفظه ونعلم أن الذي فعل بك قد فعل بالأنبياء قبلك ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ قال قتادة[٢]: أي في الدنيا. وقال ابن عباس[٣] يعني في هذه السورة. وروى سعيد بن عامر عن عوف عن أبي رجاء قال خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فقرأ سورة هود وفسرها فلما أتى على هذه الآية «وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ» قال في هذه السورة. وقال سعيد بن جبير وأبو العالية ومجاهد مثله. وهكذا قال مقاتل عن الفراء. ثم قال ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ يعني تأدبة لهذه الأمة ﴿وَذِكْرَى﴾ يعني عظة وعبرة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين بتوحيد الله تعالى.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٧ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٦ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طرق.

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قال الله تعالى ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بتوحيد الله تعالى ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني في منازلكم على إهلاكي ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ في أمركم ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بهلاكي ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ بكم العذاب والهلاك فهذا تهديد لهم. ثم قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني غيب نزول العذاب متى ينزل بكم. ويقال سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ يعني عواقب الأمور كلها (ترجع إليه)[1] يوم القيامة ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ يقول أطعه واستقم على التوحيد ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ يقول فوض إليه جميع أمورك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني الذي يفعل الكفار. قرأ نافع وعاصم[2] في رواية حفص «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ» بضم الياء ونصب الجيم على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون بنصب الياء وكسر الجيم فيكون الفعل للأمر. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص[3] «عَمَّا تَعْمَلُونَ» بالتاء على وجه المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة. وروي عن كعب[4] الأحبار أنه قال: خاتمة التوراة هذه الآية «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» إلى آخر السورة. «والله سبحانه أعلم».

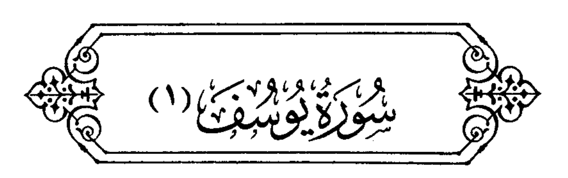
---

(١) سقط في أ.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٥٣.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٧ وعزاه لعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن الضريس في فضائل القرآن وابن جرير وأبي الشيخ.



سورة يوسف (١)

وهي مائة وإحدى عشرة آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى قالوا لأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلوا صاحبكم عن انتقال يعقوب وأولاده من كنعان إلى مصر ومبدأ أمرهم. فنزل «الٓر» يقول أنا الله أرى وأسمع سؤالهم إياك يا محمد عن هذه القصة ويقال معناه أنا الله أرى صنيع إخوة يوسف ومعاملتهم معه. ويقال أنا الله أرى (ما يرى الخلق وما لا يرى)[٢] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني حججه وبراهينه. ويقال هذه الآيات التي وعدتكم في التوراة أن أنزلها على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وعدهم بأن ينزل عليه كتاباً في كثير من أوائل سوره حروف الهجاء ﴿الْمُبِينِ﴾ يعني مبين حلاله وحرامه. ويقال بين فيه خبر يوسف وإخوته. وروى معمر[٣] عن قتادة رضي الله عنه قال: بين الله رشده وهداه. قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ يقول إنا أنزلنا جبريل ليقرأ على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن بلسان العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني لعلكم تفهمون ما فيه. ثم قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وذلك أن المسلمين قالوا لسلمان أخبرنا عن التوراة فإن فيها العجائب. فأنزل الله تعالى «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» في هذا القرآن. ويقال: لا يصح هذا لأن سلمان أسلم بالمدينة وهذه السورة مكية ولكن أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمنوا نزول سورة لا يكون فيها أمر ونهي وأحكام فنزلت هذه السورة. ويقال كانت اليهود تفاخروا بأن لهم قصة يوسف مذكورة في التوراة. فنزلت هذه السورة أفصح من لغة اليهود لذهاب افتخارهم على المسلمين فقال «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» سماه الله في إبتدائه أحسن القصص وفي آخره عبرة فقال «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ». ويقال ينزل عليك جبريل بأحكم الخبر ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يقول بالذي أوحينا إليك. ويقال بوحينا إليك ﴿هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني وقد كنت من قبل أن ينزل عليك القرآن ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن خبر يوسف لم تعلمه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ قرأ إبن عامر «يا ابتَ»[٤] بنصب التاء في جميع القرآن لأن أصله يا أبتاه. وقرأ الباقون بالكسر لأجل الإضافة[٥] ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ

---

(١) انظر التحرير ٢/١٩٧ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) في أ ما ترى الخلائق وما لا ترى.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر النشر ٢/٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٣.

(٥) وقال الزجاج: إن التاء كثرت ولزمت في الأب عوضاً عن ياء الإضافة فلهذا كسرت التاء لأن الكسرة أخت الياء. ومن فتح فله =

﴿عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ يعني رأيت في المنام كأن أحد عشر كوكباً نزل من السماء، والشمس والقمر (نزلا من السماء)[1]، يسجدون لي. وروي عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة[2] قال: الكواكب إخوته. والشمس والقمر أبواه. وقال معمر. قال بعض أهل العلم: أبوه وخالته وفي رواية الكلبي: رؤياه كانت ليلة القدر في ليلة الجمعة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

قال تعالى ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ فلما قصها على أبيه انتهره وزجره. وقال ليوسف في السر: إذا رأيت رؤيا بعد هذا فلا تقصها على إخوتك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ يعني يعملوا بك عملاً ويحتالوا بك حيلة في هلاكك. فإن قيل: قوله «رأيتهم» هذا اللفظ يستعمل في العقلاء. وفي غير العقلاء يقال رأيتها ورأيتهن فكيف قال ههنا رأيتهم؟ قيل له لأنه حكى عنها الفعل الذي يكون من العقلاء وهي السجدة. فذكر باللفظ الذي يوصف به العقلاء ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة. قرأ أبو جعفر القاريء المدني أَحَدَ عْشَرَ بجزم[3] العين. وقراءة العامة أَحَدَ عَشَرَ بالنصب. قال أبو عبيدة هكذا تقرؤها لأنها أعرف اللغتين. والناس عليه. ثم قال ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يقول يصطفيك ويختارك بالنبوة. قال بالحسن والجمال والمحبة في القلوب ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعني من تعبير الرؤيا. ويقال: يعني: هي الكتب المنزلة. ويقال عواقب الأمور. يعني يفهمك حتى تكون عالماً بعواقبها. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ يعني يثبتك على الإسلام. ويقال: بالنبوة والإسلام ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ وأكرمهما بالنبوة وثبتهما على الإسلام. قال الزجاج: وقد فسر له يعقوب الرؤيا. فالتأويل أنه لما قال يوسف: «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً» تأول لأحد عشر نفساً لهم فضل وأنهم يستضاء بهم. لأن الكواكب لا شيء أضوء منها. وتأول الشمس والقمر أبويه. فالقمر الأب والشمس الأم والكواكب إخوته. فتأول ليوسف أنه يكون نبياً وأن إخوته يكونون أنبياء. لأنه أعلمه أن الله تعالى يتم نعمته عليه وعلى إخوته كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق ويقال كما أتمها على أبويك حين رأى

= وجهان: أحدهما أن يكون أراد: (يا أبتا) فأبدل من ياء الإضافة ألفاً ثم حذف الألف كما تحذف الياء وتبقى الفتحة دالة على الألف كما أن الكسرة تدل على الياء والوجه الآخر أنه إنما فتح التاء لأن هذه التاء بدل من ياء المتكلم وأصل ياء المتكلم الفتح فتقول: (يا غلامي) وإنما قلنا ذلك لأن الياء هو إسم والإسم إذا كان على حرف واحد فأصله الحركة فتكون الحركة تقوية للإسم فلما كان أصل هذه الياء الفتحة كان الواجب أن تفتح لأنها بدل من الحرف الذي (هو) أصله ليدل على المبدل.

وقف ابن كثير وابن عامر: (يا أبه) على الهاء. وحجتهما أن التغييرات تكون في حال الوقف دون الإدراج فتقول (رأيت زيداً) فتقف عليه بالألف. ووقف الباقون بالتاء. وحجتهم أن هذه التاء بدل من الياء فكما أن الياء على صورة واحدة في الوصل والوقف فكذلك البدل يجب أن يكون مثل المبدل منه على صورة واحدة. انظر حجة القراءات ٣٥٤.

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤. وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٤٠.

إبراهيم في المنام ذبح إبنه فأمره الله تعالى أن يفديه. وروي عن سعيد بن جبير عن إبن عباس أنه كان يجعل الجد أباً ثم يقرأ هذه الآية «كما أتمها على أبويك» ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعني عليم بما صنع به إخوته. حكيم بما حكم من إتمام النعمة عليه

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ قرأ إبن كثير «آية» بلفظ الوحدان[1]. وهكذا قرأ مجاهد. يعني فيه علامة لنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقرأ الباقون «آيات» بلفظ الجماعة. وهذا موافق لمصحف الإمام عثمان. حكى أبو عبيدة أنه رأى في مصحف الإمام هكذا. ومعنى الآية أن في خبر يوسف وإخوته عبرة وموعظة لمن سأل عن أمرهم. قال ابن عباس وذلك أن حبراً من أحبار اليهود دخل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم وكان قارئاً للتوراة. فوافق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ سورة يوسف كما أُنزلت في التوراة. فقال له الحبر يا محمد من علمكها؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ ـ علمنيها. فرجع الحبر إلى اليهود فقال لهم أتعلمون والله إن محمداً يقرأ سورة يوسف كما أُنزلت في التوراة؟ فانطلق بنفرٍ منهم حتى جاءوا ودخلوا عليه فجعلوا يستمعون إلى قراءته ويتعجبون. فقالوا يا محمد من علمكها؟ قال الله علمنيها فنزلت: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين». وكان بدء أمرهم أن يعقوب عليه السلام كان مع خاله، وكان لخاله إبنتان إحداهما «لايا» ويقال «لاواه» وهي أكبرهما، والأخرى «راحيل» وهي أصغرهما، فخطب يعقوب إلى خاله بأن يزوجه إحداهما، فقال له خاله هل لك مال؟ قال لا، ولكن أعمل لك، قال صداقها أن ترعى لي سبع سنين، وفي بعض الروايات قال أن تخدمني سبع سنين، فقال يعقوب أخدمك سبع سنين على أن تزوجني راحيل، وهي شرطي، قال ذلك بيني وبينك، فرعى له يعقوب سبع سنين، فلما قضى الأجل زفت إليه الكبرى وهي لايا، قال يعقوب إنك خدعتني وإنما أردت راحيل، فقال له خاله إنا لا ننكح الصغيرة قبل الكبيرة فهلم فاعمل لي سبع سنين أُخرى، أزوجك أختها، وكان الناس يجمعون بين الأختين إلى أن بعث الله موسى عليه السلام، فرعى له سبع سنين فزوجه راحيل فجمع بينهما، وكان خاله حين جهزها دفع إلى كل واحدة منهما أمة تخدمها. فوهبتا الأمتين ليعقوب فولدت لايا أربعة بنين وولدت راحيل اثنين. وولدت كل واحدة من الأمتين ثلاثة بنين. فجملة بنيه اثنا عشر سوى البنات

قال الفقيه أبو الليث سمعت أهل التوراة يقولون إن أسماء أولاد يعقوب مبينة في التوراة. زوبيل وشمعون ويهوذا ولارى فهؤلاء من امرأته لايا، ويوسف وبنيامين من امرأته الأُخرى راحيل، والستة الباقون من الأمتين خورية وبالعربية يساخر، وزبلون وبالعربية زبالون ودون ونفتال وحوذ وبالعربية حاذ وروى بعضهم خاذ بالخاء وأوشر. فأراد يعقوب أن يخرج إلى بيت المقدس ولم يكن له نفقة، وكان ليوسف خال له أصنام من ذهب فقالت لايا ليوسف

---

(١) وحجته قوله: (لقد كان في قصصهم عبرة) ولم يقل عبر كأنه جعل شأنه كله آية كما قال عز وجل ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ فأفرد كل واحد منهما آية انظر حجة القراءات ٣٥٥، النشر ٢/٢٩٣، سراج القارىء ٢٥٤.

إذهب واسرق من أصنامه فلعلنا نستنفق به فذهب يوسف (فأخذها)[١] وكان يوسف أعطف على أبيه وكان أحب أولاده إليه فحسده إخوته مما رأوا من حب أبيه له ورأى يوسف في المنام أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ﴿إِذْ قَالُوا﴾ عند ذلك ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يعني جماعة عشرة، فهو يؤثرهما علينا في المنزلة والحب ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني في خطأ بين في حب يوسف وأخيه حيث قدم الصغيرين في المحبة علينا ونحن جماعة ونفعنا أكثر من نفعهما. وقال مقاتل كان فضل حسن يوسف على الناس في زمانه كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وقال القتبي: العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين. ثم قال بعضهم لبعض ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ بعيداً من أبيكم ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقول ليقبل لكم أبوكم بوجهه ويصف لكم وجهه. ويقال: يصلح حالكم عند أبيكم وتكونوا من بعدِهِ قوماً صالحين. يعني تصلح أحوالكم عند أبيكم بعد ذهاب يوسف. ويقال وتكونوا من بعد هلاكه قوماً تائبين إلى الله تعالى. وقال بعض العلماء هكذا يكون المؤمن يهيء التوبة قبل المعصية.

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني من إخوة يوسف ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله عظيم. وقال الكلبي: كان صاحب هذا القول يهوذا، لم يكن أكبرهم ولكن كان أعقلهم. وقال قتادة والضحاك: صاحب هذا القول روبيل وكان أكبر القوم سناً ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ يعني اطرحوه في أسفل الجب. وقال الزجاج: الغيابة كل ما غاب عنك (أو غيب شيئاً عنك)[٢] قرأ نافع[٣] غيابات بلفظ الجماعة وقرأ الباقون غَيَابَةِ لأن المعنى على موضع واحد. وروي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ غَيْبَةِ ٱلْجُبِّ. وقال الزجاج ٱلْجُبُّ البئر التي ليست بمطوية. سميت جُبًّا لأنها قطعت قطعاً ولم يحدث فيها غير القطع. ثم قال ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ يعني يأخذه بعض من يمر عليه من المسافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يعني إن كنتم لا بد فاعلين من الشر الذي تريدون. وروي عن الحسن ومجاهد أنهما قرآ «تلتقطه» بالتاء ومعناه تلتقطه السيارة وينصرف إلى المعنى. فلما قال لهم ذلك يهوذا أو روبيل أطاعوه بذلك وجاءوا إلى أبيهم و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أن ترسله معنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ يعني لحافظون ويقال محبون مشفقون. قرأ أبو جعفر القاريء المدني[٤] «لَا تَأْمَنْنَا بجزم النون. وقرأ الباقون بإشمام النون إلى الرفع لأن أصلها تأمَنْنَا فادغمت أحداهما في الأُخرى وأقيم التشديد مقامه وبقي رفعه ثم قال: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً﴾ يعني أخوة يوسف قالوا لأبيهم: أرسل يوسف معنا إلى الغنم ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قال مجاهد: يحفظ بعضنا بعضاً ونتحارس وقال قتادة: ننشط ونسعى ونلهو وقال القتبي من قرأ بتسكين العين أي نأكل. يقال رتعت الإبل إذا رعت. ومن قرأ بكسر العين أراد به نتحارس ويرعى بعضنا بعضاً أي يحفظ. قرأ إبن كثير[٥] نَرْتَعِ بالنون وكسر العين ونلعب بالنون.

---

(١) في أ [فأخذوا واحداً منها].
(٢) سقط في أ.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٥٥، والنشر ٢/٢٩٣.
(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٤١.
(٥) انظر النشر ٢/٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٥.

وقرأ[1] نافع يَرْتَعِ بالياء وكسر العين. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ بالياء وجزم العين. وقرأ أبو عمرو وابن عامر «نَرْتَعْ ونَلْعَبْ» بالنون وجزم العين. واتفقوا في جزم الباء. قال أبو عبيدة قلت لأبي عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء؟ قال لم يكونوا يومئذ أنبياء. قال أبو الليث رحمه الله: لم يريدوا به اللعب الذي هو منهى عنه وإنما أرادوا به المطايبة في خروجهم. وفيه دليل أن القوم إذا خرجوا من المصر فلا بأس بالمطايبة والمزاح في غير مأثم ويقال: يرتع ويلعب يعني: يجيء ويذهب حتى يتشجع ويترجل. ويقال: حتى نجمع النفع والسرور ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا يصيبه أذىً ولا مكروه، وإنا مشفقون عليه ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ يعني إن ذهابكم به ليحزنني قرأ نافع «لَيُحْزِنُنِي» بضم الياء وكسر الزاي. وقرأ الباقون بنصب الياء وضم الزاي ومعناهما واحد. ثم قال ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ يعني أخاف أن تضيعوه فيأكله الذئب ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يعني مشغولين في أمركم. قرأ أبو عمرو والكسائي ونافع في رواية ورش[2] الذِّيبُ؟ بغير همز. وقرأ الباقون بالهمز. وهما لغتان. وروي عن بعض الصحابة أنه قال: لا ينبغي أن يلقن الخصم بحجةٍ. لأن إخوة يوسف كانوا لا يعلمون أن الذئب يأكل الناس إلى أن قال ذلك يعقوب. وإنما قال ذلك يعقوب لأنه رأى في المنام أن ذئباً كان يعدوا على يوسف فأنجاه بنفسه

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يعني جماعة عشرة ﴿إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ يعني لعاجزين. فلما قالوا ذلك رضي بخروجه فبعثه معهم وأوصاهم عند خروجه أن يحسنوا إليه ويتعاهدوا أمره ويردوه إذا طلب الرجوع فقبلوا ذلك منه. ويقال إنه أبى أن يرسله معهم حتى أتوا يوسف فقالوا له أطلب من أبيك ليبعثك معنا وطلب يوسف ذلك من أبيه فبعثه معهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ يعني فلما برزوا به إلى البَرِيَّة ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ يقول: واتفقوا أن يلقوه في أسفل الجب. ثم أظهروا له العداوة فجعل أحدهم يضربه فيستغيث فيضربه الآخر فجعل لا يرى منهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه فقال يهوذا أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب. وهي بئر على رأس فرسخين من كنعان. ويقال أربع فراسخ فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلقُ بشفة البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا عليَّ قميصي أتوارى به في الجب. فقالوا ادع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يؤنسوك. فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ورادوا أن يموت. وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة في البئر وقام عليها وجعل يبكي فجاءه جبريل يؤنسه ويطعمه. قال الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ يعني لتخبرنهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ يعني: بصنيعهم هذا بمصر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني لا

(١) في أ [الباقون ونافع].

(٢) انظر حجة القراءات ٣٥٧، وإتحاف فضلاء البشر ٢/١٤٢.

يعرفونك بمصر. ويقال: معناه: وأوحينا إليه. . لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون أن الله تعالى أوحى إليه وهم لا يعرفون. ويقال لما أرادوا أن يلقوه في البئر تعلق بإخوته. فقال لـه جبريل لا تتعلق بهم فإنك تنجو من البئر فألقوه حتى وقع في قعرها فارتفع حجر حتى قام عليه. ثم إنهم أخذوا جدياً من الغنم فذبحوه ثم لطخوا القميص بدمه **﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾** يعني أقبلوا إلى أبيهم عشاء يبكون. فلما سمع أصواتهم يعقوب. فزع وقال يا بني مالكم **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾** يعني نَتَصَيَّدُ. ويقال ننتضل أي يسابق بعضنابعض في الرمى **﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾** فلما قالوا هذا القول بكى يعقوب وصاح بأعلى صوته ثم قال أين قميصه؟ فأخذ القميص وبكى، ثم قال إن هذا الذئب كان بابني رحيماً كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه. وروى سماك عن عامر أنه قال: في قميص يوسف ثلاث آيات. حين قد قميصه من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيراً، وحين جاءوا على قميصه بدم كذب. على أن الذئب لو أكله لخرق قميصه. فقال لهم كذبتم فقالوا له **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾** يعني بمصدق لنا في مقالتنا **﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾** في مقالتنا **﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾** (يعني بدم السخلة ولم يكن دم يوسف. ويقال بدم كذب أي مكذوب به. وقرأ بعضهم بدم كدب بالدال يعني بدم طري فأروه القميص بالدم ليعرف به. وهي قراءة شاذة وقراءة العامة بالذال)[١] **﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾** يقول: زينت واشتهت لكم أنفسكم أمراً فضيعتموه **﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾** يعني على صبر جميل بلا جزع. ويقال معناه لا حيلة لى إلا الصبر. ويقال فصبري صبر جميل وروي عن بعض الصحابة أنه كان يقرأ «فَصَبْراً جَمِيلاً» يعني أصبر صبراً جميلاً. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن قوله «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» قال صبر[٢] لا شكوى فيه ومن بث فلم يصبر. ثم قال **﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾** يقول: أستعين بالله وأطلب العون من الله على ما تقولون وتكذبون من أمر يوسف. قوله تعالى:

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي قافلة يمرون من قبل مدين إلى مصر، فنزلوا بقرب البئر **﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾** أي: طالب مائهم. ويقال أرسل كل قوم ساقيهم ليستقي لهم الماء. فجاء مالك بن ذعر إلى الجب الذي فيه يوسف **﴿فأدلى دلوه﴾** يقول: أرخى وأرسل دلوه في البئر فتعلق يوسف بالدلو فنظر مالك بن ذعر فإذا هوبغلام أحسن ما يكون من الغلمان **﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾** قرأ إبن كثير ونافع وأبو عمرو وإبن عامر[٣] «يَا بُشْرَايَ» بالألف والياء ونصب الياء. وقرأ عاصم «يَا بُشْرَىْ» بنصب الراء وسكون الياء. وقرأ نافع في رواية ورش والألف والياء مع السكون «يَا بُشْرَايْ» وكذلك يقرأ في «مَثْوَايْ» و «مَحْيَايْ» و «عَصَايْ» بسكون بالياء. وقرأ حمزة والكسائي «يَا بُشْرِي» بغير ألف وسكون الياء وكسر الراء. فمن قرأ يا بشرَايَ. يكون بمعنى الإضافة ألى نفسه. ومن قرأ يا بشْرَى يكون على معنى تنبيه المخاطبين. كقوله يا عجبًا. وإنما أراد به اعجبوا. ومن قرأ يا بشرى كأنه اسم رجل

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر امنثور ٤/ ١٠ وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب الصبر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حيان بن أبي جبلة.

(٣) انظر النشر ٢/ ٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٧.

دعاه باسمه بشرى. وقال أبو عبيدة هذه القراءة تقرأ لأنها تجمع المعنيين إن أراد به الإسم أو أراد به البشرى بعينها. وقال السدي تعلق يوسف بالحبل فخرج، فلما رآه صاحب الدلو نادى رجلاً من أصحابه يقال له: البشرى، وقال: يا بشراي هذا غلام. وقال قتادة[١]: وغيره إنه بشر واردهم حين وجد يوسف. ثم قال ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني التُّجار بعضهم من بعض. وقال بعضهم لبعض اكتموه من أصحابكم لكيلا يسئلوكم فيه شركة فإن قالوا لكم ما هذا الغلام؟ قولوا استبضعنا بعض أهل الماء لنبيعه لهم بمصر فذلك قوله: «وأَسَرُّوهْ بِضَاعَةً» يعني أسروه وأعلنوه بضاعة. فرجع إخوته بعد ثلاثة أيام فرأوا يوسف في أيديهم فقالوا هذا غلام أبق منا منذ ثلاثة أيام. فقيل لهم ما بال هذا الغلام لا يشبه العبيد وإنما هو يشبهكم؟ فقالوا إنما ولد في حجرنا (وإنه إبن وليدة أمنا أمرتنا ببيعه. وقالوا ليوسف بلسانهم لئن أنكرت أنك عبد لنا أخذناك ونقتلك. أترى أنا نرجع بك إلى يعقوب أبداً وقد أخبرناه أن الذئب قد أكلك. فقال يا إخوتاه ارجعوا بي إلى أبي ضامن لكم رضاه وأنا لا أذكر لكم هذا أبداً فأبوا عليه فذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعني بما يصنع به إخوته. قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ بثمن يعني باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ يعني ظلماً وحراماً لم يحل بيعه. ويقال بدراهم رديئة. ويقال البخس الخسيس ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي يسير عددها. وقال مجاهد: البخس القليل. والمعدودة عشرين درهماً. وقال كان في ذلك الزمان ما كان فوق الأوقية وزنوه وزناً، وما كان دون الأوقية عدوه عداً. وقال بعضهم باعوه بعشرة دراهم. لأن إسم الدرهم يقع على ما بين الثلاثة إلى العشرة فأصاب كل واحد منهم درهماً. وروي عن الضحاك أنه قال: باعوه بإثني عشر درهماً. وقال إبن مسعود: بيع بعشرين درهماً. وقال عكرمة[٢]: البخس أربعون درهماً وقال بعضهم: لم يبعه إخوته ولكن الذين وردوا الماء وجدوه في البئر وأخرجوه من البئر فباعوه بثمن بخس دراهم معدودة وهو قول المعتزلة (لأن مذهبهم أن الأنبياء معصومون عن الكبيرة قبل النبوة لأن الكبيرة عندهم تخرج المؤمن عن الإيمان وعند أهل السنة الكبيرة لا تخرج المؤمن عن الإيمان وجاز جريان المعصية قبل النبوة)[٣]وقال عامة المفسرين إن إخوته باعوه (وروي عن ابن عباس[٤] أن إخوته باعوه)[٥] بعشرين درهماً وكتب يهوذا شراءه على رجل منهم. ثم قال ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ يعني الذين اشتروه لم يعلموا بحاله وقصته ويقال: يعني: إخوة يوسف. في ثمنه لم يكونوا محتاجين إليه. ثم إن مالك بن ذعر لما أدخله مصر باعه. قال مقاتل: باعه بعشرين ديناراً ونعلين وحلة. وقال الكلبي: بعشرين درهماً ونعلين وحلة. وقال بعضهم باعه بوزنه فضة. وقال بعضهم باعه بوزنه ذهباً. وقال وهب بن منبه باعه مالك بن ذعر بعد ما عرضه في بيع «من يزيد» ثلاثة أيام فزاد الناس بعضهم على بعض حتى بلغ ثمنه بحيث لا يقدر أحد عليه فاشتراه عزيز مصر. وكان خازن الملك وصاحب جنوده، لإمرأته زليخا بوزنه مرة مسكاً ومرة لؤلؤاً ومرة ذهباً ومرة فضة ومرة حللاً وسلم إليه كلها.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره الهيثمي في الدر المنثو ٤/١١ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) سقط في ظ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٥) سقط في ظ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامرأَتِهِ**﴾ (قال ابن عباس كان اسمه قطيفر وهو العزيز) قال لامرأته واسمها زليخا ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**﴾ يعني منزله وولايته ﴿**عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا**﴾ في ضياعنا وغلاتنا على وجه التبرك به ﴿**أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً**﴾ يقول نتبناه فيكون ابناً لنا. وروى ابن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود[1] قال: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا». وبنت شعيب التي قالت «يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ». وأبو بكر حين تفرس في عمر وولاه من بعده. قال الله تعالى ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ**﴾ يعني في أرض مصر وهي (أربعين فرسخاً في أربعين فرسخاً)[2] ﴿**وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**﴾ يعني كي يلهمه تعبير الرؤيا وغير ذلك من العلوم ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**﴾ إذا أمر بشيء لا يقدر أحد أن يرد أمر الله تعالى إذا أراد بأحد من خلقه. ويقال والله تعالى غالب على أمره يعني وليته فيتم أمر يوسف الذي هو كائن ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ يعني أهل مصر. ويقال يعني أهل مكة لا يعلمون أن الله تعالى غالب على أمره.

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**﴾ يعني تمت قوة نفسه وعقله. ويقال بلغ مبلغ الرجال. ويقال الأشد بلوغ ثلاثين سنة. وقال الضحاك: يعني بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة ويقال الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثمان وثلاثين سنة ﴿**آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً**﴾ أي: أكرمناه بالنبوة والعلم والفهم والفقه فجعلناه حكيماً وعليماً ﴿**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ يعني هكذا نكافىء من أحسن. ويقال هكذا نجزي المخلصين في العمل بالفهم والعلم. قوله تعالى: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ**﴾ يعني: راودته عما أرادت عليه مما تريد النساء من الرجال فعلم بذكره ذكر الفاحشة. ومعناه طلبت إليه أن يمكنها من نفسه. يعني امرأة العزيز واسمها زليخا. ﴿**وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ**﴾ عليها وعلى يوسف وجعلت تغره وتمازحه ويوسف يعظها بالله ويزجرها. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان يوسف إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه وإذا تكلم رأيت شعاع النور في كلامه يذهب من بين يديه. ولا يستطيع آدمي أن ينعت نعته. فقالت له: يا يوسف ما أحسن عينيك؟ قال هما أول شيء يسيلان إلى الأرض من جسدي. ثم قالت يا يوسف ما أحسن ديباج وجهك قال هو للتراب يأكله. ثم قالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتشر من جسدي ﴿**وَقَالَتْ**﴾ يا يوسف ﴿**هَيْتَ لَكَ**﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم[3] «هَيْتَ» بنصب الهاء والتاء يعني أقبل. ويقال هلم إلي والعرب تقول هيت فلان لفلان إذا دعاه وصاح به وهكذا قرأ ابن مسعود وابن عباس والحسن وقرأ ابن عامر في رواية هشام «هِئْتُ» بكسر الهاء والهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك. وقرأ ابن كثير «هَيْتُ» لك بنصب الهاء وضم التاء ومعناه: أنا لك وأنا فداؤك. وقرأ نافع وابن عامر في إحدى الروايتين «هِيتَ» بكسر الهاء ونصب التاء بغير همز. ﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ**﴾ يعني:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ والحاكم وصححه.

(٢) في أ [وهي أربعون فرسخاً].

(٣) انظر النشر ٢/٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٧، سراج القارىء ٢٥٦.

قال يوسف أعـوذ بالله أن أعصيه وأخـونه ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ يعني إن سيدي الذي اشتـراني أحسن إكرامي فلم أكن لأفعل بامرأته ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني لا ينجو الزناة من عذاب الله تعالى. وفي هذه الآية دليل أن معرفة الإحسان واجب. لأن يوسف امتنع عنها لأجل شيئين لأجل المعصية والظلم ولأجل إحسان الزوج إليه.
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ روى حماد بن سلمـة عن الكلبي أنه قال: كان من همها أنها دعته إلى نفسها واضجعت. وهَمَّ بها بالموعظة والتخويف من الله تعالى وقيل: أنه حل سراويله وجلس بين رجليها[1] ﴿لَوْلَا أَنْ رَآى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يقول مثل له يعقوب في الحائط عاضاً على شفتيه فاستحيى فتنحى بنفسه، وقال وهب بن منبه لم تزل تخدعه حتى هم بها ودخل معها في فراشها، فنودي من السماء مهلا يا يوسف فإنك لو وقعت في الخطيئة محي اسمك عن ديوان النبوة. وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه سئل عن قوله «لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» ما بلغ من همه قال أطلق هيمانه. فنودي يا يوسف لا تكن كالطائر له ريش فزنا فسقط ريشه، ويقال كان همها هم إرادة وشهوة وهمه هم اضطرار وغلبة. وقال بعضهم كان همه حديث النفس والفكر، وحديث النفس والفكر مرفوعان. وقال بعضهم هم بها يعني يضربها وقال بعضهم يعني هم بالفرار عنها وقال بعضهم: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» تم الكلام. ثم «وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» يعني لما رأى البرهان لم يهم بها. فقد قيل هذه الأقاويل والله أعلم. وقد روي في الخبر أنه ليس من نبي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة غير يحيى بن زكريا ولكنهم كانوا معصومين من الفواحش قوله تعالى: (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: مثل له يعقوب فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقال محمد بن كعب لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ قال لولا أن قرأ القرآن من تحريم الزنا وذلك أنه استقبل بكتاب الله تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) قال الله تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

---

(١) وهذا من التقول على نبي الله يوسف عليه السلام بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية ولوائح الكذب على مثل هذا ظاهر قال أبو حيان في البحر المحيط والذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: لقد قاربت لولا أن عصمك الله. ولا تقول: • إن جواب (لولا) متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها. وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد. بل نقول: إن جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم. ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل وكذلك هنا التقدير: [لولا أن رأى برهان ربه لهم بها] فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم، ولا التفات إلى قول الزجاج ولو كان الكلام: ولهم بها كان بعيداً فكيف مع سقوط اللام؟ لأنه يوهم أن قوله: ﴿هم بها﴾ هو جواب (لولا) ونحن لم نقل بذلك وإنما هو دليل الجواب وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة لجواز أن يأتي جواب (لولا) إذا كان بصيغة الماضي باللام. وبغير لام تقول: لولا زيد لأكرمتك ولولا زيد أكرمتك فمن ذهب إلى أن قوله: **وهم بها**﴾ نفس الجواب لم يبعد ولا التفات لقول (ابن عطية وإن قول) من قال: إن الكلام قد تم في قوله ﴿**ولقد همت به**﴾ وإن جواب (لولا) في قوله: (وهم بها) وإن المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهم به فلم يهم يوسف عليه السلام. قال: وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف أ هـ. أما قوله: يرده لسان العرب فليس كما ذكر وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب قال الله تعالى: ﴿**إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين**﴾ فقوله: إن كادت لتبدي به: إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به. وأما أقوال السلف: فنعتقد أنه لا يصح على أحد منهم شيء من ذلك لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا مع كونها فادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب لأنهم قدروا جواب (لولا) محذوفاً ولا يدل عليه دليل لأنهم لم يقدروا لهم بها ولا يدل كـلام العرب إلاّ على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط لأن ما قبل الشرط دليل عليه. انظر أضواء البيان ٣/ ٦١ ـ ٦٢.

﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ يقول: هكذا صرفت السوء والفحشاء عن يوسف بالبرهان حين استعاذ إليّ[١] بقوله معاذ الله ثم قال ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بالتوحيد والطاعة. قرأ إبن كثير وأبو عمرو وإبن عامر[٢] «الْمُخْلِصِينَ» بكسر اللام ومعناه ما ذكرناه. وقرأ الباقون «الْمُخْلَصِينَ» بالنصب يعني المعصومين من الذنوب والفواحش. ويقال أخلصه الله تعالى بالنبوة والرسالة والإسلام

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ يعني تبادرا إلى الباب يعني يوسف وزليخا. أما يوسف فاستبق ليخرج من الباب، وأما زليخا فاستبقت لتغلق الباب على يوسف فأدركته قبل أن يخرج فتعلقت به قبل أن يخرج من الباب ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ يعني مزقت قميصه من خلفه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ يعني صادفا ووجدا سيدها ﴿لَدَى البابِ﴾ يعني زوجها عند الباب. ﴿قَالَتْ﴾ زليخا لزوجها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً﴾ يعني قالت لزوجها ما جزاء يعني ما عقاب من أراد بأهلك سوءا. يعني قصد بها الزنا ﴿إلاَّ أَنْ يُسْجَنَ﴾ يعني: يحبس في السجن ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني يضرب ضرباً وجيعاً. وذلك أن الزوج قال لهما ما شأنكما؟ قالت له زليخا كنت نائمة في الفراش عريانة فجاء هذا الغلام العبراني وكشف ثيابي وراودني عن نفسي فدفعته عن نفسي فانشق قميصه ﴿قَالَ﴾ يوسف بل ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَّفْسِي﴾ يعني دعتني إلى نفسها (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) قال مجاهد: قميصه شاهد أنه قَدْ قُدَّ من دبر، فظهر أن الذنب لها بتلك العلامة وروي عن[٣] ابن عباس أنه قال: كان صبي في المهد لم يتكلم بعد فتكلم وقال «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» الآية وقال قتادة[٤]: كان رجلاً حكيماً من أهلها. ويقال كان رجلاً من خواص الملك. وروي عن عكرمة أنه قيل له أنه صبي، قال لا، ولكنه رجل حكيم. وقال الحسن: كان رجلاً له رأي فقال برأيه. وروى أبو صالح عن إبن عباس أنه قال: كان زوجها على الباب مع إبن عم لها يقال له ممليخا وكان رجلاً حكيماً فقال قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب ولا ندري أيكما قدام صاحبه؟ إن كان قد شق القميص من قدامه فأنت صادقة فيما قلت. وإن كان مشقوقاً من خلفه فهو صادق. فنظروا إلى قميصه فإذا هو مشقوق من خلفه فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ يعني زليخا ﴿وَهُوَ﴾ يعني يوسف ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (وإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ يعني زليخا ﴿وَهُوَ﴾ يعني يوسف ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك أن

---

(١) في أ [بي].

(٢) انظر النشر ٢/٢٩٥، سراج القارىء ٢٥٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٥ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

الرجل لا يأتيها إلا مقبلاً. ﴿فَلَمَّا رَآى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ يعني مقدوداً من دبر ﴿قَالَ﴾ إبن العم ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ يعني صنيعكن. ويقال قال الزوج ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يعني صنيعكن عظيم يخلص إلى البريء والسقيم والصالح والطالح. وفي هذه الآية دليل أن القضاء بشهادة الحال جائز. وقال بعض الحكماء سمى الله كيد الشيطان ضعيفاً وسمى كيد النساء عظيماً، لأن كيد الشيطان بالوسوسة والخيال. وكيد النساء بالمواجهة والعيان. ثم أقبل على يوسف فقال ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعني يا يوسف أعرض عن هذا القول ولا تذكره واكتم هذا الحديث. ثم أقبل عليها فقال ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يعني توبي وارجعي عن ذنبك. ويقال ابن عمها هو الذي قال لها واستغفري لذنبك يعني: اعتذري إلى زوجك من ذنبك ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ يعني من المذنبين. وفشا ذلك الخبر في مصر وتحدثت النساء فيما بينهن.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال الكلبي: (هو)[1] أربع نسوة، امرأة ساقيه، يعني ساقي الملك وامرأة الخباز وامرأة صاحب السجن وامرأة صاحب الدواب ويقال هن خمس خامستهن امرأة صاحب الملك. ويقال أربعون امرأة ويقال جماعة كثيرة من النساء اجتمعت في موضع وقلن فيما بينهن ﴿امرأةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَّفْسِهِ﴾ يعني تطلب عبدها وتدعوه إلى نفسها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال الحسن[2] أي شق شغاف قلبها حبه. وقال عامر الشعبي الشغوف المحب والمشغوف المحبوب. وقال القتبي: قد شغفها حباً أي بلغ الحب شغافها وهو غلاف القلب. قال ومن قرأ قد شعفها أي فتنها من قولك فلان شعوف بفلانة. ويقال شعف الشيء إذا علاه. قد شعفها أي علاها. ويقال أهلكها فلا تعقل غيره «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» يعني في خطأ بين ويقال في عشق بين أي لا تعقل غيره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ يعني سمعت زليخا بمقالتهن. وإنما سمي قولهن مكراً. والله أعلم لأن قولهن لم يكن على وجه النصيحة والنهي عن المنكر، ولكن كان على وجه الشماتة والتعيير ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ فدعتهن ﴿وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مُتكأً﴾ أي اتخذت لهن وسائد يتكين عليها. وذلك أنها اتخذت ضيافة ودعت النساء ووضعت الوسائد لجلوسهن. وقال الفراء من قرأ مُتَّكاً غير مهموز[3] فإنه الأُترج وكذلك قال ابن

---

(١) في أ [هن].

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) قرأ أبو جعفر (متكاً) بتنوين الكاف وحذف الهمزة بوزن (متقي) خفف بترك الهمزة كقولهم (توضَّيْتُ في توضأت) وعن المطوعي =

عباس. روى منصور عن مجاهد أنه قال من قرأ مثقلة قال يعني الطعام ومن قرأ مخففة قال الأُترج ويقال الزُّمَّاوَرْد[١] (وهو نوع من التمر)[٢] وقال عكرمة[٣]: كل شيء يقطع بالسكين ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ يعني أعطت زليخا كل واحدة من النسوة سكيناً وأمرت يوسف بأن يلبس أحسن ثيابه وزينته أحسن الزينة ﴿وَقَالَتْ﴾ له ﴿أَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ يعني اخرج على النساء فخرج عليهن روى أبو الأحوص عن ابن مسعود[٤] قال: أوتي يوسف وأمه ثلث حسن الناس في الوجه والبياض وغير ذلك. وكانت المرأة إذا رأت يوسف غطى وجهه مخافة أن تفتن به. فلما خرج يوسف إلى النسوة غطى (نفسه)[٥] فنظرن إليه. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ يقول أعظمنه أي أعظمن شأنه وتحيرن وبقين مدهوشات طائرة عقولهن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يقول حززن وخدشن أيديهن بالسكين ولم يشعرن بذلك ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ يعني معاذ الله. ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ قرأ بعضهم بالرفع[٦]وقرأ بعضهم ما هذا ببشر يعني: مثل هذا لا يكون بشراً وقراءة العامة ما هذا بشراً بنصب الراء والتنوين لأنه خبر «ما» ولأنه صار نصباً لنزع الخافض. ومعناه ما هذا بشراً يعني: مثل هذا لا يكون آدمياً ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يعني على ربه. فإن قيل إنهن لم يرين الملك فكيف شبهنه بشيء لم يرينه؟ قيل له لأن المعروف عند الناس أنهم إذا وصفوا أحداً بالقبح يقولون هذا يشبه الملك وهذا يشبه الجن كما إنهم إذا وصفوا أحداً بالقبح يقولون هو كالشيطان وإن لم يروا الشيطان قرأ أبو عمرو[٧]«حَاشَا لِلَّهِ» بالألف. وقرأ الباقون بغير ألف. وكذلك الذي بعده ﴿قَالَتْ﴾ زليخا للنسوة ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يقول عذلتنني فيه وعبتنني فيه فهل عذرتنني؟ فقلن لها: أنت معذورة. قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع بنفسه مني ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ يعني احبسنه في السجن ﴿وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني من المهانين بالسجن ويقال مذللين. وقرأ بعضهم[٨] «ليكونَنَّ» بتشديد النون وهذا خلاف مصحف الإمام. وقراءة العامة وليكوناً لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف بالألف. ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يقول: يا سيدي ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي﴾ النسوة ﴿إِلَيْهِ﴾ من العمل القبيح. قرأ بعضهم «قَالَ رَبِّ السَّجْنُ» بنصب السين على معنى المصدر. يقال سجنته سَجْناً وهي قراءة شاذة وقراءة العامة بالكسر. يعني نزول بيت السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، يعني به امرأة العزيز خاصة. ويقال أراد به النسوة اللاتي حضرن هناك. لأنهن قلن له أطع مولاتك ولا تخالفها فإن لها عليك حقاً وقد اشترتك بمالها وهي تحسن إليك وتحبك وتطلب هواك. فقال رب السجن أحب إليَّ. وقال بعض الحكماء لو أنه قال رب العافية أَحَبُّ إليّ لعافاه الله تعالى. ولكن لما نجا بدينه لم يبال بما أصابه في الله. ثم قال: ﴿وإلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ يعني إن لم تصرف عني عملهن وشرهن ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أمل إليهن ﴿وَأَكُنْ مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني من المذنبين

= (متكأ بسكون التاء وبالهمزة على وزن (مفعلاً) مأخوذ من تكىء يتكأ بمعنى اتكأ قال ابن جني: وأما متكأ ساكنة بالتاء فقالوا هو اترج انظر المحتسب لابن جني ١/٣٤٠.

(١) الزماورد بالضم: طعام من البيض واللحم ترتيب القاموس ٤/٥٩٧.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧ وعزاه لابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني.

(٥) في أ [وجهه].

(٦) انظر تفسير القرطبي ٩/١٢٠ ـ ١٢١.

(٧) انظر تفسير القرطبي ٩/١٢١.

(٨) النشر ٢/٢٩٥، حجة القراءات ٣٥٩.

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾** فيما دعاه[1] **﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾** يعني فعلهن وشرهن **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** يسمع لمن دعاه يعني: السميع للدعاء فيما دعاه يوسف. العليم به. ثم إن المرأة قالت لزوجها إن هذا الغلام العبراني لا ينقطع عني وقد فضحني في الناس يعتذر إليهم ويخبرهم أنني راودته عن نفسه ولست أطيق أن أعتذر بعذري. فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس وأخبرهم بحالي وإما أن تحبسه حتى ينقطع حديثه فذلك قوله تعالى: **﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾** يعني ثم بدا للزوج من بعد ما رأى شق القميص وقضاء إبن عمها بينهما **﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾** قال الكلبي: سجنه خمس سنين. ويقال حتى حين. يعني إلى يوم من الأيام وإلى وقت من الأوقات. قوله تعالى: **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾** يعني حبس معه في السجن الخباز والساقي، عبدان للملك غضب عليهما. يعني صاحب شرابه وصاحب مطعمه **﴿قَالَ أَحَدُهُما﴾** ليوسف **﴿إِنِّي أَرَانِي﴾** في المنام **﴿أَعْصِرُ خَمْراً﴾** يعني عنباً بلغة عمان. قال الضحاك إن ناساً من العرب يسمون العنب خمراً. ويقال معناه أعصر العنب الذي يكون عصيره خمراً. وذلك أنه قال رأيت في المنام كأني دخلت كرماً فيه حبلة حسنة فيها ثلاث من القضبان وفي القضبان ثلاثة عناقيد عنب قد أينع وبلغ. فأخذته وعصرته في الكأس ثم أتيت به الملك فسقيته. **﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً﴾** يقول رأيت في المنام كأني أحمل فوق رأسي ثلاث سلال خبزاً **﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾** يقول: أخبرنا بتفسير هذه الرؤيا **﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** أي من الموحدين وذلك أنه ينصر المظلوم ويعين الضعيف وكان يداوي مرضاهم ويعزي مكروبهم. فإذا احتاج واحد منهم قام وجمع له شيئاً. ويقال إنا نراك من المحسنين. يعني من الصادقين في القول. ويقال كان متعبداً لربه. ويقال كان أهل السجن يجتمعون عنده ويسألونه أشياء فيخبرهم. فقالا إنا نراك من المحسنين. يعني نراك عالماً وقد أحسنت العلم **﴿قَالَ﴾** لهما يوسف عليه السلام **﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾** يعني تطعمانه **﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾** يقول أخبرتكما بتفسيره وألوانه **﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا﴾** الطعام. وإنما أراد بذلك أن يبين لهما علامة نبوته. وهذا مثل قول عيسى عليه السلام لقومه (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) فلما أخبر يوسف بذلك. قالا وكيف تعلم ولست بساحر ولا عراف ولا كاهن قال يوسف **﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾** أراد أن يبين لهما علامة نبوته لكي يسلما. ثم قال **﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾** يعني تبرأت من **﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾** يعني دين قوم **﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾** أي لا يصدقون بوحدانيته **﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾** يعني بالبعث جاحدون. ثم

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ

(١) في أ [دعاه يوسف].

ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

قال تعالى ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني: دينهم ﴿مَاكَانَ لَنَا﴾ أي ما جاز لنا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الآلهة ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (يعني ويقال ذلك الإرسال الذي أرسل إليه بالنبوة من فضل الله):[1] ﴿عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني أهل مصر ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ النعمة. ثم دعاهما إلى الإسلام فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ يعني الخباز والساقي ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ أي الآلهة وعبادتها ﴿خَيْرٌ أَمِ﴾ عبادة ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الآلهة ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني: لا عذر ولا حجة لعبادتكم إياها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما القضاء في الدنيا والآخرة إلا لله ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يعني أمر (في الكتاب) أن لا تطيعوا في التوحيد إلا إياه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يعني التوحيد، الدين المستقيم وهو دين الإسلام الذي لا عوج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: أهل مصر ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن دين الله هو الإسلام. ثم أخبرهما بتأويل الرؤيا بعد ما نصحهما ودعاهما إلى الإسلام وأخذ عليهما الحجة فقال ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ وهو الساقي. قال له يوسف تكون في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج، فتكون على عملك وتسقي سيدك خمراً. قراءة العامة[2] «فَيَسْقِي» بنصب الياء. يقال سَقَيْتُهُ إذا ناولته. وقرأ بعضهم «فَيُسْقِي» من أسقيته إذا جعلت له ساقياً. يعني تتخذ الشراب الذي يسقى الملك ثم بين تأويل رؤيا الآخر فقال ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ﴾ يعني يخرج من السجن بعد ثلاثة أيام ويصلب ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فلما أخبرهما يوسف بتأويل الرؤيا قالا ما رأينا شيئاً فقال لهما يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿قُضِيَ الأمر الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يعني تسألان. رأيتماها أو لم ترياها. قلتما لي وقلت لكما. فكذلك يكون. وروى إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه قال إنهما كانا تحالما ليجرباه. فلما أول رؤياهما قالا إنما كنا نلعب. قال يوسف قضي الأمر الذي فيه تستفتيان

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ

---

(١) سقط في أ.

(٢) وقرأ الجمهور فيسقى ربه من سقى، وفرقة فيسقى ومن أسقى وهما لغتان بمعنى واحد. وقرىء في السبعة نسقيكم ونسقيكم. وقال صاحب اللوامع سقى وأسقى بمعنى واحد في اللغة والمعروف. أن سقاه ناوله ليشرب وأسقاه جعل له سقياً، ونسب ضم الفاء لعكرمة والجحدري ومعنى ربه سيده. وقال ابن عطية وقرأ عكرمة والجحدري فيسقى ربه خمراً بضم الياء وفتح القاف: أي ما يرويه. وقال الزمخشري وقرأ عكرمة فيسقى ربه فيسقى ما يروي به على البناء للمفعول. انظر البحر المحيط ٣١١/٥.

وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ يعني: قال يوسف ـ عليه السلام ـ للذي علم أنه ينجو من السجن والقتل وهو الساقي ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قال يوسف للساقي إذا دعاك الملك وسقيته فاذكرني عنده إني مظلوم قد عدا علي إخوتي فباعوني ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ يعني: أنسى (الشيطان يوسف أن يستغيث بالله فاستغاث بالملك. وقال الفراء: أنسى)[1] الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى «فأَنْسَاهُ الشَّيطَانُ»: قال هو يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه وأمره بذكر الملك وابتغى الفرج من عنده ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ بقوله اذكرني عند ربك. وروى معمر عن قتادة[2] أنه قال بلغني أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لو لم يستعن يوسف على ربه لما لبث في السجن طول ما لبث. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العقد. يعني من واحد إلى أربعة. وقال الأصمعي ما بين الثلاث إلى التسع. (هكذا قال قطرب والسدي. وروى منصور عن مجاهد قال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع)[3]. وذكر عبد العزيز بن عمير الكندي أن يوسف رأى جبريل في السجن فقال له: يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر الطاهرين رب العزة يُقْرِئُكَ السلام ويقول أما استحيت مني إذ استغثت بالآدميين فبعزتي لألبثنك في السجن بضع سنين. قال بعضهم يعني سبع سنين سوى الخمس الذي مكث فيه وذلك اثنتا عشرة سنة. وقال بعضهم جميع ما أقام فيه سبع سنين وقال بعضهم ثماني عشرة سنة. وقال بعضهم إن الملك رأى في المنام. واسم الملك ريان بن الوليد فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَى﴾ يعني رأيت في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ خرجن من نهر مصر ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ بقرات ﴿عِجَافٌ﴾ هزلى فابتلع العجاف السمان فدخلن في بطونهن فلم ير منهن شيء ورأيت ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلأُ﴾ يعني العرافين والسحرة والكهنة ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ يعني عبروا رؤياي وبينوا تفسيرها ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي تفسرون ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ يعني أباطيل الأحلام مختلطة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ يعني: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل. وقال أهل اللغة : كل رؤيا لا تأويل لها فهي أضغاث أحلام. أي أباطيل الأحلام. واحدها ضغث

وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ

(١) سقط في ظ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.
(٣) سقط في ظ.
(٤) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣١٢/١.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ وهو الساقي ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ يعني تذكر بعد حين. يعني بعد سبع سنين. وقال الزجاج أصل ادكر اذكر. ولكن التاء أبدلت بالدال وأدغم الذال في الدال. وقال القتبي: الأمة الصنف من الناس والجماعة كقوله تعالى (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) ثم تستعمل الأمة في الأشياء المختلفة. يقال للإمام أمة كقوله «إن إبراهيم كان أمة» لأنه سبب للاجتماع ويسمى الدين أمة كقوله (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) أي على دين. لأن القوم بجتمعون على دين واحد فيقام ذلك اللفظ مقامه. ويسمى الحين أمة كقوله «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ». وكقوله (إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) وإنما سمى الحين أمة أيضاً لأن الأمة من الناس ينقرضون في حين. فيقام الأمة مقام الحين. وقرأ بعضهم: (وادَّكَرَ بعد أَمَةٍ) يعني بَعْدَ بعُدِ نسيانٍ يقال (أَمِهْتُ أي نسيت)[1] وقال الفراء: يقال رجل مأموه كأنه ليس معه عقل. فلما تذكر الساقي حال يوسف جاء وجثا بين يدي الملك وقال ل﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ يعني بتأويل ما رأيت من الرؤيا. وروى عن الحسن أنه كان يقرأ أنا آتيكم بتأويله. وقراءة العامة أُنَبِّؤُكُمْ بتأويله فقال وما يدريك يا غلام ولست بمعبر ولا كاهن؟ فقصَّ عليه أمره الذي كان وقت كونه في السجن برؤيته الرؤيا وتعبير يوسف لها وصدق تعبيره على نحو ما وصفه له وأخبره بحال «يوسف» وحكمته وعلمه وفهمه ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ يعني أرسلوني أيها الملك إلى يوسف. خاطبه بلفظ الجماعة كما يخاطب الملوك. فأرسله الملك. فلما جاء إلى يوسف في السجن ودخل عليه واعتذر إليه بما أنساه الشيطان ذكر ربه وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ والصديق كثير الصدق. يعني أيها الصادق فيما عبرت لنا ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عجاف﴾ هزلى ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ يعني إلى أهل مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَدْرك ومنزلتك، ويقال إلى الناس. يعني إلى الملك لكي يعلم مكانك فيكون ذلك سبباً لخلاصك إذا علم تعبير رؤياه. فعبر يوسف رؤياه وهو في السجن فقال: أما السبع البقرات السمان فهي سبع سنين خصب. أما السبع العجاف فهي سبع سنين شدة وقحط ولا يكون في أرض مصر البر وأما السبع السنبلات الخضر فهي الخصب واليابسات هي القحط. ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[2] يعني ازرعوا لسبع سنين دأباً يعني دائماً ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من الزرع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ يعني في كعبره فهو أبقى لكم لكي لا يأكله السوس إذا كانت في الكعبرة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: تدرسون بقدر ما تحتاجون إليه فتأكلون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الخصب ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني مجدبات[3] ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يعني للسنين. ويقال ما قدمتم: يعني ما جمعتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يعني تدخرون وتحرزون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القحط ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعني يمطر الناس. والغيث المطر. ويقال هو من الإغاثة يعني يغاثون بسعة الرزق ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني ينجون من الشدة. ويقال يعصرون العنب والزيتون. قرأ حمزة والكسائي[4] «تَعْصِرُونَ» بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة يعني الناس وقرأ بعضهم «يُعْصَرُونَ» بضم الياء ونصب الصاد يعني

---

(١) سقط في ظ.

(٢) قرأ حفص (سبع سنين دأَباً بفتح الهمزة وقرأ الباقون ساكنة الهمزة وهما لغتان مثل النهر والنهر والظعن والظعن) وكل إسم كحان ثانية حرفاً من حروف الحلق جاز حركته وإسكانه انظر حجة القراءات ٣٥٩، وانظر النشر ٢/ ٢٩٥.

(٣) في أ [سبع سنين قحط].

(٤) انظر النشر ٣/ ٢٩٥، حجة القراءات ٣٥٩.

يمطرون من قوله تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ) فرجع الساقي إلى الملك وأخبره بذلك ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ قال بعضهم كان الملك رأى الرؤيا ونسيها فأتاه يوسف فأخبره بما رأى وأخبره بتفسيره. ولكن في ظاهر الآية أن الملك كان ذاكراً لرؤياه وأن يوسف عبر رؤياه وهو في السجن قبل أن ينتهي إلى الملك. وقال الملك ائتوني به يعني بيوسف ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ برسالة الملك: إنَّ الملك يدعوك ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني إلى سيدك وهو الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ التي قطعن أَيْدِيَهُنَّ﴾ يعني سله حتى يتبين أني مظلوم في حبسي أو ظالم ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يعني إن سيدي وخالقي عالم بما كان منهن. قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا إبراهيم الدبيلي (قال حدثنا أبو عبيد الله عن سفيان عن عمر بن دينار عن عكرمة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ)[1] لولا الكلمة التي قال يوسف «لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» ما لبث في السجن طول ما لبث، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له. لو كنت أنا لم أخبرهم حتى يخرجوني. ولقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله لو كنت أنا الذي دعيت إلى الخروج لبادرتهم إلى الباب ولكن أحب أن يكون له العذر بقوله فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ التي قطعن أَيْدِيَهُنَّ. قال ابن عباس: لو خرج يوسف حين دعي لم يزل في قلب الملك منه شيء فلذلك قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ؛وذلك أن الملك أرسل إلى النسوة وجمعهن(ثم سألهنّ فقال ما خطبكن)[2] يعني ما حالكن وشأنكن وأمركن ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني طلبت امرأة العزيز إلى يوسف المراودة عن نفسه هل ليوسف في ذلك ذنب. فأخبرن الملك ببراءة يوسف ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ يعني معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ يعني ما رأينا منه شيئاً من الفاحشة، ولم يكن له ذنب. فلما رأت امرأة العزيز أن النسوة شهدن عليها، اعترفت على نفسها وأقرت بذلك. فذلك قوله تعالى ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ يعني ظهر الحق ووضح ويقال استبان. قال زجاج هو في اللغة من الحصة. أي بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل ومن جهته ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: إنه لم يراودني، وهو صادق فيما قال ذلك اليوم. قال يوسف عند ذلك إنما فَعَلَتْ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ لم أخن في امرأته إذا غاب عني فذلك قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ يعني لا يرضى عمل الزانين. وروى إسماعيل بن سالم عن أبي صالح قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال هو يوسف لم يخن العزيز في امرأته. وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما[3] أنه قال: لما قال يوسف «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ط/٢٣ وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الشعب.

أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ» قال له جبريل عند ذلك ولا يوم هممت بما هممت به قال يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي﴾ يعني من الهم الذي هممت به ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ﴾ يعني بالمعصية. ويقال القلب آمر للجسد بالسوء والإثم. يقال في اللغة إذا أمرت النفس بشيء هي آمرة وإذا أكثرت الأمر يقال هي أمارة فقال إن النفس لأمارة بالسوء يعني مائلة إلى الشهوات ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا من عصم الله تعالى من المعصية ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ للهم الذي هممت به ﴿رَحِيمٌ﴾ حين تاب عليّ وعصمني وغفر لي

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ يعني أجعله في خاصة نفسي. فلما خرج يوسف من السجن ودع أهل السجن ودعا لهم. وقال اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم ولا تستر الأخبار عنهم، فمن ثمة تقع الأخبار عند أهل السجن قبل أن تقع عند عامة الناس. ولما دخل يوسف على الملك وكان الملك يتكلم سبعين لساناً فأجابه يوسف بذلك كله. ثم تكلم يوسف بالعبرانية فلم يحسنها الملك. فقال ما هذا اللسان يا يوسف؟ قال هذا لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ ثم كلمه بالعربية فلم يحسنها الملك. فقال ما هذا اللسان؟ فقال لسان عمي إسماعيل ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي قال له الملك، مكين في المنزلة أمين على ما وكلتك. ﴿قَالَ﴾ له يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني على خراج مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للتدبير. ويقال حفيظ بما وكلت به ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع الألسن ويقال عليم بأخذها ووضعها مواضعها. وإنما سأل ذلك صلاحاً للخلق لأنه علم أنه ليس أحد يقوم بإصلاح ذلك الأمر مثله. ويقال حفيظ. يعني عليماً بساعة الجوع. وكان الملك يأكل في كل يوم نصف النهار، فلما كانت الليلة التى قضى الله بالقحط أمر يوسف بأن يتخذ طعام الملك بالليل. فلما أصبح الملك قال الجوع الجوع فأتى بطعام مهيء. قال وما يدريكم بذلك؟ قالوا أمرنا بذلك يوسف. ففوض الملك أموره كلها إلى يوسف وهو قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يعني صنعنا ليوسف ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مصر ﴿يَتَبَوَّءُ مِنْهَا﴾ يعني ينزل منها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قرأ إبن كثير[1] (حَيْثُ نَشَاءُ) بالنون يعني حيث يشاء الله. وقرأ الباقون بالياء حيث يشاء يوسف. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ تختص بنعمتنا، النبوة والإسلام والنجاة من نشاء ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: لا نبطل ثواب الموحدين حتى نوفيه جزاءه في الدنيا ومع ذلك له ثواب في الآخرة فذلك قوله تعالى ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ يعني ثواب الآخرة أفضل مما أعطي في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك. وروي في

(١) انظر النشر ٢ / ٢٩٥ حجة القراءات ٣٦٠.

الخبر أن زوج زليخا مات وبقيت امرأته زليخا فجلست يوماً على الطريق فمر عليها يوسف في حشمه. فقالت زليخا الحمد لله الذي جعل العبد ملكاً بطاعته وجعل الملك مملوكاً بشهوته وتزوجها يوسف فوجدها عذراء وأخبرت أن زوجها كان عنيناً لم يصل إليها. ثم وقع القحط بالناس. حتى أكلوا جميع ما في أيديهم واحتاجوا إلى ما عند يوسف وقد كان يوسف جمع في وقت الخصب مقدار ما يكفي السنين المجدبة للأكل والبيع فجعل الناس يعطونه أموالهم، العروض والرقيق والعقار وغير ذلك ويأخذون منه الطعام. ووقع القحط بأرض كنعان، حتى أصاب آل يعقوب الحاجة إلى الطعام. فقال يعقوب لبنيه إنهم يزعمون أن بمصر ملكاً يبيع الطعام فخرج بنو يعقوب وهم عشرة نحو مصر حتى أتوا يوسف فدخلوا عليه وعليه زي الملك فلم يعرفوه وعرفهم يوسف وكلموه بالعبرانية فأرسل يوسف إلى الترجمان وهو يعلم لسانهم ولكنه أراد أن يشتبه عليهم فذلك قوله تعالى ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يعني عرف يوسف أنهم إخوته ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ يعني: لم يعرفوا أنه يوسف، لأنهم رأوه في حال الصغر، وكان يوسف على زي الملوك بخلاف ما كانوا رأوه في الصغر. روى أسباط عن السدي وغيره قال: استعمله الملك على مصر وكان صاحب أمره الذي يلي البيع والتجارة. فبعث يعقوب بنيه إلى مصر فلما دخلوا على يوسف عرفهم. فلما نظر إليهم قال: أخبروني ما أمركم فإني أنكر شأنكم. قالوا نحن قوم من أرض الشام قال فما جاءكم قالوا جئنا نمتار طعاماً قال كأنكم عيون. كم أنتم؟ قالوا عشرة قال أنتم عشرة آلاف كل رجل منكم أمير ألف. فأخبروني خبركم قالوا إنا إخوة بنو رجل صديق وإنا كنا اثني عشر فكان أبونا يحب أخاً لنا وهو هلك في الغنم ووجدنا قميصه ملطخاً بالدم فأتينا به أبانا فكان أحبنا إلى أبينا منا قال فإلى من سكن منكم أبوكم بعده؟ قالوا إلى أخ له أصغر منه. قال فكيف تخبروني أنه صديق وهو يختار الصغير منكم دون الكبير وكيف تخبروني أنه هلك وبقي قميصه، فلو كان اللصوص قتلوه لأخذوا قميصه. ولو كان الذئب أكله لمزق قميصه. فأرى كلامكم متناقضاً. احبسوهم. ثم قال إن كنتم صادقين في مقالتكم فخلفوا عندي بعضكم واتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» قالوا اختر أينا شئت فارتهن شمعون ثم أمر بوفاء كيلهم. فذلك قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني كال لهم كيلهم وأعطى كل واحد منهم حمل بعير ثم ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِ الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يعني: أفضل من يضيف ويكرم الذي نزل به ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي بالأخ ﴿فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ فيما تستقبلون ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ يعني ولا تستقبلوا إلى مرة أُخرى فإني لا أعطي لكم الطعام. قال الزجاج القراءة بالكسر. يعين بكسر النون وهو الوجه ويجوز ولا تقربونَ بفتح النون. لأنها نون الجماعة كما قال: (فِيمَ تُبَشِّرُونَ) بفتح النون. قال: ويكون ولا تقربون لفظه لفظ الخبر ومعناه النهي.

قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ يعني: سنطلب من أبيه أن يبعثه معنا ﴿وإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ يعني: لصانعون

(ذلك فنطلبه من أبيه ليبعثه)[١] ويقال وإنا لضامنون ذلك ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٢] «لفتيانه» بالألف والنون وقرأ الباقون «لِفِتْيَتِهِ». فقال أهل اللغة: الفتيان والفتية بمعنى واحد. وهم الغلمان والخدم يعني: قال يوسف لغلمانه وقومه الذين يكيلون يعني: الطعام ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ يعني: دسوا دراهمهم في رحالهم يعني: في جواليقهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ يعني: يعرفون كرامتي عليهم ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ يعني: إذا رجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الثانية. قال الفراء؛ فيها قولان: أحدهما: أن يوسف خاف ألا يكون عند أبيهم دراهم فجعل البضاعة في رحالهم لعلهم يرجعون ولا يتأخرون عن الرجوع بسبب الدراهم والقول الآخر أنهم إذا عرفوا بضاعتهم وقد اكتالوا الطعام ردوها عليه ولا يستحلون إمساكها لأنهم أنبياء الله تعالى لا يستحلون إمساك مال الغير ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ فيما نستقبل يعني الحنطة وأخبروه بالقصة قالوا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ يعني يشتري هو ويكيلون لنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من الضيعة حتى نرده إليك قرأ حمزة والكسائي[٣] «يَكْتَلْ» بالياء وقرأ الباقون بالنون فمن قرأ بالياء يعني هو يكتال لنفسه لأنهم كانوا لا يبيعون من كل رجل إلا وقرا واحداً. ومن قرأ بالنون فمعناه أن الملك قد أخبر أنه لا كيل لنا في المستقبل فلو أرسلته معنا فإنا نكتال منه. فلما أخبروه بذلك ﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: هل أئتمنكم عليه ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ومعناه: هكذا قلتم لي في أمر يوسف ولا أقدر أن آخذ عليكم من العهد أكثر ما أخذت عليكم في يوسف من قبل. قرأ إبن مسعود هل تحفظونه إلا كما حفظتم أخاه يوسف من قبل. ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ منكم إن أرسله معكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ حين أطعته. ولا بد أن أرسله. قرأ حمزة والكسائي[٤] وعاصم في رواية حفص «حَافِظاً» بالألف. وقرأ الباقون «حِفْظاً» بغير ألف. والحافظ الإسم والحفظ المصدر.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ يعني أوعيتهم وجواليقهم ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ يعني دراهمهم ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا﴾ لأبيهم ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ يعني ما نكذب. إنه ألطف علينا وأكرمنا ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا﴾ أي دراهمنا﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ يعني نمتار لأهلنا يقال: مار أهله وأمار لأهله إذا حمل إليهم قوتهم من غير بلده. يعني ابعثه معنا لكي نحمل الطعام لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من الضيعة ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي حمل بغير من أجله. روى الأعمش

---

(١) سقط في أ.
(٢) انظر النشر ٢/٢٩٥ حجة القراءات ٣٦١.
(٣) انظر المصدرين السابقين.
(٤) انظر ٢/٢٩٥، ـ ٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٢.

عن إبراهيم عن علقمة أنه كان يقرأ رِدَّتْ إلينا بكسر الراء. لأن أصله رددت فأدغمت إحدى الدالين بالأخرى ونقل الكسر إلى الراء . وهي قراءة شاذة . ثم قال ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ يعني سريع لا حبس فيه إن أرسلته معنا ـ ويقال ذلك أمر هين الذي نسأل منك . ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: تعطوني عهداً وثيقاً من الله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال الكلبي: إلا أن ينزل بكم أمر من السماء أو من الأرض. وروى معمر عن قتادة أنه قال: إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك. وقال مجاهد: (إلا أن يحاط بكم) يعني: تهلكوا جميعاً. وقال الفراء إلا أن يأتيكم من أمر الله تعالى ما يعذركم ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ يعني أعطوه عهودهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يعني كفيلاً. ويقال: شهيداً. ثم ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ قال يعقوب لبنيه حين أرادوا الخروج يا بني لا تدخلوا من باب واحد يعني: إذا دخلتم مصر فلا تدخلوا من سكة واحدة ومن طريق واحد ويقال من درب واحد ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ يعني من سكك متفرقة ومن طرق شتى لكي لا يظن بكم أحد أنكم جواسيس. ويقال(١) خاف يعقوب عليهم العين لجمالهم وقوتهم وهم كلهم بنو رجل واحد. فإن قيل أليس هذا بمنزلة الطيرة (وقد نهى عن الطيرة)(٢). قيل له لا. ولكن أمر العين حق وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يرقي من العين ويتعوذ منها للحسن والحسين ثم قال ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني من قضاء الله ﴿مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ﴾ يعني ما القضاء ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ إن شاء أصابكم العين وإن شاء لم يصبكم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني فوضت أمري وأمركم إليه ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعني فليثق الواثقون. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ من السكك المتفرقة ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني حذرهم لا يغني من قضاء الله من شيء. يعني إن العين لو قدرت أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ يعني: حزازة في قلبه وهي الحزن ﴿قَضَاهَا﴾ يعني أبداها وتكلم بها. ويقال: معناه: لكن لحاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ يعني: علم يعقوب أنه لا يصيبهم إلا ما أراد الله تعالى وقدر عليهم وعلن أن دخولهم في سكك متفرقة لا ينفعهم من قضاء الله تعالى من شيء. ويقال: معناه: إنه عالم بما علمناه. ويقال لذو علم لما علمناه. أي لتعليمنا إياه. ويقال لذو حظ لما علمناه. ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا يصيبهم إلا ما قدر الله تعالى عليهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد كذا في الدر ٤/٢٦.

(٢) سقط في أ.

كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يعني: إخوته ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ يعني ضم إليه أخاه بنيامين ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال بعضهم: أخبره في السر أنه أخوه. وقال بعضهم لم يخبره ولكن معناها إني لك كأخيك الهالك. فأنزلهم يوسف منزلاً وأجرى عليهم الطعام والشراب. فلما كان الليل أتاهم بالفرش. وقال لينام كل أخوين منكم على فراش واحد ففعلوا، وبقي الغلام وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي فبات معه يوسف يشم ريحه. ويقال لما كان عند الطعام أمر كل اثنين ليأكلا في قصعة واحدة وبقي بنيامين وحده فبكى، وقال لو كان أخي في الأحياء لأكلت معه فقال له يوسف إني أنا أخوك. يعني بمنزلة أخيك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول لا تحزن بما يعيرون يوسف وأخاه بشيء. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني: كال لهم كيلهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ يعني: وضع ودس الإناء ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين. فخرجوا وحملوا الطعام وذهبوا فخرج يوسف على أثرهم حتى أدركهم ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ يعني: نادى منادٍ بينهم. واسم المنادي أفرايم من فتيان يوسف قال: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إناء الملك. فانقطعت ظهورهم وساء ظنهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ يعني: وأقبلوا إليهم ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ يعني ماذا تطلبون ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال المنادي والغلمان: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال قتادة[1]: إناء الملك الذي يشرب فيه. وقال عكرمة[2]: هو إناء من فضة. وقال سعيد بن جبير[3]: هو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه. وكانت الأعاجم تشرب فيه. وروى سعيد بن حبير عن ابن عباس[4] أنه قال: كان إناء من فضة مثل المكوك وكان للعباس واحد منها في الجاهلية. وروي عن أبي هريرة[5] أنه قرأ صاع الملك. يعني الصاع الذي يكال به الحنطة. وقرأ بعضهم صَوْعَ الملك وقرأ يحيى بن عمرو صَوْغَ الملك بالغين. يعني إناء مصوغاً[6]. وقراءة العامة صُوَاعَ الْمَلِكِ. يعني الإناء وهي المشربة من فضة وكان الشرب في إناء الفضة مباحاً في الشريعة الأولى. وأما في شريعتنا فالشراب في إناء الفضة حرام. ثم قال ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ يعني: قال المنادي من جاء بالصوع فله حمل بعير من بر ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يعني: أنا كفيل بتسليمها إليه. لأن الملك يتهمني

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر ٤/٢٧ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري وأبي الشيخ وابن منده في غرائب شعبة وابن مردويه والضياء.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧ وعزاه لسعيد بن منصور وابن الأنباري.

(٦) قال صاحب البحر ٥/٣٣٠ وقرأ الجمهور صُوَاع بضم الصاد بعدها واو مفتوحة بعدها ألف بعدها عين مهملة. وقرأ أبو حيوة والحسن وابن جبير فيما نقل ابن عطية كذلك إلَّا أنه كسر الصاد. وقرأ أبو هريرة ومجاهد صاع بغير واو وعلى وزن فَعْل فالألف فيها بدل من الواو المفتوحة. وقرأ أبو رجاء صَوْع على وزن قوس. وقرأ عبد الله بن عون ابن أبي أرطبان صُوع بضم الصاد، وكلها لغات في الصاع. وقرأ الحسن وابن جبير فيما نقل عنهما صاحب اللوامع صُوَاغ بالغين المعجمة على وزن غراب. وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلَّا أنه يحذف الألف ويسكن الواو.

وقرأ زيد بن علي صوغ مصدر صاغ وصواغ وصوغ مشتقان من الصوغ مصدر صاغ يصوغ أقيما مقام المفعول بمعنى مصوغ الملك. انظر بحر المحيط ٥/٣٣٠.

في ذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ يعني: قال إخوة يوسف والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: ما جئنا لنعمل بالمعاصي في أرض مصر ونخون أحداً ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾. وكان الحكم في أرض مصر للسارق الضرب والتضمين. وكان الحكم بأرض كنعان أنهم يأخذون السارق ويسترقونه ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم. ﴿قَالُوا﴾ يعني: المؤذن وأصحابه لأولاد يعقوب ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ يعني فما جزاء السارق ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ يعني إخوة يوسف ﴿جَزَاؤُهُ﴾ يعني: عقابه ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ يعني في وعائه ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ يعني الاستعباد جزاء سرقته ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني: هكذا نعاقب السارق في سنة آل يعقوب ﴿فَبَدَأَ﴾ يعني المنادي ،ويقال: يوسف ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ يعني: أوعية إخوته وطلب في أوعيتهم ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[1] فلم يجد فيها. وروى معمر عن قتادة أنه قال: كلما فتح متاع رجل استغفر الله تائباً ما صنع حتى بقي متاع الغلام. فقال ما أظن هذا أخذ شيئاً. قالوا بلى فاستبرأه، فطلب فوجد فيه فاستخرجها من وعاء أخيه. فلما استخرجت من رحله انقطعت ظهور القوم وتحيروا. وقالوا يا بنيامين لا يزال لنا منكم بلاء. ما لقينا من ابني راحيل. فقال بنيامين بل ما لقي ابنا راحيل منكم. فأما يوسف فقد فعلتم به ما فعلتم. وأما أنا فسرقتموني. قالوا فمن جعل الإناء في متاعك قال الذي جعل الدراهم في متاعكم فسكتوا فذلك قوله ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني: كذلك صنعنا ليوسف. والكيد الحيلة. يعني كذلك احتلنا له وألهمناه الحيلة. ثم قال ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يعني: في قضاء ملك مصر. لأنه لم يكن في قضائه أن يستعبد الرجل في سرقته ثم قال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: وقد شاء الله أن يأخذه بقضاء أبيه. ويقال ما كان يقدر أن يأخذ في ولاية الملك بغير حكم إلا بمشيئة الله تعالى. ويقال: إلا أن يشاء الله ذلك ليوسف ثم قال ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني: من نشاء بالفضائل. وقرأ أهل الكوفة[2] «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ» بتنوين التاء. وقرأ الباقون دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ بغير تنوين. على معنى الإضافة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يعني ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى. وروى وكيع عن أبي معشر عن محمد[3] بن كعب أن رجلاً سأل علياً عن مسألة فقال فيها قولاً. فقال الرجل ليس هو كذا ولكنه كذا. فقال عليّ أصبتَ وأخطأتُ «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ». وروي عن سعيد[4] بن جبير أن ابن عباس حدث بحديث. فقال رجل عنده الحمد لله. «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» فقال ابن عباس: إن الله هو العالم وهو فوق كل عالم.

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا

---

(١) في أ [فطلبه في أوعيتهم قبل وعاء أخيه].

(٢) انظر النشر ٢/٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨ وعزاه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات.

أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ يعني: قال إخوة يوسف إن يسرق بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ يعني فأضمر الكلمة يوسف ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ أي: في قلبه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ يعني: لم يعلن لهم جواباً ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: صنيعاً من يوسف. لأن يوسف سرق الوثن وأنتم تسرقون الصواع وذلك أن يوسف كان سرق صنماً من ذهب من خاله لاوى. وقال قتادة[1]ذكر لنا أنه سرق صنماً كان لجده أب أمه فعيروه بذلك. فقال أنتم شر مكاناً. لأن سرقتكم قد ظهرت وسرقة أخيه لم تظهر إلا بقولكم ولا ندري أنتم صادقون في مقالتكم أم لا. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعني بما تقولون. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات حين هَمَّ فسجن. وحين قال «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» وحين قال «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» فردوا عليه وقالوا فقد سرق أخ له من قبل قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً﴾ يعني: ضعيفاً حزيناً على ابن له مفقود ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ رهناً ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إن فعلت ذلك إلينا فقد أحسنت إلينا الإحسان كله. ويقال إنا نراك من المحسنين. يعني: من أتاك من الآفاق. فأحسن إلينا ف﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يعني أعوذ بالله ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ رهناً ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ لو أخذنا غيره. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ يعني: من بنيامين أن يرد عليهم (ويقال: أيسوا من الملك أن يقضي حاجتهم ﴿خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ يعني اعتزلوا يتناجون بينهم ليس معهم غيرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ يعني كبيرهم في العقل وهو يهوذا ولم يكن أكبرهم في السن وهذا في رواية الكلبي ومقاتل. وقال مجاهد[2]: كبيرهم أي أعلمهم وهو شمعون وكان رئيسهم. وقال قتادة[3]: كبيرهم في السن روبيل وهو الذي أشار إليهم ألا يقتلوه ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: عهداً من الله في هذا الغلام (لَتَأْتُنَّنِي بِهِ) أي لتردنه إليَّ ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ يعني: ما تركتم وضيعتم العهد في أمر يوسف من قبل هذا الغلام ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ يعني فلن أزال في أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي رَبِّي﴾ أي حتى يبعث إليَّ أحداً أن آتيه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ فيرد علي أخي بنيامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: أعدل العادلين وأقضى القاضين. وروى أسباط عن السدي أنه قال: كان بنو يعقوب إذا غضبوا لن يطاقوا. فغضب روبيل فقال أيها الملك والله لتتركنا[4] أو لأصيحن «صيحة» لا تبقى امرأة حامل إلا ألقت ما في «بطنها» وقامت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه. وقال ابن عباس كان يهوذا إذا غضب وصاح لم تسمع صوته امرأة حامل إلا وضعت حملها. وتقوم كل شعرة في جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فيسكن. فقال يوسف لابن له صغير اذهب وضع يدك عليه، فذهب ووضع يده عليه فسكن غضبه. فقال: إن في هذا الدار أحداً من آل يعقوب ثم قال لإخوته ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾ يعني: قال يهوذا: ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ﴾ أي سرق

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٨/٤ وعزاه لابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٩/٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٩/٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) في (أ) أتترك أخانا.

الصواع يعني: إناء الملك. وروي عن ابن عباس[١] أنه كان يقرأ «سُرِّقَ» بضم السين وكسر الراء مع التشديد. يعني اتهم بالسرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي وما قلنا إلا ما رأينا حين أخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ يعني وما كنا نرى أنه سرق. ولو علمنا ما ذهبنا به. ويقال إنا لم نطلع على أنه سرق ولكنهم سرقوه.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعني: أهل القرية. قال الكلبي: وهي قرية من قرى مصر. ويقال هي مصر بعينها. ويقال هو المنزل المؤذن فيه إنكم لسارقون. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ يعني: سل أهل العير الذين كانوا معنا من أرض كنعان ﴿وإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا. فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول فاتهمهم. فقال كلما خرجتم من عندي نقصتم واحداً. ذهبتم مرة فنقصتم يوسف وذهبتم مرة فنقصتم شمعون وذهبتم الآن ونقصتم بنيامين فقد صرتم كالذئاب يأكل بعضكم بعضاً. ثم قال تعالى ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ قال يعقوب: اشتهت وزينت لكم قلوبكم ﴿أَمْراً﴾ فصنعتموه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يعني: عليّ صبر جميل حسن من غير جزع لا أشكو فيه إلى أحد ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يعني لعل الله أن يرد علي يوسف ويهوذا وبنيامين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمكانتهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ أن يردهم عليّ قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يعني: أعرض عن بينه وخرج عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسفى عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني يا حزنا والأسف أشد الحسرة ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ يعني من البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني مغموماً مكروباً، يتردد الحزن في جوفه. والكظيم والكاظم بمعنى واحد. مثل القدير والقادر. وهو المتمسك على حزنه لا يظهره ولا يشكوه. وروي عن الحسن[٢] أنه قال مكث يعقوب ثمانين سنة ما تجف دموعه ولا يفارق قلبه الحزن يوماً وما كان على الأرض يومئذ أحد أكرم على الله منه. قال وألقي يوسف في الجب وهو يومئذ إبن سبع سنين وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعدما جمع الله شمله ثلاثاً وعشرين سنة. وروي عن ابن عباس أنه قال غاب يوسف عنه اثنين وعشرين سنة. وقال سعيد بن جبير[٣] ما أعطيت أمة من الأمم «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» غير هذه الأمة. ولو كان أوتيها أحد قبلكم لأوتيها يعقوب حين قال يا أسفى على يوسف. وروي عن إبراهيم بن ميسرة أنه قال: لو أن الله أدخلني الجنة لعاتبت يوسف بما فعل بأبيه حيث لم يكتب إليه ولم يعلمه حاله ليسكن ما به من الغم.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟

(١) انظر الدر المنثور ٤/ ٢٩

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٠ وعزاه لعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ يعني: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي دنفاً من الوجع. ويقال حتى تبلى وتهرم. وقال القتبي «لا» تحذف من الكلام ويراد إثباتها لقوله: تفتؤ أي: لا تزال كقوله تفتأ وكقوله (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) أي أن لا تحبط. (وقال الربيع بن أنس)[١] حتى تكون بالياً يابس الجلد. وقال محمد بن إسحاق حتى تكون حرضاً يعني لا عقل لك. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ﴾ يعني: من الميتين. وقال مجاهد[٢] الحرض ما دون الموت. والهالك الميت ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ يعني همي وغمي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لما رأى من فظاظتهم وسوء لفظهم، ولا أشكو ذلك إليكم. وقال القتبي: البث أشد الحزن. إنما سمي الحزن البث لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه. أي يفشوه ثم قال ﴿وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن يوسف حي وليس بميت. وإنما كان يعلم ذلك من تحقيق رؤيا يوسف حين رأى في المنام أحد عشر كوكباً. أن ذلك سيكون. ويقال إن يعقوب رأى ملك الموت في المنام وسأله: هل قبضت روح قرة عيني يوسف؟ قال لا، ولكن هو في الدنيا حي فلذلك قال «وأعلم من الله ما لاتعلمون» ثم قال تعالى ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ يعني: انطلقوا إلى مصر فاطلبوا خبر يوسف ﴿وَأَخِيهِ﴾ قالوا له أما بنيامين فلا نترك الجهد في أمره. وأما يوسف فإنه ميت وإنا لا نطلب الأموات. فقال لهم يعقوب ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَّوحِ اللَّهِ﴾ يعني لا تقنطوا من رحمة الله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني الجاحدون للنعمة. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ يعني: رجعوا إلى يوسف ودخلوا عليه ﴿قَالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعني: أصابنا وأهلنا الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبَضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ قال الحسن: يعني قليلة. ويقال نفاية. وكان لا يؤخذ في الطعام. ويؤخذ في غيره. لأن الطعام كان عزيزاً فلا يؤخذ فيه إلا الجيد. وعن عبد الله بن الحارث[٣] في قوله وجئنا ببضاعة مزجاة قال: متاع الأعراب الصوف والسمن[٤] ونحو ذلك. وعن ابن عباس[٥] قال: يعني: جئنا بدراهم رديئة وقال سعيد بن جبير: بدراهم زيوف ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ يعني: أتمم لنا الكيل ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ (يعني: تفضل علينا باستيفائه منا مكان الجيد وتصدق علينا)[٦] ما بين الثمنين يعني: ما بين الجيد والرديء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يعني: يثيبهم في الآخرة بما صنعوا. وقال ابن عباس: لو علموا أنه مسلم لقالوا إن الله يجزيك بالصدقة. يعني: إنه كان يلبس عليهم فلا يعرفون حاله ومذهبه. فأخرج يوسف

---

(١) سقط في (أ).

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٤/ ٣٠ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) في أ [واللبن].

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٦) سقط في ظ.

الكتاب الذي كان كتبه يهوذا حين باعوا يوسف ودفعه إليهم فعرف يهوذا خطه. وقالوا: نحن بعنا هذا الغلام إذا كنا نرعى الغنم. فقال لهم ظلمتم وبعتم الحر. فدعا يوسف السيافين وأمر بإخوته بأن يقتلوا جميعاً فاستغاثوا كلهم وصرخوا وقالوا إن لم ترحمنا فارحم الشيخ الضعيف فإنه قد جزع على ولد واحد فكيف وقد أهلكت أولاده كلهم.

﴿قَالَ﴾ لهم يوسف ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعني: شابون مذنبون ووصف لهم ما فعلوا به.

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير[1] إِنَّكَ لَأَنْتَ بهمزة واحدة وكسر الألف. يعني حققوا إنه يوسف. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر أَإِنَّكَ بهمزتين على معنى الإستفهام يعني إنك يوسف أم لا؟ وقرأ نافع وأبو عمرو آينك بهمزة واحدة مع المد ومعناه مثل الأول على معنى الإستفهام ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني أنعم علينا بالصبر ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي يتق الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾[2] على البلاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ثواب الصابرين. قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني: إخوة يوسف اعتذروا إليه وقالوا لقد فضلك الله علينا واختارك ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ يقول وقد كنا لعاصين لله فيما صنعنا بك. ﴿قَالَ﴾ يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم الْيَوْمَ﴾. يعني: لا تعيير عليكم اليوم ولا عيب ولا عار عليكم. وأصل التثريب الإفساد. ويقال أثربت الأمر علينا إذا أفسدت ثم قال ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ من غيره ثم قال تعالى ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وروي عن وهب بن منبه قال: كان القميص من الجنة وهو القميص الذي ألبس جبريل إبراهيم حين ألقي في النار فبردت عليه النار فصار عند إسحاق ثم صار عند يعقوب فجعله يعقوب في عوذة وعلقه في عنق يوسف فكان معه حين ألقي في الجب ونزع عنه القميص فبشره جبريل وألبسه في الجب. وكان

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٦٣ النشر ٢٩٦

(٢) قرأ ابن كثير: (إنه من يتقي ويصبر) بإثبات الياء. وحجته: أن من العرب من يجري المعتل مجرى الصحيح فيقول: (زيد لم يقضي) ويقدر في الياء الحركة فيحذفها منها فتبقى الياء ساكنة للجزم قال الشاعر:

أَلَمْ يَـأْتِيـكَ والأَنْـبَـاءُ تَـنْـمِـى بـمـا لاَقَـتْ لَـبُـونُ بـنـي زِيـادِ

ولم يقل (ألم يأتك) وقال آخر:

هُزِّي إليك الجذع يَجْنِيك الجَنَى.

وكان ينبغي أن يقول: (يجنك الجنى) لأنه جواب الجزاء ويقوي هذا قراءة حمزة في قوله: (فلا تخف دركاً ولا تخشى) ولم يقل (تخش) قال الفراء: (تخشى) في موضع جزم لأن من العرب من يفعل ذلك قال: وإن شئت استأنفت: (ولا تخشى). وقال نحويو البصرة: يجوز أن يجعل (من يتقي) بمنزلة (الذي يتقي) كما تقول (الذي يأتيني) وتحمل المعطوف على المعنى لأن (من) إذا كانت بمنزلة الذي فكأنما هو بمنزلة الجزاء الجازم بدلالة أن كل واحد يصلح دخول الفاء في جوابه فتقول (الذي يأتيني فله درهم) (كما تقول: (من يأتيني فله درهم)). انظر حجة القراءات ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

القميص معه وقال لإخوته اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾[١] وذلك أنه سألهم فقال: ما فعل أبي بعدي. قالوا لما فارقه بنيامين عمي من الحزن. قال اذهبوا بقميصي هذا (فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً كما كان أول مرة)[٢] . ثم قال ﴿وَائْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فاختلفوا فيما بينهم فقال كل واحد منهم أنا أذهب به. فقال يوسف يذهب به الذي ذهب بقميصي الأول. فقال يهوذا أنا ذهبت بالقميص الأول وهو ملطخ بالدم وأخبرته بأنه قد أكله الذئب وأنا اليوم أذهب «بالقميص» فأخبره أنه حي وأفرحه كما أحزنته. وأمر لهم بالهدايا والدواب والرواحل فتوجهوا نحو كنعان.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ يعني خرجت العير من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال ابن عباس: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت بريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال. فقال يعقوب إني لأشم ريح يوسف ﴿لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ يقول لولا أن تعيروني وتجهلوني. يقال فنده الهرم إذا خلط في كلامه ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ يعني ولد ولده قالوا ليعقوب إنك مختلط في الكلام كما كنت في القديم من ذكر يوسف.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يعني جاء يهوذا بالبشارة ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ يعني دفع القميص إليه ووضعه على وجهه ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ يعني رجع بصيراً كما كان ﴿قَالَ﴾ يعقوب لولد ولده ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. ويقال قال لولده ألم أقل لكم حين قلت لكم «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» أن يوسف في الأحياء ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فاعتذروا إليه فيما فعلوا به وطلبوا منه أن يستغفر لهم واعترفوا[٣] بذنبهم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يعني: عند السحر استغفر لكم. ويقال: معناه سوف أستغفر لكم إن شاء الله على وجه التقديم في قوله «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ». فأخر الاستغفار إلى أن قدموا مصر فاستغفر لهم ليلة الجمعة عند السحر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ورجع وندم على ما فعل فخرجوا كلهم بأثقالهم وأهاليهم ومواشيهم وكانوا اثنين وسبعين رأساً. وروى أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود[٤] أنه قال: كان أهل بيت يعقوب حين دخلوا مصر ثلاثة وسبعين إنساناً رجالهم ونساؤهم. فخرجوا مع موسى عليه السلام وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً (فلما دنوا) من مصر خرج يوسف بجماعته وحاشيته حتى أدخلهم مصر.

---

(١) في أ [يعني يعود بصيراً كما كان أول مرة].

(٢) سقط في أ.

(٣) في أ [واعترفوا أنهم كانوا خاطئين].

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ﴾ أي ضم إليه ﴿أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قال أبو عبيدة هذا من كلام يعقوب، حيث قال سوف أستغفر لكم إن شاء الله، وكذلك قال ابن جريج. ويقال: هذا من كلام يوسف. قال لهم حين دخلوا مصر انزلوا بأرض مصر، ويقال: إنما قال لهم قبل أن يدخلوها: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من الجوع. ويقال «آمنين» من الخوف لأنها أرض الجبابرة قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني على السرير أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله. قال مقاتل: يعني أباه وخالته. وكانت أمه راحيل قد ماتت وخالته تحت يعقوب. وعن وهب بن[1] منبه قال أبوه وخالته وعن سفيان الثوري مثله. وهو قول ابن عباس وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: الخالة أم ويقال إن أمه راحيل قد ماتت في ولادة بنيامين ولذلك سمي بنيامين واليامين وجع الولادة بلسانهم ثم قال ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ على وجه التقديم يعني وخروا له سجداً ورفع أبويه على العرش وكانت تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف فسجد له إخوته وأبوه وخالته ﴿وَقَالَ﴾ يعني يوسف عند ذلك ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني هذا السجود تحقيق رؤياي من قبله ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ يعني جعل رؤياي صدقاً ويقال: كائناً. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان بين رؤياه وبين ذلك اثنان وعشرون سنة. وروى أبو عثمان النهدي عن سلمان[2] أنه قال كان بين رؤياه وبين أن رأى تأويلها أربعون سنة. وعن عبد الله[3] بن شداد أنه قال: وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة وإليه ينتهي الرؤيا. وقال السدي: كان بينهما تسع وثلاثون سنة. وقال حين رأى رؤياه كان يوسف ابن تسع سنين فظهر تأويلها وهو ابن أربعين سنة. ثم قال ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يعني: جاء بكم معافين سالمين من البادية. يعني: أرض كنعان و﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني من بعد أن أفسد وألقى الشيطان ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ من الفرقة والجماعة. ويقال: لطيف في فعاله إن شاء فرق وإن شاء جمع ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما صنعوا ﴿الْحَكِيمُ﴾ إذ رد عليّ أبي وجمع بيني وبين إخوتي.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله إن الله تعالى مدح يوسف في هذه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٧ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٨ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في العقوبات وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم والبيهقي في الشعب.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وأبي الشيخ والبيهقي.

السورة في ثمانية مواضع أولها إن أخوته لما فعلوا به ما فعلوا صرف العداوة من إخوته إلى الشيطان فقال «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشيطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إخْوَتِي» والثاني حين راودته المرأة قال «إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» فعرف حرمة سيده ولم يهتك حرمته الثالث «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» فاختار السجن على الشهوة الحرام. والرابع قال« وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إنَّ ٱلنَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ» بعد ما ظهر أن الذنب كان من غيره. والخامس لما اعتذر إليه إخوته قال لهم «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُم ٱلْيَوْمَ» والسادس أنه بعث القميص على يد إخوته. كما أدخلوا على أبيهم الحزن في الابتداء أراد أن يدخلوا عليه السرور فقال «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا» والسابع لما لقي أباه لم يذكر عنده ما لقي من الشدة وإنما ذكر المحاسن حيث قال «يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ البَدْوِ» والثامن لما تم أمره تمنى الموت وترك الدنيا. قال «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ» أي أعطيتني من الملك يعني: بعض الملك وهو ملك مصر **﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾** يعني: بعض التأويل. ويقال من ههنا لإبانة الجنس لا للتبعيض ومعناه رب قد آتيتني من الملك وعلمتني تأويل الأحاديث يعني: تعبير الرؤيا **﴿فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾** يعني خالق السموات والأرض **﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾** يعني أمتني مخلصاً بتوحيدك **﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾** يعني بآبائي المرسلين. ويقال عاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة وعاش يوسف بعده ثلاثاً وعشرين سنة ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة ويقال ابن مائة وعشر سنين وأوصى يعقوب بأن يدفن عند آبائه. فحمل إلى الأرض المقدسة فدفن مع أخيه يحصوص بن إسحاق فلما مات يوسف أرادوا أن يحملوه إلى الأرض المقدسة فلم يتركهم أهل مصر واختلفوا في دفنه وأراد أهل كل محلة أن يدفن في مقابرهم وكاد أن يقع بينهم قتال حتى اصطلحوا واتفقوا على أن يدفن عند قسمة مياههم في أعلا مصر لكي يصيب بركته أهل مصر. وكان هناك إلى زمن موسى ـ عليه السلام ـ فرفعه موسى وحمله إلى الأرض المقدسة ووضعه عند آبائه. وقد كان يوسف أوصى إلى بني إسرائيل أن يحملوا عظامه من أرض مصر إذا خرجوا من مصر.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾** يقول من أخبار ما غاب عنك علمه يا محمد **﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾** يعني: ننزل عليك جبريل بالقرآن ليقرأه عليك **﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾** يعني: عند إخوة يوسف **﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾** يعني: قولهم أن يطرحوا يوسف في البئر **﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** أي يحتالون ليوسف ثم قال: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** في الآية تقديم. ومعناه وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت لعلم الله السابق فيهم. ويقال: ولو

حرصت بمؤمنين. يعني: من قدرت عليه الكفر وعلمت أنه أهل لذلك لا يؤمن بك ثم قال تعالى ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: على الإيمان ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: إن لم يجيبوك فلا تبال لأنهم لا ينقصون من رزق ربك شيئاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس. وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ﴾ يعني وكم من علامة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الشمس والقمر والنجوم وفي الأرض، الأمم الخالية والأشياء التي خلقت في الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يعني: مكذبين لا يتفكرون ثم قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال ابن[1] عباس: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. فهذا إيمان منهم. ثم هم يشركون به غيره. وقال القتبي: الإيمان قد يكون في معان. فمن الإيمان تصديق وتكذيب ببعض. قال الله تعالى «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكونَ» يعني مقرون أن الله خالقهم. وهم مع ذلك يجعلون لله شريكاً. وقال الضحاك[2]: كانوا مشركين في تلبيتهم. وقال عكرمة: يعلمون أنه ربهم وهم مشركون به من دونه ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ﴾ يعني: مغشاهم العذاب ويقال: غاشية قطعة ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾. يعني: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني هذه الملة ديني الإسلام. ويقال هذه دعوتي ﴿أَدْعُوا﴾ الخلق ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ويقال أدعوكم إلى توحيد الله وعبادته ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين وحقيقة. ويقال على بيان ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يعني من اتبعني على ديني فهو أيضاً على بصيرة ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيهاً لله عن الشرك ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: الأنبياء كانوا من الآدميين ولم يكونوا من الملائكة. قرأ عاصم في رواية حفص[3] «نُوحِي إِلَيْهِمْ» بالنون. وقرأ الباقون بالياء «يُوحَى إِلَيْهِمْ» ومعناهما واحد ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ يعني: منسوبين إليها. ثم أمرهم بأن يعتبروا فقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني: يسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ويقال يقرءوا القرآن ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يعني يعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كيف كان آخر المنذرين من قبلهم من الأمم الخالية ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الآخرة أفضل من الدنيا. ثم رجع إلى حديث الرسل الذين كذبهم قومهم فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ[4] الرُّسُلُ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) انظر النشر ٢/ ٢٩٦، حجة القراءات ٣٦٥.

(٤) قرأ ابن كثير في رواية البزي: (فلما استايسوا منه) (وحتى إذا استايس) بغير همز وتقديم الألف، والأصل الهمز لأنه من (اليأس) والعرب تقول: (يئست وأيست) لغتان فمن قال (استايس) بغير همز فهي على لغة من يقول (أيست) نقل العين إلى موضع الفاء فصار (استعفل): استأيس ثم خففت الهمزة فصارت ألفاً لسكونها وانفتاح ما قبلها فصارت (استايس) وهو من الأياس.

يعني: أيسوا من إيمان قومهم أن يؤمنوا ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي[١] «كُذِبُوا» بتخفيف الذال. وقرأ الباقون بالتشديد. وروى الأعمش عن أبي الضحى عن ابن عباس أنه قرأ «كُذِبُوا» بالتخفيف. ويقال لما أيست الرسل[٢] أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا عليهم جاءهم بالنصرة. وروى ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا. قال كانوا بشراً فضعفوا وسئموا وظنوا أنهم قد كذبوا وأشار بيده إلى السماء. قال ابن أبي مليكة فذكرت ذلك لعروة فقال قالت[٣] عائشة رضي الله عنها معاذ الله ما حدث الله ورسوله شيئاً إلا وعلم أنه سيكون قبل أن يموت. قالت ولكن نزل الأنبياء البلاء حتى خافوا أن يكون من معهم كذبوهم من المؤمنين. وكانت تقرأ «قد كُذِّبُوا» بالتشديد. وعن عائشة قالت استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم. وقال القتبي الذي قالت عائشة أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله تعالى ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي للأنبياء بالنصرة ثم قال ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني من آمن بالأنبياء. قرأ عاصم وابن عامر[٤] «فَنُجِّيَ» بنون واحدة مع التشديد. وقرأ الباقون بالنونين (وأصله فَنُنْجِيَ بالنونين)[٥] إلا أن من قرأ بنون واحدة ادغم إحداهما في الأخرى ثم قال ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الكافرين

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ يعني: في قصة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني: لذوي العقول. يعني عجيبة لمن له عقل لكيلا يحسد أحد أحداً. ويقال: لمن أراد أن يعتبر بيوسف ويقتدي به ولا يكافىء أحداً بسيئة. ويقال عبرة يعني دلالة لنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن أراد أن يؤمن به ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ يعني: مثل هذا الكلام لا يكون اختلاقاً وكذباً ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: بيان الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني رحمة من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون بتوحيد الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن.

= وقرأ الباقون: (حتى إذا استيأس) بالهمز من (اليأس) على لغة من يقول: (يئست) فالياء فاء الفعل والهمز عينه. والعرب تقول: (يئس واستيأس وعجب واستعجب، وسخر واستسخر) وفي التنزيل: (وإذا رأوا آية يستسخرون). انظر حجة القراءات ٣٦٦.

(١) انظر النشر ٢/٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٦.

(٢) في أ أي ظنوا أن قد كذبهم قومهم الذين آمنوا بهم.

(٣) ذكره السيوطي ٣/٤٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٤) انظر النشر ٢/٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٧.

(٥) سقط في ظ.

سُورَةُ الرَّعْدِ(١)

وهي ثلاث وأربعون آية مدنية وقيل مكية إلا قوله «ولا يزال الذين كفروا»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿آلمر﴾ قال ابن عباس[٢] أنا الله أعلم وأرى. ويقال معناه أنا الله أرى ما تحت العرش إلى الثرى وما بينهما. ويقال أنا الله أعلم وأرى مالا يعلم الخلق وما لا يرى ويقال: أنا الله أعلم وأرى ما يعملون ويقولون. ويقال هذا قسم أقسم الله به ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال قتادة[٣]: يعني التي قبل القرآن. يعني التوراة والإنجيل ﴿وَالَّذِي﴾ يعني: القرآن ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ يعني: الكتب التي قبل القرآن، والقرآن الذي

---

(١) هكذا سميت من عهد السلف وذلك يدل على أنها مسماة بذلك من عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا لم يختلفوا في اسمها. وإنما سميت بإضافتها إلى «الرعد» لورود ذكر الرعد فيها بقوله تعالى: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق﴾ فسميت بالرعد لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة فإن هذه السورة مكية كلها أو معظمها وإنما ذكر الرعد في سورة البقرة وهي نزلت بالمدينة وإذا كانت آيات ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ إلى قوله ﴿وهو شديد المحال﴾ مما نزل بالمدينة. وهذه السورة مكية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه وهو قول قتادة وعن أبي بشر قال: سألت سعيد ابن جبير عن قوله تعالى: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ (أي في آخر سورة الرعد) أهو عبد الله بن سلام فقال: كيف وهذه سورة مكية؟ وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضاً: أنها مدنية وهو عن عكرمة والحسن البصري وعن عطاء عن ابن عباس، وجمع السيوطي وغيره بين الروايات بأنها مكية إلاّ آيات منها نزلت بالمدينة يعني قوله: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ إلى قوله ﴿شديد المحال﴾ وقوله ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾، قال ابن عطية والظاهر أن المدني فيها كثير وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني. وأقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أوحى إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءاً ونهاية ومهد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنه منزل من الله والاستدلال على تفرده تعالى بالإلهية. ثم انتقل إلى تفنيد أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث. وتهديدهم أن يحل ما حل بأمثالهم والتذكير بنعم الله على الناس. وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم. وأن الله العالم بالخفايا وأن الأصنام لا تعلم شيئاً ولا تنعم بنعمة. والتهديد بالحوادث الجوية أن يكون منها عذاب للمكذبين كما حل بالأمم قبلهم والتخويف من يوم الجزاء والتذكير بأن الدنيا ليست دار قرار وبيان مكابرة المشركين في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم ومقابلة ذلك بيقين المؤمنين وما أعد الله لهم من الخير وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لقي من قومه إلاّ كما لقي الرسل عليهم السلام من قبله. انظر التحرير ١٣/٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٢ عزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

أُنزل إليك كله من الله تعالى وهو الحق والإيمان به واجب. وقال ابن عباس تلك آيات الكتاب يعني تلك آيات القرآن. ومعناه هذه آيات الكتاب والذي أُنزل من ربك هو الحق يعني: القرآن ويقال «تلك آيات الكتاب» يعني: الأحكام والحجج والدلائل «والذي أنزل إليك» يعني جبريل ليقرأ عليك (من ربك)[1] الحق. يعني اتبعوه واعملوا به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون إنه من الله تعالى. فلما ذكر أنهم لا يؤمنون بين الدلائل التي توجب التصديق بالخالق ثم قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يعني: ليس لها عمد ترونها. وهذا قول الحسن[2]. وقتادة: (رفعها الله تعالى بغير عمد)[3]. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير معناه لها عمد ولكن لا ترونها. يعني أنتم ترونها بغير عمد في المشاهدة ولكن لها عمد. وكلا التفسيرين معناهما واحد. لأن من قال إن لها عمداً ولكن لا ترونها يقول العمد هو قدرة الله تعالى التي تمسك السموات والأرض. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس: كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض. وقد ذكرناه من قبل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل ذلك لبني آدم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يقول: يسير إلى وقت معلوم لا يجاوزه، وللشمس والقمر منازل كل واحد منهما يغرب في كل ليلة في منزل ويطلع في منزل حتى ينتهي إلى أقصى منازله. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يعني: يقضي القضاء ويبعث الملائكة بالوحي والتنزيل ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يقول: يبين العلامات في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ يعني تصدقون بالبعث

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ يعني: بسط الأرض من تحت الكعبة على الماء وكانت تكفي بأهلها كما تكفي السفينة فأرساها الله بالجبال وهو قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبال الثوابت من فوقها ﴿وَأَنْهَاراً﴾ يعني: خلق في الأرض أنهاراً ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: خلق فيها من ألوان الثمرات. ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: خلق من كل شيء لونين من الثمار حلواً وحامضاً، ومن الحيوان ذكراً وأنثى ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يعني: يعلو الليل على النهار ويعلو النهار على الليل واقتصر بذكر أحدهما إذ كان في الكلام دليل عليه. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[4] «يُغَشِّي» بنصب الغين وتشديد الشين. وقرأ الباقون بالجزم والتخفيف. ثم بين أن ما ذكر من هذه الأشياء فيه برهان وعلامات لمن تفكر فيها فقال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: فيما ذكر من صنعه ﴿لَآيَاتٍ﴾ يعني لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في اختلاف الليل والنهار فيوحدونه. ثم بين أن في

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٣٦٨ إتحاف فضلاء البشر ٢/١٥٩.

الأرض علامات كثيرة ودلائل كثيرة لوحدانيته لمن له عقل سليم فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ يعني: بالقطع الأرض السبخة والأرض العذبة. متجاورات يعني ملتزقات متدانيات قريبة بعضها من بعض فتكون أرض سبخة وتكون إلى جنبها أرض طيبة جيدة. وقال قتادة[١]: قطع متجاورات أي قرى متجاورات، ويقال العمران والخراب والقرى المغاور ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ يعني: الكروم ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ قرأ بعضهم: بضم الصاد.[٢] وقراءة العامة بالكسر وهما لغتان ومعناهما واحد. قال مجاهد[٣] وقتادة: الصنوان النخلة التي في أصلها نخلتان وثلاث أصلهن واحدة. وقال الضحاك: يعني النخل المتفرق والمجتمع. ويقال صنوان النخلة التي بجنبها نخلات وغير صنوان يعني: المنفردة. وروي عن[٤] النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لا تؤذونني في العباس فإنه بقية آبائي وإن عم الرجل صنو أبيه. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص «وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ» كلها بالضم على معنى الابتداء . وقرأ الباقون كلها بالكسر على معنى النعت للجنات. ويقال على وجه المجاورة. لأن الزرع لا يكون في الجنات. ثم قال ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ يعني: الماء والتراب واحد وتكون الثمار مختلفة في ألوانها وطعومها. لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب لوجب في القياس أن لا تختلف الألوان والطعوم ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا ثبت في مغرس واحد وسقي بماء واحد. ولكنه صنع اللطيف الخبير. وقال مجاهد[٥]: هذا مثل لبني آدم أصلهم من أب واحد، ومنهم صالح ومنهم خبيث. ثم قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إنه من الله تعالى. قرأ حمزة والكسائي: «يُسْقَى وَيُفَضِّلُ» بالياء. وقرأ عاصم وابن عامر في أحد الروايتين يُسْقَى بالياء بلفظ التذكير. ونُفَضِّلُ بالنون[٦]. وقرأ الباقون «تُسْقَى» بالتاء «ونُفَضِّلُ» بالنون. ثم قال تعالى

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٣ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص: (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) بالرفع. وحجتهم ذكرها العباس فقال: سألت أبا عمرو: (كيف لا تقرأ (وزرع) بالجر؟) قال: (الجنات لا تكون من زرع) فذهب أبو عمرو إلى أن الزرع وما بعده مردود على قوله (قطع) كأنه قال: في الأرض قطع متجاورات وفيها جنات وفيها زرع ونخيل). وقرأ الباقون بالجر كلها. حملوا الزرع والنخيل على الأعناب كأنه قال: جنات من أعناب وغير ذلك من زرع ونخيل، وحجتهم في ذلك على أن الأرض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع سميت جنة: قوله: ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ فكما سميت الأرض ذات النخل والزرع جنة كذلك يكون في قراءة من قرأ: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ أن يكون الزرع والنخيل محمولين على الأعناب.

قرأ عاصم وابن عامر: (يسقى بماء واحد) أي يسقى المذكور بماء واحد، وحجتهما قوله: ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره﴾ على معنى من ثمر المذكور. (وقرأ) الباقون: (تسقى) بالتاء أي تسقى هذه الأشياء بماء واحد قالوا: ولا يكون التذكير لأنك إن حملته على الزرع فقد تركت غيره. وإن حملته على الجنات مع حمله على الزرع فقد ذكرت المؤنث وحجتهم قوله تعالى: بعدها (ونفضل بعضهما على بعض فقال (بعضها) فكما حمل هذا على التأنيث كذلك يحمل (تسقى). انظر حجة القراءات ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٤ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٤ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٤ وعزاه لابن الشيخ.

(٦) انظر حجة القراءات ٣٧٠، والنشر ٢/٢٩٧.

وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قال الكلبي: يعني إن تعجب من تكذيب أهل مكة لك وكفرهم بالله فعجب قولهم. يقول: أعجب من ذلك قولهم ﴿أئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾. وقال مقاتل: وإن تعجب مما أوحينا إليك من القرآن تعجب قولهم أئذا كنا تراباً ﴿أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إكذاباً منهم بالبعث قرأ الكسائي «أَإِذَا» بهمزتين (على وجه الاستفهام «إنَّا لَفِي خَلْقٍ» بهمزة واحدة. وقرأ عاصم وحمزة كليهما بهمزتين)[1]. وقرأ أبو عمرو «آيِذَا» بهمزة واحدة مع المد وكذلك في قوله «آيِنَّا» بالمد. وقرأ ابن كثير «أَيِذَا» بالياء وكذلك «أَيِنَّا». وقرأ ابن عامر «إِيذا كُنَّا» بهمزة واحدة بغير استفهام[2] «آيِنَّا» بالهمزة والمد. قال لأنهم لم يشكوا في الموت وإنما شكوا في البعث فينبغي أن يكون الاستفهام في الثاني دون الأول. ثم قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يعني جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يعني تغل أيمانهم على أعناقهم بالحديد في النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون فيها ولا يخرجون منها. قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال ابن عباس: سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم العذاب استهزاء منهم بذلك فنزل «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ» يعني: بالعذاب قبل العافية ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ يعني: العقوبات والنقمات قبل قريش فيمن هلك. وأصل المثلة الشبه وما يعتبر به وجمعه المثلات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوا مَغْفِرَةٍ﴾ يقول: تجاوز ﴿لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ يعني: على شركهم إن تابوا. ويقال: بتأخير العذاب عنهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن مات منهم على شركه. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني هلا أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ علامة من ربه لنبوته. قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ يعني: مخوف ومبلغ لهذه الأمة الرسالة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال الكلبي: داع يدعوهم إلى الضلالة أو إلى الحق. وقال الضحاك يعني: إنما أنت منذر وأنا الهادي. وقال سعيد بن جبير[3]: الهادي هو الله. وقال عكرمة[4]: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو نذير وهو الهادي يعني يدعوهم إلى الهدى ولكل قوم هاد. وقال مجاهد[5] يعني: لكل قوم نبي. قرأ ابن كثير[6] «هَادِي» بالياء عند الوقف وكذلك قوله (مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ). وقرأ الباقون بغير ياء. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾

---

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٧١، وإتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير الطبري.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٦١.

ذكراً أو أنثى ويعلم ما في الأرحام سوياً أو غير سوي ثم قال ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ (يعني ما تنقص)[١] الأرحام من تسعة أشهر في الحمل[٢] ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يعني: على التسعة أشهر في ذلك الحمل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ قال قتادة[٣]: رزقهم وأجلهم. وقال ابن عباس من الزيادة والنقصان والمكث في البطن والخروج. كل ذلك بمقدار قدره الله تعالى فلا يزيد على ذلك. وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: «وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ». يعني الحامل.[٤]

---

(١) سقط في أ.

(٢) أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن أقل أمد الحمل وأكثره وأقل أمد الحيض وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد لأن الله استأثر بعلم ذلك لقوله: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام﴾ الآية.

ولا يجوز أن يحكم في شيء من ذلك إلا بقدر ما أظهره الله لنا ووجد ظاهراً في النساء نادراً أو معتاداً. وسنذكر إن شاء الله أقوال العلماء في أقل الحمل وأكثره وأقل الحيض وأكثره ونرجح ما يظهر رجحانه بالدليل.

فنقول وبالله تعالى نستعين:

اعلم أن العلماء أجمعوا على أن أقل أمد الحمل ستة أشهر دل على ذلك القرآن لأن قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ إن ضممت إليه قوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ بقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهراً لمدة الحمل ستة أشهر فدل ذلك على أنها أمد للحمل يولد فيه كاملاً.

وقد ولد عبد الملك بن مروان لستة أشهر وهذه الأشهر الستة بالأهلة كسائر أشهر الشريعة لقوله تعالى: (**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس**﴾. قال القرطبي (ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها حكاه ابن عطية. والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الشهر المعدود من أوله يعتبر على حاله من كمال أو نقصان وأن المنكسر يتمم ثلاثين، أما أكثر أمد الحمل فلم يرد في تحديده شيء من كتاب ولا سنة والعلماء مختلفون فيه وكلهم يقول بحسب ما ظهر له من أحوال النساء. فذهب الإمام أحمد والشافعي: إلى أن أقصى أمد الحمل أربع سنين وهو إحدى الروايتين المشهورتين عن مالك والرواية المشهورة الأخرى عن مالك خمس سنين وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن أقصاه سنتان وهو رواية عن أحمد وهو مذهب الثوري وبه قالت عائشة رضي الله عنها وعن الليث ثلاث سنين وعن الزهري ست وسبع وعن محمد بن الحكم سنة لا أكثر وعن داود تسعة أشهر.

وقال ابن عبد البر هذه مسألة لا أصل لها إلاّ الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء وقال القرطبي (روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال (قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل المغزل) فقال: سبحان الله من يقول هذا هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين وكانت تسمى حاملة الفيل. وأظهر الأقوال دليلاً أنه لا حد لأكثر أمد الحمل وهو الرواية الثالثة عن مالك كما نقله عنه القرطبي لأن كل تحديد بزمن معين لا أصل له ولا دليل عليه وتحديد زمن بلا مستند صحيح لا يخفى سقوطه والعلم عند الله تعالى. أضواء البيان ٨٤، ٨٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) اختلف العلماء في الدم الذي تراه الحامل هل هو حيض أم دم فساد؟ فذهب مالك والشافعي في أصح قوليه إلى أنه حيض وبه قال قتادة والليث وروي عن الزهري وإسحاق وهو الصحيح عن عائشة وذهب الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد إلى أنه دم فساد وعلة وأن الحامل لا تحيض، وبه قال جمهور التابعين منهم سعيد بن المسيب وعطاء والحسن وجابر بن زيد وعكرمة ومحمد بن المنكدر والشعبي ومكحول وحماد والثوري والأوزاعي وابن المنذر وأبو عبيد وأبو ثور واحتج من قال إن الدم الذي تراه الحامل حيض بأنه دم بصفات الحيض في زمن إمكانه وبأنه متردد بين كونه فساداً لعلة أو حيضاً والأصل السلامة من العلة فيجب استصحاب الأصل.

واحتج من قال بأنه دم فساد بأدلة: منها: ما جاء في بعض روايات حديث ابن عمر في طلاقه امرأته في الحيض أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعمر: (مُرْه فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً) وهذه الرواية أخرجها أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وقالوا: قد جعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحمل علامة على عدم الحيض كما جعل الطهر علامة لذلك. ومنها: حديث (لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تُسْتَبْرأ بحيضة) رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وصححه ≡

إن ترى الدم نقص من الولد وإن لم تر الدم يزيد في الولد. وروى أسباط عن السدي قال: قال إن المرأة إذا حملت واحتبس حيضها كان ذلك الدم رزقاً للولد، فإذا حاضت على ولدها خرج وهو أصغر من الذي لم تحض عليه. «وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ» وهي الحيضة التي على الولد وما تزداد فحين يستمسك الدم فلا تحيض وهي حبلى. قال الفقيه: هذا الذي قال السدي إن الحامل تحيض إنما هو على سبيل المجاز. لأن دم الحامل لا يكون حيضاً ولكن معناه إذا سال منها الدم فيكون ذلك استحاضة. قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا ابن خزيمة قال حدثنا عليّ قال حدثنا إسماعيل عن عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله. لا يعلم ما تغيض الأرحام أحد إلا الله. ولا يعلم ما في غد أحد إلا الله. ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله. ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله. ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله.

عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ يعني: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. ويقال: عالم بما كان وبما لم يكن. ويقال: عالم السر والعلانية ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[1] يعني: هو أكبر وأعلى من أن تكون له صاحبة وولد.

= الحاكم وله شواهد قالوا: فجعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحيض علامة على براءة الرحم فدل ذلك على أنه لا يجتمع مع الحمل. ومنها أنه دم في زمن لا يُعْتَادُ فيه الحيض غالباً فكان غير حيض قياساً على ما تراه اليائسة بجامع غلبة عدم الحيض في كل منهما. وقد قال الإمام أحمد رحمه الله إنما يعرف النساء الحمل بانقطاع الدم. ومنها: أنه لو كان دم حيض ما انتفت عنه لوازم الحيض فلما انتفت عنه دل ذلك على أنه غير حيض لأن انتفاء اللازم يوجب انتفاء الملزوم فمِنْ لازم الحيض حرمة الطلاق، ودم الحامل لا يمنع طلاقها للحديث المذكور آنفاً الدال على إباحة طلاق الحامل الطاهر ومِنْ لازم الحيض أيضاً انقضاء العدة به ودم الحامل لا أثر له في انقضاء عدتها لأنها تعتد بوضع حملها لقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾. وفي هذه الأدلة مناقشات ذكر بعضها النووي في شرح المهذب. واعلم أن مذهب مالك التفصيل في أكثر حيض الحامل فإن رأته في شهرها الثالث إلى انتهاء الخامس تركت الصلاة نصف شهر ونحوه وفسروا نحوه بزيادة خمسة أيام فتجلس عشرين يوماً فإن حاضت في شهرها السادس فما بعده تركت الصلاة عشرين يوماً ونحوها وفسروا نحوها بزيادة خمسة أيام تجلس خمساً وعشرين وفسره بعضهم بزيادة عشر فتجلس شهراً فإن حاضت الحامل قبل الدخول في الشهر الثالث. فقيل حكمه حكم الحيض في الثالث وقد تقدم. وقيل حكمه حكم حيض غير الحامل فتجلس قدر عادتها وثلاثة أيام استظهاراً. أضواء البيان ٣/٩٣ ـ ٩٤.

(١) قرأ ابن كثير: (المتعالي) بإثبات الياء في الوصل والوقف وهو القياس وليس ما فيه الألف واللام من هذا كما لا ألف ولام فيه من هذا النحو نحو (غاز وقاض) قال سيبويه: (إذا لم يكن في موضع تنوين (يعني إسم الفاعل) فإن البيان أجود في الوقف وذلك قولك: (هذا القاصي) لأنها ثابتة في الوصل) يريد أن الياء مع الألف واللام تثبت ولا تحذف كما تحذف في إسم الفاعل إذا لم يكن فيه الألف واللام نحو: هذا قاض فاعلم فالياء مع غير الألف واللام تحذف في الوصل ومع الألف واللام لا تحذف. وقرأ الباقون: (المتعال) بغير ياء وحجتهم خط المصحف بغير ياء والمتعال (متفاعل) من (العلو) والأصل: (متعالو) فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها لقولك (الداعي والغازي) والأصل الداعو والغازو). انظر حجة القراءات ٣٧٢.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني: سواء عند الله من أسر القول ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ يعني: من أخفى العمل وأعلن العمل ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ يعني: في ظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي منصرف في حوائجه. يقال سَرَبَ يَسْرُبُ إذا انصرف ومعناه: المختفي[1] والظاهر عنده سواء. وقال مجاهد[2]: المستخفي المختفي بالمعصية والسارب يعني: الظاهر بالمعاصي ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ قال ابن عباس له حافظات ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني بأمر الله حتى ينتهوا به إلى المقادير فإذا جاءت المقادير خلوا بينه وبين المقادير. المعقبات يعني الملائكة يعقب بعضهم بعضاً في الليل والنهار. إذا مضى فريق خلفه بعده فريق. وروي عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: له معقبات. قال الملائكة يتعاقبون بالليل والنهار يحفظونه من أمر الله يعني: بأمر الله. ويقال للمؤمن طاعات وصدقات يحفظونه من أمر الله أي من عذاب الله عند الموت وفي القبر وفي يوم القيامة ثم قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ يعني: لا يبدل ما بقوم من النعمة التي أنعمها عليهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾ يقول: يبدلوا ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. بترك الشكر. قال مقاتل: يعني كفار مكة. نظيرها في الأنفال (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ) إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف فلم يعرفوها. فغير ما بهم فجعل ذلك لأهل المدينة. قال أبو الليث رحمه الله: في الآية تنبيه لجميع الخلق ليعرفوا نعمة الله عليهم ويشكروه لكيلا تزول عنهم النعم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ يعني: إذا أراد بهم عذاباً أو هلاكاً فلا مرد لقضائه ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يعني: ليس لهم من عذابه ولي ولا قريب يمنعهم ولا ملجأ يلجأون إليه. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ يعني: خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم الحاضر. ويقال: خوفاً لمن يخاف ضرر المطر وطمعاً لمن يحتاج إلى المطر. لأن المطر يكون لبعض الأشياء ضرراً ولبعضها رحمة ثم قال ﴿وَيُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ يعني: يخلق السحاب الثقال من الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ (١٣) لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ يعني: بأمره. قال: حدثنا عمر بن محمد قال: حدثنا أبو بكر الواسطي قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا وكيع عن عمرو بن أبي زائدة أنه قال سمعت عكرمة يقول: الرعد ملك يزجر السحاب بصوته كالحادي بالإبل[3]. وروى وكيع عن المسعودي عن سلمة بن كهيل أنه سئل عن الرعد. فقال هو ملك (يزجر السحاب)[4]وسئل عن البرق فقال هو في مخاريق بأيدي الملائكة. وسئل وهب بن منبه عن الرعد فقال: ثلاث ما أظن أحداً يعلمهن إلا الله عز وجل. الرعد والبرق والغيث وما أدري من أين هن وما هن فقيل له «أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً» قال: نعم ولا ندري أنزل من السماء أو من السحاب ولقحت فيه أو يخلق في السحاب

(١) في أ [في المعصية وسارب بالنهار الظاهر بالمعاصي].
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) أكثر المفسرين على أن الرعد إسم ملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه. انظر تفسير البغوي ٤/١١.
(٤) سقط في أ.

فيمطر. وسمى السحاب سماء. وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن الرعد فقال: هو ملك في السماء واسمه الرعد والصوت الذي يسمع هو زجر السحاب. ويؤلف بعضه إلى بعض فيسوقه. ثم قال ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ يقول: يسبح الملائكة كلهم خائفين لله تعالى ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهي نار من السماء لا دخان لها ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن عباس: هو الله تعالى شديد المحال يعني (شديد العقاب)[1]. ويقال أصله في اللغة الحيلة. وقال قتادة[2]: يعني الحيلة والقوة ويقال هو شديد القدرة والعذاب ويقال المحال في اللغة هو الشدة[3] ويقال بعضهم: هو كناية عن الذي يجادل. ويكون معناه فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله. يعني يصيبهم في حال جدالهم. وقال مجاهد جاء يهودي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال يا محمد أخبرني من أي شيء ربك أمن لؤلؤ هو؟ فأرسل الله عليه صاعقة فقتلته فنزل «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ». يعني: شديد العداوة وقال قتادة: دخل عامر بن الطفيل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: أسلم على أن لك المدر ولي الوبر. يعني لك ولاية القرى ولي ولاية البوادي فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - أنت من المسلمين لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال عامر لك الوبر ولي المدر. فأجابه بمثل ذلك. قال عامر ولى الأمر من بعدك. فأجابه بمثل ذلك فغضب عامر وقال لأملأنها عليك رجالاً. ألفا رجل أشعر وألفا أمرد. فخرج ولقي أربد بن قيس فقال له ادخل على محمد وألهه وأنا أقتله، فدخلا عليه فجعل عامر يسأله ويقول أخبرنا يا محمد عن إلهك أمن ذهب هو أم من فضة؟ فلما طال حديثه قاما وخرجا. فقال مالك لم تقتله؟ قال كلما أردت أن أقتله وجدتك بيني وبينه فجاء جبريل فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك فدعا عليه فأصابته صاعقة فقتلته فنزل «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال»قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يعني: كلمة الإخلاص لا إله إلا الله. يدعو الخلق إليها. ويقال معناه: له على العباد دعوة الحق أن يدعوه فيجيبهم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ يقول: لا ينفعهم بشيء ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ يعني: كمادٍ يديه ﴿إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ والعرب تقول لمن طلب شيئاً لا يجده هو كقابض الماء يعني كمن هو مشرف يدعو الماء بلسانه ويشير إليه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ يعني: فلا يناله أبداً. وقال مجاهد[4]: كالذي يشير بيده إلى الماء فيدعوه بلسانه فلا يجيبه أبداً. هذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك الذي عبد مع الله إلهاً آخر. أنه لا (يجيبه الصنم)[5] ولا ينفعه كمثل العطشان الذي ينظر إلى الماء من بعيد ولا يقدر عليه ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول ما عبادة أهل مكة ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ يضل عنهم إذا احتاجوا إليه في الآخرة.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٢٥.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذروابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) في أ [لا تجيبهم الأصنام].

ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ قال قتادة[١]: أما المؤمن فيسجد لله طائعاً. وأما الكافر فيسجد كرهاً. ويقال أهل الإخلاص يسجدون لله طائعين وأهل النفاق يسجدون له كرهاً (ويقال من ولد في الإسلام يسجد طوعاً ومن سبي من دار الحرب يسجد كرهاً)[٢] ويقال يسجد لله يعني يخضع له من في السموات والأرض ولا يقدر أحد أن يغير نفسه عن خلقته ﴿وَظِلالُهُمْ﴾ يعني: تسجد ظلالهم. وسجود الظل دورانه. ويقال ظل المؤمن يسجد معه وظل الكافر يسجد لله تعالى إذا سجد الكافر للصنم ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني أول النهار وآخره وقال أهل اللغة الأصيل ما بين العصر إلى المغرب وجمعه أُصُل والآصال جمع الجمع قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني قل: يا محمد لأهل مكة من خالق السموات والأرض؟ فإن أجابوك وإلا ف﴿قُلْ اللَّهُ﴾ ثم قال ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: أفعبدتم غيره ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي كما لا يستوى الأعمى والبصير. كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. ويقال الأعمى الجاهل الذي لا يتفكر ولا يرغب في الحق والبصير العالم الذي يتفكر ويرغب في الحق ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾ أي كما لا تستوي الظلمات والنور فكذلك لا يستوي الإيمان والكفر. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[٣] «يَسْتَوِي» بلفظ التذكير بالياء. وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث لأن تأنيثه ليس بحقيقي. فيجوز أن يذكر ويؤنث ولأن الفعل مقدم على الاسم ثم قال ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني بل جعلوا لله شركاء من الأصنام ويقال معناه: اجعلوا لله شركاء. والميم صلة. ثم قال ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: هل خلق الأوثان خلقاً كما خلق الله فاشتبه عليهم خلق الله تعالى من خلق غيره. فلما ضرب الله مثلاً لآلهتهم سكتوا. قال الله تعالى ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قل يا محمد الله عز وجل خالق جميع الموجودين ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني (الذي لا شريك له)[٤] القاهر لخلقه القادر عليهم ثم ضرب الله تعالى مثلاً للحق والباطل. لأن العرب كانت عادتهم أنهم يوضحون الكلام بالمثل وقد أنزل الله تعالى القرآن بلغة العرب فأوضح لهم الحق من الباطل بالمثل فقال ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعني: سال في الوادي الكبير بقدره وفي الوادي الصغير بقدره. فشبه القرآن بالمطر وشبه القلوب بالأودية وشبه الهدى بالسيل ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾ يعني: عالياً على الماء. فشبه الزبد بالباطل يعني احتملته القلوب

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٧٣، النشر ٢/٢٩٧.
(٤) سقط في ظ.

على قدر أهوائها باطلاً كبيراً. فكما أن السيل يجمع كل قدر كذلك الأهواء تحتمل الباطل. وكما أن الزبد لا وزن له فكذلك الباطل لا ثواب له فذلك قوله (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً) يعني يذهب كما جاء ويقال جفاءً أي: سريعاً. وقال مقاتل: جفاءً أي يابساً فلا ينتفع به ويقذفه السيل وقال القتبي: الجفاء ما رمى به الوادي في جنباته ويقال جفأت القدر بزبدها إذا ألقيته عنها. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني يبقى الماء الصافي. فكذلك الإيمان واليقين ينتفع به أهله في الآخرة كما ينتفع بالماء الصافي في الدنيا. والباطل لا ينتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة. ثم ضرب مثلاً آخر بالذهب والفضة فقال تعالى ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾[١] من الذهب والفضة ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ يعني النحاس حِلْيَةٍ تلبسونها يخرج منها الخبث ويبقى الذهب والفضة خالصاً. ثم ضرب مثلاً آخر فقال ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ يعني: النحاس والحديد والصفر يزول عنها الخبث ويبقى الصفر والحديد (خالصاً) فيتخذ منها المتاع. فهذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد. كما يضمحل هذ الزبد ويبقى خالص الماء وخالص الذهب والفضة والحديد والصفر فكذلك يضمحل الباطل عن أهله. وكما يمكث الماء في الأرض (ويخرج) نباتها. وكما يبقى خالص الذهب والفضة حين يدخلان النار فكذلك يبقى الحق وثوابه لصاحبه. وقال القتبي في قوله فاحتمل السيل زبداً رابياً قال: هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل يقول الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلا. فإن الله سيمحقه (ويبطله) ويجعل العاقبة للحق وأهله مثل مطر سال في الأودية بقدرها. فاحتمل السيل زبداً رابياً أي: عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق. ومن جواهر الأرض التي تدخل الكير توقدون عليها بمعنى: الذهب والفضة للحلية (أَوْ مَتَاعٍ) يعني: الشبه والحديد والآنك يكون للآنية له خبث (يعلوها) مثل زبد الماء فأما الزبد فيذهب جفاء يتعلق بأصول الشجر (وكنبات الوادي) وكذلك خبث الفلز يعني: الجوهر يقذفه فهذا مثل الباطل وأما ما ينفع الناس وينبت المرعى فيمكث في الأرض فكذلك الصفر من الفلز يبقى صالحاً فهو مثل الحق ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ﴾ على وجه التقديم والتأخير يعني: هكذا يضرب الله المثل للحق والباطل. ويقال معناه هكذا يبين الله الحق من الباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على معنى التقديم والتأخير وقد ذكرناه من قبل ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يعني: يبين الله الأشباه ويوضح الطريق ويقيم الحجة. ثم قال ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَى﴾ يعني: للذين أجابوا ربهم بالطاعات في الدنيا لهم الجنة في الآخرة ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ يعني: لم يجيبوه ولم يطيعوه في الدنيا ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ يوم القيامة ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ يعني وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ يقول لفادوا به أنفسهم من العذاب ولو فادوا به لا يقبل منهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني شديد العقاب ويقال المناقشة في الحساب وروي عن إبراهيم[٢] النخعي أنه قال: أتدرون ما سوء الحساب؟ قالوا لا. قال هو الذنب يحاسب عليه العبد ثم لا يغفر له. وعن الحسن[٣] أنه سئل عن سوء الحساب قال يؤخذ العبد بذنوبه كلها فلا يغفر له منها ذنب ثم قال ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ يعني: الفراش من النار. ويقال بئس موضع القرار في النار.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (ومما يوقدون عليه) بالياء وحجتهم أن الكلام خبر لا خطاب فيه بدلالة قوله: (وأما ما ينفع الناس) فأخبر عنهم فكذلك (ومما يوقدون) جرى بلفظ الخبر نظيراً لما أتى عقيبه من الخبر.
وقرأ الباقون: بالتاء ردوا على المخاطبة في قوله (قبلها) ﴿قل أفاتخذتهم من دونه﴾ انظر حجة القراءات ٣٧٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبك الْحَقُّ﴾ يعني يعلم أن القرآن الذي أنزل من الله تعالى هو الحق ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ يعني كمن هو لا يعلم. ويقال أفمن يعلم أن ما ذكر من المثل حق كمن لا يعلم وهذا كقوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ) يعني المثل، ويقال أفمن يرغب في الحق حتى يعلم أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق كمن هو أعمى. يعني كمن لا يرغب فيه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يعني يتعظ بما أنزل إليك من القرآن ذوو العقول من الناس وهم المؤمنون. ثم وصفهم فقال ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يعني العهد الذي بينهم وبين الله تعالى والعهد الذي بينهم وبين الناس ﴿وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاق﴾ يعني الميثاق الذي أخذ عليهم يوم الميثاق. ويقال يعني: أهل الكتاب، الميثاق الذي أخذ عليهم في كتابهم. قوله ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعني: يصلون الأرحام ولا يقطعونها. وقال يعني: الإيمان بجميع الأنبياء ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يعني يمتنعون عما نهاهم الله تعالى عنه. والخشية من الله الامتناع عن المحرمات والمعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ يعني شدته ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني صبروا عن المعاصي وصبروا على أداء الفرائض وصبروا على المصائب والشدائد وصبروا على أذى الكفار والمنافقين ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: صبروا على طلب[1] مرضاة الله تعالى ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: أتموها بركوعها وسجودها في مواقيتها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يعني: من الأموال ﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ يعني يتصدقون في الأحوال كلها ظاهراً وباطناً. ويقال مرة يتصدقون سراً مخافة الرياء ومرة يتصدقون علانية لكي يقتدى بهم. ويقال يتصدقون صدقة التطوع في السر وزكاة الفريضة علانية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يقول: يدفعون بالكلام الحسن السيئة. يعني: الكلام القبيح فهذا كله صفة ذوي الألباب وهم الذين استجابوا لربهم، ثم بين ثوابهم ومرجعهم في الآخرة فقال: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني: لهم الجنة وهم المهاجرون والأنصار ومن كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة. فقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ﴾ يعني: ومن آمن وأطاع الله تعالى: ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يدخلون أيضاً جنات عدن وهذا كقوله: (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَاتِهِمْ) ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ويسلمون عليهم ويقولون ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على أمر الله تعالى وطاعته ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني نعم العاقبة الجنة. فقد بين حال الذين استجابوا لربهم والذين يعلمون أن الذي أنزل إليك هو الحق. ثم بين حال الذين لم يستجيبوا له وهم الذين ينقضون الميثاق

(١) في أ [يصبرون على ما ذكر ابتغاء مرضاة الله].

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ يعني: من بعد تأكيده وتغليظه، يعني: بعد إقرارهم بالتوحيد يوم الميثاق ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعني: الأرحام. ويقال الإيمان بالنبيين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بالدعاء إلى عِبادة غير الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ يعني يلعنهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يعني: سوء المرجع. ويقال: لهم اللعنة. يعني هم مطرودون من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة «ولهم سوء الدار» يعني عذاب النار في الآخرة.

ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يقتر في الرزق. يعني: يختار للغني الغنى وللفقير الفقر. لأنه يعلم أن صلاحه فيه. وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الله تعالى خلق الخلق وهو بهم عليم. فجعل الغنى لبعضهم صلاحاً وجعل الفقر لبعضهم صلاحاً فذلك الخيار للفريقين. وقال الحسن البصري: ما أحد من الناس يبسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه. (وما أمسكها الله تعالى عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه)[١]. ثم قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول: استأثروا الدنيا على الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ يعني: الدنيا بمنزلة الأواني التي لا تبقى. مثل السكرجة[٢] والزجاجة وأشباه كل ذلك التي يتمتع بها ثم تذهب فكذلك هذه الدنيا تذهب وتفنى. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع. وقال مجاهد[٣]: إلا متاع. أي قليل ذاهب وهكذا قال مقاتل.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ يعني هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني علامة لنبوته. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده من الهدى يعني إذا لم يرغب فيه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ يرشد إلى دينه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ يعني: من رجع إلى الحق. ويقال رجع عن الشرك. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا مقرون بالأولى يعني ويهدي الَّذِينَ آمَنُوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: تسكن وترضى قلوبهم ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني: إذا ذكروا الله تعالى بوحدانيته آمنوا به

---

(١) سقط في ظ.

(٢) بضم السين والكاف والراء والتشديد وهي إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم ـ وهي فارسية انظر لسان العرب ٣/ ٢٠٤٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٨ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

غير شاكين. وقال الكلبي يعني: وتسكن وترضى قلوبهم لمن يحلف لهم بالله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ يعني: ترضى وتسكن قلوب المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بالله وبمحمد وبالقرآن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ يعني: غبطة لهم. قال مجاهد[١]: طوبى لهم يعني الجنة. ويقال: شجرة في الجنة. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي اليسر[٢] عن مغيث بن سمي في قوله تعالى: «طُوبَى لَهُمْ». قال: طوبى شجرة في الجنة ساقها من ذهب الورقة منها تغطي الدنيا ليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن من أغصانها. وقال أبو هريرة:[٣] طوبى شجرة في الجنة. وقال قتادة[٤] هي كلمة عربية. يقول الرجل طوبى لك إذا أصبت خيراً. وقال عكرمة طوبى لهم (أي نعما لهم) ويقال طوبى لهم أي خير لهم. ثم قال تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ يعني: حسن المرجع في الآخرة. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ يقول: هكذا بعثناك في أمة كما بعثنا إلى من كان قبلك من الرجال في الأمم الخالية ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا﴾ يعني: قد مضت من قبل قومك ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ﴾ يعني: أرسلناك لتقرأ عليهم ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يعني: يجحدون ويكذبون. وذلك أن عبد الله بن أمية المخزومي وأصحابه قالوا: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب. قال الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ يعني: قل يا محمد الرحمن الذي تكفرون به هو الله ربي الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني: فوضت أمري إليه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ يعني: وإليه أتوب وأرجع.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ وذلك أن عبد الله بن أمية وغيره من كفار مكة قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - سير لنا جبال مكة ذهباً وفضة حتى نعلم أنك صادق في مقالتك. أو قرب أسفارنا كما فعل سليمان بن داود بريحه أو كلم موتانا كما فعل عيسى بن مريم بدعائه. فنزل (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾ غدوها شهر ورواحها شهر ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ فلم يذكر جوابه لأن في الكلام دليلاً عليه. يعني لو فعلنا بقرآن قبل قرآن محمد - صلى الله عليه وسلم - لفعلنا ذلك بقرآن محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال لو فعل أحد من الأنبياء ما تسألوني لفعلت لكم ولكن الأمر إلى الله تعالى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ ويقال: معناه: ولو أن قرآناً سيرت به الجبال عن أماكنها أو قطعت به الأرض أو كلم بـه الموتى لم يؤمنوا به. وهذا كقوله: (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمِ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً) الآية إلى قوله: «مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا». بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً إن شاء هدى من كان أهلاً لذلك وإن شاء لم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) في أ [عن أبي اليسر عن أبي الأوفى].

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٨، ٥٩ وعزاه لابن جرير.

يهد من لم يكن أهلاً لذلك. قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الحسن وقتادة: أفلم يعلم. وقال الفراء لم أجد في العربية مثل هذا[1]. ويقال معناه أفلم يتبين للذين آمنوا وهو بلسان النخع. ويقال هو من الأياس ومعناه أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بأنهم لا يؤمنون ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ يعني: إنهم لم يكونوا أهلاً لذلك فلم يهدهم. وروى ابن أبان بأسناده عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأ «أفلم يتبين» فقيل له أفلم ييأس الذين آمنوا. فقال إني لأرى الكاتب كتبها وهو ناعس. وروى في خبر آخر أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس[2] عن قوله «أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا» قال أفلم يعلم. قال وهل تعرف العرب ذلك. قال ابن عباس نعم أما سمعت قول مالك بن عوف وهو يقول:

قد يئس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ يعني: نكبة وشدة. ويقال القارعة: داهية تقرع. ويقال لكل مهلكة قارعة. ويقال نازلة تنزل لأمر شديد. فالمراد هنا سرية من سرايا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأتيهم وتصيبهم من ذلك شدة. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ يعني: تنزل أنت يا محمد بجماعة أصحابك قريباً من دارهم يعني من مكة. وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سار بجنوده حتى أتى عسفان ثم بعث مائتي راكب حتى انتهوا قريباً من مكة ثم قال ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعني: فتح مكة. قالوا هذه الآية مدنية. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي بفتح مكة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك قومك. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أمهلتهم بعد الاستهزاء ولم أعاقبهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب عند المعصية بالتكذيب فأهلكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يعني: فكيف رأيت إنكاري وتعبيري عليهم بالعذاب. لم ير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقوبتهم إلا أنه

---

(١) قال الآلوسي في تفسيره ١٥٦/٣ ومعنى قوله سبحانه ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلموا وهي ـ كما قال «القاسم بن معن» لغة هوازن وقال ابن الكلبي هي لغة حي من النخع وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لهم بالشِّعْبِ إذ يَأْسِرونني ألم تيأسوا أني ابْنُ فارس زهدم

وقول رباح بن عدي: وسيذكره المصنف رحمه الله.

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنُهُ وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

فإنكار الفراء ذلك وزعمه أنه لم يُسمع أحدٌ من العرب يقول يئست بمعنى علمت ليس في محله ومن حفظ حجة على من لم يحفظ، والظاهر أن استعمال اليأس في ذلك حقيقة وقيل: مجاز لأنه متضمن للعلم فإن الآيس عن الشيء عالم بأنه لا يكون. انظر روح المعاني ١٥٦/٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦٣/٤ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

علم بحقيقته فكان رأي عيانٍ. قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يقول هو الله القائم على كل نفس برة وفاجرة بالرزق لهم والدفع عنهم. وجوابه مضمر يعني كمن هو ليس بقائم على ذرة. وهذا كقوله (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) ثم قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: قالوا ووصفوا لله شريكاً. وقال مقاتل؛ وجعلوا لله شركاء. يقول أنا القائم على كل نفس بأرزاقهم وأطعمتهم كالذين يصفون أن لي شريكاً. معناه لا تكون عبادة الله بعبادة غيره. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ يعني قل يا محمد سموا هؤلاء الشركاء. يعني سموا دلائلهم وبراهينهم وحججهم. ويقال سموا منفعتهم وقدرتهم. ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: تخبرونه بما علم أنه لا يكون. ويقال: معناه: أتشركون معه جاهلاً لا يعلم ما في الأرض ويقال معناه: أتخبرون الله بشيء لا يعلم من آلهتكم. يعني يعلم الله أنه ليس لها في الأرض قدرة ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: أتقولون قولاً بلا برهان ولا حجة. ويقال: بباطل من القول. يعني إن قلتم إن لها قدرة لقلتم باطلاً. وقال قتادة: [1] الظاهر من القول الباطل. وكذلك قال مجاهد. ثم قال ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ يقول: ولكن زين للذين كفروا من أهل مكة كفرهم وقولهم الشرك ﴿وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر[2] «وصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ» بنصب الصاد. يعني إن الكافرين صدوا الناس عن السبيل. يعني: عن دين الله الإسلام. وقرأ الباقون «وصُدُّوا» بضم الصاد على فعل ما لم يسم فاعله مثل قوله (زُيِّنَ لَهُ) ثم قال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يعني: من يخذل عن دينه الإسلام ولا يوفقه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني: ما له من مرشد إلى دينه غير الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لهم في الدنيا الشدائد والأمراض. ويقال: وعند الموت. ويقال: القتل على أيدي المسلمين والغلبة عليهم. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ يعني: أشد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يعني: ملجأ يلجأون إليه فيمنعهم من عذاب الله تعالى.

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال بعضهم: المثل هنا أراد به الصفة ولم يرد به التشبيه لأنه قد ذكر من قبل حديث الجنة وهو قوله تعالى: «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى» وقال بعد ذلك: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا». ثم بين ههنا صفة الجنة فقال (مثل الجنة)[3] يعني: صفة الجنة التي وعد المتقون الذين يتقون الشرك والفواحش روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ «أمثال الجنة التي وعد المتقون» يعني صفاتها وأحاديثها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ يعني: نعيمها لا ينقطع عنهم أبداً ﴿وَظِلُّهَا﴾ يقول: وهكذا ظلها دائم أبداً ليس فيها شمس. وقال بعضهم: أراد به التشبيه لأن الله عرفنا أمور نعيم الجنة التي لم نرها ولم نشاهدها بما شاهدنا من أمور الدنيا. ومعناه مثل الجنة التي وعد المتقون جنة تجري من تحتها الأنهار ثم قال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني تلك الجنة جزاء الذين اتقوا الشرك والفواحش[4] ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ يعني: مصيرهم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٤ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.
(٢) انظر النشر ٢/٢٩٨، حجة القراءات ٣٧٣.
(٣) سقط في ظ.
(٤) سقط في أ.

وجزاؤهم النار. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب يعجبون بذكر الرحمن ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ يعني أهل مكة ينكرون ذكر الرحمن ويقولون ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة. يعنون مسيلمة الكذاب. ويقال: ومن الأحزاب من ينكر بعضه يعني: مِن أهل الكتاب من ينكر ما كان فيه نسخ شرائعهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ يعني: أمرت أن أقيم على التوحيد ﴿وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ﴾شيئاً ثم قال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ يقول أدعو الخلق إلى توحيده ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ يعني المرجع في الآخرة ثم قال ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿حُكْماً﴾ يعني: القرآن حكماً على الكتب كلها ويقال محكماً ﴿عَرَبِيًّا﴾ يعني القرآن بلغة العرب ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال الكلبي يعني: لئن صليت إلى قبلتهم يعني: نحو بيت المقدس ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يعني من بعدما أتاك العلم بأن قبلتك نحو الكعبة. ويقال ولئن اتبعت أهواءهم. يعني أهل مكة. فيما يدعونك إلى دين آبائك بعد ما ظهر لك أن الإسلام هو الحق ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني من عذابه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ ينفعك ﴿وَلاَ وَاقٍ﴾ يقيك من عذاب الله. الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمُراد به أصحابه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ﴾ وذلك أن اليهود عَيَّروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا لو كان هذا نبياً كما يزعم لشغلته النبوة عن تزوج النساء فنزل (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك) يا محمد ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ قال الكلبي. كان لسليمان بن داود عليه السلام ثلاثمائة امرأة مهرية وتسعمائة سرية. وكان لداود مائة امرأة. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ يعني: ليس ينبغي لرسول ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ إلى قومه ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: بأمر الله تعالى ويقال: معناه ما كان يقدر أحد أن يأتي بآية من الآيات إلا بإذن الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أجل من آجال العباد كتاب مكتوب لا يزاد عليه ولا ينقص منه. ويقال لكل أجل وقت قد كتب. وقال الفراء هذا مقدم ومؤخر أي لكل كتاب أجل مثل قوله (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) أي سكرة الحق بالموت وكذلك قال ابن عباس قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[1] روى ابن أبي نجيح عن مجاهد[2] أن قريشاً لما نزلت هذه الآية «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بآيَةٍ إلا بإذن الله». قالوا ما نراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ من الأمر. فنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم. فإنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما نشاء فيمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق العباد ومصايبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل أنه كان يقول في دعائه. اللَّهم إن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا وإن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء وعندك أم الكتاب. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[3] أنه قال يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ إلا الشقاوة والسعادة والموت

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم: (وَيُثْبِتُ) بالتخفيف من (أثبت يثبت إثباتاً) فهو (مثبت) إذا كتب. وحجتهم قولهم (فلان ثابت).

قرأ الباقون: (يثبت) بالتشديد أي يقر الله ما قد كتبه فيتركه على حاله. وحجتهم قوله: (وأشدُّ تثبيتاً) وقال قوم: هما لغتان مثل (وفيت وأوفيت) و (عظّمته وأعْظَمْته). انظر حجة القراءات ٣٧٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٥ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٦ وعزاه لابن مردويه.

والحياة. وروى منصور عن مجاهد[1] أنه قال إلا الشقاوة والسعادة لا يتغيران. ويقال يمحو الله ما يشاء من أعمال بني آدم ما كتب الحفظة ما ليس فيه جزاء خير ولا شر ويثبت ما فيه جزاء خير أو شر. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت إن الحفظة إذا رفعت ديوان العبد. فإن كان في أوله وآخره خير يمحو الله ما بينهما من السيئات وإن لم يكن في أوله وآخره حسنات يثبت ما فيه من السيئات. وقال مقاتل: يمحو الله يعني: ينسخ الله ما يشاء من القرآن ويثبت ويقر المحكم الناسخ ما يشاء فلا ينسخه. ويقال يمحو الله يعني: المعرفة عن ما يشاء ويثبت في قلب من يشاء. وهو مثل قوله (يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ ويقال: يقضي على العبد البلاء فيدعو العبد فيزول عنه كما روي في الخبر الدعاء يرد البلاء. ثم قال ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ يعني أصل الكتاب وجملته وهو اللوح المحفوظ كتب فيه كل شيء قبل أن يخلقهم.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب والزلازل والمصايب في الدنيا إذ كذبوك وأنت حي. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يقول: أو نميتك قبل أن نرينك ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ بالرسالة ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ يعني الجزاء. ثم قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ يعني: نفتحها من نواحيها. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: هو ذهاب العلماء. وقال ابن عباس[2]: ذهاب فقهائها وخيار أهلها. وعن ابن مسعود نحوه. وقال الضحاك أو لم ير المشركون أنا ننقصها من أطرافها. يعني يأخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما حولهم من أراضيهم وقراهم وأموالهم أفهم الغالبون. يعني أولا يرون أنهم المغلوبون والمنتقصون. وعن عكرمة[3] أنه قال الأرض لا تنقص ولكن تنقص الثمار وينقص الناس. وعن عطاء أنه قال: هو موت فقهائها وخيارها. وقال السدي: يعني: ينقص أهلها من أطرافها ولم تهلك قرية إلا من أطرافها. يعني: تخرب قبل. ثم يتبعها الخراب. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ يقول: لا راد لحكمه ولا مغير له ولا مرد لما حكم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ النصرة والغنيمة ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ إذا حاسب فحسابه سريع. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: صنع الذين من قبلهم كصنيع أهل مكة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ يعني: يجازيهم جزاء مكرهم وينصر أنبياءه ويبطل مكر الكافرين. ثم قال: ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ برّة وفاجرة ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني: الجنة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٨ وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يعني: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر اليهود. ويقال: يعني: أهل مكة ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يقول: كفى الله شاهداً بيني وبينكم. على مقالتكم ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يعني: ومن آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه شهيداً بيني وبينكم لأنهم وجدوا نعته وصفته في كتبهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ» بجزم الثاء والتخفيف. وقرأ الباقون بنصب الثاء وتشديد الباء (وَيُثَبِّتُ) ومعناهما واحد. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[١] «وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ» (بلفظ الوحدان وهو اسم جنس فيقع على الواحد وعلى الجماعة. وقرأ الباقون «الْكُفَّارُ» بلفظ الجماعة. وقال أبو عبيدة: رأيت في مصحف الإمام «وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ» بلفظ الجماعة وروي عن)[٢] عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ «وَمِنْ عِنْدِهِ» بالكسر يعني القرآن من عند الله تعالى. وروي عنه أيضاً وسيعلم الكافرون. وقرأ أبي بن كعب «وسيعلم الذين كفروا» وقال عبد الله بن مسعود: هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بعد ذلك بمدة فكيف يجوز أن يكون المراد به عبد الله بن سلام. وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ بالكسر. وقرأ بعضهم «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكتاب» بضم العين وكسر اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وروي عن ابن عباس أنه كان يقول هذه السورة مدنية وكان يقرأ «وَمَنْ عِنْدَهُ» بالنصب.

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٧٥، النشر ٢/٢٩٨.

(٢) سقط في ظ.



سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ (١)

وهي اثنتان وخمسون(٢) آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ

(١) أضيفت هذه السورة إلى إسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكان ذلك إسماً لها لا يعرف لها غيره.

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات (ألر) وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ التي جاءت قصصهم فيها. أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة الحجر ولذلك لم تضف سورة الرعد إليه مثل ذلك لأنها متميزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراءوهي مكية كلها عند الجمهور وعن قتادة إلا آيتي ﴿ألم ترى إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ـ إلى قوله ـ وبئس القرار﴾ وقيل: إلى قوله ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ نزل ذلك في المشركين في قضية بدر. وليس ذلك إلا توهماً. وعدة آياتها أربعاً وخمسين عند المدنيين، وخمساً وخمسين عند أهل الشام، وإحدى وخمسين عن أهل البصرة، واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة. واشتملت من الأغراض على أنها ابتدئت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن وبالتنويه بشأنه وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة والامتنان بأن جعله بلسان العرب وتمجيد الله تعالى الذي أنزله ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه وإيقاظ المعاندين بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان بدعاً من الرسل. وأن كونه بشراً أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل وضرب له مثلاً برسالة موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل وتذكير قومه بنعم الله ووجوب شكرها.

وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب وكيف كانت عاقبة المكذبين وإقامة الحجة على تفرد الله تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته. وذكر البعث وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر. ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ. وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر. ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين. وعد بعض نعمه على الناس تفضيلاً ثم جمعها إجمالاً. ثم ذكر الفريقين بحال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام. وتحذيرهم من كفران النعمة. وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالذين ظلموا من قبل. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوعد النصر. وما تخلل ذلك من الأمثال. وختمت بكلمات جامعة من قوله (هذا بلاغ للناس) إلى آخرها. انظر التحرير والتنوير ١٣/١٧٧ ـ ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) في أ [وهي خمسون آية].

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿آلر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: هذا كتاب أنزلنا جبريل ليقرأه عليك وهو القرآن ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ أي لتدعو الناس ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: من الكفر إلى الإيمان. وسمى الكفر ظلمات لأن الكفر طريق الضلالة فمن وقع فيه ضل الطريق وسمى الإيمان نوراً لأنه طريق واضح مبين ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: بأمر ربهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ يعني: دين الإسلام، العزيز المنيع بالنقمة لمن عصاه ولم يجب الرسل. الحميد لمن وحده. ويقال الحميد في فعاله. ويقال الحميد لأفعال الخلق يشكر لهم اليسير من أعمالهم ويعطي الجزيل. ثم قال تعالى: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق. قرأ ابن عامر ونافع[1] «اللَّهُ» بالضم على معنى الابتداء. وقرأ الباقون «اللَّهِ» بالكسر على معنى البناء ثم قال ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني الكافرين بوحدانية الله تعالى ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: غليظ دائم. والويل الشدة من العذاب. ويقال: الويل وادٍ في جهنم. ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يعني يستأثرون ويختارون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن ملة الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يعني: يريدون بملة الإسلام غيراً وزيغاً ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق. يعني: في خطإ طويل بعيد عن الحق. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ يعني: بلغة قومه ليفهموه وليكون أبين لهم يعني: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ طريق الهدى ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن دين الإسلام من لم يكن أهلاً لذلك. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إلى دينه الإسلام من كان أهلاً لذلك[2] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وقضائه ويقال الحكيم حكم بالضلالة والهدى لمن يشاء. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني: باليد والعصا ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ يعني: ادع قومك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: من الكفر إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ يعني: خوفهم بمثل عذاب الأمم الخالية ليؤمنوا. وقال مجاهد:[3] أيام نعمه. وكذلك قال قتادة والسدي يعني ذكرهم نعمائي ليؤمنوا بي وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن حببني إلى عبادي. قال يا رب كيف أحببك إلى عبادك والقلوب بيدك. فأوحى الله إليه أن ذكرهم نعمائي ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني: في الذي فعلت بالأمم الخالية وما أعطيتهم من النعم لعلامات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله والصبار هو البالغ في الصبر ﴿شَكُورٍ﴾ يعني شكور لنعم الله تعالى. وهو على ميزان فَعُول وهو المبالغة في الشكر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

---

(١) النشر ٢/٢٩٨، سراج القارىء ٢٦٥. (٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٠، وعزاه لابن جرير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ۝٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: من فرعون وآله. كما قال في آية أخرى (وأغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ) يعني: فرعون وآله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يقول: يعذبونكم بأشد العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الصغار ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يعني: يستخدمون نساءكم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ يعني: ذبح الأبناء واستخدام النساء ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يعني: بلية عظيمة لكم من خالقكم. ويقال في إنجاء الله نعمة عظيمة لكم. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: قال. ويقال أعلم ربكم ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي عليكم ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من النعمة ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيد الله وجحدتم نعمتي عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ في الآخرة. قال الفقيه: حدثنا أبي رحمه الله بإسناده عن أبي هريرة أنه قال: من رزق ستاً لم يحرم ستاً. من رزق الشكر لم يحرم الزيادة لقوله تعالى: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ». ومن رزق الصبر لم يحرم الثواب لقوله تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» ومن رزق التوبة لم يحرم القبول لقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة لقوله تعالى: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً» ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة لقوله تعالى: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» ومن رزق النفقة لم يحرم الخلف لقوله تعالى: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ». قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ يعني إن جحدتم نعم الله ولم تؤمنوا به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ يعني: عن إيمانكم وطاعتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ لمن عبده منكم بالمغفرة. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يقول: ألم يأتكم في القرآن خبر الذين من قبلكم من الأمم الماضية، كيف عذبهم الله تعالى عند تكذيب رسلهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف أهلكهم بالغرق ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكهم الله بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أهلكهم بالصيحة. فهذا تهديد لأهل مكة ليعتبروا بهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كيف عذبوا ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: لا يعلم عددهم إلا الله قال ابن مسعود: كذب النسابون. وقرأ «وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُم إِلَّا اللَّهُ». ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: جاء الرسل بالأمر والنهي ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال مقاتل: وضع الكفار أيديهم على أفواههم فقالوا للرسل اسكتوا فإنكم كذبة. وإن العذاب غير نازل بنا وروى هبيرة بن يزيد عن عبد الله بن مسعود في قوله «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ». قال جعلوا أصابعهم في فيهم. وقال القتبي أي عضوا عليها حنقاً وغيظاً.

قال مجاهد[1] وقتادة: يعني: ردوا عليهم قولهم وكذبوهم. ويقال: فردوا أيديهم. يعني: نِعَم رسلهم. لأن مجيئهم بالبينات نعم. ومعنى قوله في أفواههم أي بأفواههم. أي ردوا تلك النعمة بالنطق بالتكذيب ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ فهذا هو ردهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ يعني: بما تدعونا إليه ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وهو المبالغة في الشك يعني ظاهر الشك.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٢ وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ يقول: أفي وحدانية الله شك وعلامات وحدانيته ظاهرة ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: تشكون في الله خالق السموات والأرض ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ يعني: يدعوكم إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى ليتجاوز عنكم ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: منتهى آجالكم فلا يصيبكم فيه العذاب. فأجابهم قومهم ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يقول: ما أنتم آلا آدميون مثلنا لا فضل لكم علينا بشيء ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾ أي تصرفونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الآلهة ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني: بحجة بينة. ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يقول: ما نحن إلا آدميون مثلكم كما تقولون ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ويختاره للنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ جواباً لقولهم فأتونا بسلطان مبين يعني لا ينبغي أن نأتيكم بِسُلْطانٍ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأن الأمر بيد الله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَاسُبُلَنَا﴾ يعني: وفقنا لطريق الإسلام. ويقال أكرمنا بالنبوة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثق الواثقون. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يعني: لتدخلن في ديننا. فهذا كله تعزية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يقول أوحى الله تعالى إلى الرسل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا لام القسم. ويراد به التأكيد للكلام أن يهلك الكافرين من قومهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يقول: لننزلنكم في الأرض من بعد هلاكهم. فأهلك الله تعالى قومهم فسكن الرسل ومن آمن معهم من المؤمنين ديارهم ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ يعني: ذلك الثواب لمن خاف مقامه يوم القيامة بين يدي رب العالمين. وروي عن أبي بن كعب أنه قال: يقومون ثلاثمائة عام لا يؤذن لهم فيقعدون. أما المؤمنون فيهون عليهم كما يهون عليهم الصلاة المكتوبة، وروي عن منصور عن خيثمة أنه قال: كنا عند عبد الله بن عمر. فقلنا إن عبد الله بن مسعود كان يقول إن الرجل ليعرق حتى يسبح في عرقه ثم يرفعه العرق حتى يلجمه فقال ابن عمر. هذا للكفار فما للمؤمنين؟ فقلنا الله أعلم. فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن حدثكم أول الحديث ولم يحدثكم آخره إن للمؤمنين كراسي يجلسون عليها ويظلل عليهم بالغمام ويكون يوم القيامة عليهم

كساعة من نهاره ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وخشي عذابي عليه. قرأ نافع في رواية ورش[1] «وَعِيدِي» بالياء يعني عذاب الله وقرأ الباقون بغير ياء لأن الكسرة تقوم مقامه. وأصله الياء.

وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

ثم قال ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ يقول واستنصروا. قال قتادة[2]: استنصرت الرسل على قومها. وقال مقاتل: يعني قومهم دعوا الله فقالوا: اللهم إن كانت رسلنا صادقين فعذبنا. ويقال استنصر كلا الفريقين ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يقول خسر عند الدعاء كل متكبر عن الإيمان معرض عن التوحيد. وقال الزجاج الجبار الذي يضرب عند الغضب ويقتل عند الغضب. وقال مجاهد:[3] كل جبار عنيد أي معاند للحق مجانب. ويقال نزلت في أبي جهل. قوله تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ يقول: من قدامهم يعني: بعد الموت ويقال من بعدهم جهنم. ويقال يعني أمامه كقوله تعالى: (وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ) يعني: أمامهم. ثم قال: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ يعني: بما يسيل من جلودهم من القيح والدم. ويقال ماء كهيئة الصديد. قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يعني: يردده في حلقه ﴿وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يقول: ولا يقدر على ابتلاعه لكراهيته ويقال يجتره ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ (يعني: غم الموت وألمه وطعمه من كل مكان من جسده)[4]. ويقال: من كل ناحية ومن كل عرق ومن كل موضع شعرة يجد مرارة الموت ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ يعني: لا يموت أبداً ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ يعني: من بعد الصديد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يعني: شديد لا يفتر عنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: صفة الذين كفروا. ويقال: مثل أعمال الذين كفروا بربهم يوم القيامة ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ يقول: ذرت به الريح ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ يعني: قاصف شديد الريح. فكذلك أعمال الكفار. أحبط الله ثواب أعمالهم وهذا كقوله (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) لأن أعمالهم كانت بغير إيمان ولا تُقبل الأعمال إلا بالإيمان. ولا ثواب لهم بها. قرأ نافع «اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ» بالألف وقرأ الباقون بغير ألف ﴿لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ يعني لا يقدرون على ثواب أعمالهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ يعني: الخطأ البعيد عن الحق. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ يعني: ألم تعلم أن الله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[5] «خالِقُ السموات والأرض» بكسر الضاد على معنى الإضافة. وقرأ الباقون «خَلَقَ

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٦٧.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) سقط في ظ.
(٥) وحجتهما أنه إذا قرئ على (فاعل) وأضيف دخل به معنى (الماضي) ودخل فيه معنى المدح يكسبه لفظ فاعل. ومما يقوي ذلك:

السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ» بنصب الضاد على معنى فعل الماضي. وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني بالعدل ويقال ببيان الحق ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يقول يميتكم ويهلكهم إن عصيتموه ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني: قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع لله تعالى فهذا تهديد من الله ليخافوه. ثم قال ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يعني: إهلاككم ليس على الله بشديد.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ يقول وخرجوا من قبورهم لأمر الله تعالى. يعني القادة والأتباع اجتمعوا للحشر والحساب. وهذا كقوله (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً). ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ يعني: الأتباع والسفلة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ في الدنيا نطيعكم فيما أمرتمونا به ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ يقول: حاملون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا﴾ يعني القادة للسفلة ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ يعني: لو أكرمنا الله بالهدي والتوحيد لهديناكم لدينه. ويقال: معناه لو أدخلنا الله الجنة لشفعنا لكم. ثم قالت القادة للسفلة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ العذاب ﴿أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ يعني: من مفر ولا ملجأ من العذاب. وروى أسباط عن السدي أنه قال: يقول أهل النار تعالوا فلنصبر لعل الله يرحمنا بصبرنا فيصبرون فلا يرحمون. فيقولون تعالوا فلنجزع لعل الله يرحمنا بجزعنا فيجزعون فلا يغني عنهم شيئاً فيقولون «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ». قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ روى سفيان عن رجل عن الحسن[1] أنه قال: إذا كان يوم القيامة ودخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» الآية. ويقال إنهم لما دخلوا النار أقبلوا على إبليس وجعلوا يلومونه ويقولون أنت الذي أضللتنا فيرد عليهم. فبين الله تعالى رده عليهم لكيلا يغتروا به في الدنيا فذلك قوله «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ» يعني لما فرغ من الأمر حين دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فقال إبليس لأهل النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ يعني: البعث بعد الموت أو الجنة والنار ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ بأنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فكذبتم الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني لم يكن لي قدرة الإكراه والقهر. ويقال لم أكن ملكاً فقهرتكم على عبادتي ويقال: لم يكن لي حجة على ما قلت لكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ يعني: سوى أن دعوتكم إلى طاعتي ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ يعني أجبتم لي

﴿فاطر السموات والأرض﴾ ألا ترى أن ﴿فاطراً﴾ بمعنى خالق وكذلك (فالق الإصباح) هو على فاعل دون فَعَلَ.

وقرأ الباقون: ﴿خَلَقَ السموات والأرض﴾ نصباً وحجتهم أن أكثر ما جاء في القرآن على هذا اللفظ من قوله: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ ﴿خلق السموات بغير عمد﴾ ونظائر ذلك. انظر حجة القراءات ٣٧٧.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

طوعاً واختياراً ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بدعوتي إياكم ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالإجابة ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم فأخرجكم من النار ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ يقول: ولا أنتم مغيثي فتخرجونني من النار ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ قال الكلبي: فيه تقديم وتأخير. يقول إني كفرت من قبل[1] (ما عذلتموني)[2] وكنت كافراً قبل ذلك فليس لكم عندي صراخ ولا إجابة. وقال مقاتل معناه: إني تبرأت اليوم مما أشركتموني مع الله في طاعتي من قبل في الدنيا. وقال القتبي في قوله: إني كفرت وتبرأت كقوله في سورة الممتحنة (كَفَرْنَا بِكُمْ) أي تبرأنا منكم وكقوله في العنكبوت (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) يعني: يتبرأ وهذا موافق لقوله تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ). ثم قال: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الكافرين لهم عذاب دائم. قرأ[3] حمزة (بِمُصْرِخِيِّ) بكسر الياء وهي قراءة الأعمش. وقرأ الباقون بنصب الياء. قال أبو عبيدة: النصب أحسن والأول ما نراه إلا غلطاً. وهكذا قال الزجاج. ويقال: هي لغة لبعض العرب والنصب هي اللغة الظاهرة. قرأ أبو عمرو «أَشْرَكْتُمُونِي» بالياء عند الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء.

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: وحدوا الله وأدوا الفرائض وانتهوا عن المحارم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهي الأنهار التي ذكرت في آية أُخرى (أَنْهَارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ) الآية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في الجنة لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر سيدهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يعني: يسلم بعضهم على بعض. ويقال لهم التحية من الله تعالى. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ يقول: كيف بين الله شبهاً ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمة الإخلاص لا إله إلا الله. لا تكون في كلمة التوحيد زيادة ولا نقصان ولكن يكون لها مدد. وهو التوفيق بالطاعات في الأوقات ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة. كما أنه ليس في الثمار شيء أحلى وأطيب من الرطب فكذلك ليس في الكلام شيء أطيب من كلمة الإخلاص. ثم وصف النخلة فقال ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني: في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يعني رأسها في الهواء فكذلك الإخلاص يثبت في قلب المؤمن كما تثبت النخلة في الأرض فإذا تكلم المؤمن بالإخلاص فإنها تصعد في السماء كما أن النخلة رأسها في السماء وكما أن النخلة لها فضل على سائر الشجر في الطول واللون والطيب والحسن فكذلك كلمة الإخلاص لها فضل على سائر الكلام. فهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن. يقول المعرفة في قلب المؤمن العارف ثابتة كالشجرة الثابتة في الأرض بل هي أثبت لأن الشجرة تقطع ومعرفة العارف لا يقدر أحد أن يخرجها من قلبه إلا المعرف الذي عرفه. ويقال وفرعها في السماء يعني: ترفع أعمال المؤمن المصدق إلى السماء. لأن الأعمال لا تقبل بغير إيمان. لأن الإيمان أصل. والأعمال فروعه فترفع الأعمال ويقبل منه. ثم قال ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ يعني: تخرج ثمارها

---

(١) سقط في ظ.

(٢) في أ [وعبد تموني].

(٣) انظر النشر ٢/٢٩٨، سراج القارىء ٢٦٥، حجة القراءات ٣٧٧.

في كل وقت وتخرج منها في كل وقت من ألوان المنفعة كل حين يعني في كل وقت. روى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس أنه قال تؤتي أكلها كل حين يعني غدوة وعشية. وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال النخلة يكون حملها شهرين، فنرى أن الحين شهران. وروى هشام بن حسان عن عكرمة أنه قال حلف رجل فقال إن فعلت كذا إلى حين فعليَّ كذا فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى ناس من الفقهاء فسألهم فلم يقولوا شيئاً. قال عكرمة فقلت: إن من الحين حيناً لا يدرك كقوله تعالى: (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) وقوله: (فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ومنها ما يدرك كقوله: (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ) فأراد ما بين خروج الثمرة إلى صرامها فأراد به ستة أشهر. قال فأعجب أي فرح بذلك عمر ابن عبد العزيز. وروي عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن امرأة حلفت ألَّا تدخل على أهلها حيناً. قال الحين ما بين طلوع الطلع إلى أن يجد وبين أن يجد إلى أن يطلع الطلع، يعني ستة أشهر. وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال الحين ما بين الثمرتين. يعني سنة. وعن وهب بن منبه أنه قال الحين السنة وعن مقاتل: سنة. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: الحين ستة أشهر. وقال عكرمة: النخلة لا يزال فيها شيء ينتفع به إما ثمرة وإما حطبة. فكذلك الكلمة الطيبة ينتفع بها صاحبها في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بأمر ربها ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ يعني يبين الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون ويتفكرون في الأمثال فيوحدونه.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: كلمة الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة ليس لها حلاوة ولا طهارة ولا رائحة طيبة. فكذلك الشرك بالله خبيث. ثم وصف الشجرة فقال: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾ يقول اقتلعت من فوق الأرض ﴿مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يعني: ليس لها أصل يجيء بها الريح ويذهب فكذلك الكفر ليس له أصل ولا حجة في الأرض ولا في السماء. ثم قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ بلا إله إلا الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: يثبتهم على ذلك القول عند النزع ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني: في القبر. وقال البراء بن عازب[١] نزلت الآية في عذاب القبر. يسأل من ربك ومن نبيك وما دينك؟ يعني إذا أجاب فقد ثبته الله تعالى وقال الضحاك إذا وضع المؤمن في قبره وانصرف عنه الناس دخل عليه ملكان فيجلسانه ويسألانه من ربك ومن نبيك وما دينك وما كتابك وما قبلتك؟ فيثبته الله في القبر كما يثبته في الحياة الدنيا بالإقرار بالله تعالى وكتبه ورسله. وروى ابن طاووس عن[٢] أبيه أنه قال في الحياة الدنيا يعني قول لا إله إلا الله يثبتهم عليها في الدنيا وفي الآخرة عند المسألة في القبر وهكذا قال قتادة. وقال الربيع بن أنس في الحياة الدنيا يعني: في القبر. وفي الآخرة يعني: يوم الحساب. ويقال في الحياة الدنيا وفي الآخرة يعني: يموت على الإيمان ويبعث يوم القيامة مع الإيمان. ثم قال ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: عن الحجة فلا يقولونها في القبر. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (١٣٦٩، ٤٦٩٩) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧١/٧٣) وأبو داود (٤٧٥٠) والترمذي (٣١٢٠) والنسائي (٢٠٥٧) وابن ماجه (٤٢٦٩).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨١/٤ وعزاه لابن جرير وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قال إذا دخل الكافر والمنافق قبره قالا له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول لا أدري فيقولان له لا دريت ويضربانه بمرزبة فيصيح صيحة يسمعها ما بين الخافقين إلا الجن والإنس وهو قوله تعالى: (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: ما شاء للمؤمنين أن يثبتهم وللكافرين أن يضلهم عن الجواب.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً﴾ قال مقاتل: كانت النعمة أن الله أطعمهم من جوع يعني قريشاً وآمنهم من خوف. يعني من القتل ثم بعث فيهم رسولاً منهم فكفروا بهذه النعمة وبدلوها. وهم بنو أمية وبنو المغيرة ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ يعني وأنزلوا سائر قريش دار البوار يعني: دار الهلاك بلغة عمان. أهلكوا قومهم ثم يصيرون بعد القتل إلى جهنم يوم القيامة فذلك قوله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً» (أي غيروا نعمة الله عليهم بالكفر) «وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» يعني: دار الهلاك ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ هي دارهم في الآخرة[1]. قال الكلبي أحلوا قومهم دار البوار يعني مصرعهم ببدر. «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا» يعني: يدخلونها يوم القيامة ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ يعني: بئس المستقر جهنم. ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ يعني: أي شركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: ليصرفوا الناس من دين الإسلام قرأ أبو عمرو وابن كثير[2] «لِيَضِلُّوا» بنصب الياء يعني إنهم أخطأوا الطريق وضلوا. وقرأ الباقون بالضم. يعني ليصرفوا الناس عن الهدى. قال الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ يعني: عيشوا في الدنيا وتمتعوا بها ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ يعني: مرجعكم يوم القيامة إلى النار. قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر[3] (قُلْ لِعِبَادِ) بغير ياء. وقرأ الباقون «لِعِبَادِيَ» بالياء مع النصب. وأصله الياء إلا أن الكسرة تغني عن الياء. وقال بعض الحكماء شرف الله تعالى عباده بهذه الياء وهي خير لهم من الدنيا وما فيها. لأن فيه إضافة إلى نفسه والإضافة تدل على العتق. لأن رجلاً لو قال لعبده يا ابن أو يا ولد لا يعتق. ولو قال يا ولدي أو يا ابني يعتق بالإضافة إلى نفسه. فكذلك إذا أضاف الله العباد إلى نفسه فيه دليل على أن يعتقهم من النار ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: يتمونها بركوعها وسجودها ومواقيتها ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا

(١) في أ [قال قتادة وهم قادة المشركين يوم بدر].

(٢) انظر حجة القراءات ٣٧٨، النشر ٢/٢٩٩.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٦٩.

رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: سراً على المتعففين وعلانية على السائلين ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يعني: لا فداء فيه ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ يعني لا مخالة تنفعه وهي الصداقة «لأنه» إذا نزل بهم شدة في الدنيا يعادون ويشفع خليلهم وليس في الآخرة شيء من ذلك وإنما هي أعمالهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو «لا بَيْعَ ولا خِلَالَ» بنصب العين واللام. وقرأ الباقون بالرفع والتنوين فيهما. وهذا الاختلاف مثل قوله: «ولا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَة». ثم بين دلائل وحدانيته فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ يعني: فأنبت بالمطر ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ يقول: بإذنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يعني: دائمين مطيعين. يعني: ذلل لكم ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني: لبني آدم يلتمسون فيها المعيشة وينتشرون في النهار إلى حوائجهم وفي الليل مستقرهم ومنامهم. ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يعني: أعطاكم من كل شيء لم تحسنوا أن تسألوا فأعطيتكم برحمتي. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: لم تسألوه بكل الذي أعطاكم. وقال معمر والحسن: آتاكم من كل الذي سألتموه. قال مجاهد:[1] كل ما رغبتم إليه قرأ بعضهم[2] «مِنْ كُلٍّ» بالتنوين يعني أعطاكم من كل شيء ثم قال: ما سألتموه يعني لم تسألوه ولا طلبتموه ولكن أعطيتكم برحمتي يعني ما ذكر مما سُخِّر للناس في هذه الآيات. وقراءة العامة «مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» من غير تنوين على معنى الإضافة يعني: من جميع ما سألتموه. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ يعني: لا تقدروا على أداء شكرها. ويقال تحصوها يعني: لا تحفظوها ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني: الكافر ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يعني: يظلم نفسه بالكفر بنعم الله تعالى.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ يعني: مكة، آمناً من القتل والغارة. ويقال من الجذام والبرص ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء البيت سأل ربه أن يجعل البلد آمناً، وخاف على بنيه. لأنه رأى القوم يعبدون الأصنام والأوثان. فسأل ربه أن يجنبهم عن عبادة الأوثان فقال (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ) يقول احفظني وبني ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ يعني: لكي لا نعبد. وفيه دليل أن المؤمن لا ينبغي له أن يأمن على إيمانه وينبغي أن يكون متضرعاً إلى الله ليثبته على الايمان كما سأله إبراهيم لنفسه ولبنيه بهذا الإسلام وأخاف أن تنزعه مني. فما دام هذا الخوف معي رجوت ألا تنزعه مني ثم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ يقول: بهن ضل كثير من الناس. فكأن الأصنام سبب لضلالتهم فنسب الإضلال إليهن وإن لم يكن منهن عمل في الحقيقة. وقال بعضهم: كان الاضلال منهن لأن الشياطين كانت تدخل أجواف الأصنام وتتكلم فذلك الاضلال منهن ثم قال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٦٩.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني: من آمن بي فهو معي على ديني. ويقال فهو من أمتي ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يعني لم يطعني ولم يوحدك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: أنزلت بعض ذريتي وهو إسماعيل عليه السلام ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني: بأرض مكة. وذلك أن لسارة كانت جارية يقال لها هاجر فوهبتها من إبراهيم فولدت منه إسماعيل فغارت سارة وناشدته أن يخرجها من أرض الشام فأخرجهما إبراهيم عليه السلام إلى أرض مكة ثم رجع إلى سارة فلما كبر إسماعيل رجع إبراهيم إليه وبنى معه البيت فذلك قوله «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» يعني: بأرض ليس فيها زرع ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يعني: حرم فيه القتال والاصطياد وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام وغير ذلك ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: وفقهم ليتموا الصلاة. وإنما ذكر الصلاة خاصة لأنها أولى العبادات وأفضلها ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: تشتاق إليهم قال مجاهد[1]: لو قال إبراهيم أفئدة الناس لزاحمتكم الروم وفارس ولكنه قال أفئدة من الناس. وقال سعيد بن جبير: لو قال إبراهيم أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى: ولكن قال أفئدة من الناس. ﴿وَارْزُقْهُمْ﴾ يعني أطعمهم ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يعني: لكي يشكروا.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ من الوجد بإسماعيل وهاجر والحب لهما ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ عند سارة من الصبر عنهما ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لا يذهب على الله شيء ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: من عمل أهل السماء وأهل الأرض. قال بعضهم: هذا كلام إبراهيم. وقال بعضهم هذا كلام الله تعالى «والله أعلم بالصواب». ثم رجع إلى كلام إبراهيم فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ يعني: بعد الكبر وهو ابن تسع وتسعين سنة في رواية الكلبي. وفي رواية الضحاك ابن مائة وعشرين سنة ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وكان إسماعيل أكبرهما بثلاث عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ يعني لمجيب الدعاء قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ يعني: أكرمني بإتمام الصلاة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني فأكرمهم أيضاً لإتمام الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي استجب دعائي. ويقال معناه تقبل عملي واستجب دعائي ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ قرأ بعضهم ولوالدتي لأن أمه كانت مسلمة وقرأ بعضهم ولِوَلَدَيّ[2]. يعني: إسماعيل وإسحاق. وقراءة العامة «وَلِوَالِدَيَّ» لأنه كان يستغفر لأبيه

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٨٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٩/٢٤٦

عن موعدة وعدها إياه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني اغفر لجميع المؤمنين ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يعني: يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة وابن عامر[1] ولا تَحْسَبَنَّ بنصب السين وقرأ الباقون بالكسر ومعناهما واحد. يعني لا تظن يا محمد أن الله غافل عما يعمل الظالمون يعني: المشركون. يعني إن أعمالهم لا تخفى على الله ولو شئت لعجلت عقوبتهم في الدنيا. قال ميمون بن مهران إن هذه الآية تعزية للمظلوم ووعيد الظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني يمهلهم ويؤجلهم قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين «نُؤخِرهُمْ» بالنون وقرأ الباقون بالياء ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ يعني: تذهب فيه أبصار الكافرين. وذلك حين عاينوا النار تشخص أبصارهم. قوله ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين. يقال أهطع البعير في السير إذا أسرع. ويقال مهطعين أي ناظرين قاصدين نحو الداعي. وقال قتادة:[2] يعني مسرعين ﴿مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ﴾ المقنع الذي يرفع رأسه شاخصاً بصره لا يطرق. وقال مجاهد:[3] مهطعين مديمي النظر. مقنعي رؤوسهم رافعيها. وقال الخليل ابن أحمد المهطع الذي قد أقبل إلى الشيء ينظره ولا يرفع عينه عنه. مقنعي يعني: رافعي رؤوسهم مادي أعناقهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ يعني: لا يرجع إلى الكفار بصرهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ يعني: خالية من كل خير كالهواء ما بين السماء والأرض وقال السدي: هوت أفئدتهم بين موضعها وبين الحنجرة فلم ترجع إلى موضعها ولم تخرج كقوله (إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ) وهكذا قال مقاتل. وقال أبو عبيدة هواء أي مجوفة لا عقول فيها ثم قال: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يعني: خوف أهل مكة ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أي أجلنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ لنرجع إلى الدنيا[4] ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ يعني: الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ على دينهم. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يقول حلفتم وأنتم في الدنيا من قبل هذا اليوم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي لا تزولون عن الدنيا ولا تبعثون.

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ﴾ يعني: نزلتم ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني منازل قوم عاد وثمود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ يقول: كيف عاقبناهم عند التكذيب ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ يقول: بينا ووصفنا لكم عصيانهم وجحودهم والعذاب الذي نزل بهم - يعني إنكم سمعتم هذا كله في الدنيا فلم تعتبروا فلو رجعتم بعد هذا اليوم لا تنفعكم الموعظة أيضاً. ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ يعني: صنعوا صنيعهم يعني: الأمم الخالية ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ يعني: علم الله مكرهم ولا يخفى عليه. قال علي[5] بن أبي طالب: وعند الله مكرهم التابوت

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٧١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٨٨ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) سقط في ظ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٨٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري.

والنسور وهو نمرود بن كنعان وقومه. وروى وكيع بإسناده عن عليّ رضي الله عنه قال: إن جباراً من الجبابرة قال لا أنتهي حتى أعلم ما في السماء فاتخذ أفراخ نسور. ثم أمر بها فأطعمت اللحم حتى اشتدت وغلظت واستفحلت فاتخذ تابوتاً يسع فيه رجلان. ثم أمر بالنسور فجوعت ثم ربط أرجلها بالأوتاد وشدت بقوائم التابوت وجعل في وسط التابوت اللحم. ثم جلس في التابوت هو ورجل معه ثم أرسل النسور وجعل اللحم على رأس خشبة على التابوت فطارت النسور إلى السماء ما شاء الله. ثم قال لصاحبه انظر ماذا ترى؟ فنظر فقال أرى الجبال كأنها الدخان ثم سار ما شاء الله ثم قال انظر فنظر فقال: ما أرى إلا السماء وما تزداد منها إلا بعداً. قال: نكس الخشبة فانقضت النسور حتى سقطت إلى الأرض فسمع هزة الجبال فكادت الجبال أن تزول من أماكنها ثم قرأ عليّ رضي الله عنه ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أي وقد كان مكرهم ليزيل الجبال عن أماكنها ويقال إن نمرود بن كنعان هو أول من تجبر وقهر وسن سنن السوء. وأول من لبس التاج فأهلكه الله تعالى ببعوضة في خياشمه فعذب بها أربعين يوماً ثم مات. وقال قتادة وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال يعني الكفار ادعوا لله تعالى ولداً فكاد أن يزول الجبال. ويقال يعني أهل مكة مكروا في دار الندوة وقد كاد مكرهم أن يزول منهم أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر دين الإسلام. إذ ثبوته كثبوت الجبال. لأن الله تعالى وعد لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إظهار دين الإسلام. بدليل ما قال بعد هذا ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ قرأ الكسائي[1] «لَتَزُولُ» بنصب اللام الأُولى ورفع الثاني وقرأ الباقون بكسر الأُولى ونصب الثانية «لِتَزُولَ» ومعناه ما كان مكرهم ليزول به أمر دين الإسلام إذ ثبوته كثبوت الجبال ومن قرأ «لَيَزُولُ» فمعناه وإن كان مكر الكفار ليبلغ إلى إزالة الجبال. فإن الله ينصر دينه. وروي عن ابن مسعود أن قرأ[2] «وإنْ كَادَ مَكْرُهُمْ». قوله تعالى: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) يعني: في نزول العذاب بكفار مكة إن شاء عجل لهم العقوبة في الدنيا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ذو النقم من الكفار.

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال عليّ بن أبي طالب يعني: غير هذه الأرض التي عليها بنو آدم، أرض بيضاء نقية لم يعمل فيها بالمعاصي ولا سفك عليها الدماء. وهكذا قال ابن مسعود[3]. قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو يعقوب قال: حدثنا محمد بن يونس العامري قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا القاسم بن الفضل عن الحسن عن عائشة[4] أنها قالت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ قال أما عند مواطن ثلاثة فلا، عند الصراط والكتاب والميزان. قالت قلت ألم يقل الله تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٧٩، النشر ٢ / ٣٠٠، سراج القارىء ٢٦٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٧٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤ / ٩٠ وعزاه للبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر.

الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ أين الناس يومئذ؟ قال سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك. فقال الناس يومئذ على الصراط. وروي عن ابن عباس أنه قال: تمد الأرض مد الأديم ويزاد في سعتها. ثم قال: ﴿**والسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ**﴾ يعني: خرجوا من قبورهم وظهروا ﴿**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾لخلقه. قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَى الْمُجرِمِينَ**﴾ يعني: المشركين ﴿**يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ**﴾ مسلسلين ﴿**فِي الْأَصْفَادِ**﴾ يعني في الأغلال يقرن كل كافر مع شيطان ﴿**سَرَابِيلُهُمْ**﴾ يعني: قمصهم ﴿**مِنْ قَطِرَانٍ**﴾ قال قتادة: هو النحاس المذاب. وقال الحسن البصري قطران الإبل[1] الآنك. وقال عكرمة[2] هو القطران الذي يطلى به الأشياء حتى يشتعل ناراً وقال الضحاك من صفر حار قد انتهى حره. وقال القتبي. مقرنين أي قرن بعضهم إلى بعض في الأغلال. وروي عن أبي هريرة أنه كان يقرأ من **قِطْرٍ آنٍ**. يقول القطر النحاس والآن الذي انتهى حره. ثم قال تعالى: ﴿**وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾ يعني: تعلو لوجوههم النار لا يمتنعون منها. قوله تعالى: ﴿**لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**﴾ من خير أو شر ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ إذا حاسب فحسابه سريع. قوله ﴿**هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ**﴾ يعني: هذا القرآن إرسال وبيان من الله تعالى. ويقال: أبلغكم عن الله تعالى: ﴿**وَلِيُنْذَرُوا بِهِ**﴾ يعني: ليخوفوا بالقرآن عن معصية الله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمُوا**﴾ يعني: لكي يعلموا ﴿**أَنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ صادق ﴿**وَلِيَذَّكَّرَ**﴾ أي ليتعظ بما أنزل من التخويف في القرآن ﴿**أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ يعني: ذوو العقول من الناس.

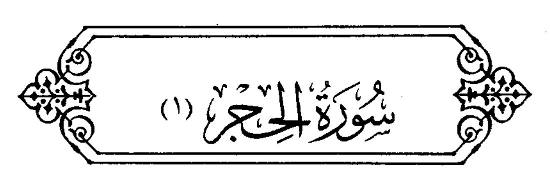
والله أعلم بالصواب[3].

---

(١) في أ [القطران الآنك].

(٢) وقع في (ظ).

(٣) تم المجلد الأول من تفسير أبي الليث بحمد الله وحسن توفيقه والصلاة والسلام على خير خلقه محمد سيد الأبرار وعلى آله وأصحابه المصطفين الأخيار، وقع الفراغ في تتميمه يوم الثلاثاء السابع من جمادى الأولى سنة اثنين وستين وسبعمائة، الحمد لله على نواله والصلاة على محمد وآله أجمعين.



تسعون وتسع آيات وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم قال الله عزّ وجلّ: ﴿آلر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب ﴿وقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين حلاله وحرامه. والكتاب والقرآن واحد. وقال قتادة: في قوله: وقرآن مبين بين الله رشده وهداه

---

(١) سميت هذه السورة سورة الحجر ووجه التسمية أن إسم الحجر لم يذكر في غيرها.

والحجر: إسم البلاد المعروفة به وهو حجر ثمود. وثمود هم أصحاب الحجر وهي مكية كلها وحكي الاتفاق عليه.

وعن الحسن استثناء قوله تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ بناء على أن سبعاً من المثاني هي سورة الفاتحة وعلى أنها مدنية هذا لا يصح لأن الأصح أن الفاتحة مكية.

واستثناء قوله تعالى: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ بناء على تفسير ﴿المقتسمين﴾ بأهل الكتاب وهو صحيح وتفسير ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ أنهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب. ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة وهذا باطل.

وقال في الإتقان: ينبغي استثناء قوله ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ لما أخرجه الترمذي وغيره في سبب نزولها وأنها في صفوف الصلاة.

وهو يشير بذلك إلى ما رواه الترمذي من طريق نوح بن قيس الجُذَامي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَسْنَاء فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر (أي من صفوف الرجال) فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ قال الترمذي ورواه جعفر بن سليمان ولم يذكر ابن عباس. وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح اهـ. وهذا توهين لطريق نوح.

قال ابن كثير في تفسيره: (وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. والظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس لابن عباس ذكر. فلا اعتماد إلا على حديث جعفر بن سليمان وهو مقطوع. وعدد آياتها تسع وتسعون باتفاق العادّين.

افتتحت بالحروف المقطعة التي فيها تعريض بالتحدي بإعجاز القرآن. وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه. وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم. وتوبيخهم بأنهم شَغَلَهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم. وإنذارهم بالهلاك عند حلول أوان الوعيد عينه الله في علمه.

وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عدم إيمانِ من لم يؤمنوا وما يقولونه في شأنه وما يتوركون بطلبه منه وأن تلك عادة المكذبين مع رسلهم. وأنهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به وأن الله حافظ كتابه من كيدهم. ثم إقامة الحجة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم وذكر البعث ودلائل إمكانه. وانتقل إلى خلق نوع الإنسان =

وخيره. ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قرأ نافع وعاصم[١] رُبَمَا بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد[٢]. قال‌عاصم قرأت عند زر بن حبيش رُبَّمَا بالتشديد. فقال إنك لتحب الرُّب وقال هي رُبَّمَا مخففة ولكن معناها واحد. فالتخفيف لغة لبعض العرب واللغة الظاهرة بالتشديد أي: ربما يأتي على الكافر يوم يتمنى أنه كان أسلم. ويقال أقسم الله تعالى بالألف واللام والراء إن هذا القرآن حق وهو بين لكم الحق من الباطل. وأقسم أنه رب يوم يأتي على الكافر يتمنى فيه أن لو كان مؤمناً في الدنيا يقول الكافر يا ليتني كنت مؤمناً في الدنيا أي: يعني: يقول يوم القيامة يا ليت كنت. وذلك أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلمين وَدَّ أن لو كان مسلماً. وروى سعيد بن جبير عن ابن‌عباس[٣]أنه قال: يخرج من النار حين يقال اخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. فيتمنى الكافر أن لو كان مؤمناً فذلك قوله «رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا» وروي عن حماد بن أبي سلمة أنه قال: سألت إبراهيم[٤] النخعي عن هذه الآية. قال نزلت في الكفار يعيرون أهل التوحيد ويقولون ما أغنى عنكم إيمانكم وأنتم معنا. فيغضب الله لهم فيأمر الله النبيين والملائكة فيشفعون. فيخرج أهل التوحيد من النار حتى إن إبليس يتطاول رجاء أن يخرج، ويتمنى الكافر أن لو كان مسلماً في الدنيا. حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا صالح بن أحمد قال. حدثنا محمد بن شوكر قال: حدثنا القاسم قال: حدثنا أبو حنيفة عن يزيد بن صهيب عن جابر بن عبد الله قال: سألته عن الشفاعة فقال: يعذب الله قوماً من أهل الإيمان ثم يخرجهم منها بشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت له فأين قوله (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا) قال اقرأ ما قبلها (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية. يعني إن تلك الآية نزلت في الكفار. وقال مجاهد: إذا أخرج من النار من قال لا إله إلا الله فعند ذلك يقولون يا ليتنا كنا مسلمين. وعن أبي العالية مثله ثم قال ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ يقول اتركهم وحل عنهم يا محمد في الدنيا يأكلوا ويتمتعوا يأكلوا كالأنعام ويتمتعوا بعيشهم في الدنيا لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ يعني يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة وعن ذكر الله تعالى. ويقال يشغلهم طول الأمل عن الطاعة وعن ذكر الأجل (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم. أي: يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة. قوله:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

= وما شرف الله به هذا النوع. وقصة كفر الشيطان. ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر. وختمت بتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتظار ساعة النصر وأن يصفح عن الذين يؤذونه ويكل أمرهم إلى الله ويشتغل بالمؤمنين وأن الله كافيه أعداءه. انظر التنوير ١٤/٥، ٦، ٧.

(١) انظر النشر ٢/٣٠١، سراج القارىء ٢٦٨، حجة القراءات ٣٨٠.

(٢) قال الكسائي: (هما لغتان والأصل التشديد لأنك لو صغَّرت (رب) لقلت: (رُبَيْب) فرددت إلى أصله) فإن قال قائل فما موضع (ما) في (ربما) قيل: فيه وجهان: أحدهما أن تكون (ما) نائبة عن اسم منكور في موضع جر بمعنى (شيء) وذلك كقول الشاعر:

ربما تكره النفوس من الأمر   له فُرْجَةٌ كحلِّ العقال

فـ (ما) في هذا البيت اسم لما تقدم من عود الذكر إليه من الصفة. المعنى رب شيء تكرهه النفوس.

قال البصري: تقديره: (رب وُدٍّ يودُّ الذين كفروا) والوجه الآخر: أن تدخل كافة نحو هذه الآية وذلك أن (إنَّ) و (رب) لا يليهما إلاَّ الأسماء فإذا وليتهما الأفعال وصلوهما بـ (ما) كقوله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ انظر ابن زنجلة ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٢ لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٤ وعزاه للحاكم في الكنى.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: أهل قرية ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ يعني أجلاً مؤقتاً ووقتاً معروفاً ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ يعني: لا يموت أحد قبل أجله ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بعد أجلهم طرفة عين ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي الذي يزعم أنه ينزل عليه القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ نزلت في عبد الله بن أمية ﴿لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يعني: هلا تأتينا الملائكة فتخبرنا بأنك رسول الله ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك نبي مرسل وأن العذاب نازل بنا. قال الله تعالى ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي والعذاب وقبض أرواحهم ﴿وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ يعني: إذا نزلت عليهم الملائكة لا يؤجلون بعد نزول الملائكة. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ما نُنَزِّلُ بالنون وتشديد الزاي ونصب الملائكة من قولك نَزَّل يُنَزِّلُ. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] «ما تُنَزَّلُ» بالتاء والضم ونصب الزاي مع التشديد. على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون «ما تَنَزَّلُ» بنصب التاء وتشديد الزاي. فجعل الفعل للملائكة ثم قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يعني القرآن: ويقال يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القتل. وقال قتادة:[2] يعني القرآن يحفظه الله تعالى من أن يزيد فيه الشيطان باطلاً أو يبطل منه حقاً. وذلك قال مقاتل. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: قد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: في أمم وقرون الأولين قبل أمتك ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: كانوا يسخرون منهم كما سخر منك قومك. ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ بعضهم نُسْلِكُه بضم النون وكسر اللام. وقراءة العامة بنصب النون وضم اللام وهما لغتان يقال سلكت الخيط في الإبرة إذا أدخلته فيها. ومعناه هكذا ندخل الإضلال في قلوب المجرمين أي: المشركين عقوبة ومجازاة لكفرهم. ويقال معناه هكذا نطبع على قلوب المجرمين، ويقال: نجعل حلاوة التكذيب بالعذاب. ويقال: الشرك في قلوب المشركين الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: لا يصدقون بالله ويقال بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: بالعذاب إنه غير نازل ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنة الأولين. نأتيهم بالعذاب عند التكذيب، ويقال تقدمت سيرة الأولين بالهلاك. قوله ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: فصاروا يصعدون فيه، وينزلون. يعني الملائكة ويراهم المشركون وهم أهل مكة ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ يقول: أخذت وغشيت أبصارنا ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ولقالوا سحرنا فلا نبصر. وروى قتادة عن أبي صالح أنه قال: لو

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨١، النشر ٢/٣٠١.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فتح الله عليهم باباً من السماء فظلت الملائكة يعرجون فيه لقالوا أخذت أبصارنا. قرأ ابن كثير[1] سَكِرَتْ بالتخفيف وهكذا قرأ الحسن. وقرأ الباقون بالتشديد وقال القتبي: سُكِّرَتْ بالتشديد أي: غُشِّيَتْ، ومنه يقال سُكْر النهر إذا سد ومنه يقال: سكر الشراب وهو الغطاء على العقل. ومن قرأ سُكِرَت بالتخفيف يعني: سحرت. يعني إنهم لا يعتبرون به كما لم يعتبروا بانشقاق القمر حين رأوه معاينة.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً**﴾[2] أي خلقنا نجوماً. ويقال: هي القصور في السماء. وقال الضحاك وسعيد بن المسيب ومجاهد: هي النجوم ﴿**وَزَيَّنَّاهَا للنَّاظِرِينَ**﴾ أي: زينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها ﴿**وَحَفِظْنَاهَا**﴾ السماء ﴿**مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**﴾ أي مرجوم ويقال ملعون مبعد من الرحمة ﴿**إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ**﴾ أي: لكن من اختلس السمع خلسة ﴿**فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ**﴾ يعني: لحقه نجم حار متوهج متوقد لا يخطئه الشهاب أن يصيبه، فإما أن يأتي على نفسه أو أن يخبله حتى لا يعود إلى الاستماع إلى السماء. وقال ابن عباس: إن أهل الجاهلية من الكهنة قالوا: لا يكون كاهن إلا ومعه تابع من الجن، فينطلق الشياطين الذين كانوا مع الكهنة فيقعدون من السماء مقاعد السمع ويستمعون إلى ما هو كائن في الأرض من الملائكة فينزلون به على كهنتهم فيقولون إنه قد كان كذا وكذا من الأمر فتفشيه كهنتهم إلى الناس فيتكلمون به قبل أن ينزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من الأنبياء السابقين) فإذا تكلم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا قد علمنا قبلك. وكانت الشياطين تحجب عن الاستماع في السموات حتى بعث عيسى بن مريم عليه السلام، فلما بعث منعوا من ثلاث سموات وكانوا يصعدون في أربع سماوات فلما بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منعوا من السموات السبع. وكان الشيطان المارد منهم يصعد ويكون آخر أسفل منه، فإذا استمع قال للذي أسفل منه قد كان من الأمر كذا وكذا، فيهرب الأسفل ويرمي الذي استمع بالشهاب ويأتي الأسفل بالأمر الذي سمع إلى كهنتهم فذلك قوله «**إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ**

---

(١) انظر النشر ٢/ ٣٠١ حجة القراءات ٣٨٢.

(٢) والبروج: جمع بُرْج ـ بضم الباء ـ وحقيقته البناء الكبير المتخذ للسكنى أو للتحصّن. وهو يرادف القصر. قال تعالى: ﴿**ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ وأطلق البرج على بقعة معينة من سمت طائفة من النجوم غير السيارة وتسمى النجوم الثوابت متجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يشاهد من الجو فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطاً لو خُططت بينها خطوط لخرج منها شبه صورة حيوان أو آلة سموا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس. وقد سماها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان وسماها العرب بروجاً ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سبباً لوضع الاسم تخيلوا أنها منازل للشمس لأنهم وقتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قبة الجو نهاراً فيما يخيل للناظر أن الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكاناً بعدد شهور السنة الشمسية.

وهي على هذا الترتيب ابتداء من برج مدخل فصل الربيع: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت. فاعتبروا لبرج الحمل شهر (أبريل) وهكذا. انظر التحرير ١٤/ ٢٨ ـ ٢٩.

مُّبِينٌ» ثم قال ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ يقول: بسطناها على الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: الجبال الثوابت لكي لا تتحرك من أمكنتها ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الجبال ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي مقسوم معلوم ويقال من كل شيء موزون مما يخرج من الجبال من الحديد والرصاص والفضة والذهب. ويقال: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا. يعني: الأرض مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ يعني: مقدراً معلوماً من الحبوب ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: عيشاً من الزرع والنبات ويقال وأنبتنا فيها أي في الأرض من كل شيء موزون أي معدود من الحبوب وغيره ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يعني خلقنا فيها معايشهم ومعايش البهائم والوحوش والطيور. يعني: أنتم لستم ترزقونها وأنا أرزقها. قوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: مفاتيح رزقه ويقال: علمه كقوله: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) ويقال: يعني خزائن الغيب وهو المطر، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ أي: المطر ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: بكيل ووزن معروف. قال ابن عباس أي: يعلمه الخزان إلا يوم الطوفان الذي اغرق الله به قوم نوح فإنه طغى على خزانه وكثر فلم يحفظوا ما خرج منه يومئذ، خرج أربعين يوماً.

وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1] يعني: بعث الله الريح فتلقح السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر. هذا قول ابن مسعود[2]، وقال ابن عباس[3] أي: في قوله (وأرسلنا الرياح لواقح) ملقحات تُلقح الأشجار، وقال قتادة لواقح أي تلقح السحاب وهكذا قال الكلبي.

قرأ حمزة «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ» بلفظ الوحدان وقرأ الباقون بلفظة الجماعة. ثم قال ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ يعني: فأرويناكموه به أي حبستم الماء في الغدران والحياض لتسقوا الضياع والمواشي ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي بمالكين وحافظين، ويقال ليس مفاتيحه بأيديكم ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي للبعث ونميت في الدنيا، ويقال: نحيي الأرض بالمطر أيام الربيع ونميتها أيام الخريف ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي المالكون ويقال: معناه يهلك الخلق ويبقى الرب تبارك وتعالى. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ أي: الأموات ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ يعني: الأحياء، ويقال: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصف الأول ولقد علمنا المستأخرين في الصف الآخر. وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس[4] أنه قال: كانت امرأة حسناء تصلي خلف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان بعض القوم يتقدم الصف الأول لكيلا يراها ويتأخر بعضهم. فإذا ركع نظر من تحت إبطيه. فنزلَ «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ولقد علمنا المستأخرين» ويقال إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرض الناس على الصف الأول وكان قوم بيوتهم قاصية من المسجد فقالوا لنبيعن

---

(١) انظر ابن زنجلة ٣٨٢ وتقدم ذلك.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٩٦/٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٩٦/٤ وعزاه لأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة الحجر (٣١٢٢) والنسائي في المجتبى كتاب الإمامة باب المنفرد خلف الصف (٨٧٠) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٤٦) والطيالسي في المسند (٢٧١٢) وابن جرير في التفسير (١٨/١٤). والطبراني في الكبير ١٧١/١٢ (١٢٧٩١) وابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد (١٧٤٩) والحاكم في المستدرك ٣٥٣/٢، والبيهقي ٩٨/٣.

دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف الأول فصارت الديار البعيدة خالية فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أتى المسجد فإنه يكتب آثاره ويكتب له بكل خطوة كذا وكذا حسنة وترفع له كذا وكذا درجة فجعل الناس يشترون الدور البعيدة من المسجد لكي يكتب لهم آثارهم فنزل «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ» وإنما يؤجرون بالنية فاطمأنوا وسكنوا. وقال مجاهد[1] ولقد علمنا المستقدمين أي: ما مضى ولقد علمنا المستأخرين ما بقي من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال قتادة المستقدمين آدم ومن مات قبل نزول هذه الآية والمستأخرين من لم يخلق بعد، كلهم قد علمهم، وقال الحسن: المستقدمين في الخير والمستأخرين عنه يقول: المبطئين.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

وقوله ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ**﴾ يعني: يجمعهم يوم القيامة ﴿**إِنَّهُ حَكِيمٌ**﴾ حكم بحشر الأولين والآخرين ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بهم قوله: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ**﴾ أي: آدم ﴿**مِن صَلْصَالٍ**﴾ أي: من طين يتصلصل إذا مشيت عليه يتقلقل وإذا تركته ينغلق ﴿**مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ أي: من طين أسود منتن. وقال الأخفش أي: من طين مصبوب، ويقال مسنون أي: متغير الرائحة كقوله: (لَمْ يَتَسَنَّه) ويقال: الذي أتت عليه السنون. وقال القتبي :الصلصال الطين اليابس الذي لم تصبه نار، إذا ضربته صوت وإذا مسته النار فهو فخار، والمسنون المتغير الرائحة. والحمأ جمع حمئة وهو الطين المتغير ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ**﴾ يعني: إبليس ويقال: الجان أبو الجن خلقناه من قبل آدم ﴿**مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾ قال ابن عباس: هي نار لا دخان لها تكون بين السماء وبين الحجاب. وقال آخرون من نار السموم أي من نار حارة.

قال الكسائي الجن والجنة من أصل واحد ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**﴾ يعني وقد قال ربك للملائكة الذين هم في الأرض مع إبليس سكان الأرض ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً**﴾ أي: سأخلق خلقاً ﴿**مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**﴾ أي جمعت خلقه ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ أي: جعلت الروح فيه ﴿**فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ أي فخروا له.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٨ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

أي فاسجدوا له بأجمعكم ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: سجدة التحية لا سجدة العبادة، وكانت التحية لآدم عليه السلام والعبادة لله تعالى ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ روي عن الخليل بن أحمد أنه قال «أجمعون» على معنى توكيد بعد توكيد، وذكر عن محمد بن يزيد عن المبرد أنه قال: معناه سجدوا كلهم في حالة واحدة وقال الزجاج الأول أجود لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالاً ثم قال ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قال بعضهم معناه لكن إبليس لم يكن من الساجدين. لأن إبليس لم يكن من الملائكة. فيكون الاستثناء من غير جنس ما تقدم بدليل قوله: (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ) وقال بعضهم استثنى إبليس من الملائكة وكان من جنسهم إلا أنه لما لم يسجد لعن وغير عن صورة الملائكة (ولا يكون الاستثناء من غير جنس) فذلك قوله (إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: تعظم عن السجود لآدم مع الملائكة ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: مع الملائكة ﴿قَالَ﴾ أي إبليس ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ويقال من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: ملعون مطرود فألحقه بجزائر البحور ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: طرد من رحمته يوم الحساب. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي: أجلني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: من المؤجلين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: إلى النفخة الأولى ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يعني كما أضللتني عن الهدى لأجل آدم. وقال القتبي: بإغوائك إياي أي: لأضلنهم عن الهدى ﴿أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[1]. «الْمُخْلِصِينَ» بكسر اللام. أي: المخلصين في العبادة ويقال الموحدين وقرأ الكسائي ونافع وحمزة وعاصم «الْمُخْلَصِينَ» بنصب اللام أي: المعصومين من الشرك. قال: حدثنا الفقيه أبو جعفر. قال: حدثنا أبو القاسم. قال: حدثنا محمد بن سلمة قال: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام عن الحسن قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لما لعن إبليس قال فبعزتك لا أُفارق قلب ابن آدم حتى يموت. قال: قيل له: وعزتي لا أحجب عنه التوبة حتى يغرغر بالموت، ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أي: هذا التوحيد صراط ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ على دلالته، وهذا قول الحسن[2] ويقال: معناه: على ممر من أطاعك ومن عصاك كقوله: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) ويقال: معناه: هذا بيدي لا بيدك. وقال الضحاك: هذا سبيل الله علي مستقيم أي عليّ هدايته ودلالته كقوله: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وروي عن ابن[3] سيرين أنه كان يقرأ هذا صراط عَلِيٌّ مستقيم» بكسر اللام ورفع الياء مع التنوين ومعناه هذا صراط رفيع مستقيم وهو قول قتادة أي: طريق شريف لا عوج فيه.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أي: عبادي الذين لا يطيعونك ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة ولا ملك ولا أسلطك

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٧٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٩ وعزاه لابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٩ وعزاه لأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر.

عليهم. كقوله: (إنَّه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من أطاعك من الكافرين، ويقال: معناه: إنما نفاذ دعوتك ووسوستك لمن اتبعك من المشركين، ثم بين مصير من اتبعه ومصير من لم يتبعه فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لمصير من اتبعه ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي: سبعة منازل ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: لكل منزل صنف ممن يعذب من الكفار على قدر منزلته من الذنب نصيب معروف، أسفلها: هاوية. وهي لآل فرعون ولأصحاب المائدة الذين كفروا بعيسى وللمنافقين والزنادقة، والثانية: لظى وهي منزلة المجوس والثنوية الذين (قالوا بإلهين) والثالثة: سقر وهي منزل المشركين وعبدة الأوثان والرابعة: الجحيم وهي منزلة اليهود الذين كذبوا الرسل وقتلوا أنبياء الله بغير حق والخامسة: الحطمة وهي منزلة النصارى الذين كذبوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا قولاً عظيماً والسادسة: السعير وهي منزلة الصابئين ومن أعرض عن دين الإسلام وخرج منه والسابعة: جهنم وهي أعلى المنازل وعليها ممر الخلق كلهم وهي منزل أهل الكبائر من المسلمين. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح الباب الأول: جهنم والثاني: السعير والثالث: سقر والرابع الجحيم والخامس لظى والسادس الحطمة والسابع: الهاوية. وقال بعضهم: جهنم اسم عام يقع على الإدراك كلها. والأول أصح إن جهنم اسم لا يقع على الإدراك. وهكذا روي عن جماعة من الصحابة ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين يتقون الشرك والفواحش ويتقون إجابة الشيطان في بساتين وعيون طاهرة ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ يعني: مسلمين آمنين ويقال سالمين ناجين من العذاب ﴿آمِنِينَ﴾ أي: من الموت والخوف وإبليس والعزل والحوادث والآفات والعاقبة والقطيعة والفراق. قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي: من حسد وعداوة كانت بينهم في الدنيا، ويكونون في الآخرة ﴿إِخْوَاناً﴾ صار نصباً على الحال ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي: متزاورين متحدثين. وروى سفيان عن منصور عن إبراهيم أن علياً[1] قال أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غلٍّ إخواناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» وروى ربعي بن خراش قال: قال رجل من همدان فقال: يا أمير المؤمنين الله أعدل من ذلك، فصاح به عليٌ فقال إذا لم نكن نحن فمن هم؟ ثم قال ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يقول: لا يصيبهم في الجنة تعب ولا مشقة ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي: من الجنة.

نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

ثم قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أي: أخبر عبادي يا محمد ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب منهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ (لمن مات على الكفر ولم يتب) قال: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا إسحاق بن عبد الرحمن قال: حدثنا محمد بن شاذان الجوهري، قال: حدثنا محمد بن مقاتل قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: حدثنا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

مصعب بن ثابت عن عاصم بن عبيد عن عطاء[1] عن رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: اطلع علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال: أتضحكون؟ ثم قال: لا أراكم تضحكون. ثم أدبر فكأن على رؤوسنا الرخم. حتى إذا كان عند الحجر. ثم رجع القهقرى فقال جاء جبريل فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لم تقنط عبادي؟ «نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ». وقال قتادة[2]: ذكر لنا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لو علم العبد قدر رحمة الله ما تورع عن حرام ولو علم العبد قدر عقوبة الله لبخع نفسه» أي: في عبادة الله تعالى ثم قال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن أضياف إلا أن هذا اللفظ مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع، وذلك حين بعث الله تعالى جبريل في اثني عشر من الملائكة قوله ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على إبراهيم ﴿فَقَالُوا سَلاَماً﴾ أي: فسلموا عليه فرد عليهم السلام كما قال في موضع آخر (قَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلام). وقال الكلبي فأنكرهم إبراهيم في تلك الأرض لأنهم لم يطعموا من طعامه ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفين. ﴿قَالُوا لاَ تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف منا وبشروه فقالوا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ قرأ حمزة «نَبْشُرك» بجزم الباء مع التخفيف ونصب النون وضم الشين. وقرأ الباقون بالتشديد. ﴿بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بإسحاق عليم في صغره حليم في كبره. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: بعد ما أصابني الكبر والهرم. ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قرأ نافع[3] «فَبِمَ تُبَشِّرُونِ» بكسر النون مع التخفيف لأن أصله تبشرونني بالياء فأقيم الكسر مقامه وقرأ ابن كثير «فبم تبشرونِّ» بكسر النون مع التشديد لأنه في الأصل بنونين فأدغم إحداهما في الأخرى مثل قوله: «تَأْمُرُنِّي» «أَتُحاجُونِّي» وقرأ الباقون «تُبَشِّرُونَ» بنصب النون مع التخفيف لأنها نون الجماعة. وقال أبو عبيدة هذا أعجب إليّ لصحتها في العربية ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالولد ويقال بالصدق ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: من الآيسين من الولد، ويقال: من نعم الله تعالى ﴿قَالَ إبراهيم وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ أي: من نعمة ربه ﴿إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ أي الجاهلون. قرأ الكسائي وأبو عمرو[4] (يَقْنِطُ «بكسر النون وقرأ الباقون «يَقْنَطُ» بالنصب ومعناهما واحد.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

(١) ذكره السيوطي في الدر ٤/١٠٢ وعزاه لابن جرير وابن مردويه.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٨٢ ـ ٣٨٣، النشر ٢/٣٠٢.
(٤) انظر حجة القراءات ٣٨٣، النشر ٢/٣٠٢.

وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: قال لهم إبراهيم ما حالكم وشأنكم وبماذا جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين. قال إبراهيم: من هم؟ قالوا قوم لوط. قال إبراهيم أتهلكونهم وفيهم لوط. فقالوا ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ يعني ابنتيه زعورا وريثا ويقال: امرأة له أخرى غير التي أهلكت ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] «إنا لَمُنْجُوهُمْ» بالتخفيف وقرأ الباقون بنصب النون وتشديد الجيم من أَنْجى يُنْجِي وَنَجَّى يُنَجِّي بمعنى واحد ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا﴾ عليها الهلاك ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: لمن المتخلفين للهلاك. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[2] «قَدَرْنَا» بالتخفيف وهو من القدر وقرأ الباقون بالتشديد وهو من التقدير قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ أي: لما دخلوا عليه أنكرهم ولم يعرفهم. ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بما كانوا يشكون من نزول العذاب بهم ﴿وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب وهو العدل والصدق ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بأن العذاب نازل بهم. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في بعض الليل. قرأ ابن كثير ونافع «فَاسْرِ» بجزم الألف والباقون بالنصب، سريت وأسريت إذا سرت ليلاً ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ يقول: امش وراءهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني: لا يتخلف منكم أحد ﴿وَامْضُوا﴾ أي: انطلقوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلى المدينة. وهي مدينة زعر قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ يعني: أخبرناه وأوحينا إليه ذلك الأمر. ثم فسر ذلك الأمر فقال ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ يعني: إنهم مستأصلون عند الصباح، ويقال وقضينا إليه ذلك الأمر يعني أمرناه بالخروج إلى الشام إلى المدينة زعر. لأن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. قوله ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بدخول الرجال منزل لوط ﴿قَالَ لوط إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ يقول: أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي: لا تذلوني في أضيافي ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ألم ننهك أن تضيف أحداً من الغرباء ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أي: بنات قومي أزوجكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: فتزوجوا النساء فإن الله تعالى خلق النساء للرجال وأمر بتزويجهن.

لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: بحياتك يا محمد إنهم لفي جهالتهم وضلالتهم يعمهون أي: يترددون ويتجبرون، يعني: إن أهل مكة يسمعون هذه العجائب ولا تنفعهم وهم على جهلهم مصرون. قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا ابن معاذ قال: حدثنا عبد العزيز بن أبان عن سعيد بن زيد عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس[3] أنه قال: ما خلق الله نفساً أكرم على الله من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما سمعت

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٤، النشر ٢/٣٠٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٨٤، النشر ٢/٣٠٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣ وعزاه لابن أبي شيبة والحرث بن أبي أسامة وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

الله أقسم بحياة أحد غيره فقال «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ». ثم رجع إلى قصة قوم لوط فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: أخذتهم صيحة جبريل ﴿مُشْرِقِينَ﴾ يعني: عند طلوع الشمس وذلك أن جبريل قلع الأرض وقت الصبح (فرفعها مع الملائكة إلى قريب من السماء ثم قلبها وأهواها إلى الأرض وصاح بهم وقت طلوع الشمس فذلك قوله ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وقد ذكرناها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هلاك قوم لوط ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: علامات ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ يقول: للمتفكرين. وقال قتادة[1]: للمعتبرين. وقال الضحاك: للناظرين وقال مجاهد[2]: للمتفرسين. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو يعقوب قال: حدثنا عمار بن الربيع الباهلي عن أبي صالح بن محمد عن محمد وهو ابن مروان عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ». وقال الزجاج: حقيقته في اللغة النظار[3] المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، يقال: توسمت في فلان كذا وكذا. أي عرفت ذلك فيه. ثم قال ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي قريات لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: بطريق واضح بين يرونها حين مروا بها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هلاك قوم لوط ﴿لآيَةً﴾ أي: لعلامة وعبرة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانَ﴾ يقول: وقد كان ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ أي: أصحاب الغيضة، والغيضة والأيكة الشجرة. وهم قوم شعيب.

قال قتادة[4]: مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقال بعضهم: آل مدين والأيكة واحد. لأن الأيكة كانت عند مدين وهذا أصح. ﴿لَظَالِمِينَ﴾ أي: لكافرين قوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: قريات لوط وشعيب ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لبطريق واضح. وقال القتبي: أصل الامام ما يؤتم به. قال الله تعالى: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) أي يؤتم ويقتدى بك، ثم تستعمل لمعاني منها الكتاب إماماً لأنه يؤتم بما أحصاه الكتاب قال الله تعالى: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) أي بكتابهم وقال تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) أي: في اللوح المحفوظ وهو الكتاب، وسمي الطريق إماماً لأن المسافر يأتم به ويستدل به قال الله تعالى: «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ» أي بطريق واضح أي: قريات قوم لوط وقرية شعيب عليهما السلام.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهم قوم صالح كذبوا صالحاً. والحجر أرض ثمود ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي: الناقة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يقول: مكذبين بها ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ من أن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق لابن جرير وابن المنذر.

(٣) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٥٤.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

تقع عليهم الجبال. ويقال: آمنين من نزول العذاب فلم يعرفوا نعمة الله تعالى، ويقال: آمنين من العذاب بعقر الناقة. فعقروا الناقة وقسموا لحمها فأهلكهم الله تعالى بصيحة جبريل فذلك قوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: حين أصبحوا ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يعني: فما نفعهم ما كانوا يكسبون من الكفر والشرك) قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق والباء توضع موضع اللام أي: لينظر عبادي إليها فيعتبروا، ويقال: وما خلقناهما إلا عذراً وحجة على خلقي ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة لا محالة ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي: اعرض عنهم إعراضاً جميلاً بلا جزع منك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: عليماً بمن يؤمن وبمن لا يؤمن، ويقال العليم يعلم متى تقوم الساعة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي﴾ أي: فاتحة الكتاب ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ أي: سائر القرآن. وهذا قول ابن عباس وعليّ بن أبي طالب وابن مسعود[1]. وروى مجاهد عن ابن عباس[2] أنه قال: السبع المثاني السبع الطوال. وعن سعيد بن[3] جبير قال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس. قال لأنه يثني فيها حدود الفرائض والقرآن. ويقال: السبع المثاني والقرآن كله وهو سبعة أسباع سمي مثاني لأن ذكر الأقاصيص فيه مثنى كقوله: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ) وقال طاووس: القرآن كله مثاني، وقال أبو العالية[4] المثاني فاتحة الكتاب سبع آيات، وإنما سمي مثاني لأنه يثني مع القرآن كلما قرئ القرآن، قيل: إنهم يزعمون أنها السبع الطوال، قال: لقد أنزلت هذه الآية وما أنزل شيء من الطوال، وسئل الحسن[5] عن قوله سبعاً من المثاني. قال «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» حتى أتى على آخرها. وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «الحمد لله رب العالمين أم الكتاب وأم القرآن والسبع المثاني». وقال قتادة[6]: سبعاً من المثاني هي فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة مكتوبة وتطوع يعني: في كل صلاة، ويقال من المثاني أي: مما أثني به على الله تعالى لأن فيها حمدَ الله تعالى وتوحيده. «ومن» ههنا على ضربين يكون للتبعيض، من القرآن أي: أعطيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثني بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم، ويجوز أن يكون السبع هي المثاني

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٤/٤ وعزاه لابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه.

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى في كتاب الافتتاح باب تأويل قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ (٩١٦) وأخرجه ابن جرير في التفسير ٣٥/١٤، ٣٦، والحاكم في المستدرك ٣٥٥/٢، وابن الضريس في فضائل القرآن (١٨٢). والطبراني في الكبير ٥٩/١١ (١١٠٣٨).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٥/٤ وعزاه لسعيد بن منصور وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.

(٦) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن الضريس وابن جرير.

كقوله: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) أي: اجتنبوا الأوثان. قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظرن بعين الرغبة ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ أي: إلى ما أعطيناهم في الدنيا. يعني: ما أعطيناك من القرآن أفضل مما أعطيناهم من الأموال فاستغن بما أعطيناك من القرآن والدين والعلم ولا تنظر إلى أموالهم. قوله: ﴿أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً منهم وألواناً من الأموال. يعني: أعطينا رجالاً منهم. أي: المشركين منهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار مكة إن لم يؤمنوا. لأن مقدوري عليهم الكفر ويقال ولا تحزن عليهم إن نزل بهم العذاب ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: لين جناحك عليهم أي: تواضع للمؤمنين ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أخوفكم بعذاب مبين بلغة تعرفونها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: كما أنزلنا العذاب على المقتسمين وهم الذين أقسموا على عقبات مكة ليردوا الناس عن دين الإسلام وعن الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: «إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» بالقرآن كما أنزلنا التوراة والإنجيل على المقتسمين وهم اليهود والنصارى اقتسموا فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى فرقوا القرآن آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. ويقال: إن أهل مكة قالوا أقاويل مختلفة. قوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: فرقوا القول فيه. قال بعضهم: سحر وقال بعضهم شعر وهذا قول قتادة. ويقال: أصله في اللغة: الفرقة يقال: فرقوه أي: عضوه أعضاء. يقال: ليس دين الله بالتعضية أي بالتفريق. وروى الضحاك عن ابن عباس[1] أنه قال: جزؤوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

ثم قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: أقسم بنفسه ليسألنهم يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وعن ترك قول لا إله إلا الله وعن الإيمان بالله والرسول ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر أمرك وامض واقض ما أمرتك ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتركهم حتى يجيء أمر الله تعالى. وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل نزول هذه الآية مستخفياً لا يظهر شيئاً مما أنزل الله عليه حتى نزلت هذه الآية ثم قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي: أظهر أمرك فقد أهلك الله المستهزئين وهم خمسة رهط فأهلكوا كلهم في يوم وليلة. وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد الخروج إلى الموسم أيام الحج ليدعو الناس فمنعه المستهزءون وبعثوا على كل طريق رجلاً. فإذا سألهم أحد من الغرباء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا هو ساحر كاهن ثم قالوا هذا دأبنا كل سنة فشق على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأهلكهم الله تعالى. منهم الوليد بن المغيرة نزل جبريل عليه السلام على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال كيف تجد هذا فقال بئس الرجل فقال كفيناكه. فمضى وهو يتبختر في ردائه ويقال: ببردته فمر برجل يصنع السهام فتعلق سهم بردائه وأخذ طرف ردائه ليجعله على كتفه فأصاب السهم أكحله فنزف فمات. ومنهم العاص بن وائل السهمي مر عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسئل عنه فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب قوله تعالى: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ (٤٧٠٥) ورواه الطبري من طريق الضحاك وانظر الدر المنثور ٤/١٠٦.

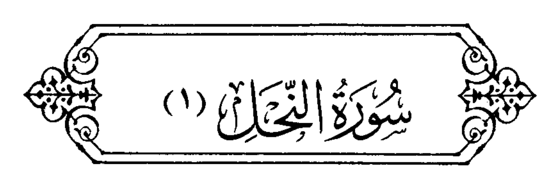
بئس الرجل هو فقال كفيناكه فوطيء على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك. ومنهم الحارث بن حنظلة أصاب ساقه شيء فانتفخ. فمات ومنهم أسود بن عبد يغوث أصابه العطش فجعل يشرب الماء حتى انتفخ بطنه فمات. ومنهم أسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد عـزى ضـربه جبريل بجناحه فمات ويقال: خرج مع غلام له فأتاه جبريل عليه السلام وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك حتى مات وهو يقول قتلني رب محمد، وفي رواية الكلبي أن أسود بن عبد يغوث خرج من أهله فأصابه السواد حتى عاد حبيشاً فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب حتى مات وروي في خبر آخر أن العاص بن وائل السهمي خرج في يوم مطير على راحلته مع ابنين له فنزل شعباً من الشعاب فلما وضع قدمه على الأرض لدغت رجله. فطلبوا فلم يجدوا شيئاً فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق بعير فمات مكانه، وعن أبي بكر الهذلي[1] أنه قال قلت للزهري إن سعيد بن جبير وعكرمة قد اختلفا في رجل من المستهزئين فقال سعيد: هو الحارث بنت عيطلة وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس فقال صدقاً. كانت أمه اسمها عيطلة وأبوه قيساً. ويقال إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه عطش فلم يزل يشرب عليه الماء حتى أنفد فمات وهو يقول قتلني رب محمد. فنزل «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾ أي: يقولون ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا يفعل بهم. وهذا وعيد لسائر الكفار. قوله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: صل بأمر ربك ويقال اشتغل بعبادة ربك ولا تشغل قلبك بهم. ﴿وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ يعني من المصلين. قوله ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ يعني على التوحيد ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: واستقم على التوحيد حتى يأتيك اليقين أي: الموت. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا المحارمي عن إسماعيل بـن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن جبير بن نصير عن أبي مسلم الخولاني[2] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «ما أوحى الله تعالى إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين».

والله أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٨ وعزاه لابن جرير وأبي نعيم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٩ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي.



سورة النحل (١)

مائة وعشرون وثمان آيات مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله. أخبرنا الثقة بإسناده عن الشعبي قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة إلَّا هذه الآية «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» وقال ابن عباس: سورة النحل كلها مكية إلَّا أربع آيات نزلت بالمدينة قوله «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا». وقوله «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا» وقوله «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا» وقوله «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» إلى آخرها.

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي يوم القيامة ويقال يعني العذاب كقوله: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) وقوله: (أَتَاهَا أَمْرُنا ليلاً أو نهاراً) أي؛ أتى أمر الله يعني: يأتي أي هو قريب لأن ما هو آتٍ آتٍ وهذا وعيد لهم إنها كائنة. وقال ابن عباس لما نزلت هذه الآية (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) ثم نزلت بعدها (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) قالوا يا محمد تزعم أن الساعة قد اقتربت ولا نرى من ذلك شيئاً، فنزل «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ» أي عذاب الله فوثب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائماً لا يشك أن العذاب قد أتاهم فقال لهم جبريل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال فجلس النبي ـ صلى الله

---

(١) سميت هذه السورة عند السلف «سورة النحل» وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة. ووجه تسميتها بذلك أن لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى.

وعن قتادة أنها تسمى سورة النِعَم ـ أي بكسر النون وفتح العين ـ قال ابن عطية: لما عدد الله فيها من النعم على عباده. وهي مكية في قول الجمهور وهو عن ابن عباس وابن الزبير وقيل إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة منصرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوة أحد وهي قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر السورة. قيل: نزلت في نسخ عزم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يمثل بسبعين من المشركين إن أظفره الله بهم مكافأة على تمثيلهم بحمزة.

وعن قتادة وجابر بن زيد أن أولها مكي إلى قوله تعالى: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ فهو مدني إلى آخر السورة والراجح أن بعض السورة مكي وبعضها مدني.

معظم ما اشتملت عليه السورة إكثارُ متنوع الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية، والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته وأدلة إثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنزال القرآن عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وأن شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإثبات البعث والجزاء.

عليه وسلم ـ بعد قيامه ثم قال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد والشريك، ويقال: إرتفع وتعاظم عن صفة أهل الكفر فقال عز وجل: ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان. قرأ حمزة والكسائي[1] «تُشْرِكُونَ» بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء بلفظ المغايبة. وكذلك ما بعده. ثم قال ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: جبريل ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي والنبوة والقرآن ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بأمره. قال القتبي: مِنْ توضع موضع الباء كقوله (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) أي بأمر الله وقال ههنا «يلقى الروح من أمره» أي بأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يختار للنبوة والرسالة. وقال قتادة[2]: ينزل الملائكة بالرحمة والوحي على من يشاء من عباده، يعني: من كان أهلاً لذلك. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[3] «يُنْزِلُ» بجزم النون من قولك أَنْزَلَ يُنْزِلُ. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «تَنَزَّلُ» بالتاء ونصب النون والزاي مع التشديد على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون «يُنَزِّلُ» بالياء وكسر الزاي مع التشديد من قولك نَزَّلَ يُنَزِّلُ ثم قال تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ﴾ أي: خوفوا بالقرآن الكفار وأعلموهم أن الله واحد لا شريك له فذلك قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: أطيعون ووحدون ثم قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق ويقال: للزوال والفناء ﴿تَعَالَى﴾ تنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

ثم قال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يقول: من ماء الرجل ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ يقول: جدل بالباطل ظاهر الخصومة. وهو أبي بن خلف حيث أخذ عظماً بالياً ففته بيده وقال: عجباً لمحمد يزعم أنه يعيدنا بعد ما كنا عظاماً ورفاتاً وإنا نعاد خلقاً جديداً. فنزل «أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ» الآية ثم بين النعمة فقال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ الدفء ما يستدفأ به من الأكسية وغيرها والذي يتخذ منه البيوت من الشعر والوبر والصوف، وأما المنافع فظهورها التي تحمل عليها وألبانها. ويقال: الدفء الصغار من الإبل. وروى عكرمة عن ابن عباس[4] أنه قال: (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ). أي في نسل كل دابة. ثم قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من لحومها. قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: ولكم يا بني آدم في الأنعام جمال حسن المنظر ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: حتى تروح الإبل راجعة إلى أهلها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: تسرح إلى الرعي أول النهار ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: أمتعتكم وزادكم ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ إلا بجهد الأبدان. وروى سماك عن عكرمة قال بلد لم تكونوا

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٥، إتحاف فضلاء البشر ٢ / ١٨٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤ / ١١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٨٥، انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ١٨٠.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤ / ١١٠ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

بالغيه إلا بشق الأنفس) قال: هي مكة. ويقال: هذا الخطاب لأهل مكة كانوا يخرجون إلى الشام وإلى اليمن ويحملون أثقالهم على الإبل ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إذ لم يعجلكم بالعقوبة ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي: جمالاً ومنظراً وحسناً. وروى سعيد بن جبير عن ابن[١] عباس أنه سئل عن لحوم الخيل. فكرهه وتلا هذه الآية. (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة). يعني إنما خلق هذه الأصناف الثلاثة للركوب والزينة لا للأكل. وسائر الأنعام خلقت للركوب والأكل كما قال (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) وبه كان يقول أبو حنيفة إن لحم الخيل مكروه[٢]. ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: خلق أشياء تعلمون وخلق أشياء مما لا تعلمون. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إن الله خلق أرضاً بيضاء مثل الدنيا ثلاثين مرة محشوة خلقاً من خلق الله تعالى لا يعلمون أن الله تعالى يعصى طرفة عين. قالوا يا رسول الله أمن ولد آدم هم؟ قال ما يعلمون أن الله خلق آدم. قالوا فأين إبليس منهم؟ قال ما يعلمون أن الله خلق إبليس ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ويخلق ما لا تعلمون» قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: بيان الهدى، ويقال هداية الطريق ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: من الطرق ما هو مائل عن طريق الهدى إلى طريق اليهودية والنصرانية. وروى جويبر عن الضحاك أنه قال: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» يعني: بيان الهدى (وَمِنْهَا جَائِرٌ) أي سبيل الضلالة وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود ومنها جائر أي مائل عن طريق الهدى ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لو علم الله تعالى أن الخلق كلهم أهلاً للتوحيد (لهداهم). ويقال: لو شاء الله لأنزل آية يضطر الخلق إلى الإيمان (بها).

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: المطر ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ وهو ما يستقر في الأرض من

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) وقال الشافعي: إنها تؤكل وعمدته الحديث الصحيح المروي عن سيدنا جابر بن عبد الله نحرنا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرساً فأكلناه وروى أيضاً أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أذن في لحوم الخيل وحرم لحوم الحمر.

الغدران وتشربون منه وتسقون أنعامكم ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: ومن الماء ما ينتشر في الأرض فينبت منه الشجر والنبات ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون أنعامكم. قوله﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾ أي: يخرج لكم بالمطر الزرع والزيتون ﴿وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ﴾ أي: الكروم ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من ألوان الثمرات. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] «نُنْبِتُ لكم» بالنون وقرأ الباقون بالياء ومعناهما واحد. ثم قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني فيما ذكر من نزول المطر وخروج النبات لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في إنشائه. ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ذلل لكم الليل والنهار لمعايشكم ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: خلق الشمس والقمر ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بأمره أي: مذللات ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بإذنه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن له ذهن الإنسانية. ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي: وما خلق لكم في الأرض من الدواب والأشجار والثمار ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: في اختلاف ألوانها لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون قرأ ابن عامر« والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ» كلها بالرفع على معنى الابتداء. وقرأ عاصم في رواية حفص «والشَّمْسَ والْقَمَرَ» بالنصب على معنى البناء أي: سخر لكم الشمس والقمر ثم ابتدأ فقال «والنُّجُومُ» بالضم على معنى الابتداء وقرأ الباقون الثلاثة كلها بالنصب ويكون بمعنى المفعول ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ أي: ذلل لكم البحر ويقال: ذلل لكم ما في البحر ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ أي: من البحر ﴿لَحْماً طَرِيّاً﴾ أي: السمك الطري ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ﴾ يعني: من البحر ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[2] يعني: لؤلؤاً تتزينون بها، يعني: زينة للنساء ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: مقبلة ومدبرة فيه

---

(١) انظر النشر ٢/٣٠٢، سراج القارىء ٢٦٩، حجة القراءات ٣٨٦.

(٢) اعلم أن ظاهر هذه الآية الكريمة يدل على أنه يجوز للرجل أن يلبس الثوب المكلل باللؤلؤ والمرجان لأن الله جل وعلا قال فيها في معرض الامتنان العام على خلقه عاطفاً على الأكل (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) وهذا الخطاب خطاب الذكور كما هو معروف ونظير ذلك قوله تعالى في سورة فاطر ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ وقال القرطبي في تفسيره: امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر فلا يحرم عليهم شيء منه وإنما حرم تعالى على الرجال الذهب والحرير. وقال صاحب الإنصاف: يجوز للرجل والمرأة التحلي بالجوهر ونحوه وهو الصحيح من المذهب وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز للرجل أن يلبس الثوب المكلل باللؤلؤ مثلاً ولا أعلم للتحريم مستنداً إلا عموم الأحاديث الواردة بالزجر البالغ عن تشبه الرجال بالنساء كالعكس قال البخاري في صحيحه (باب ـ المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال).

فهذا الحديث نص صريح في أن تشبه الرجال بالنساء حرام لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يلعن أحداً إلا على ارتكاب حرام شديد الحرمة. ولا شك أن الرجل إذا لبس اللؤلؤ والمرجان فقد تشبه بالنساء. فإن قيل: يجب تقديم الآية على هذا الحديث وما جرى مجراه من الأحاديث من وجهين:

الأول: أن الآية نص متواتر والحديث المذكور خبر آحاد والمتواتر مقدم على الآحاد.

الثاني: أن الحديث عام في كل أنواع التشبه بالنساء والآية خاصة في إباحة الحلية المستخرجة من البحر والخاص مقدم على العام؟
فالجواب: أنا لم نر من تعرض لهذا والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم: أن الآية الكريمة وإن كانت أقوى سنداً وأخص في محل النزاع فإن الحديث أقوى دلالة على محل النزاع منها: وقوة الدلالة في نص صالح للاحتجاج على محل النزاع أرجح من قوة السند لأن قوله: ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ يحتمل معناه احتمالاً قوياً: أن وجه الامتنان به أن نساءهم يتجملن لهم به فيكون تلذذهم وتمتعهم بذلك الجمال والزينة الناشيء عن تلك الحلية من نعم الله عليهم. وإسناد اللباس إليهم لنفعهم به وتلذذهم بلبس أزواجهم له. بخلاف الحديث فهو نص صريح غير محتمل في لعن من تشبه بالنساء ولا شك أن المتحلي باللؤلؤ مثلاً متشبه بهن فالحديث يتناوله بلا شك. وقال ابن حجر في فتح الباري في الكلام على الحديث المذكور واستدل به على أنه

ويقال: تذهب وتجيء بريح واحدة. وقال عكرمة[١]: يعني: السفينة حين تشق الماء. يقال مخرت السفينة إذا جرت لأنها إذا جرت تشق الماء. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لكي تطلبوا من رزقه حين تركبون السفينة للتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا الله فيما صنع لكم من النعمة. ثم قال: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبال الثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني: لكيلا تميد بكم وقد يحذف «لا» ويراد إثباته كما قال ههنا «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أي لا تميل بأهلها. وروى معمر عن قتادة[٢] أنه قال: لما خلقت الأرض كادت تميد فقالت الملائكة ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال. وقال القتبي: الميد الحركة والميل. ويقال أن تميد أي: كراهة أن تميد بكم ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي وجعل لكم أنهاراً ﴿وَسُبُلاً﴾ أي: طرقاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تعرفون بها الطرق ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي: جعل في الأرض علامات من الجبال وغيرها تهتدون به الطرق في حال السفر ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: بالجدي والفرقدين تعرفون بها الطرق في البر والبحر. وروى عبد الرزاق عن معمر في قوله: «وَعَلَامَاتٍ» قال: قال الكلبي[٣] الجبال، وقال قتادة: النجوم. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد[٤] في قوله: «وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» قال: منها ما يكون علامة ومنها ما يهتدى به. وقال عمر بن الخطاب: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في طرقكم وقبلتكم ثم كفوا وتعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم. وقال السدي وعلامات أي: الجبال بالنهار يهتدون بها الطرق والنجوم بالليل. ثم قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ يعني هذه الأشياء التي وصفت لكم ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ أي لا يقدر أن يخلق شيئاً وهم الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون في صنعه فتوحدوه وتعبدوه ولا تعبدوا غيره.

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي: لا تطيقوا إحصاءها فكيف تقدرون على أداء شكرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب ورجع ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ في قلوبكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالقول ويقال: ما تخفون من أعمالكم وما تعلنون. أي تظهرون منها، فالسر والعلانية عنده سواء. ثم قال:

= يحرم على الرجل لبس الثوب المكلل باللؤلؤ وهو واضح، لو ورد علامات التحريم وهو لعن من فعل ذلك ـ وأما قول الشافعي: ولا أكره للرجل لبس اللؤلؤ إلاّ لأنه من زي النساء فليس مخالفاً لذلك: لأن مراده أنه لم يرد في النهي عنه بخصوصه شيء. انظر أضواء البيان ٣/٢٣٦ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٣ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونَ اللَّهِ﴾[1] أي يعبدون من دون الله من الأوثان ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ أي: لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: ينحتون من الأحجار والخشب وغيره. ثم قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ قال في رواية الكلبي يعني: أن الأصنام أموات ليس فيهاروح ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنام ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يحيون فيحاسبون. ويقال أموات يعني: أن الكفار غير أحياء. يعني: كأنهم أموات لا يعقلون شيئاً وما يشعرون أيّان يبعثون غيره ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني: الذين لا يصدقون بالبعث ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ أي جاحدة للتوحيد. ويقال: قلوبهم خبيثة لا تدخل المعرفة فيها ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متعظمون عن الإيمان. ثم قال عز وجل: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ويقال: نعم وذكر عن الفراء أنه قال: لا جرم بمنزلة لا بد ولا محالة ثم كثرت في الكلام حتى صارت بمنزلة حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يكتمون وما يظهرون من الكفر والمكر في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: المتعظمين عن الإيمان ويقال: لا يحب المتكبرين الذين يتكبرون على الناس قال الفقيه حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا الفضل بن دكين عن مسعر بن كدام عن أبي مصعب عن أبيه عن أبي بن كعب قال: سيأتي المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر في صور الرجال يغشاهم ويأتيهم الذل من كل مكان.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: الخراصين من أهل مكة. وروى أسباط عن السعدي[2] قال: اجتمعت قريش فقالوا: إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه رجل ذهب بعقله، وفي رواية أخرى بقلبه فانظروا أناساً من أشرافكم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين فمن جاء يريده ردوه عنه. فخرج ناس منهم في كل طريق فكان إذا جاء الرجل من وفد القوم ينظر ما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل بهم فقالوا له: أنا فلان بن فلان. فيعرفه بنسبه ثم قال أنا أخبرك عن محمد. فلا تنفر إليه هو رجل كذاب لم يتبعه إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه. أما أشياخ قومه وأخيارهم فهم مفارقوه فيرجعون أي: الوافدون وإذا كان الوافد ممن عزم الله له على الرشد يقول: بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ماذا يقول، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقولون: «خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة» فذلك قوله (وإذا قيل لهم) أي: للمقتسمين من أهل مكة ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: ما الذي أنزل ربكم على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: الذين يذكرون أنه منزل هو كذب الأولين وأحاديثهم قال الله تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: آثامهم ﴿كَامِلَةً﴾ أي وافرة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا يغفر لهم شيء، وذنوب المؤمنين تكفر عنهم من الصلاة إلى الصلاة ومن رمضان إلى رمضان ومن الحج إلى الحج وتكفر بالشدائد والمصائب وذنوب الكفار لا تغفر لهم ويحملونها كاملة يوم القيامة أي: يحملون وبال الذنوب التي

---

(١) قرأ عاصم: ﴿والذين يَدْعُون من دونِ الله﴾ بالياء إخباراً عن المشركين وقرأ الباقون: ﴿والذين تَدْعُون من دونِ الله﴾ وحجتهم ما تقدم وما تأخر: فما تقدم: ﴿وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله﴾ وما تأخر: ﴿إلَهُكم إلهٌ واحد...﴾. انظر حجة القراءات ٣٨٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٦ وعزاه لابن أبي حاتم.

عملوا بأنفسهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ أي: يصدونهم عن الإيمان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير عذر وحجة وبرهان ويقال من أوزار الذين يضلونهم أي: أوزار إضلالهم وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ثم قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس ما يحملون من الذنوب، ويقال: بئس الزاد زادهم الذنوب.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد صنع الذين من قبلهم مثل المقتسمين، فأبطل الله كيدهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: قلع بنيانهم من أساس البيت ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي سقف البيت قال الكلبي: وهو نمروذ بن كنعان بنى صرحاً طوله في السماء خمسة آلاف ذراع (وخمسون ذراعاً) وكان عرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسون ذراعاً فهدم الله بنيانه وخر عليهم السقف من فوقهم فأهلكهم الله. وقال القتبي: هذا مثل أي: أهلك من قبلهم من الكفار كما أهلك من هدم مسكنه من أسفله فخر عليه، ويقال هدم بنيان مكرهم من الأصل فخر عليهم السقف أي: رجع وبال مكرهم إليهم كقوله تعالى: (ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله) ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون. قوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يعذبهم، وما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادونني وتخالفونني فيهم، يعني: بسببهم وعبادتهم. قرأ نافع[1] «تُشَاقُّونِ» بكسر النون على معنى الإضافة. والباقون بنصب النون لأنها نون الجماعة ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: الملائكة ويقال: يعني المؤمنين ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي العقاب ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي: الشدة من العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالى ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: انقادوا واستسلموا حين رأوا العذاب قالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: ما كنا نشرك بالله. وقال الكلبي: هم قوم خرجوا مع المشركين يوم بدر قد تكلموا بالإيمان فلما رأوا قلة «المؤمنين» رجعوا إلى الشرك فقتلوا، ويقال: جميع المشركين. قال الله تعالى: ﴿بَلَى﴾ أشركتم بالله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك.

فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٨، النشر ٢/٣٠٣.

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقول لهم خزنة جهنم ادخلوا أبواب جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين فيها أبداً ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ يعني لبئس مأوى المتكبرين عن الإيمان. ثم نزل في المؤمنين الذين يدعون الناس إلى الإيمان وذلك أن أهل مكة لما بعثوا إلى أعقاب مكة رجالاً ليصدوا الناس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجالاً من أصحابه إلى أعقاب مكة فكان الوافد إذا قدم إليهم قالوا له إن هؤلاء المشركين كذبوا، بل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو إلى الحق ويأمر بصلة الرحم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعوا إلى الخير فذلك قوله تعالى: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي يدعوا إلى الخير ﴿للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي للذين وحدوا في هذه الدنيا لهم الحسنة في الآخرة أي الجنة ﴿ولدار الآخرة﴾ يعني: الجنة ﴿خير﴾ أي أفضل من الدنيا ﴿ولنعم دار المتقين﴾ يعني المطيعين. قال مقاتل في قوله «قالوا خيراً» أي قالوا للوافد أنه يأمر بالخير وينهى عن الشر. قالوا خيراً. ثم قطع الكلام يقول الله تعالى للذين أحسنوا، أي أحسنوا العمل في هذه الدنيا لهم حسنة في الآخرة أي: في الجنة، ولدار الآخرة خير يعني الجنة أفضل من ثواب المشركين الذين يحملون أوزارهم. ويقال: هذه كلها حكاية كلام المؤمنين إلى قوله المتقين قرأ عاصم في رواية أبي بكر تسرون وتعلنون بالتاء على معنى المخاطبة ويدعون بالياء على معنى المغايبة وروي عن حفص الثلاث كلها بالياء على معنى المغايبة وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة ثم وصف دار المتقين فقال ﴿جنات عدن﴾ يعني الدار التي هي للمتقين جنات عدن ﴿يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون﴾ أي: يحبون ويتمنون ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي: هكذا يثبت الله المتقين الشرك قوله ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ أي ملك الموت ﴿طيبين﴾ يقول زاكين طاهرين من الشرك والذنوب ﴿يقولون﴾ أي: يقول لهم خزنة الجنة في الآخرة ﴿سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا. ويقال هذا مقدم ومؤخر أي: جنات عدن يدخلونها. ثم قال الذين تتوفاهم الملائكة قرأ حمزة[1] الذين يتوفاهم بالياء بلفظ التذكير والباقون بالتاء بلفظ التأنيث لأن الفعل إذا كان قبل الاسم جاز التذكير والتأنيث. قوله ﴿هل ينظرون﴾ يقول: ما ينظرون وهم أهل مكة ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ أي: ملك الموت يقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي: عذاب ربك يوم بدر ويقال: يوم القيامة ﴿كذلك فعل﴾ أي كذلك كذب ﴿الذين من قبلهم﴾ رسلهم كما كذبك قومك فأهلكهم الله تعالى ﴿وما ظلمهم الله﴾ يعني: بإهلاكه إياهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بتكذيبهم رسلهم. قرأ حمزة والكسائي[2] إلا أن يأتيهم بالياء بلفظ التذكير والباقون بلفظ التأنيث لأن الفعل مقدم.

فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٨، النشر ٢ /٣٠٣.

(٢) انظر حجة القراءات ٢ /٣٠٣.

ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاء ما عملوا **﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾** أي: نزل بهم **﴿مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾** من العذاب أنه غير نازل بهم. قوله: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** أي: أهل مكة **﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** قالوا ذلك على وجه الاستهزاء يعني إن الله قد شاء لنا ذلك الذي **﴿نحن﴾** فيه. **﴿ولا آباؤنا﴾** ولكن شاء لنا ولآبائنا. **﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** ولا آباؤنا. ولكن شاء لنا من تحريم البحيرة والسائبة وأمرنا به ولو لم يشأ ما حرمنا من دونه من شيء قال الله تعالى **﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** يقول هكذا كذب الذين من قبلهم من الأمم **﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** أي: ليس عليهم إلا تبليغ الرسالة **﴿الْمُبِينُ﴾** أي: بينوا لهم ما أمروا به. قوله **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾** أي: في كل جماعة **﴿رَسُولاً﴾** كما بعثناك إلى أهل مكة **﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾** أي: وحدوا الله وأطيعوه **﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** أي: اتركوا عبادة الطاغوت وهو الشيطان والكاهن والصنم **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾** لدينه وهم الذين أجابوا الرسل للإيمان **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ﴾** يعني وجبت **﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾** فلم يجب الرسل إلى الإيمان **﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾** يقول سافروا في الأرض **﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** يقول اعتبروا كيف كان آخر أمر المكذبين. فلما نزلت هذه الآية قرأها ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم فلم يؤمنوا فنزل قوله: **﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾** يعني: على إيمانهم **﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾** يقول: من يضلل الله وعلم أنه أهل لذلك وقدر عليه ذلك. قال مقاتل: من يضلل الله فلا هادي له. قرأ أهل الكوفة حمزة وعاصم والكسائي[1] «لَا يَهْدِي» بنصب الياء وكسر الدال أي: لا يهدي من يضلله الله. وقرأ الباقون «لَا يُهْدَى» بضم الياء ونصب الدال على معنى فعل ما لم يسم فاعله، ولم يختلفوا في «يُضلُّ» إنه بضم الياء وكسر الضاد. وقال إبراهيم بن الحكم سألت أبي عن قوله تعالى فإن الله لا يهدي من يضل فقال: قال عكرمة[2]: قال ابن عباس: من يضلله الله لا يهدى. **﴿وَمَا لَهُمْ مِن نَّاصِرِينَ﴾** أي: من ما نعني من نزول العذاب قوله: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** وكل ما حلف بالله فهو جهد اليمين، لأنهم كانوا يحلفون بالأصنام بآبائهم ويسمون اليمين بالله جهد اليمين وكانوا ينكرون البعث بعد الموت وحلفوا بالله حين قالوا: **﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾** فكذبهم الله تعالى في مقالتهم فقال: **﴿بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾** أوجبه على نفسه ليبعثهم بعد الموت **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أي لا يصدقون بالبعث بعد الموت قوله

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٨ ـ ٣٨٩. النشر ٢/٣٠٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٧ وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من الدين يوم القيامة، يعني: يبعثهم ليبين لهم أن ما وعدهم حق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: ليستبين لهم عندما خرجوا من قبورهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في الدنيا.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ يعني: إن بعثهم على الله يسير ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة[١] «فَيَكُونُ» بضم النون وقرأ الباقون بالنصب. قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: هاجروا من مكة إلى المدينة في طاعة الله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي عذبوا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لننزلنهم بالمدينة ولنعطينهم الغنيمة، فهذا الثواب في الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ﴾ أي: الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ أي أفضل ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يصدقون بالثواب. ثم نعتهم فقال ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على العذاب ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يثقون به ولا يثقون بغيره، منهم بلال بن حمامة وعمار بن ياسر وصهيب بن سنان وخباب بن الأرت. قال مقاتل: نزلت الآية في هؤلاء الأربعة عذبوا على الإيمان بمكة. وقال في رواية الكلبي: نزلت في ستة نفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرهم أهل مكة وذكر هؤلاء الأربعة واثنين آخرين عابس وجبير مولى لقريش. فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام. فأما صهيب فابتاع نفسه بما له ورجع إلى المدينة. وأما سائر أصحابه فقالوا بعض ما أرادوا ثم هاجروا إلى المدينة بعد ذلك ثم قال: قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ كما أوحى إليك وذلك أن مشركي قريش لما بلغهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرسالة ودعاهم إلى عبادة الله تعالى أنكروا ذلك وقالوا لن يبعث الله رجلاً إلينا ولو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث إلينا من الملائكة الذين عنده. فنزل «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ» إلى الأمم الماضية «إِلَّا رِجَالًا» مثلك «نُوحِي إِلَيْهِمْ» كما نوحي إليك. قرأ عاصم في رواية حفص[٢] «نُوحِي» بالنون وقرأ الباقون بالياء. ثم قال ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: أهل التوراة والإنجيل ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾. وفي الآية تقديم وتأخير، أي: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم بالبينات والزبر. وروى أسباط عن السدي[٣] قال: البينات الحلال والحرام، والزبر كتب الأنبياء. وقال الكلبي: البينات أي: بالآيات الحلال والحرام والأمر والنهي ما كانوا يأتون به قومهم منها وهو كتاب النبوة ويقال: البينات التي كانت تأتي بها الأنبياء مثل عصا موسى وناقة صالح. وقال مقاتل: والزبر يعني: حديث

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٩، النشر ٢/٢٠٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٠، النشر ٢/٣٠٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٩ وعزاه لابن أبي حاتم.

الكتب ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتقرأ للناس ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ما أمروا به في الكتاب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتفكروا فيه ليؤمنوا به. ثم خوفهم فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: أشركوا بالله ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ يعني: أن تغور الأرض بهم حتى يدخلوا فيها إلى الأرض السفلى ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون بهلاكهم. قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في سفرهم في ذهابهم ومجيئهم في تجارتهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: على تنقص ويقال يأخذ قرية بالعذاب ويترك أخرى قريبةً منها. فيخوفها بمثل ذلك. وهذا قول مقاتل. وروي عن بعض(١) التابعين: أن عمر سأل جلساءه عن قوله: «أو يأخذهم على تخوف» فقالوا: ما نرى إلا عند بعض ما يرون من الآيات يخوفهم. فقال عمر: ما أراه إلاّ عندما يتنقصون من معاصي الله. فخرج رجل فلقي أعرابياً فقال: يا فلان ما فعل دينك؟ قال تخيلته أي: تنقصته فرجع إلى عمر فأخبره بذلك. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لا يعجل عليهم بالعقوبة.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قرأ حمزة والكسائي «أَوَلَمْ تَرَوْا» بالتاء على معنى الخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة يعني: أولم يعتبروا. ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ عند طلوع الشمس وعند غروبها ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ يعني: يدور ظله ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾. قال القتبي: أصل الفيء الرجوع، وتفيوء الظلال رجوعها من جانب إلى جانب ﴿سجداً لله وهم داخرون﴾ أي: صاغرون وهم مطيعون وأصل السجود التطأطوء والميل، يقال سجد البعير إذا تطأطأ وسجدت النخلة إذا مالت، ثم قد يستعار السجود ويوضع موضع الاستسلام والطاعة، ودوران الظل من جانب إلى جانب هو سجوده لأنه مستسلم منقادمطيع فذلك قوله: (سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) قرأ أبو عمرو(٢) «تَتَفَيَّأُ» بالتاء بلفظ التأنيث والباقون بالياء لأن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفعل مقدم فيجوز التذكير والتأنيث. ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: يستسلم ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة والشمس والقمر والنجوم ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني: يسجد لله جميع ما في الأرض من دابة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: وما على الأرض من الملائكة. ويقال فيه تقديم وتأخير، ومعناه ما في السموات من الملائكة وما في الأرض من دابة. ويقال: معناه: يسجد له جميع ما في

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٩ وعزاه لابن جرير.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٠ ـ ٣٩١، النشر ٢/ ٣٠٤.

السموات وما في الأرض من دابة والملائكة، يعني الدواب والملائكة والذين هم في السموات والأرض. ثم قال: ﴿**وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ أي: لا يتعظمون عن السجود لله تعالى: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾ أي: يخافون الله تعالى. روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن لله تعالى ملائكة في السماء السابعة سجداً مذ خلقهم الله تعالى إلى يوم القيامة ترعد فرائصهم من مخافة الله تعالى. فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم فقالوا ما عبدناك حق عبادتك. فذلك قوله «يخافون ربهم من فوقهم» أي: يخافون خوفاً معظمين مبجلين. ويقال: خوفهم بالقهر والغلبة والسلطان. ويقال: معناه: يخافون ربهم الذي على العرش كما وصف نفسه بعلوه وقدرته. والطريق الأول أوضح كقوله (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أي: لا يعصون الله تعالى طرفة عين. قرأ أبو عمرو يتفيؤ بالتاء بلفظ التأنيث وقرأ الباقون بالياء لأن تأنيثه مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث.

قوله: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾ أي: لا تقولوا ولا تصفوا إلهين اثنين، أي نفسه والأصنام. ويقال: نزلت الآية في صنف من المجوس. إنهم وصفوا إلهين اثنين. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ أي: فاخشوني ووحدوني وأطيعوني ولا تعبدوا غيري ﴿**وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ**﴾ من الملائكة ﴿**وَالْأَرْضِ**﴾ من الخلق، الجن والإنس كلهم عبيده وإماؤه ﴿**وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً**﴾. أي دائماً خالصاً، ويقال: الألوهية والربوبية له خالصاً، ويقال: دينه واجب أبداً لا يجوز لأحد أن يميل عنه. ويقال: معناه: وله الدين والطاعة رضي العبد بما يؤمر به أولم يرض. والوصب في اللغة:(١) الشدة والتعب ثم قال: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ**﴾ أي: تعبدون غيره ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ يعني: إن الذي بكم من الغنى وصحة الجسم من قبل الله تعالى ﴿**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ**﴾ يعني: الفقر والبلاء في جسدكم ﴿**فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ يعني إليه تتضرعون ليكشف الضر عنكم. كما قال في سورة الدخان (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾. ﴿**ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ**﴾ يعني الكفار ﴿**بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**﴾ أي: يعبدون غيره. قوله: ﴿**لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ**﴾ أي: يجحدوا بما أعطيناهم من النعمة ﴿**فَتَمَتَّعُوا**﴾ (اللفظ لفظ الأمر والمراد به التهديد. كقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) يعني: تمتعوا بقية آجالكم ﴿**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ أي: تعرفون في الآخرة ماذا نفعل بكم. قوله: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً**﴾ أي: يجعلون لآلهتهم نصيباً من الحرث والأنعام كقوله: (فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لشركائنا) وقوله: «لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً» قال بعضهم: يعني: الكفار جعلوا لأصنامهم نصيباً ولا يعلمون منهم ضراً ولا نفعاً، وبعضهم قال: معناه: يجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئاً نصيباً أي: حظاً ﴿**مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ من الحرث والأنعام قال تعالى: ﴿**تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ**﴾ أي: تكذبون على الله لأنهم كانوا يقولون إنَّ الله أمرنا بهذا.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

---

(١) وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/٣٦١ (واصباً) أي دائماً قال أبو الأسود الدؤلي.

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه يوماً بذم الدهر أجمع واصبا

وانظر الطبري ١٤/٧٤، والقرطبي ١٠/١١٤.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

قوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ يعني: يصفون لله ويقولون الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن الولد ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني الأولاد الذكور أي: يصفون لغيرهم البنات ولأنفسهم الذكور. ثم وصف كراهتهم البنات لأنفسهم فقال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى﴾ يقول: إذا بشر أحد الكفار بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً﴾ أي: صار وجهه متغيراً من الحزن والخجل ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: مكروباً مغموماً من الحزن يتردد حزنه في جوفه. قوله: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ﴾ يعني: يكتم ما به من القوم، ويقال: يستر وجهه من القوم ويختفي من سوء ﴿مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: ما ظهر على وجهه من الكراهية ويدبر في نفسه كيف أصنع بها ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي: الأنثى التي ولدت له على هوان، يعني: أيحفظه على هوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي﴾ أي: يدقه ﴿التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئسما يفضون به. لأنفسهم الذكور وله الإناث ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: المشركين ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: جزاء السوء النار في الآخرة. ويقال: يعني: عاقبة السوء، ويقال: لآلهتهم صفة السوء صم بكم عمي ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي: الصفة العليا وهي: شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ) فهذه الصفة العليا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره. أَمَرَ الخلق أن لا يعبدوا غيره. قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بشركهم ومعصيتهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي لم يترك على ظهر الأرض من دابة. ودل الإضمار على الأرض لأن الدواب إنما هي على الأرض. يقول: أنا قادر على ذلك ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت معلوم. ويقال: ما ترك عليها من دابة لأنه لو أخذهم بذنوبهم لمنع المطر وإذا منع المطر لم يبق في الأرض دابة إلا أهلكت ولكن يؤخر العذاب إلى أجلٍ مسمىً. وروي عن عبد الله بن[1] مسعود أنه قال: لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم لأصاب العذاب جميع الخلائق حتى الْجِعْلَان في جحرها ولأمسكت السماء عن الأمطار ولكن يؤخرهم بالفضل والعفو. ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجل العذاب ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي: لا يتأخرون عن الوقت ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدمون قبل الوقت. ثم قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي: يصفون ويقولون ﴿لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: لأنفسهم وهو البنات ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: يقولون الكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي: الذكور من الولد ويقال الجنة. أي: يصفون لأنفسهم مع أعمالهم القبيحة أن لهم في الآخرة الجنة ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يعني حقاً. ويقال لا بد ولا محالة ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ وهو كقوله: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين) إلى قوله: (ساء ما يحكمون) ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرِطُونَ﴾ قرأ نافع[2] بكسر الراء يعني: أفرطوا في القول وأفرطوا في المعصية. وقرأ الباقون ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بتفح الراء أي: مُتْرَكُونَ في النار ويقال: منسيون في النار وهو قول سعيد[3] بن جبير. وقال قتادة[4]: أي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٢) انظر النشر ٢/٣٠٤، وحجة القرءات ٣٩١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢١ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

معلجون في النار. ويقال: الفارط في اللغة: الذي يتقدم إلى الماء وهذا قول يوافق قول قتادة.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

ثم قال: ﴿تَاللَّهِ﴾ يقول: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: بعثنا ﴿إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: بعثنا إلى أمم من قبلك الرسل كما أرسلناك إلى قومك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ضلالهم حتى أطاعوا الشيطان وكذبوا الرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: قرينهم في النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهذا تهديد لكفار مكة أنه يصيبهم مثل ما أصابهم، وتعزية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين لأنهم كانوا في طرق مختلفة اليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرهم. فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يبين لهم طريق الهدى. ثم قال: ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزلنا القرآن بياناً من الضلالة ونعمة من العذاب لمن آمن به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن. قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في إحيائها لعلامة لوحدانيته، إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً. ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يطيعون ويصدقون ويعتبرون ويبصرون. قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر[1] «نَسْقِيكُمْ» بنصب النون وقرأ الباقون بضم النون [و]معناهما قريب، يقال: سقيته وأسقيته بمعنى واحد. (مما في بطونه): ولم يقل مما في بطونها، والأنعام جماعة مؤنثة وفي هذا قولان: إن شئت رددت إلى واحد من الأنعام وواحدها نعم والنعم تذكر وتؤنث كقوله: (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) أي: من الحجر. وإن شئت قلت على تأويل آخر نسقيكم وهو مما في بطونه أي: بطون ما ذكرنا. وهذا مثل قوله: (جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ) وقال (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) ولم يقل فاجتنبوها أي فاجتنبوا ما ذكرنا. ثم قال تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ يعني: يخرج اللبن من بين الفرث والدم. قال ابن عباس في رواية أبي صالح إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طحنته الكبد فكان أسفله فرث وأوسطه لبن وأعلاه دم الكبد مسلط على هذه الأصناف الثلاثة فيقسم الدم فيجري في العروق، ويجري اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكرش. وقال بعضهم: إذا استقر العلف في الكرش صار دماً بحرارة الكبد ثم ينصرف الدم في العروق. فمقدار ما ينتهي إلى الضرع صار لبناً لبرودة الضرع بدليل أنَّ الضرع إذا كانت فيه آفة يخرج منه الدم مكان اللبن. ثم قال: ﴿لَبَناً خَالِصاً﴾. صار اللبن نصباً على معنى التفسير ﴿سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: سهلاً في الشرب ولا يغص به شاربه، ويقال: يشتهي شاربه (إليه) ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ

(١) انظر النشر ٢/٣٠٤، والحجة ٣٩١.

﴿مِنْهُ﴾ أي: من التمر، ويقال: «منه» كناية عن الأول وهو قوله «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون» من ذلك ﴿سَكَراً﴾ والسكر هو نقيع التمر إذا غلى واشتد قبل أن يطبخ، ويقال: سكراً أي: خمراً قال ابن عباس: نزلت هذه الآية وهي يومئذ كانت لهم حلال وهكذا قال الحسن والقتبي: إن هذه الآية نزلت في الخمر ﴿وَرِزْقاً حَسَناً﴾ يعني: الخل والزبيب والرُّبُّ. وروي عن ابن عباس[1] أنه قال: تتخذون منه سكراً يعني: ما حرم منه. ورزقاً حسناً ما أحل منه. وقال الشعبي: السكر النبيذ والخل، والرزق الحسن التمر والزبيب. وقال الضحاك: السكر الحرام والرزق الحسن الحلال وهؤلاء كلهم قالوا قبل تحريم الخمر. وقال الأخفش: سكراً طعاماً. يقال هذا سكر لك أي طعام لك. وقال القتبي: لست أدري هذا: ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ توحيد الله تعالى.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

وقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي: ألهمها إلهاماً. مثل قوله: (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا). ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ أي: مسكناً ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ يعني: أن اتخذي من الجبال من الشجر مسكناً ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: ومما يبنون من سقوف البيت. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر[2] «يَعْرُشُونَ» بضم الراء. والباقون بالكسر ومعناهما واحد أي: ومما يبنون من سقوف البيت ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من ألوان الثمرات. أي ألهمها بأكل الثمرات ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ أي: ادخلي الطريق الذي يسهل عليك، ويقال: خذي طرق ربك مذللاً أي: مسخراً لك. وقال مقاتل: فاسلكي سبل ربك يعني: ادخلي طرق ربك في الجبال وفي خلال الشجر ذللاً. لأنَّ الله تعالى. ذلل لها طرقها حيث ما توجهت ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ أي: من بطون النحل من قبل أفواهها مثل اللعاب ﴿شَرَابٌ﴾ يعني: العسل ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي: العسل أبيض وأصفر وأحمر، ويقال: يخرج من أفواه الشباب من النحل الأبيض. ومن الكهول الأصفر ومن الشيوخ الأحمر ﴿فِيهِ﴾ أي: في العسل ﴿شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ روي أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد[3] الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن أخي استطلق بطنه. فقال له: اسقه عسلاً فسقاه ثم جاء فقال: سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً. فقال له: اسقه عسلاً. فسقاه ثم جاءه فقال: سقيته فلم يزده إلاّ استطلاقاً فقال له: اسقه عسلاً صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبريء.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٢ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وأبي داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والحاكم وصححه.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٣ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وابن مردويه والحديث عند البخاري ١٠/١٣٩ في الطلب باب الدواء بالعسل (٥٦٨٤)، ومسلم ٤/١٧٣٦ في السلام باب التداوي بسقي العسل (٩١/٢٢١٧).

قال الفقيه أبو الليث: إنما يكون العسل شفاء إذا عرف الإنسان مقداره ويعرف لأي داء هو. فإذا لم يعرف مقداره ولم يعرف موضعه فربما يكون فيه ضرر، كما أن الله تعالى جعل الماء حياة كل شيء وربما يكون الماء سبباً للهلاك. وقال السدي: العسل شفاء الأوجاع التي يكون شفاؤها فيه. وقال مجاهد: «فيه شفاء للناس» أي: في القرآن بيان للناس من الضلالة. وروى أبو الأحوص عن عبد الله بن مسعود أنه قال: العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور. وروى الأسود عن ابن مسعود[١] أنه قال: عليكم بالشفاء من القرآن والعسل ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: فيما ذكر من أمر النحل لعلامة لوحدانيتي ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: علموا أن معبودهم لم يغنهم من شيء ثم قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: يقبض أرواحكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: إلى أسفل العمر وهو الهرم ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: صار بحال لا يعلم ما علم من قبل. ويقال: لكيلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً. ويقال: إن الهرم اسوأ العمر وشره، وقوله: «لكي لا يعلم» أي حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً لشدة هرمه بعد ما كان يعلم الأمور قبل الهرم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ على تحويلكم. ويقال: معناه: ومنكم من يرد إلى أرذل العمر أي: إني محولكم من حال إلى حال تكرهونه ولا يقدر معبودكم أن يمنعني عن ذلك. والله عليم قدير على ذلك. قوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: فضل الموالي على العبيد في المال ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: الموالي لا يرضون بدفع المال إلى المماليك ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا ترضون لأنفسكم أن كون عبيدكم معكم شركاء في أموالكم. فكيف ترضون لله تعالى أن تصفوا له شريكاً في ملكه وصفاته وتصفوا له ولداً من عباده. وقال قتادة: هو الذي فضل في المال والولد لا يشرك عبيده في ماله. فقد رضيتم بذلك لله تعالى ولم ترضوا به لأنفسكم. وقال مجاهد: ضرب الله مثلاً للآلهة الباطلة مع الله تعالى. ويقال: نزلت الآية في وفد نجران حين قالوا في عيسى عليه السلام ما قالوا. ثم قال تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢] يقول بوحدانية الله تعالى تكفرون وترضون له ما لا ترضون لأنفسكم.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني: خلق لكم من جنسكم إناثاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ أي: خلق لكم من نسائكم بنينَ ﴿وَحَفَدَةً﴾ أي: ولد الولد. ويقال: هم الأعوان والخدم والأصهار. وروي عن زر بن حبيش عن ابن مسعود[٣] أنه قال: الحفدة الأختان. وقال مجاهد: الخدم وأنصاره وأعوانه. وعن ابن

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٣ وعزاه لابن ماجه وابن مردويه والحاكم وصححه البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) قرأ أبو بكر: ﴿أفبنعمةِ الله تَجْحَدُون﴾ بالتاء أي قل لهم يا محمد أفبنعمة الله أي بهذه الأشياء التي ذكرها تجحدون وحجته قوله أول الآية: ﴿والله فضّل بعضكم على بعض﴾. وقرأ الباقون: ﴿يَجْحدون﴾ بالياء، الله وبخهم على جحودهم ويقوي الياء قوله تعالى بعدها: ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾. انظر حجة القراءات ٣٩٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٤ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه.

مسعود أنه قال: هم أصهاره. وقال الربيع بن أنس: البنون بنو الرجل من امرأته والحفدة بنو المرأة من غيره وقال زر بن حبيش: الحفدة حشم الرجل وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الولد الصالح. وقال أهل اللغة: أصله في اللغة السرعة في المشي ويقال في دعاء الوتر وتحفد أي: ونجتهد في الخدمة والطاعة. ثم قال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال الكلبي: يعني الحلال إن أخذتم به. وقال مقاتل: الطيبات الخبز والعسل وغيرهما من الأشياء الطيبة بخلاف رزق البهائم والطيور. ثم قال: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال الكلبي: يعني الآلهة. وقال مقاتل: (أفبالباطل) يقول: بالشيطان يصدقون بأن مع الله إلهاً آخر. ويقال أفبالباطل يؤمنون يعني: أفيعبدون الأصنام التي لا تقدر على مضرتهم ولا على منفعتهم. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يجحدون بواحدانية الله تعالى. ويقال: وبنعمة الله هم يكفرون فلا يؤمنون برب هذه النعمة. قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ﴾ أي: لا يقدر لهم ﴿رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: إنزال المطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: والنبات ﴿شَيْئاً﴾ يعني: لا يملكون شيئاً من ذلك وقال القتبي: إنما نصب «شيئاً» بإيقاع الرزق عليه. ومعناه: يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً. كما تقول ويخدم من لا يستطيع إعطاءه درهماً ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني: ذلك ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ يعني: لا تصفوا لله شريكاً. فإنه لا إله غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا شريك له، ويقال: إن الله يعلم ضرب الأمثال ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ضرب المثل.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أي: وصف الله شبهاً ﴿عَبْداً مَمْلُوكاً﴾ وهو الكافر ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ يقول: لا يقدر على مال ينفقه في طاعة الله ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ أي مالاً حلالاً ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ أي: يتصدق منه ﴿سِراً وَجَهْراً﴾ يقول: يتصدق خفية وعلانية وهو المؤمن ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ في الطاعة مثلاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ضرب المثل. وروي عن ابن عباس[1] أنه قال: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان والآخر أبو الفيض بن أمية وهو كافر لا يقدر أن ينفق خيراً لمعاده وعثمان أنفق لآخرته. فهل يستويان؟ أي: هل يستوي الكافر والمؤمن. ويقال: ضرب المثل للآلهة ومعناه: إن الإثنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما قادراً على الإنفاق والآخر عاجزاً لا يستويان فكيف يسوون بين الحجارة التي لا تتحرك ولا تعقل وبين الذي هو على كل شيء قدير. فبين الله تعالى علامة ضلالتهم ثم حمد نفسه ودل خلقه على حمده فقال «الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون» ثم زاد في البيان وضرب مثلاً آخر فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ يعني: أخرس وهو الصنم ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من مال ولا منفعة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ يعني: ثقل على وليه وقرابته، يعني: الصنم عيال ووبال على عابده ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يعني: حيث يبعثه لا يجيء بخير ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر.

يعني: بالتوحيد ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يدل الخلق على التوحيد. ويقال: هذا المثل للكافر مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. يعني الكافر الذي لا يتكلم بالخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل أي التوحيد ويدعو الناس إليه وهو على صراط مستقيم يدعو الناس إليه وهو دين الإسلام. وقال السدي[١]: المثلين ضربهما الله لنفسه وللآلهة.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: ما غاب عن العباد ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ يعني: قيام الساعة ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ كرجع البصر ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ يقول: بل هو أقرب أي أسرع. قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن البعث والإحياء في قدرة الله تعالى ومشيئته كلمح البصر. ولم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ولكنه وصف سرعة القدرة على الإتيان بها. ويقال أو هو أقرب الألف زيادة ومعناه وهو أقرب. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: من البعث وغيره. قوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي «إِمّهاتكم» بكسر الألف والباقون بالضم ومعناهما واحد وقال الزجاج: الأصل في الأمهات أمات ولكن الهاء زيدت مؤكدة كما زادوها في قولهم أهرقت الماء وأصله أرقت الماء ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ يعني: لا تعقلون شيئاً ويقال: لا تعلمون الأشياء كلها ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ تعقلون بها الخير والشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا النعمة. ثم بين لهم العبرة ليعتبروا بها ويعرفوا بها وحدانيته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ يقول: مذللات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: أي: في الهواء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عند قبض الأجنحة وعند بسطها ﴿إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما ذكرت ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: علامات لوحدانية الله لمن علم أن معبودهم لم يعنه في ذلك يعني الكفار لا يعلمون متى يبعثون. وأيان كلمة الاختصار وأصله أي أوان؟ ثم قال تعالى (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) يعني ربكم رب واحد فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي: لمن آمن به، قرأ ابن عامر وحمزة[٢] «ألم تروا» بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء. ثم قال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ أي: خلق لكم البيوت قراراً ومأوىً لكم ويقال: معناه: سخر لكم الأرض لتبنوا فيها البيوت ويقال: معناه وفقكم لبناء البيوت لسكناكم وقراركم، فذكر النعم والمنن والدلائل لوحدانيته. ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: من الشعر والصوف والوبر (بيوتاً) أي: الفساطيط والخيام ﴿تَسْتَخِفُّونَها﴾ أي تستخفون حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ اقامَتِكُمْ﴾ أي: يوم انتقالكم وسفركم ويوم نزولكم (ومن أصوافها) أي: من أصواف الغنم ﴿وَأَوْبَارِها﴾ يعني: الإبل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٥ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٣، النشر ٢/٣٠٤.

﴿وأشعارها﴾ يعني أشعار المعز (أثاثاً) أي: متاع البيت من الفرش والأكسية. وقال قتادة والكلبي: يعني: المال ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ يعني: المنفعة حتى تعيشون فيه إلى الموت، ويقال: تنتفعون بها إلى حين تبلى، وتهلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «ظعنكم»(١) بنصب العين وقرأ الباقون بالجزم ومعناهما واحد.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾

قوله ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ أي: أشجاراً تستظلون بها. ويقال بيوتاً تسكنون فيها ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ أي: جعل لكم في الجبال بيوتاً تسكنون فيها ويقال: أكناناً: يعني: الغيران والأسراب واحدها كن ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ أي: القمص (تقيكم الحر) يعني: والبرد. اكتفاء أحدهما إذا كان يدل على الآخر. وقال قتادة في قوله «مما خلق ظلالاً». أي: من الشجر وغيره «وجعل لكم من الجبال أكناناً» يعني: غيراناً في الجبال يسكن فيها تقيكم من الحر أي: من القطن والكتان والصوف قال: وكانت تسمى هذه السورة سورة النعم ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ وهي: الدروع من الحديد تدفع عنكم قتال عدوكم ثم قال: (كذلك يتم نعمته عليكم) أي: ما ذكر من النعم في هذه السورة ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تعرفون رب هذه النعم فتوحدوه وتخلصوا له بالعبادة. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ «لعلكم تسلمون» بنصب التاء واللام ومعناه تسلمون من الجراحات إذا لبستم الدروع وتسلمون من الحر والبرد إذا لبستم القمص. ثم قال بعد ما بين العلامات ﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ تبلغهم رسالتي وتبين لهم الهدى من الضلالة. ثم قال تعالى: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ أي: يعرفون أن خالق هذه الأشياء هو الله تعالى ثم ينكرونها ويقولون هي بشفاعة آلهتنا. وهذا قول الكلبي. وقال السدي: يعني يعرفون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نبي وأنه صادق ولا يؤمنون به. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها». قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها وسرابيل الحديد والثياب، يعرف هذا الكافرون ثم ينكرونها ويقولون هذا كان لآبائنا وورثناها. ويقال: إنكارهم قولهم لولا كذا لكان كذا، ويقال: «يعرفون نعمة الله» وذلك أنهم إذا سئلوا من خلقهم؟ يقولون الله. ثم ينكرونها يعني البعث ﴿وَأَكْثَرُهُم الكَافِرُونَ﴾ يعني: كلهم كافرون بالتوحيد. ويقال: جاحدون بالنعم. قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ أذكر يوم نبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي: نبياً شاهداً على أمته بالرسالة أنه بلغها ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي:

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٣، النشر ٢/٣٠٤.

في الكلام ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقول: لا يرجعون من الآخرة إلى الدنيا. وقال أهل اللغة: عَتَب يَعْتِب إذا وجد عليه وأعْتَبَ يُعْتِبُ إذا رجع عن ذنبه واستعتب يستعتب إذا طلب منهم الرجوع. أي: لا يطلب منهم الرجوع منهم إلى الدنيا. قوله: ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي: الكفار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يهون عليهم العذاب حين رأوها ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون ولا يؤجلون ولا يتركون ساعة ليستريحوا. قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: آلهتهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو﴾ يعني: نعبد ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ يقولون نعبد دونك وهم أمـرونا بذلك، ويقال: يعني السفلة إذا رأوا شركاءهم يعني: أمراءهم ورؤساءهم قالوا ربنا هؤلاء قادتنا الذين كنا ندعو من دونك. أي هم أمرونا بالمعصية فأطعناهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ يعني: الآلهة والقادة وأجابوهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ما أمرناكم بذلك.

وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وخضعوا وانقادوا، العابد والمعبود، والتابع والمتبوع، يومئذ خضعوا كلهم يومئذ لله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: يختلفون ويقال: بطل عنهم ما كانوا يقولون من الكذب في الدنيا. ثم بين عذابهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صرفوا الناس عن دين الإسلام ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ يعني: القادة ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ من الشرك والتكذيب زدناهم عذاباً فوق عذاب السفلة، ويقال: التابع والمتبوع زدناهم في كل وقت عذاباً مع العذاب. وقال مقاتل: يجري الله عليهم خمسة أنهار من نحاس ذائب، ثلاثة أنهار في مقدار وقت الليل واثنان في مقدار وقت النهار بما كانوا يفسدون في الدنيا ـ وقال الكلبي: نحو هذا.

قال الفقيه أبو الليث: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف عن عبيد الله عن إسرائيل عن السدي عن مرة عن عبد الله[1] بن مسعود في قوله «زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ» قال: أفاعي في النار. وعن ابن مسعود أيضاً قال: زيدوا عقارب في النار أنيابها كالنخيل الطوال، وعن مجاهد أنه قال: في النار عقارب كالبغال، أنيابهن كالرماح تضرب إحداهن على رأسه فيسقط لحمه على قدميه، وقال: يسألون الله تعالى المطر في النار ألف سنة ليسكن ما بهم من شدة الحر والغم فيظهر لهم سحابة فيظنون أنها تمطر عليهم فجعلت السحابة تمطر عليهم الغيث فإذا هي تمطر عليهم بالحيات والعقارب ويقال: يسلط عليهم الجوع ويقال الجرب ويقال: الخوف. قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: رسولاً من الآدميين ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأمر والنهي، إلا أن بعضه مفسر وبعضه مجمل يحتاج إلى الاستخراج والاستنباط. وقال مجاهد: ما

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٧ وعزاه لهناد بن السري.

يسأل الناس عن شيء إلا في كتاب الله تبيانه ثم قرأ «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» وقال علي بن أبي طالب: كل شيء علمه في الكتاب إلا أن آراء الرجال تعجز عنه. ثم قال: ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ أي: هدى من الضلالة «ورحمة» أي: نعمة لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بالجنة.

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ أي: بتوحيد الله وشهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان إلى الناس والعفو عن الناس، ويقال: الإحسان القيام بالفرائض ﴿وَإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: صلة الرحم ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: عن الزنا ويقال: جميع المعاصي ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني: ما لا يعرف في شريعة ولا في سنة، ويقال: المنكر ما وعد الله عليه النار ﴿والْبَغْي﴾ يعني: الاستطالة والكبرة فقد أمر بثلاثة أشياء ونهى عن ثلاثة أشياء وجمع في هذه الأشياء الستة علم الأولين والآخرين وجميع الخصال المحمودة، وروي عن عثمان[1] بن مظعون أنه قال: ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياءً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنه كان يدعوني فيعرض عليَّ الإسلام فاستحييت منه فأسلمت ولم يقر الإسلام في قلبي، فمررت به ذات يوم وهو بفناء بابه جالساً محتبياً فدعاني فجلست إليه فبينما هو يحدثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء حتى رأيت طرفه قد انقطع. ثم رأيته خفضه عن يمينه ثم ولأني وركه ينفض رأسه كأنه يستفهم شيئاً يقال له. ثم دعا فرفع رأسه إلى السماء ثم خفضه حتى وضعه عن يساره ثم أقبل عليَّ محمراً وجهه يفيض عرقاً. فقلت يا رسول الله ما رأيتك صنعت هذا في طول ما كنت أجالسك. فقال: ولقد رأيت ذلك؟ قلت: نعم قال: بينما أحدثك إذ رفعت بصري إلى السماء فرأيت جبريل ينزل عليّ فلم تكن لي همة غيره حتى نزل عن يميني فقال يا محمد «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى» إلى آخر الآية. قال عثمان: فوقر الإيمان في قلبي فآمنت وصدقته. قال: فأتيت أبا طالب فأخبرته بما نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا وتفلحوا، ولئن كان محمد صادقاً أو كاذباً ما يأمركم إلاَّ بمكارم الأخلاق. فلما رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عمه اللين قال: يا عماه أتأمر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك؟ وجهد عليه فأبى أن يسلم فنزل (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) إلى آخر الآية.

قال الفقيه أبو الليث: حدثنا أبو منصور عبد الله الفرائضي بسمرقند بإسناده عن عكرمة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ على الوليد بن المغيرة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ» إلى آخر الآية فقال له: يا ابن أخي أعد عليَّ فأعاد عليه فقال: والله يا ابن أخي إنّ له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هذا بقول البشر. وقال قتادة: في قول الله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية قال: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يستحسنونه بينهم إلا أمر الله به وليس من خلق سيِّىءٍ يتعايرونه بينهم إلاَّ نهى الله عنه. ثم قال تعالى ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: يأمركم وينهاكم عن هذه الأشياء التي ذكرها الله في الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون.

وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٨ وعزاه لأحمد والبخاري في الأدب وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ**﴾ يقول: إذا حلفتم بالله فأتموا له بالفعل. ويقال أوفوا بعهد الله يعني: العهود التي بينكم وبين الله تعالى والعهود التي بينكم وبين الناس. ثم قال: ﴿**وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ**﴾ يعني: لا تنكثوا العهود ﴿**بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ يعني: بعد تغليظها وتشديدها ﴿**وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا**﴾ أي: شهيداً على إتمام العهود والوفاء بها، ويقال: حفيظاً على ما قال الفريقان ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ في وفاء العهد والنقض. ثم ضرب الله تعالى مثلاً فقال عز وجل: ﴿**وَلَا تَكُونُوا**﴾ في نقض العهد ﴿**كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا**﴾ وهي ربطة الحمقاء بنت عمرو بن كعب بن سعد وهي أم أخنس بن شريق الزهري ﴿**مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً**﴾ أي: من بعد ما أبرمته وأحكمته، كانت إذا غزلت الشعر والكتان نقضته ثم غزلته فقال: ولا تنقصوا العهد بعد توكيده كما نقضت المرأة غزلها. وقال القتبي. أي: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمان والعهود ثم تنقضوا ذلك فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت ثم نقضت ذلك النسج فجعلته أنكاثاً. والأنكاث ما نقض من غزل الشعر وغيره. وأحدها نكث ثم قال ﴿**تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ**﴾ أي: دغلاً وخيانة ﴿**أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ**﴾ أي: فريق منكم ﴿**هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ**﴾ أي: هي أكثر وأغنى من أمة من فريق. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كندة ومراد، وذلك أنه كان بينهم قتال حتى كَلَّ الظهر ثم توادعوا لستة أشهر حتى يصلح الظهر أي: الدواب ويجم الخيل، فلما مضت خمسة أشهر أمر قيس بن معدي كرب بالجهاد إليهم فقالوا قد بقي من ا لأجل شهر فمكث حتى علم أنه يأتيهم بعد انقضاء الأجل بيوم ثم سار إليهم فإذا هو يوم انقضاء الأجل فقتلوه وهزموا قومه فذلك قوله: «ولا تتخذوا أيمانكم» يعني: عهودكم بالله دخلاً أي: مكراً وخديعة بينكم «أن تكون أمة هي أربى من أمة» يعني أن تكون أمة أكثر من أمة فينقضون العهد لأجل كثرتهم، فلا تحملنكم الكثرة على نقض العهد ﴿**إنّما يبلوكم الله به**﴾ يعني: إنما يبتليكم الله بالكثرة لنقض العهد والوفاء. وقال مجاهد[1]: كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز نقضوا وحالفوا الأعز فنزل «إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ» أي: يختبركم بنقض العهود وبالكثرة ﴿**وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ من الدين ويبين لكم ما نقضتم من العهود ويجازيكم به قوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ أي: على ملة واحدة وهي الإسلام ﴿**وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ**﴾ يعني: يخذل من علم أنه ليس من أهل الإسلام. ﴿**وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ أي: يكرم بالإسلام من هو أهل لذلك ﴿**وَلَتُسْأَلُنَّ**﴾ فهذه اللام لام القسم والتأكيد يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿**عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ أي: يسألكم عما كنتم تعملون من الوفاء والنقض بالعهد.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٩ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: إن ناقض العهد يزل عن الطاعة كما تزل قدم الرجل بعد الاستقامة ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ أي: تتجرعوا العقوبة ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صرفتم الناس عن دين الله الإسلام ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: شديد في الآخرة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي لا تختاروا على عهد الله والحلف به ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عرضاً يسيراً من الدنيا ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الآخرة من الثواب الدائم ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: ثواب الجنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الآخرة خير من الدنيا، ويقال: إن كنتم تصدقون بثوابه. قال الكلبي: نزلت الآية في رجل من حضرموت يقال له عبدان بن الأشوع قال: يا رسول الله إنّ امرأ القيس الكندي جاورني في أرض فاقتطع أرضي فذهب بها وغلبني عليها. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيشهد لك أحد على ما تقول؟ قال: يا رسول الله إنَّ القوم كلهم يعلمون أنِّي صادق فيما أقول ولكنه أكرم عليهم مني عليهم. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لامرىء القيس. ما يقول صاحبك؟ قال الباطل والكذب فأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يحلف. فقال عبدان: إنه لفاجر وما يبالي أن يحلف فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن لم يكن لك شهود فخذ يمينه. فقال عبدان. وما لي يا رسول الله إلا يمينه؟ فقال لا. فأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحلف. فلما قام ليحلف أخره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له: إنصرف فانصرف من عنده فنزلت هذه الآية (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) إلى قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أي: ما عندكم من أمور الدنيا يفنى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: ثواب الله في الجنة دائم لأهلها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عن اليمين وأقروا بالحق. ويقال الذين صبروا على الإيمان وأقروا بالحق ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بالإحسان الذي كانوا يعملون في الدنيا. ويقال: يجزيهم بأحسن أعمالهم ويبقى سائر أعمالهم فضلاً. قال الكلبي: فلما نزلت هاتان الآيتان قال امرؤ القيس: أمَّا ما عندي فينفد وأمَّا صاحبي فيجزى بأحسن ما كان يعمل. اللّهم إنه صادق فيما قال، لقد اقتطعت أرضه. والله وما أدري كم هي. ولكنه يأخذ ما يشاء من أرض ومثلها معها بما أكلت من ثمارها. فنزل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: لا يقبل العمل منه ما لم يكن مؤمناً، فإذا كان مؤمناً وعمل صالحاً يقبل منه، ثم قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ في الجنة، ويقال: يجعل حياته في طاعة الله ويقال: فلنقنعنه باليسير من الدنيا. وروي عن ابن عباس[1] أنه قال: الكسب الطيب والعمل الصالح، وعن عليّ إنه قال: القناعة، وقال الحسن:[2] لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة، وقال الضحاك: الرزق الحلال وعبادة الله تعالى ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يثيبهم بإحسانهم ويعفو عن سيئاتهم. قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر في إحدى الروايتين[3] «وَلَنَجْزِيَنَّ الذين

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٠ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٠ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٩٣ ـ ٣٩٤، النشر ٢/ ٣٠٥.

واختلف عن ابن عامر فرواه النقاش عن الأخفش والمطوعي عن الصوري كلاهما عن ابن ذكوان كذلك، وكذلك رواه الرملي عن ≡

صبروا» بالنون وقرأ الباقون بالياء، واتفقوا في قوله «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ» بالنون.

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يعني: إذا أردت أن تقرأ القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة فتعوذ بالله. وهذا كقولك إذا أكلت فقل بسم الله، يعني: إذا أردت أن تأكل وهذا مثل قوله: (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ) يعني: إذا أردتم القيام للصلاة. وقوله: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ يعني: اللعين ويقال: الخبيث ويقال: المرجوم، ويقال: فيه تقديم ومعناه: فاستعذ بالله إذا قرأت القرآن ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ ليس له غلبة ولا حجة، ويقال: ليس له نفاذ الأمر ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا بتوحيد الله تعالى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يثقون به ولا يثقون بغيره. قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي: غلبته وحجته ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي: يطيعونه من دون الله تعالى، فمن أطاعه فقد تولاه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوا بعبادة ربهم إياه. وقال مقاتل: أي بالله تعالى. وقال القتبي: (والذين هم به مشركون) لم يرد أنهم بإبليس كافرون ولو كان هكذا لكانوا مؤمنين. وإنما أراد به الذين هم من أجله مشركون بالله تعالى كما يقال: صار فلان بك عالماً أي من أجلك. قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ يعني: ناسخة ﴿مَكَانَ آيَةٍ﴾ يعني: منسوخة أي نسخنا آية بآية. قال ابن عباس: إنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا نزلت عليه آية فيها شدة أخذ الناس بها وعملوا ما شاء الله أن يعملوا. فيشق ذلك عليهم فينسخ الله تعالى هذه الشدة ويأتيهم بما هي ألين منها وأهون عليهم رحمة من الله لهم، فيقول لهم كفار قريش والله ما محمد إلاَّ يسخر بأصحابه. يأمرهم اليوم بأمر، وغداً يأتيهم بما هو أهون عليهم منه. وما يعلمه إلا عابس غلام حويطب بن عبد العزى ويسار بن فكيهة مولى ابن الحضرمي، وكانا قد أسلما وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتيهما فيحدثهما ويعلمهما. وكانا يقرآن كتابهما بالعبرانية فنزل (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ يعني: بما يصلح للخلق ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: مختلق من تلقاء نفسك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله أمرك بما يشاء نظراً لصلاح العباد. وقال مقاتل: في الآية تقديم ومعناه: «وإذا بدلنا آية مكان آية» «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» فنقول على

= الصوري من غير طريق الكارزيني وهي رواية عبد الله بن أحمد بن الهيثم المعروف بدلبة عن الأخفش وبذلك قرأ الداني على شيخه عبد العزيز الفارسي عن النقاش وكذلك روى الداجوني عن أصحابه عن هشام وبه نص سبط الخياط صاحب المبهج عن هشام من جميع طرقه وهذا مما انفرد به فإنا لا نعرف النون عن هشام من غير طريق الداجوني ورأيت في مفردة قراءة ابن عامر للشيخ الشريف أبي الفضل العباسي شيخ سبط الخياط ما نصه: (وليجزين) بالياء واختلف عنه والمشهور عنه بالياء وهذا خلاف قول السبط وقد قطع الحافظ أبو عمرو وبتوهيم من روى النون عن ابن طوران وقال لا شك في ذلك لأن الأخفش ذكر ذلك في كتابه بالياء وكذلك رواه عنه ابن شنبوذ وابن الأخرم وابن أبي حمزة وابن أبي داود وابن مرشد وابن عبد الرزاق وعامة الشاميين وكذا ذكره ابن ذكوان في كتابه بإسناده (قلت ولا شك في صحة النون عن هشام وابن ذكوان جميعاً من طرق العراقيين قاطبة فقد قطع بذلك عنهما الحافظ الكبير قاطبة من جميع طرقهم عن هشام وابن ذكوان جميعاً بالياء وجهاً واحداً وكذا هو في العنوان والمجتبى لعبد الجبار والإرشاد والتذكرة لابن غلبون وبذلك قرأ الباقون. انظر النشر ٢/٣٠٥.

الله تعالى الكذب. قلت كذا ثم نقضته فجئت بغيره ثم قال في التقديم: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ».

قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني: قل يا محمد: نزل جبريل بالقرآن، والتشديد لكثرة نزوله ويقال: نَزَّلَ بمعنى تَنَزَّلَ كما يقال قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ وَبَيَّنَ بمعنى تَبَيَّنَ، ويقال: نزله بمعنى تلاه وبلغه، ويقال: قل: نزله روح القدس يعني: جبريل الذي يأتيك بالناسخ والمنسوخ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: من عند ربك ويقال: من كلام ربك ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالوحي ويقال: بالصدق، ويقال: للحق ويقال: لصلاح الخلق ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليحفظ قلوب الذين آمنوا على الإسلام، ويقال: لِتَطمئن إليه قلوب الذين آمنوا ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بالجنة. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: أن كفار قريش يقولون ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون: جبراً ويسار. وروى حصين عن عبد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان من أهل اليمن نصرانيان. إسم أحدهما يسار والآخر جبر صيقليان وكانا يقرآن بلسانهما فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمر عليهما يسمع منهما فقال المشركون إنما يتعلم منهما. فأكذبهم الله تعالى حيث قال ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي: رومي اللسان وقال مقاتل: كان غلام لعامر بن الحضرمي اسمه يسار يهودي أعجمي اللسان. وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أذاه كفار قريش يدخل عليه ويحدثه فقال المشركون: إنما يعلمه يسار فقال الله تعالى: رداً عليهم «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ» أي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمه أعجمي أي عبراني وأصل الإلحاد الميل ﴿وَهَذَا﴾ يعني القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: مفقه بلغتهم، وروي عن طلحة بن عمير أنه قال: بلغني أن خديجة كانت تختلف إلى غلام ابن الحضرمي. وكان نصرانياً وكان صاحب كتب يقال له جبر وكانت قريش تقول إنَّ عبد ابن الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» ثم أسلم جبر بعد ذلك وحسن إسلامه وهاجر مع سيده. قرأ ابن كثير «روح القُدْسِ» بجزم الدال وقرأ الباقون «الْقُدُسِ» بضم الدال. وقرأ حمزة والكسائي[1] «يَلْحَدُونَ» بنصب الياء والحاء وقرأ الباقون «يُلْحِدُونَ» بضم الياء وكسر الحاء ومعناهما واحد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٤.

ﭐلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ أي: لا يوفقهم الله ولا يكرمهم لقلة رغبتهم في الإيمان، ويقال: لا ينجيهم في الآخرة من النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ قال الزجاج: معناه: إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها وهؤلاء أكذب الكذبة. قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعليهم غضب من الله، على معنى التقديم. ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ أي: أكره على الكفر وتكلم بالكفر مكرهاً ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمَانِ﴾ أي: قلبه معتقد عليه، وهو عمار بن ياسر وأصحابه. وذلك أن ناساً من أهل مكة آمنوا فخرجوا مهاجرين فأدركتهم قريش بالطريق فعذبوهم فكفروا مكروهين فنزلت هذه الآية فيهم وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله، وروي عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن عمار بن ياسر أخذه بنو المغيرة فطرحوه في بئر ميمونة حتى أمسى، فقالوا له أكفر بمحمد وأشرك بالله فبايعهم على ذلك وقلبه كاره فنزلت الآية، وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى عمار بن ياسر وهو يبكي فجعل يمسح الدموع من عينيه ويقول: أخذني الكفار ولم يتركوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. فقال كيف وجدت قلبك؟ قال مطمئن بالإيمان فقال إن عادوا فعد. وقال مقاتل: أسلم جبر مولى ابن الحضرمي فأخذه مولاه وعذبه حتى رجع إلى اليهودية ثم رجع إلى هؤلاء النفر فنزلت الآية «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيْمَانِ» ثم بين حال الذين ثبتوا على الكفر فقال: ﴿وَلَكِنْ مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ أي فتح صدره بالقبول، يعني: قبل الكفر طائعاً وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتد ولحق بمكة ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: شديد في الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: اختاروا الدنيا ﴿عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يرشد إلى دينه ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى دينه.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾

قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ مجازاة لهم ﴿وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: ختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي: التاركون لأمر الله تعالى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ﴿إِنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر وأبويه وبلال وصهيب وخباب بن الأرت، عذبهم المشركون ثم هاجروا إلى المدينة فأخبروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا) ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ يقول: عذبهم أهل مكة ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَصَبَرُوا﴾ على البلاء وصبروا على دينهم وصبروا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على طاعة الله تعالى ﴿إِنَّ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٢/٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد الفتن ويقال: من بعد الهجرة **﴿لَغَفُورٌ﴾** لذنوبهم **﴿رَّحِيمٌ﴾** ويقال: نزلت الآية في عياش بن أبي ربيعة وقد ذكرناه في سورة النساء. قرأ ابن عامر[١] «مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا» بفتح الفاء والتاء أي: أصابتهم الفتنة وقرأ الباقون «فُتِنُوا» على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله: **﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾** كل نفس صار نصباً لنزع الخافض ومعناه: إن ربك من بعدها لغفور رحيم في يوم تأتي أي: تحضر ويقال: معناه: واذكروا (يَوْمَ تَأْتِي **﴿كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَّفْسِهَا﴾** يعني: كل إنسان يخاصم عن نفسه ويذب عنها ويقول: نفسي نفسي. وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه ويقول: رب نفسي نفسي أي أريد نجاة نفسي. **﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾** أي: كل نفس برة أو فاجرة جزاء ما عملت في دار الدنيا من خير أو شر **﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** أي: لا ينقصون من حسناتهم ولا يزادون على سيئاتهم.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قوله: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾** يقول: وصف الله شبهاً **﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾** يعني: مكة من العدو **﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾** من العدو أي: ساكنة مقيمة أهلها بمكة **﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾** أي: يحمل إليها طعامها ورزق أهلها **﴿رَغداً مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾** يعني موسعاً من كل أرض يحمل إليها الثمار وغيرها **﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾** أي: طغت وبطرت ويقال: كفرت بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾** أي: عاقبهم الله تعالى سبع سنين، ومعنى اللباس هنا: سوء الحال واصفرار الوجوه **﴿وَالْخَوْفِ﴾** يعني: خوف العدو وخوف سرايا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** أي: عقوبة لهم وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر. اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. فاستجاب الله دعاءه فوقع القحط والجدوبة حتى اضطروا إلى أكل الميتة والكلاب. قال القتبي: أصل الذوق بالفم، ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختيار فأذاقها الله لباس الجوع والخوف يعني ابتلاهم الله بالجوع والخوف وظهر عليهم من سوء آثارهم وتغير الحال عليهم. قوله: **﴿وَلَقَدْ**

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٥، النشر ٢/٣٠٥.

﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿فَكَذَّبُوه فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾** أي: الجوع **﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾** أي: كافرين. ثم إن أهل مكة بعثوا أبا سفيان بن حرب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: يا رسول الله: ما هذا البلاء هبك عاديت الرجال فما بال الصبيان والنساء. فأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يحمل إليهم الطعام فحمل إليهم الطعام ولم يقطع عنهم وهم مشركون. فقال الله تعالى: **﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً﴾** أي: من الحرث والأنعام حلالاً طيباً يعني: وهم خزاعة وثقيف **﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** يعني: إن كنتم تريدون بذلك رضاء الله وعبادته فإن رضاه أن تستحلوا ما أحل الله وتحرموا ما حرم الله. ثم بين المحرمات فقال تعالى: **﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾** أي: ذبح بغير اسم الله **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾** أي أجهد إلي بشيء مما حرم الله عليه **﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾** في أكله أي: لا يأكل فوق حاجته، ويقال: غير مفارق الجماعة ولا عاد عليهم **﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾** فيما أكل **﴿رَحِيمٌ﴾** حين رخص له في أكل الميتة عند الاضطرار. ثم قال: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾** أي: لا تقولوا يا أهل مكة فيما أحللت لكم **﴿هَذَا حَلَالٌ﴾** على الرجال **﴿وَهَذَا حَرَامٌ﴾** على النساء، ويقال: في الآية تنبيه للقضاة والمفتين كيلا لا يقولوا قولاً بغير حجة وبيان. ثم قال: **﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾** أي: بتحريم البحيرة والسائبة **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾** أي: لا يفوزون ولا ينجون من العذاب **﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾** أي: عيشهم في الدنيا قليل **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** في الآخرة.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

ثم قال تعالى: **﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾** يقول: مالوا عن الإسلام وهم اليهود **﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾** أي: في القرآن من قبل هذه السورة في سورة الأنعام **﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾** بتحريم ما حرمنا عليهم **﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** بكفرهم فحرمنا عليهم الأشياء عقوبة لهم **﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾** أي: عملوا المعصية بجهالة. وروي عن ابن عباس أنه قال كل سوء يعمله العبد فهو فيه جاهل وإن كان يعلم أن ركوبه سيئة **﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾** أي: العمل **﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾** أي: من بعد السيئة، ويقال: من بعد التوبة **﴿لَغَفُورٌ﴾** لذنوبهم **﴿رَحِيمٌ﴾** بهم. قوله: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ﴾** أي: إماماً يقتدى به، «قانتاً» أي: مطيعاً لربه. وروى عامر عن مسروق أنه قال ذكر عند عبد الله بن مسعود معاذ بن جبل. فقال عبد الله بن مسعود كان معاذ بن جبل أمةً قانتاً. فقال رجل: وما الأمة؟ قال: الذي يعلم الناس الخير. والقانت الذي يطيع الله ورسوله. وقال القتبي: إنما سماه أمةً لأنه كان سبب الاجتماع. قال: وقد يجوز أنه سماه أمةً لأنه اجتمع عنده خصال الخير، ويقال: إنما سماه أمةً لأنه آمن وحده حين لم يكن مؤمن غيره. وهذا كما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ أنه قال: يجيء زيد بن عمرو بن نفيل يوم القيامة أمةً وحده، وقد كان أسلم قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين لم يكن بمكة مؤمن غيره. وتابعه ورقة بن نوفل، وعاش ورقة بن نوفل إلى وقت خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أنزل عليه الوحي. ثم قال: ﴿حَنِيفاً مُسْلِماً﴾ أي مستقيماً قائلاً عن الأديان كلها ﴿ولم يك من المشركين﴾ أي مع المشركين على دينهم، وأصله ولم يكن فحذفت النون لكثرة استعمال هذا الحرف. قوله ﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾ أي: ما أنعم الله عليه ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي: اصطفاه واختاره للنبوة ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى دين قائم وهو الإسلام ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يقول: أكرمناه بالثناء الحسن، ويقال: بالنبوة ويقال: بالولد الطيب ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني مع الأنبياء في الجنة. قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بعده هذه الكرامة التي أعطيناها إياك. أمرناك ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دين إبراهيم يعني: استقم عليه ﴿حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يقول: إنما أمروا في السبت بالقعود عن العمل «على الذين اختلفوا فيه» يعني: في يوم الجمعة. وذلك أن موسى عليه السلام أمرهم أن يتفرغوا لله تعالى في كل سبعة أيام يوماً واحداً. فيعبدوه ولا يعملوا فيه شيئاً من أمر الدنيا. وستة أيام لصناعتهم ومعايشهم ويتفرغوا في يوم الجمعة فأبوا أن يقبلوا ذلك اليوم وقالوا إنَّما نختار السبت اليوم الذي فرغ الله فيه من أمر الخلق فجعل ذلك عليهم وشدد عليهم. ثم جاءهم عيسى بالجمعة فاختاروا يوم الأحد. وقال مجاهد: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ» أي: في السبت اتبعوه وتركوا الجمعة. وروى همام عن أبي هريرة[١] أنه قال: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة وأوتيناه من بعدهم، يعني: يوم الجمعة فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع، واليهود غداً والنصارى بعد غد. ثم قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين فبين لهم الحق معاينة ثم قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى دين ربك وإلى طاعة ربك ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: بالنبوة والقرآن ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ يعني: عظهم بالقرآن ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: حاجهم وناظرهم بالحجة والبيان، ويقال: باللين، وفي الآية دليل أن المناظرة والمجادلة في العلم جائزة إذا قصد بها إظهار الحق، وهذا مثل قوله: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

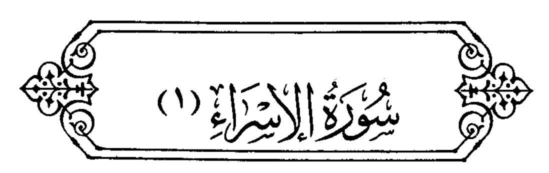
---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٤ وعزاه للشافعي في الأم والبخاري ومسلم والحديث عن البخاري ٢/ ٣٥٤ في الجمعة، باب فرض الجمعة (٨٧٦). ومسلم ٢/ ٥٨٥ في الجمعة، باب هداية هذه الأمة (١٩/ ٨٥٥).

وقوله: (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً) ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ لدينه. قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ قال ابن عباس: وذلك حين قتل المشركون حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد ومثلوا به، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن أمكننا الله منهم لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات فنزل «وإنْ عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» الآية. وقال محمد بن كعب القرظي لما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حمزة بالحال التي هو بها، حين مثل به فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين منهم. فلما رأى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما به من الوجع قالوا: لئن ظفرنا بهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب أحد فنزل «وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...» ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ فلم تعاقبوا ولم تمثلوا ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من المثلة أي: ثواب العبر خير من المكافأة ثم صارت الآية عامة في وجوب القصاص أنه لا يجوز إلا مثلاً بمثل والعفو أفضل. قال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ يعني: أثبت على الصبر ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يعني: ألهمك ووفقك للصبر ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار قريش إن لم يسلموا ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1] قرأ ابن كثير «في ضِيقٍ» بكسر الضاد. وقرأ الباقون بالنصب ومعناهما واحد أي: لا يضيق صدرك مما يقولون لك ويصنعون بك. وقال مقاتل: نزلت الآية في المستهزئين. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: معين للذين اتقوا الشرك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في العمل ويقال: معين الذين اتقوا مكافأة المسيء والذين هم محسنون إلى من أساء إليهم. والله أعلم بالصواب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٥، النشر ٢/٣٠٥.



سورة الإسراء (١)

مائة وإحدى عشرة آيات مكية
وقيل إلا قوله «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض» إلى آخر ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾

قال ابن عباس(٢) في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ يقول: عجبٌ من أمر الله الذي أسرى. ويقال: تنزيه لله تعالى. وروى موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سبحان فقال: نزه الله نفسه عن السوء. وروي عن عليّ بن أبي طالب أن ابن أبي الْكَوَّاءَ سأله عن سبحان فقال عليّ كلمة الله لنفسه(٣). ويقال معناه: سبحوا الله، (سُبْحَانَ ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾(٤) أي: أدلج برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لَيْلًا﴾ أي: في

---

(١) سميت في كثير من المصاحف سورة الإسراء وصرح الألوسي بأنها سميت بذلك إذ قد ذكر في أولها الإسراء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واختصت بذكره.

وتسمى في عهد الصحابة سورة بني إسرائيل. وتسمى أيضاً سورة سبحان لأنها افتتحت بهذه الكلمة قاله الفيروز أبادي في (بصائر ذوي التمييز). وهي مكية عند الجمهور قيل: إلا آيتين منها. وهما ﴿وإن كادوا ليفتنونك ـ إلى قوله ـ قليلاً﴾ وقيل: إلا أربعاً ـ هاتين الآيتين وقوله ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ وقوله ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾ الآية. وقيل: إلاَّ خمساً. هذه الأربع وقوله ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ إلى آخر السورة. وقيل: إلا خمس آيات غير ما تقدم، وهي المبتدأة بقوله ﴿أولئك الذين يدعون﴾ الآية وقوله ﴿أقم الصلاة﴾ الآية وقوله ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ الآية وقيل: إلا ثمانياً من قوله ﴿وإن كادوا ليفتنونك ـ إلى قوله ـ سلطاناً نصيراً﴾ وعدد آياتها مائة وعشر في عد أهل العدد بالمدينة ومكة والشام والبصرة. ومائة وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة.

والعماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة إثبات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وإثبات أن القرآن وحي من الله. وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه. وذكر أنه معجز ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه وأبطال إحالتهم أن يكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرى به إلى المسجد الأقصى. فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه الصلاة والسلام على عادة القرآن في ذكر المُثُل والنظائر الدينية ورمزاً إلهياً إلى أن الله أعطى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفضائل أفضل مما أعطى من قبله. وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل. فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية وغير ذلك مايتضح من السورة الكريمة انظر التحرير ١٥/٨٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٣٦ وعزاه للطستي.

(٣) أنظر لسان العرب ٣/١٩١٤.

(٤) زعم بعض أهل العلم أن الإسراء كان بروحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون جسده زاعماً أنه في المنام لا اليقظة لأن رؤيا الأنبياء وحي. وزعم بعضهم: أن الإسراء بالجسد، والمعراج بالروح دون الجسد، ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقظة لا مناما لأنه قال (بعبده) والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، ولأنه قال (سبحان) والتسبيح إنما يكون

ليلة، ويقال أسرى يعني: سار بعبده ليلاً ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: مكة. وقال ابن عباس: من بيت أم هانيء ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ يعني: إلى بيت المقدس.

قال الفقيه: أخبرني الثقة بإسناده عن أبي سعيد[1] الخدري قال: حدثنا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الليلة التي أسرى به فيها فقال: أوتيت بدابة هي أشبه الدواب بالبغل وهو البُرَاقُ وهو الذي كان يركبه الأنبياء قال: فانطلق بي يضع يده عند منتهى بصره. فسمعت نداء عن يميني يا محمد على رِسْلِكَ فمضيت ولما أعرج عليه، ثم سمعت نداء عن شمالي فمضيت ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة. فمدت يدها وقالت على رِسْلِكَ فمضيت ولم ألتفت إليها. ثم أتيت البيت المقدس. أو قال المسجد فنزلت وأوثقته بالحلقة التي كانت الأنبياء يوثقون بها. ثم دخلت المسجد فصليت. فقلت يا جبريل: سمعت نداء عن يميني فقال: ذاك داعي اليهودية، أما إنك لو وقفت عليه لتهودت أمتك، فقلت: وسمعت نداء عن شمالي. قال كان ذلك داعي النصارى. أما إنك لو وقفت عليه لتنصرت أمتك، وأما المرأة، كانت الدنيا تزينت لك، أما إنك لو وقفت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة قال: ثم أوتيت بإنائين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقال لي: اشرب أيهما شئت. فأخذت اللبن وشربت. فقال: أصبت الفطرة أي أعطيت أمتك الإسلام. أما إنك لو أخذت الخمرة لغوت أمتك ثم جيء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم. فإذا هو أحسن ما رأيت. فعرج بنا فيه. وذكر قصة طويلة فنزل (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

= عند الأمور العظام فلو كان مناماً لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه. ويؤيده قوله تعالى: **﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾** لأن البصر من آلات الذات لا الروح وقوله هنا **﴿لنريه من آياتنا﴾**. ومن أوضح الأدلة القرآنية على ذلك قوله جل وعلا: **﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن﴾** فإنها رؤيا عين يقظة لا رؤيا منام كما صح عن ابن عباس وغيره.

ومن الأدلة الواضحة على ذلك ـ أنها لو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة ولا سبباً لتكذيب قريش لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح. فالذي جعله الله فتنة هو ما رواه بعينه من الغرائب والعجائب فزعم المشركون أن من ادعى رؤية ذلك بعينه فهو كاذب لا محالة فصار فتنة لهم. وكون الشجرة الملعونة التي هي شجرة الزقوم على التحقيق فتنة لهم ـ أن الله لما أنزل قوله: **﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾** قالوا: ظهر كذبه لأن الشجر لا ينبت بالأرض اليابسة فكيف ينبت في أصل النار. ويؤيد ما ذكرنا من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالى هنا: **﴿لنريه من آياتنا﴾** الآية وقوله: **﴿ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾**، وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلاَّ على رؤيا المنام مردود، بل التحقيق: أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً ومنه قول الراعي وهو عربي قح:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفساً كان قبل يلومها

فإنه يعني رؤية صائد بعينه ومنه أيضاً قول أبي الطيب:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

قال صاحب اللسان. وزعم بعض أهل العلم: أن المراد بالرؤيا في قوله تعالى: **﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك﴾** الآية رؤيا منام، وأنها هي المذكورة في قوله تعالى: **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾**. الآية والحق الأول. وركوبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على البراق يدل على أن الإسراء بجسمه لأن الروح ليس من شأنه الركوب على الدواب كما هو معروف وعلى كل حال: فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه: أنه أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السموات السبع. وقد دلت الأحاديث المذكورة على أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه يقظة لا مناماً كما دلت على ذلك أيضاً الآيات التي ذكرنا. وعلى ذلك من يعتد به من أهل السنة والجماعة فلا عبرة بمن أنكر ذلك من الملحدين. انظر أضواء البيان ٣/٣٩١ ـ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٣٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن مردويه وهو عند مسلم ١/١٤٥ في كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٢٥٩/١٦٢).

بِعَبْدِهِ) يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أول الليل، من المسجد الحرام. يقول من الحرم من بيت أم هانيء بنت أبي طالب (إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) أي: الأبعد يعني: إلى مسجد إيلياء وهو بيت المقدس ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بالماء والأشجار، وهو المدائن التي حوله، مثل دمشق والأردن وفلسطين ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: لكي نريه من آياتنا، أراه الله تعالى في تلك الليلة من عجائب السموات والأرض ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالة أهل مكة وإنكارهم ﴿الْبَصِيرُ﴾ أي: العليم بهم. وذلك أنه لما أخبرهم عن قصة تلك الليلة أنكروا، وروي الزهري عن عروة قال: إنه لما أسري برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المسجد الأقصى أصبح فأخبر الناس بذلك فارتد ناس كثير ممن كان صدقه وفتنوا بذلك وكذبوا به، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا له: هذا صاحبك يزعم أنه قد أُسري به الليلة إلى بيت المقدس ثم رجع من ليلته. فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فإني أشهد إن كان قال ذلك إنه قد صدق. فقالوا: أتصدقه بأنه جاء إلى الشام في ليلة واحدة ورجع قبل أن يصبح؟ فقال أبو بكر: نعم إني أصدقه في أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء غدوة وعشية. فلذلك سمي أبا بكر «الصديق». قال الزهري: أخبرني أنس بن مالك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرضت عليه الصلاة ليلة أسري به خمسين. ثم نقصت إلى خمس. ثم نودي يا محمد ما يبدل القول لدي. وإن لك بالخمس خمسين[1].

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة جملةً واحدةً ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: بياناً لهم من الضلالة أي: دللناهم به على الهدى ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ يعني: ألّا تعبدوا من دوني ربًّا. قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ يعني بالذرية ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة في أصلاب الرجال وأرحام النساء. ويقال: معناه: ألّا تعبدوا ذُريةً من حملنا مع نوح. مثل عيسى وعزير. قرأ أبو عمرو[2] «يَتَّخِذُوا» بالياء على معنى المغايبة والخبر عنهم. أي: أعطيناك الكتاب لكيلا يتخذوا إلَهاً غيري. وقرأ الباقون بالتاء[3] على معنى المخاطبة. أي: قل لهم لا تتخذوا إلهاً غيري ثم أثنى على نوح فقال تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ أي: كان يحمد الله إذا شرب وأكل واكتسى. ويقال: الشكور هو المبالغ في الشكر أي: كان شاكراً في الأحوال كلها. قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي

(١) أخرجه البخاري ١/٥٤٧ في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات (٣٤٩) ومسلم (٢٥٩/١٦٢).

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٦، النشر ٢/٣٠٦.

(٣) وحجتهم في الانصراف إلى الخطاب بعد الغيبة قوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ثم قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالضمير في ﴿تتخذوا﴾ وإن كان على لفظ الخطاب فإنما يعني به الغيب في المعنى، ويجوز أن تكون (أن) بمعنى (أي) التي هي للتفسير على هذا التأويل لأنه انصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب، ويجوز أن تكون زائدة وتضمر القول المعنى: ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل وقلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾. ويجوز أن تكون الناصبة للفعل فيكون المعنى: (وجعلناه هدى كراهة أن تتخذوا من دوني وكيلاً) أو (بأن لا تتخذوا) انظر حجة القراءات ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

إِسْرَائِيلَ﴾ يقول: أعلمنا وبينا كقوله: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ) أي: أعلمناه وبيناه ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يعني: أخبرناهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ أي: لتعصن ﴿فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً﴾ والعلو العتو على الله تعالى والجرأة. وهذا قول ابن عباس، وقال مقاتل: يعني: لتهلكن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً. يعني: لتقهرن قهراً شديداً. وروي عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت. حتى بعث الله طالوت ومعه داود فقتله داود. ثم رَدَّت الكرة لبني إسرائيل. ثم جاء وعد الآخرة من المرتين، «لِيَسُؤُوا وُجُوهَكُمْ» أي: يقبحوا وجوهكم وليدمروا تدميراً وهو بُخْتُنَصَّرُ وإن عدتم عدنا فعادوا فبعث الله عليهم محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «وَعْدُ أُولاَهُمَا» جاءتهم فارس معهم بختنصر[1] ثم رجعت فارس. يعني: أهل فارس ولم يكن قتال ونصرت بنو إسرائيل عليهم فذلك وعد الأولى، فإذا جاءَ وَعدُ الآخرة جاءهم بختنصر ودمر عليهم. وروى أسباط عن السدي أن وعد الأولى كان ملك النبط فجاسوا خلال الديار، ثم إن بني إسرائيل تجهزوا وغزوا النبط فأصابوا منهم واستنقذوا ما في أيديهم فردت الكرة عليهم. وكان بختنصر في ذلك الوقت يتيماً في ذلك العسكر وخرج ليسأل شيئاً فلما رأى كبر جمع الجيوش وجاء بهم وخوفهم وخرب البلدة. قال القتبي: إن بختنصر غزاهم فرغبوا إلى الله تعالى وتابوا فردَّ الله عنهم. بعد أن فتحوا المدينة وجالوا في أسواقها ثم أحدثوا فبعث الله إليهم أرميا النبي عليه السلام فقام فيهم بوحي الله فضربوه وقيدوه وحبسوه. فبعث الله تعالى إليهم عند ذلك بختنصر ففعل ما فعل. وقال الكلبي: لما عصوا الله وهو أول الفسادين سلط الله عليهم بختنصر، خرج من بابل فأتاهم بالشام وظهر على بيت المقدس فقتل منهم أربعين ألفاً ممن كان يقرأ التوراة وأدخل بقيتهم أرضه فمكثوا كذلك سبعين سنة، حتى مات. ثم إن رجلاً من أهل همدان يقال له: كورش غزا أهل بابل فظهر عليهم وسكن الدار وتزوج امرأة من بني إسرائيل وطلبت إلى زوجها أن يرد قومها إلى أرضهم. ففعل فردهم إلى أرض بيت المقدس فمكثوا فيها، فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه ثم عادوا فعصوا المرة الثانية. فسلط الله عليهم ملكاً من ملوك الروم يقال له إسبسيانوس فحاصرهم سنين ثم مات فبعث الله عليهم ابنه ططيوس بن إسبسيانوس فحاصرهم سنين. ثم فتحها بعد ذلك فقتل منهم مائة ألف وثمانين ألفاً حتى قتل يحيى بن زكريا وحبس منهم مثل ذلك وخرب بيت المقدس فلم يزل خراباً حتى بناه المؤمنون في زمن عمر رضي الله عنه فذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾ يقول: أول الفسادين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلطنا عليكم ﴿عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: ذوي قتال شديد ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾ يقول: فتلوكم وسط الأزقة وقال القتبي: فجاسوا أي: عاثوا وأفسدوا ويكون جاسوا بمعنى: دخلوا بالفساد ﴿وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾ يعني: كائناً لئن فعلتم لأفعلن بكم.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: أعطيناكم الدولة. ويقال: الرجعة عليهم قوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ

(١) ملك الكرافيين أغار على العرب ـ انظر تاريخ الطبري ١/٥٥٨ باب ذكر خبر غزو بختنصر للعرب.

﴿وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ يعني: أكثر رجالاً وعدداً. وقال القتبي: أصله من نفر ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، والنفير والنافر مثل القدير والقادر. قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ يقول: إن وحدتم الله وأطعتموه ﴿أَحْسَنْتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ أي: يثاب لكم الجنة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أي: أشركتم بالله ﴿فَلَهَا﴾، ويقال: في الآية مضمر ومعناه. وإن أسأتم فلها رب يغفر لها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي: آخر الفسادين ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أخذ من السوء أي: بعثناهم إليكم ليقبحوا وجوهكم بالقتل والسبي. قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «لِيَسُوءَ» بالياء وفتح الهمزة يعني: الوعد، ويقال: يعني: الملك سلط عليهم. وقرأ الكسائي «لَنَسُوءَ» بالنون ونصب الواو فيكون الفعل لله تعالى. وقرأ الباقون «لِيَسُوُوا» بالياء[1] وضم الهمزة بلفظ الجماعة يعني: إن القوم يفعلون ذلك ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: بيت المقدس ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ يقول: وليخربوا ما ظهروا عليه تخريباً. وقال الكلبي: أي ليدمروا وليخربوا ما علوا. أي: ما ظهروا عليه تتبيراً أي: إهلاكاً. وقال الزجاج: يقال لكل شيء متكسر من الحديد والذهب والفضة والزجاج تبر، ومعنى ما علوا أي: وليدمروا في حال علوهم. قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد هذين الموتين. فرحمهم وعادوا إلى ما كانوا عليه وبعث فيهم الأنبياء وكانوا رحمة لهم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي: إن عدتم إلى المعصية عدنا إليكم بالعذاب، ويقال: إن عدتم إلى تكذيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كذبتم سائر الأنبياء عدنا. يعني: سلطناه عليكم فيعاقبكم بالقتل والجزية في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي: سجناً ومحبساً، قال الحسن: أي سجناً وقال قتادة أي: وحبساً يحبسون فيها وقال مقاتل: أي: محبساً يحبسون فيها ولا يخرجون أبداً كقوله: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا) ويقال: هذا فعيل بمعنى فاعل. وقال الزجاج: حصيراً أي: حبيساً، أخذ من قوله: حصرت الرجل إذا حبسته وهو محصور. والحصير المنسوج. وإنما سمي حصيراً لأنه حصرت طاقاته بعضها فوق بعض.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: يدعو ويدل ويرشد إلى التي هي أقوم وهو توحيد الله تعالى وهو «شهادة أن لا إله إلاّ الله والإيمان برسله والعمل بطاعته، هذه صفة الحال التي هي أقوم ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: القرآن بشارة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ في الجنة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي: هيئنا لهم ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: وجيعاً. قرأ حمزة والكسائي[2] «وَيَبْشُرُ» بنصب الياء وجزم الباء والتخفيف وقرأ الباقون «وَيُبَشِّرُ» بضم الياء والتشديد قوله: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ وأصله في اللغة: ويدعو بالواو. إلا أنه حذف الواو في الكتابة لأن الضمة تقوم مقامه. مثل قوله: (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) وأصله: سندعو، أي: يدعو الإنسان باللعن على نفسه وأهله وولده وماله وخدمه ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾

(١) انظر النشر ٢/٣٠٦، حجة القراءات ٣٩٧.

(٢) تقدم وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٩٤.

أي: دعاءه بالرزق والعافية والرحمة وما يستجاب له، فلو استجيب له إذا دعاه باللعن كما يستجاب له بالخير هلك. ويقال: نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: «فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ» ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ يستعجل. يعني: إن آدم عجل بالقيام قبل أن يتم فيه الروح. وكذلك النضر بن الحارث يستعجل بالدعاء على نفسه ويستعجل بالعذاب، ويروي الحكم عن إبراهيم عن سلمان[1] أنه قال: لما خلق الله تعالى آدم بدأ بأعلاه قبل أسفله فجعل آدم ينظر وهو يخلق فلما كان بعد العصر قال: يا رب عجل قبل الليل فذلك قوله: وكان الإنسان عجولاً. قال ابن عباس: لما جعل فيه الروح فإذا جاوز عن نصفه أراد أن يقوم فسقط فقيل له لا تعجل فذلك قوله: «وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً» قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ يعني: خلقنا الشمس والقمر علامتين يدلان على أن خالقهما واحد. ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ يعني: ضوء القمر وهو السواد الذي في جوف القمر. وقال محمد بن كعب[2]: كانت شمس بالليل وشمس بالنهار فمحيت شمس الليل. وقال ابن عباس: كان في الزمان الأول لا يعرف الليل من النهار فبعث الله جبريل فمسح جناحه بالقمر فذهب ضوؤه وبقي علامة جناحه وهو السواد الذي في القمر، فذلك قوله: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: وتركنا علامة النهار مضيئة مبينة ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: لكي تطلبوا رزقاً من ربكم في النهار ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي: حساب الشهور والأيام ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي: بيناه في القرآن.

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال ابن عباس: [3] أي: خيره وشره مكتوب عليه لا يفارقه، وقال قتادة: سعادته وشقاوته. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا يزيد بن ربيع عن يونس عن الحسن قال في قوله (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه): طائره عمله وإليه هداه أمِّيًّا كان أو غير أمي، وروى الحكم[4] عن مجاهد أنه قال: ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد وقال الضحاك[5]: طائره في عنقه الشقاوة والسعادة والأجل والرزق ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يُلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ أي مفتوحاً. قرأ ابن عامر[6] «يُلَقَّاهُ» بضم الياء وتشديد القاف يعني: يعطاه والباقون «يَلْقَاهُ» أي: يراه. وقوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: شاهداً. ويقال: محاسباً. لما ترى فيه كل حسنة وسيئة محصاة عليك. قال ابن عباس: فإن كان مؤمناً أعطي كتابه بيمينه وهي: صحيفة يقرأ سيئاته في باطنها وحسناته في ظاهرها فيجد فيها عملتَ كذا وكذا وصنعتَ كذا وكذا وقلتَ كذا وكذا في سنة كذا وكذا في شهر كذا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن عساكر.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن داود في كتاب القدر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٦) النشر ٢/٣٠٦، حجة القراءات ٣٩٨.

وكذا وفي يوم كذا وكذا وفي ساعة كذا وكذا وفي مكان كذا وكذا، فإذا انتهى إلى أسفلها قيل له: قد غفرها الله لك اقرأ ما في ظهرها فيقرأ حسناته فيسره ما يرى فيها ويشرق لونه، عند ذلك يقول «هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ». قال ويعطى الكافر بشماله ويقرأ حسناته في باطنها وسيئاته في ظاهرها، فإذا انتهى إلى آخره قيل له هذه حسناتك قد ردت عليك، اقرأ ما في ظهرها فيرى فيها سيئاته قد حفظت عليه كل صغيرة وكبيرة فيسوءه ذلك ويسود وجهه وتزرق عيناه ويقول عند ذلك «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ» وهو قوله (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) أي: حفيظاً. وقال مقاتل: وذلك حين جحد فختم على لسانه وتكلمت جوارحه فشهدت جوارحه على نفسه وذلك قوله: «كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» أي: شهيداً. فلا شاهد عليك أفضل من نفسك قوله: ﴿مَنِ اهْتَدَى﴾ (يعني من اجتهد حتى اهتدى) ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ يعني: فثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أي: ومن تغافل حتى ضل ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إثمه على نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تؤاخذ نفس بذنب نفس أخرى ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ حجة عليهم مع علمه أنهم لا يطيعون وينذرهم ما هم عليه من المعصية فإن أجابوا وإلّا عذبوا.

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ يعني: أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أكثرنا جبابرتها، يقال: أَمَرَ إذَا أكثر وآمَرَ أيضاً. هما لغتان. وروي عن زينب بنت جحش أنها قالت: دخل علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول: ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق إبهامه بالتي تليها. قالت: قلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث. ويقال: أَمَرَ وآمر مثل فعل وأفعل يعني: أكثر. ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم: خير المال مهرة مأمورة أي: خيل كثير النتاج قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ونافع في إحدى الروايتين وابن كثير في إحدى الروايتين «أَمَّرْنَا» بالتشديد بغير مد، وفي إحدى الروايتين عن ابن كثير ونافع «آمَرْنَا» بالمد والتخفيف. وقرأ الباقون بالتخفيف بغير مد. فمن قرأ بالتشديد فمعناه: سلطنا جبابرتها، ومن قرأ بالمد يعني: أكثرنا جبابرتها. ومن قرأ بالتخفيف له معنيان: أحدهما: أكثرنا جبابرتها وأشرافها، ومعنى آخر: أمرناهم بالطاعة وخذلناهم حتى تركوا الأمر وعصوا الله تعالى ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي: عصوا فيها ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليها السخط بالعذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ أي: أهلكناها بالعذاب إهلاكاً. قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ يعني: إن الله تعالى عالم بذنوبهم قادر على أخذهم ومجازاتهم، فيه تهديد لهذه الأمة لكي يطيعوا الله تعالى ولا يعصوه فيصيبهم مثل ما أصابهم، قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: من كان يريد بعمله الذي افترض الله عليه ثواب الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ﴾ أي: أعطينا له ﴿فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من عرض الدنيا ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أن نهلكه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: أوجبنا له جهنم ﴿يَصْلَاهَا﴾ أي: يدخلها ﴿مَذْمُوماً﴾ ملوماً في عمله ﴿مَدْحُوراً﴾ أي: مطروداً مقصيًّاً من كل خير قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ من المؤمنين بعمله الذي افترض الله عليه ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ يعني: عمل للآخرة عملها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ يعني: عملهم مقبولاً ويقال: معناه: من كان غرضه وقصده وعزمه الدنيا وحطامها وزهرتها عجلنا له فيها أي للمزيد في الدنيا ما نشاء لمن نريد يعني لمن نريد أن نعطيه بإرادتنا لا بإرادته ومن كان قصده وعزمه الآخرة فنعطي له ما نريد من الآخرة.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله: ﴿كُلاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: كلا الفريقين من المؤمنين والكافرين نعطي هؤلاء من أهل المعصية ﴿وَهَؤُلَاءِ﴾ من أهل الطاعة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: من رزق ربك. وقال الحسن[1]: كلاًّ نمد. نعطي من الدنيا البر والفاجر ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ يعني: محبوساً عن البر والفاجر في الدنيا. ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا بالمال ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ يقول: ولفضائل الآخرة أرفع درجات مما فضلوا في الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي: وأرفع في الثواب. وقال الضحاك[2]: «وَلَلا ﹻ ﹻ ةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ» في الجنة، الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه والأسفل لا يرى أن فوقه أحداً. وقال مقاتل: فضل المؤمنين في الآخرة على الكفار أكبر من فضل الكفار على المؤمنين في المال في الدنيا، وقال بعض الحكماء: إذا أردت هذه الدرجات وهذا التفضيل فاستعمل هذه الخصال التي ذَكَرَ في هذه الآيات إلى قوله «عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً». وروي عن ابن عباس أنه قال: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى عليه السلام حيث كتب الله له فيها، أنزلها الله تعالى على نبيه محمد عليه السلام وهي كلها في التوحيد وهي في الكتب كلها موجودة لم تنسخ قط وهو قوله تعالى ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً﴾ يعني: تبقى شقياً مذموماً يذمك الله ويذمك الناس بفعلك ﴿مَخْذُولاً﴾ يعني: يخذلك الذي تعبده. ويقال: فتبقى في النار يذمك الله ويذمك الناس وتذم نفسك مخذولاً أي: يخذلك معبودك ولا ينصرك. قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ يعني: أمر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أمر ربك لا تطيعوا أحداً إلا إياه، يعني: إلا الله تعالى يعني: لا تطيعوا أحداً في المعصية وتطيعوا الله في الطاعة، ويقال لا توحدوا إلا الله. وفي قراءة ابن مسعود وَوَصَّى رَبُّكَ ألا تطيعوا إلاّ إيَّاهُ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ أي: أمر بالإحسان إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[3] «إِمَّا يَبْلُغَانِ» بلفظ التثنية لأنه سبق ذكر الوالدين. وقرأ الباقون «يَبْلُغَنَّ» بلفظ الوحدان. لأنه انصرف إلى قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ يعني: إن بلغ الكبر أحدهما ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ يعني: إن بلغ أحد الأبوين عندك الهرم أو كلا الأبوين ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي: لا تقذرهما ولا تقل لهما قولاً رديئاً عند خروج الغائط منهما إذا احتاجا إلى معالجتهما عند ذلك. قال الفقيه: حدثنا أبو عبد الرحمن بن محمد قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا أصرم عن عيسى بن عبد الله الأشعري عن زيد بن علي بن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٧٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي نعيم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٧٠ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر النشر ٢/ ٣٠٦، حجة القراءات ٣٩٩.

الحسين عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أفٍ لحرمه فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. . . وقال مجاهد[١]: إذا كبرا فلا تأف لهما لأنهما قد رأيا منك مثل ذلك. وقال القتبي: أُفٍ بكسر وفتح وبضم وهو ما غلظ من الكلام يعني: لا تستثقل شيئاً من أمورهما ولا تغلظ لهما القول. قرأ ابن كثير وابن عامر[٢] بنصب الفاء، وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص أُفٍّ بكسر الفاء مع التنوين وقرأ الباقون أفِّ بكسر الفاء بغير تنوين ومعنى ذلك كله واحد. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يعني: لا تغلظ عليهما بالقول ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ أي ليناً حسناً.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: كن ذليلاً رحيماً عليهما. وروى هشام عن عروة عن أبيه في قوله: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) قال: كن لهما ذليلاً ولا تمتنع من شيء أحباه. وقال عطاء: جناحك يعني: يداك لا ينبغي أن ترفع يدك على والديك ولا ينبغي لك أن تحد بصرك إليهما تغيظاً. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إذا دعاك أبواك وأنت في الصلاة فأجب أمك ولا تجب أباك. وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لو كان جريج الراهب فقيهاً لعلم أن إجابة أمه أفضل من صلاته.

قال الفقيه أبو الليث ـ رضي الله عنه ـ لأن في ذلك الوقت كان الكلام الذي تحتاج إليه مباحاً في الصلاة. وكذلك في أول شريعتنا ثم نسخ الكلام في الصلاة فلا يجوز أن يجيبها إلا إذا علم أنه وقع لها أمر مهم فيجوز له أن يقطع ثم يستقبل. ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: عند معالجتك إياهما في الكبر. ويقال: معناه: رب اجعل رحمتهما في قلبي حتى أربيهما في كبرهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ أي: كما عالجاني في صغري، ويقال: معناه: ادع لهما بالرحمة بعد موتهما أي: كن باراً بهما في حياتهما وادع لهما بعد موتهما. ثم قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من اللين لهما ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي بارين بالوالدين محسنين إليهما ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ أي: للراجعين من الذنوب إلى طاعة الله تعالى. ويقال: في الآية مضمر ومعناه: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ» فإن لم تكونوا صالحين فارجعوا إلى الله وتوبوا إليه تعالى. وقال مجاهد: الأواب الذي يذكر ذنوبه في الخلوة ويستغفر منها. . وقال سعيد[٣] بن جبير الأواب: الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال الحسن الأواب: الذي يقبل إلى الله بقلبه وعمله. وقال السدي الأواب: المحسن وقال القتبي: الأواب: التائب مرة بعد مرة من قولك آب يؤوب. ويقال: الأواب: الذي يصلي بين المغرب والعشاء. قوله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي: صلته ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ أي: اعط السائلين ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي: الضيف النازل وحقه ثلاثة أيام. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ أي: لا تنفق مالك في غير طاعة الله تعالى. وروي عن عثمان بن الأسود أنه قال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧١ وعزاه لابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٩، النشر ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

سمعت مجاهداً ونحن نطوف بالبيت ورفع رأسه إلى أبي قبيس فقال: لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً. وروى الأعمش عن الحكم عن أبي عبيد وكان ضريراً وكان عبد الله[1] بن مسعود يدنيه فجاءه يوماً فقال: من نسأل إن لم نسألك؟ فقال سل. قال فما الأواب؟ قال الرحيم قال فما التبذير؟ قال إنفاق المال في غير حقه. قال فما الماعون؟ قال: ما يعاون الناس فيما بينهم. قال فما الأمة؟ قال الذي يعلم الناس الخير.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ﴾ أي: المنفقين أموالهم في غير طاعة الله تعالى ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني أعوان الشياطين ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي: كافراً ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: عن قرابتك في الرحم وغيرهم ممن يسألك حياء منه ورحمة له ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: انتظار رزق من ربك أن يأتيكِ أو قدوم مال غائب عنك ترجو حضوره ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أي: هيناً ليناً. يعني: عِدْهُمْ عدة حسنة وقال مقاتل: نزلت الآية في خباب بن الأرت وبلال وعمّار ونحوهم من أصحاب الصُّفة كانوا يسألون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يجد شيئاً يعطيهم فيعرض عنهم فنزلت الآية. وقال السدي: معناه لا تعرض عن قرابتك وعن المساكين وابن السبيل ابتغاء أن تصيب مالاً «فقل لهم قولاً ميسوراً» أي قل لهم نعم وكرامة. ليس عندنا اليوم شيء فإن أتانا شيء نعرف حقكم. وقال محمد بن الحنفية كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يقول لشيء لا، فإذا سئل وأراد أن يفعل. يقول نعم وإذا لم يرد أن يفعل سكت. فكان قد علم ذلك منه قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ يقول: لا تمسك يدك في النفقة من البخل بمنزلة المغلولة يده إلى عنقه ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ في الإسراف فتعطي جميع ما عندك فيجيء الآخرون ويسألونك فلا تجد ما تعطيهم. وهذا قول ابن عباس. وقال قتادة: لا تمسكها عن طاعة الله وعن حقه ولا تبسطها كل البسط يقول لا تنفقها في المعصية وفيما لا يصلح. وقال مقاتل في قوله: لا تبسطها كل البسط. أي: في العطية ولا يبقى عندك شيء فإذا سئلت لم تجد ما تعطيهم. وقال بعض الحكماء: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمته كالوالد. ولا ينبغي للوالد أن يعطي جميع ماله لبعض ولده ويترك الآخرين فنهاه الله تعالى أن يعطي جميع ماله المسكين الواحد وأمره أن يقسم بالسوية كي لا ييأسوا منه ثم قال تعالى ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ يعني: لو أعطيت جميع مالك فتبقى مَلُوماً يلومك الناس وتلوم نفسك، مَحْسُوراً. منقطعاً عن المال فلا مال لك، والمحسور في اللغة المنقطع. وروي في الخبر[2] أن امرأة بعثت إبنها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك درعاً، فإن قال حتى يأتينا شيء فقل له إنها إذَنْ تستكسيك قميصك. فأتاه فقال له إن أمي تستكسيك درعاً فقال له: حتى يأتينا شيء. فقال: إنها تستكسيك قميصك. قال:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٧ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٨ وعزاه لابن جرير.

فنزع قميصه ودفعه إليه ولم يبق له قميص يخرج به إلى الصلاة فنزلت هذه الآية. يعني تبقى عرياناً لا تقدر أن تخرج إلى الصلاة

قال الفقيه: إذا أردت أن تعرف أن البخل قبيح فانظر إلى هذه الآية وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أعطى قميصه حتى عجز عن الخروج إلى الصلاة عاتبه الله على ذلك فبدأ بالنهي عن الإمساك فقال «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً» فنهاه أولاً عن البخل ثم نهاه عن دفع الكل وهو التبذير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء من كان صلاحه في ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء ويقدر لمن يشاء ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ من البسط والتقتير، يعلم صلاح كل واحد من خلقه. قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي: مخافة الفقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ أي: ذنباً عظيماً. ويقال: ظلماً عظيماً. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك قال يا رسول الله ثم أي؟ قال أن تزني بحليلة جارك. قال ثم أي؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قرأ ابن عامر[٢] «خَطْأً» بنصب الخاء وجزم الطاء. وقرأ ابن كثير «خِطَاءً» بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الألف. وقرأ الباقون «خِطْأً» بكسر الخاء وجزم الطاء بغير مد. يعني: إثماً كبيراً. ويقال خَطِيءَ يَخْطَأُ خِطْأً مثل: أَثم يأْثم إثماً. ومن قرأ بالنصب معناه: إنَّ قتلهم كان غير صواب. يقال: أَخْطَأَ يُخْطِيءُ خَطْأً وإخْطَاءً وقرأ بعضهم بنصب الخاء والطاء وهي قراءة شاذة[٣]. ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: معصية ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ أي: بئس المسلك، وروى عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا أحد أغير من الله. وبذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى. ولذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العُذْر من الله تعالى ولذلك بعث الرسل وأنزل الكتب. ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني: إلا بإحدى ثلاث مواضع، إذا قتل أحداً فيقتص به. أو زنى وهو محصن فيرجم. أو يرتد فيقتل. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي: سبيلاً وحجة عليه إن شاء قتله وإن شاء عفا عنه وإن شاء أخذ الدية. يعني إذا اصطلحا. وقال مجاهد: كل سلطان في القرآن فهو حجة وكل ظن في القرآن فهو يقين. ثم قال: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ يعني: لا يقتل

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٩ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٠٠، النشر ٢/٣٠٧.

(٣) قال الزجاج: (خطأ) له تأويلات أحدها معناه: إن قتلهم كان غير صواب يقال أخطأ يخطىء إخطاء وخطأ) والخطأ الاسم من هذا لا المصدر وقد يكون الخطأ من (خَطِيءَ يَخْطَأُ خطأ) إذا لم يصب مثل (فَزِعَ يفزَع فَزعاً). انظر حجة القراءات ٤٠٠.

غير القاتل حمية ولا يقتل بالواحد اثنين ولا يقتل بعد ما عفا أو أخذ الدية ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ أي: معاناً من الله تعالى في كتابه. جعل الأمر إليه في القَوَدِ. قرأ حمزة والكسائي[1] «تُسْرِفْ» بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا على وجه التجارة لينمو مال اليتيم بالأرباح أو ينمو على وجه المضاربة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني: حتى يتم خلقه. وقال القتبي: أشد الرجل غير أشد اليتيم وإن كان لفظهما واحداً. لأن قوله تعالى: (حَتَّى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ) إنَّما هو الاكتمال، وذلك ثلاثون سنة. وأشد الغلام أن يشتد خلقه وذلك ثمان عشرة سنة. وقال مقاتل: هذه الآية منسوخة بقوله: (إِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُم) ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ يعني: الذي بينكم وبين الله تعالى والعهد الذي بينكم وبين الناس ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ يعني: إن ناقض العهد يسأل عنه يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ لغيركم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالميزان العدل بلغة الروم قرأ حمزةوالكسائي وعاصم في رواية حفص[2] «بالقِسْطَاسِ» بكسر القاف والباقون بالضم وهما لغتان، يعني: الميزان ويقال: هو القبان ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: الوفاء بجميع ما أمركم الله تعالى به ونهاكم عنه خير من البخس والنقصان ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: عاقبة ومرجعاً في الآخرة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول: لا تقل ما لم تعلم فتقول: علمت ولم تعلم ورأيت ولم تر. وسمعت ولم تسمع. أي: كأنك تقفو الأمور. يقال: قفوت أثره، والقائف الذي يعرف الآثار ويتبعها، ثم حذرهم فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ أي: يسأل العبد عن أعضائه يوم القيامة فيشهدن عليه، ويقال: معناه صاحب السمع والبصر والفؤاد يسأل يوم القيامة عن السمع والبصر والفؤاد. ويقال: قوله: (ولا تقف ما ليس لك به علم) أي: لا تقل ما لم تعلم ولا تسمع اللغو ولا تنظر إلى الحرام ولا تحكم على الظن. كل أُولئك كان عنه مسئولاً. يعني: عن الكلام باللسان والتسمع بالسمع والتبصر بالبصر على وجه الإخبار وهو من جوامع الكلم ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ يعني: بالتكبر والفخر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ﴾ يعني: لن تدخل ﴿الْأَرْضَ﴾ ولن تجاوزها ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ قال القتبي: يعني: لا تقدر أن تقطعها حتى تبلغ إلى آخرها. يقال: فلان أخرق إلى الأرض من فلان إذا كان أكثر أسفاراً، ولن تبلغ الجبال طولاً يريد أنه ليس للعاجز أن يمدح نفسه ويستكبر ثم قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ أي: كل ما أمرتك به ونهيتك عنه ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: ترك ذلك معصية عند الله ﴿مَكْرُوهاً﴾ أي: منكراً. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[3] «سَيِّئَةً» بنصب الهاء مع التنوين يعني: خطيئة ومعناه: ما ذكر في الآية، تركه كان

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٢، النشر ٣٠٧/٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٠٢، النشر ٣٠٧/٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٠٣، النشر ٣٠٧/٢.

معصية وسيئة. وقرأ الباقون «سَيِّئُهُ» بضم الهاء على معنى الإضافة. قال أبو عبيدة: وبهذه القراءة نقرأ، وحجته قراءة أُبيّ، كان يقرأ سَيِّئَاتِهِ على معنى الإضافة.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي: مما بين الله تعالى وأمر ونهى. كان ذلك مكتوباً في اللوح وأوحى إليك ربك ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بيان الحلال والحرام ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ أي: لا تقل ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ فالخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به أمته ﴿فَتُلْقى﴾ أي: فتطرح ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً﴾ أي: يلومك الناس ﴿مَدْحُوراً﴾ أي: مقصياً من كل خير. وقال القتبي: مدحوراً أي: مبعداً، يقال: في الدعاء اللهم ادحر عني الشيطان أي: ابعده مني. ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: أفاختاركم بالبنين ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ لنفسه ﴿مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ في العقوبة، ويقال: قولاً منكراً قبيحاً. قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ لقد بينا ﴿فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتعظوا بالقرآن، ويقال: في القرآن من كل شيء يحتاج إليه الناس، ويقال بينا في هذا القرآن من كل وعد ووعيد ليتعظوا بما في القرآن فينتهوا عن عبادة الأوثان ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ أي: القرآن لا ينفعهم إلا تباعداً عن الإيمان. قرأ حمزة والكسائي[1] «لِيَذْكُرُوا» بالتخفيف يعني: ليذكروا ما فيه، وقرأ الباقون بالتشديد لأن أصله ليتذكروا فادغم التاء في الذال وشدد. قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ قال ابن عباس: قل لأهل مكة. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾[2] من الأوثان ﴿إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ أي: طريقاً، فكانوا كهيئته. وقال قتادة أي: لعرفوا فضل ذي العرش ومزيته عليهم. ويقال: ابتغوا طريقاً للوصول إليه. وقال مقاتل: لطلبوا سبيلاً ليقهروه كفعل الملوك بعضهم مع بعض، ثم نزه نفسه عن الشريك فقال تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٣، النشر ٢/٣٠٧.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿قل لو كان معه آلهة كما تقولون﴾ بالتاء ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ بالياء الحرف الأول قرؤوه بالتاء على مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم أي: ﴿قل يا محمد للذين اشركوا: لو كان معه آلهة كما تقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ ثم قال جل وعز مستأنفاً بتنزيه نفسه لا على مخاطبتهم ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ ويجوز أن تحمله على القول كأنه يقول الله جل وعز لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قل أنت يا محمد: سبحانه وتعالى عما يقولون﴾. وقرأ ابن كثير وحفص جميعاً بالياء قوله: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ خطاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمؤمنين يخاطبهم بما يقول المشركون ثم عطف عليه بقوله ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كما تقولن﴾ بالتاء ﴿عما تقولون﴾ بالتاء أيضاً قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿قل للذين أشركوا: لو كان معه آلهة كما تقولون﴾ ثم عطف عليه قوله: ﴿سبحانه وتعالى عما تقولون﴾. على مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهم. وحجة التاء قوله (قبلها): ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾. انظر حجة القراءات ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

له ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون إن معه شريكاً ﴿عُلُوًّا كَبِيراً﴾ أي: بعيداً عما يقول الكفار. قوله ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السموات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ من الخلق ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ما من شيء إلا يسبح بأمره وبعلمه وقال الكلبي: كل شيء ينبت يسبح، من الشجر وغير ذلك. فإذا قطع منه صار ما قطع منه ميتاً لا يسبح. وقال قتادة: كل شيء فيه الروح يسبح من شجر أو غيره. وقال السدي: ليس شيء في أصله الأول إلا وهو يسبح. وروي عن الحسن أنه قيل له: أيسبح هذا الخوان؟ قال كان يسبح في شجره. فأمَّا الآن فلا، ويقال: إذا قطع الشجر فإنه يسبح ما دام رطباً بدليل ما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مر بقبرين فقال: إنَّهما ليعذبان في القبر وما يعذبان بكبيرة فأمَّا أحدهما. كان يمشي بالنميمة وأمَّا الآخر فكان لا يستنزه عن البول. ثم أخذ جريدتين من شجرة وغرس إحداهما في قبر والأُخرى في قبر الآخر. فقال لعلهما لا يعذبان ما دامتا رطبتين. قال الحكماء: الحكمة في ذلك أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى. ويقال: معناه: ما من شيء إلا يسبح بحمده، ويقال: معناه: وإن من شيء يسبح بحمده إلا يدل على وحدانية الله تعالى ويسبحه وأن الله خالقه ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ يعني: أثر صنعه فيهم، ولكن هذا بعيد وهوخلاف أقاويل المفسرين ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً﴾ حيث لم يجعل العقوبة لمن اتخذ معه آلهة ﴿غَفُوراً﴾ لمن تاب منهم.

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ يعني: أخذت في قراءة القرآن ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ قال بعضهم: الحجاب المستور هو أن يمنعهم عن الوصول إليه. كما روي[1] أن امرأة أبي لهب جاءت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان عنده أبو بكر فدخلت فقالت لأبي بكر هجاني صاحبك، قال أبو بكر: والله هو ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت. فقال أبو بكر: أما رأتك يا رسول الله؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يزل بيني وبينها ملك يسترني عنها حتى رجعت. وقال قتادة: الحجاب المستور هو الأكنة وقال مقاتل: الحجاب هو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ يعني: جعلنا أعمالهم على قلوبهم أغطية حتى لا يرغبوا في الحق، ويقال: جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعني: الجن والشياطين حجاباً مستوراً فلا يصلون إليك. وقال الكلبي: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا تلى القرآن ستره الله وحجبه عن المشركين بثلاث آيات. إذا قرأهن حجب عنهم. إحداهن في سورة الكهف (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) والآية الثانية في النحل (أُولئك الذين طبع الله على قلوبهم)، والثالثة في حم الجاثية (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) الآية. ثم قال ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي: صمماً وثقلاً لا يسمعون الحق. قرأ ابن كثير كما يقولون بالياء وكذلك في قوله: «عما يقولون» وكذلك «يسبح له» الثلاثة كلها بالياء على معنى المغايبة. وقرأ حمزة والكسائي[2] كلهن بالتاء على معنى المخاطبة ولفظ التأنيث وقرأ نافع وابن عامر الأول خاصة بالتاء والآخرين بالياء. وقرأ أبو عمرو الأوسط بالياء. واختلفوا عن عاصم في

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٨٦ وعزاه لابن أبي شيبة والدارقطني في الأفراد وأبي نعيم في الدلائل.
(٢) انظر ما تقدم في الحاشية.

رواية حفص الآخر خاصة بالياء وروى أبو بكر مثل ابن عامر قوله تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ يعني: وحدانيته، قول لا إله إلا الله ﴿ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ أي: أعرضوا تباعداً عن الإيمان. وقال القتبي: ولوا على أدبارهم هرباً. وهو مثل ما قال مقاتل وذلك حين قال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قولوا لا إله إلا الله تتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم فنفروا من ذلك. ثم قال: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ يعني: بالقرآن ﴿إذ يستمعون إليك﴾ أي: إلى قراءتك القرآن ﴿وإذ هم نجوى﴾ يعني: يتناجون فيما بينهم ﴿إذ يقول الظالمون﴾ أي: يقول المشركون للمؤمنين ﴿إن تتبعون﴾ يعني: ما تطيعون ﴿إلا رجلاً مسحوراً﴾ يعني: مقلوب العقل. وذكر القتبي عن مجاهد أنه قال مسحوراً أي: مخدوعاً. لأن السحر حيلة وخديعة كقوله: (فأنى تسحرون) أي: من أين تخدعون. وذكر عن أبي عبيدة قال: السحر الرئة يقال للرجل: انتفخ سحرك إذا جبن. يعني: إن تتبعون إلا رجلاً ذا رئة أي: بشراً مثلكم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أي: وصفوا لك الأمثال حيث قالوا: ساحر أو مجنون ﴿فضلوا﴾ أي: أخطأوا في المقالة فتحيروا ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي: لا يجدون مخرجاً مما قالوا لتناقض قولهم لأنهم قالوا مرة ساحر والساحر عندهم المبالغ في العلم ومرة قالوا مجنون والمجنون عندهم من هو في غاية الجهل. قال ابن الصائب: وذلك أن أبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وغيرهم كانوا يأتون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستمعون إلى حديثه فقال النضر ذات يوم ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث أصحابه ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتاه تتحركان فقال أبو جهل: هو مجنون وقال أبو لهب: بل هو كاهن وقال حويطب: بل هو شاعر فنزل (وإذا قرأت القرآن إلى قوله: قل عسى أن يكون قريباً). وقوله: ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً﴾ أي صرنا عظاماً ﴿ورفاتاً﴾ أي: تراباً ﴿أئنا لمبعوثون﴾ أي: لمجيئون ﴿خلقاً جديداً﴾ والاختلاف في قوله: أئنا في القرآن مثل ما ذكرنا في الرعد.

﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً﴾ اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر، يعني: لو كنتم من الحجارة ﴿أَوْ حَدِيداً﴾ أو من الحديد ﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد[1]: حجارة أو حديداً أو ما شئتم فكونوا.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٨٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فسيعيدكم الله الذي فطركم أول مرة كما كنتم، ويقال أو خلقاً مما يكبر في صدوركم يعني: السماء والأرض والجبال. وقال الكلبي: معناه لو كنتم الموت لأماتكم. وعن الحسن وسعيد بن جبير(١) وعكرمة قالوا: أو خلقاً مما يكبر في صدوركم يعني الموت فيبعثكم كما خلقكم أول مرة قالوا لو كنا من الحجارة أو من حديد أو من الموت فمن يعيدنا؟ وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ﴾ يامحمد فيسعيدكم الله ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي: خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾ يهزون إليك رؤوسهم تعجباً من قولك. وقال القتبي: يعني يحركونها استهزاء بقولك. وقال الزجاج أي: سيحركون رؤسهم تحريك من يستثقله ويستبطئه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ يعنون: البعث ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ وكل ما هو آت فهو قريب، وعسى من الله واجب. قالوا يا محمد فمتى هذا القريب؟ فنزل ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يعني: إسرافيل وهي النفخة الأخيرة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ يقول: تخرجون من قبوركم بأمره وتقصدون نحو الداعي. وقال مقاتل: يوم يدعوكم من قبوركم فتستجيبون للداعي بأمره. وذلك أن إسرافيل يقوم على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن: أيتها العظام البالية واللحوم المتفرقة والعروق المتقطعة اخرجوا من قبوركم فيخرجون من قبورهم. ثم قال: ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: ما لبثتم في القبور إلا يسيراً قال الكلبي: وذلك أنه يرفع عنهم العذاب ما بين النفختين. وبينهما أربعون سنة فينسون العذاب فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلَّا يسيراً. وروي ذلك عن ابن عباس وهذا أصح ما قيل فيه. لأن بعض المبتدعين قالوا إذا وضع الميت في قبره لا يكون عليه العذاب إلى وقت البعث فيظنون أنهم مكثوا في القبر قليلاً قوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال ابن عباس كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤذيهم المشركون بمكة بالقول فشكوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل «وَقُلْ لِعِبَادِي» أي المسلمين «يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أي: يجيبوا بجواب حسن، برد السلام بلا فحش وهذا كقوله: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً) ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، سبه رجل عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمر الله تعالى بالكف عنه. ويقال: نزلت في شأن عمر رضي الله عنه كان بينه وبين كافر كلام ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوسوس ويوقع بينهم العداء لعنه الله ليفسد أمرهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُواً مُبِيناً﴾ أي: ظاهر العداوة وهذا كقوله ؛(إنَّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

ثم قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي أعلم بأحوالكم وما أنتم فيه من أذى المشركين ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فينجيكم من أهل مكة إذا صبرتم على ذلك ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيسلطهم عليكم إذا جزعتم ولم تصبروا ﴿وَمَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٨٧/٤ وعزاه لعبد الله بن أحمد وابن جرير وابن المنذر.

أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ يعني: مسلطاً وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، ويقال: (وما أرسلناك عليهم وكيلاً) أي: ليست المشيئة إليك في الهدى والضلالة ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ربك عالم بأهل السموات وأهل الأرض وهو أعلم بصلاح كل واحد منهم. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ منهم من فضل الله بالكلام وهو موسى ـ عليه السلام ـ ومنهم من اتخذه خليلاً وهو إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومنهم من رفعه مكاناً علياً وهو إدريس ـ عليه السلام ـ ومنهم من اصطفاه وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ أي: كتاباً. قال مقاتل: الزبور مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا فريضة، إنما ثناء على الله تعالى. قرأ حمزة «زُبُوراً» بضم الزاي. وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان ومعناهما واحد. قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ قال ابن عباس: إن ناساً من خزاعة كانوا يعبدون الجن وهم يرون أنهم هم الملائكة فقال الله تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ» يعني: تعبدون من دون الله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ لا يقدرون ﴿كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ يقول: صرف السوء عنكم من الأمراض والبلاء إذا نزل بكم ﴿وَلَا تَحْوِيلاً﴾ يقول: ولا تحويله إلى غيره ما هو أهون منه ويقال: ولا يحولونه إلى غيرهم. قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدونهم ويدعونهم آلهة. قرأ ابن مسعود «تَدْعُونَ» بالتاء على معنى المخاطبة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمِ الْوَسِيلَةَ﴾ يقول: يطلبون إلى ربهم القربة والفضيلة والكرامة بالأعمال الصالحة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أكرم على الله تعالى وأقرب في الفضيلة والكرامة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ أي: جنته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي: ناره ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ يعني: لم يكن لأحد أمان من عذاب الله تعالى، ويقال محذوراً أي ينبغي أن يحذر منه. وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود[1] أنه قال كان ناس من الإنس يعبدون قوماً من الجن. فأسلم الجن وبقي الإنس على كفرهم. فأنزل الله «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» يعني الجن «يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» وروى السدي عن أبي صالح عن ابن عباس[2] أنه قال «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» عيسى وعزيراً والملائكة وما عبد من دون الله وهو لله مطيع.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾

قوله ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال ابن عباس يعني نميت أهلها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٨٩ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل. والحديث عند البخاري في التفسير (٤٧١٤) (٤٧١٥)، ومسلم في التفسير (٢٨، ٢٩، ٣٠، (٣٠٣٠)).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر.

﴿شَدِيداً﴾ يعني بالسيف والزلازل والأمراض والخوف والغرق والحرق ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ أي: في الذكر الذي عند الله. وقال مجاهد[١]: مهلكوها أي مبيدوها أو معذبوها بالقتل والبلاء، ما من قرية في الأرض إلا سيصيبها بعض ذلك. روى حماد بن سلمة عن أبي العلاء عن مكحول أنه قال: أول أرض تصير خراباً أرض أرمينة وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال أول أرض تصير خراباً أرض الشام وروى ابن سيرين عن ابن عمر أنه قال: البصرة أسرع الأرضين خراباً وأخبثهم تراباً، وروي عن عليّ أنه قال: أكثروا الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه فكأني برجل من الحبشة خمش الساقين قاعداً عليها يهدمها حجراً حجراً. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ وذلك أن قريشاً طلبوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم بآية فنزل وما منعنا. أي: ليس أحد يمنعنا أن نرسل الآيات عندما سألوها ﴿إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ يعني: تكذيب الأولين حين أتتهم الآيات فلم يؤمنوا بها، فأتاهم العذاب.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو العباس بن السراج قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: حدثنا جريرعن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن[٢] عباس قال: سأل أهل مكة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل الصفا لهم ذهباً وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعونها فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نتخير منهم ذرية. وإن شئت أن نريهم الذي سألوا. فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من كان قبلهم. فقال: بل أستأني بهم فنزل «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون» ثم قال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: معاينة يبصرونها، ويقال: علامة لنبوته ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾أي: جحدوا بها فعقروها فعذبوا. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ لهم ليؤمنوا. فإن أبوا أتاهم العذاب قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال الكلبي: أحاط علمه بالناس. ويقال: هم في قبضته أي: قادر عليهم. وقال قتادة[٣]: يعني: يمنعك من الناس حتى تبلغ رسالات الله تعالى. وقال السدي معناه: إن ربك مظهرك على الناس. ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا محمد بن إبراهيم بن أحمدالدبيلي، قال: حدثنا أبو عبد الله قال: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن اين عباس[٤] في قوله: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس قال هي رؤيا عين أريها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسري به. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال هي شجرة الزقوم. قال الكلبي: هي ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس فنشر له الأنبياء كلهم فصلى بهم. ثم صلى الغداة بمكة فكذبوه وهو قوله «فِتْنَةً لِلنَّاسِ» حين كذبوه. يعين أهل مكة. قال عكرمة أمَا إنَّها رؤيا يقظة ليست برؤيا منام. وقال سعيد بن المسيب أُرِي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بني أمية على المنابر فساءه ذلك فقيل له إنّما هي دنيا يعطونها فقر عينه فنزل «وَمَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٠ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٠ وعزاه لأحمد والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة. والحديث عند الإمام أحمد في المسند ١/٢٥٨ وابن جرير في التفسير ١٥/ ٧٤ والحاكم في المستدرك ٢/٣٦٢ والبيهقي في الدلائل ٢/ ٢٧١ والبزار في المسند (٢٢٢٥) كما في كشف الأستار.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩١ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩١ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والحديث عند البخاري في مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٨٨٨) وفي التفسير (٤٧١٦) وفي القدر (٦٦١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٣٤)، والنسائي في التفسير ١/ ٦٥٧.

جعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» يعني بني أمية ثم قال: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» يعني ذكر الشجرة الملعونة في القرآن فتنة لهم. يعني بلية لهم وذلك أن المشركين قالوا يخبرنا هذا أنَّ في النار شجرة. وكيف يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجرة فصار ذلك فتنة لهم يعني بلية لهم. ويقال لما نزل (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ) قالوا فيما بينهم وما شجرة الزقوم. قالوا الثمر والزبد فرجع أبو جهل إلى منزله فقال لجاريته زقمينا وأمرها أن تأتي بالتمر والزبد فخرج به إلى الناس وقال كلوا فإن محمداً يخوفكم بهذا فصار ذكر الشجرة فتنة لهم ثم قال ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي بذكر شجرة الزقوم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ يعني: تمادياً في المعصية. قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، فتعظم عن السجود لآدم.

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ في الآية مضمر، معناه: فلعنه الله تعالى، قال إبليس: أرأيتك هذا الذي لعنتني لأجله وفضلته عليَّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: لئن أجلتني إلى يوم البعث. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع «أَخَّرْتَنِي» بالياء عند الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء. لأن الكسرة تقوم مقامه. ثم قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: لأستزلن ذريته، يقول اطلب زلتهم. وقال القتبي: لاستأصلنهم. يقال احتنك الجراد ما على الأرض إذا أكله كله، ويقال: هو من حنك الدابة يحنكها حنكاً. إذا شد في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به. أي لأقودنهم حيث شئت ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ يعني: الأنبياء والمخلصين لله ويقال: إلَّا من عصمته مني ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ﴾ أي: من أطاعك ﴿مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ يعني: نصيبكم من العذاب في النار ﴿جَزَاءً مَوْفُوراً﴾ أي: نصيباً وافراً. لا يفتر عنهم. قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ يقول: استزل ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ يقول: بدعائك ووسوستك ويقال: بأصوات الغناء والمزامير ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يعني: استعن عليهم بأعوانك من مردة الشياطين (وَرَجِلِكَ) يعني: الشياطين الذين يوسوسون للناس، ويقال: خيل المشركين ورجالتهم، وكل خيل تسعى في معصية الله تعالى فهي من خيل إبليس وكل راجل يمشي في معصية الله فهو من رجالته. قرأ عاصم في رواية حفص[1] «وَرَجِلَكَ» بفتح الراء وكسر الجيم يعني: راجلك فدل الواحد على الجنس. وقرأ الباقون بجزم الجيم، وهو جمع الراجل ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ أي: ما أكل من الأموال بغير طاعة الله تعالى وما جمع من الحرام، ويقال: وشاركهم في الأموال وهو ما جعلوا من الحرث والأنعام نصيباً لآلهتهم، ويقال: كل طعام لم يذكر اسم الله عليه فللشيطان فيه شركة. قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أحمد بن حنبل قال: حدثنا سفيان بن يحيى قال: حدثنا أبو مطيع عن الربيع بن زيد عن أبي محمد وهو رجل من أصحاب أنس قال: قال إبليس لربه: يا رب جعلت لبني آدم بيوتاً فما بيتي؟ قال الحمام، قال وجعلت لهم مجالس فما مجلسي؟ قال السوق، قال وجعلت لهم قرآناً فما قرآني؟ قال الشعر، قال وجعلت لهم حديثاً فما حديثي: قال: الكذب، قال:

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٥، النشر ٢/٣٠٨.

وجعلت لهم أذانا فما أذاني؟ قال المزمار، قال وجعلت لهم رسلاً فما رسلي؟ قال: الكهنة، قال: وجعلت لهم كتاباً فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: وجعلت لهم طعاماً فما طعامي؟ قال: كل ما لم يذكر عليه اسم الله. قال: وجعلت لهم شراباً فما شرابي؟ قال: كل مسكر، قال: وجعلت لهم مصايد فما مصايدي؟ قال: النساء. ثم قال: (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ) يعني: كل نفقة في معصية الله تعالى ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: أولاد الزنا فهذا قول مجاهد[1] وسعيد بن جبير ويقال: هو ما سموا أولادهم عبد العزى وعبد الحارث، ويقال: كل معصية بسبب الولد. ويقال إذا جامع الرجل أهله ولم يذكر اسم الله تعالى جامع معه الشيطان: ويقال: المرأة النائحة والسكرانة يجامعها الشيطان فيكون له شركة في الولد. قال الفقيه أبو الليث: هذا الكلام مجاز لا على وجه الحقيقة إنما يراد به المثل ثم قال: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ أي: باطلاً.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة. ويقال: نفاذ الأمر ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ أي: كفيلاً على ما قال، ويقال: حفيظاً لهم. وقال أبو العالية: إنَّ عبادي الذي لا يطيعونك. ثم ذكر الدلائل والنعم ليطيعوه ولا يطيعوا الشيطان ثم قال: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: يسير لكم الفلك ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من رزقه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ أي رحيم بكم. ثم قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: إذا أصابكم الخوف وأهوال البحر ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: بطل من تدعون من الآلهةوتخلصون بالدعاء لله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يعني: من أهوال البحر ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: تركتم الدعاء والتضرع ورجعتم إلى عبادة الأوثان ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ أي: الكافر كفوراً بأنعم الله، ثم قال: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ إن عصيتموه ﴿ان يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ أي: يغور بكم ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾ يعني: إلى الأرض السفلى. وقال مقاتل: يعني: ناحية من البر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أي: حجارة من فوقكم كما أرسل على قوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أي: مانعاً يمنعكم قوله: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي: البحر ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ يعني: مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ أي: ريحاً شديداً ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بالله وبنعمه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ أي: من يتبعنا ويطالبنا بدمائكم كقوله: (فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) أي مطالبة حسنة، ويقال: يعني: ثائراً ولا ناصراً لينتقم لكم مني. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[2] «أن نَخْسِفَ بكم» «أَوْ نُرْسِلَ» «أنْ نُعيدَكُمْ» «فَنُرْسِلَ عَلَيْكُم» «فَنُغْرِقَكُمْ» هذه الخمسة كلها بالنون وقرأ الباقون كلها بالياء.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٢/٤ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٠٦، النشر ٣٠٨/٢.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بعقولهم وقال الضحاك: بالعقل والتمييز، ويقال: إن الله تعالى خلق نبات الأرض والأشجار وجعل فيها الروح لأنه ينمو ويزداد بنفسه ما دام فيه الروح، فإذا يبس خرج منه الروح وانقطع نماؤه وزيادته، وخلق الدواب وجعل لهن زيادة روح تطلب بها رزقها وتسمع بها الصوت، وخلق بني آدم وجعل لهم زيادة روح يعقلون بها ويميزون ويعلمون، وخلق الأنبياء وجعل لهم زيادة روح يبصرون بها الملائكة ويأخذون بها الوحي ويعرفون أمر الآخرة. ثم قال: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني: في البر على الرطوبة. يعني: الدواب وفي البحر على اليبوسة وهي السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلالات، ويقال: من نبات الحبوب والفواكه والعسل وجعل رزق البهائم التبن والشوك ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ يعني: على الجن والشياطين والبهائم. وروي عن ابن عباس أنه قال: فضلوا على الخلائق كلهم غير طائفة من الملائكة وهم جبريل وميكاييل وإسرافيل وأشباههم منهم. وروي عن أبي هريرة أنه قال: المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده.

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: أذكر يوم ندعو كل أناس بكتابهم، ويقال: بداعيهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى، يدعى إمامهم قبلهم، وقال أبو العالية بإمامهم أي: بأعمالهم، وقال مجاهد:[1] بنبيهم، وقال الحسن: بكتابهم الذي فيه أعمالهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ﴾ يعني: يقرؤون حسناتهم ويعطون ثواب حسناتهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ يعني: لا يمنعون من ثواب أعمالهم مقدار الفتيل وهو ما فتلته من الوسخ بين أصبعيك ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي: من كان في هذه النعم أعمى، يعني: لم يعلم أنها من الله ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾[2] عن حجته ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: عن حجته. قال مجاهد: من كان في هذه الدنيا أعمى عن الحجة فهو في الآخرة أعمى عن الحجة وأضل سبيلاً. أي: أخطأ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿ومَنْ كان في هذه أعمِى فهو في الآخرة أعمِى﴾ بكسر الميم فيها وحجتهم أن الألف تنقلب إلى الياء إذا قلت (أعميان) فالإمالة فيها حسنة.

وقرأ الباقون: ﴿أعمَى﴾(أعمَى)، بغير إمالة وحجتهم أن الياء (فيها) قد صارت ألفاً لانفتاح ما قبلها والأصل: ﴿ومن كان في هذه أعمَيَ﴾ بفتح الياء ﴿فهو في الآخرة أعمَيُ﴾ بضم الياء فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

وكان أبو عمرو أحذقهم ففرق بين اللفظين لاختلاف المعنيين فقرأ: ﴿ومن كان في هذه أعمِى﴾ بالأمالة ﴿فهو في الآخرة أعمَى﴾ بالفتح. فجعل الأول صفة بمنزلة (أحمر وأصفر) والثاني بمنزلة (أفعل منك) أي: أعمى قلباً. قال ابن كثير: (من عمي في الدنيا ما يرى من آيات الله وعبره فهو عما لم يـر من الآخرة أعمى وأضل سبيلاً).

قال أبو عبيد: (وكان أبو عمرو يقرأ هذا الحرف على تأويل ابن كثير: (فهو في الآخرة أعمى﴾ يعني أشد عمى وأضل سبيلاً).

وحجة من أمال هي: أن الإمالة والفتح لا يأتيان على المعاني بل الإمالة تقريب من الياء. وإن كان بمعنى (أفعل) فلا يمنع من الإمالة كما لا يمتنع (الذي هو أدنى). انظر حجة القراءات ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

طريقا. وقال قتادة[١]: من كان في هذه الدنيا أعمى عمَّا عاين من نعم الله وخلقه وعجائبه فهو في الآخرة التي هي غائبة عنه ولم يرها أعمى. وقال مقاتل: فيه تقديم ومعناه: «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» ومن كان عن هذه النعم أعمى فهو عما غاب عنه من أمر الآخرة أعمى. وقال الزجاج: معناه: إذا عمي في الدنيا وقد تبين له الهدى وجعل إليه التوبة فعمي عن رشده فهو في الآخرة لا يجد متاباً ولا مخلصاً مما هو فيه. فهو أشد عمىً وأضلّ سبيلًا. أي: أضل طريقاً. لأنه لا يجد طريقاً إلى الهداية فقد حصل على عمله. وذكر عن الفراء أنه قال: تأويله من كان في هذه النعم التي ذكرتها أعمى لا يعرف حقها ولا يشكر عليها وهي محسوسة فهو في الآخرة أعمى، يعني: أشد شكاً في الذي هو غائب عنه في الآخرة من الثواب والعقاب.

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: وقد كادوا ليصرفونك عن الذي أوحينا إليك إن قدروا على ذلك، وذلك أن ثقيفاً أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: نحن إخوانك وأصهارك وجيرانك. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أن نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما هن؟ قالوا: لا ننحني في الصلاة ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا بالطاغية سنة يعني: بطاعة الأصنام سنة. فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمّا قولكم لا ننحني في الصلاة فإنه لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود. قالوا: فإنا نفعل ذلك وإن كان فيه دناءة، وأمّا قولكم إنا لا نكسر أصنامنا بأيدينا. فإنا سنأمر من يكسرها، قالوا فتمتعنا باللات سنة، فقال: إني غير ممتعكم بها قالوا يا رسول الله: فإنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكره أن يقول لا مخافة أن يأبوا الإسلام فنزل: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ» وقال السدي: إن قريشاً قالت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك ترفض آلهتنا كل الرفض فلو أنك تأتيها فتلمسها أو تبعث بعض ولدك فيمسها كان أرق لقلوبنا وأحرى أن نتبعك. فأراد أن يبعث ابنه الطاهر فيمسح فنهاه الله تعالى عن ذلك ونزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ» وروى أبو العالية عن أصحابه، منهم القرظي[٢] قال: لما قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة والنجم فبلغ (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهن لترتجي. فلما بلغ السجدة سجد، وسجد معه المشركون. ثم جاء جبريل فقال ما جئتك بهذا فنزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» إلى قوله: «وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً» فلم يزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مغموماً حتى نزل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) الآية وروى سعيد بن جبير عن قتادة قال: ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه وكان في قولهم أن قالوا: يا محمد إنك تأتي بشيء لم يأت به أحد من الناس. وأنت سيدنا وابن سيدنا فما زالوا يكلمونه حتى كاد أن يقاربهم. ثم إن الله تعالى منعه وعصمه عن ذلك فقال تعالى (وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) الآية وذلك قوله (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) في القرآن ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ يعني: لتقول أو تفعل غير الذي أمرتك في القرآن ﴿وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي: صفياً وصديقاً، ويقال: إن

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لأبي الشيخ في العظمة.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لابن أبي حاتم.

المشركين قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اطرد عن مجلسك سقاط الناس ومواليهم حتى نجلس معك فهمّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يفعل ذلك فنزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» من تقريب المسلمين «وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً» لو فعلت ما طلبوا منك.

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ يقول: عصمناك ويقال: حفظناك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: لقد هممت أن تميل إليهم ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ وتعطي أمنيتهم شيئاً قليلاً ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي: عذاب الدنيا ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ يعني: عذاب الآخرة وهذا قول ابن عباس[1]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ضعف الحياة عذابها أي: عذاب الدنيا، وضعف الممات أي: عذاب الآخرة. وهذا مثل الأول. ويقال: ضعف الممات أي: عذاب القبر، ويقال: هذا وعيد للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني إنك لو فعلت ذلك يضاعف لك العذاب على عذاب غيرك كما قال تعالى: (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) لأن درجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودرجة من وصفهم فوق درجة غيرهم فجعل لهم العذاب أشد. وروي عن مالك ابن دينار أنه قال: سألت أبا الشعثاء عن قوله: «ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ» فقال: ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ يقول: مانعاً يمنعك من ذلك، ويقال: مانعاً يمنع من العذاب قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ وقد كادوا ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: ليستزلونك وليخرجوك من أرض مكة ﴿وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ﴾ أي: بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ فيهلكهم الله تعالى وروى عبد الرزاق عن معمر أنه قال: قد فعلوا ذلك فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً وقال مقاتل: وإن كادوا ليستفزونك من الأرض يعني: من أرض المدينة نزلت الآية في حيي بن أخطب وغيره من اليهود حين دخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة حسدوه وقالوا: إنك لتعلم أن هذه ليست من أرض الأنبياء إنما ارض الأنبياء الشام. فإن كنت نبياً فاخرج منها فنزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا» أي: من أرض المدينة إلى الشام «وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً» وأمر بالرجوع إلى المدينة.

سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي: هكذا سنتي فيمن قد مضى، أن أهلك من عصوا الرسول ولم يتبعوه ولا أهلكهم ونبيهم بين أظهرهم فإذا خرج نبيهم من عندهم عذبوا ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لابن جرير.

يعني: تغييراً أو تبديلاً. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية حفص[١]: «لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ» وقرأ الباقون: «خَلْفَكَ» ومعناهما قريب يعني: بعدك ثم قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني: أتمم الصلاة ودم عليها ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ يعني: بعد زوالها، الظهر والعصر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ يعني: إلى دخول الليل وهي المغرب والعشاء. وروى سالم عن ابن عمر[٢] أنه قال: دلوكها زيغها بعد نصف النهار أي تزوالها. وقال قتادة: زيغها عن كبد السماء وروى ابن طاووس عن أبيه أنه قال: دلوكها غروبها وروى معمر عن الشعبي عن ابن عباس أنه قال: لدلوك الشمس حين نزول الشمس وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: دلوكها غروبها. وقال ابن مسعود غروبها. وقال القتبي: إلى غسق الليل الغسق ظلامه ثم قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الغداة، وإنَّما سميت صلاة الغداة قرآناً لأن القراءة فيها أكثر وأطول. ويقال: لأنه يقرأ كلتا الركعتين وفي كلتا الركعتين القراءة فريضة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ أي: صلاة الغداة مشهودة يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار. ويقال: كان بمعنى صار. يعني: صار مشهوداً لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الغداة فينزل ملائكة النهار والقوم في صلاة الغداة قبل أن تعرج ملائكة الليل. فإذا فرغ الإمام من صلاته عرجت ملائكة الليل فيقولون: ربنا إنا تركنا عبادك وهم يصلون لك ويقول الآخرون ربنا أدركنا عبادك وهم يصلون لك. «وقرآنَ» صار نصباً لأن معناه: أقم قرآن الفجر ويقال: صار نصباً على وجه الإغراء أي: عليك بقرآن الفجر.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

ثم قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ يعني: قم بالليل بعد النوم، والتهجد القيام بعد النوم ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ روى شهر بن حوشب عن أبي أمامة أنه قال: كانت النافلة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة. وقال مجاهد:[٣] لم تكن النافلة إلا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ويقال: «نَافِلَةً لَكَ» أي: فضلاً لك ويقال: خاصة لك ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ قال مقاتل: يعني: إن الشفاعة لأصحاب الأعراف، يحمده الخلق كلهم، ويقال: إخراج قوم من النار. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا محمد بن معاوية الأنماطي قال: حدثنا الحسن بن الحسين عن عطية العوفي قال: حدثنا أبو حنيفة عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري[٤] قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: في قوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً» قال: يخرج الله أقواماً من النار من أهل الإيمان بشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذلك المقام المحمود فيؤتى بهم نهراً يقال له: الحيوان فيلقون فيه فينبتون كما ينبت التقارير ثم يخرجون فيدخلون الجنة فيسمون فيها الجهنميون. قال: ثم يطلبون إلى الله تعالى أن يذهب عنهم هذا الاسم فيذهبه عنهم، وروي عن

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٨، النشر ٢/٣٠٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٥ وعزاه لعبد الرزاق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر ومحمد بن نصر والبيهقي في الدلائل.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٨ وعزاه لابن مردويه.

حذيفة بن اليمان أنه قال: يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم المنادي فيقول: يا محمد فيقول: لبيك وسعديك والخير بيديك وهو المقام المحمود، ويغبطه به الأولون والآخرون ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي: قال هذا حين أمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة بعد ما خرج منها فأمره الله بأن يقول: حين دخل المدينة رب أدخلني مُدخل صدق أي: أدخلني في المدينة إدخال صدق ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: من المدينة إلى مكة إخراج صدق، ويقال: أدخلني في الدين مدخل صدق. أي: ثبتني على الدين وأخرجني أي: احفظني من الكفر، ويقال: أخرجني من الدنيا إخراج صدق وأدخلني في الجنة. ويقال: أدخلني بعز وشرف وإظهار الإسلام، ويقال: أدخلني في القبر مدخل صدق وأخرجني من القبر مخرج صدق. وقال مجاهد: أدخلني في النبوة والرسالة مدخل صدق، وقال الحسن: مخرج صدق من مكة إلى المدينة. ومدخل صدق الجنة. وقال السدي: أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وعن أبي صالح: أدخلني في الإسلام وارفعني بالإسلام ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ يعني: من عندك ﴿سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ أي: ملكاً مانعاً لا زوال فيه ولا يرد قولي، ويقال: حجة ثابتة ظاهرة، قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ ظهر الإسلام والقرآن ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ يقول: هلك الشرك وأهله ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ يعني: الشرك كان هالكاً. لم يكن له قرار ولا دوام. روي عن عبد الله بن الشخير عن عبد الله بن[1] مسعود أنه قال: دخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً» (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول ذلك والصنم ينكب لوجهه.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

ثم قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ أي: بيان من العمى، ويقال: شفاء للبدن إذا قرىء على المريض يبرأ أو يهون عليه ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ونعمة من العذاب لمن آمن بالقرآن ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ أي: المشركين ما نزل من القرآن ما يزيدهم إلاَّ خساراً. أي: تخسيراً وغبناً قوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ﴾ أي: إذا وسعنا على الكافر الرزق ورفعنا عنه العذاب في الدنيا ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الدعاء، ويقال: النعمة هي إرسال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعرض عنه الكافر ﴿وَنَآى بِجَانِبِهِ﴾ يعني: تباعد عن الإيمان فلم يقربه. قرأ ابن عامر[2] «وَنَاءَ» بمد الألف على وزن باع. وقرأ أبو عمرو بنصب النون وكسر الألف. وقرأ حمزة والكسائي بكسر النون والألف. وقرأ الباقون بنصب النون والألف ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ يعني: إذا أصابه الفقر في معيشته والسقم في الجسم كان آيساً من رحمة الله تعالى ثم قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال القتبي: على خليقته

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٩ وعزاه لابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحديث عند البخاري في المظالم (٢٤٧٨) (٤٢٨٧) وفي التفسير (٤٧٢٠)، ومسلم في الجهاد والسير (٨٧م/ ١٧٨١)، والترمذي (٣١٣٨)، والنسائي في التفسير ١/٦٦٥.

(٢) اظر حجة القراءات ٤٠٨، النشر ٢/٣٠٨.

وطبيعته وهو من الشكل. وقال الحسن على شاكلته على بنيته وكذلك قال معاوية بن قرة وقال الكلبي: على ناحيته ومنهاجه وحديثه وأمره الذي هو عليه ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ أي: بمن هو أصوب ديناً ويقال: هو عالم بمن هو على الحق. قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: لا علم لي فيه. وقال مجاهد: الروح خلق من خلق الله تعالى له أَيْدٍ وأرجل. وقال مقاتل: الروح ملك عظيم على صورة الإنسان أعظم من كل مخلوق. وروى معمر عن قتادة والحسن أنهما قالا الروح هو جبريل. وقال قتادة: كان ابن عباس يكتمه. أي: يجعله من المكتوم الذي لا يفسر. وروى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود[1] أنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم: سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه. فقالوا يا محمد ما الروح؟ فقام متوكئاً على عسيب. فظننت أنه يوحى إليه فنزل «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. ويقال: الروح القرآن كقوله: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا) وروي في بعض الروايات عن ابن عباس أنه قال: الروح ملك له مائة ألف جناح وكل جناح لو فتحه يأخذ ما بين المشرق والمغرب، ويقال: إن جميع الملائكة تكون صفاً واحداً. والروح وحده يكون صفاً واحداً كقوله: (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفاً) واحداً ويقال: معناه: يسألونك عن الروح الذي هو في الجسد كيف هو قل الروح من أمر ربي. ويقال: الروح: جبريل كقوله: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ أي: يسألونك عن إتيان جبريل. كيف نزوله عليك قل الروح من أمر ربي ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: ما اعطيتموه من العلم مما عند الله إلاّ يسيراً.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

ثم قال: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني: حفظ الذي أوحينا إليك من القرآن من قلبك، ويقال: لئن شئنا لمحونا من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ أي: لا تجد من تتوكل عليه في رد شيء منه، ويقال: ثم لا تجد لك مانعاً يمنعني من ذلك. قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين وروى أبو حازم عن أبي هريرة[2] أنه قال: سيؤتى على كتاب الله تعالى فيرفع إلى السماء فلا تصبح على الأرض آية من القرآن وينزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو. وروي عن ابن مسعود أنه قال: يصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) الآية ثم قال: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ أي: بالنبوة والإسلام قوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل هذا القرآن على نظمه وإيجازه ونسقه مع كثير مما ضمن

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٩ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والحديث عند البخاري في العلم (١٢٥) وفي التفسير (٤٧٢١) وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٩٧) وفي التوحيد (٧٤٥٦) ومسلم في صفات المنافقين (٣٢، ٣٣ / ٧٩٤) والترمذي (٣١٤١) والنسائي ١/ ٦٧٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠١ وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

فيه من الأحكام والحدود وفنونها، ويقال: مثل هذا القرآن من تعريه عن التناقض مع كثرة الأقاصيص والأخبار، ويقال: على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله. لأن فيه علم ما كان وعلم ما يكون ولا يعرف ذلك إلّا بالوحي، ويقال: بمثل هذا القرآن لأنه كلام منثور لا على وجه الشعر لأن تحت كل كلمة معاني كثيرة ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ أي: معيناً.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ يعني: بينا للناس ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل لون ومن من الحلال والحرام والأحكام والحدود والوعد والوعيد ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي: ثباتاً على الكفر. ويقال أبوا عن الشكر إلّا كفوراً. أي كفراناً مكانه ويقال: لم يقبلوه قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نقربك ولن نصدقك، وهو عبد الله بن أبي أمية المخزومي وأصحابه قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ) ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا﴾ يعني: تشقق الماء ﴿مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ أي: عيوناً. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي[1] «تَفْجُرَ» بنصب التاء وجزم الفاء وضم الجيم مع التخفيف وقرأ الباقون «تُفَجِّرَ» بضم التاء ونصب الفاء مع التشديد. وقال أبو عبيدة هذا أحب إليّ لأنهم اتفقوا في الذي بعده ولا فرق بينهما في اللغة، فمن قرأ بالتشديد فللتكثير والمبالغة كما يقال: قَبَّل تَقْبيلاً للمبالغة ثم قال: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستاناً ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي: الكروم ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ أي: تشقق الأنهار ﴿خِلَالَهَا﴾ يعني: وسطها ﴿تَفْجِيراً﴾ أي: تشقيقاً ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ أي: قطعاً. قرأ ابن عامر وعاصم ونافع «كِسَفاً» بنصب السين. وقرأ الباقون بالجزم ومعناهما واحد أي تسقط علينا طبقاً، واشتقاقه من كسفت الشيء إذا غطيته. ومن قرأ بالنصب جعلها جمع كسفة وهي القطعة ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أي: ضميناً كفيلاً، والقبيل الكفيل. ويقال: من المقابلة أي: معاينة، شهيداً يشهدون لك بأنك نبي الله تعالى ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد إلى السماء ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لصعودك ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَءُهُ﴾ روى أسباط عن السدي أنه قال: لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية المخزومي أخو أم سلمة فأبى أن يبايعهما فقالت أم سلمة ما بال أخي؟ يكون أشقى الناس بك رسول الله وابن عمك. فقال: أمّا ابن عمي فإنه كان يهجونا. وأمّا أخوك فإنه زعم أنه لا يؤمن بي حتى أرقى في السماء ولو رقيت إلى السماء لن يؤمن حتى آتيه بكتاب يقرؤه ثم دعاهما فقبل منهما وبايعهما. قال الله تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٩، النشر ٢/٣٠٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٤١٠، النشر ٢/٠٨.

﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾ فإني لا أقدر على ما تسألوني. قرأ ابن كثير وابن عامر[1] «قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي» بالألف على وجه الحكاية. وقرأ الباقون «قُلْ سُبْحَانَ» بغير ألف على وجه الأمر.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ يعني: القرآن ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ يعني: الرسول من الآدميين ومعناه: أنه ليست لهم حجة سوى ذلك القول. قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ أي: لو كان سكانُ ملائكة يمشون ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: مقيمين في الأرض ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ أي: لبعثنا عليهم رسولاً من الملائكة وإنما يبعث الملك إلى الملائكة والبشر إلى البشر. فلما قال لهم ذلك قالوا: له من يشهد لك بأنك رسول الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأني رسول الله ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ ثم قال ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي: من يكرمه الله تعالى بالإسلام ويوفقه ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ يعني: فهو على الهدى وعلى الصواب. قرأ نافع وأبو عمرو «المهتدي» بالياء عند الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يخذله الله عن دينه ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم من الضلالة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي: نبعثهم يوم القيامة ونسوقهم منكبين على وجوههم يسحبون عليها ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ عن الهدى ويقال: في ذلك الوقت يكونون عمياً وبكماً وصماً. كما وصفهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ يقول: كلما سكن لهبها ولم تجد شيئاً تأكله «زدناهم سعيراً». أي: وقوداً، أعيدوا خلقاً جديداً. قال مقاتل: وذلك أن النار إذا أكلتهم فلم يبق منهم شيء غير عظام وصاروا فحماً سكنت النار فهو الخبو. ثم بدلوا جلوداً غيرها فتشتعل وتسعر عليهم فذلك قوله «زِدْنَاهُمْ سَعِيراً» وقال أهل اللغة: يقال خبت النار إذا سكن لهبها وإذا بقي من جمرها شيء يقال: خمدت فإذا طفئت ولم يبق شيء قالوا همدت ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: ذلك العذاب عقوبتهم وجزاء أعمالهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ أي: تراباً ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ بعد الموت.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ

---

(١) انظر حجة القراءات ٤١٠.

فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾

قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أو لم يخبروا في القرآن ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه عند المؤمنين أنه كائن ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي: أبى المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا إلّا الكفر. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ يقول: لو تقدرون على مفاتيح رزق ربي ﴿إِذاً لأَمْسَكْتُمْ﴾ أي لبخلتم وامتنعتم عن الصدقة ﴿خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ أي: مخافة الفقر ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ أي: ممسكاً بخيلاً. قال الزجاج: هذا جواب لقولهم «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً» وقال بعضهم: هذا ابتداء، وصف بخلهم. قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: علامات واضحات مضيئات بالحجة عليهم وهاديات إذ جاءهم موسى بالبينات.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن ابن عباس[1] في قوله تسع آيات بينات: وهي في سورة الأعراف «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ» قال: السنين لأهل البوادي ونقص الثمرات لأهل القرى، فهاتان آيتان والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهذه خمسة ويد موسى إذ أخرجها بيضاء من غير سوء وعصاه إذا ألقاها فإذا هي ثعبان مبين. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو موسى محمد بن إسحاق وخزيمة قالا: حدثنا علي بن حزم بن حشرم قال: حدثنا عيسى بن يونس عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفوان[2] بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي فنسأله عن هذه الآيات «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» فقال: لا تقل نبي. فإنه لو سمعها صارت له أربعة أعين. فأتوه فسألوه فقال: ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تقذفوا محصناً أو قال ولا تفروا يوم الزحف ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقتله. وعليكم خاصة يا معشر اليهود ألا تعدوا في السبت، فقبلا يديه ورجليه فقالوا: نشهد إنك نبي الله ورسوله فقال: وما يمنعكما أن تسلما؟ فقالا: إن داود دعا ربه ألّا يزال في ذريته نبي. فنخاف أن يقتلنا اليهود ثم قال تعالى ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: سل مؤمني أهل الكتاب عن هذه الآيات ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ يعني: حين جاءهم موسى ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ أي: مغلوب العقل. قوله: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى يا فرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات قرأ الكسائي[3] «علمتُ» بضم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠٤ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠٤ وعزاه للطيالسي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن قانع والحاكم وصححه وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٤١، النشر ٢/٣٠٩. وحجته: ما روي عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قال: (لقد علمتُ) قال: (والله ما علم عدو الله إنما علم موسى - صلى الله عليه وسلم -) وقرأها بالرفع. مسألة فإن قلت: كيف يصح الاحتجاج عليه بعلمه

التاء يعني: علمت أنا ما أنزل هؤلاء الآيات ﴿إلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: إن لم تصدقوني فأنا على يقين من ذلك. وقرأ الباقون بالنصب يعني: إنك تعلم ذلك كما قال في آية أخرى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم). ﴿بَصَائِرَ﴾ أي: علامات لنبوتي. ويقال: علامات بينات ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ﴾ أي: لأعلمنك ﴿يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ أي: ملعوناً هالكاً. قال الحسن: مثبوراً أي: مهلكاً. وكذا قال قتادة. وروى مجاهد عن ابن عباس[1] أنه قال: مثبوراً أي: ملعوناً وكذا روى الكلبي والضحاك.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: يستزلهم ويخرجهم. ويقال: أي: يستخفهم من الأرض يعني: من الأردن وفلسطين ومصر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين مع موسى ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ أي: انزلوا أرض الأردن وفلسطين ومصر ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي: البعث بعد الموت ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي: جميعاً، واللفيف الجماعة من كل قبيلة ثم قال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: أنزلنا عليك جبريل بالقرآن ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بالقرآن نزل جبريل، ويقال: أنزلناه بالحق والحكمة والحجة. ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً﴾ بالجنة للمؤمنين ﴿وَنَذِيراً﴾ بالنار للكافرين. ثم قال تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾ حين أنزلنا به جبريل متفرقاً آية بعد آية وسورة بعد سورة ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على ترسل وسهل ليفهموه ويحفظوه وكان ابن[2] عباس يقرأ «فَرَّقْنَاهُ» بالتشديد أي: بينا فيه الحلال والحرام. ويقال: أنزلناه متفرقاً. ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ أي: بيناه تبييناً.

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ﴾

= وعلمه لا يكون حجة على فرعون إنما يكون علم فرعون ما علمه من صحة أمر موسى حجة عليه؟ فالقول فيه: إنه لما قيل له: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ كان ذلك قدحاً في علمه لأن المجنون لا يعلم فكأنه نفى ذلك ودفع عن نفسه فقال: ﴿لقد علمت صحة ما أتيتُ به علماً صحيحاً كعلم الفضلاء﴾ فصارت الحجة عليه في هذا الوجه.

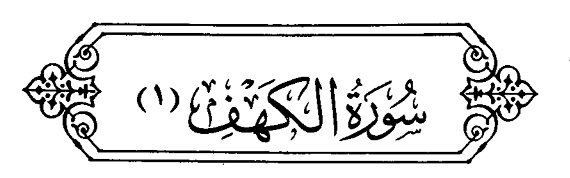
وقرأ الباقون: ﴿قال لقد عَلِمْتَ﴾ بفتح التاء على المخاطبة عن موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفرعون وحجتهم في ذلك أن فرعون ومن كان تبعه قد علموا صحة أمر موسى بدلالة قوله تعالى: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾ وقوله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ يعني أن فرعون كان عالماً بأن: ما أنزل هؤلاء الآيات إلا الله ولكن جحد ما كان يعرف حقيقته وهو عالم بأن الله هو ربه. انظر حجة القراءات ٤١١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٠٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٠٥ وعزاه للنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

قوله: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ﴾ أي: صدقوا بالقرآن ﴿أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا﴾ يعني: أو لا تصدقوا، ومعناه: إن صدقتم به أو لم تصدقوا فإنه غني عن إيمانكم وتصديقكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني: أعطوا علم كتابهم وهم مؤمنو أهل الكتاب من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: يعرض عليهم القرآن عرفوه ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ أي: يقعون على الوجه ﴿سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: تنزيهاً لربنا وقال الكلبي أي نصلي لربنا ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ وقد كان وعد ربنا لمفعولاً أي: كائناً ومقدوراً. قوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ أي: يقعون على الوجوه ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ أي: تواضعاً ومذلة، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ قال الكلبي: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في بدىء ما نزل من القرآن. وقد كان أسلم ناس من اليهود منهم عبد الله بن سلام وأصحابه وكان ذكره في التوراة كثيراً. فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فنزل «قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن». قرأ حمزة والكسائي «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أو ادْعُوا الرحمن» بكسر اللام والواو وقرأ أبو عمرو بكسر اللام في (قُلِ ادعو). وضم الواو في «أُوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» وقرأ الباقون كليهما بالضم ومعناهما واحد ﴿أَيّاً مَا تَدْعُو فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يعني: بأي الاسمين تدعون فهو حسن فله الأسماء الحسنى) أي: له الصفات العلى. ثم قال: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بمكة. وكان يصلي بأصحابه وإذا رفع صوته أذاه المشركون وإذا خفض لا يسمع صوته الذين خلفه. فأنزل الله تعالى ولا تجهر بصلاتك. أي بقراءتك فيؤذيك المشركون ولا تخافت بها في جميع الصلوات، يعني: لا تسر بقراءتك فلا يسمع أصحابك قراءتك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ يقول: بين الرفع والخفض، ويقال: معناه: ولا تجهر في جميع الصلوات ولا تخافت في جميع الصلوات وابتغ بين ذلك سبيلاً. أي: اجهر في بعض الصلوات وخافت في البعض ثم قال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ قال الكلبي: وذلك أنه لما نزل «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» قالت كفار قريش: كان محمد يدعو إلهاً واحداً وهو اليوم يدعو إلهين. ما نعرف الرحمن إلَّا صاحب اليمامة. مسيلمة الكذاب فنزل: (وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) يعني: ذكر الرحمن. وأمره بأن يقول: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي: لم يتخذ ولداً فيرث ملكه، ولم يكن له شريك في الملك في عظمته. وقال أبو العالية: معناه: وقل الحمد لله الذي لم يجعلني ممن يتخذ له ولداً ولم يجعلني ممن يقول له شريك في الملك ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي: من اليهود والنصارى وهم أذل خليقة الله تعالى. يؤدون الجزية، وقال مقاتل: معناه: لم يذل فيحتاج إلى ولي يعينه، أي: لم يكن له ولي ينتصر به من الذل ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أي: عظمه تعظيماً. ولا تقل له شريك. وروى إبراهيم بن الحكم عن أبيه أنه قال: بلغني أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله: إني رجل كثير الدين كثير الهم. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اقرأ آخر سورة بني إسرائيل، «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُو الرَّحْمَنَ» حتى تختمها. ثم قل توكلت على الحي الذي لا يموت ثلاث مرات.



مائة وعشرة آيات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول الشكر لله والألوهية لله ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ أي أنزل على عبده محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ أي: لم ينزله متناقضاً ﴿قَيِّماً﴾ بل أنزله مستقيماً ويقال: في الآية تقديم ومعناه الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً أي مستقيماً ولم يجعل له عوجاً أي لم ينزله مخالفاً للتوراة والإنجيل قال أهل اللغة: «عوجاً بكسر العين في الأقوال وبنصب العين في الأشخاص» ويقال: في كلامه عوج وفي هذه الخشبة عوج ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾ أي: لينذركم ببأس شديد كما قال «يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ أي:

---

(١) سماها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة الكهف. وهي مكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية قال: روي عن فرقد أن أول السورة إلى قوله ﴿جُرُزاً﴾ نزل بالمدينة قال: والأول أصح. وقيل قوله ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾ الآيتين نزلتا بالمدينة وقيل قوله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ إلى آخر السورة نزل بالمدينة وكل ذلك ضعيف. افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولاً من الله تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب. وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولداً وبشارة للمؤمنين وتسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أقوالهم حين تريث الوحي لما اقتضته سنة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة. وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنها لا تُكسب النفوس تزكية. وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه. وحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده. وقدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض وموسى ـ عليه السلام ـ خرج في طلب العلم. وفي ذكر قصة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل إذ اهتموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبراً من سيرة نبيهم. وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتثبيته. وأن الحق فيما أخبر به وأن أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين ومن الوعد والوعيد وتمثيل المؤمن والكافر وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها وما يعقبها من البعث والحشر والتذكير وبعواقب الأمم المكذبة للرسل وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله ووعد المؤمنين بضدهم والتمثيل لسعة علم الله تعالى. وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان في هذا الختام مُحسّن رد العجز على الصدر. انظر التحرير ١٥/٢٤١ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

بأوليائه وهذا قول القتبي» وقال الزجاج: أي: لينذرهم بالعذاب البئيس ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: من قبله ويقال: لينذر بأساً شديداً أي: يخوفهم بالعذاب الشديد بما في القرآن مِنْ لَدُنْه أي: من عنده قرأ عاصم في رواية أبي بكر: «من لدْنه بجزم الدال وقرأ الباقون بالضم ومعناهما واحد[١] ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالجنة ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فيما بينهم وبين ربهم ثم بين الذي يبشرهم به فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ في الْجَنَّةِ ﴿مَاكِثِيْنَ فِيْهِ أَبَداً﴾ أي: مقيمين في الثواب والنعيم خالداً مخلداً و «مَاكِثِينَ» منصوب على الحال في معنى خالدين ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِيْنَ قَالُوا﴾ أي: يخوف بالقرآن الذين قالوا ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ وهم المشركون والنصارى ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم بذلك القول بيان ولا حجة ﴿وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾ أي: ولا حجة لآبائهم الذين مضوا فأخبر أنهم أخذوا دينهم من آبائهم بالتقليد لا بالحجة والبيان لأنهم قالوا كان آباؤنا على هذا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عظمت الكلمة قرأ الحسن[٢] بالضم ومعناه عظمت كلمة وهي قولهم: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فصارت نصباً بالتفسير ﴿إِنْ يَقُولُونَ إلا كَذِباً﴾ أي: ما يقولون إلا كذباً ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي: قاتل نفسك أسفاً وحزناً ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي: على أعمالهم ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ أي: بهذا القرآن أسفاً والأسف المبالغة في الحزن والغضب وهو منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِيْنَةً لَهَا﴾ أي: ما على وجه الأرض من الرجال زينة لها أي للأرض ويقال: جعلنا ما على الأرض من النبات والأشجار والأنهار زينة لها أي: للأرض ﴿لِنَبْلُوَهُم﴾ أي: «لنختبرهم» ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي: أخلص ويقال: أيهم أخلص في الزهد في الدنيا وأترك لها ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ أي: ما على الأرض في الآخرة من شيء من الزهرة ﴿صَعِيْداً جُرُزاً﴾ أي: تراباً أملس لا نبات فيه وقال القتبي: الصعيد المستوي قال: ويقال: وجه الأرض ومنه يقال: للتراب صعيد لأنه وجه الأرض (والجرز الذي لا نبات فيه يقال: أرض جرز وسنة جرز إذا كان فيه جدوبة ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ أي: غار في الجبل ﴿والرَّقِيمِ﴾ الكتاب. وقال قتادة: دراهمهم وقال عكرمة: عن ابن عباس[٣] قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعة غسلين وحنان

---

(١) قرأ أبو بكر: ﴿من لَدْنِهي﴾ بإسكان الدال وإشمام الضم وكسر النون والهاء ووصل الهاء بالياء. الأصل ﴿لَدُنْ﴾ بضم الدال ثم إنه أسكن الدال استثقالاً للضمة كما تقول ﴿عَضْدٌ﴾ فلما أسكن الدال التقى ساكنان النون والدال فكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء لمجاورة حرف مكسور ووصلها بياء كما تقول: ﴿مررت بِهِ ي يا فتى﴾ وأما إشمام الضمة في الدال (ف) ليعلم أن الأصل كان في الكلمة الضمة. ومثل ذلك (قيل وجيء) فاعرفه فإنه حسن.

وقرأ الباقون: ﴿من لدُنْهُ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء على أصل الكلمة كقوله: ﴿من لدُنْ حكيم عليم﴾. انظر حجة القراءات ٤١٢.

(٢) ابن يعمر وابن محيصن والقواس عن ابن كثير بالرفع على الفاعلية، وقرىء بسكون الباء وهي في لغة تميم انظر البحر المحيط ٩٧/٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢١٢/٤ وعزاه لعبد الرزاق.

والأواه والرقيم وقال القتبي: الرقيم لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ونصب على باب الكهف والرقيم الكتاب وهو فعيل بمعنى مفعول «وبِهِ كِتَابٌ مَرْقُومٌ» أي: مكتوب وقال الزجاج: هو اسم الجبل الذي فيه الكهف وقال كعب الأحبار: الرَّقِيمُ اسم القرية. روي عن ابن عباس: أن قريشاً اجتمعوا كان فيهم الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل السهمي وأبو جهل بن هشام وأمية وأبي أبناء خلف والأسود بن عبد المطلب وسائر قريش فبعثوا منهم خمسة رهط[1] إلى يهود يثرب أي: يهود المدينة فسألوهم عن محمد وعن أمره وصفته وأنه خرج من بين أظهرنا ويزعم أنه نبي مرسل واسمه محمد وهو فقير يتيم فلما قدموا المدينة أتوا أحبارهم وعلماءهم فوجدوهم قد اجتمعوا في عيد لهم فسألوهم عنه ووصفوا لهم صفته فقالوا لهم نجده في التوراة كما وصفتموه لنا وهذا زمانه ولكن سلوه عن ثلاث خصال فإن أخبركم بخصلتين ولم يخبركم بالثالثة فاعلموا أنه نبي فاتبعوه فإنا قد سألنا مسيلمة الكذاب عن هؤلاء فلم يدر ما هن وقد زعمتم أنه يتعلم من مسيلمة الكذاب سلوه عن أصحاب الكهف أي: قصوا عليه أمرهم وسلوه عن ذي القرنين أن كان ملكاً وكان أمره كذا وكذا وسلوه عن الروح فإن أخبركم عن قليل أو كثير فهو كاذب ففرحوا بذلك فلما رجعوا وأخبروا أبا جهل ففرح وأتوه فقال أبو جهل: إنا سائلون عن ثلاث خصال فسألوه عن ذلك فقال لهم: ارجعوا غداً أخبركم ولم يقل إن شاء الله فرجعوا ولم ينزل عليه جبريل إلى ثلاثة أيام وفي رواية الكلبي: إلى خمسة عشر يوماً وفي رواية الضحاك: إلى أربعين يوماً فجلعت قريش تقول يزعم محمد أنه يخبرنا غداً بما سألناه وقد مضى كذا وكذا يوماً فشق ذلك على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أتاه جبريل فقال لجبريل لقد علمت ما سألني عنه قومي فلم أبطأت علي فقال: أنا عبد مثلك (وَمَا نتنزل إلاّ بأَمْرِ رَبِّكَ) وقال: «وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» وكان المشركون يقولون: إن ربه قد ودعه وأبغضه فنزل: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» ونزل: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ فلما قرأ عليهم قالوا هذان ساحران يعني محمداً وموسى عليهما السلام ولم يصدقوه وقوله: «عَجَباً» يقول: هم عجب وأمرهم أعجب وغيرهم مما خلقت أعجب منهم الشمس والقمر والجبال والسموات والأرض أعجب منهم ثم بين أمرهم فقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: صاروا إليه وجعلوه مأواهم والفتية جمع فتى غلام وغلمة وصبي وصبية ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: ثبتنا على الإسلام ﴿وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ أي: هب لنا من أمرنا مخرجاً.

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم وألقينا عليهم النوم وقال الزجاج: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ» أي: منعناهم أن يسمعوا لأن النائم إذا سمع انتبه ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ ويراد بذكر العدد: التأكيد لأن الكثير يحتاج أن يعد وإنما صار نصباً لأنه مصدر قال ابن عباس في حديث أصحاب الكهف أنه قال إن مدينة كانت بالروم ظهر عليها ملك من الملوك يقال له: دقيانوس غلب على مدينتهم وأرضهم وكانت المدينة تسمى أفسوس فجعل يدعوهم إلى عبادة الأوثان ويقتلهم على ذلك فمن كفر بالله واتبع دينه تركه فهدى الله شاباً من أهل تلك المدينة إلى دين الإسلام فجعل يدعوهم سراً حتى تابعه على ذلك سبعة أغلمة ففطن لهم الملك فأرسل إليهم وأخذهم ودفعهم إلى آبائهم

(١) الرهط ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة لسان العرب ١٧٥٣/٣.

يحفظونهم حتى يرسل إليهم من يطلبهم من آبائهم فأرسل إليهم فهربوا فقالت آباؤهم والله لقد خرجوا من عندنا بالأمس فما ندري أين هم فمروا بغلام راعي ومعه كلب له فدعوهم إلى أمرهم فأعجبه ذلك فتابعهم عليه فمضى معهم واتبعه كلبه حتى أتوا غاراً أي: كهفاً فدخلوا فيه ثم أرسلوا بعضهم إلى السوق ليشتري لهم طعاماً من السوق فركب الملك والناس معه في طلبهم وهم يسألون عنهم فسمع رسولهم بذلك فعجل أن يشتري لهم كل الذي أرادوا فاشترى بعضه وأتاهم فأخبرهم أن الملك والناس في طلبهم فأكلوا ما أتاهم به ولم يشبعوا ثم ناموا على وجوههم فضرب الله على آذانهم بالنوم سنين عدداً وسار الملك والناس معه حتى انتهوا إلى باب الكهف فوجدوا آثارهم داخلين ولم يجدوا آثارهم خارجين فدخلوا الكهف فأعمى الله عليهم فطلبوهم فلم يجدوا شيئاً فقال الملك: سدوا عليهم باب الكهف حتى يموتوا فيه فيكون قبرهم إن كانوا فيه ثم انصرف الملك والناس معه فعمد رجلان مسلمان يكتمان إيمانهما إلى لوح من رصاص فكتبا فيه أسماء الفتية وأسماء آبائهم ومدينتهم وأنهم خرجوا فراراً من دقيانوس الملك الكافر فمن ظهر عليهم يعلم بأنهم مسلمون وألْزَقَاهُ في السد من داخل الكهف وقال في رواية السدي قال في قصة أصحاب الكهف: كان في المدينة فتية ليس منهم أحد يعرف صاحبه فخرج ملكهم فخرجا له وخرج الفتية ومنهم واحد له كلب وليس منهم أحد إلا وهو يقول في نفسه إن رأيت أحداً استضعف دعوته إلى الإيمان بالله فلما رجع الناس تخلف الفتية فاجتمعوا على باب المدينة وقد أغلق الباب دونهم فطلبوا أن يدخلوا فلم يفتح لهم فقال بعضهم: إني أسر إليكم أمراً فإن تابعتموني عليه رشدتم فقص عليهم أمره فقالوا جميعاً نحن على هذا آنذاك قوله عز وجل: ﴿**إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** . .﴾ الآية فصاروا إلى الكهف فدخلوه ورقدوا فيه ورقد الكلب بفناء الكهف فضرب الله على آذانهم بالنوم فلما فقدهم أهلوهم انطلقوا إلى الملك فأخبروه فدعا بصخرة فكتب فيها أسماء وكتب فيها أنهم هلكوا في زمن كذا ثم ضربها في سور المدينة على الباب وهو الرقيم وفي رواية وهب بن منبه[1] قال: جاء من حواري عيسى بن مريم عليهما السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلاّ سجد له فكره أن يدخلها وأتى حماماً كان قريباً من تلك المدينة فكان يعمل فيه يعني أنه أجر نفسه من صاحب الحمام فرأى صاحب الحمام في حمامه البركة ودر عليه الرزق واجتمع إليه فتية من أهل المدينة فكان يخبرهم بخبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه وكانوا على مثل حاله في حسن الهيأة فكانوا في ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فماتا في الحمام جميعاً فأتى الملك فقيل له صاحب الحمام قتل ابنك فالتمسه فلم يقدر عليه فقال من كان (يصحبه) فسموا الفتية فالتمسوهم فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم في زرع له وكان على مثل أمرهم فذكروا له أنهم التمسوا فانطلق معهم ومعه الكلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه وقالوا: نبيت ها هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله فترون رأيكم فضرب على آذانهم فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم حتى وجدوا آثارهم وقد دخلوا الكهف فلما أراد رجل منهم أن يدخل الكهف أرب فلم يطق أحد أن يدخل عليهم فقال له قائل: ألست لو كنت قدرت عليهم قتلتهم فسد عليهم باب الكهف ودعهم حتى يموتوا عطشاً وجوعاً ففعل ذلك ثم إن راعياً احتاج أن يبني حظيرة لغنمه فهدم ذلك السد وبنى عليه لغنمه فصار باب الكهف مفتوحاً وكلما غزا تلك المدينة فظهر عليها أظهر علامته إن كان مسلماً أظهر علامة المسلمين وإن كان كافراً أظهر علامة المشركين ثم مات دقيانوس وملك ملك آخر مسلم فأظهر علامة المؤمنين بالمدينة وكان يقال له: ستفاد الملك ثم إن أصحاب الملك استيقظوا بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين فنظر واحد منهم إلى الشمس وقد دانت إلى الغروب ويقال عند زوال الشمس فقال كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم «فقال كبيرهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢١٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

لا تختلفوا فإنه لم يختلف قوم إلا هلكوا ثم قال فقال الآخرون فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً أي أحلّ وأظهر لأنهم كانوا يذبحون الخنازير فدفعوا الدراهم إلى رجل يقال له: تمليخا فلما انتهى إلى باب الكهف رأى حجارة مكسرة على بابه فقال: إن هذا شيء ما رأيناه بالأمس فلما خرج أنكر الطريق فدنا إلى باب المدينة فلم يعرفها فلما دخل المدينة لم يعرف أحداً من الناس فأشكل عليه فقال لعل هذه غير تلك المدينة فسأل إنساناً فقال: أي مدينة هذه فقال أقسوس فقال لقد أصابني شر وتغير عقلي فهذه مدينتنا ولا أعرفها ولا أعرف أحداً من أهلها فأخرج الدراهم وجاء إلى الخباز ودفعها إليه فأخذ الخباز الدراهم فأنكرها وقال من أين لك هذه الدراهم لقد وجدت كنزاً لتخبرني وإلا دفعتك إلى الملك وكان ملك يحدث بعد آخر يضرب دراهم على سكته وختمه فمن وجد معه دراهم غير تلك الدراهم علم أنه كنز فلما وجدوا معه تلك الدراهم قالوا هذا كنز فقال هذه الدراهم ما أخرجت من المدينة إلا أمس فظن الخباز أنه يتجانن عليه ليرسله فقال له: لقد علمت أنك تتجانن علي لا أرسلك حتى تعطيني من هذا الكنز وإلا دفعتك إلى الملك اجتمع الناس عليه وذهبوا به إلى الملك فجعل تمليخا يبكي خوفاً من الملك وأن يرفع إلى ملكهم الجبار الذي فرضه الذي أدخل على غيره سكن. فقال له الملك: من أين لك هذه الدراهم فقال خرجت بها عشية أمس أنا وأصحاب لي فراراً من دقيانوس الملك فقال إنك رجل شاب وذلك الملك قد مضى عليه دهر طويل فما أنا بالذي أرسلك حتى تخبرني من أين لك هذه الدراهم فقص عليه أمره وأمر أصحابه فقال أُناسٌ من المسلمين قد أخبروا بقصتهم أن آباءنا أخبرونا أن فتية قد خرجوا بدينهم وهم مسلمون فراراً من دقيانوس الملك وإنا والله لا ندري ولعله صادق فأركب وأنظر لعله شيء أراد الله أن يظهرك عليه أو يكون في ولا يفك فركب الملك وركب معه الناس المسلم والكافر حتى انتهوا إلى الكهف فلما رأى أصحابه الناس قد انتهوا إليهم عانق بعضهم بعضاً يبكون ولا يشكون إلا أنه الملك الجبار الكافر فقال لهم تمليخا: امكثوا حتى أدخل أولاً فدخل عليهم فأخبرهم بالقصة قال ابن عباس في رواية أبي صالح: دخل عليهم الملك والناس فسألوهم عن أمرهم فقصوا عليهم قصتهم فنظروا فإذا اللوح الرصاص الذي كتبه المسلمان فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم فقال الملك: هم قوم هلكوا في زمن دقيانوس وأحياهم الله في زماني فلم يبق أحد من الكفار مع الملك إلا أسلموا كلهم إذا رأوهم فبينما هم يتحدثون إذ ماتوا كلهم وقال في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن القوم لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل على أصحابي لا تهجموا عليهم فيفزعوا منكم فدخل فعمي عليهم المكان فلم يدروا أين ذهب ولم يقدروا على الدخول عليهم فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ فجعلوا عليهم مسجداً وصاروا يصلون فيه فذلك قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ يعني: أي الفريقين المسلم والكافر ﴿أحصى﴾ أي: احفظ ﴿لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ يعني: لما مكثوا أجلاً وكان المسلمان كتبا في اللوح فظهر لهم مقدار ما لبثوا فيه ولم يعلم الكفار مقدار ذلك ويقال: أي الحزبين يعني الذين كانوا مؤمنين قبل ذلك والذين أسلموا في ذلك الوقت ويقال أي الفريقين أصدق قولاً لأنهم قد اختلفوا في البعث منهم من كان ينكر ذلك فظهر لهم أن البعث حق ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ﴾ أي: ننزل عليك في القرآن خبر الفتية ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: صدقوا بتوحيد ربهم ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي: يقيناً وبصيرة في أمر دينهم.

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: حفظنا قلوبهم على الإيمان. وقيل ألهمناهم الصبر حتى ثبتوا على دينهم ﴿إِذْ قَامُوا﴾ من نومهم ويقال: قاموا بإثبات الحجة ويقال: خرجوا من عند الملك ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَهاً﴾ أي: لم نقل من دون الله رباً وإن فعلنا ﴿فقد قلنا إذاً شططاً﴾ أي: كذباً وجوراً ويقال: شططاً أي: علواً يقال: قد أشط إذا عـلا في القول أي: جاوز الحد ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا﴾ أي: عبدوا ﴿مِنْ دُوْنِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ يعني: (هلا يأتون بحجة بينة على عبادة آلهتهم) قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أن له شريكاً ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ يقول بعضهم لبعض: لو تركتموهم وما يعبدون إلا الله يعني: لو تركتم ما يعبدون ﴿وَمَا يَعْبُدُوْنَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ ويقال: لو اعتزلتم عبادتهم إلا الله يعني: قولهم الله خالقنا ويقال ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ هذا قولهم ثم قال حكاية عن قولهم: فقالَ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ يعني: أصحاب الكهف ﴿فَأْوُا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: فارجعوا إلى الكهف ويقال: فادخلوا الكهف ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: يهب لكم ربكم من نعمته ويقال: يبسط لكم من رزقه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾ أي: يجعل لكم من أمركم الذي وقعتم فيه ما يرفق بكم ويصلحكم ويقال: مخرجاً ونجاة ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ أي: تميل وتنحرف عن كهفهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ أي: تجاوزهم ويقال: تتركهم وتمر بهم وأصل القرض القطع ومنه سمي المقراض ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: شمال الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في ناحية من الغار ويقال في متسع منه فأخبر أنه بوأهم كهفاً مستقبلاً بنات نعش والشمس تميل عنه وتستدير طالعة وغاربة ولا تدخل عليهم فتؤذيهم ولا يلحقهم سمومها فيغير ألوانهم وأبدانهم وكانوا في متسع منه ينالهم نسيم الريح وينفس عنهم غمة الغار وكربه الغمة الهواء العفن ويجوز الرفع النصب ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ذلك الخبر والذكر ويقال ذلك الذي فعل بهم واختار لهم المكان الموافق من عجائب الله ولطفه وكرمه ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي من يوفقه الله للهدى فهو المهتدي ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ أي: موفقاً يرشده إلى التوحيد قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر[1] (مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفِقاً) بنصب الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم ونصب الفاء (مِرْفَقاً) ومعناهما واحد وهوما يرتفق به وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[2] (تَزَّاوَرُ) بتشديد الزاي مع الألف لأن أصله تتزاور أي: تميل فأدغم وشدد الزاي وقرأ ابن عامر (تَزْوَرُّ) بجزم الزاي وتشديد الراء ومعنى ذلك كله واحد وهو الميل (ويجوز الرفع والنصب).

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ

(١) انظر حجة القراءات ٤١٢، النشر ٢/ ٣١٠.

(٢) انظر حجة القراءات ٤١٣، النشر ٢/ ٣١٠.

بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لأن عيونهم مفتحة ويقال: من كثرة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام كان يقلبهم في كل سنة مرة لكيلا تأكل الأرض لحومهم وهو قول ابن عباس وقال مجاهد(١): مكثوا ثلاثمائة عام على شق واحد وقلبوا في التسع سنين ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: مَاداً ذراعيه بفناء الباب ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ أي: لو هجمت عليهم اليوم لأدبرت فراراً من هيئتهم وروى سعيد بن جابر عن ابن عباس أنه قال: غزا معاوية غزوة نحو الروم فمروا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف لو كشفنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال ابن عباس قد منع الله ذلك عمن هو خير منك يعني: قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً) ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ فقال معاوية لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث ناساً فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف فلما ذهبوا ودخلوا بعث الله تعالى ريحاً فأخرجتهم ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُـمْ﴾ أي: أيقظناهم من نومهم جياعاً كما رقدوا ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليتحدثوا بينهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم مكثتم في نومكم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً﴾ فلما رأوا الشمس قد زالت قالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كانت دراهم أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل قرأ ابن كثير ونـافع(٢) (؛وَلَمُلِّئْتَ) بتشديد اللام وهي لغة لبعض العرب وقرأ الباقون(٣) بالتخفيف وهما لغتان وقرأ أبو عمرو وهمزة وعاصم في رواية أبي بكر بورقكم بجزم الراء وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ أي: أطيب خبزاً أو أحل ذبيحة وهذا قول ابن عباس ويقال: أي أهـلها أزكى طعاماً وقال عكرمة أي: أكثر وأرخص طعاماً ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي: بطعام مِنْهُ وَيُقَالُ: أَزْكَى طعاماً أي: لم يكن غصباً ولا من جهة لا تحل ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: وليرفق في الشراء ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحداً﴾ أي: لا يُعلمن بمكانكم أحداً من الناس ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يعني: إن يطلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: يقتلوكم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ أي: لن تفوزوا ولن تسعـدوا إذاً أبداً إن عبدتم غير الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يقول: أطلعنا الملك عليهم قال القتبي: وأصله في اللغة أن من عثر بشيء نظر إليه حتى يعرفه فاستعير العثار مكان التبين والظهور ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: البعث بعد الموت وذلك أن القوم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٦ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٤١٣، النشر ٢/٣١٠.

(٣) انظر النشر ٢/٣١٠، حجة القراءات ٤١٣.

كانوا مختلفين منهم من كان مقراً بالبعث ومنهم من كان جاحداً فلما ظهر حالهم عرفوا أن البعث حق وأنه كائن ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ يعني: إذ يختلفون فيما بينهم وقال بعضهم: اختلفوا فيما بينهم هو ما ذكر بعد هذا في عددهم وقال بعضهم: اختلفوا فقال المؤمنون فيما بينهم نبني مسجداً وقالت النصارى نبني كنيسة فغلب عليهم المسلمون وبنوا المسجد فذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً﴾ أي: مسجداً ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: عالم بهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ يعني: الذين كانوا على دين أصحاب الكهف وهم المؤمنون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ قال الزجاج: فيه دليل أنه ظهر أمرهم وغلب الذين أقروا بالبعث على غيرهم لأنهم اتخذوا مسجداً والمسجد يكون للمسلمين.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال بعضهم: اختلفوا في أمرهم في ذلك الوقت ويقال: هذا الاختلاف في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر الله تعالى نبيه أنه لو سأل أهل الكتاب يختلفون عليه فسألهم فاختلفوا وذلك أن أهل نجران السيد والعاقب ومن معهما قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان السيد صارماً يعقوبياً والعاقب نسطورياً وصنف منهم ملكانياً فسألهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عدة أصحاب الكهف فقال السيد وأصحابه ثلاثة رابعهم كلبهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: العاقب و صحابه ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ أي: ظناً بالغيب لا علم لهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: صنف منهم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا إخبار من الله أن عدتهم سبعة قال ابن[1] عباس وفي رواية أخرى أنه قال: أظن القوم كانوا ثلاثة قال واحد منهم كم لبثتم. فقال الثاني لبثنا يوماً أو بعض يوم فقال الثالث ربكم أعلم بما لبثتم وروي عن ابن عباس[2] أنه قال: إنهم سبعة وذكر أسماءهم فقال مكسلينا وهو أكبرهم وتمليخا ومطرونس وسارينوس ونوانس وكشطود وبيونس وبطنبور وليونس وذكر في رواية وهب أسماؤهم بخلاف هذا إلا تميلخا فقد اتفقوا على اسمه وقال ابن عباس: كان اسم الكلب قطمير وقال سعيد بن جبير: كان اسمه فرفدين ويقال: كان لونه خليج ويقال: كان لونه غلبة بالفارسية ومعناه بالعربية أبلق وقال بعض المحدثين إن كلب أهل الكهف يكون معهم في الجنة وقال بعضهم يصير تراباً مثل سائر الحيوانات وإنما الجنة للمؤمنين خاصة ثم قال عز وجل ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾ قال قتادة[3] فلا تُمار يقول: حسبك ما أعلمناك من خبرهم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي: لا تسأل عن أصحاب الكهف من النصارى أحداً ﴿وَلَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٧ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٧ وعزاه للطبراني في الأوسط.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: إلا أن تستثني فتقول: إن شاء الله **﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾** يعني: إذا نسيت الاستثناء فاذكرها بعد ما ذكرت واستثن وهذا في غير اليمين وأما في اليمين فاتفق الفقهاء من أهل الفتوى أن الاستثناء لا يكون موصولاً إلا رواية عن ابن عباس روى عنه مجاهد قال: يستثني الرجل في يمينه متى ذكر ثم قرأ (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وهذه الرواية غير مأخوذة وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (كَانَ لِسُلَيمَانَ بنِ دَاودَ مِائةُ إمْرأةٍ فَقَالَ لأَطُوفَنَّ اللَّيلَةَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعاً وَكُلُّ امْرَأَةٍ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِيْ سَبِيلِ اللَّهِ وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ تَأْتِ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ بِشَيْءٍ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ أَتَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَوُلِدَ لَهُ ذَلِكَ وَكَانَ دَرَكاً لَهُ فِيْ حَاجَتِهِ) ثم قال تعالى: **﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي﴾** أي: يرشدني **﴿لأَقْرَبَ﴾** أي: لأسرع **﴿مِنْ هَذَا﴾** الميعاد الذي وعدت لكم **﴿رَشَداً﴾** أي: صواباً وهذا قول مقاتل وقال الزجاج: معناه عسى ربي أن يعطيني من الآيات والدلائل على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل على قصة أصحاب الكهف قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (أَنْ يَهْدِيَنِيْ) بالياء عند الوصل وقرأ الباقون بحذف الياء.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

﴿وَلَبِثُوا فِي كهفهم ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] ثلاثَ مائةِ بكسر الهاء بغير تنوين على معنى الإضافة وقرأ الباقون بالتنوين **﴿لَهُ غَيْبُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾** أي: عالم بما لبثوا في رقودهم وقال الكلبي **﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾** أي: هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم **﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِي﴾** أي: أصحاب الكهف **﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحداً﴾** قرأ ابن عامر[2] ولا تشرك بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء ومعناه أنه قد جرى ذكر علمه وقدرته وأعلم أنه لا يشرك في حكمه أحداً كما قال: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبه أَحَداً إِلاَّ مَن ارْتَضَى) ومن قرأ بالتاء يقول لا تنسبن أحداً إلى عالم الغيب ومعناه أنه لا يجوز لأحد أن يحكم بين رجلين بغير حكم الله فيما حكم أو دل عليه حكم الله فليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه. **﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾** يقول: اقرأ عليهم الذي أنزل إليك **﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾** يعني: القرآن **﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾** يقول: لا مغير لنزول القرآن ولا خلف له ويقال: ولا ينقص منه ولا يزاد فيه **﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾** أي: لا ملجأ يمنعك منه ويقال ملتحداً أي مانعاً يمنعك ويقال: معدلاً وإنما سمي اللحد لحداً لأنه في ناحية ويقال: معناه: وإن زدت فيه أو نقصت منه لن تجد من عذابه ملجأ **﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾** يقول: واحبس نفسك **﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾** أي: يصلون لله تعالى

(١) انظر النشر ٢/٣١٠، حجة القراءات ٤١٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٤١٥، النشر ٢/٣١٠.

﴿بِالغَدَاة وَالعَشِيِّ﴾[1] يعني: الصلوات الخمس قال ابن عباس: نزلت الآية في سلمان وصهيب وعمار بن ياسر وخباب بن الأرت وعامر بن فهيرة ونحوهم من الفقراء قالوا بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس ذات يوم عنده سلمان على بساط منسق بالخوص أي منسوجاً إذ دخل عليه عيينة بن حصن الفزاري فجعل يدفعه بمرفقه وينحيه حتى أخرجه من البساط وكان على سلمان شملة قد عرق فيها فقال عيينة: إنَّ لنا شرفاً فإذا دخلنا عليك فأخرج هذا واضربه فوالله إنه ليؤذيني ريحه أما يؤذيك ريحه؟ فإذا خرجنا من عندك فأدخلهم وأذن لهم بالدخول إن بدا لك أن يدخلوا عليك أو اجعل لنا مجلساً (ولهم مجلساً) فنزل (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ. . .) إلى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يطلبون رضاه ﴿وَلَا تعد عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يتجاوزهم (إلى زينة الحياة الدنيا) ويقال: لا تحتقرهم ولا تزدريهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما قال عيينة بن حصن الفزاري وأمثاله ﴿وَلَا تطع مَن أَغْفَلْنَا قَلْبه عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: عن القرآن ﴿وَاتَّبع هَوَاهُ﴾ في عبادة الأصنام ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ أي: ضياعاً وقال السدي: هلاكاً قال أبو عبيدة: ندماً وقال القتبي: أصله من العجلة والسبق قال المفسرون: أي: سرفاً وقال الزجاج: تفريطاً وهو العجز.

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن يعني الذي أعطاكم به الحق من ربكم وهو قول (لا إله إلا الله يعني: ادعهم إلى الحق) ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: من شاء فليقل لا إله إلا الله ويقال: معناه: من شاء الله له بالإيمان آمن ومن شاء الله له الكفر كفر ويقال فمن شاء فليؤمن من لفظه لفظ المشيئة والمراد به الأمر يعني: آمنوا ومن شاء فليكفر لفظه لفظ المشيئة والمراد به الخبر ومعناه: ومن كفر ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالِمِينَ نَاراً﴾ يعني: للكافرين ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُها﴾ يعني: أن دخانها محيط بالكافرين قال الكلبي، ومقاتل: يخرج عنق من النار فيحيط بهم كالحظيرة ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهل﴾ أي: أسودَ غليظاً كرديء الزيت وهذا قول الكلبي والسدي وابن جبير وروى عكرمة عن ابن عباس[2] مثله ويقال: هو الصفر المذاب أو النحاس

---

(١) قرأ ابن عامر: ﴿بِالغُدْوَةِ والعَشِيِّ﴾ بضم الغين.

وقرأ الباقون بالفتح. وحجتهم: أن ﴿غداة﴾ نكرة تُعَرَّف بالألف واللام و ﴿غُدْوَة﴾ معرفة فلا يجوز دخول تعريف على تعريف كما لا يقال: مررت بالزيد.

وحجة ابن عامر هي أن العرب تدخل الألف واللام على المعرفة إذا جاورت ما فيه الألف ليزدوج الكلام كما قال الشاعر:

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا شديداً بأحناء الخلافة كاهلُهْ

انظر حجة القراءات ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢١ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

المذاب إذ بلغ غايته في الحر وروى الضحاك عن ابن مسعود[١]: أنه أذاب فضة من بيت المال ثم بعث إلى أهل المسجد وقال من أحب أن ينظر إلى المهل فلينظر إلى هذا وقال مجاهد: [٢] المهل القيح والدم الأسود كعكر الزيت ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ يعني: إذا هوى به إلى فيه أنضج وجهه ﴿بِئْسَ الشَّرابُ﴾ المهل ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفقاً﴾ يقول: بئس المنزل النار رفقاؤهم فيها الشياطين والكفار (وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً) أي: مجلساً وأصل الارتفاق الاتكاء على المرفق ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ أي: لا نبطل ثواب من أحسن عملاً في الآخرة ثم بين ثوابهم فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ العدن الإقامة ويقال: العدن بطنان الجنة وهي وسطها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس: ما لطف من الديباج والاسبرق ما ثخن من الديباج وقال القتبي: يقول قوم: هو فارس معرب أصله إستبرك وقال الزجاج في قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ): يجوز أن يكون خبره (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) كأنه يقول: إنا لا نضيع أجرهم ويحتمل أن يكون الجواب قوله: (اولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ) ويجوز أن يكون جوابه لم يذكر وقد بين ثواب من أحسن عملاً في موضع آخر وهو قوله (مِنْهُمْ مَغْفِرَة وَأَجْراً عَظِيماً) وقوله: (أَسَاوِرَ) جمع أسورة واحدها سوار والأسورة جمع الجمع ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأرائِكِ﴾ أي: على السرر في الحجال ولا يكون أريكة إلا إذا اجتمعا على والحجلة[٣] ﴿نِعْمَ الثَّوابُ﴾ الجنة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ أي: منزلاً في الجنة قرناؤهم الأنبياء والصالحون.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ أي: صف لأهل مكة صفة رجلين أخوين من بني مخزوم أحدهما مؤمن واسمه أبو مسلمة بن عبد الأسد والآخر كافر ويقال له: أسود بن عبد الأسد وهما من هذه الأمة وآخرين أيضاً من بني إسرائيل مؤمن وكافر فالمؤمن اسمه تمليخا ويقال: يهودا والكافر اسمه أبو قطروس هكذا روي عن ابن عباس ويقال: هذا المثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر به وروي عن ابن مسعود أنه قال: كانا مشركين من بني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر فاقتسما فأصاب كل واحد منهما أربعين ألف درهم وروي عن ابن عباس أنه قال كانا أخوين ورث كل واحد منهما من أبيه أربعة آلاف دينار فالكافر أنفق ماله في زينة الدنيا نحو شراء المنازل والخدم والحيوان وأنفق المؤمن ماله في طاعة الله تعالى وتصدق على الفقراء والمساكين وذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: بساتين قال السدي: [٤] كان بستاناً واحداً عليه جرار واحد وكان في وسطه نهر فلذلك قال جنتين لمكان النهر الذي بينهما وسماه جنة للمكان الدائر الذي عليه ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ يعني:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢١ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) الحجلة مثل القبة. وحجلة العروس: معروفة وهي بيت يزين بالثياب والأسرَّة والستور لسان العرب ٢/ ٧٨٧.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢٢ وعزاه لابن أبي حاتم.

الجنتين ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ أي: مزرعاً يقال: كان حول البستان نخيل وأشجار وداخل الأشجار كروم وداخل الكروم موضع الزرع والرطاب[١] ونحو طلك ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أعطت وأخرجت حملها وثمارها ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: لم تنقص من ثمر الجنتين شيئاً وقال الزجاج: كلتا الجنتين آتت لأن لفظ كلتا واحد والمعنى: أن كل واحدة منهما آتت أكلها يعني: أعطت (وَأَخْرَجَتْ حَمْلَهَا. وَثَمَرَتَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً) يعني: لم ينقص من ثمر الجنتين شيئاً ولو قال: أتت لكان جائزاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا﴾ أي: أجرينا وسطها ﴿نَهَراً﴾ والنهر بنصب الهاء والجزم بمعنى واحد في اللغة إلا أن قراءة النصب أصح ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو عمرو[٢] (ثمر) بضم الثاء وجزم الميم وقرأ الباقون غير عاصم بضم الثاء والميم ومعناهما واحد وقرأ عاصم بنصب الثاء والميم فمن قرأ بالنصب فهو ما يخرج من الشجر ومن قرأ بالضم فهو المال يقال: قد أثمر فلان مالاً ويقال: الثمر جمع ثمار ويقال: ثمرة وثمار وجمع الثمار ثمر ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ يعني: قال الكافر للمؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يفاخره ويراجعه وذلك أن أخاه احتاج فأتاه يسأله منه شيئاً فلم يعطه شيئاً وعاتبه بدفع ماله وذلك قوله تعالى: (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ يعني: وأكثر خدماً.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ وهو آخذ بيد أخيه المسلم ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالشرك فمن كفر بالله فهو ظالم نفسه لأنه أوجب لها العذاب الدائم ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ لأن أخاه المؤمن عرض عليه الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر فأجابه الكافر (فَقَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيْدَ هَذِهِ أَبَداً) يعني: لن تفنى هذه أبداً ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ أي: إن كان الأمر كما يقول ورجعت إلى ربي في الآخرة ﴿لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ في الآخرة أي: مرجعاً قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر[٣] (خَيْراً مِنْهُمَا) لأنها كناية عن الجنتين وقرأ الباقون (منها) لأنه كناية عن قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ أي: أخاه المسلم ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يكلمه ويعظه في الله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ يعني: خلقك

---

(١) الرطب، بالفتح: ضِدُّ اليابس. والرَّطبُ: الناعم. والرُّطب، بالضم ساكنة الطاء: الكَلأ. لسان العرب ٣/١٦٦٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٤١٦، النشر ٢/٣١٠.

(٣) انظر النشر ٢/٣١١، حجة القراءات ٤١٦.

معتدل قوله: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قرأ ابن عامر ونافع[١] في إحدى الروايتين (لَكِنَّا) بالألف وتشديد النون لأن أصله لكن أنا فأدغم فيه وقرأ الباقون لكن وفي مصحف الإمام[٢] (لَكِنْ أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) فهذا هو الأصل في اللغة ومعناه لكن أنا أقول هو الله ربي ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِي أَحداً وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ يقول فهلا إذ دخلت بستانك ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ﴾ يعني: بقوة الله أعطانيها لا بقوتي وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (مَنْ أُعْطِيَ خَيْراً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ لَمْ ير فِيهِ مَا يَكْرَهُ) ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ يعني إن رأيتني ﴿أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ في الدنيا ﴿فَعَسَى رَبِي أَنْ يُؤْتِينِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ هذه في الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: ناراً من السماء وهذا قول الكلبي أيضاً ومقاتل وقال القتبي: (حُسْبَاناً) أي: مرامي واحدها حسبانة وقال الزجاج: الحسبان أصله الحساب كقوله (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) أي: بحساب وهكذا قال هنا حسباناً أي: حساباً بما كسبت يداك وقال بعض أهل اللغة الحسبان في اللغة سهم فارق وهو ما يرقي به ثم قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ أي: فتصير تراباً أملس لا نبات فيها ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أي: غائراً يقال: غار ماؤها فلم يقدر عليه ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ أي: حِيْلَةً ﴿وَأُحيط بِثَمَرِهِ﴾ أي: فأهلك جميع ماله والاختلاف في الثمر كما ذكرنا ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيهِ﴾ أي: يصفق يده على الأخرى ندامة ﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ من المال ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة على سقوفها ﴿وَيَقُولُ﴾ في الآخرة ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحداً﴾ في الدنيا.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: جنداً وقوماً وأعواناً يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ أي: ممتنعاً هو بنفسه قرأ حمزة والكسائي[٣] (وَلَمْ يَكُنْ) بالياء بلفظ التذكير وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث وقال الزجاج: لو قال نصره لجاز وإنما ينصره على المعنى أي: أقواماً ينصرونه ﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي: عند ذلك وهو يوم القيامة يعني السلطان والحكم لله لا ينازعه أحد في ملكه يومئذ وهذا كقوله: (وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) فمن

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) وحجة من لم يثبت الألف في الوصل: قولك (أن قلت) محذوفة الألف فإذا وقفت عليها أثبتَّ الألف فقلت (أنا) وتحذف في الوصل في أجود اللغات نحو: (أن قمت) بغير ألف. ويجوز (أنا قمت) بإثبات الألف وهو ضعيف ومن قرأ ﴿لَكِنَّا﴾ بإثبات الألف في الوصل (ف) على لغة من قال (أنا قمت) قال الشاعر:

أنا شيخ العشيرة فاعرفوني حميداً قد تذرَّيْتُ السَّنَامَا

فكذلك (لكنا) تحذف الألف في الوصل وتثبتها في الوقف لأنهم زادوا الألف للوقف فإذا أدرجوا القراءة طرحوها لزوال السبب الذي من أجله زادوها ومن أثبت الألف في الوصل أجرى الوصل مجرى الوقف. قال الزجاج: إثبات الألف جيد لأن الهمزة قد حذفت من (أنا) فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة. انظر حجة القراءات ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٤١٨، النشر ٢/٣١١.

قرأ الحق بكسر القاف[1] جعله نعتاً لله ومن قرأ بالضم جعله نعتاً للولاية قرأ حمزة[2] ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ﴾ بكسر الواو وضم القاف وقرأ الباقون (الوِلَايَةِ لِلَّهِ الْحَقُّ) وقال بعضهم: الولاية بالكسر والنصب لغتان وقيل بالكسر مصدر الوالي يقال: والي بين الولاية وبالنصب مصدر الولي بين الولاية ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ أي: خير من أثاب العبد ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ أي: خير من أعقب قرأ حمزة وعاصم (عُقْباً) بجزم القاف[3] وقرأ الباقون بضم القاف ومعناهما واحد وهو العاقبة فبين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا وبين حالهما في الآخرة في سورة الصافات في قوله تعالى (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. . . .) إلى قوله (فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) ثم قال ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: للمشركين شبه ما في الدنيا من الزينة والزهرة ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: اختلط الماء بالنبات لأن الماء إذا دخل في الأرض ينبت به النبات فكأنه اختلط به ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وفي الآية مضمر ومعناه فاختلط الماء بنبات الأرض فنبت وحسن حتى إذا بلغ أرسل الله آفة فأيبسته فصار هشيماً أي: صار يابساً متكسراً بعد حسنه قال القتبي: وأَصْلُهُ من هشمت الشيء إذا كسرته ومنه سمي الرجل هاشماً (تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) أي: ذرته الرياح كالرماد ولم يبق منه شيء فكذلك الدنيا في فنائها وزوالها تهلك إذا جاءت الآخرة وما فيها من الزهرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ أي: قادراً من البعث وغيره قرأ حمزة والكسائي الريح بلفظ الوحدان وقرأ الباقون الرياح بلفظ الجماعة.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: غروراً لا يبقى كما لا يبقى الهشيم حين ذرته الريح وإنما يبقى في الآخرة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: الصلوات الخمس هكذا روي عن أبي الهيثم ومسروق وقال مسروق: الباقيات الصالحات هي الخمس صلوات وهي الحسنات يذهبن السيئات وكذلك قال ابن أبي مليكة وروى سفيان الثوري عن منصور[4] عن مجاهد[5] في قوله: (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه (خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ وَقَالَ خُذُوا جُنَّتَكُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ عَدُوه حضَرَ قَالَ لَا بَلْ مِنَ النَّارِ قَالُوا وَمَا جُنَّتُنَا مِنَ النَّارِ قَال سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ) ويقال: كل طاعة يبقى ثوابها فهي الباقيات الصالحات الصلاة والصدقة والتسبيح وجميع الطاعات ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ أي: خير من هذه الزينة والغرور عند الله تعالى وخير ما يثبت الله العبد وخير أملاً أي خير ما يوصل العبد الصلاة والتسبيح أي أفضل رجاء مما يرجو الكافر لأن ثواب الكافر النار ومرجعه إلى النار ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي برفع القاف وقرأ الباقون بخفضها انظر النشر في ٢/٣١١، وحجة القراءات ٤١٩.

(٢) والكسائي أيضاً انظر حجة القراءات ٤١٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٤١٩.

(٤) منصور بن أحمد بن إبراهيم ويقال: ابن محمد أبو نصر العراقي أستاذ كبير محقق، مؤلف، شيخ خراسان. أنظر غاية النهاية ٢/٣١١.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٤ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه.

﴿الْجِبَالَ﴾ أي: نزيلها عن وجه الأرض ونسيرها كما نسير السحاب كقوله: (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) **﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾** أي: ظاهرة من تحت الجبال ويقال بارزة أي خالية مما فيها من الكنوز والأموات كما قال (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخلتْ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[1] (وَيَوْمَ تُسَيَّرُ الْجِبَالُ) بالتاء مع الضمة ونصب الياء وضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون نسير بالنون ونصب اللام كما قال: **﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾** أي: لم نترك منهم أحداً ولا نخلف منهم أحداً **﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً﴾** يقول: جميعاً كقوله: (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا) أي: جميعاً يقول الله تعالى ذكره: **﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾** فرادى: عراة حفاة **﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** بلا أهل ولا مال **﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾** أي: قد قلتم في الدنيا **﴿أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾** أي: لن نبعثكم في الآخرة.

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: وضع كتاب كل امرىء منهم بيمينه أو بشماله **﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾** أي: المشركين والمنافقين والعاصين **﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾** أي: خائفين مما في الكتاب من الإحصاء **﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيلتنا﴾** يا ندامتنا **﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾** يعني: الزلل والكبائر ويقال تبسماً وضحكاً **﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾** يقول: حفظها عليهم **﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾** في الكتاب **﴿حَاضِراً﴾** من خير أو شر مكتوباً **﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾** أي: لا ينقص من ثواب أعمالهم ولا يزيد في سيآتهم **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾** الذين كانوا في الأرض مع إبليس **﴿اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾** قال بعضهم: كان أصله من الجن فلحق بالملائكة وجعل يتعبد معهم وقال مقاتل: كان من الجن وهو جنس من الملائكة يقال لهم: الجن روي عن ابن عباس[2] أنه كان من الملائكة الذين هم خزان الجنان ويقال كان من الجن أي صار من الجن كقوله (فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) **﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾** أي: تعظم من طاعة ربه وخرج عن طريق ربه يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها **﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾** أفتطيعونه وتتركون أمر الله **﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾** أي: أعداء كقوله (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» **﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾** أي: بئس ما استبدلوا عبادة الشيطان بعبادة الله ويقال: بئس ما استبدلوا بولاية الله تعالى ولاية الشيطان.

مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ

(١) انظر حجة القراءات ٤١٩، النشر ٣١١/٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٢٧/٤ وعزاه لابن جرير.

لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

ثم قال: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما استعنت بهم على خلق السموات والأرض يعني إبليس وذريته ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ولا استعنت بهم على خلق ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ أي ما كنت أتخذ الذين يضلون الناس عرفاً يعني: الشياطين ﴿عَضُداً وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ أي: لعباد الأوثان وهو يوم القيامة نادوا شركائي أي: ادعوا آلهتكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم لي شركاء ليمنعوكم مني من عذابي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ يعني الآلهة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لهم﴾ أي: لم يجيبوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾ قال مجاهد[1]: وادٍ في جهنم وهكذا قال مقاتل وقال القتبي: أي: مهلكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم ومنه يقال أوبقته ذنوبه ويقال موعداً وقال الزجاج: وجعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم أي وجعلنا بينهم وبين شركائهم الذين أضلوهم موبقاً أي مهلكاً. قرأ حمزة ويوم (نَقُولُ)[2] بالنون وقرأ الباقون بالياء ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي: رآها المشركون من مكان بعيد ﴿فَظَنُّوا﴾ أي: علموا واستيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أي: داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ أي: معدلاً ولا ملجأً ولا مفراً يرجعون إليه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بينا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل وجه ونوع ليتعظوا فلم يتعظوا ويقال: بينا من كل وجه يحتاجون إليه ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ من أمر الباطل يعني من أمر البعث مثل أبي بن خلف وأصحابه قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن محمد الصاعد قال: حدثنا العباس بن محمد الدوري قال: حدثنا محمد بن بشر قال للحجاج بن دينار: قال عن أبي غالب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) والدليل على أن الإنسان أراد به الكافر ما قال في سياق الآية (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ . . .» الآية ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ يقول: لم يمنع المشركون أن يصدقوا ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ يعني: الرسول والكتاب والدلائل والحجج قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: وما منعهم من الاستغفار والرجوع عن شركهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عذاب الأمم الخالية ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أي: عياناً بالسيف قرأ عاصم وحمزة والكسائي[3] (قُبُلًا) بضم القاف والباء وقرأ الباقون بكسر القاف ونصب الباء فمن قرأ بالضم فهو بمعنى فعل من قبل أي مما يقابلهم ويجوز أن يكون جمع قبيل هو أن يأتيهم العذاب أنواعاً ومن قرأ بالكسر معناه:عياناً ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: للمؤمنين بالجنة ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ أي: للكافرين بالنار ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي: يخاصموا بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي: ليزيلوا ويذهبوا به ﴿الْحَقَّ﴾ ومنه يقال: (حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ إذا زالت عن الحجة وقال مقاتل: ليدحضوا به أي: ليبطلوا به الحق يعني القرآن والإسلام يعني يريدون أن يفعلوا إن قدروا عليه ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾ أي: وما خوفوا به ﴿هُزُواً﴾ أي: سخرية.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٨ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٢٠ النشر ٢/٣١١.
(٣) انظر حجة القراءات ٤٢٠، النشر ٢/٣١١.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: فلا أحد أظلم ويقال: أشد في كفره ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: وعظ بالقرآن ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يقول فكذب بها ولم يؤمن بها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: نسي ذنوبه التي أسلفها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي جعلنا أعمالهم على قلوبهم أكنة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لكيلا يعرفوه ولا يفهموه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ أي: صمماً وثقلاً مجازاة لكفرهم ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ أي: إلى الإسلام ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ أي: لن يؤمنوا ﴿إِذاً أَبداً وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ أي: المتجاوز إن رجعوا ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: بتأخير العذاب عنهم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: لو يعاقبهم بكفرهم ﴿لَعَجَّلَ لَهم الْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ أي: أجلاً ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ أي: ملجأ يلجأون إليه ولا منجا منه ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ أي: أهلها يعني ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعني: القرون الماضية حين أقاموا وثبتوا على كفرهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾ أي: لهلاكهم أجلاً يهلكون فيه قرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] (لمَهلَكهم) بنصب الميم واللام وقرأ عاصم في رواية حفص بنصب الميم وكسر اللام وقرأ الباقون بضم الميم ونصب اللام ومعنى ذلك كله واحد قال الزجاج: يكون للمصدر ويجوز للوقت وإن كان مصدراً فمعناه: جعلنا لوقت هلاكهم أجلاً[2].

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ أي: لتلميذه وهو يوشع بن نون وقال أهل الكتاب إنما هو موسى بن إفراتيم ابن يوسف بن يعقوب وذكر عن القتبي أنه قال: زعم أهل التوراة أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وقال عامة المفسرين: هو موسى بن عمران الذي هو أخي هارون قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٢١، النشر ٢/٣١١.

(٢) ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول قال الزجاج: (مَهْلِك) اسم للزمان على (هَلَك يهلِك) وهذا زمن مَهْلِكه مثل جلس يجلس. فإذا أردت المصدر قلت (مَهْلَك) بفتح اللام كقولك مَجْلَس فإذا أردت المكانَ قلت: (مَجْلِس) بكسر اللام).

حكى سيبويه عن العرب أنهم يقولون: (أتت الناقة على مضرِبها) أي على وقت ضِرابها. انظر حجة القراءات ٤٢١.

أبو العباس قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا أبو المغيرة[1] قال: حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عبيد الله بن منبه أن ابن عباس تمارى هو وقيس وجبر بن قيس الفزاري في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إليه قال ابن عباس هو الخضر إذ مر أبي بن كعب فناداه ابن عباس فقال تماريت أنا وهذا في صاحب موسى فقال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (بينا موسى في ملأ بني إسرائيل إذ قام إليه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك فقال لا فأوحى الله إليه بل عبدي الخضر فسأل موسى السبيل إلى لقائه فجعل الله له الحوت آية فقال إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه فكان من شأنهما ما قص الله تعالى في القرآن وروى سعيد بن جبير[2] قال: قلت لابن عباس: إن نوف البكالي زعم أن موسى نبي بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر فقال ابن عباس كذب عدو الله أخبرنا أبي بن كعب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (قام موسى خطيباً في بني إسرائيل وذكر نحو الحديث الأول وروى أسباط عن السدي قال بلغنا أن موسى بن عمران نبي الله خطب خطبة فأبلغ فيها فدخله بعض العجب وتعجبت بنو إسرائيل لبلاغته فقالوا يا نبي الله هل تعلم أحداً أبلغ منك فأوحى الله تعالى إليه أن لي عبداً في الأرض هو أعلم منك قال فاطلبه قال وما علامته قال: تنطلق معك بزاد فإذا تعبت في سفرك أي أعييت وفقدت زادك فعند ذلك تلقاه فانطلق موسى وفتاه يوشع بن نون وحملا معهما خبزاً وحوتاً فذلك قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ) قال الكلبي: وإنما سماه موسى فتىً لأنه كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه وكان يوشع من أشراف بني إسرائيل وهو الذي استخلفه موسى على بني إسرائيل وقال مقاتل: كان فتاه يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى من سبط يوسف ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي: بحر الملح وهو بحر فارس وبحر الروم والبحر العذب وقد قيل: معناه: آتي الموضع الذي يجتمع فيه بين العالمين يعني: موسى والخضر وهما بحران في العلم والتفسير الأول أصح لأنه ذكر بعد هذا حديث البحر ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي: زماناً ودهراً وقال الكلبي: الحقب الواحد ثمانون سنة ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: موسى ويوشع بن نون مجمع البحرين جلسا على شاطىء البحر فأصاب من طعامهما ونام موسى وجعل يوشع يتوضأ من عين على شاطىء البحر فانتضح من ذلك الماء على الحوت المالح فحيي فعاش الحوت وكانت تلك العين عين الحياة لا تصيب شيئاً إلا عاش فوثب الحوت في الماء فجعل الحوت يضرب بذنبه في الماء فلا يضرب في ذنبه في الماء إلا ينسى فأراد يوشع أن يخبر موسى بذلك فلما استيقظ موسى نسي يوشع أن يخبر موسى فذلك قوله ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ يعني: أن يوشع نسي أن يخبر موسى عن خبر الحوت ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ قال الفراء: أي أخذ طريقه يبساً وقال القتبي: اتخذ طريقه في البحر مذهباً ومسلكاً فذهبا عن ذلك الموضع في غدوتهما حتى أصابهما التعب ولم ينصب موسى في سفره وحتى كان يومئذ فنصب فقال لفتاه يوشع قوله ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ يوشع ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: مشقة وتعباً ﴿قَالَ﴾ يوشع لموسى ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي حين نزلنا عند الصخرة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ يقول: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك وأمره ﴿واتَّخَذَ سبيلَهُ في

---

(١) عبد القدوس بن الحجاج الخولاني أبو المغيرة الحمصي روى عن جرير بن عثمان وصفوان بن عمر وخلق انظر التهذيب ٦/٣٦٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٩ وعزاه للبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والحديث عند البخاري في العلم باب ما ذكر في ذهاب موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ في البحر إلى الخضر (٧٤)، (٧٨)، (١٢٢، ٢٢٦٧، ٢٧٢٨، ٣٢٧٨، ٣٤٠٠، ٣٤٠١، (٤٧٢٥)، (٤٧٢٦، ٤٧٢٧، ٦٦٧٢) (٧٤٧٨) ومسلم في الفضائل (١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤/٢٣٨٠) والترمذي في التفسير (٣١٤٩) وقال حسن صحيح والنسائي ١٢/٢.

﴿الْبَحْرِ﴾ أي طريقه ﴿عَجَباً﴾ قال بعضهم: (عَجَباً) هو من كلام موسى وقال بعضهم: من كلام يوشع قال عجباً وذلك أن يوشع لما أخبره فقال موسى عجباً فكأنه من أعجب عجباً وقال بعضهم: هو كلام يوشع (قَالَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِيْ الْبَحْرِ عَجَباً) وذلك حين يبس له الماء وأثره في الماء ﴿قال﴾ موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي نطلب من حاجتنا ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ يقتصان أثر طريقهما من جاء فيه وإنما سمي قاصاً لأنه يقص الأثر الأمم ومعناه أنهما رجعا في الطريق الذي سلكاه فلما انتهيا إلى الصخرة حيث قام الحوت أراه يوشع مكان الحوت وأثره في الماء فعجب موسى من أثره فأبصر رجلاً عند الصخرة قائماً يصلي وعليه مدرعة صوف وكساء صوف فلما فرغ من صلاته قال موسى: السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل قال: ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل قال: أخبرني الذي أخبرك بمكاني فذلك قوله ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: أعطيناه النبوة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ أي: علم بعض الكوائن روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قصة الخضر في بعض الأخبار فقال كان ابن ملك من الملوك فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده فلم يقبل وهرب منه ولحق بجزائر البحر فطلبه أبوه فلم يقدر عليه.

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ أي: هدىً وصواباً قرأ أبو عمرو وابن عامر[٢] رَشَداً بالنصب وقرأ الباقون بالضم عن عاصم ونافع ومعناهما واحد فقال له الخضر إن لك فيما في التوراة كفاية من طلب العلم في بني إسرائيل وفضل أنت سترى مني أشياء تنكرها ولا ينبغي للرجل الصالح أن يرى شيئاً منكر لا يغيره فذلك قوله تعالى: ﴿قَال إنك لَنْ تَسْتَطِيعَ معِي صَبْراً﴾ يعني: إنك ترى من أشياء لا تصبر عليها ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ أي: ما لم تعلم به علماً ويقال: معناه: كيف تصبر على ما ظاهره منكر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِيْ لَكَ أَمراً﴾ أي: لا أترك أمرك فيما أمرتني ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿فإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ أي: صحبتني ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ فعلت ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي: حتى أخبرك منه خبراً يعني: إن أنكرته فلا تعجل علي بالمسألة فأمر موسى يوشع أن يرجع إلى بني إسرائيل وأقام موسى

(١) قرأ حفص عن عاصم: (وما أنسانيهُ) بضم الهاء على أصل الكملة وأصلها الضم وإنما عدل عن كسر الهاء إلى الضم لما رأى الكسرات من (أنسانيهِ) وكانت الهاء أصلها الضم رأى العدول إلى الضم ليكون أخف على اللسان من الاستمرار على الكسرات، ومن كسر فلمجاورة الياء كما تقول (فيهِ عليه).

قرأ الكسائي: (أنسانيه) بإمالة الألف وإنما أمال لأن الألف مبدلة من ياء وبعد الألف كسرة والعرب تميل كل ألف بعدها كسرة نحو (عابد وعالِم). انظر حجة القراءات ٤٢٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٢٢، والنشر ٢/٣١١ وفي الحجة قرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين.

مع الخضر قرأ نافع[1] (فَلَا تَسْأَلَنِّي) بتشديد النون مع إثبات الياء والتقدير للتأكيد للنهي وقرأ ابن عامر (فَلَا تَسْأَلَنِّ) بتشديد النون بغير ياء لأن الكسرة تدل عليه وقرأ الباقون (فَلَا تَسْأَلْنِيْ) بالتخفيف وإثبات الياء وقرأ بعضهم بالتخفيف بغيره ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يعني: موسى والخضر وذلك أن موسى رد يوشع إلى بني إسرائيل وذهب موسى مع الخضر ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ وذلك أنهما لما أتيا السفينة قال أهل السفينة: لا يدخل علينا هذان الرجلان فإنا لا نعرفهما ونخاف على متاعنا منهما فقال الملاح بل سيماهما سيما الزهاد فحملهما في السفينة بغير نول أي مجاناً فأخذ الخضر فأساً لما ركب السفينة وجعل يثقب السفينة ويخرقها فقال أهل السفينة الله الله لا تخرق سفينتنا فتغرق فقال موسى حملنا بغير نول وتخرق السفينة وتغرق أهلها فذلك قوله (حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِيْ السَّفِينَةِ ﴿خَرَقَهَا﴾ أي: ثقبها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي[2] ليغرق بالياء والنصب، (أهلها) بضم اللام[3] وقرأ الباقون بالتاء والضم وكسر الراء والنصب في اللام فمن قرأ برفع التاء فالأهل هو المفعول ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ أي: منكراً شديداً قال القتبي: ﴿إِمْراً﴾ أي داهية وكذلك (نُكْراً) إلا أن النكر أشد استعظاماً بالعين وإنكاراً بالقلب.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: قال له موسى: يا عبد الله إنه لا يحل لك أن تخرق سفينة القوم فتغرقهم فلم يكلمه الخضر وجعل يخرق السفينة حتى خرقها فتنحى موسى وجلس فقال وما كنت أمنع أن أتبع هذا الرجل يظلم هؤلاء القوم وقد كنت في بني إسرائيل أقرأ عليهم كتاب الله غدوة وعشية ويقبلون مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم فقال الخضر يا موسى أتدري ما حدثت به نفسك فقال موسى ما هو قال الخضر قلت كنت في بني إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية يقبلونه مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم قال له ألم أقل لك إنك لا تستطيع معي صبراً قال فجاء عصفور فوقع على جانب السفينة فنقر من البحر نقرة من الماء ثم طار فقال الخضر والله ما ذهبت أنا وأنت من العلم في علم الله تعالى إلا مثل ما يغرف هذا العصفور من الماء من هذا البحر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بما تركت من وصيتي وقال ابن عباس هذا من معاريض الكلام لأن موسى لم ينس ولكن قال لا تؤاخذني بما نسيت يقول إذا كان مني نسيان فلا تؤاخذني به ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ يعني لا تكلفني من أمري شدة ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي: خرجا من السفينة ومضيا ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً﴾ قال الكلبي: كان اسمه خشنوذ وقال غيره كان اسمه خربث بن كاذري فقتله أي أخذ برأسه قرعة قال ابن عباس في رواية أبي صالح كان رجلاً إلا أنه لم يهتك[4] بعد وكان كافراً يقطع الطريق وقال سعيد بن جبير في رواية ابن عباس كان صبياً غير مدرك فمر بغلمان يلعبون فأخذ برأس غلام منهم فقطعه وقال في بعض الروايات خنقه فذلك قوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ وروي أن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس أن النبي نهي عن قتل الصبيان في دار العرب وأن صاحب موسى قد قتل صبياً فكتب إليه ابن عباس إنك لو

---

(١) وابن عامر كذلك. انظر حجة القراءات ٤٢٣.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٤٣، النشر ٢/٣١٣.

(٣) جعلا الفعل لهم كأنه قال: أخرقت السفينة لترسو في البحر فيغرق في أهلها.

(٤) الهَتْكُ: خَرقُ الستر عما وراءه والاسمُ الهتكةُ، بالضمِّ. والهتيكة: الفَضيحةُ. لسان العرب ٤٦١٢/٦.

علمت من الصبيان ما علم صاحب موسى جاز لك أن تقتله ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: طاهرة بغير ذنب ويقال زكية لم تجن عليك بغير نفس يقول بغير دم وجب عليها قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[١] (زَاكِيَةً) بالألف وقرأ الباقون بغير ألف ومعناهما واحد مثل قاسية وقسية وقال القتبي الزكية المطهرة التي لم تذنب قط[٢] ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾[٣] أي: منكراً أي أمراً فظيعاً قال القتبي إنما قال ها هنا نكراً لأن قتل النفس أشد استعظاماً من خرق السفينة وقال الزجاج: نكراً أقل من إمراً لأن إغراقه من في السفينة كان أعظم عنده من قتل النفس الواحدة.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ وقد زاد هنا لك للتأكيد قيل: لأنه قد سبق منه الزجر مرة ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ يعني: ان طلبت صحبتك فلا تبايعني وقد قرىء فلا تصحبني أبداً ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ يقول: قد أعذرت فيما بيني وبينك في الصحبة ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: وهي أنطاكية ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي: استضافا قال بعضهم: سألاهم وقال بعضهم: لم يسألاهم ولكن كان نزولهما بين ظهرانيهم بمنزلة السؤال منهما ﴿فَأَبَوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ يعني: لم يطعموهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً﴾ يعني: في تلك القرية ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ وهذا كلام مجاز لأن الجدار لا يكون له إرادة ومعناه كاد أن يسقط ﴿فَأَقَامَهُ﴾ يعني: سواه الخضر ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيهِ أَجْراً﴾ أي: جعلاً خبزاً تأكله قرأ ابن كثير وأبو عمرو[٤] لتخذت بغير ألف وكسر الخاء والباقون لاتخذت ومعناهما واحد وقرأ نافع (مِنْ لَدُنِي) بنصب اللام وضم الدال وتخفيف النون وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو[٥] من لدنّي بتشديد النون وهي اللغة المعروفة والأول لغة لبعض العرب واختلف الروايات عن عاصم ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٢٤، النشر ٣١٣/٢.

(٢) قال أبو عمرو (الزاكية: التي لم تذنب قط، والزكيّة التي أذنبت ثم غفر لها. وإنما قتل الخضر صغيراً لم يبلغ الحِنث). وقال آخرون: زاكية أي طاهرة وقال قتادة: (نامية وزكيّة: تقيّة ديِّنة) وقال الحسن: (بريئة) وقال آخرون منهم الكسائي: (هما لغتان مثل: عالم وعليم، وسامع وسميع إلا أن (فعيلا أبلغ في الوصف والمدح من (فاعل). ويقوي التشديد قوله: (غلاماً زكياً). انظر حجة القراءات ٤٢٤.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (نُكُرا) بضم الكاف في جميع القرآن. وقرأ إسماعيل عن نافع: (نُكْرا) ساكنة الكاف وبه قرأ الآخرون. وهما لغتان مثل الرُّعْب والرُّعُب والسُّفْل والسُّفُل، انظر حجة القراءات ٤٢٤.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٢٥. والنشر ٣١٤/٢.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٢٤، والنشر ٣١٤/٢.

وَبَيْنِكَ﴾ أي: هذا شرط الفراق بيني وبينك وأنت حكمت على نفسك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي تعلم ما رأيتني أصنع فأنكرت لتغرق أهلها وتأويله ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ويكسبون قوتهم ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها معيبة ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ أي: أمامهم ملك روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ وكان أمامهم ملك ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ وكان ابن عباس يقرأ أيضاً كل سفينة صالحة غصباً أي: كل سفينة بغير عيب. وكان اسم الملك جلنذا يعني: أنها لو كانت بغير عيب أخذها الملك فإذا كانت مع العيب تبقى للمساكين قال الفقيه أبو الليث: فيه دليل أن للوصي أن ينقض مال اليتيم إذا رأى فيه صلاحاً وهو أنه لو كانت له دار نفيسة فخاف أن يطمع فيها بعض السلاطين فأراد أن يخرب بعضها ليبقيها لليتيم جاز وروي عن أبي يوسف أنه كان يجيز مصانعة الوصي في مال اليتيم وهو يدفع من ماله شيئاً إلى السلطان. ليدفعه عن بقية ماله.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أي يقول يكلفهما ﴿طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ يقول تمادياً وإثماً ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ قرأ نافع وأبو عمرو[1] يبدّلهما بتشديد الدال[2] وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناهما واحد يقال: بدل وأبدل بمعنى واحد أي: يعطيهما ولداً غير هذا الولد ﴿رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ﴾ أي أفضل ﴿زَكَاةً﴾ أي: ولداً صالحاً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾[3] أي: أوصل رحماً ويقال رحماً ويقال أقرب رحمة وعطفاً عليهما قال الكلبي: فولدت امرأته جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فهدى الله على يده أمة من الأمم ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامين يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أحدهما أصرم والآخر صريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال الكلبي: أي مالا لهما وقال مقاتل ومجاهد: كل شيء في القرآن من كنز فهو مال غير هنا فإنه الصحف التي فيها علم وقال الضحاك كنز لهما أي: علم لهما قال الفقيه: حدثني أبي بإسناده عن أنس بن مالك قال. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجد تحت الجدار الذي قال الله تعالى (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) لوح من ذهب والذهب لا يصدأ ولا ينقص مكتوب فيه (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) عجبت لن يوقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يوقن بزوال الدنيا وتقلبها

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٢٧، النشر ٢/٣١٤.

(٢) وحجة التشديد قوله: ﴿وإذا بدّلْنا آية﴾ وقال: (لا تبْدِيلَ لكلماتِ الله) ولم يقل (لا إبدال). وحجة التخفيف قوله: (وإن أردْتم استبدالَ زوج) فهذا قد يكون بمعنى الإبدال كما أن قوله:

فلمْ يتسجبْه عند ذاك مجيبُ

بمعنى لم يجبه. انظر حجة القراءات ٤٢٧.

(٣) قرأ ابن عامر: (وأقْرب رُحُماً) بضم الحاء وحجته قول الشاعر:

وكيف بظلم جارية ومنها اللّينُ والرُحُمُ

وقرأ الباقون رُحْماً وهما لغتان مثل (الرُّعْب والرُعُب). انظر حجة القراءات ٤٢٧.

بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله روي عن ابن عباس أنه قال كان في اللوح خمس كلمات وذكر نحوه قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ ذا أمانة واسمه كاشح فحفظا بصلاح أبيها ولم يذكر منهما صلاحاً روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل أهله وولده وأهل دويرته وأهل الدويرات حوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُما﴾ أي يبلغا مبلغ الرجال ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: نعمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: من قبل نفسي ولكن الله أمرني به ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: تفسير ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ تستطع وتسطع بمعنى واحد يقال اسطاع واستطاع قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا الخليل بن أحمد حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد الدوري قال: حدثنا الحجاج الأعور قال: حدثنا حمزة الزيات عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب (قال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه وقال رحمة الله علينا وعلى موسى فلو كان صبر لقص الله علينا من خبرهما) وفي رواية أخرى (لقص الله علينا من خبرهما العجائب فلما أراد موسى أن يرجع قال للخضر أوصني فقال له الخضر إياك واللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران قال مجاهد: إنما سمي الخضر خضراً لأنه لا يكون بأرض إلا اخضرت.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ وكان اسمه اسكندر وروي عن وهب بن منبه أنه قيل له لم سمي ذا القرنين فقال اختلف فيه أهل الكتاب فقال بعضهم لأنه ملك الروم وفارس وقال بعضهم لأنه كان في رأسه شبه القرنين وقال بعضهم: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها فسماه الملك الذي عند قاف ذا القرنين ويقال: رأى في المنام أنه دنى من الشمس وأخذ منها فقص رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين وقال الزجاج: سمي ذا القرنين لأنه كان له ظفيرتان وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال ضرب على قرني رأسه وقيل: لأنه بلغ قطر الأرض وقال عكرمة: كان ذو القرنين نبياً ولقمان نبياً والخضر نبياً وروى مجاهد عن عبد الله بن عمرو ابن العاص كان ذو القرنين نبياً وروي عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال: كان رجلاً صالحاً ولقمان كان رجلاً حكيماً وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن ذي القرنين فقال هو ملك يسبح في الأرض وقال مجاهد: ملك الأرض أربعة اثنان مؤمنان واثنان كافران أما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين وأما الكافران فالنمرود بن كنعان وبختنصر قال تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي خبراً وعلماً من الله تعالى ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكناه وأعطيناه ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ أي: علماً ويقال أعطيناه علم الوصول إلى كل شيء يحتاج إليه من الحروف وغيرها ويقال علماً بالطريق ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي أخذ طريقاً فسار إلى المغرب ﴿حَتَّى إذا بَلَغ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[1] حامئة بالألف وقرأ الباقون حمئة بغير ألف فمن قرأ حامئة يعني جائرة ومن قرأ بغير ألف يعني: من طينة سوداء

(١) انظر حجة القراءات ٤٢٨، النشر ٢/٣١٤.

منتنة وروي أن معاوية قرأ في عين حامئة فقال ابن عباس[١] ما نقرؤها إلا حمئة فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها فقال كما قرأتها قال ابن عباس في بيتي نزل القرآن فبعث معاوية إلى كعب يسأله أين تجد الشمس تغرب في التوراة قال في ماء وطين وقال في مذرة[٢] سوداء قال القتبي حمئة ذات حمات والحامية حارة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[٣] فاتبع بتشديد التاء وكذلك ما بعده وقرأ الباقون فاتبع بنصب الألف وجزم التاء بغير تشديد ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ أي: عند العين التي تغرب فيها الشمس مؤمنين وكافرين فظهر عليهم ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ قال مقاتل: أوصى الله تعالى إليه وقال ابن عباس: ألهمه الله تعالى ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ يعني: أن تقتل من كان كافراً ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ يعني: تنعم عليهم وتغفر لمن كان مؤمناً وقال بعضهم: كانوا كلهم كفاراً قيل له إما أن تعذب من لم يؤمن وإما أن تتخذ فيهم حسناً لمن آمن.

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: كفر بالله ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: نقتله إن لم يتب ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ في النار ﴿عَذَاباً نُكْراً﴾ يقول: شديداً ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ صدق بالله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٤] جزاء بنصب الألف والتنوين وقرأ الباقون بضم الألف بغير تنوين. فمن قرأ بالنصب فمعناه أن له الحسنى جزاء صار الجزاء نصباً للحال ومن قرأ بالضم جزاءُ للإضافة بغير جزاء إحسان ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ أي: سنعد له في الدنيا معروفاً عدة ويقال وسنقول له قولاً جميلاً ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي: أخذ طريقاً وقال القتبي: السبب أصله الحبل ثم كل شيء توصلت به إلى موضع أو حاجة فهو سبب تقول فلان سببي إليك أي: وصلتي وتسمى الطريق سبباً لأنه يصل إلى الموضع الذي يريده ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ أي: لم يكن لهم من دون الشمس شيء يظلهم لا شجر ولا جبل ولا ثوب إلا عراة عماة عن الخلق وكانوا في مكان لا تستقر عليه البناء وقال قتادة:[٥] يقال: إنهم الزنج وكانوا في مكان لا ينبت فيه نبات وكانوا يدخلون سرباً إذا طلعت الشمس حتى تزول عنهم ويخرجون في معايشهم ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا بلغ مطلع الشمس أيضاً كما بلغ مغربها ثم استأنف فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ أي: بما عنده علماً وهذا قول مقاتل كذلك أي كما أخبرتك بهذا الخبر كذلك كان علمنا محيطاً به قبل ذلك ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي: أخذ طريقاً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي: بين الجبلين قرأ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٤٨ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) مذر: مذرت البيضة مَذَراً فهي مذرة: فسدت، وامرأة مَذِرَة: قَذِرةٌ. لسان العرب ٦/٤١٦٣.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٢٨، النشر ٢/٣١٤.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٣٠، النشر ٢/٣١٥.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٤٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم.

نافع وعاصم في رواية أبي بكر السدين بضم السين وكذلك الثاني والذي في سورة يس وروى حفص عن عاصم أنه نصب كله وابن كثير وأبو عمرو نصبا هاهنا ورفعا في يس وحمزة والكسائي رفعا[١] بين السدين ونصبا ما سوى ذلك وقال بعض أهل اللغة[٢]: ما كان مسدوداً خلقه فهو سد بالنصب وما كان يعمل الناس فهو سد بالضم[٣] وروي عن ابن عباس ومجاهد وقيل: إن المراد هاهنا طرفا الجبل ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من قبل الجبلين ﴿قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ أي: كلاماً غير كلامهم ولساناً غير لسانهم قرأ حمزة والكسائي[٤] يفقهون بضم الياء وكسر القاف يعني أن كلامهم لا يفهمه أحد غيرهم وقرأ الباقون يفقهون بالنصب يعني أنهم لا يفقهون قول غيرهم.

قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

﴿قَالُوا يَاذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: يخرجون إلى أرضنا ويأكلون رطبنا ويحملون يابسنا ويقتلون أولادنا وكان يأجوج رجلاً ومأجوج رجلاً وكان أخوين من بني يافث بن نوح فكثر نسلهما فنسب إليهما ويقال سمي يأجوج ومأجوج لكثرتهم وازدحامهم لأنهم يموجون بعضهم في بعض ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ قرأ عاصم[٥] يأجوج ومأجوج بهمز الألف وقرأ الباقون بغير همز وقرأ حمزة والكسائي[٦] خراجاً بالألف وقرأ الباقون خرجاً بغير ألف ويقال الخراج هو الضريبة والخرج هو الجعل ويقال: أحدهما إسم والآخر مصدر ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَداً﴾ أي: حاجزاً فـ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ قرأ ابن كثير[٧] ما مكنني بنونين وهو الأصل في اللغة وقرأ الباقون مكني فأدغم إحدى النونين في الأخرى وأقيم التشديد مقامه أي ما ملكني وأعطاني فيه ربي من القوة والمال خير من جعلكم في الدنيا ويقال ما يعطيني الله تعالى في الأخرى من ثواب خير

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٣١، النشر ٢/٣١٥.

(٢) السَّدُّ والسُّدُّ: الجَبَلُ والحاجز، لسان العرب ٣/١٩٦٨.

(٣) ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول: قال أبو عبيد: (كل شيء وجدته العرب من فعل الله من الجبال والشعاب فهو (سُدّ) بالضم وما بناه الآدميون فهو (سَدّ) بالفتح، وكذا قال أيضاً عكرمة فذهب حمزة والكسائي في قوله: (أن تجعل بيننا وبينهم سَداً) أنه من صنع الناس. وفي (يس) إلى المعنى وذلك أنه يجوز أن يكون الفتح فيهما على معنى المصدر الذي صدر عن غير لفظ الفعل. لأنه لما قال: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سَدّاً﴾ كأنه قال (وسددنا) ثم أخرج المصدر على معنى الجعل إذا كان معلوماً أنه لم يرد بقوله في (يس) (سُدّاً) ما أريد به في قوله: (بين السدين. . . .) لأنهما جبلان وهي ها هنا عارض في العين. انظر حجة القراءات ٤٣١.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٣٢، النشر ٢/٣١٥.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٣٢.

(٦) انظر المصدر السابق وانظر النشر ٢/٣١٥. قال الزجاج: (الخَرْج: الفيء، والخَراج: الضريبة وقيل الجزية قال: (والخراج عند النحويين الإسم لما يخرج من الفرائض في الأموال والخرْج المصدر). وقال غيره: (خَرْجا) أي عطية نخرجه إليك من أموالنا وأما المضروب على الأرض فالخراج ويدل على العطية قوله في جوابه لهم: (ما مكّنيّ فيه ربي خير) انظر حجة القراءات ٤٣٣.

(٧) انظر حجة القراءات ٤٣٣.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ قالوا وما تريد قال آلة العمل وهي آلة الحدادين ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ قالوا وَمَا هِيَ قال ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قرأ عاصم في إحدى الروايتين إيتوني على معنى جيئوني وقرأ الباقون (آتوني) بمد الألف أي: أعطوني فأتوه بقطع الحديد فبناه ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدفين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[1] الصدفين بضم الصاد والدال وقرأ عاصم بضم الصاد وجزم الدال وقرأ الباقون بنصب الصاد والدال وهما ناحيتا الجبل فأخذ قطع الحديد وجعل بينهما حطباً وفحماً ووضع المنافخ وقال انفخوا فنفخوه حتى صار كهيأة النار ثم أتى بالصفر ويقال بالنحاس فـأذابه وأفرغ عليه حتى صار جبلاً من حديد ونحاس فذلك قوله: (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) أي: بين الجبلين ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ فنفخوا ﴿حَتَّى إذا جَعَلَهُ ناراً﴾ أي صير الحديد ناراً ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ وهو الصفر المذاب أصبُبْ عليه قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة[2] (قَالَ ائْتُونِي) بحزم الألف والباقون بالمد ﴿فَمَا اسْطاعوا﴾ أي فما قدروا ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ يعني: أن يعلوا فوق السد ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي: ما قدروا على نقب السد ويقال ما استطاعوا له نقباً أي: ما تحت السد في الأرض لأنه بناه في الأرض إلى السماء قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا عمرو بن حمد قال: حدثنا أبو بكر الواسطي قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو حفص عن سعيد عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إن يأجوج ومأجوج يحفرون الردم في كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذين عليهم ارجعوا فسنحفره غداً فيعيده الله كما كان حتى إذا بلغت مدتهم قال الذين عليهم ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى فيعودون إليه فإذا هو كهيأته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه وتحصن الناس في حصونهم فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفيتهم فيهلكهم الله بها وروى أبو صالح عن ابن عباس أن يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل منهم حتى يلد لصلبه ألف ابن وذكر أن يأجوج ومأجوج كما ذكرنا وهما ابنا يافث بـن نوح فإذا انكسر السد وذلك عند اقتراب الساعة يخرجون فيمرون ببحيرة طبرية بأرض الشام وهي مملوءة ماء فيشربها أولهم ثم يمر آخرهم فيقولون لقد كان هاهنا مرة ماء قال: والسد نحو نبات نعش ثم يمرون بالبحر فيأكلون ما في جوفه من سمك وسرطان وسلحفاة ودابة ثم يأكلون ورق الشجر ويأكلون ما فـي الأرض من شيء ويهرب الناس منهم فيقتلون من قدروا عليه ولا يستطيعون أن يأتوا أربعة مساجد المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد بيت المقدس ومسجد طور سيناء ثم لا يرون على الأرض غيرهم ثم يقولون لقد قتلنا أهل الأرض وبقي أهل السماء فيرمون سهامهم[3] نحو السماء فتصيب الطير في جو السماء فترجع سهامهم مختضبة[3] بالدماء فيقولون لقد قتلنا أهل السماء وأهل الأرض ولم يبق غيرنا فيبعث الله تعالى عليهم دوداً يسمى النغف فيدخل في آذانهم فيقتلهم فتنتن الأرض من جيفهم ثم يرسل الله تعالى أربعين يوماً حتى يحمل السيل جيفهم فيرميها إلى البحر ويعود البحر كما كان قرأ حمزة[4] فما اسطّاعوا بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف فلما فرغ ذو القرنين من بناء السد.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝٩٨ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾

(١) انظر حجة القراءات ٤٣٣، النشر ٢/٣١٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٣٤، النشر ٢/٣١٦.

(٣) الخضاب: ما يُخضَبُ به من حنّاء وكتم ونحوه. وفي الصِّحاح: الخِضـابُ ما يختضبُ بِهِ. لسان العرب ٢/١١٧٩.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٣٥، والنشر ٢/٣١٦.

عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: هذا السد رحمة من ربي عليكم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يقول إذا جاء أجل ربي ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: كسراً قرأ أهل الكوفة[1] دكاء بالمد وقرأ الباقون بالتنوين دكاً إذا لم يكن لها سنام ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صدقاً وكائناً بخروجهم ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يحرك في بعض وراء السد ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قال أبو عبيدة: تنفخ الأرواح في الصور وقال عامة المفسرين يعني: ينفخ إسرافيل في الصور وهذا موافق لما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنا جبهته عليه وينتظر متى يؤمر فينفخ فيه) ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ أي: يوم القيامة نجمع يأجوج ومأجوج وجميع الخلق ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: كشفنا الغطاء عنها قبل دخولهم جهنم ﴿لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ أي كشفاً ويكون المصدر لتأكيد الكلام ثم نعت الكافرين فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي أعين الكافرين ﴿فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِيْ﴾ أي: في عمىً عن التوحيد والقرآن فلم يؤمنوا ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أي: استماعاً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بغضه وعداوته ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: أن يعبدوا غيري ومعناه لا يحسبن الكافرون بأن يتخذوا أولياء يعبدون معي شيئاً لأن المشركين كانوا يدعون بعض المؤمنين إي الشرك وهذا كقوله: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ويقال: و معناه: أفيظن الذين كفروا أن يعبدوا عبادي يعني الملائكة وعزيراً والمسيح من دوني أولياء يعني أرباباً ومعناه يظنون أنهم لو اتخذوهم أرباباً تنفعهم عبادتهم ويفوتون من عذابي ثم بين عذابهم فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي: منزلاً روي عن علي بن أبي[2] طالب أنه قرأ: (أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يجزم السين وضم الباء[3] معناه أيكفيهم مني ومـن طاعتي أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء فحسبهم جهنم (إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) أي: منزلاً

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ يعني: الخاسرين أعمالهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي: بطلت

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٣٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٥٣ وعزاه لأبي عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٣) قرأ الأعشى عن أبي بكر: (أفحسب الذين كفروا) برفع الباء وسكون السين. وتأويله: (أفيكفيهم أن يتخذوا العباد أولياء من دون الله). وموضع (أن يتخذوا) رفع بفعله.

وقرأ الباقون: ﴿أفحَسِبَ الذين كفروا﴾ أي: افحسبوا أن ينفعهم اتخاذهم عبادي أولياء. وموضع (أن) نصب بوقوع الظن عليه. انظر حجة القراءات ٤٣٦.

أعمالهم ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ أي: يظنون أنهم يفعلون فعلاً حسناً قال علي ابن أبي[1] طالب هم الخوارج وهكذا روي عن أبي أُمَامَةَ الباهلي وروي عن سلمان الفارسي أنه قال هم رهبان النصارى أهل الصوامع وهكذا قال مقاتل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَلِقَائِهِ﴾ أي: البعث بعد الموت ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت حسناتهم ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ أي لا توزن أعمالهم مثقال ذرة ويقال: لا نقيم لأعمالهم ميزاناً ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: هكذا عقوبتهم ﴿جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي﴾ أي: القرآن ومحمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿هُزُواً﴾ أي: استهزاء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ أي منزلاً وقال مقاتل الفردوس بلغة الروم البساتين عليها الحيطان وقال السدي الأعناب بالنبطية وروى الحسن عن سمرة بن جندب قال الفردوس ربوة خضراء من الجنة هى أعلاها وأحسنها وقال الكلبي جنات الفردوس من أدنى الجنان منزلاً وروى أبو أمامة الباهلي قال الفردوس سرة الجنة أي أوسطها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين فيها ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ أي: تحولاً رضوا بها وبثوابها وقال بعض المفسرين: تمام النعمة أنهم لا يتمنون التحول لأنهم لو تمنوا التحول عنها لتنقص النعم عليهم.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

﴿قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ وذلك أن اليهود قالوا بزعم محمد أن من أوتي الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ثم يزعم ويقول (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) فكيف نوافق الخير الكثير مع العلم القليل فنزل قل يا محمد (لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي) يكتب به ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[2] أي لا تنفد كلمات ربي كما قال: في آية أُخرى (مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) ﴿وَلَوْاجِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ أي: بمثل البحر وقرأ بعضهم ولو جئنا بمثله مِدَاداً وقراءة العامة مدداً ومعناهما واحد (وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) وهو قليل عند علم الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: من يخاف البعث بعد الموت ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ أي: خالصاً فيما بينه وبين الله تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ أي: لا يخلط ولا يرائي ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ وقال سعيد[3] بن جبير: فمن كان يرجو أي: من كان يوجو ثواب ربه وروي عن مجاهد[4] أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وقال إني أتصدق بالصدقة وألتمس بها وجه الله وأحب أن يقال لي خيراً) فنزل (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً) قرأ حمزة والكسائي وابن عامر في إحدى الروايتين

---

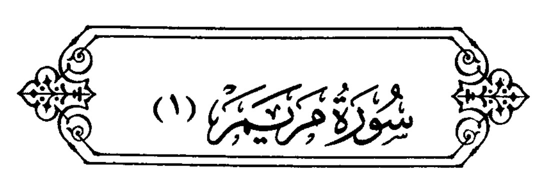
(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) قرأ حمزة والكسائي: (قبل أن يَنْفَد كلماتُ ربي) بالياء ذهبا بالكلمات إلى معنى المصدر فكأنه قال: كلام ربي فذكّرا لتذكير الكلام. وقرأ الباقون: ﴿قبل أن تَنْفَد﴾ بالتاء. أخرجوا الفعل على لفظ الأسماء المؤنثة إذ لم يحل بين الاسم والفعل حائل. انظر حجة القراءات ٤٣٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٥ وعزاه لهناد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٥ وعزاه لهناد في الزهد.

أن ينفد بالياء بلفظ التذكير وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث لأن الفعل إذا كان مقدماً على الاسم يجوز التـأنيث والتذكير قال الفقيه: حدثنا أبو الحسن أحمد بن عمران قال: حدثنا أبو عبد الله المديني عن مخلد بن عبد الواحد عن الخليل عن علي بن زيد بن جدعان عن زر بن حبيش عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون فإن خرج الدجال في تلك الثمانية أيام عصمه الله من فتنة الدجال ومن قرأ الآية التي في آخرها (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ. .) إلى الخاتمة حين يأخذ مضجعه كان له نور يتلألأ في مضجعه إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه وإن كان مضجعه بمكة فتلاها كان نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ من نومه إلى غير ذلك مما ورد في فضلها من الأخبار والآثار وصلى الله على سيدنا محمد النبي المختار وعلى آله وصحابته الأطهار صلاة وسلاماً دائمين ما تعاقب الليل والنهار آمين آمين آمين والحمد لله رب العالمين.



وهي تسعون وثمان آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

قوله عز وجل ﴿كهيعص﴾ قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص[٢] بنصب الهاء والياء[٣] وقرأ عاصم في رواية أبي بكر والكسائي بكسر الهاء والياء وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء ونصب الياء وقرأ حمزة وابن عامر بنصب الهاء وكسر الياء وقرأ نافع بين الكسر والفتح وهو اختيار أبي عبيدة ومعنى هذا كله واحد قال ابن عباس[٤] في تفسير قوله كهيعص قال كاف فالله كاف لخلقه (بالرزق والعطف عليهم)[٥] والهاء فالله الهادي للخلق وأما الياء فيد الله مبسوطة

---

(١) إسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم. سماها ابن عباس سورة كهيعص وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحها. وهي مكية عند الجمهور وعن مقاتل: أن آية السجدة مدنية ولا يستقيم هذا القول لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلّا أن تكون ألحق بها في النزول وهو بعيد. وذكر السيوطي في الاتقان قولاً بأن قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ الآية مدني ولم يعزه لقائل.

ويظهر أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقد استهم في الخير، ثم التنزيه بإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ـ عليهم السلام ـ ووصف الجنة وأهلها. وحكاية إنكار المشركين البعث بمقالة أُبَيّ بن خلف والعاصي بن وائل وتبجحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم. وإنذار المشركين أن أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها ووعد الرسول النصر على أعدائه. وذكر ضرب من كفرهم بنسبة الولد لله تعالى.

والتنويه بالقرآن ولغته العربية. وأنه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم. انظر التحرير ١٦/٥٧، ٥٨، ٥٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٣٧.

(٣) وهو الأصل. العرب تقول (ها، يا) ومن العرب من يقول (هِا، يِا) قال سيبويه: إنما جازت فيه الإمالة نحو (يا، تا، ها) لأنها أسماء ما تكتبه وإنما أمالتها العرب لتفصل بينها وبين الحروف لأن الإمالة إنما تلحق الأسماء ولأفعال. ويدلك على أنها أسماء أنها إذا أخبرت عنها أعربتها فتقول: هذه هاء وياء قال: ولا أُميل (لا) ولا (ما) لأنهما حرفان. قال: (ما) التي تكون إسماً بمنزلة (الذي) لا أميلها لأنها لا تتم إلا بصلة. انظر حجة القراءات ٤٣٧.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٤/٢٥٨ وعزاه لعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وعثمان بن سعيد الدارمي في التوحيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٥) سقط في ظ.

على خلقه بالرزق لهم والعطف عليهم وأما العين فالله تعالى عالم بخلقه وأمورهم وأما الصاد فالله تعالى صادق بوعده وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال هو اسم الله الأعظم وروي عنه أنه قال هو قسم أقسم الله بكهيعص ويقال هي حروف تدل على ابتداء السور نحو الر والمر وغيرهما ثم قال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ معناه على طريق ابن عباس باسم الله الكافي الهادي العالم الصادق ذكر رحمة ربك عبده زكريا (بالرحمة) ومن قال هو إبتداء السورة فمعناه اقرأ كهيعص من قال إنه قسم فمعناه ورب كهيعص إنه ذكر عبده زكريا بالرحمة ثم قال: (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) يعني: في هذه السورة ومعناه: ذكر[1] ربك عبده زكريا بالرحمة ذكره بالرحمة لا يكون إلا بالله تعالى ففي الآية تقديم وتأخير يقول ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة وهو «زكريا بن ما ثان ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ يقول دعا ربه نداءً خفياً يقول أخفاه وأسره من قومه ويقال: دعا ربه دعاء سراً لأنه علم أن دعاء السر أنفع وأسرع إجابة ويقال دعا ربه خفياً يعني: خالصاً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف عظمي ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ يعني أخذ في الرأس شيباً: وبياضاً شيباً صار نصباً بالتمييز والمعنى اشتعل الرأس من الشيب يقال: للشيب إذا كثر جداً قد اشتعل رأس فلان بالشيب ثم قال: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يعني: لم تكن تخيب دعائي عندك إذا دعوتك ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ يعني: خشيت ويقال: أعلم الموالي يعني: الورثة ويقال: بنو العم ويقال: العصبة من ورائي يعني: من بعد موتي خاف أن يَرِثَهُ غير الولد وروي عن قتادة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (يرحم الله تعالى زكريا وما كان عليه من ورثة). وروي عن سعيد بن العاص أنه قال أملي[2] على عثمان (وَإِنِّي خَفَّتِ الْمَوَالِيَ) بنصب الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء ويقال: يعني: ذهبت الموالي وقال أبو عبيدة لولا خلاف الناس لاتبعنا عثمان فيها ثم قال ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ يعني: عقيماً لم تلد ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يعني ولداً ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ وقال عكرمة: يرثني ما لي ويرث من آل يعقوب النبوة وهكذا قال الضحاك وقال بعضهم: يرثني يعني علمي وسنتي لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون مالاً وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) وروى أبو الدرداء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الأنبياء لم يورثوا دراهم ولا دنانير وإنما ورثوا هذا العلم ويقال: لأنه رأى من الفتى وغلبة أهل الكفر فيخاف على إفساد مواليه إن لم يكن أحد يقوم مقامه ويخولهم بالموعظة قرأ أبو عمرو والكسائي[3] يرثْني ويرثْ بجزم كلا الثائين على معنى جواب الأمر والشرط أي: أنك إذا وهبت لي ولياً يرثني وقرأ الباقون يرثني ويرث بالضم وقال عبيدة: وهذا أحب إلي قال: معناه: هب لي الذي هذه حاله وصفته لأن الأولياء قد يكون منهم الوراثة وغيره فيقول هب لي الذي يكون (ورائي وارث النبوة) ثم قال ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ يعني صالحاً زكياً

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٩ وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٣٨، سراج القارىء ٢٨٣.

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ يعني: أوحى الله تعالى وأرسل إليه جبريل وأن جبريل عليه السلام أدى إليه الرسالة من الله عز وجل قال الله تعالى (إِنَّا نُبَشِّرُكَ) وقد بين ذلك في سورة آل عمران (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِيْ الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) ثم قال هنا بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِياً﴾ يعني: لم نجعل لزكريا من قبل يحيى ولداً يسمى يحيى ويقال لم يكن قبله أحد يسمي بذلك الاسم ويقال: لم يكن بذلك الاسم في زمانه أحد وإنما سمي يحيى لأنه حي بالعلم والحكمة التي أوتيها ويقال لأنه حي به المجالس ويقال لأنه حيي به عقر أمه ويقال «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبلُ سَمِيًّا» أي: نظيراً ومثالاً قرأ حمزة «نُبْشِرك» وقرأ الباقون بالتشديد وضم النون ونصب الباء وكسر الشين (نُبَشِّرُكَ) فقال زكريا عند ذلك ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يقول: يا سيدي ﴿أَنَّى يَكُونُ لِيْ غُلَامٌ﴾ يعني: من أين يكون لي ولد ويقال: إنما قال ذلك على وجه الدعاء لله تعالى فقال: يا رب من أين يكون لي ولد ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ من الولد ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِياً﴾ يقول: تحول العظم مني يابساً. ومنه يقال: قلب عات إذا كان قاسي القلب غير لين ويقال لكل شيء انتهى فقد عتى ولم يكن زكريا شاكاً في بشارة الله عز وجل ولكن أحب أن يعلم من أي وجه يكون قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص والكسائي[1] عتياً بكسر العين وكذلك «صِلِياً وجِثِيّاً وَبِكِياً» إلا أن عاصماً خالفهما في «بُكيا» والباقون كلها بالضم وكأن أبا عبيدة اختار الضم لأنه أفصح اللغتين وهي قراءة أبي ﴿قال﴾ له جبريل عليه السلام ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني هكذا كما قلت إنك «قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِياً قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» ولكن الله عز وجل ﴿قال ربك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ يعني خلقه علي يسير ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلِ﴾ يحيى ﴿ولم تك شيئاً﴾ قرأ حمزة والكسائي[2] وقد خلقناك بالألف مؤخرة والنون مقدمة والباقون خلقتك وهو اختيار أبي عبيدة قال زكريا عليه السلام «رَبِّ اجْعَلْ لِيْ آيَةً» في الولد روى أسباط عن السدي قال لما بشر زكريا عليه السلام جاءه الشيطان فقال إن هذا النداء الذي نوديته ليس من الله وإنما هو من الشيطان ليسخر بك ولو كان من الله عز وجل لأوحاه إليك كما كان يوحي إليك فـ ﴿قال﴾ عند ذلك ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أعلم بها أن هذا النداء منك ﴿قال﴾ الله تعالى له ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَال سَوِيًّا﴾ يعني (علامتك أن)[3] لا تستطيع أن تكلم الناس ثلاث ليال وأنت صحيح سليم من غير خرس ولا مرض ورجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها ووضع الولد في رحمها فلما أصبح اعتقل لسانه عن كلام الناس.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي: من المسجد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ يعني أشار إليهم وأومأ إليهم ويقال كتب كتاباً وألقاه على الأرض ولم يقدر أن يتكلم به ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ يعني صلوا لله تعالى ﴿بُكْرَةً وَعَشِياً﴾ يعني غدوة

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٣٩، النشر ٣١٧/٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٣٩، النشر ٣١٧/٢.

(٣) سقط في ظ.

وعشياً فعرف عند ذلك أنه آية الولد قوله عز وجل ﴿يَا يَحْيَى خُذ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ يعني: أوحى الله تعالى إليه أن (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) يعني بجد ومواظبة «وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» يعني أجرينا الحكمة على لسانه في حال صغره وذلك أنه مر بصبيان يلعبون فقالوا له تعال حتى نلعب فقال لهم: ما للعب خلقنا ويقال (خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) أي: بعد عون من الله تعالى ويقال بكثرة الدرس ﴿آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً﴾ يعني: النبوة والفقه والخير كله ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني: آتيناه رحمة من عندنا وأصله من حنين الناقة على ولدها ﴿وَزَكَاةً﴾ يعني وصدقة منا ويقال: التطهير ويقال صلاحاً في دينه وقال سعيد بن جبير: الزكاة التزكية ﴿وَكَانَ تَقِياً﴾ يعني: مطيعاً لربه ﴿وبراً بِوَالِدَيْهِ﴾ يعني مطيعاً لهما ولا يعصيهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً﴾ يعني: لم يكن قتالاً والجبار الذي يقتل على الغضب ويضرب على الغضب ﴿عَصِيًّا﴾ يعني: لم يكن عصياً لربه والعصي والعاصي واحد قوله عز وجل: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ أي: السلام من الله عز وجل والسعادة تناله ﴿يوم ولد﴾ أي حين ولد ﴿ويوم يموت﴾ يعني: حين يموت ﴿ويوم يبعث حياً﴾ أي: حيث يبعث حياً وروى قتادة عن الحسن[١] أن يحيى عليه السلام قال لعيسى عليه السلام: حين التقيا أنت خير مني فقال عيسى صلوات الله عليه بل أنت خير مني سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي وروي عن بعض الصحابة أنه قال ما من الناس أحد إلا وهو يلقى الله عز وجل يوم القيامة ذو ذنب إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام وروي عن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما أذنب يحيى عليه السلام ولا هم بامرأة.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

قوله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إذ انْتَبَذَتْ﴾ يعني: اذكر في القرآن خبر مريم ومعناه اقرأ عليهم ما أنزل عليك في القرآن من خبر مريم «إذ انْتَبَذَتْ» يعني: اعتزلت وتنحت ﴿مِنْ أهلها مَكَاناً شَرْقِياً﴾ يعني: مشرقة الشمس في دار أهلها ﴿فَاتَّخذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ يعني (ضربت وأرخت من دونهم)[٢] ستراً ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: بعثنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ يعني: تشبه لها في صورة شاب تمام الخلق فدَنا منها فأنكرت مريم مكان الرجل ﴿قَالَتْ إِنِّي أعوذ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ يعني إن كنت مطيعاً لله وإنما قالت ذلك لأن التقي إذا وعظ بالله عز وجل اتعظ وخاف والفاسق يخوف بالسلطان والمنافق يخوف بالناس فالتقي يخوف بالله ويقال في الآية مضمر ومعناه احذر إن كنت تقياً ﴿قال﴾ لها جبريل ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا﴾ يعني ولداً صالحاً قرأ أبو عمرو ونافع في إحدى الروايتين[٣] ليهب لك بالياء وقرأ الباقون[٤] لأهب فمن قرأ ليهب فمعناه ليهب الله لك

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٢ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٠، النشر ٢/٣١٧.

(٤) قال الزجاج: من قرأ (لأهب لك) فهو على الحكاية وحمل الحكاية على المعنى على تأويل: ﴿قال أرسلت إليكِ لأهبَ لكِ﴾

ومن قرأ لأهب لك يكون فيه مضمر ومعناه إنما أنا رسول ربك قال لأهب لك غلاماً زكياً يعني: قال ربك وهذا اختيار أبي عبيدة وهو موافق لخط المصاحف ﴿قالت﴾ مريم لجبريل عليه السلام ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ يعني: من أين يكون لي ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يعني: لم يقربني زوج ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ يعني: لم أك فاجرة ﴿قَالَ﴾ لها جبريل ﴿كَذَٰلِكِ﴾ يعني: هكذا كما قلت ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ يعني خلقه علي يسير ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ يعني: عبرة لبني إسرائيل ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: ونعمة منا ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ يعني: قضاء كائناً.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ يعني: حملت مريم بعيسى عليه السلام وقال وهب بن منبه إن مريم حملت بعيسى عليه السلام تسعة أشهر وقال بعضهم ثمانية أشهر فتلك آية لأنه لا يعيش مولود في ثمانية أشهر وروي في بعض الروايات عن ابن عباس أنه قال ما هي إلا أن حملت ثم وضعت وقال: مقاتل حملت في ساعة ووضعت في ساعة ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ يعني: انفردت بولادتها مكاناً بعيداً قال القتبي: القصيُّ أشد بعداً من القاصي ثم قال: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ يعني: جاء بها وألجأها المخاض يعني: الطلق بولادة عيسى عليه السلام: ﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: أصل النخلة قال ابن عباس النخلة اليابسة في شدة (الشتاء يعني)[1] الطلق ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ يعني: شيئاً متروكاً لم أذكر ويقال للشيء الحقير الذي إذا ألقي ينسى نسي وقال قتادة[2] يعني لا أُعرف ولا أُدرى من أنا وقال عكرمة:[3] يعني جيفة ملقاة وهكذا قال الضحاك[4] وقال ربيعة[5] بن أنس يعني: سقطاً قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص[6] وكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً بنصب النون والباقون نِسْياً بكسر النون قال أبو عبيد وبالكسر نقرؤها لأنها كانت أكثر في لغة العرب وأفشاها وعليها أهل الحرمين والبصرة ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص[7] من بالكسر يعني الملك وهكذا قرأ مجاهد والحسن والباقون مَن بالنصب يعني به:

= فحذف من الكلام (أرسلتُ) لأدلة ما ظهر على ما حذف والقول الثاني: جبريل عليه السلام قال لمريم: (إنما أنا رسول ربك أرسلني لأهب لك) إذ كان النافخ في جيبها بأمر الله فتكون الهبة في المعنى من الله وهي في اللفظ مسندة إلى جبرئيل لأن الرسول والوكيل قد يسندان هذا النحو إلى أنفسهم وإن كان الفعل للموكل والمرسل للعلم بأنه في المعنى للمرسِل وأن الرسول مترجم عنه). انظر حجة القراءات ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٧ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٦) انظر حجة القراءات ٤٤١، النشر ٢/٣١٨.

(٧) انظر حجة القراءات ٤٤١، النشر ٢/٣١٨.

عيسى عليه السلام وقال أبو عبيد بالأولى نقرأ يعني بالكسر لأن قراءتها أكثر والمعنى فيها أعم لأنه إذا قال مِنْ تَحْتِهَا فإنما هو عيسى خاصة ﴿أَلا تحْزَنِي﴾ بولادة عيسى وبمكان الجدب ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً﴾[1] أي: نهراً صغيراً بحبال ويقال قد جعل ربك تحتك سرياً أي: بيتاً فذكر هذا القول عند ابن حميد فأنكره وقال هو الجدول ألا ترى أنه قال فكلي واشربي قال مجاهد[2]: السري بالسريانية وقال سعيد بن جبير: [3] بالنبطية ﴿وَهُـزِّي إِلَيكِ بِجذْعِ النَّخْلَةِ﴾ يقول: حركي أصل النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيكِ رُطباً جَنِياً﴾ أي: غضاً طرياً قرأ حمزة[4] تساقط بنصب التاء وتخفيف السين وأصله تتساقط إلا أنه حذفت منه إحدى التائين للتخفيف وهذا كقوله (لَوْ تُسوى بِهِم الأَرْض) وأصله تتسوى وكقوله تَظَاهَرُونَ عليهم وكقوله تَنْشَقُّ وقرأ عاصم في رواية حفص تساقط بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف يعني: أن النخلة تساقط عليك وقرأ الباقون بالنصب وتشديد السين ونصب القاف لأن التشديد أقيم مقام التاء التي حذفت وروي[5] عن البراء بن عازب أنه كان يقرأ يساقط بالياء يعني أن الجذع يساقط عليك وقرأ بعضهم تساقط بالنون ومعناه: ونحن نساقط عليك وروي أنها كانت نخلة بلا رأس وكان ذلك في الشتاء فجعل الله تعالى لها رأساً وأنبت فيها رطباً فذلك قوله تساقط عليك رطباً أي غضاً طرياً قيل لها ﴿فَكُلي﴾ من الرطب ﴿واشْرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ أي طيبي نفساً بولادة عيسى وقال الربيع بن خيثم:[6] ما للنفساء عندي دواء إلا الرطب ولا للمريض إلا العسل ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ يعني: إن رأيت أحداً من الناس ﴿فقُولِي﴾ إن سألك أحد شيئاً فقولي ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ يعني: صمتاً وروي عن ابن عباس في بعض الروايات أنه كان يقرأ إني نذرت للرحمن صمتاً ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِياً﴾ يعني: قولي ذلك بالإشارة لا بالقول وكان المتقدمون يصومون من الكلام كما يصومون من الطعام.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ وذلك أن مريم حملت عيسى عليه السلام ودخلت على أهلها وكان أهلها أهل بيت صالحين ﴿قالوا﴾ لها أي: قومها ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً﴾ يعني أتيت وفعلت أمراً عظيماً منكراً لا يعرف منك ولا من أهل بيتك ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ يعني هارون ماثان وكان من أمثل بني إسرائيل يَا أُخْتَ هَارُونَ يعني: يا شبه

(١) السَّرِيُّ: النهر وقيل الجدول وقيل النهر الصغير كالجدول يجري إلى الداخل، لسان العرب ٣/٢٠٠٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٩ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٤٢ ـ ٤٤٣، والنشر ٢/٣١٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٩ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

هارون في الصلاة والصلاح ويقال كان رجل سوء يسمى هارون فعيروها به وشبهوها بهارون ويقال كان لها أخ يقال له هارون من أبيها ولم يكن من أمها وذكر أن أهل الكتاب قالوا كيف تقولون إن مريم أخت هارون وكان بينهما ستمائة سنة فذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين عليهم السلام يعني أن أخا مريم سُمِّي باسم هارون النبي عليه السلام ثم قال: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ يعني زانياً ﴿وَمَا كَانت أُمّكِ بَغِيًّا﴾ يعني: فاجرة ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ يعني أشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه يعني كلموا عيسى ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِيْ الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ يعني: من هو في الحجر وهو رضيع ويقال: معناه: كيف نكلم من هو يكون في المهد ويقال معناه كيف نكلم من يكون في المهد صبياً فأنطق الله تعالى عيسى فتكلم و ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فأول الكلام الذي تكلم به رد على النصارى لأنه أقر بأنه عبد الله ورسوله ثم قال ﴿آتَانِي الْكِتَابَ﴾ روي عن ابن عباس[1] أنه قال: معناه علمني الكتاب في بطن أمي ويقال معناه يؤتيني الكتاب وهو الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي اكرمني الله تعالى بأن جعلني نبياً ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً﴾ يعني جعلني معلماً للخلق ﴿أينما كُنْتُ﴾ يعني: حيث ما كنت ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يعني: أوصاني وأمرني بإتمام الصلاة وإعطاء الزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ يعني جعلني رحيماً بوالدتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ يعني: لم يخذلني حتى صرت به جباراً عصياً ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ يعني: السلام علي من الله تعالى ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ يعني: حين ولدت ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني حين أموت ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني: أبعث يوم القيامة فكلمهم بهذا ثم سكت فلم يتكلم حتى كان قدر ما يتكلم الغلمان.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ﴾ أي: ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى بن مريم لا ما يقول النصارى إنه إله ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ يعني: خبر الصدق قرأ عاصم وابن عامر[2] قول بنصب اللام والباقون بالضم فمن قرأ بالنصب فمعناه أقول قول الحق ومن قرأ بالضم معناه وهو قول الحق ﴿الذي فيه يمترون﴾ يعني يشكون في عيسى عليه السلام ويختلفون فيما بينهم ثم كذبهم في قولهم فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ يعني: عيسى ثم نزه عن الولد فقال ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً مثل عيسى ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر[3] فيكون بالنصب وقرأ الباقون بالضم وقرأ بعضهم تمترون بالتاء على وجه المخاطبة وقراءة العامة بالياء لأنها ليست فيها مخاطبة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[4] ربَّكم بالنصب على معنى البناء

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٧٠ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٣، النشر ٢/ ٣١٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٤، النشر ٢/ ٣١٨.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٤٤، النشر ٢/ ٣١٨.

والباقون وإن الله بالكسر على معنى الابتداء وهي قراءة أبي عبيدة وفي قراءة أبي إن الله بغير واو فتكون قراءته شاهدة على الكسر ثم قال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني: وحدوه وأطيعوه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: هذا الإسلام طريق مستقيم ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يعني: الكفار من أهل النصارى من بينهم يعني: بينهم في عيسى وتفرقوا ثلاثة فرق قالت النسطورية عيسى ابن الله واليعقوبية قالوا إن الله هو المسيح والملكانية قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ﴿فَوَيْلٌ﴾ يعني: الشدة من العذاب ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: من عذاب يوم القيامة بأن عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه ويقال: ويل صخرة في جهنم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في خطأ بين لا يسمعون الهدى ولا يبصرون ولا يرغبون فيه ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يقول وأنذرهم يا محمد أي خوفهم بهول يوم القيامة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يعني فرغ من الأمر إذا دخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار وهو يوم الندامة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ يعني هم في الدنيا في غفلة من تلك الندامة والحسرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالبعث قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر[١] المدني عن محمد بن عمرو عن (أبي)[٢] مسلمة عن الزهري عن أبي هريرة[٣] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يؤتى بالموت فيوقف على الصراط فيقال يا أهل الجنة فيطلعون ويقال يا أهل النار فيطلعون فيقال هل تعرفون هذا فيقولون نعم يا ربنا هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين خلود لا موت فيها أبداً وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري[٤] عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحوه فذلك قوله (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الآية.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

ثم قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ يعني نميت أهل الأرض كلهم ومن عليها ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

---

(١) إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، مولاهم، أبو إسحاق، توفي ببغداد سنة ١٨٠ وقيل سنة ١٧٧ انظر غاية النهاية ١/١٦٣ (٧٥٨).

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٢ وعزاه للنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحديث عند النسائي في التفسير ٢/٣١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧١ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وعبد ابن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حبان وابن مردويه والحديث عند البخاري في التفسير (٤٧٣٠) وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤٠، ٤١/٢٨٤٩) والترمذي في التفسير (٣١٥٦) وأخرجه النسائي ٢/٣٠.

في الآخرة ﴿وَاذْكُرْ فِيْ الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني خبر إبراهيم ﴿إِنَّه كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ يعني صادقاً وقال الزجاج: الصديق اسم للمبالغة في الصدق يقال كل من صدق بتوحيد الله عز وجل وأنبيائه عليهم السلام وفرائضه وعمل بما صدق فيه فهو صديق ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ وهو آزر بن تارح ابن تاخور وكان يعبد الأصنام ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ﴾ دعاءك ﴿وَلاَ يُبْصِرُ﴾ عبادتك ﴿وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ﴾ من عذاب الله عز وجل ﴿شَيْئاً﴾ قرأ ابن عامر[1] يا أبت بالنصب والباقون بالكسر وكذلك ما بعده والعرب تقول في النداء يا أبت ولا تقول يا أبتي ثم قال ﴿يَا أَبَتِ إِنِّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ من الله تعالى من البيان ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أنه من عند غير الله عذبه الله في الآخرة بالنار ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ يعني: أطعني فيما أدعوك ويقال اتبع دين الله ﴿أَهْدِكَ﴾ يعني: أرشدك ﴿صِراطاً سَوِيًّا﴾ يعني: طريقاً عدلاً قائماً ترضاه ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ يعني: لا تطع الشيطان فمن أطاع شيئاً فقد عبده ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ يعني عاصياً ثم قال ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ﴾ يعني: أعلم أن يمسك ﴿عذاب﴾ إن أقمت على كفرك يصيبك عذاب ﴿من الرحمن﴾ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: قريناً في النار ﴿قال﴾ له أبوه ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ يعني أتارك أنت عبادة آلهتي ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ يقول: إن لم تنته عن مقالتك ولم ترجع عنها لأسبنك وأشتمنك وكل شيء في القرآن من الرجم فهو القتل غيرها هنا فإن ها هنا المراد به السبُّ والشتم ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِياً﴾ يعني تباعد عني حيناً طويلاً ولا تكلمني وقال السدي (ملياً) تعني أبداًوقال قتادة واهجرني ملياً يعني تباعد عني سالماً ويقال لا تُكلمني دهراً طويلاً ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿سلامٌ عليك﴾ يعني أكرمك الله بالهدى ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ يعني سأدعو لك ربي ﴿إِنَّه كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ يعني باراً عوّدني الإجابة إذا دعوته ويقال تحفَّيْتُ بالرجل إذا بالغتُ في إكرامه وهذا قول القتبي ويقال: حفياً يعني عالماً يستجيب لي إذا دعوته وكان يستغفر له ما دام أبوه حياً فلما مات كافراً ترك الاستغفار له وكان يرجو أن يهديه الله عز وجل قولُه عز وجل:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَأَعتزِلُكُمْ﴾ يعني وأترككم ﴿وما تدعون من دون الله﴾ يعني أترك عبادة ما تعبدون من دون الله عز وجل ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَنْ لاَ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ يعني: لا يخيبني إذا دعوته فهاجر إلى بيت المقدس ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني أكرمناه بالولد وهو إسحاق وولد الولد وهو يعقوب وقال بعض الحكماء من هاجر في طلب رضاء الله عز وجل أكرمه الله عز وجل في الدنيا والآخرة كما أن

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٤.

إبراهيم هاجر من قومه في طلب رضى الله تعالى عنه فأكرمه الله تعالى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام والثناء العمل الصالح ثم قال تعالى ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أكرمناهم بالنبوة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يعني من نعمتنا المال والولد في الدنيا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم المال الصالح للرجل الصالح ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يعني أكرمناهم بالثناء الحسن وكل أهل دين يقولون دين إبراهيم بزعمهم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلصاً﴾ يعني: أخلصه الله عز وجل ويقال: مخلصاً يعني: جعله الله مختاراً خالصاً قرأ حمزة والكسائي وعاصم[1] بنصب اللام يعني أخلصه الله عز وجل ويقال: مخلصاً من الكفر والمعاصي الباقون مخلِصاً بالكسر يعني مخلصاً في العمل ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ إلى بني إسرائيل ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ يعني: من يمين موسى ولم يكن للجبل يمين ولا شمال ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي: كلمناه بلا وحي وقال الكلبي (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) يعني وقربناه حتى سمع صرير القلم في اللوح وقال السدي[2]: أُدخِلَ في السماء الدنيا وكلم وقال الزجاج (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) مناجياً ثم قال عز وجل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ من نعمتنا ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ فكان معه وزيراً معيناً ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ يعني: اذكر في القرآن خبر إسماعيل ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ إذا وعد أنجز قال مقاتل: إن إسماعيل وعد رجلاً أَنْ ينتظره فقام مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع الرجل إليه وقال في رواية الكلبي كان ميعادُه الذي وعد فيه صاحبه انتظره حتى حال الحول وقال مجاهد إنه كان صادق الوعد يعني: لم يعد شيئاً إلا وفى به ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ يعني: كان رسولاً إلى قومه نبياً يُخبر عن الله عز وجل ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ يعني: أهل دينه وقومه ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يعني: بإتمام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ يعني صالحاً ذكياً.

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ يعني: خبر إدريس ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ يعني: صادقاً يُخبر عن الله عز وجل وذكر عن وهب بن منبه أنه قال: إنما سمي إدريس لكثرة ما يدرس من كتاب الله عز وجل والسنن وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من لبس ثوب القطن وكانوا من قبل ذلك يلبسون جلود الضأن واسمه أخنوخ. ويقال إلياس ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾ يعني: الجنة وقال مجاهد[3]: يعني في السماء الرابعة قال أخبرني الثقة بإسناده عن ابن عباس[4] أنه سئل كعب الأحبار عن إدريس فقال كعب إن إدريس كان رجلاً خياطاً وكان يقوم الليل ويصوم النهار ولا يفتر عن ذكر الله عز وجل وكان يكتسب فيتصدق بالثلثين فأتاه ملك من الملائكة يقال له إسرافيل فبشره بالجنة وقال له هل لك من حاجة قال وددت أني أعلم إلى متى أجلي فأزدادُ خيراً فقال له ما أعلمه ولكن إن شئت حملتك إلى

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٤، النشر ٣/٣١٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٣ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٤ وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٤ وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم.

السماء قال: فحمله إلى السماء فلقي ملك الموت فسأله عن أجله ففتح كتاباً معه فقال لم يبق من أجلك إلا ست ساعات أو سبع ساعات وقال أُمرتُ أن أقبض نفسك هاهنا فقبض نفسه في السماء فذلك رفع مكانه[1] وروى الكلبي عن زيد بن أسلم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن إدريس جد أبي نوح وكان أهل الأرض يومئذ بعضهم مؤمناً وبعضهم كافراً فكان يصعد لإدريس من العمل ما كان يصعد لجميع بني آدم فأحبه ملك الموت فاستأذن الله تعالى في خلته قال فأذن له قال: فهبط إليه في صورة غير صورته على صورة آدمي لكيلا يعرفه فقال: يا إدريس إني أحب أن أصحبك وأكون معك فقال له إدريس إنك لا تطيق ذلك قال أنا أرجو أن يقويني الله عز وجل على ذلك فكان معه يصحبه وكان إدريس يسيح النهار كله صائماً فإذا جنه الليل أتاه رزقه حيث يمسي فيفطر عليه ثم يحيي الليل كله فساحا النهار كله صائمين حتى إذا أمسيا أتي إدريس رزقه فأكله ودعا الآخر فقال لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه فيطعم إدريس ثم يستقبلا الليل بالصلاة فإدريس تناله السآمة والفترة من الليل والآخر لا يسأم ولا يفتر فجعل إدريس يتعجب منه ثم أصبحا صائمين فساحا حتى إذا جنهما الليل أتى إدريس رزقه فجعل يطعم ودعي الآخر فقال لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه فيطعم ثم استقبـلا الليل كله فإدريس تناله السآمة والفترة والآخر لا يسأم ولا يفتر فجعل إدريس يتعجب منه ثم أصبحا اليوم الثالث صائمين فساحا فمرا على كرم قد أينع وطاب فقال يا إدريس لو أنا أخذنا من هذا الكرم فأكلنا فقال إدريس ما أرى صاحبه فاشتريه منه وإني لأكره أن آخذ بغير ثمن قال فمضيا حتى مرا على غنم فقال يا إدريس لو أخذنا من هذا الغنم شاة فأكلنا من لحمها فقال له إدريس إنك معي منذ ثلاثة أيام فلو كنت آدمياً لطعمت وإني لأدعوك كل ليلة إلى الحلال فتأبى علي فكيف تدعوني إلى الحرام أن آخذه فبصحبة ما بيني وبينك إلا ما أنبأتني من أنت قال إنك ستعلم قال أخبرني من أنت قال أنا ملك الموت ففزع حين قال أنا ملك الموت قال فإني أسألك حاجة قال ما هي قال أن تذيقني الموت قال ما لي من ذلك شيء وليس لك بد من أن تذوقه قال: فإنه قد بلغني عنه شدة ولعلي أعلم ما شدته فأكون له أشد استعداداً قال فأوحى الله عز وجل إلى ملك الموت أن يقبض روحه ساعة ثم يرسله قال فقبض نفسه ساعة ثم أرسله فقال كيف رأيت قال لقد بلغني عنه شد فلقد كان أشد مما بلغني عنه قال: فإني أسألك حاجة أخرى قال: ما هي قال: أحب أن تُريني النار قال مالي من ذلك شيء ولكن سأطلب لك فإن قدرت عليه فعلت فسأل ربه فأمره فبسط جناحه فحمله عليه حتى صعد به إلى السماء فانتهى به إلى باب من أبواب النار فدقه فقيل من هذا فقال: ملك الموت فقال: مرحباً بأمين الله عز وجل فهل أمرت فينا بشيء فقال لو أمرت فيكم بشيء لم أناظركم ولكن هذا إدريس سألني أن أريه النار فأحب أن تروها إياه ففُتح منها بشيء فجاءت بأمر عظيم فخر إدريس مغشياً عليه فحمله ملك الموت وحبسه في ناحية حتى أفاق فقال له ملك الموت ما أحببت أن يصيبك هذا في صحبتي ولكن سألتني فأحببت أن أسعفك قال فإني أسألك حاجة أخرى لا أسألك غيرها قال ما هي قال أحب أن تريني الجنة قال مالي من ذلك شيء ولكن سأطلب لك فإن قدرت عليه فعلت فانطلق به إلى خزنة الجنة فدق باباً من أبوابها فقيل: من هذا فقال: أنا ملك الموت فقالوا: مرحباً بأمين الله عز وجل هل أمرت فينا بشيء فقال لو أمرت فيكم بشيء لم أناظركم ولكن هذا إدريس سألني أن أريه الجنة فأحب أن تروها إياه قال ففتح له الباب فدخل فنظر إلى شيء لم ينظر مثله قط فطاف فيها ساعة ثم قال له ملك الموت انطلق بنا فلنخرج فانطلق إلى شجرة فتعلق بها ثم قال والله لا أخرج حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني فقال ملك الموت إنه ليس حينها ولا زمانها ولكن طلبت إليهم لترى فانطلق بنا فأبى عليه فقبـض الله ملكاً

(١) في أ [قوله ورفعناه مكاناً علياً].

من الملائكة فقال له ملك الموت اجعل هذا الملك حكماً بيني وبينك قال نعم قال الملك ما هو يا ملك الموت فأخبره بالقصة ثم نظر الملك إلى إدريس قال ما تقول يا إدريس قال أقول إن الله يقولُ «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» ويقول :(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) وقد وردتها وقال لأهل الجنة (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِين) فوالله لا أخرج منها حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني قال: فسمع هاتفاً يقول بإذني دخل وبإذني فعل فخل سبيله فذلك قوله عز وجل: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا) أي الجنة ويقال: ورفعناه في القدر والمنزلة ويقال ورفعناه في النبوة والعلم ثم قال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس وسائر الأنبياء ﴿الذين أنعم الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ من سائر الأنبياء وهم ولد نوح إلا إدريس يعني: حملناهم على السفينة وهم في صلب نوح وأولاده ﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل﴾ وهو يعقوب ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ يعني: أكرمنا بالنبوة ويقال أكرمنا بالإسلام ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ يعني: واصطفينا بعد هؤلاء ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ يعني القرآن ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ يعني يسجدون ويكون من خوف الله عز وجل بكى جمع باكي وقوله: (سُجَّداً وبُكِيًّا) منصوب على الحال وقال بعضهم: بكياً مصدر بكى يبكي بكياً وقال الزجاج: من قال مصدر فهو خطأ لأن سجداً جمع ساجد وبكيا عطف عليه فهو جمع باك.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني بقي بعد الأنبياء الذين ذكرناهم من أول السورة إلى هنا بقيات سوء وهم اليهود والنصارى يقال: في الرداء خَلْفٌ بإمكان اللام وفي الصلاح خَلَفَ بفتح اللام ثم وصفهم فقال ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: عن وقتها ويقال تركوها ويقال تركوا الصلاة فلم يؤدوها وجحدو بها فكفروا ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ يعني وشربوا الخمر ويقال استحلوا الزنا ويقال استحلوا نكاح الأخت من الأب ﴿فسوف يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ يعني شراً ويقال وادي في جهنم يسمى غيًّا ويقال مجازاة الغي كما قال الله عز وجل (يَلْقَ أَثَاماً) أي مجازاة الآثام ثم استثني فقال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ يعني رجع عن الكفر ﴿وَآمَنَ﴾ يعني: صدق بتوحيد الله عز وجل ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ بعد التوبة ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم ثم قال عز وجل: ﴿جَنَّاتِ عدْنٍ﴾ صار خفضاً لأن معناه يدخلون في (جنات عَدْنٍ) ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني ما غاب عن العباد والله عز وجل لا يغيب عنه شيء ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياً﴾ يعني جائياً كائناً وقال القتبي (مَأْتِيًا) يعني المفعول بمعنى الفاعل يعني: جائياً وقال الزجاج: ﴿مَأْتِياً﴾ مفعول من الإتيان لأن كل من وصل إليك فقد وصلت إليه وكل من أتاك فقد أتيته ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ يعني في الجنة ﴿لَغْواً﴾ يعني حَلفاً وباطلاً ﴿إِلَّا سَلَاماً﴾ يعني: ويسمعون السلام يسلم بعضهم على بعض وقال الزجاج: اللغو ما يلغي من الكلام ويؤثم فيه والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة يعني لا يسمعون إلا سلامهم ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يعني: طعامهم على مقدار البكرة والعشي

وليس هناك بُكرة ولا عشي وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبهم ذلك فأخبرهم الله تعالى أن لهم في الجنة هذه الحالة وقال القتبي الناس يختلفون في مطاعمهم فمنهم من يأكل وجبة أي: مرة واحدة في كل يوم ومنهم من يأكل متى وجد بغير وقت ولا عداد ومنهم من يأكل الغداء والعشاء فأعدل هذه الأحوال كلها وأنفعها الغداء والعشاء والعرب تقول عن ترك العشاء مهرمة ويذهب بلحم الكارة يعني باطن الفخذ فجعل طعام أهل الجنة على قدر ذلك.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ يعني: مطيعاً لله عز وجل ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وذلك حين أبطأ عليه الوحي وعند سؤال أهل مكة عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وأمر الروح عاتب المصطفى جبريل فقال الله تعالى (قل يا جبريل لمحمد)[١] ومعناه: قل (وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّك) ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما بين النفختين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يعني: لم يكن ينساك ربك حيث لم يوح إليك ويقال ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا جميع ما مضى من أمر الدنيا وما بين ذلك ما يكون في هذا الوقت منا (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) أي قد علم الله عز وجل ما كان وما يكون وما هو كائن حافظ لذلك ويقال ما نسيك ربك وإن تأخر عنك الوحي وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس[٢] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل: ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت هذه الآية ثم قال ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالق السموات وخالق الأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق ويقال رب السموات والأرض أي مالكهما وعالم بهما وما فيهما ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي: أطعه ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ يعني: أحبس نفسك على عبادته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يعني: هل تعلم أحداً يسمى الله سوى الله وهل تعلم أحداً يسمى الرحمن سواه ويقال هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: أبي بن خلف ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ للبعث على معنى الاستفهام، قال الله عز وجل ﴿أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني أولا يتعظ ويعتبر ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ قرأ: نافع وعاصم وابن عامر[٣] أولا يذْكر بجزم الذال مع التخفيف يعني أولا يعلم والباقون أولا يَذَّكّر بنصب الذال والتشديد ثم قال ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم الرب بنفسه ليبعثنهم وليجمعنهم يعني الذين أنكروا البعث ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يعني الشياطين ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ يعني: لنجمعنهم ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٨ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي والدلائل والحديث عند البخاري في بدء الخلق (٣٢١٨)، وفي التفسير (٤٧٣١، ٧٤٥٥)، والترمذي في التفسير (٣١٥٨) والنسائي ٢/٣٤.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٥، النشر ٢/٣١٨.

يعني: جميعاً قال أهل اللغة الجثيُّ جمع جَاثٍي مثل بارِك وبرك وساجد وسجداوقاعد وقعد أي على ركبهم ولا يقدرون على القيام قال الزجاج الأصل في الجسم وجاز كسرها إتباعاً لكسر التاء وهو نصب على الحال ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني لنخرجن من كل شيعة من أهل كل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ يعني جرأة على الله عز وجل وهم القادة في الكفر وساداتهم نبدأ بهم فنعذبهم في النار وروي عن سفيان عن علي بن[1] الأقمر عن أبي[2] الأحوص[3] في قوله أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا قال يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: أحق بالنار دخولاً.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال بعضهم: أي داخلها المؤمن والكافر يدخلون على الصراط وهو ممدود على متن جهنم ويقال (وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا) يعني الكفار الذين تقدم ذكرهم وروى سفيان عن إبراهيم[4] بن مهاجر عن مجاهد أن نافع بن الأزرق خاصم[5] ابن عباس وقال لا يردها مؤمن فقال ابن عباس أما أنا وأنت فسندخلها فانظر بماذا نخرج منها إن خرجنا وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يمرون على الصراط بأعمالهم فمنهم من يمر مثل البرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ومنهم من يمر كأجود الخيل ومنهم من يمر كأجود الإبل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى أن آخرهم مثل رجل نوره على إبهامي قدميه ثم يتكفأ به الصراط والصراط دحض مزلة كحد السيف عليه حسك[6] كحسك العتاد وحافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس فبين مارٍ ناج وبين مخدوش مكدوش في النار والملائكة عليهم السلام يقولون رب سلم سلم وروى سفيان عن ثور بن خالد بن[7] معدان قال إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا أَلَمْ يَعِدْنا رَبُّنا أَنَّا نَرِدُ النَّارَ قال إنكم قد مررتم بها وهي خامدة فذلك قوله عز وجل (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) يعني: الخلائق على الصراط والصراط في جهنم ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ يعني قضاء واجباً قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مندوست قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا عدي بن عاصم قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا جرير عن أبي السليل[8] عن غنيم بن قيس[9] عن أبي العوام قال: قال كعب[10] هل تدرون ما قوله (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) قالوا: ما كنا نرى ورودها إلا دخولها قال لا ولكن ورودها أن

(١) علي بن الأقمر بن عمرو بن الحارث أبو الوازع الهمداني الوادعي الكوفي انظر طبقات ابن سعد ٣١١/٦، الجرح والتعديل ١٧٤/٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) عوف بن مالك بن نضلة الجشمي أبو الأحوص الكوفي من بني جشم بن معاوية ابن بكر بن هوازن انظر التهذيب ١٦٩/٨.

(٤) إبراهيم بن مهاجر بن جابر البجلي أبو إسحاق الكوفي انظر التهذيب ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٦) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم. لسان العرب ٢/ ٨٧٤.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨١ وعزاه لابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والحكيم وابن الأنباري في المصاحف.

(٨) ضريب بن نقير. ويقال نقير ويقال نقيل أو السليل القيسي الجريري البصري. انظر التهذيب ٤/٤٥٧ ـ ٤٥٨.

(٩) غنيم بن قيس المازني الكعبي أبو العنبر البصري. انظر التهذيب ٨/ ٢٥١.

(١٠) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

يجاء بجهنم كأنها متن أهالة حتى إذا استوت عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم نادى مناد خذي أصحابك وذري أصحابي فتخسف بكل ولي لها وهي أعلم بهم من الوالد لولده وينجو المؤمنون ندية ثيابهم قال: وحدثني الثقة بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية كبا لها الناس كبوةً شديدة وحزنوا حتى بلغ الحزن كل مبلغ وليس أحداً إلا وهو يدخلها فأنشأوا يبكون قال ونزل بابن مظعون ضيف فقال لامرأته هيئي لنا طعاماً فاستوصي ـ بضيفك خيراً حتى آتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانتهى إليه وهم يبكون فقال ما يبكيكم قالوا نزلت هذه الآية (وَإِنْ مِنكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا) يقول: كائناً لا يبقى أحد إلا دخلها فأنشأ عثمان بن مظعون يبكي ثم انصرف إلى منزله باكياً فلما أتى منزله سمعت امرأته بكاءه فأنشأت تبكي فلما سمع الضيف بكاءهما أنشأ يبكي فلما دخل عليهما عثمان قال لها ما يبكيك قالت سمعت بكاءك فبكيت فقال للضيف وأنت ما يبكيك قال عرفن أن الذي أبكاكما سيبكيني قال عثمان فابكوا وحق لكم أن تبكوا أنزل الله عز وجل اليوم على رسوله (وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا) فمكثوا بعد هذه الآية سنتين ثم قال عز وجل ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ وروي في بعض الأخبار أنه نزل بعد ثلاثة أيام (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا) الشرك والمعاصي ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ يعني: المشركين جميعاً فيها ففرح المسلمون بها قرأ الكسائي[1] ننجي بالتخفيف والباقون بالنصب والتشديد نجا ينجي ونجا ينجي بمعنى واحد.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ تعرض عليهم يعني واضحات قد بين فيها الحلال والحرام ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني إن النضر بن الحارث قال لأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: أهل مكة قالوا لأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً﴾ يعني أهل الدينين يعني منزلاً قرأ ابن كثير[2] مُقاماً بضم الميم والباقون بالنصب فمن قرأ بالضم فهو الإقامة يقال أقمت إقامة ومقاماً ومن قرأ بالنصب فهو المكان الذي يقام فيه ﴿وأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ يعني: مجلساً وذلك أنهم لبسوا الثياب ودهنوا الرؤوس ثم قالوا للمؤمنين أي الفريقين خير منزلةً المسلمون أو المشركون وأرادوا أن يصرفوهم عن دينهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ يعني: أكثر أموالاً وَرِئْياً يعني: منظراً حسناً فلم يُغن عنهم ذلك من عذاب الله شيئاً قرأ نافع وابن عامر[3] وريًّا بتشديد الياء بغير همز يعني النعمة والباقون ورئياً بالهمز بغير تشديد يعني المنظر قال أبو عبيد وهكذا نقرأ مهموزاً لأنه من رؤية العين وإنما هي المنظر ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ يعني: قل يا محمد من كان في الكفر والشرك ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ يعني: يزيد له مالاً وولداً قوله فليمدد هذا لفظ الأمر ومعناه الخبر وتأويله أن الله عز وجل جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها ويمده فيها كما قال (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعمَهُون) ﴿حَتَّى

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٦، النشر ٣١٨/٣.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٦، النشر ٣١٨/٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٦.

إذا رأوا ما يوعدون﴾ يعني في الآخرة من العذاب والثواب ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أي قيام الساعة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ يعني فسيعرفون يوم القيامة ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني صنيعاً في الدنيا ومنزلاً في الآخرة ﴿وأَضْعَفُ جُنْداً﴾ يعني أقل عدداً وقوة ومنعة أهم أم المؤمنون ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ يعني: يزيد الله عز وجل الذين آمنوا بالمنسوخ هدى بالناسخ ليعملوا بالناسخ دون المنسوخ ويقال جعل جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم ويزيدهم بصيرة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ وقد ذكرناه ﴿وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ يعني: وأفضل مرجعاً في الآخرة.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ﴾ يعني لأعطين ﴿مَالاً وَوَلَداً﴾ في الجنة روى أسباط عن السدي أن خباب[1] بن الأرت كان صائغاً يعمل للعاص بن وائل حلياً فجاء يسأله أجره فقال له العاص أنتم تزعمون أن لنا بعثة وجنة وناراً فإذا كان يوم القيامة فإني سأوتى مَالاً وَوَلداً وأعطيك منه فنزل(أفرأيتَ الذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) في الجنة قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو[2] مالاً وَوَلَداً بفتح اللام والواو في كل القرآن غير أن أبا عمرو قرأ في سورة نوح بالضم وهكذا روي عن مجاد وقرأ حمزة والكسائي بضم الواو وجزم اللام من هاهنا إلى آخر السورة والتي في الزخرف والتي في سورة نوح وقال أبو عبيد إنما قرأ هكذا لأنهما جعلا الوُلْد غير الوَلَد فيقال الوُلْد جماعة الأهل والوَلَد واحد وقال الزجاج: الوُلْد مثل أسد وأُسْد وجائز أن يكون الوَلد بمعنى الولد قال أبو عبيد والذي عندنا في ذلك أنهما لغتان والذي نختاره منهما بفتح اللام والواو قال الله عز وجل رداً على الكافرين ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يقول أنظر في اللوح المحفوظ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ يعني: أعقد عند الله عقد التوحيد وهو قول لا إله إلا الله ويقال أعهد إليه أن يجعل له في الجنة ﴿كَلَّا﴾ وهو رد عليه لا يعطي له ذلك واعلم أنه ليس في النصف الأول كلا وأما النصف الثاني ففيه نيف وثلاثون موضعاً ففي بعض المواضع في معنى الرد للكلام الأول وفى بعض المواضع للتنبيه في معنى الافتتاح وفي بعض المواضع يحتمل كلا الوجهين فأول ذلك أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً كَلَّا تم الكلام عنده أي كلا لم يطلع الغيب ولم يتخذ عهداً ثم ابتدأ ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من ذلك قوله (فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا) لا يقتلونك وأما الذي هو للتنبيه في معنى الافتتاح قوله عز وجل (حَتَّى زرتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون) وقوله عز وجل سنكتب ما يقول من الكذب يعني: سنحفظ ما يقول ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني: نزيد له من العذاب مداً يعني بعضه على إثر بعضٍ ﴿وَنَرِثُهُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨٣ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي والبيهقي في الدلائل وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٧ النشر ٢/٣١٩.

﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني نعطيه غير ما يقول في الجنة ونعطي ما يدعي لنفسه لغيره **﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾** يعني وحيداً بغير مال ولا ولد **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾** يعني منعة في الآخرة **﴿كَلَّا﴾** رد عليهم أي لا يكون لهم منعة. وتم الكلام ثم قال **﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾** يعني: الآلهة يجحدون عبادتهم **﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾** يعني الآلهة تكون عوناً عليهم في العذاب ويقال عدواً لهم في الآخرة ومن هذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طلب رضا المخلوق في معصية الخالق عاد الحامد له ذاماً كما أن المشركين طلبوا العز من الآلهة فصارت الآلهة عوناً عليهم في العذاب فوجدوا ضد ما طلبوا منه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾

ثم قال عز وجل **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾** يعني ألم تخبر في القرآن أنا سلطنا الشياطين **﴿عَلَى الكَافِرِين﴾** مجازاة لهم ويقال خلينا بينهم وبين الكفار فلم نعصمهم **﴿تَؤُزُّهُمْ ازّاً﴾** يعني: تزعجهم إزعاجاً وتغريهم إغراء حتى يركبوا المعاصي قال الضحاك (تَؤُزهم أَزًّا) أي تأمرهم أمراً وقال الحسن: تقدمهم إقداماً إلى الشر وقال الكلبي نزلت الآية في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط **﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾** يا محمد **﴿عليهم﴾** بالعذاب **إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾** يعني أيام الحياة ثم ينزل بهم العذاب ويقال نعد عليهم النفس بعد النفس ويقال الأيام والليالي والشهور قوله عز وجل: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾** يعني: أذكر يوم نحشر المتقين الذين اتقوا الشرك والفواحش **﴿إِلَى الرَّحْمَن وَفْداً﴾** يعني: ركباناً على النوق والوفد جمع الوافد مثل الركب جمع راكب والوفد الذي يأتي بالخبر والبشارة ويجازي بالحياة الكرامة وروي عن علي بن أبي طالب[1] أنه قرأ (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً) ثم قال أتدرون على أي شيء يحشرون أما والله ما يحشرون على أقدامهم ولكن يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها أرحال الذهب وأزمتها من الزبرجد ثم ينطلق بهم حتى يقرعوا باب الجنة وقال الربيع بن أنس يوفدون إلى ربهم فيكرمون ويعظمون ويشفعون ويحيون فيها بالسلام ويقال: إلى الرحمن يعني إلى الرحمة وهي الجنة ويقال إلى الرحمن يعني إلى دار الرحمن ثم قال عز وجل **﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾** يعني: عطاشاً مشاة وأصله الورود على الماء والوارد على الماء يكون عطشاناً.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٥ وعزاه لابن مردويه.

بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

قال عز وجل ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ يعني: من جاء بلا إله إلا الله وقال سفيان الثوري: إلا من قدم عملاً صالحاً ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ يعني: قلتم قولاً عظيماً منكراً ويقال كذباً وزوراً قال عز وجل ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يعني: من قولهم ﴿وتنشق الأرض﴾ يعني: تتصدع الأرض ﴿وتخر الجبال هَدًّا﴾ تصير الجبال كسراً ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ يعني بأن قالوا لله ولد روي عن بعض الصحابة أنه قال كان بنـو آدم لا يأتون شجرة إلا أصابوا منها منفعة حتى قالت فجرة بني آدم اتَّخذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً اقشعرت الأرض وهلك الشجر وقرأ نافع والكسائي يكاد بالياء على لفظ التذكير والباقون بالتاء لأن الفعل مقدم فيجوز كلاهما وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وعاصم في رواية حفص[١] يَتَفَطَّرْنَ بالتـاء والباقون بالنون ومعناهما واحد مثل ينشق وتنشق قال الله عز وجل ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ يعني: ما اتخذ الله عز وجل ولداً﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ يعني إلا أقر بالعبودية يعني به الملائكة وعيسى وعزيراً وغيرهم ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُم﴾ يعني حفظ عليهم أعمالهم ليجازيهم بها ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يعني: علم عددهم ويقال أحصاهم أي حفظ أعمالهم فيجازيهم وعدهم عداً أي علم عدد أنفاسهم وحركاتهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ يعني وحيداً بغير مال ولا ولد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ يعني: يحبهم ويحببهم إلى الناس وقال كعب[٢] الأحبار قرأت في التوراة أنها لم تكن محبة لأحد إلا كان بدؤها من الله تعالى ينزل إلى أهل السماء ثم ينزلها إلى أهل الأرض ثم قرأت القرآن فوجدته فيه وهو قوله سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً يعني محبة في أنفس القوم روى سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة[٣] أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إذا أحب الله عبداً نادى جبريل قد أحببت فلاناً فأحبوه فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في الأرض وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل قد أبغضت فلاناً فينادي في أهل السماء ثم تنزل له البغضاء في أهل الأرض قوله عز وجل ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني هَوَّنا قراءة القرآن على لسانـك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموحدين ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ أي جُدلاً بالباطل شديدي الخصومة وهو جمع ألد مثل أصم وصم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني من قبل قريش ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ يعني هل ترى منهم من أحد ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أي صوتاً خفياً والركز الصوت الذي لا يفهم والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

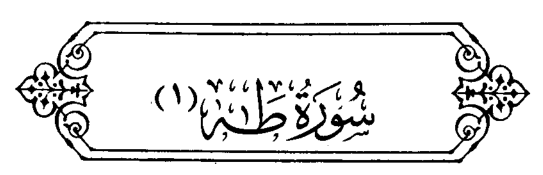
---

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٨ ـ ٤٤٩، النشر ٢/٣١٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨٧ وعزاه لعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

والحديث عند البخاري ٦/٣٠٣ في بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم ٤/٢٠٣٠ في البر والصلة ١٥٧/٢٦٣٧.



وهي مائة وثلاثون وخمس آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿طَهَ﴾ قرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي في رواية أبي بكر[٢] «طِهِ» بكسر الطاء والهاء وقرأ ابن عامر وابن كثير وعاصم في رواية حفص بنصب الطاء والهاء وقرأ نافع وسطاً بين النصب والكسر وقرأ أبو عمرو وابن

---

(١) سميت سورة (طاها) باسم الحرفين المنطوق بهما في أولها. ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من إسميهما تبعاً لرسم المصحف. وكذلك وردت تسميتها في كتب السنة. وذكر في الاتقان عن السخاوي أنها تسمى أيضاً (سورة الكليم) وفيه عن الهذلي في كامله أنها تسمى (سورة موسى). وهي مكية كلها على قول الجمهور واقتصر عليه ابن عطية وكثير من المفسرين وفي الاتقان أنه استثنى منها آية ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ الآية.

واستظهر في الإتقان أن يستثنى منها قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ الآية.

لما أخرج أبو يعلى والبزار عن أبي رافع قال: أضاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضيفاً فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب فقال: لا إلا برهن فأتيت النبي فأخبرته فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض. فلم أخرج من عنده حتى نزلت

﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ الآية.

احتوت هذه السورة على التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتتحها. والتنويه بأنه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية فأكثرها في هذا الشأن. والتنويه بعظمة الله تعالى. وإثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس. فضرب المثل لنزول القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكلام الله موسى ـ عليه السلام ـ.

وبسط نشأة موسى وتأييد الله إياه ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه. وإنجاء الله موسى وقومه وغرق فرعون وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط. وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبد بنو إسرائيل في مغيب موسى ـ عليه السلام ـ.

وكل ذلك تعريض بأن مآل بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى ـ عليه السلام ـ من النصر على معانديه. فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد عمن أعرضوا عن القرآن ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه.

وتذكير الناس بعداوة الشيطان للإنسان بما تضمنته قصة خلق آدم. ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا. وتسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما يقولونه وتثبيته على الدين. وتخلل ذلك إثبات البعث. وتهويل يوم القيامة وما يتقدمه من الحوادث والأهوال. انظر التحرير ١٦/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٩، ٤٥٠ إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٢٤٢.

العلاء بنصب الطاء وكسر الهاء قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية أبي صالح لما نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوحي بمكة اجتهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العبادة فاشتد عليه فجعل يصلي الليل كله حتى شق عليه ذلك ونحل جسمه وتغير لونه فقال أبو جهل وأصحابه إنك شقي فأتنا بآية أنه ليس مع إلهك إله فنزل (طَه) يعني يا رجل بلسان عك وعني به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال عكرمة والسدي هو بالنبطية وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال طه كقولك يا فلان ويقال إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا صلى رفع رجلاً ووضع أخرى فنزل طه يعني طىء الأرض بقدميك جميعاً وقال مجاهد[1] طه فواتح السورة ويقال طا طرب المؤمنين في الجنة وها هو إن الكافرين في النار ويقال الطا طلب المؤمنين في الحرب والها هرب الكافرين ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ يعني لتنصب نفسك وتتعبها ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ يقول: لم ننزله إلا عظة لمن يسلم وقال القتبي في الآية تقديم يقول ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى لا أن تشقى ثم قال ﴿تَنْزِيلاً﴾ يعني: تنزل به جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ يعني: نزل من عند خالق السموات والأرض العلى يعني: الرفيع وقال أهل اللغة العلى جمع العليا يقول السماء العليا والسموات العلى ثم قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: حكمه ويقال كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض ويقال استوى استولى وملك[2] كما يقال استوى فلان على بلد كذا يعني استولى عليها وملكها فالله تعالى بين لخلقه قدرته وتمام ملكه أنه يملك العرش وله ما في السموات وما في الأرض فذلك قوله: ﴿لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ يعني: ما تحت الأرض السابعة السفلى وروى أسباط عن السدي[3] في قوله عز وجل وما تحت الثرى قال الصخرة التي تحت الأرض السابعة وهي صخرة خضراء وهي سجين التي فيها كتاب الكفار ويقال الثرى تراب رطب مقدار خمسمائة عام تحت الأرض ولولا ذلك لأحرقت النار الدنيا وما فيها وروي عن ابن عباس أنه قال بسطت الأرض على الصخرة والصخرة بين قرني الثور والثور على الثرى وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله عز وجل.

وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: تعلن بالقرآن ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ أَخْفَى﴾ يعني: ما أسررت في نفسك «وَأَخْفَى» يعني: ما لم تحدث في نفسك وهذا قول الضحاك[4] وقال ابن عباس هكذا وقال عكرمة[5]: السر ما حدث الرجل به أهله وأخفى ما تكلمت به نفسك وروى منصور بن عمار عن بعض الصحابة قال السر ما أسررت

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٩ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) سقط في أ.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٩ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٩٠ وعزاه لعبد بن حميد.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٩٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

به في نفسك وأخفى من السر ما لم يطلع عليه أحد أنه كائنٌ ثم قال عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: هو الله الخالق الرزاق لا خالق ولا رازق غيره ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى﴾ يعني الصفات العلى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ يعني: خبر موسى ـ عليه السلام ـ في القرآن ثم أخبره فقال ﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾[1] يعني انزلوا مكانكم وقفوا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ يعني: أبصرت ناراً وذلك حين رجع من مدين مع أهله أصابهم البرد فرأى موسى ناراً من البعد فقال لهم امكثوا إني آنست ناراً ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ يعني: بشعلة وهو ما اقتبس من عود ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدَىً﴾ يعني هادياً يدلنا على الطريق وكان موسى ـ عليه السلام ـ ضل الطريق وكانت ليلة مظلمة ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني: إنتهى إلى النار ﴿نُودِيَ﴾يعني: دعي ﴿يَا مُوسَى﴾ قال ابن عباس: لما أتى النار فإذا هي نار بيضاء تستوقد من شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها وهي خضراء فجعل يتعجب منها وقال في رواية (كعب)[2] فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال ذلك أهوى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها ثم عاد فطاف بها فنودي يا موسى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِي ٱلْمُقَدَّسِ طُوَىً﴾[3] يعني: المطهر قال مقاتل طوى إسم الوادي وقال مجاهد: أي طي الأرض حافياً قال عامة المفسرين: إنما أمره أن يخلع نعليه لأنهما كانا من جلد حمار ميت وقال بعضهم أراد أن يصيب باطن قدميه من الوادي ليتبرك به وروي عن كعب الأحبار أنه كان جالساً في المسجد فجاء رجل يصلي فخلع نعليه ثم جاء آخر يصلي فخلع نعليه ثم جاء آخر فخلع نعليه فقال لهم كعب الأحبار أنبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمركم بهذا قالوا لا قال فلم تخلعون نعالكم إذا صليتم قالوا سمعنا الله تعالى يقول: إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى قال أتدرون من أي شيء كانتا نعلاه قالوا لا قال إنما كانتا من جلد حمار ميت فأمره الله تعالى أن يخلعها ليمسه القدس كله وقال عكرمة «إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى» قال لكي يمس راحة قدميه الأرض الطيبة قرأ ابن كثير وأبو عمرو[4] أني أنا ربك بنصب الألف يعني بأني أنا ربك على معنى البناء والباقون بكسر الهاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع طوى بنصب الواو بغير تنوين وقرأ الباقون بالتنوين

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾

ثم قال: ﴿وَأنا اخترتك﴾ يعني: اصطفيتك للرسالة قرأ حمزة بكسر الألف وتشديد النون وإنا اخترناك بالنون بلفظ الجماعة والباقون بنصب الألف وتخفيف النون وأنا اخترتك بالتاء قال أبو عبيدة وبهذا نقرأ لموافقة الخط

---

(١) قرأ حمزة ﴿لأهله امكثوا﴾ بضم الهاء وكذلك في القصص على أهل الكلمة وعلى لغة من يقول: مررت به يا فتى. وقرأ الباقون: بكسر الهاء وإنما كسروا لمجاورة الكسرة. انظر حجة القراءات ٤٥٠.

(٢) في أ [الكلبي وهب بن منبه].

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (طوى) بغير تنوين. وقرأ الباقون بالتنوين. قال الزجاج: فمن لم ينون ترك صرفه من وجهين: أحدهما أن يكون معدولاً عن (طاوٍ) فيصير مثل (عمر) المعدول عن (عامر) فلا يصرف كما لا ينصرف (عمر) والوجه الآخر أن يكون إسماً للبقعة، كما قال جل وعز: ﴿في البقعة المباركة من الشجرة﴾. ومن ينونه فهو إسم الوادي وهو مذكر سمي بمذكر على (فُعَل) مثل (حُطَم). انظر ابن زنجلة ٤٥١.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٥١، النشر ٢/٣١٩.

يعني: بخط عثمان ثم قال: ﴿فاستمع لما يوحى﴾ يعني: إعمل بما تؤمر وتنهى ثم قال ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ يعني: أطعني واستقم على توحيدي ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ يعني: لتذكرني فيها ويقال إن نسيت الصلاة فصلها إذا ذكرتها وروى الزهري عن سعيد[1] بن المسيب أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين نام عن الصلاة حتى طلعت الشمس قال: من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها إن الله تعالى يقول (أقم الصلاة لذكري) قال بعضهم هذا خطاب لموسى وقال بعضهم: هذا لخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قوله (واتبع هواه فتردى) ثم رجع إلى قصة موسى بقوله: (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى وما[2] تلك بيمينك يا موسى) ثم قال ﴿إن الساعة آتية﴾يعني: كائنة ﴿أكاد أخفيها﴾ يعني: أسرها عن نفسي فكيف أعلنها لكم يا أهل مكة هكذا روي عن جماعة من المتقدمين وقال إبن عباس[3] في رواية أبي صالح وقال القتبي كذلك في قراءة أبي أخفيها من نفسي وهكذا روى جماعة من المتقدمين وروى طلحة عن عطاء في قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) عن نفسي وروي في إحدى الروايتين عن أبي بن كعب أنه كان يقول (أكاد أخفيها) بنصب الألف يعني: أكاد أظهرها وهي قراءة سعيد بن جبير[4] قال أهل اللغة[5]خفي أي أظهر وقال امرؤ القيس «خفاهن من انفاقهن كأنما * خفاهن ودق من عشيّ مجلب» يذكر الفرس أنه استخرج الفأرة من جحرهن كالمطر ثم قال ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ يعني: لتثاب كل نفس بما تعمل ثم قال عز وجل ﴿فلا يصدنك عنها﴾يعني: لا يصرفنك عنها يعني: عن الإقرار بقيام الساعة ﴿من لا يؤمن بها﴾ يعني: من لا يصدق بقيام الساعة ﴿واتبع هواه فتردى﴾ يعني: فتهلك ويقال: الردى الموت والهلاك ثم رجع إلى قصة موسى - عليه السلام -

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

فقال عز وجل ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ يعني: أي الشيء الذي بيدك وكان عالماً بما في يده ولكن الحكمة في سؤاله لإزالة الوحشة عن موسى لأن موسى كان خائفاً مستوحشاً كرجل دخل على ملك (وهو خائف) فسأله عن أي شيء فتزول بعض الوحشة عنه بذلك ويستأنس بسؤاله وقال بعضهم: إنما سأله تقريراً له أن ما في يده عصاً

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩٣ وعزاه للترمذي وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والحديث عند مسلم من رواية أبي قتادة ١/٤٧٣ في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة (٣١١/٦٨١) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (٣٠٩/٦٨٠).

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩٤ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩٤ وعزاه لابن أبي حاتم وابن الأنباري.

(٥) خفا: خفا البرق خفواً وخُفُواً: لمع وخفا الشيء خفواً: ظهر. وخَفَى الشيء خفياً وخُفياً: أظهره واستخرجه. يقال: خفى المطر الفئارَ إذا أخرجهن من أنفاقهن، أي من حجرهن، قال امرؤ القيس يصف فرساً:

خَفَاهنَّ مِنْ أنفاقِهنَّ كأنما خَفاهنَّ وَدقٌ من سَحَاب مُرَكَّبِ

لكيلا يخاف إذا صار ثعباناً ﴿قال﴾ موسى ﴿هي عصاي أتوكأ عليها﴾ يعني: أعتمد عليها إذا أعييت ﴿وأهش بها على غنمي﴾ يعني: أخبط بها ورق الشجر لغنمي فإن قيل إنما سأله عما في يده ولم يسأله عما يصنع بها فلم أجاب موسى عن شيء لم يسأله عنه قيل له قد قال بعضهم في الآية إضمار يعني (وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي) فقال وما تصنع بها قال(أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي) وقال بعضهم: إنما خاف موسى بذلك لأنه أمره بأن يخلع نعليه فخاف أن يأمره بإلقاء عصاه فجعل يذكر منافع عصاه فقال: (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي) ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ يعني: حوائج أخرى وواحدها مأربة وقال مقاتل كان موسى يحمل زاده على عصاه إذا سار وكان يركزها في الأرض فيخرج الماء وتضيء له بالليل بغير قمر فيهتدي على غنمه وروى أسباط عن السدي قال كان عصا موسى من عود شجر آس من شجر الجنة وكان استودعها إياه ملك من الملائكة في صورة إنسان يعني عند شعيب وقال علي بن أبي طالب كان عصى موسى من عود ورد من شجر الجنة إثني عشر ذراعاً من ذراع موسى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسى﴾ يعني: الق عصاك من يدك فظن موسى أنه يأمره بإلقائها على وجه الرفض فلم يجد بداً ﴿فَأَلْقَاها فإذا هِيَ حيَّةٌ تَسْعى﴾ يعني تسرح وتسير على بطنها رافعة رأسهـا فخاف موسى وولى هارباً ﴿قال﴾ الله تعالى لموسى: ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ يعني: سنجعلها عصاً كما كانت أول مرة وأصل السيرة الطريقة كما يقال فلان على سيرة فلان أي على طريقته وإنما صار نصباً لنـزع الخافض والمعنى سنعيدها إلى حالها الأولى فتناولها موسى فإذا هي عصاً كما كانت ثم قال عز وجل ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ قال الكلبي: الجناح أسفل الإبط يعني أدخل يدك تحت إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ لها شعاع يضيء (كضوء)[1] الشمس ﴿من غير سوء﴾ يعني من غير برص ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ يعني علامة أُخرى مع العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ يعني: العظمى ومعناه: لنريك الكبرى من آياتنا ولهذا لم يقل الكبريات لأنه وقع المعنى على واحدة.

اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ يعني علا وتكبر وادعى الربوبية أي اذهب إليه وادعه إلى الإسلام ﴿قال﴾ موسى عليه السلام ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِيْ صَدْرِي﴾ يعني يا رب وسع لي قلبي حتى لا أخاف منه ويقال لين قلبي بالإسلام حتى أثبت عليه ﴿وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي﴾ يعني: هون علي ما أمرتني به ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ يعني: ابسط العقدة أي: الرتة من لساني ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ يعني: يفهموا كلامي وذلـك أن موسى ـ عليه السلام ـ في حـال صغره رفعه فرعون في حجره فلطمه موسى لطمة ويقال أخذ بلحيته ومدها إلى الأرض فقال فرعون هذا من أعدائي الذين كنت أتخوف به فقالت امرأته آسية بنت مزاحم صبي جاهل لا عقل له ضع له طستاً من ذهب وطستاً من نار حتى تعلم ما يصنع فوضعوا له ذلك فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ فأخذ يده وأهوى بها إلى النار فأخذ جمرة فوضعها في فيه فكانت الرثوثة من ذلك فذلك قوله تعالى: يفقهوا قولي ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ يعني إجعل لي معيناً من أهلي أخي هارون ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ حتى يكون قوة لي والأزر الظهر وجماعته أزر ويراد به القوة

(١) سقط في ظ.

يقال آزرت فلاناً على الأمر أي قويته عليه وإنما نصب هارون لوقوع الفعل عليه والمعنى إجعل هارون أخي وزيراً فصار الوزير المفعول الثاني ثم قال تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ يعني في نبوتي قرأ ابن عامر[1] أُشدد بنصب الألف وأُشركه بضم الألف على معنى الخبر عن نفسه أي أنا أفعل ذلك وإنما كان جزماً على الجزاء في الأمر وبالباقون أشدد بضم الألف وأشركه بنصب الألف على معنى الدعاء يعني اللهم أشدد به أزري وأشركه في أمري قال أبو عبيدة بهذه القراءة نقرأ ويكون حرف ابن مسعود شـاهداً لها وكان يقرأ هارون أخي وأشدد به أزري وأشركه في أمري وفي حرف أُبي وأشركه في أمري وأشدد به أزري قال كأنه دعا ثم قال ﴿كي نسبحك كثيراً﴾ يعني نصلي لك كثيراً ﴿ونذكرك﴾ باللسان ﴿كثيراً﴾ يعني: على كل حال (إنكَ كنت بنا بصيراً﴾ أي كنت عالماً بنا في الأحوال كلها ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد أُوتيت سؤلك يا موسى﴾يعني: أعطيناك ما سألته

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ يعني قد أكرمتك بكرامات قبل هذا من غير أن تسألني ثم بين له الكرامات والنعم فقال ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي﴾ أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم (أي: ألهمنا أمك ما ألهمت ويقال ما يوحى على الحجر يعني كان إلهاماً ولم يكن وحياً)[2] ﴿أن اقذفيه في التابوت﴾ يعني اجعلي موسى في التابوت ثم ﴿فاقذفيه في اليم﴾ يعني اطرحيه في البحر ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ يعني شاطيء البحر ﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾ يعني: آل فرعون ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ يعني: ألقيت محبتي عليك فكل من رآك أحبك ﴿ولتصنع على عيني﴾ يقول ما يصنع بك على منظر مني وبعلمي وبإرادتي ﴿إذ تمشي أختك فتقول﴾ لآل فرعون ﴿هل أدلكم على من يكفله﴾ يعني: أرشدكم على من يكفله يعني[3] يضمه ويحوطه ويرضعه ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها﴾ يعني رددناك إليـها لتطيب نفسها ﴿ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم﴾ يعني من القود ﴿وفتناك فتوناً﴾ يعني ابتليناك ببلاء بعد بلاء ويقال بنعمة على إثر نعمة قال أخبرني الثقة بإسناده عن سعيد بن جبير[4] قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى لموسى (وفتناك فتوناً) فسألته عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فإن له حديثاً طويلاً فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس ليخبرني ما وعدني من حيث الفتون فقال ابن عباس تذاكر فرعـون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريتـه أنبياء وملوكـاً فقال بعضهم إن بني إسـرائيل لينتظرون ذلك ما يشكون فيه قال فرعون فكيف ترون فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار

(١) انظر حجة القراءات ٤٥٢، النشر ٢/٣٣٠.

(٢) سقط في ظ.

(٣) سقط في أ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩٦ وعزاه لابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد بن حميد والنسائي وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ففعلوا فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون وأن الصغار يذبحون قالوا: يوشك أن يفني بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فاقتلوا عاماً ودعوا (أي اتركوا) عاماً لا تقتلوا منهم أحداً فنشأ الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا فتخافون مكاثرتهم إياكم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانيةً حتى إذا كان من قابل حملت بموسى فوقع في قلبها من الحزن والهم ما لا يعلم فذلك من الفتون يا ابن جبير فأدخل عليه في بطن أمه ما يراد به فأوحى الله تعالى إليها أنْ «لَا تَخَافِيْ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» وأمرها إذا هي ـ ولدته أن تجعله في التابوت ثم تلقيه في اليم فلما ولدته فعلت ما أُمرت به حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها ما فعلت يا بني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيته بيدي إلى دواب البحر تأكله فانطلق به الماء حتى رقابه عند فرضة مستقى جواري امرأة فرعون فرأينه وأخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن لبعض إن في هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ـ فحملنه كهيئته حتى دخلن به عليها فدفعنه إليها فلما فتحنه ونظرت فإذا فيه غلام[1] فألقى عليه منها محبة لم يلق مثلها على أحد قط من البشر وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً من ذكر كل شيء إلا ذكر موسى فلما سمع الذباحون بذكره أقبلوا إلى امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت للذباحين اصبروا علي فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ولا ينقص حتى آتي فرعون فأستوهبه إياه فإن وهبه لي فقد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم أنهكم فلما أتت فرعون به قالت قرة عيني لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا (أو نتخذه ولداً)[2] فقال فرعون يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له لهداهُ الله تعالى بموسى كما هدى به امرأته قال فأرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار له ظِئراً فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل من ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك ثم أمرت به فأخرج إلى السوق واجتمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم تجد فأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته قصي أثره فاطلبيه هل تسمعين له ذكراً أحي ابني أم قد أكلته الدواب في البحر فبصرت به عن جنب أي عن بعد والجنب أن ـ يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهي إلى جنبه لا يشعر به فقالت «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون» فقالوا وما يدريك ما نصحهم له وهل يعرفونه حتى شكوا في ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في الملك ورجاء منفعته فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بالخبر فجاءت فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتليء جنباه رياً فانطلق البشرى إلى امرأة فرعون يبشرونها بأن قد وجدنا لابنك ظئراً فأرسلت إليها فأتت به وبها فلما رأت ما تصنع به قالت لها امكثي عندي ترضعين ابني فإني لم أحب مثل حبه شيئاً قط قالت لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلو خيراً إلا فعلت به فإن طابت نفسك وإلا فإني غير تاركةٍ بيتي وولدي فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها فأنجزها الله عز وجل وعده فأنبته الله نباتاً حسناً فلم تزل بنو إسرائيل تمتنع به من الظلم والسحرة فلما ترعرع أي: كبر قالت امرأة فرعون لأم موسى أريني ابني فواعدتها يوماً وقالت لخزانها وقهارمتها لا يبقى منكم أحد إلا استقبل ابني بهدية وكرامة فلم تزل الهدايا والكرامة تستقبله من حيث خرج من بيت أمه إلى أن دخل إلى امرأة فرعون فلما دخل عليها بَجَّلَتْه: أُكرمته وفرحت به وأعجبها وبَجَّلت أُمه

---

(١) سقط في ظ.

(٢) سقط في أ.

بحسن أثرها عليه ثم قالت لأدخلن به على فرعون فليبجلنّه وليكرمنّه فلما دخلت به عليه جعلته في حجره فتناول موسى لحية فرعون ومدها إلى الأرض فقالت له الغواة من أعداء الله تعالى ألا ترى إلى ما وعد الله لإبراهيم أنه يريد أن يصرعك وينزع عنك ملكك ويهلكك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت له ما بدالك في هذا الصبي الذي وهبته لي فقال ألا ترينه أنه سيصرعني فقالت له اجعل بينك وبينه أمراً لتعرف فيه الحق ائت بجمرتين ولؤلؤتين فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين علمت أنه يعقل وإن تناول الجمرتين فاعلم بأنه لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب ذلك إليه فتناول الجمرتين فانتزعوهما منه مخافة أن يحرقا يديه فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم ولا بسخرة فبينما هو يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى واشتد غضبه فوكزه فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي فأتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا فقال ائتوني بقاتله والذي يشهد عليه آخذ لكم بحقكم فبينما هم يطوفون لا يجدون شيئاً وإذا موسى قد رأى من الغد الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني وقد ندم موسى على ما كان منه بالأمس وكره الذي رأى مثل ذلك فخاف الإسرائيلي (من موسى)[1] وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال الإسرائيلي إنك لغـوي مبين فخاف الإسرائيلي وظن أنه يريده فقال يـا موسى ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِيْ كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ فتتاركا فانطلق الفرعوني إلى قومه وأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر فأرسل فرعون إلى الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى وجاء رجل من شيعة موسى فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره الخبر وذلك من الفتون يا ابن جبير فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاءً قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه تعالى فإنه قال عسى ربي أن يهديني إلى سواء السبيل «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُوْدَانِ» يعني: أنهما حابستان غنمهما فقال: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس قالتا ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضل حياضهم فنسقي بها فسقى لهما موسى فجعل يغدق في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاة فراغاً فانصرفتا إلى أبيهما بغنمهما وانصرف موسى إلى شجرة فاستظل بها فاستنكر أبو الجاريتين سرعة صدورهما بغنمهما حُفلاً بطاناً فقال إن لكما لشأناً اليوم فحدثـاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه فأتته فدعته فلما دخل على شعيب فأخبره بالقصة قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين أي ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته وقوله تعالى «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْـرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ» فاحتملته الغيرة وقال وما يدريك ما أمانته وقوته فقالت أما قوته لما سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى منه في ذلك السقي وأما أمانته فإنه ما نظرني حين أقبلت إليه صَوَّبَ رأسه ولم يرفعه ولم ينظر إلي حين بلغته رسالتك فقال لي: امشي خلفي وانعتي إلي الطريق يعني صفي ودليني على الطريق فسرى عن أبيها فقال له هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك فكان على موسى ثمان سنين واجبة بسنتين عدة منه فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله كان من أمر ما قص الله عليك في القرآن فشكى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة ـ تمنعه عن كثير من الكلام فسأل ربه أن يعينه بأخيه ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به فأعطاه الله سؤاله وحل عقدة من لسانه فاندفع موسى بالعصا فلقي

---

(١) سقط في ظ.

هارون فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما بعد بالدخول ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقال إنا رسولا ربك قال فمن ربكما فأخبراه بالذي قص الله تعالى في القرآن فقال مَا تُرِيدَانِ فقال موسى أريد أن تؤمن بالله وأن ترسل معنا بني إسرائيل فأبى عليه ذلك وقال ائت بآية إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فاقتحم فرعون عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل وأخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ثم أعادها إلى كمه فصارت إلى لونها الأول فاستشار الملأ فيما رأى فقالوا اجمع لها السحرة فإنهم بأرضك كثير فأرسل فرعون في المدائن فحضر له كل ساحر متعالم فلما أتوا فرعون قالوا بما يعمل هذان الساحران قالوا يعملان بالحيات فقالوا والله ما في الأرض أحد يعمل بالحيات التي نعمل فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ويوم الزينة هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة وهو يوم عاشوراء فقال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر فنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعنون بذلك موسى وهارون استهزاءً بهما قالت السحرة لموسى لِقُدْرَتِهِمْ بسحرهم إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال لهم موسى: ألقوا فألقوا حبالهم وعصيبهم فرأى موسى من سحرهم شيئاً عظيماً فأوجس في نفسه خيفة فأوحى الله تعالى إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فاغرة فاها فجعلت تلتقم العصي والحبال حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته فلما عرفت السحرة ذلك قالوا لو كان هذا ساحراً لم يبلغ من سحره كل هذا ولكن هذا أمر من أمر الله تعالى فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً فأصبح فرعون فبعث في الْمَدَائِنِ حَاشِرِين وتبعهم بجنود عظيمة فنسي موسى أين يضرب بعصاه البحر فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال قوم موسى إنا لمدركون إفعل ما أمرك الله تعالى فذكر موسى ما وعده الله عز وجل فضرب البحر بعصاه فانفلق البحر إثنتي عشرة فرقة فلما جاوز أصحاب موسى كلهم ودخل أصحاب فرعون كلهم التقى البحر عليهم فقال أصحاب موسى إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق فدعا موسى ربه فأخرجه حتى استيقنوا فمضوا حتى أنزلهم منزلاً ثم قال لهم أطيعوا هارون فإني استخلفته عليكم وإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً وصامهن وكره أن يكلمه ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه فقال له ربه حين أتاه لم أفطرت وهو أعلم قال يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الريح قال الله تعالى أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ارجع حتى تصوم عشرة أيام ثم إئتني ففعل موسى الذي أمره ربه تعالى فلما رأى قوم موسى أنه لم يأتهم للأجل ساءهم ذلك وأخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار من حلي آل فرعون فتفرقت بنو إسرائيل فقالت فرقة للسامري ما هذا قال هذا ربكم ولكن موسى أخطأ الطريق فقالوا لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى وقالت فرقة هذا من عمل الشيطان وليس هذا بربنا وأسرت فرقة في قلوبهم التصديق وقال لهم هارون إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فلما كلم الله موسى أخبره بما لقي قومه بعده فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه كما قصَّ الله عز وجل في هذه السورة وذلك من الفتون يا ابن جبير، ويقال: وفتناك فتوناً أي اختبرناك اختباراً ويقال أخلصناك إخلاصاً كما قال تعالى إنه كان مخلصاً ثم قال عز وجل ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيْ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي عشر سنين عند شعيب ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ يعني: على وقت مقدور عليك يا موسى وهذا قول ابن عباس وقال مقاتل: على قدر أي على ميقات ويقال على موعد ويقال على قدر من تكلمي إياك ويقال على قضاء قضيته ويقال على تمام الذي يوحى للأنبياء أربعين سنة.

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾

فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ يعني: اخترتك للرسالة والنبوة ولإقامة حجتي فقال موسى يا رب حسبي حسبي فقد تمت كرامتي فقال الله تعالى ﴿إذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ يعني آياتي التسع ﴿وَلَاتَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ يعني لا تفترا ولا تعجزا ولا تضعفا عن أداء رسالتي ﴿إذْهَبَا إِلَى فِرْعَونَ إِنَّه طَغَى﴾ يعني تكبر وعلا ﴿فَقولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ يعني: كلاماً باللين والشفقة والرفق لأن الرؤساء بكلام اللين أقرب إلى الإنقياد من الكلام العنيف أي قولا له أيها الملك ويقال فقولا له قولا ليناً لوجوب حقه عليك بما رباك وإن كان كافراً وروى أسباط عن السدي قال: القول اللين أن موسى جاءه فقال له تسلم وتؤمن بما جئت به وتعبد رب العالمين على أن لك شباباً لا تهرم أبداً ويكون لك ملكاً لا ينزع منك أبداً حتى تموت ولا ينزع منك لذة الطعام والشراب والجماع أبداً حتى تموت فإذا مت دخلت الجنة قال فكأنه أعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان هامان غائباً فقال له فرعون إن لي من أوامره وهو غائب حتى يقدم فلم يلبث أن قدم هامان فقال له فرعون علمت بأن ذلك الرجل أتاني فقال هامان ومن ذلك الرجل فقال فرعون هو موسى قال فما قال لك فأخبره بالذي دعاه إليه قال: فما قلت له قال: لقد دعاني إلى أمر أعجبني فقال له هامان قد كنت أرى لك عقلاً وأن لك رأياً بيناً أنت رب أفتريد أن تكون مربوباً وبينا أنت تعبد أفتريد أن تعبد غيرك فغلبه على رأيه فأبى ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ يعني: يتعظ أو يسلم وقال الزجاج: لعل في اللغة للترجي والتطمع يقول لعله يصير إلى خير والله سبحانه وتعالى خاطب العباد بما يعقلون والمعنى عند سيبويه إذهبا على رجائكما وطمعكما وقد علم الله تعالى أنه لا يتذكر ولا يخشى إلا أن الحجة إنما تجب بإبائه وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فعليك باللين لأنك لست بأفضل من موسى وهارون ولا الذي تأمره بالمعروف ليس بأسوأ من فرعون وقد أمرهما الله تعالى بأن يأمراه باللين فأنت أولى أن تأمر وتنهى باللين.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿قَالَا﴾ أي: موسى وهارون ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ يعني أن يبادر بعقوبتنا يقال قد فرط منه أمر أي: قد بدر منه قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: أنا فرطكم على الحوض ويقال أن يفرط علينا يعني أن يضر بنا ﴿أو أن يطغى﴾ يعني: يقتلنا قال كان هذا القول من موسى وهارون حين رجع موسى إلى مصر وأوحى إليهما فقالا عند ذلك إننا نخاف أن - يفرط علينا أو أن يطغى وقال بعضهم قد قال الله ذلك لموسى عند طور سيناء فأجابه موسى عن نفسه وعن هارون فأضاف القول إليهما جميعاً ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا﴾ أي لا تخافا

عقوبة فرعون عند أداء الرسالة ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أي معينكما ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي أسمع ما يرد عليكما وأرى ما يصنع بكما ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ يعني فاذهبا إلى فرعون ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله في الآية دليل أنه يجوز رواية الأخبار بالمعنى وإنما العبرة للمعنى دون اللفظ لأن الله تعالى حكى معنى واحدة بألفاظ مختلفة وقال في آية أخرى «فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» وقا ها هنا «إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ» وقال في آية أخرى «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ» وقال في موضع (آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى) ثم قال تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ يعني: لا تستعبدهم ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: باليد والعصا ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أي: على من طلب الحق ورغب في الإسلام قال الزجاج والسلام على من اتبع الهدى معناه أن من اتبع الهدى فقد سلم عذاب الله وسخطه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ في الآخرة بالدوام ﴿عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ عن التوحيد والإيمان ولم يذكر في الآية أنهما أتيا فرعون لأن في الكلام دليلاً عليه حيث ذكر قول فرعون ومعناه أنهما أتيا فرعون وأديا إليه الرسالة وقالا (إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ ولم يقل من ربي تكبراً منه ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يعني: شكله ويقال خلق لكل ذكر أنثى شبهه ﴿ثم هدى﴾ يعني: ألهمه الأكل والشرب والجماع وقال القتبي: الإهداء أصله الإرشاد[1] كقوله (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي) ثم الإرشاد مرقيكون بالدعاء ومرة بالبيان وقد ذكرناه في سورة الأعراف ومرة بالإلهام كقوله «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» أي: صورته ثُمَّ هَدَى أي ألهمه إتيان الاناث ويقال ألهمه طلب المرعي وتوقى المهالك وقال الحسن[2] أعطى كل شيء من خلق ما يصلح له ثم هداه أن موسى أخبره بالبعث والجزاء وأمر الآخرة وقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ يعني: ما حال القرون الماضية وما شأنها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ يعني لا يخفى على ربي ﴿ولا ينسى﴾ ما كان من أمرهم وقال مجاهد لا يضل ربي أي لا يخفى على ربي شيء واحد وقال السدي أي لا يغفل ولا يترك وكان الحسن يقرأ لا يضل بضم الياء يعني لا يضله الله يعني به الكتاب وإلى هذا الموضع حكاية كلام موسى ثم إن الله تبارك وتعالى قال لمشركي مكة ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ يعني: موضع القرار وهو الرب[3] الذي ذكر موسى لفرعون ودعاه إلى عبادته قرأ حمزة والكسائي وعاصم مهداً والباقون مهاداً أي: فراشاً وبساطاً قال أبو عبيد المهد الفعل يقال مهدت مهداً والمهاد اسم ـ الموضع ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يعني: حصل لكم فيها طرقاً ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فأخرجنا به أزواجاً﴾ يعني: أنبتنا بالمطر أصنافاً وألواناً ﴿مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ مختلف ألوانه ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر يعني لتأكلوا منه وترعوا أنعامكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني إن في اختلاف ألوانه ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لعبرات ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ يعني: لذوي العقول من الناس.

مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٢ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) سقط في أ.

﴿ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: آدم خلقناه من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد موتكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يعني: نحييكم ونخرجكم من الأرض ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ ثم رجع إلى قصة فرعون فقال ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني العلامات والدلائل ﴿فَكَذَّبَ﴾ بالآيات ﴿وَأَبَى﴾ أن يسلم ﴿قَالَ﴾ فرعون وقومه ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ﴾ يعني: ميعاداً لا نخلفه ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سِوًى﴾ أي: لا نجاوزه مكاناً سوى ذلك المكان وهذه قراءة نافع وأبي عمرو والكسائي وابن كثير يقرؤون بالكسر قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة[١] سُوى بضم السين معناه الإنصاف وقال بعضهم سُوى وسِوَى لغتان وقال مجاهد[٢]: مكاناً منصفاً بينهم وقال السدي[٣] أي عدلاً بينهم وقال القتبي: أي وسطاً بين الفريقين ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يعني: يوم عيد لهم وهو يوم النيروز وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس[٤] قال هو يوم عاشورا ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ يعني إذا حشر الناس واجتمعوا على وقت الضحى ﴿فتولى فرعون﴾ يعني: رجع إلى أهله ﴿فجمع كيده﴾ يعني: سحرته ﴿ثم أتى﴾ يعني: أتى الميعاد قرأ بعضهم يوم الزينة بنصب الميم والمعنى يقع في يوم الزينة وقراءة العامة يوم الزينة رفع على معنى خبر الابتداء ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا﴾ يعني: ضيق الله عليكم الدنيا لا تفتروا على الله كذباً قال الزجاج ويلكم منصوب على أن الزمهم الله ويلاً ويجوز أن يكون على النداء كما قال (يا ويلتا أألد) قوله ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ يعني: يأخذكم بعذاب ويهلككم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٥] فيسحتكم بضم الياء وكسر الحاء والباقون فيسحتكم بالنصب وهما لغتان يقال سحته وأسحته إذا استأصله وأهلكه ﴿وقد خاب من افترى﴾ يعني: خسر من اختلق على الله كذباً.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾

﴿فتنازعوا أمرهم بينهم﴾ أي تناظروا أمرهم بينهم يعني: اختلفوا فيما بينهم سراً من فرعون وهم السحرة وقالوا[٦] فيما بينهم إن كان ما يقول موسى حقاً واجباً فيكون الغلبة لموسى وذلك قوله عز وجل (فتنازعوا أمرهم

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٥٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٠٢/٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٠٣/٤ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٠٣/٤ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٥٤.

(٦) سقط في أ.

بينهم) يعني: تناظروا أمرهم بينهم فذلك قوله ﴿وأسروا النجوى﴾ أي: أخفوا الكلام ﴿قالوا إن هذان لساحران﴾ يعني موسى وهارون ﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما﴾ قرأ أبو عمرو[1] إن هذين لساحران لأن إن تنصب ما بعدها وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص إن هاذان بجزم أن وتشديد نون هاذان عند ابن كثير خاصة والباقون إنَّ بالنصب والتشديد هاذان لساحران بالتخفيف وقال أبو عبيد نقرأ بهذا ورأيت في مصحف عثمان إن هاذين بهذا الخط ليس فيه ألف وهكذا رأيت رفع الاثنين في جميع المصاحف بإسقاط الألف وإذا كتبوا النصب والخفض كتبوها بالياء وحكى الكسائي عن أبي الحارث بن كعب وخثعم وزيد وأهل تلك الناحية الرفع مكان النصب قال القائل:[2]

أي قلوص راكب تراها طاروا علاهن فطر علاها

(١) ونزيده إيضاحاً فنقول: قرأ أبو عمرو: ﴿إنّ هذَيْن﴾ بالياء لأن تثنية المنصوب والمجرور بالياء في لغة فصحاء العرب وأبو عمرو مستغن عن إقامة دليل على صحتها كما أن القارىء في قول الله جل وعز ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ مستغن عن الاحتجاج على منازعه إن نازعه في صحة قراءته.

وقرأ الباقون: ﴿إن هذان لساحران﴾ بالألف وحجتهم أنها مكتوبة هكذا في مصحف الإمام عثمان وهذا الحرف في كتاب الله مشكل على أهل اللغة وقد كثر اختلافهم في تفسيره ونحن نذكر جميع ما قال النحويون:

فحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب وهو رأس رؤساء الرواة: أنها لغة كنانة يجعلون ألف الإثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد يقولون: (أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان) قال الشاعر:

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابي التراب عقيم

قال الزجاج: وقال النحويون القدماء: ها هنا هاء مضمرة والمعنى: (إنه هذان لساحران) كما تقول: (إنه زيد منطلق) ثم تقول (إنَّ زيدٌ منطلق)، وقال المبرد: أحسن ما قيل في هذا أن يجعل (إن) بمعنى نعم المعنى: نعم هذان لساحران فيكون ابتداء وخبراً قال الشاعر:

ويقُلْنَ: شَيْبٌ قَدْ عَلاَ كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّه

أي: نعم فإن قيل: (اللام لا تدخل بين المبتدأ وخبره لا يقال: (زيد لقائم) فما وجه (هذان لساحران)؟

الجواب في ذلك: أن من العرب من يدخل لام التوكيد في خبر المبتدأ فيقول زيد لأخوك قال الشاعر:

خالي لأنت ومن جريرٌ خالُهُ ينل العلاءَ ويكرم الأخوالا

وقال الزجاج المعنى: (نعم هذان لساحران) وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى: (أجل) فيكون المعنى والله أعلم (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) قالوا: أجل تصديقاً من بعضهم لبعض ثم قالوا: هذان لساحران ويجوز أن يكون اللام داخلة في الخبر على التوكيد. قال الفراء في هذان إنهم زادوا فيها النون في التثنية وتركوها على حالها في الرفع والنصب والجر كما فعلوا في (الذي) فقالوا الذين في الرفع والنصب والجر. وقرأ حفص: (إن هذان) بتخفيف (إن) جعل (إن) بمعنى (ما) واللام بمعنى (إلا) التقدير (ما هذان إلا ساحران) وقرأ ابن كثير: (إن) بالتخفيف و(هذان) بالتشديد و(إن) تكون أيضاً بمعنى (ما) والأصل في (هذان): (هذان) فحذف الألف وجعل التشديد عوضاً من الألف المحذوفة التي كانت في (هذا) ومن العرب من إذا حذف عوض ومنهم من إذا حذف لم يعوض فمن عوض آثر تمام الكلمة ومن لم يعوض آثر التخفيف ومثل ذلك في تصغير (مُغْتَسَل) منهم من يقول (مُغَيْسِل) فلم يعوِّض ومنهم من يقول(مُغَيْسِيل) فعوض من التاء ياء. انظر حجة القراءات ٤٥٤ ـ ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٢) نسب بعض الناس هذه الأبيات لرجل من بني الحرث ولم يذكر اسمه منهم ابن السّيد، وقال قوم هي لأبي النجم ومنهم السيوطي، وقال أبو الحسن الأخفش في شرح نوادر أبي زيد (قال أبو حاتم سألت أبا عبيدة عن هذه الأبيات فقال لي انقط عليها هذا من صنعة المفضل) وفي هذه الأبيات اختلاف كثير في الرواية فيروى قوم شالوا علاهن إلخ. وترتيب الأبيات في رواية الصحاح هكذا.

أي قلوص راكب تراها فاشدد بمثنى حَقَب حَقْواها

وقال آخر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في الجد غايتاها

وقال آخر[١]:

فمن يك بالمدينة أمسى رحله فإني وقيار بها لغريب

وروى وكيع عن الأعمش عن إبراهيم قالوا كانوا يريدون أن الألف والياء في القراءة سواء إن هاذان لساحران وإن هاذين لساحرين سواء وفي مصحف عبد الله إن هاذان ساحران وفي مصحف أبي إن ذان إلا ساحران ثم قال الله عز وجل: ﴿وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ يقول: برجالكم الأمثل فالأمثل يقول ليغلبا على الرجال من أهل العقول والشرف وقال القتبي: يقال هؤلاء طريقة القوم أي: أشرافهم ويقال: أراد سنتكم ودينكم وقال الزجاج: معناه يذهبا بأهل طريقتكم كما قال (واسْألِ الْقَرْيَةَ التي كنا فيها) ثم قال عز وجل: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو[٢] فأجمعوا بجر الألف ونصب الميم يعني جيئوا بكل كيد تقدرون عليه لا تبقوا منه شيئاً وقرأ الباقون فأجمعوا بقطع الألف وكسر الميم ومعناه ليكن عزمكم كلكم على الكيد مجمعاً عليه ولا تختلفوا فتخذلوا وقال أبو عبيد بهذا نقرأ لأن الناس عليها ولصحتها في العربية يقال أجمعت الأمر واجتمعت عليه وإنما يقال جمعت الشيء المتفرق فتجمع ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ يعني: جميعاً قال أبو عبيد الصف المصلى وقال الزجاج: ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم قال ويجوز أن قوله ثم ائتوا مصطفين أي ـ مجتمعين ليكون أنظم لكم ولأمركم وأشد لهيبتكم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ يعني قد فاز ونجا اليوم من علا بالغلبة ثم جمع فرعون بينهم وبين موسى عليه السلام ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ يعني السحرة ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ يعني: أن تطرح عصاك على الأرض ﴿وإما أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ إلى الأرض ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ فألقوا، في الكلام مضمر ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يعني

= ناجية وناجيا أباها طاروا علاهن فطر علاها

والشاهد هنافي قوله (حقواها) حيث أتى به بالألف في محل النصب وقد سبق الاستشهاد بهذه الأبيات على أن من العرب من يقول إذا وصل الحروف والأدوات بالضمائر لداك وعلاك وألاك في لديك وعليك وإليك فلا يقلبون ألفهن ياء وهي لغة بني الحرث بن كعب وعندهم يقلبون كل ياء ساكنة مفتوح ما قبلها ألفاً. (والقَلوص) بفتح القاف الناقة الشابة وقوله طاروا علاهن معناه نفورا مسرعين أو ارتفعوا على أبلهم، والحَقَب بفتحتين حبل يشد به الرحل إلى بطن البعير مما يلي ذكره كي لا يجتذبه التصدير وحقواها هو مثنى حَقْو بفتح فسكون وهو الخصر ومشد الإزار. انظر ابن يعيش ١٢٩. وانظر الإنصاف ١٨، وابن عقيل ١/٥٢، والتصريح على التوضيح ١/٦٥، والعيني ١/١٣٣، ٣/٣٤٦، همع الهوامع ١/٣٩ والدر ١/٣٢، والأشموني ١/٧٠، الشذور ١/٧٠.

(١) البيت لضابىء بن الحرث البرجمي قاله وهو محبوس بالمدينة في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ انظر كتاب سيبويه وشرح شواهده للأعلم ١/٣٨، وانظر مجالس ثعلب ٣١٦، ٥٩٨ وانظر الإنصاف لابن الأنباري ٩٤، شرح المفصل لابن يعيش ٦٨/٨ خزانة الأدب للبغدادي ٤/٣٢٣ مغنى اللبيب لابن هشام وشرح شواهده للسيوطي ٤٧٥، ٦٢٢ همع الهوامع ٢/١٤٤ الدرر اللوامع ٢/٢٠٠ معاهد التنصيص للعباسي ١/٦٥ التصريح على التوضيح ١/٢٢٨ شرح الأشموني على الألفية ١/٢٨٦، والاستشهاد بالبيت على أن قوله «وقيار» مبتدأ حذف خبره والجملة على هذا اعتراضية بين إسم إن خبرها وتقدير الكلام فإني بها وقيار وكذلك لغريب فإن قلت فلم لا تجعل الخبر المذكور في الكلام خبراً عن قيار ويكون المحذوف خبر إن وما بالكم تلتزمون أن يكون الأمر على عكس ذلك؟ فالجواب أن هذا الذي ذكرته كان أمراً ممكناً لو لم تكن اللام في الخبر المذكور وذلك لأن اللام لا تدخل في خبر المبتدأ إلا شذوذاً وهي تدخل في خبر إن بلا شذوذ ولا نكر فحمل الكلام على الأمر السائغ الذي لا شذوذ فيه لازم لا محيص عنه وسيبويه يجعل الجملة من المبتدأ والخبر معطوفة في نية التأخر لا معترضة. انظر ابن عييش ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٥٦ النشر ٢/٣٢١.

تراءت إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ يعني: كأنها حيات وروي عن الحسن أنه كان يقرأ بالتاءتخيل لأن جمع العصي مؤنث وقراءة العامة بالياء يعني: سعيها.

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ يعني أضمر في قلبه الخوف وخاف أن لا يظفر به إن صنع القوم مثل ما صنع ويقال خاف من الحيات من جهة الطبع ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ يعني - أَوْحَى اللَّهُ تعالى إلى موسى عليه السلام أن لا تخف ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ يعني الغالب قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: اطرح ما في يمينك من العصا ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ يعني تلقم ما عملوا ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ يعني عمل سحر قرأ عاصم[1] في رواية حفص تلقف بالجزم والتخفيف وقرأ ابن كثير في الروايتين[2] تلقف بالنصب والتشديد وضم الفاء وقرأ الباقون بجزم الفاء لأنه جواب الأمر وقرأ حمزة والكسائي كيد سحر بغير ألف وقرأ الباقون كيد ساحر وقال أبو عبيد: بهذا نقرأ لأن إضافة الكيد إلى الرجل أولى من إضافته إلى السحر وقرأ بعضهم كيد سحر بنصب الدال جعله نصباً لوقوع الفعل عليه وهو قوله تعالى (إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحر) وهذا كقوله إنما ضربت زيداً وقراءة العامة بالضم لأنه خبر إن وما اسم ومعناه إن الذي صنعوه كيد سحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي: حيثما عمل ويقال لا يفوز حيثما كان وذهب قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِي السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ يعني: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وهذا قول الأخفش وقال الفراء والقتبي: وقعوا للسجود ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ يعني صدقنا به ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[3] يعني قبل أن آمركم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾ يعني موسى لعالمكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُم السِّحْرَ﴾ وإنما أراد به التلبيس على قومه لأنه علم أنهم لم يتعلموا من موسى وإنما علموا السحر قبل قدوم موسى وقبل ولادته ثم قال ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجلَكُم مِنْ خِلَافٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ يعني على أصول النخل على شاطىء النيل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ يعني: وأدوم أنا أم رب موسى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي لن نختار عبادتك وطاعتك ولن نتبع دينك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ﴾ يعني على دين الله بعدما جاءنا من العلامات ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يعني ولا (عبادتك على) عبادة الذي خلقنا ويقال هو على معنى القسم أي لن نختارك ودينك والذي فطرنا

(١) انظر حجة القراءات ٤٥٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٥٧.

(٣) قرأ القواس عن ابن كثير وورش وحفص (قال آمنتم) على الخبر. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «آآمنتم له» بهمزتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة مطولة.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ يقول اصنع ما أنت صانع فاحكم فينا من القطع والصلب ما شئت ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول لست بحاكم علينا ولا تملكنا إلا في الدنيا ما دام الروح فينا قوله تعالى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ يعني ما عملنا في حال الشرك ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ يعني ليغفر لنا ما أجبرتنا عليه من السحر يروى أن فرعون أكرههم على تعلم السحر ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعني الله خير لنا منك وأدوم وثواب الله عز وجل خير من عطائك وأبقى مما وعدتنا به من التعذيب.

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ أي مشركاً والهاء للعباد وهذا قول الله تعالى عز وجل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه من يأت ربه يوم القيامة كافراً ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ يعني لا يموت فيستريح من العذاب ولا يحيى حياة تنفعه قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً﴾ يعني يأتي يوم القيامة مؤمناً يعني مصدقاً ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ يعني الفضائل في الجنة ثم قال ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ يعني هي جنات عدن ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني دائمين في الجنة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ يعني ثواب من وحد قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ يعني سر بعبادي ليلاً ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً﴾ يعني بين لهم طريقاً ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ يعني يابساً ﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً﴾ يعني إدراك فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ الغرق قرأ حمزة[1] لا تخف دركاً على معنى النهي يعني لا تخف أن يدركك فرعون وقرأ الباقون لا تخاف بالألف ومعناه لست تخاف وقال أبو عبيد بهذا نقرأ لأن من قرأ بالجزم يلزم أن يخشى لأنه حرف معطوف على الذي قبله ثم قال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ يعني لحقهم فرعون بجموعه ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ يعني أصابهم من البحر ما أصابهم ويقال علاهم من البحر ما علاهم حين التقى البحر عليهم ويقال فغشيهم من البحر ما غرقهم ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ يعني أهلكهم وما نجا بنفسه ويقال أضلهم بحمله إياهم على الضلالة وما هدى يعني ما هداهم إلى الرشاد وهذا رد لقوله«اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ»ويقال: وما هدى يعني ما هداه إلى الصواب ثم ذكر نعمته على بني إسرائيل فقال عز وجل ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ يعني: فرعون ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّوْرِ الأَيْمَنَ﴾ يعني يمين موسى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ حيث كانوا في التيه.

كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني: قال لهم كلوا من حلالات ما رزقناكم يعني أعطيناكم قرأ حمزة

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٥٨، النشر ٢/٣٢١.

والكسائي(١) (أنجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم)(٢) الثلاثة كلها بالتاء وقرأ ابن كثير وعاصم ونافع، وابن عامر الثلاثة بالألف والنون وقرأ أبو عمرو بالتاء إلا قَوْلَهُ وواعدناكم ثم قال ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي لا ترفعوا منه شيئاً للغد ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ يعني فيجب وينزل عليكم عذابي ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ يعني: يجب وينزل عليه غضبي ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ يعني: هلك وتردى في النار وقرأ الكسائي(٣) فيُحل بضم الحاء ومن يحلل بضم اللام والباقون كلاهما بالكسر فمن قرأ بالضم يعني: ينزل ومن قرأ بالكسر يعني: يجب ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: رجع من الشرك والذنوب وآمن يعني: صدق بالله ورسله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: خالصاً فيما بينه وبين ربه ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ يعني: علم أن لعمله ثواباً وهذا قول مقاتل وروى جويبر عن الضحاك في قوله ثم اهتدى أي ثم استقام وروى وكيع عن سفيان قال ثم اهتدى أي: مات على ذلك وقال ابن عباس (ثُمَّ اهْتَدَى) أي: مات على السنة.

وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ وذلك أن موسى لما انتهى إلى الجبل مع السبعين الذين اختارهم عجل موسى عليه السلام شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم بأن يتبعوه إلى الجبل فقال الله تعالى لموسى عليه السلام (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) يعني ما أسبقك عن قومك وتركت أصحابك خلفك ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ ويحتمل أن يكون أولاء صلة يعني: هم على أثري يجيئون من بعدي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ يعني لكي يزداد رضاك عني قوله عز وجل ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ وهذا على وجه الاختصار لأنه لم يذكر ما جرى من القصة لأنه ذكر في موضع آخر فها هنا اختصر الكلام وقال (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ) يعني ابتلينا قومك من بعد انطلاقك إلى الجبل ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ يعني أمرهم السامري بعبادة العجل ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي: حزيناً وقال القتبي أسفاً أي شديد الغضب فلما دخل المحلة رآهم حول العجل فأبصر ما يصنعون حوله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ يعني: وعداً صدقاً ومعناه وعد الله عز وجل بأن يدفع الكتاب إلى موسى ليقرأه عليهم ويهتدوا به ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ يعني أطالت عليكم المدة ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ﴾ يعني: يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ يعني: سخط ﴿مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ بترك عبادة الله ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ يعني: ما تعمدنا ذلك قرأ حمزة والكسائي بملكنا بضم الميم يعني ما فعلناه بسلطان كان لنا ولا قدرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر(٤) بملكنا بكسر الميم والملك ما حوته اليد وقرأ نافع وعاصم بمَلكنا بنصب الميم وهو بمعنى

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٠، النشر ٢/٣٢١.

(٢) في أ [وأوعدتكم وما رزقتكم].

(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٠، النشر ٢/٣٢١.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٦١، النشر ٢/٣٢١ - ٣٢٢.

الملك ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً﴾ يعني آثاماً ﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ يعني: من حلي آل فرعون ويقال أوزاراً يعني: حمالاً ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ يعني: فطرحناها في النار قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر[1] حَمَلْنَا بالنصب والتخفيف وقرأ الباقون بضم الحاء وتشديد الميم على فعل ما لم يُسم فاعله ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ يعني: ألقاها في النار كما ألقينا وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[2] قال كان السامري من أهل قرية يعبدون البقر فدخل في بني إسرائيل وأظهر الإسلام معهم وفي قلبه حب عبادة البقر فابتلى الله عز وجل به بني إسرائيل فكشف له عن بصره فرأى أثر فرس جبريل عليه فأخذ من أثرها وقد كان هارون قال لبني إسرائيل إنكم قد تحملتم من حلي آل فرعون وأمتعتهم معكم وهي نجسة فتطهروا منها وأوقدوا لهم ناراً فأحرقوها فيه فجعلوا يأتون بالحلي والأمتعة فيقذفونها في النار فانسبك الحلى وأقبل السامري وفي يده تلك القبضة من أثر فرس الرسول يعني جبريل عليه السلام فوقف فقال: يا نبي الله ألقها فيه فقال نعم وهارون لا يظن إلا أنه من الحلى الذي يأتي به بنو إسرائيل فقذفها فيه وقال كن عجلاً جسداً له خوار وقال السدي جاء جبريل ليذهب بموسى إلى ربه وجبريل على فرس فبصر به السامري ويقال إن ذلك الفرس فرس الحياة فأخذ قبضة من أثر حافر الفرس فلما ألقى التراب[3] في الحلي صار عجلاً جسداً له خوار فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ وقال بعضهم[4]: كان السامري من بني إسرائيل وقد ولدته أمه في غار مخافة أن يذبح فرباه جبريل عليه السلام في الغار حتى كبر فلما رأى جبريل على فرس الحياة عرفه لأنه قد كان رآه في صغره فأخذ قبضة من تراب من أثر حافر فرسه ثم ألقاها في جوف العجل فصار عجلاً له خوار يعني صوتاً وقال مجاهد خوار العجل كان هفيف الريح إذا دخلت جوفه وهكذا روي عن علي بن أبي طالب وإحدى الروايتين عن ابن عباس أنه قال صار عجلاً له لحم ودم وخرج منه الصوت مرة واحدة فقال (هَذَا إلهكم) يعني قال السامري وَإِلَهُ مُوسَى ﴿فَنَسِيَ﴾ يعني: أخطأ موسى الطريق وروى عكرمة عن ابن عباس قوله فنسي أي نسي موسى أن يخبركم أن هنا إله وقال قتادة قوله هذا إلهكم وإله موسى ولكن موسى نسي ربه عندكم قال الله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ يعني: لم يكن لهم عقل يعلموا أنه لم يكن إلههم حيث لا يكلمهم ولا يجيبهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً﴾ يعني: لا يقدر على دفع مضرتهم ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ أي: ولا جر منفعة.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٢، النشر ٢/٣٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٥ وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) سقط في ظ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٥ وعزاه لابن جرير.

﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: من قبل مجيء موسى إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ يعني: إنما ابتليتم بعبادة العجل ﴿وإن ربكم الرحمن﴾ يعني: إلهكم الرحمن ﴿فاتبعوني﴾ يعني اتبعوا ديني ﴿وأطيعوا أمري﴾ يعني قولي، قوله تعالى ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين﴾ يعني: لا نزال على عبادة العجل مقيمين ﴿حتى يرجع إلينا موسى﴾ فلما جاءهم موسى ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا﴾ يعني: أخطأوا الطريق بعبادة العجل ﴿ألا تتبعني﴾ يعني أن لا تتبع أمري في وصيتي فتناجزهم الحرب ثم قال: ﴿أفعصيت أمري﴾ يعني: أفتركت وصيتي ﴿قال﴾ له موسى ذلك بعد ما أخذ بشعر رأسه ولحيته فقال هارون عليه السلام ﴿يا ابن أمَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر يا ابن أمِّ بكسر الميم على معنى الإضافة والباقون بالنصب بمنزلة اسم واحد ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ أي: ولا بشعر رأسي ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ يعني: جعلتهم فريقين وألقيت بينهم الحرب ﴿ولم ترقب قولي﴾ يعني لم تنتظر قدومي ثم أقبل على السامري ﴿قال﴾ له ﴿فما خطبك يا سامري﴾ يقول ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت فـ ﴿قال﴾ السامري ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة بصرت بما لم يبصروا به يعني: رأيت ما لم يروا وعلمت ما لم يعلموا به يعني بني إسرائيل قال موسى ما الذي رأيت دون بني إسرائيل فقال رأيت جبريل على فرس الحياة قوله ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ يعني: من أثر فرس جبريل وفي قراءة عبد الله بن مسعود فقبصت قبصة بالصاد وروي عن الحسن[2] أنه قرأ فقبصت قبصة بالصاد وهو الأخذ بأطراف الأصابع وقراءة الجماعة فقبضت بالضاد وهو القبض بالكف ﴿فنبذتها﴾ يعني فطرحتها في العجل ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أي زينت لي نفسي فلا تلمني بهذا الفعل ولمهم بعبادتهم إياه ﴿قال﴾ له موسى ﴿فاذهب فإن لك في الحياة﴾ يعني عقوبتك في الدنيا ﴿أن تقول لا مساس﴾ يعني لا أمس أحداً ولا يمسني أحد ويقال ابتلي بالوسواس وأصل الوسواس من ذلك الوقت ويقال معناه: لن تخالط أحداً ولن يخالطك أحد فنفاه عن قومه ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ في الآخرة قرأ ابن كثير[3] وأبو عمرو لن تخلفه بكسر اللام لن تغيب عنه ومعناه تبعث يوم القيامة لا تقدر على غير ذلك ولا تخلفه وقرأ الباقون تخلفه بنصب اللام يعني: لن تؤخر ولن تجاوز عنه ويقال معناه يكافئك الله تعالى على ما فعلت والله لا يخلف الميعاد ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ يعني عابداً ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ روى معمر عن قتادة[4] قال في حرف ابن مسعود لنذبحنه ثم (لنحرقنه) وقرأ الحسن لنحرقنه بالتخفيف وقراءة العامة بالتشديد ونصب الحاء ومعناه أنه يحرق مرة بعد مرة وقرأ أبو جعفر[5] المدني لَنَحرُقنه بنصب النون وضم الراء ومعناه لنبردنه بالمبارد، ويقال حرقه وأحرقه ﴿ثم لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ يعني لنذرينه في البحر ذرواً والنسف التذرية.

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٢، النشر ٢/٣٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٢، النشر ٢/٣٢٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٧ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) يزيد بن القعقاع الإمام أبو جعفر المخزومي المدني القاري أحد القراء العشرة تابعي مشهور كبير القدر. انظر غاية النهاية ٢/٣٨٢ (٣٨٨٢).

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُم اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: أن العجل ليس بإلهكم وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ يعني: أحاط علمه بكل شيء وهو عالم بما كان وما يكون قال الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يعني أخبار ما مضى ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ يعني أعطيناك ﴿مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ يعني أكرمناك من عندنا بالقرآن ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يعني من يكفر بالقرآن ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً﴾ يعني: حملاً من الذنوب ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ يعني: دائمين في عقوبة الوزر ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ يعني: بئس الحمل الوزر وبئس ما يحملون من الذنوب قوله عز وجل ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ يعني: في يوم ينفخ في الصور وهو يوم القيامة قرأ أبو عمرو[1] ويوم ننفخ في الصور بالنون واحتج بقوله ونحشر المجرمين والباقون بالياء قال أبو عبيدة وبهذا نقرأ لأن النافخ ملك قد التقم الصور وأما الحشر فالله تعالى يحشرهم قال أبو عبيد: معناه ينفخ الأرواح في الصور وخالفه غيره ثم قال و﴿نحشر المجرمين﴾ أي: المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ يعني: عطاشاً ويقال عمياً ويقال زرق الأعين وروي عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس إن الله يقول في موضع (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً) (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُماً) فقال ابن عباس[2]: إن يوم القيامة له حالات في حال زرقاً وفي حال عمياً وقال القتبي زرقاً أي تبيض عيونهم من العمى أي ذهب السواد والناظر وقال الزجاج: يقال عطاشاً لأن من شدة العطش يتغير سواد الأعين حتى تزرق ثم قال: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: يتشاورون فيما بينهم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ يعني: ما مكثتم في القبور بعد الموت ﴿إِلَّا عَشْراً﴾ يعني: عشرة أيام ويقال عشر ساعات يقول الله عز وجل﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ يعني: أوفاهم عقلاً ويقال أعدلهم رأياً عند أنفسهم ﴿إِنْ لَبِثْتُم﴾ يعني: ما مكثتم في القبور ﴿إِلَّا يَوْماً وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ وذلك أن بني ثقيف من أهل مكة قالوا يا رسول الله كيف تكون الجبال يوم القيامة فنزل (وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يعني: عن أمر الجبال ﴿فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾ يعني: يقلعها ربي قلعاً من أمكنتها والنسف التذرية أي: تصيير الجبال كالهباء المنثور ﴿فَيَذَرُهَا قاعاً صَفْصَفاً﴾ قال القتبي: القاع واحدة القيعة وهي الأرض التي يعلوها السراب كالماء والصفصف المستوي وقال السدي القاع الأملس والصفصف المستوي ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾ يعني: لا ترى فيها صعوداً ولا هبوطاً ويقال لا ترى فيها أودية ولا

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٣ النشر ٢/٣٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٧ وعزاه لابن أبي حاتم.

أمتاً يعني شخوصاً والأمت في كلام العرب ما نشز من الأرض ثم قال عز وجل ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي﴾ أي: يقصدون نحو الداعي ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ ومعناه لا يميلون يميناً ولا شمالاً ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني: خضعت وذلت وسكنت الكلمات للرحمن يعني: لهيبة الرحمن ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ يعني: كلاماً خفياً ويقال صوت الأقدام كهمس الإبل.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الشفاعة ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ يعني: إذا قال بإخلاص القلب لا إله إلا الله في الدنيا ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الدنيا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ أي لا يدركون علم الله تعالى ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ قال قتادة[1]: ذلت الوجوه ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وقال القتبي: أصله من عنيته أي حبسته ومنه قيل للأسير (عان) وقال الزجاج رحمه الله عنت أي: خضعت يقال عنا يعنو أي: خضع ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ أي خسر من حمل شركاً ثم قال ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: من يعمل من الطاعات ومن للصلة والزينة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مع عمله لأن العمل لا يقبل بغير إيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾[2] قال قتادة[3]: أي: لا يزداد في سيآته ولا ينقص من حسناته أي لا يهضم قال السدي رحمه الله الظلم أن يأخذ لما لم يعمل والهضم النقصان من حقه قال القتبي ومنه قيل هضيم الكشحين أي ضامر الجنبين وهضمني الطعام أي أمرأني ويهضمني حقي قرأ ابن كثير فلا يخاف على معنى النهي والباقون فلا يخاف على معنى الخبر ثم قال عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ يعني: هكذا أنزلنا عليك جبريل ليقرأ عليك القرآن على لغة العرب وبينا في القرآن من أخبار الأمم الماضية وما أصابهم بذنوبهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني: لكي يتقوا الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ يعني: يحدث الوعيد بهذا القرآن أو هذا القرآن لهم اعتباراً فيذكر به عذاب الله للأمم فيعتبروا[4] وهذا قول مقاتل ويقال: أو يحدث لهم ذكراً أي: يحدث الوعيد بذكر العذاب فيزجرهم عن المعاصي ويقال (أو يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) أي: شرفاً والذكر الشرف ثم قال عز وجل ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ يعني ارتفع وتعظم عن الشريك والولد (الْمَلِكُ الْحَقُّ) أهل الربوبية ويقال «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» يعني: ارتفع وتعظم من أن يزيد في سيآت

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٦٤، قرأ ابن كثير: «فلا يخف ظلماً» جزماً على النهي، وعلامة الجزم سكون الفاء. وسقطت الألف لسكونها وسكون الفاء.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) سقط في ظ.

أحد وينقص من حسنات أحد الملك الحق الذي يعدل بين الخلق ثم قال ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وذلك أن جبريل - عليه السلام - كان إذا قرأ القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتعجل النبي - صلى الله عليه وسلم - بقراءته قبل أن (يختم جبريل تلاوته مخافة أن لا يحفظ فنزل)[1](وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ) أن يفرغ جبريل - عليه السلام - من قراءته فيكون في الآية تعليم حفظ الأدب وهو الاستماع إلى من يتعلم منه وهذا مثل قوله (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) روى جرير بن حازم عن الحسن[2] أن رجلاً لطم امرأته فجاءت تلتمس القصاص فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - بينهما القصاص قبل أن ينزل القرآن فنزل «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ» الآية أي: لا تعجل بالقصاص من قبل أن يقضي عليك بالقرآن ونزل قوله عز وجل (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) قال وكان الحسن[3] يقرأ (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ) بالنصب يعني من قبل أن ينزل إليك جبريل بالوحي وقراءة العامة (يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله ومعنى القراءتين واحد ثم قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ يعني: زدني علماً بالقرآن معناه زدني فهماً في معناه.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أمرنا آدم - عليه السلام - بترك أكل الشجرة من قبل يعني: من قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَنَسِيَ﴾ يعني: فترك أمرنا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي: حفظاً لما أمر به، روى سعيد بن جبيرعن ابن عباس أنه قال: «عهدنا إلى آدم فَنَسِيَ» يعني: فترك أمرنا (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) يعني: حزماً صريماً وقال قتادة يعني: صبراً وقال السدي: مثله وقال عطية[4] (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) أي حفظاً بما أمر به روى سعيد بن جبير عن ابن عباس[5] قال عهد إلى آدم فنسي فسمي الإنسان وقال القتبي النسيان ضد الحفظ كقوله تعالى (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) والنسيان الترك كقوله: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِي) وكقوله (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٩ وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٩ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد.

(٤) عطية بن الحارث الهمداني أبو ورق الكوفي قال أبو حاتم صدوق - انظر الخلاصة ٢/٢٣٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٩ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الصغير وابن منده في التوحيد والحاكم وصححه.

يَوْمِكُمْ هَذَا) وكقوله (وَلَا تَنْسَوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: تعظم عنا السجود ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني إبليس عدو لك ولزوجك حواء فاحذرا منه ﴿فلا يُخْرِجَنَّكُمَا من الجنة فتشقى﴾ يعني: فتتعب ويتعبا بعمل كفيك ولا تأكل إلا كداً بعد النعمة وقال سعيد بن جبير لما هبط آدم من الجنة وكلف العمل فكان يمسح العرق عن جبينه فذلك قوله (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) وهو العرق الذي مسحه من الجبين ثم قال عز وجل ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى﴾ يعني: أن حالك ما دمت في الجنة لا تجوع ولا تعرى من الثياب ﴿وإنك لا تظمأ فيها﴾ يعني: لا تعطش في الجنة ﴿ولا تضحى﴾ يعني لا يصيبك الضحى وهو حر الشمس قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر[1] (وإنك) بالكسر على معنى الابتداء وقرأ الباقون وإنك بالنصب على معنى البناء قوله عز وجل ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ من أكل منها خلد ولم يمت ﴿وملك لا يبلى﴾ يعني: هل أدلك على ملك لا يفنى فهو أكل الشجرة ﴿فأكلا منها﴾ يعني: من الشجرة وقد ذكرنا تفسير الشجرة في سورة البقرة ﴿فبدت لهما سوآتهما﴾ أي ظهرت لهما عوراتهما ﴿وطفقا يخصفان﴾ أي: عمدا يلزقان ﴿عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه﴾ أي: ترك أمره بأكله من الشجرة ﴿فغوى﴾ أي: أخطأ ولم يصب بأكله ما أراد وما وعد له من الخلود ﴿ثم اجتباه ربه﴾ أي: اختاره واصطفاه بالنبوة ﴿فتاب عليه﴾ يعني: تجازو عنه وقبل توبته ﴿وهدى﴾ يعني: هداه الله تعالى للتوبة بكلمات تلقاها ﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾ يعني: من الجنة آدم وحواء وإبليس والحية ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ يعني: يا ذرية آدم سيأتينكم مني الكتب والرسل خاطبه به وعني ذريته ﴿فمن اتبع هداي﴾ يعني: أطاع كتبي ورسلي ﴿فلا يضل﴾ باتباعه إياها في الدنيا ﴿ولا يشقى﴾ في الآخرة وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس[2] قال من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب فذلك قوله (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى).

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ يعني: عن القرآن والرسل ولم يؤمن وقال مقاتل: من أعرض عن الإيمان ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ يعني: معشية ضيقة روي عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري[3] أنهما قالا (معيشة ضنكا) يقول: عذاب القبر وروى أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[4] في قوله: (معيشة

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٤، النشر ٢/٣٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١١ وعزاه لابن أبي شيبة والطبراني وأبي نعيم في الحلية وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١١ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور ومسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في كتاب عذاب القبر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١١ وعزاه لابن أبي شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم.

ضنكا) قال عذاب القبر ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ أي: أعمى عن الحجة وقال ابن عباس وذلك حين يخرج من القبر يخرج بصيراً فإذا سيق إلى المحشر عمي قال عكرمة رحمه الله في قوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال: عمي قلبه عن كل شيء إلا جهنم وقال الضحاك[١] في قوله (معيشة ضنكا) قال: الكسب الخبيث وقيل: معيشة سوء لأنه في معاصي الله وقال السدي (معيشة ضنكا) أي: عذاب القبر حين يأتيه الملكان وقال قتادة: الضنك الضيق يقول ضنكاً في النار قوله عز وجل: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى﴾ قال مجاهد:[٢] (لم حشرتني أعمى) لا حجة لي ﴿وقد كنت بصيراً﴾ بالحجة في الدنيا ويقال (لم حشرتني أعمى) أي: أعمى العينين (وقد كنت بصيراً) في الدنيا ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ يعني: الرسل والقرآن فنسيتها وتركت العمل بها ولم تؤمن بها ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ أي: تترك في النار (ويقال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها أي: تعلمت القرآن فنسيته وتركته وقال السدي: وكذلك اليوم تنسى أي: تترك في النار[٣]) وتترك عن الخير ثم قال عز وجل: ﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾ يعني: هكذا نعاقب من أشرك بالله ﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ يعني وأدوم قوله عز وجل ﴿أفلم يهد لهم﴾ يعني: أفلم يتبين لقومك ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ يعني: يمرون على منازلهم ﴿إن في ذلك لآيات﴾ يعني: في هلاكهم لعبرات ﴿لأولى النهى﴾ يعني: لعبرات لذوي العقول من الناس ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمى﴾ وهذا مقدم ومؤخر يقول ولولا كلمة سبقت بتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى أجل مسمى أي: إلى يوم القيامة أي: لكان لزاماً أي: لأخذتهم بالعذاب كما أخذت من كان قبلهم من الأمم عند التكذيب ولكن نؤجلهم إلى يوم القيامة وهو أجل مسمى وقال القتبي: معناه: ولولا أن الله عز وجل جعل الجزاء يوم القيامة وسبقت بذلك كلماته لكان العذاب ملازماً لا يفارقهم وقال في الآية تقديم أي ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان العذاب لازماً.

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

﴿واصبر على ما يقولون﴾ يعني على ما يقول أهل مكة من تكذيبهم إياك ﴿وسبح بحمد ربك﴾ يعني صل لربك وبحمد ربك وبأمره قبل طلوع الشمس يعني: صلاة الفجر وقبل غروبها يعني: صلاة العصر ويقال صلاة الظهر والعصر وروى جرير عن عبد الله البجلي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته يعني: لا تزدحمون مأخوذ عن الضم أي لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته بظهوره كما في رواية الهلال ويروى لا تضامون بالتخفيف وهو الضم أي الظلم: أي: لا يظلم بعضكم في رؤيته بأن يراه البعض دون البعض فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ هذه الآية «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ على معنى التأكيد للتكرار ﴿وَمِنْ آنَاءِ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٢ وعزاه لهناد.

(٣) سقط في أ.

﴿اللَّيْلِ﴾ يعني: ساعات الليل **﴿فَسَبِّحْ﴾** يعني صلاة المغرب والعشاء **﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾** يعني: غدوة وعشية **﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾** يعني: لعلك تعطى من الشفاعة حتى ترضى قرأ الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[1] «تُرْضَى» بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله والباقون بالنصب يعني: ترضى أنت وقال أبو عبيدة وبالقراءة الأولى نقرأ بالضم لأن فيها معنيين أحدهما ترضى أي تعطى الرضا والأخرى ترضى أن يرضاك الله وتصديقه قوله تعالى (وَكَانَ عِنْدَ رَبِّكَ مَرْضِيّاً﴾ وليس في الأخرى وهي القراءة بالنصب إلا وجه واحد ثم قال عز وجل: **﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾** يعني لا تنظر بالرغبة إلى ما أعطينا رجالاً منهم من الأموال والأولاد **﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** يعني: فإن زينة الدنيا **﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾** يعني: لنبتليهم بالمال وقلة الشكر **﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾** أي: جنة ربك **﴿خَيْرٌ﴾** من هذه الزينة التي في الدنيا **﴿وَأَبْقَى﴾** أي: وأدوم قال الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع عن موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله عن أبي رافع قال: نزل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضيف فبعثني إلى يهودي أن يبيعنا أو يسلفنا إلى أجل فقال اليهودي لا والله إلاّ بِرَهْنٍ فرجعت إليه فأخبرته فقال لو باعني أو أسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض اذهب بدرعي الحديدي فذهبت بها فنزل من بعدي هذه الآية تعزية عن الدنيا (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ) إلى آخر الآية.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

ثم قال عز وجل **﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ﴾** يعني قومك وأهلك وأهل بيتك بالصلاة **﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾** يعني: اصبر على ما أصابك فيها من الشدة روى عبد الرزاق[2] عن معمر عن رجل: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا دخل عليه نقص في الرزق أي ضيق أمر أهله[3] بالصلاة ثم قرأ (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) **﴿لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾** لخلقنا ولا أن ترزق نفسك إنما نسألك العبادة **﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾** في الدنيا ما دمت حياً **﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾** يعني: الجنة للمتقين **﴿وَقَالُوا﴾** يعني الكفار **﴿لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾** يعني: هلا يأتينا محمد بعلامة لنبوته قال الله تعالى **﴿أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ﴾** يعني: بيان **﴿مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾** يعني ما في التوراة والإنجيل حتى يجدوا نعته فيه وهذا كقوله عز وجل «فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» ثم قال عز وجل: **﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾** يقول: لو أن أهل مكة أهلكناهم قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن **﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٤ النشر ٢/٣٢٢.

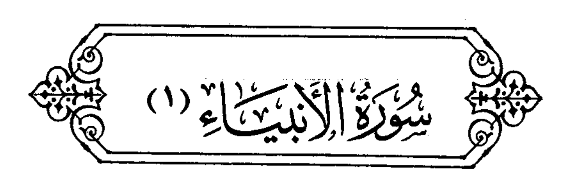
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٣ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) في أ [أي ضيق أمر أهله بالصلاة].

فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ يعني: من قبل أن نعذب ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ يعني: منتظر لهلاك صاحبه أنا وأنتم وقال مقاتل: كان كفار مكة يقولون نتربص بمحمد (رَيْبَ ٱلْمَنُونِ) يعني: الموت ووعدهم النبي - صلى الله عليه وسلم - العذاب فأنزل الله تعالى (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ) يعني: أنتم متربصون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الموت ومحمد متربص بكم العذاب فأنزل الله تعالى (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ) ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي العدل ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ منا ومنكم قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم[1] (أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ) بالتاء لأن لفظ البينة مؤنث والباقون أولم يأتهم بالياء لأن معناه البيان والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٥، النشر ٢/٣٢٢.



سورة الأنبياء (١)

وهي مائة واثنتا عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ يعني: قربت القيامة كقوله (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) ويقال معناه اقترب وقت حسابهم ويقال دنا للناس ما وعدوا في هذا القرآن ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: في جهل وعمى من أمر آخرتهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ يعني: جاحدين مكذبين وهم كفار مكة ومن كان مثل حالهم ثم نعتهم فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ

(١) سماها السلف (سورة الأنبياء) ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: (بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأُوَل وهن من تلادي) ولا يعرف لها إسم غير هذا. ووجه تسميتها سورة الأنبياء أنها ذكر فيها أسماء ستة عشر نبياً ومريم ولم يأت في سورة القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبياً في قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ إلى قوله: ﴿ويونس ولوطا﴾ فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء وإلاَّ فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية، على أن من الحقائق المسلمة أن وجه التسمية لا يوجبها، وهي مكية بالاتفاق وحكى ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك ونقل السيوطي في الاتقان استثناء قوله تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ ولم يعزه إلى قائل، ولعله أخذه من رواية عن مقاتل والكلبي عن ابن عباس أن المعنى: ننقصها بفتح البلدان أي بناء على أن المراد من الرؤية في الآية الرؤية البصرية وأن المراد من الأرض أرض الحجاز وأن المراد من النقص نقص سلطان الشرك منها وكل ذلك ليس بالمتعين ولا بالراجح. والأغراض التي ذكرت في هذه السورة هي: ـ

الإنذار بالبعث وتحقيق وقوعه وإنه لتحقق وقوعه كان قريباً. وإقامة الحجة عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم، وخلق الموجودات من الماء. والتحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله. والتذكير بأن هذا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله. وذكر كثير من أخبار الرسل ـ عليهم السلام. والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين وشأن رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه رحمة للعالمين. والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع ولا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة. وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة وذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج.

رَبِّهِم مُحْدَثٍ﴾ يعني: ما يأتيهم جبريل بالقرآن محدث والمحدث إتيان جبريل بالقرآن مرة بعد مرة ويقال قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن مرة بعد مرة ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يعني: يستمعون لاعبين ويقال وهم يلعبون يعني: يهزأون ويسخرون قوله عز وجل: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: ساهية قلوبهم عن أمر الآخرة ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أخفوا تكذيبهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ويتناجون فيما بينهم ثم بين أمرهم فقال الذين ظلموا معناه وأسروا النجوى يعني الذين ظلموا ثم بين ما يسرون فقال ﴿هَلْ هَذَا﴾ يعني: يقولون ما هذا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: آدمي مِثلكم[1] ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ يعني أفتصدقون الكذب ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وتعلمون أنه سحر ﴿قَالَ﴾ يا محمد ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ يعني: السر فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم قولهم وأطلع نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سرهم وعلانيتهم فقال (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَولَ) ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم سر أهل السموات وسر أهل الأرض قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[2] قال ربي يعلم على معنى الخبر وقرأ الباقون على معنى الأمر ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهم وبعقوبتهم ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ يعني أباطيل أحلام كاذبة وقال أهل اللغة لا يكون الضغث إلا من أخلاط شتى فلذلك يقال أضغاث أحلام أي لما فيها من التخاليط وهو كل حلم لا يكون له تأويل ومن هذا قوله (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً) أي: أخلاط العيدان عدد مائة ويقال في الآية تقديم ومعناه بل قالوا أضغاث أحلام ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ يعني: إختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يعني: ينقضون قولهم بعضهم ببعض مرة يقولون سحر ومرة يقولون أضغاث أحلام ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ يعني: يقولون فأتنا بآية أي بعلامة كما في الرسل الأولين فأخبر الله تعالى أنهم لم يؤمنوا وإن أتاهم بآية فقال عز وجل: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني: قبل كفار مكة ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من للصلة والزينة يعني: لم يصدق قبلهم أهل قرية للرسل أي: إذ جاءتهم بالآيات ﴿أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أفقومك يصدقون إذ جاءتهم الآيات أي لا يؤمنون.

= ـ وذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق.
ـ ومن الإيماء إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزى كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل.
ـ ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذ لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة.
ـ وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى.
ـ وما يكرهه على فعل ما لا يريد.
ـ وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء.
ـ وأعقب ذلك بتذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ.
ـ ثم عطف الكلام إلى ذكر الرسل والأنبياء.
ـ وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحوال قومه.
ـ وكيف نصر الله الرسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم.
ـ وأن الرسل كلهم جاءوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطّعهُ الضالون قطعاً.
ـ وأثنى على الرسل وعلى من آمنوا بهم.
ـ وأن العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة وأن الله سيحكم بين الفريقين بالحق ويعين رسله على تبليغ شرعه. انظر التحرير ١٧/٥، ٦، ٧، ٨.

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٦٥، والنشر ٢/٣٢٣.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رجالاً نوحي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: لم أرسل إليهم الملائكة بالرسالة وكانت الرسل من الآدميين ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني: أهل التوراة والإنجيل: ﴿إِنْ كُنْتُم لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تصدقون وذلك أن أهل مكة قالوا لو أراد الله تعالى أن يبعث إلينا رسولاً لأرسل ملائكة قرأ عاصم في رواية حفص نُوحِي بالنون وكذلك في قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ) وقرأ حمزة والكسائي[1] الأول بالياء والثاني بالنون والباقون كلاهما بالياء وهو اختيار أبي عبيد ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ يعني: ما خلقنا الرسل جسداً لا يأكلون ولا يشربون ولكن جعلناهم أجساداً فيها أرواح يأكلون ويشربون وقال جسداً ولم يقل أجساداً لأن الواحد ينبىء عن الجماعة ويقال معناه وما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام لأنهم قالوا (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ) ثم قال: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ يعني: العذاب للكفار والنجاة للأنبياء عليهم السلام ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني فأنجينا الأنبياء عليهم السلام ومن نشاء من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: المشركين قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يعني: القرآن فيه عزكم وشرفكم يعني: شرف العرب والذكر يوضع موضع الشرف لأن الشرف يذكر ويقال ذكركم أي فيه تذكرة لكم ما ترجون من رحمة وتخافون من عذابه كما قال (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) وقال السدي فيه ذكركم[2] يعني: ما تُعْنون به من أمر دنياكم وآخرتكم وما بينكم وقال الحسن فيه ذكركم يعني: أمسك به عليكم دينكم وفيه بيان حلالكم وحرامكم ويقال وعدكم ووعيدكم ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن فيه عزكم وشرفكم فتؤمنون به قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ قصمنا﴾ القصم الكسر يعني كم أهلكنا ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: أهل قرية ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ يعني: خلقنا بعد هلاكها قوماً آخرين خيراً منهم فسكنوا ديارهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ يعني: رأوا عذابنا ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يعني: يهربون ويعدون وقال القتبي: أصل الركض تحريك الرجلين يقال: ركضت الفرس إذا أعديته بتحريك رجليك ومنه قوله (أركض برجلك).

لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لَا تركضوا﴾ يعني: قالت الملائكة عليهم السلام لا تهربوا وقال قتادة هذا على وجه

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٦، النشر ٢/٣٢٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٤ وعزاه لابن أبي حاتم.

الاستهزاء وقال مقاتل لما انهزموا قالت لهم الملائكة عليهم السلام كهيئة الاستهزاء لا تركضوا وقال القتبي : هذا كما قال لبيد :

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أينا

قال ابن عباس إن قرية من قرى اليمن يقال لها حصور أرسل الله تعالى إليهم نبياً فكذبون ثم قتلوه فسلط الله عز وجل عليهم بختنصر فقتلهم وهزمهم فقالت لهم الملائكة عليهم السلام حين انهزموا لا تركضوا يعني : لا تهربوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيْهِ﴾ يعني : خولتم فيه من أمر دنياكم ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُم تُسْأَلُونَ﴾ عن قتل نبيكم ويقال عن الإيمان ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بقتل نبينا عليه السلام ويقال بالشرك بالله عز وجل قوله تعالى : ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ يعني : كلمة الويل قولهم ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ يعني : محصوداً وقال أهل اللغة : فعيل بمعنى مفعول والحصيد بمعنى محصود ويقع على الواحد والاثنين والجماعة، وقال السدي : الحصيد الذي قد حصد ويقال : كداسة الغنم بأظلافها خامدين ميتين لا يتحركون وقال مجاهد رحمه الله : خامدين بالسيف قوله عز وجل : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق والعجائب ﴿لَاعِبِينَ﴾ أي : لغير شيء ولكن خلقناهم لأمر كائن ويقال وما خلقت هذه الأشياء إلا ليعتبروا ويتفكروا فيها ويعلموا أن خالق هذه الأشياء أحق بالعبادة من غيره ويكون لِيَ عليهم الحجة يوم القيامة قوله عز وجل ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً﴾ يعني : زوجة بلغة حضرموت ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني : من عندنا قال ابن عباس[١] اللهو الولد وقال الحسن[٢] وقتادة : اللهو المرأة وقال القتبي : التفسيران متقاربان لأن المرأة للرجل لهو وولده لهو كما يقال : ريحانتاه وأصل اللهو الجماع فكني به المرأة والولد كما كني عنه باللمس وتأويل الآية أن النصارى لما قالوا في المسيح ما قالوا قال الله تعالى : (لو أردنا أن نتخذ لهواً (لاتخذناه من لدنا أي صاحبةً وولداً لاتخذنا ذلك من عندنا)[٣] لا من عندكم لأن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره ثم قال : ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني : ما كنا فاعلين ويجوز أن يكون إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يعني : بالحق ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ ومعناه نبين الحق من الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي يبطله ويضمحل به ويقال يكسره وقال أهل اللغة : أصل هذا إصابة الرأس والدماغ بالضرب وهو مقتل ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يعني : هالك ويقال زاهق أي : زائل ذاهب قال الفقيه أبو الليث رحمه الله في الآية دليل أن النكتة إذا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٤ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٣) سقط في ظ.

قابلتها نكتة أخرى على ضدها سقط الاحتجاج بها لأنها لو كانت صحيحة ما عارضها غيرها لأن الحق لا يعارضه الباطل ولكن يغلب عليه فيدمغه ثم قال: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ يعني: الشدة من العذاب وهم النصارى ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ يعني: تقولون من الكذب على الله ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني: لا يتعظمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يعني: لا يعيون الحسير المنقطع الواقف إعياء روي عن عبد الله بن الحارث أنه قال: قلت لكعب[1] الأحبار رضي الله عنه أرأيت قوله (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) أما شغلهم رسالة أما شغلهم عمل فقال لي: ممن أنت فقلت: من بني عبد المطلب فضمني إليه ثم قال: يا ابن أخي إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لنا النفس ألست تأكل وتشرب وتذهب وتجيء وأنت تتنفس كذلك جعل لهم التسبيح ثم قال عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ الميم صلة معناه أعبدوا من دون آلهةً ويقال: بل عبدوا آلهة ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: اتخذوها من الأرض ويقال من الأرض يعني: في الأرض ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ يعني: هل يحيون تلك الآلهة شيئاً وقرىء أيضاً يُنْشَرون بضم الياء ونصب الشين هل يحيون أبداً لا يموتون ثم قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: لو كان في السماء والأرض آلهة غير الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يعني: لخربت السموات والأرض ولهلك أهلها يعني أن التدبير لم يكن مستوياً ثم نزه نفسه عن الشريك فقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: عما يقولون من الكذب قوله عز وجل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ يعني: عما يحكم في خلقه من المغفرة والعقوبة لأنه عادل ليس بجائر ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ عما يفعلون بعضهم ببعض لأنهم يجورون ولا يعدلون ومعناه لا يسأل عما يفعل على وجه الاحتجاج عليه ولكن يسأل عن معنى الاستكشاف والبيان كقوله عز وجل: (رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى) وروي عن مجاهد أنه قال: لا يسأل عن قضائه وقدره وهم يسألون عن أعمالهم ويقال لا يسأل عما يفعل لأنه ليس فوقه أحد وهم يسألون لأنهم مملوكون.

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ الميم صلة يعني أعبدوا من دونه آلهة ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني: حجتكم وكتابكم الذي فيه عذركم ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَذِكْرُ من قَبْلِي﴾[2] يعني: خبر من

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) سقط في أ.

قبلي فلا أجد فيه أن الشرك كان مباحاً في وقت من الأوقات ويقال (هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) يعني القرآن وكتب الأولين ثم قال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ يعني: لا يصدقون بالقرآن ويقال بالتوحيد ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني: مكذبون بالقرآن والتوحيد ثم بين ما أمر في جميع الكتب للرسل فقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ﴾ كما يوحى إليك ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ يعني: وحدون ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ وذلك حين قال مشركو قريش في الملائكة ما قالوا فقال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ يعني: بل عبيد أكرمهم الله تعالى بعبادته ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: لا يقولون ولا يعملون شيئاً ما لم يأمرهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يعملون ما يأمرهم به ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ يعني الملائكة ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ يعني: لمن رضي عنه بشهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ يعني: من هيبته خائفون لأنهم عاينوا أمر الآخرة فيخافون عاقبة الأمر ثم قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ يعني: من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: من دون الله ولم يقل ذلك غير إبليس عدو الله ﴿فَذَلِكَ﴾ يعني: ذلك القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِيْ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين قوله عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أو لم يخبروا في الكتاب قرأ ابن كثير[1] (أَلَمْ يَرَ) بغير واو والباقون أو لم بالواو ومعناهما قريب ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ يعني: فرقناهما وأبنا بعضها من بعض وقال مجاهد: كانت السماء لا تمطر والأرض لا تنبت ففتقناهما بالمطر والنبات وقال القتبي: كانتا منضمتين ففتقناهما ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[2] قال: كانت السموات واحدة والأرض واحدة ففتقت السماء سبعاً والأرض مثلهن وقال الزجاج: ذكر السموات والأرض ثم قال (كَانَتَا رَتْقاً) ففتقناهما لأن السموات يعبر عنها بالسماء بلفظ الواحد وأن السموات كانت سماء واحدة وكذلك الأرض والمعنى أن السموات كانت واحدة ففتقتها وجعلتها سبعاً وكذلك الأرض وقيل إنما فتقت السماء بالمطر والأرض بالنبات بدليل قوله ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ فقال رتقا ولم يقل رتيقن لأن الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتي رتق ودلهم بهذا على توحيده حيث قال (وجعلنا من الماء كل شيء حي) يعني: جعلنا الماء حياة كل شيء وهو قول مقاتل وقال قتادة خلق كل شيء حي من الماء وقال أبو العالية رحمه الله (وجعلنا من الماء) يعني: من النطفة ﴿أفلا يؤمنون﴾ يعني أفلا يصدقون بتوحيد الله بعد هذه العجائب.

وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله عز وجل ﴿وَجعلنا في الأرض رواسي﴾ يعني: الجبال الثقال الثوابت ﴿أن تميد بهم﴾ يعني: كيلا

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٧، النشر ٢/٣٢٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٧ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

تميل ويقال: كراهية أن تميل بكم ﴿**وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً**﴾ يعني: في الأرض وفي الجبال أودية والفجاج جمع فج وهو كل شيء مخترق بين جبلين سبلاً يعني: طرقاً ﴿**لعلهم يهتدون**﴾ أي: لكي يعرفوا الطرق ﴿**وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً**﴾ من الشياطين ويقال: محفوظاً من السقوط كيلا تسقط عليهم ﴿**وهم عن آياتها معرضون**﴾ يعني: عن شمسها وقمرها ونجومها وما فيها من الأدلة والعبر معرضون يعني: لا يتفكرون فيها وقرأ بعضهم (وهم عن آياتها معرضون) ومعناه: إن السماء بنفسها أعظم آية لأنها متمسكة بقدرته ثم قال عز وجل ﴿**وهو الذي خلق الليل والنهار**﴾(١) يعني: الظلمة والضوء ﴿**والشمس والقمر كل في فلك يسبحون**﴾ أي: في دوران يجرون وقال قتادة: يعني يجرون في فلك السلام وقال الكلبي(٢) كل شيء يدور فهو فلك وقال القتبي: الفلك القطب الذي تدور به النجوم وهو كوكب خفي بقرب الفرقدين ونبات نعش عليه تدور السماء فقد ذكر بلفظ العقل يسبحون لأنه وصف منهم الفعل كما ذكر من العقلاء ثم قال عز وجل ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**﴾ يعني: في الدنيا ﴿**أفإن مت فهم الخالدون**﴾ وذلك أن أناساً من الكفار قالوا: إن محمداً يموت فنزل ﴿**كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾ يعني: بالغنى والفقر والرخاء والشدة فتنة يعني: اختباراً لهم ﴿**وإلينا ترجعون**﴾ في الآخرة قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين يرجعون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون ترجعون بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ ابن عامر في إحدى الروايتين (يرجعون) بنصب الياء قوله عز وجل: ﴿**وإذا رآك الذين كفروا**﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر بأبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام فقال أبو جهل لأبي سفيان هذا نبي بني عبد مناف يقول ذلك كالمستهزيء فنزل قوله: ﴿**وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً**﴾ يعني: ما يقولون لك إلا سخرية ثم قال ﴿**أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ**﴾ بالسوء ويقال: أهذا الذي يعيب آلهتكم ﴿**وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ يعني: جاحدون تاركون وهذا كقوله عز وجل (وَإِذْ ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) قال الكلبي: وذلك حين نزل (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) فقال أهل مكة ما يعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب فنزل (وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ).

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ أي: مستعجلاً بالعذاب وهو النضر بن الحارث وقال القتبي:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميدوابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٨ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: خلقت العجلة في الإنسان ويقال إن آدم عليه السلام استعجل حين خلق واستعجل كفار قريش نزول العذاب كما استعجل آدم عليه السلام قال الله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ قال الكلبي رحمه الله: هو ما أصاب قوم نوح وقوم هود وصالح وكانت قريش يسافرون في البلدان فيرون آثارهم ومنازلهم ويقال: يعني: القتل ببدر ويقال: يعني: يوم القيامة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ بنزول العذاب ثم قال عز وجل ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني: البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: إن كنت صادقاً فيما تعدنا أن نبعث فنزل قوله عز وجل ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ يعني: لا يصرفون ولا يرفعون ﴿عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾ لأن أيديهم تكون مغلولة ﴿وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون عما نزل بهم من العذاب وجوابه مضمر يعني: لو علموا ذلك الآن لامتنعوا من الكفر والتكذيب ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ يعني: الساعة تأتيهم فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ يعني: فتفجأهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صرفها عن أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يعني لا يمهلون ولا يؤجلون قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك قومك ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: نزل بالذين سخروا منهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: العذاب الذي كانوا به يستهزئون قوله عز وجل ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ يعني: من يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ يعني: من عذاب الرحمن معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن إلا الرحمن ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عن التوحيد والقرآن ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مكذبون تاركون قوله عز وجل ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الميم صلة يعني ألهم آلهة ﴿تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ يعني: من عذابنا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: لا تقدر الآلهة أن تمنع نفسها من العذاب أو السوء إن أرادوا بها فكيف ينصرونكم ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يعني: يأمنون من عذابنا وقال مجاهد يعني: ولا هم منا ينصرون وقال السدي لا نصحبهم فندفع عنهم في أسفارهم وقال القتبي: أي لا يجارون لأن المجير صاحب لمجاره.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أجلناهم وأمهلناهم ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ من قبلهم ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ يعني: الأجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: أفلا ينظر أهل مكة ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا﴾ أي: نأخذ ونفتح الأرض ننقصها ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ما حول مكة أي ننقصها بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نواحيها ويقال يعني نقبض أرواح أشراف أهل مكة ورؤسائها وقال الحسن: هو ظهور المسلمين على المشركين وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هو موت فقهائها وذهاب خيارها وقال الكلبي: يعني: السبي والقتل والخراب ثم قال تعالى: ﴿أَفَهُمُ

﴿الْغَالِبُونَ﴾ يعني: أن الله تعالى هو الغالب وهم المغلوبون ثم قال عز وجل ﴿قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ يعني: بما نزل من القرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ يعني: أن من يتصامم لا يسمع الدعاء إذا ما يخوفون قرأ ابن عامر[1] ولا تُسْمع الصمم الدعاء بالتاء بلفظ المخاطبة ومعناه أن لا تقدر أن تسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون يعني: إذا خوفوا والباقون ولا يسمع بالياء على وجه الحكاية ثم أخبر عن قلة صبرهم عند العذاب فقال: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ يعني: من أصابتهم عقوبة من عذاب ربك ويقال ولئن أصابهم العذاب أي طرف من العذاب ويقال أدنى شيء من عذاب ربك ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ظلمنا أنفسنا بترك الطاعة لله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ يعني: ميزان العدل ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: في يوم القيامة قال ابن عباس هو ميزان له كفتان (وله لسانان يوزن به الأعمال)[2] الحسنات والسيئآت فيجاء بالحسنات في أحسن صورة ويجاء بالسيئآت في أقبح صورة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم شيئاً ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ يعني: وزن حبة ﴿مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع[3] مثقال حبة بضم اللام وقرأ الباقون بالنصب فمن قرأ بالرفع فمعناه وإن حصل للعبد مثقال حبة من خردل ومن قرأ بالنصب معناه وإن كان العمل (مِثْقَالَ حَبَّة) يصير خبر كان ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ يعني: جئنا بها وأحضرناها وقرأ بعضهم (آتَيْنَا) بالمد يعني: جازينا بها وأعطينا بها وقراءة العامة بغير مد ثم قال: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يعني: مجازين قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ يقول النصرة والنجاة فنصر موسى وهارون وأهلك عدوهما فرعون ﴿وَضِيَاءً﴾ يعني: الذي أنزل عليهما من الحلال والحرام في الكتاب قرأ ابن كثير وضئاءً بهمزتين والباقون بهمزة واحدة ﴿وَذِكْراً﴾ يعني: عظة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الكفر والفواحش والكبائر وقال مجاهد: الفرقان الكتاب وقال السدي: الفرقان والنصر والضياء النور وذكراً قال التوراة وقال مقاتل: الفرقان والتوراة وروي عن ابن عباس[4] أنه كان يقرأ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان (ضِيَاءً وَذِكْراً) يعني: أعطيناها التوراة نوراً وعظة ويروى عن عكرمة عن ابن عباس[5] أنه كان يقرأ (الَّذِينَ استجابوا) بالواو يعني (والذين) (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً) بغير واو وقال اجعلوا هذه الواو عند قوله (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ) ثم قال عز وجل ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: يعملون لربهم في غيب عنه والله تعالى لا يغيب عنه شيء ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ يعني: من عذاب الساعة خائفون قوله عز وجل ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ يعني: هذا القرآن ذكر مبارك يعني؛ فيه السعادة والمغفرة للذنوب والنجاة لمن آمن به ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ لكم ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ يعني أفأنتم للقرآن مكذبون جاحدون.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٧، النشر ٢/٣٢٣.
(٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٨، النشر ٢/٣٢٤.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أكرمناه بالمغفرة من قبل النبوة وقال مقاتل: من قبل موسى وهارون وقال مجاهد: من قبل بلوغه وقال الكلبي: يقول ألهمناه رشده الخير وهديناه قبل بلوغه ويقال من قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن ﴿وكُنّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ بأنه أهل للرشد ويقال: للنبوة ويقال: وكُنّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿إِذْ قَالَ﴾ يعني: حين قال ﴿لأَبِيْهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أي التصاوير يعني الأصنام ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: عابدون ويقال: التي عليها مقيمين روى ميسرة[١] النهدي أن[٢] علياً رضي الله عنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال (ما هذه التماثيلُ التِيْ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) فلما قال لهم ذلك إبراهيم ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ يعني: فنحن نعبدها ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِيْ ضَلَالٍ مُبِيْنٍ﴾ يعني: في خطإٍ بَيِّنٍ قال السدي: كان أبوه يصنع الأصنام يبعث بها مع بنيه فيبيعونها فبعث إبراهيم بصنم ليبيعه فجعل ينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه وكان إخوته يبيعون ولا يبيع هو شيئاً وقال أنتم في ضلال مبين ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ قَالَ﴾ إبراهيم بل أقول لكم حقاً وأدعوكم إلى عبادة الله تعالى ﴿بَلْ﴾ هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي: خالقكم ورازقكم ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هو ربكم ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ يعني: هو الذي خلقهن ﴿وَأَنَـا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ بأن الَّذِيْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ هو ربكم قال عز وجل ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ يعني: قال إبراهيم والله لأكسرن أصنامكم ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ يعني: بعد أن تنطلقوا ذاهبين إلى عيدكم وذلك أن القوم كانوا أرادوا أن يخرجوا إلى عيد لهم فقالوا لإبراهيم اخرج معنا حتى تنظر إلى عيدنا وكان القوم في ذلك الزمان ينظرون إلى النجوم فينظر أحدهم ويقول إنه يصيبني كذا وكذا من الأمر وكان ذلك معروفاً عندهم وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يخلفوا بعدهم إلا من كان مريضاً (فَنَظَرَ ـ إِبْرَاهِيمُ ـ نَظْرَةً فِيْ النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيْمٌ) يعني: أشتكي غداً فأصبح من الغد معصوباً رأسه وخرج القوم إلى عيدهم ولم يتخلف أحد غيره فلما خرج القوم قال إبراهيم أما والله لأكيدن أصنامكم فسمعه رجل منهم فحفظها عليه فأخذ إبراهيم فأساً ويقال: قَدُوْماً جاء إلى بيت أصنامهم وكانوا قد وضعوا ألوان الطعام بين أيديهم فإذا رجعوا من عيدهم رفعوا ذلك الطعام ويأكلون تبركاً ودخل إبراهيم بيت الأصنام فرأى ذلك الطعام بين أيديهم فقال (أَلَا تَأْكُلُونَ) فلم يجيبوه فقال: (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) يعني: جعل يضرب القوم بيده وقال السدي: قطع رؤوسها كلهاوقال ابن عباس: كسرها كسراً وقال بعضهم نَحَتَ وجوههم وقال بعضهم: قطع يد بعضهم ورجل بعضهم وأُذُنَ بعضهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ يعني: فتاتاً ويقال: كسرهم قطعاً قطعاً وقال أهل اللغة: كل شيء كسرته فقد جذذته وقال أبو عبيد (يعني فتاتاً ويقال: كسرهم)[٣] أي استأصلهم ويقال جزا الله دابرهم أي استأصلهم وقرأ الكسائي[٤] (جِذاذاً) بالكسر والباقون بالضم

---

(١) ميسرة بن حبيب النهدي، أبو حازم الكوفي، ذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ١٠/٣٨٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٦٨، النشر ٢/٣٢٤.

وقُرِيءَ في الشاذ جَذاذا بالنصب ومعناه قريب بعضها من بعض وهو الكسر ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ لم يكسره وتركه على حاله وقال الزجاج: يحتمل الكبير في الخلقة ويحتمل أكبر ما عندهم في تعظيمهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يرْجِعُونَ﴾ يعني: إلى الصنم الأكبر ويقال يرجعون إلى قوله باحتجاجه عليهم لوجوب الحجة عليهم فجعل القدوم على عنق ذلك الصنم الأكبر فلما رجعوا من عيدهم نظروا إلى آلهتهم مكسرة ويقال: حين دخل إبراهيم بيت الأصنام كان عندهم خدم يعني الوصائف فخرجن وقلن إن هذا الرجل مريض جاء يطلب من الآلهة العافية فلما خرج إبراهيم ودخلن فنظرن إلى الأصنام مقطوعة الرأس فخرجن إلى الناس بالويل والصياح وأخبرنهم بالقصة فتركوا عيدهم ودخلوا فلما رأوا ذلك ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ في فعله ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يَعِيْبُهُمْ ويقال: أخبر الرجل الذي سمع منه فقال: إني سمعت فتى يذكرهم قال تالله لأكيدن أصنامكم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ صار إبراهيمُ رفعاً بمعنى يقال له هو إبراهيم وقال ويحتمل يقال له إبراهيم رفع على معنى النداء المفرد.

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يعني: يشهدون عليه بما يعرفون منه ويقال: يشهدون عقوبتهم له قال فجاؤوا به إلى ملكهم النمرود بن كنعان ﴿قَالُوا﴾ أي: قال له الملك ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعني: عظيمهم عندكم وإنما قال هذا على وجه الاستهزاء لا على وجه الجد ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ يعني: إن كانوا يتكلمون فسألوهم من فعل هذا بكم ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فلاموها يعني إلى أصحابهم ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُم الظَّالِمُونَ﴾ يعني: حَيْثُ قلتم إن إبراهيم كسَّرها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ يعني: رجعوا إلى قولهم الأول وقال القتبي: أي ردوا إلى ما كانوا يعرفون من أنها لا تنطق فقالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ يا إبراهيم يعني تعلم أنهم لا يتكلمون يا إبراهيم ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً﴾ إنْ عبدتموهم ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن تركتموهم ﴿أُفٍّ لَكُمْ﴾ يعني: قذراً لكم وسحقاً لكم وتعساً لكم والاختلاف في قوله: أُفٍّ مثل ما سبق ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن من ليس له ذهن ولا قوة ولا منفعة ولا مضرة أن لا تعبدوه قوله عز وجل: ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال ملكهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ يعني: انتقموا لآلهتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ به شيئاً فافعلوا فأمر النمرود أهل القرى أن يجمعوا له حطباً أياماً كثيرة وأمر بأن يبنى بنياناً فبنى حائطاً

مستديراً وجمعوا الحطب ما شاء الله (ثم اضرموا فيه النار) فارتفعت النار حتى بلغت السماء في أعين الناظرين وكانت الطير يمر بها فيصيبها حر النار فلا تستطيع أن تجوز فيه فتقع ميتة فلما أرادوا أن يلقوه فيها لم يستطيعوا لشدة حرها ولم يقدر أحد أن يدنوا منها فبطل تدبيرهم وكادوا أن يتركوه حتى جاء إبليس عدو الله (لعنه الله) فدلهم على المنجنيق وهو أول منجنيق صنع وجاءوا بإبراهيم فأوثقوا يديه وجعلوه في المنجنيق وروي في الخبر أن السموات والأرض والجبال بكوا عليه وبكت عليه ملائكة السموات وقالوا ربنا عبدك إبراهيم يحرق فيك فقال لهم إن استغاث بكم فأغيثوه فلما رمي في المنجنيق قال: حسبي الله ونعم الوكيل فرمي به بالمنجنيق في الهوى فجعل يهوي نحو النار فقال جبريل: يا رب عبدك إبراهيم يحرق فيك قال الله تعالى إن استغاث بك فأَغِثْهُ فأتاه جبريل وهو يهوي نحو النار فقال أتطلب النجاة فقال أما منك، فلا قال: أفلا تسأل الله أن ينجيك منها فقال إبراهيم حسبي من سؤالي علمه بحالي فلما أخلص قلبه لله تعالى فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: سلميه من حرك وبردك قال عكرمة بردت نار الدنيا كلها يومئذ فلم ينتفع بها أحد من أهلها وقال كعب ما أحرقت النار من إبراهيم غير وثاقه وقال قتادة إن الخطاف كانت تطفيء النار بأجنحتها وكانت الوزغة تنفخها وروت عائشة أن النبي[1] ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال اقتلوا الوزغة فإنها كانت تنفخ على إبراهيم النار وكانت تقتلهن وقال علي بن أبي طالب[2] في قوله (بَرْداً وَسَلَاماً) لو لم يقل وسلاماً لأهلكه البرد وكذلك قال ابن عباس[3] فضمه جبريل بجناحه ووضعه على الأرض وضرب جناحه على الأرض فأظهر الماء واخضرت الأرض فلما كان في اليوم الثالث خرج النمرود مع جيشه وأَشْرَفَ على موضع مرتفع لينظر إلى النار فرأى في وسط ذلك الموضع ماء وخضرة ورأى هناك شخصين والنار حواليهما فقال: إنا قد رمينا إنساناً واحداً فما لي أرى فيها شخصين فرجع متحيراً قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ يعني: حرقاً ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين﴾ يعني: الأذلين الأسفلين ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: إلى الأرض المقدسة فخرج إبراهيم من ذلك الموضع وقال للوط إني أريد أن أهاجر فصدقه واتبعه فخرجا إلى البيت المقدس ويقال إلى الشام التي باركنا فيها بالماء والثمار للناس.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٢١ وعزاه لأحمد والطبراني وأبي يعلى وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٢٢ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٢٣ وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾

﴿ووهبنا له إسحاق﴾ يعني الولد **﴿ويعقوب نافلة﴾** يعني: زيادة وذلك أنه سأل الله تعالى الولد فأعطاه الله تعالى الولد وهو إسحاق عليه السلام وولد الولد فضله على مسألته وهو يعقوب عليه السلام ويقال نافلة: أي: غنيمة **﴿وكلا جعلنا صالحين﴾** يعني: أكرمناهم بالإسلام وقال الكلبي: كان لوط ابن أخي إبراهيم فكان لوط بن هازر ابن آزر وهو عم لوط وقال بعضهم كان ابن عمه وكانت سارة أخت لوط ثم قال عز وجل: **﴿وجعلناهم أئمة﴾** يعني: قادة في الخير ويقال: أكرمناهم بالأمانة والنبوة **﴿يهدون بأمرنا﴾** يعني: يدعون الخلق بأمرنا إلى أمرنا وإلى ديننا **﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾** يعني: أمرناهم بالأعمال الصالحة ويقال بالدعاء إلى الله تعالى أي قول لا إله إلا الله **﴿وإقام الصلاة﴾** يعني: تمام الصلاة **﴿وإيتاء الزكاة﴾** يعني: الزكاة المفروضة وصدقة التطوع **﴿وكانوا لنا عابدين﴾** يعني مطيعين وقوله عز وجل **﴿ولوطا﴾** يعني: واذكر لوطاً إذ **﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾** يعني: النبوة والفهم ويقال ولوطاً يعني وأوحينا إليهم واتينا لوطاً حكما وعلماً يعني النبوة والفهم **﴿ونجيناه من القرية﴾** يعني مدينة سدوما **﴿التي كانت تعمل الخبائث﴾** يعني: اللواطة **﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾** يعني عاصين **﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾** يعني أكرمنا لوطاً في الدنيا بطاعتنا في الآخرة بالجنة **﴿إنه من الصالحين﴾** يعني: من المرسلين قوله عز وجل **﴿ونوحاً﴾** يعني: واذكر نوحاً **﴿إذ نادى من قبل﴾** يعني دعا على قومه من قبل إبراهيم وإسحاق **﴿فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾** يعني الغرق وتكذيب قومه **﴿ونصرناه من القوم﴾** يعني: على القوم **﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾** يعني: كذبوا نوحاً بما أنذرهم من الغرق ويقال: (نصرناه من القوم) أي: نجيناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا **﴿إنهم كانوا قوم سوء﴾** أي: كافرين **﴿فأغرقناهم أجمعين﴾** يعني: الصغير والكبير فلم يبق منهم أحد إلا هلك بالطوفان قال عز وجل **﴿وداود وسليمان﴾** يعني: واذكر داود وسليمان **﴿إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾** وذلك أن غنماً لقوم وقعت في زرع رجل فأفسدته قال ابن عباس[1] في رواية أبي صالح أن غنم قوم وقعت في كرم قوم ليلاً حين خرج عناقيده فأفسدته فاختصموا إلى داود بن ايشا عليه السلام فقوم داود الكرم والغنم فكانت القيمتان سواء يعني: قيمة الغنم وقيمة ما أفسدت من الكرم فدفع الغنم إلى صاحب الكرم فخرجوا من عنده فمروا بسليمان عليه السلام فقال بما قضى بينكم الملك فأخبروه فقال نعم ما قضى به وغير هذا أرفق للفريقين جميعاً فرجع أصحاب الكرم والغنم إلى داود فأخبروه بما قال سليمان فأرسل داود إلى سليمان فقال كيف رأيت قضائي بين هؤلاء فإني لم أقض بالوحي وإنما قضيت بالرأي فقال: نعم ما قضيت فقال: عزمت عليك أي: أنشدك بحق النبوة وبحق الوالد على ولده إلا أخبرتني فقال سليمان: غير هذا كان أرفق بالفريقين فقال وما هو قال سليمان يأخذ أهل الكرم الغنم ينتفعون بألبانها وسمنها وصوفها ونسلها ويعمل أهل الغنم لأهل الكرم في كرمهم حتى إذا عاد الكرم كما كان ردوه فقال داود نعم ما قضيت به فقضى داود بينهم بذلك وقال بعضهم كان ذلك القضاء نافذاً فلم ينقض ذلك وكان سليمان في ذلك اليوم ابن إحدى عشر سنة فذلك قوله (إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) يعني: دخلت فيه غنم القوم ويقال نفشت أي: دخلت فيه بالليل من غير حافظ لها وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الزهري رحمهم الله قال: النفش لا يكون إلا ليلاً والهمل بالنهار وروى قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل الحواك فاختصموا إلى شريح رحمه الله فقال شريح انظروا أوقعت ليلاً أو نهاراً فإن كان بالليل يضمن وإن ـ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٤ وعزاه لابن جرير.

كان بالنهار لا يضمن ثم قرأ شريح (إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) وقال: النفش بالليل والهمل بالنهار وكلاهما الرعي بلا راع وروى سعيد بن المسيب أن ناقة البراء[1] بن عازب دخلت حَائِطاً لقوم فأفسدته فقضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن حفظ الأموال على أهلها بالنهار وعلى أهل الماشية ما أصابت الماشية بالليل وبهذا الخبر أخذ أهل المدينة وقال أهل العراق لا يضمن ليلاً كان أو نهاراً إلا أن يتعمد صاحبها فيرسلها فيه وذهبوا إلى ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [جُرْحُ العَجْماءِ جبار] (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِيْن) يعني: عالمين قوله عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ يعني: ألهمناها سليمان ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني: النبوة والفهم بالحكم وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: لولا هذه الآية لم يجرؤ أحد منا أن يفتي في الحوادث ثم قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرِ﴾ يعني: كلما سبح داود يسبح معه الجبال والطير يعني سخرنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح وقال كان داود يمر بالجبال صبحاً وهي تجاوبه وكذلك الطير وقال قتادة[2]: يسبحن أي يصلين معه إذا صلى يعني كل ما سبح داود تسبح معه الجبال والطير يعني : سخرنا الطير والجبال يسبحن معه ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: نحن فعلنا ذلك بهما.

وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ يعني: دروع الحديد وذلك أن داود خرج يوماً متنكراً ليسأل عن سيرته في مملكته فقال جبريل: نعم الرجل هو لولا أن فيه خصلة واحدة قال: وما هي قال: بلغني أنه يأكل من بيت المال وليس شيء أفضل من أن يأكل الرجل من كد يده فرجع داود عليه السلام وسأله الله عز وجل أن يجعل رزقه من كد يديه فألان له الحديد وكان يتخذ منها الدروع ويبيعها ويأكل من ذلك فذلك قوله: (وعلمناه) يعني: ألهمناه ويقال علمناه بالوحي صنعة اللبوس لكم ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ يعني: يمنعكم قتال عدوكم قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالتاء[3] لتحصنكم وقرأ عاصم في رواية أبي بكر لنحصنكم بالنون بدليل قوله وعلمناه وقرأ الباقون بالياء للفظ التذكير يعني: ليحصنكم الله عز وجل ويقال: يعني اللبوس ومن قرأ بالتاء فهو كناية عن الصنعة واختار أبو عبيد بالتاء لتحصنكم لأن اللبوس أقرب إليه ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُم شَاكِرُونَ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام يعني اشكروا وارث هذه النعم ووحدوه قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قرأ عبد الرحمن (الريحُ) بضم الحاء على معنى الابتداء وقراءة العامة (الريحَ) بالنصب ومعناه: وسخرنا لسليمان الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ يعني: قاصفة شديدة وقال في موضع آخر: (تجري بأمره رخاء) يعني: لينة فإنها كانت تشتد إذا أراد وتلين إذا أراد ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ يعني: تسير بأمر الله عز وجل ويقال: بأمر سليمان ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي شيبة وأحمد وسعيد وبن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن حرام بن محيصة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٩، النشر ٢/٣٢٤.

عالِمِينَ﴾ يعني: من أمر سليمان وغيره قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ له﴾يعني: سخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ﴾ من البنيان وغيره ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ من أن يهيجوا أحداً في زمانه ويقال يحفظهم أن لا يفسدوا ما عملوا ويقال وكنا لهم حافظين ليطيعوا سليمان ولا يعصوه قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ يعني: أذكر أيوب عليه السلام روي في الخبر أن أيوب كان بمنزلة الملك وهو أيوب بن مرضي النبي عليه السلام ـ وكانت له أموال من صنوف مختلفة وكانت له ضياع كثيرة وكان له ثلثمائة زوج نيران وغلمان يعملون له في ضياعة وأموال السوائم من الغنم والإبل والبقر وكان متعبداً ناسكاً منفقاً متصدقاً فحسده إبليس عدو الله وقال: إن هذا يذهب بالدنيا والآخرة وأراد أن يفسد عليه إحدى الدارين أو كلتيهما فسأل الله تعالى وقال: إن عبدك أيوب يعبدك لأنك أعطيته السعة في الدنيا ولولا ذلك لم يعبدك قال الله تعالى: إني أعلم منه أنه يعبدني ويشكرني وإن لم يكن له سعة في الدنيا فقال يا رب سلطني عليه فسلطه على كل شيء منه إلا على روحه وجاء إبليس إلى غنمه كهيأة النار وضرب عليها فأهلك جميع غنمه فجاءت رعاته فأخبروه بالقصة فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال هو الذي أعطى وهو الذي أخذ وهو أحق به ويقال إنه أحرق غنمه ورعاته فجاء إبليس على هيئة راع من رعاته فأخبره بذلك فقال له أيوب لو كان فيك خيراً لهلكت مع أصحابك ثم جاء إلى إبله وبقره ففعل مثل ذلك ثم جاء إلى زرعه كهيأة النار فأفسد جميع زرعه فأخبر بذلك فحمد الله عز وجل وأثنى عليه وقال هو الذي أعطى وهو الذي أخذ وهو أحق به وكان له سبعة بنين ثلاث بنات ويقال سبعة بنيـن وسبعة بنات في بيت فجاء إبليس عليه اللعنة فهدم البيت عليهم فماتوا كلهم فذكر ذلك لأيوب فحمد الله تعالى وأثنى عليه على ذلك ولم يجزع وقال هو الذي أعطى ثم أخذ. ثم جاء إلى أيوب وهو في الصلاة فلما سجد نفخ في أنفه وفمه نفخة فانتفخ أيوب عليه السلام وخرجت به قروح وجعل تسيل منها الصديد وتفرق عنه أقرباؤه وأصدقاؤه ولم يبق معه إلا امرأته وقال ابن عباس في رواية أبي صالح كان اسم امرأته ماحين بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب ويقال كان اسمها رحمة فتأذى ـ به جيرانه وقالوا لامرأته احمليه من ها هنا فإنا نتأذى به فحملته حتى أخرجته إلى كناسة قوم ووضعته عليها وجعلت تدخل على الناس وتخدمهم وتأخذ شيئاً وتنفقه عليه فكان ذلك البلاء ما شاء الله فجاء إبليس في صورة طبيب وقال للمرأة إني أردت أن يبرأ من علته فمريه يشرب الخمر ويتكلم بكلمة الكفر فأخبرته المرأة بذلك فقال لها ذلك إبليس الذي أمرك بهذا فألحت عليه فغضب وقال والله لئن برئت لأضربنك مائة سوط فقالت متى تبرأ فقال عند ذلك: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ﴾ ويقال إنه اشتهى شيئاً يتخذ بالسمن فـدخلت امرأته على امرأة غني من الأغنياء وسألتها ذلك فأبت عليها ثم نظرت إلى ذوائبها فرأت ذوائبها مثل الحبل فقالت لئن دفعت إليَّ ذوائبك دفعت إليك ما تطلبين مني فدفعت بالمقراض وقطعت ذوائبها ودفعتها إليها وأخذت منها ما سألت وجاءت به ألى أيوب فقال لها أيوب من أين لك هذا فأخبرته بالقصة فبكى أيوب عند ذلك وقال رب إني مسني الضر قال بعضهم: مكث أيوب في بلائه سبع سنين وقال بعضم عشر سنين (وروى ابن عباس)[1] عن أنس بن مالك[2] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن أيوب نبي الله لبث في بلائه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يعودانه ويغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما ذلك قال له ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به ثم راحا إليه فلم يصبرا حتّى ذكرا ذلك له فعند ذلك قال: رب مسني الضر قال: فلما كان ذات يوم خرجت امرأته فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام في مكانه: أن (اركض

(١) قوله في أ [(ابن) فقط ولم يذكر عباس، شهاب].

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٨/٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني.

برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فشرب واغتسل فأذهب الله عز وجل ما به من البلاء فقال أيوب كان الركض برجلي أشد علي من البلاء الذي كنت فيه قال ابن عباس لما قال الله تعالى له: اركض برجلك ففعل فانفجرت اغتسل منها فصح جسده ثم قيل له اركض برجلك ففعل فخرجت عين فشرب منها فالتأم ما في جوفه فلما رجعت إليه المرأة لم تعرفه فقالت له بارك الله فيك هل رأيت نبي الله المبتلى فوالله ما رأيت أحداً أشبه به منك إذ كان صحيحاً قال فإني أيوب قال وكان له آنذاك أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين إحدهما على أندر القمح فأفرغت الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض ذلك قوله تعالى: (إذ نادى ربه أنى مسني الضر) أصابني البلاء والشدة ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ فعرض ولم يفصح بالدعاء.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

قال الله تعالى ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾ يعني رفعنا ما به من شدة ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال مقاتل ولدت امرأة أيوب منه سبعة بنين وثلاث بنات قبل البلاء فأحياهم الله تعالى ثم ولدت بعد كشف البلاء سبعة بنين وثلاث بنات فذلك قوله (ومثلهم معهم) وقال الكلبي: ولدت سبعة بنين وسبع بنات فنشروا له وولدت امرأته مثلهم سبعة بنين وسبع بنات ويقال آتاه الله عز وجل أهله في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة وروى وكيع عن ابن سفيان عن الضحاك[1] أن ابن مسعود بلغه أن مروان بن الحكم قال (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) أي: أهلاً غير أهله فقال ابن مسعود لا بل أهله بأعيانهم ومثلهم معهم ثم قال ﴿رحمة من عندنا﴾ يعني نعمة منا ﴿وذكرى للعابدين﴾ يعني: عظة للمطيعين وهم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعتبروا به لأن أيوب ـ عليه السلام ـ لم يفتر عن عبادة ربه عز وجل في بلائه ثم قال تعالى ﴿وإسماعيل وإدريس﴾ يعني: واذكر إسماعيل وهو إسماعيل ابن إبراهيم الخليل وإدريس وهو جد أبي نوح ﴿وذا الكفل﴾ قال بعضهم: كان ذو الكفل نبياً وقال مجاهد[2] ذو الكفل لم يكن نبياً وكان رجلاً صالحاً تكفل لبني قومه أن يكفيه أمر قومه ويقضي بينهم بالعدل ولذلك سمي ذا الكفل ويقال إنما ذكره مع الأنبياء عليهم السلام لأنه عمل عمل الأنبياء وقال قتادة: كفل عن رجلٍ صلاته كان يصلي كل يوم ألف ركعة فكفل عنه فكان يصلي بعد موته فسمي ذا الكفل ويقال إنه كفل مائة نبي وأنجاهم من القتل وضمهم إلى نفسه فسمي ذا الكفل ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني: صبروا على طاعة الله عز وجل وعلى ما أصابهم من الشدة في الله تعالى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ يعني: أكرمناهم بالنبوة ويقال: أدخلناهم في الجنة ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: المطيعين لله تعالى

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٣٠ وعزاه لابن أبي الدنيا وأبي يعلى وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٣١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿وذا النون﴾ يعني: واذكر ذا النون يعني ذو السمكة وهو يونس بن متى ـ عليه السلام ـ ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ يعني: مصارعاً من قومه ويقال كان ضيق الصدر سريع الغضب وذلك أنه لما دعا قومه إلى الله تعالى كذبوه فأخبرهم بأن العذاب نازل بهم فأتاهم العذاب فأخلصوا لله تعالى بالدعاء فصرف عنهم وكان يونس اعتزلهم ينتظر هلاكهم فسأل بعض من مر عليه من أهل تلك المدينة فلما علم أنهم لم يهلكوا أنف يرجع إليهم مخافة أن ينسب إلى الكذب وَيُعَيَّرَ به وذهب مغاضباً يعني: أنفاً قال القتبي: غضب وأنف بمعنى واحد لقربهما وقال بعضهم: إنما غضب على الملك وذلك أن ملكاً من الملوك يقال له ابن تغلب غزا بني إسرائيل ونزل أيام عافيتهم أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يسمى شعياء أن ائت حَزْقِيَا الملك ومره ليبعث نبياً قوياً أميناً وكان في ملكه خمسة من الأنبياء فجاء شعياء إلى حزقيا وأخبره بذلك فدعى الملك يونس بن متى وأمره بأن يخرج فأبى أن يخرج وقال إن في بني إسرائيل أنبياء أقوياء غيري فعزم عليه الملك ليخرج فخرج وهو كاره فغضب على الملك فوجد قوماً قد شحنوا سفينتهم فقال لهم أتحملونني معكم فعرفوه فحملوه فلما شحنت السفينة بهم وأسرعت في البحر انكفأت وغرقت بهم فقال ملاحوها يا هؤلاء إن فيكم رجلاً عاصياً وإن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيكم رجل عاصي فاقترعوا فخرج بينهم يونس ـ عليه السلام ـ فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبي الله ثم أعادوا الثانية والثالثة فخرج سهم يونس فقال يا هؤلاء أنا والله العاصي قال فتلفف في كسائه وقام على رأس السفينة فرمى بنفسه فابتلعته السمكة فذلك قوله تعالى: (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يعني: لن يقدر عليه العقوبة ويقال إن ذنبه لم يبلغ الذي نقدر عليه العقوبة ويقال ظن أنا لن نضيق عليه الحبس كقوله فقدر عليه رزقه أي: ضيق وقرأ بعضهم ﴿فَظَنَّ أَن لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ بالتشديد فهو من التقدير وقراءة العامة بالتخفيف ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: في ظلمات ثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أي: ليس أحد له سجن كسجنك ﴿سُبْحَانَكَ﴾ إني تبت إليك ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي قال الله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ يعني: غم الماء في بطن الحوت ويقال من غم الذنب وقد بقي في بطن الحوت أربعين يوماً ويقال أقل من ذلك ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في إحـدى الروايتين نُجِّي بنون واحدة وتشديد الجيم وقال الزجاج: هو لحن لأن فعل ما لم يسم فاعله لا يكون بغير فاعل وإنما كتب في المصحف بنون واحدة لأن الثانية تخفى مع الجيم وقال أبو عبيدة والذي عندنا أنه ليس بلحن وله مخرجان في العربية أحدهما أنه يريد ننجي مشددة كقوله (ونجيناه من الغم) ثم يدغم النون الثانية في الجيم والآخر معناه نجي نجاة المؤمنين قال: هذه القراءة أحب إلي لأن المصاحف كلها كتبت بنون واحدة وهكذا رأيت في مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه وقرأ الباقون (ننجي المؤمنين) بنونين[1]

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

(١) قرأ ابن عامر: ﴿وكذلك نُجِّي المؤمنين﴾ بنون واحدة والجيم مشددة قال الفراء: (لا وجه له عندي لأن ما لم يسم فاعله إذا خلا باسم رَفَع) وقالوا أيضاً: ﴿نُجِّي﴾ لم يُسمَّ فاعله وكان الواجب أن تكون الياء مفتوحة كما تقول: ﴿غُزِّيَ وقُضِيَ﴾ وقد احتج له غيره فقال: ﴿نُجِّي﴾ فعل ماض على ما لم يُسمَّ فاعله. ثم سكنّوا الياء وتأويله: (نجى النَجاءُ المؤمنين) فيكون (النجاءُ) مرفوعاً لأنه اسم ما لم (يُسَمَّ) فاعله، (والمؤمنين) نصب لأنه خبر ما لم يسم فاعله (كما) تقول: (ضُرب الضربُ زيداً) ثم يكنى عن الضرب فتقول (ضُرب زيداً) وحجتهم قراءة أبي جعفر قرأ (لِيُجزَى قوماً بما كانوا) أي (لِيُجزى الجزاءُ قوماً) وقال أبو عبيد: يجوز أن يكون أراد: (نُنَجِّي) فأدغم النون في الجيم (والمؤمنين نصب لأنه مفعول به). فـ(نُجي) على ما ذكره أبو عبيد فعل مستقبل وعلامة الاستقبال سكون الياء. انظر حجة القراءات ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿وزكريا﴾ يعني: واذكر زكريا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ يعني إذ دعا ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ يعني: وحيداً لا وارث لي ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ يعني: أفضل الوارثين قال الله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يعني: رحم امرأته وكانت عقيماً لم تلد قط وكانت سيئة الخلق فأصلحها الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يعني يبادرون في الطاعات وهو زكريا وامرأته ويحيى - عليهم السلام - ويقال الأنبياء الذين سبق ذكرهم ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ يعني: رغبة فيما عند الله من الثواب والجنة ورهباً أي: فَرقاً من عذاب الله تعالى ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ يعني: مطيعين ويقال متواضعين قوله عز وجل: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: واذكر مريم التي حفظت نفسها من الفواحش ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ يعني: نفخ جبريل في نفسها بأمرنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً﴾ يعني عبرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: لجميع الخلق ويقال آية ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد الآية فيهما بمعنى واحد وهو الولادة بغير أب قوله عز وجل ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني دينكم دين الإسلام ديناً واحداً قرأ بعضهم أُمَّةٌ واحدةٌ بالضم ومعناه إن هذه أمتكم وقد تم الكلام ثم يقول أُمَّةٌ يعني هذه أمة واحدة وقرأ العامة بالنصب على معنى التفسير ثم قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ يعني فوحدوني ثم قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: عرفوا فيما بينهم وهم اليهود والنصارى ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فهذا تهديد للذين تفرقوا في الدين ثم بين ثواب الذين ثبتوا على الإسلام فقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: مصدق بتوحيد الله عز وجل ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ يعني: لا يُجحد ولا يُنسى ثواب عمله والكفران مصدر مثل الشكران والغفران ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ يعني: حافظين مجازين

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ يعني: على قرية فيما مضى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[1] وحرم الباقون وحرام بنصب الحاء والالف

(١) انظر حجة القراءات ٤٧٠، النشر ٢/٣٢٤.

وَحِرْمٌ وَحَرَامٌ بمعنى واحد كقوله حل وحلال وروي عن عكرمة عن ابن عباس[1] أنه كان يقرأ وحرم وقال واجب عليهم أن لا يرجع منهم راجع ويقال معناه وحرام على أهل قرية أهلكناها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ويقال لا يرجعون لا زيادة ومعناه حرام عليهم أن يرجعوا ثم قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**﴾ قرأ ابن عامر[2] فُتِّحَتْ بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير وقرأ الباقون بالتخفيف وقرأ عاصم (يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) بالهمز والباقون بغير همز ﴿**وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ**﴾ قال مقاتل: يعني من كل مكان يخرجون من كل جبل أو أرض أو واد وخروجهم عند قيام الساعة وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه لا يموت واحد منهم إلا ترك من صلبه ألف ذرية فصاعداً وروى قتادة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أنه قال الإنس عشرة أجزاء منهم يأجوج ومأجوج تسعة أجزاء وجزء واحد سائر الإنس وروى سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزبعرا عن عبد الله بن مسعود قال يَخْرُجُ يَأْجُوجُ ومأجوج بعد الدجال يموجون في الأرض فيفسدون فيها ثم قرأ (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) أي يخرجون فيبعث الله تعالى عليهم دابة مثل هذا النغف فتلج في أسماعهم ومناخرهم فيموتون فتنتن الأرض فيرسل الله تعالى ماء فيطهر الأرض منهم فذلك قوله عز وجل: (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) يعني: أرسلت كقوله (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ) يعني: أرسلنا (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ) أي من كل أكمة ونشرة من الأرض يخرجون وقال بعضهم يكون خروجهم قبل الدجال والأصح: ما روي عن عبد الله بن مسعود قوله تعالى: ﴿**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ**﴾ يعني: قيام الساعة ﴿**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ**﴾ أي: فاتحة ﴿**أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا ويلنا**﴾ يعني: يقولون يَا وَيْلَنَا ﴿**قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ**﴾ يعني: في جهل ﴿**مِنْ هَذَا**﴾ اليوم ثم ذكروا أن المرسلين كانوا أخبروهم فقالوا: ﴿**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ يعني: قد أخبرونا فكذبناهم قوله عز وجل ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾ وروي عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ حطب جهنم وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ حضب جهنم بالضاد وقراءة العامة حصب بالصاد يعني: رمياً في جهنم وكل ما يرمى في جهنم فهو حصب ويقال حصب هو الحطب بلسان الزنجية ومن قرأ حطب أي كل ما يوقد به جهنم ومن قرأ حضب بالضاد معناه ما يهيج به النار ﴿**أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ أي داخلون وقال ابن عباس في رواية أبي صالح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى قريشاً وهم في المسجد مجتمعون وثلثمائة وستون صنماً مصفوفة وصنم كل قوم بحيالهم فقال (إنكم وما تعبدون من دون الله) يعني (من هذه الأصنام في النار) ثم انصرف عنهم فشق ذلك عليهم مشقة عظيمة شديدة وأتاهم عبد الله[3] بن الزبعرا وكان شاعراً فقال ما لي أراكم بحال لم أركم عليها قبل فقالوا: إن محمداً يزعم أنا وما نعبد في النار فقال: لو كنت هاهنا لخصمته فقالوا هل لك أن ترسل إليه فقال: نعم فبعثوا إليه فأتاهم فقال له ابن الزبعرا: أرأيت ما قلت لقومك أنفاً أخاص لهم أم عام فقال بل عام كل من عبد من دون الله فهو وما يعبد في النار قال أرأيت عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ هذه النصارى تعبده فعيسى والنصارى في النار وهذا عزير تعبده اليهود فعزير واليهود في النار وهذا حي يقال لهم بنو مليح يعبدون الملائكة فالملائكة وهم في النار فسكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يجبهم فضج أصحابه وضحكوا فنزل (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) ونزل في عيسى وعزير والملائكة (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) يقال: إن هذه القصة لا تصح لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أفصح العرب وأنطقهم لساناً وأحضرهم جواباً كما وصف نفسه أَنَا أفصح العرب فلا يجوز أن يسكت على مثل هذا السؤال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٣٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٧٠.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٣٨ وعزاه لابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ولم يكن السؤال لازماً ويقال: كان سكوته الاستخفاف لأنه سأل سؤالاً محالاً لأنه قال إنكم وما تعبدون من دون الله ولم يقل ومن تعبدون وما لا يقع على النواطق ومن تقع على النواطق ويقال هذ القول يقال لهم يوم القيامة لأنه قال: (قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) يقال: لهم عند ذلك إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ فإن قيل ما الحكمة في إدخال الأصنام في النار قيل زيادة عقوبة للكفار لأن الأصنام أحجار فيكون الحر فيها أشد ويقال الفائدة في إدخال المعبود النار زيادة ذل وصغار عليهم حيث رأوا معبودهم في النار معهم من غير أن يكون للأصنام عقوبة لأنه لا يجوز التعذيب بذنب غيرهم ثم قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ أي ما دخلوها ومنعوا أنفسهم من النار ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني العابد والمعبود.

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ يعني: في النار صوتهم مثل نهيق الحمار ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني: عيسى وعزيراً في الجنة لا يسمعون زفيرهم ويقال يعني أن أهل النار لا يسمعون في النار الصوت وذلك حين يقال لهم (اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ) فصاروا صماً بكماً عمياً ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ يعني الذين وجبت لهم منا الجنة يعني: عيسى وعزيراً ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ يعني: منجون من النار قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ يعني: صوت جهنم ﴿وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني لهم ما تمنت أنفسهم في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ يعني: دائمين ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس[1] رضي الله عنه: يعني النفخة الأخيرة دليل قوله تعالى (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوهُ داخرين) وقال الحسن[2]: حين يؤمر بالعبد إلى النار وقال مقاتل: إذا ذبح الموت بين الجنة والنار فيأمن أهل الجنة من الموت ويفزع أهل النار فيفزعون حين أيسوا من الموت وقال الكلبي وسعيد بن جبير والضحاك إنه حين وضع الطبق على النار بعد ما أخرج منها من أخرج فيفزعوا لذلك فزعاً لم يفزعوا لشيء قط وذلك الفزع الأكبر وقال مقاتل وابن شريح: حين يذبح الموت على هيأة كبش أملح على الأعراف والفريقان ينظرون فينادي يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت وقال ذو النون المصري: هو القطيعة والفراق ويقال: إنه الموت لأن أول هول يراه الإنسان من أمر الآخرة هو الموت ويقال الفزع الأكبر عند قوله: (وامتازوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) ويقال: هذا حين دعوا إلى الحساب ويقال عند الصراط ثم قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: يوم القيامة لأهل الجنة قال مقاتل: يعني الملائكة الذين كتبوا أعمال بني آدم حين خرجوا من قبورهم فيقولون للمؤمنين ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فيه الجنة وقال الكلبي:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٠ وعزاه لابن جريروابن أبي حاتم.

تتلقاهم الملائكة عند باب الجنة ويبشرونهم بذلك ويقولون هذا يومكم الذي كنتم توعدون)[١] في الدنيا قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ يعني: واذكر يوم نطوي السماء ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال السدي[٢]: السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان دفع كتابه إلى السجل فطواه ويقال السجل الصحيفة ويقال: السجل الكاتب وروى أبو الجوزاء[٣] عن ابن عباس[٤] قال: السجل كان كاتب النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره الله تعالى أنه يطوي السماء يوم القيامة كما يطوي السجل الكتاب قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٥] للكتب بلفظ الجماعة وقرأ الباقون للكتاب بلفظ الواحد وقرأ أبو حفص المدني (تُطْوَى) السماء بالتاء والضم على فعل ما لم يسم فاعله وقراءة العامة (نطْوِيْ السَّمَاءَ) بالنون وقرأ بعضهم السجل بجزم الجيم والتخفيف وقراءة العامة بالتشديد وبكسر الجيم ثم استأنف الكلام فقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ يعني: خلقهم في الدنيا يعيدهم في الآخرة ويقال كما بدأناهم شقياً وسعيداً في الدنيا فكذلك يكونون في الآخرة ويقال كما بدأنا أول خلق من نطفة في الدنيا نعيده وأن تمطر السماء أربعين يوماً كمني الرجال فينبتون فيه ﴿وَعْداً عَلَيْنَا﴾ يعني: وعدنا البعث صدقاً وحقاً لا خلف فيه كقوله: لَا رَيْبَ فِيهِ (وَعْداً) صار نصباً للمصدر ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بهم أي: باعثين بعد الموت وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (إنكم تحشرون يوم القيامة عراة غرلا بُهْماً ثم قال: كما بدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور﴾[٦] يعني: في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وكل كتاب زبور ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ يعني: من بعد اللوح المحفوظ ويقال الذكر التوراة يعني: كتبنا في الإنجيل والزبور والفرقان من بعد التوراة أي بينا في هذه الكتب ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ يعني: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعني: ينزلها

---

(١) سقط في (أ).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أوس بن عبد الله الربعي أو الجوزاء المصري من ربعة الأزد انظر التهذيب ١/٣٨٣ - ٣٨٤.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٠ وعزاه لأبي داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده في المعرفة وابن مردويه والبيهقي في سننه وصححه.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٧٠ - ٤٧١، النشر ٢/٣٢٥.

(٦) قرأ حمزة: ﴿ولقد كتبنا في الزُّبور﴾ بضم الزاي، يعني «في الكتب» جمع (زبر) مثل قرح وقروح. وقرأ الباقون: بفتح الزاي أراد زبور داوود. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٧١.

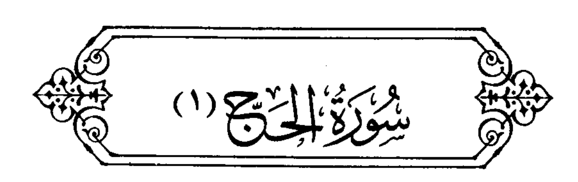
عبادي المؤمنون وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل رضي الله عنه ويقال: إن الأرض المقدسة يرثها أي: ينزلها بنو إسرائيل ويقال: يعني: أرض الشام يرثها أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: جميع الأرض تكون في آخر الزمان كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (سيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها). قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: في هذا القرآن ﴿لَبَلَاغاً﴾ إلى الجنة ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: موحدين ويقال: في هذا القرآن لبلاغاً بلغهم من الله عز وجل لقوم مطيعين وعن كعب أنه قال: إنهم أهل الصلوات الخمس قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: ما بعثناك يا محمد إلَّا رحمة للعالمين يعني: نعمة للجن والإنس ويقال للعالمين أي: لجميع الخلق لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق وكان رحمة للمؤمنين حيث هداهم طريق الجنة ورحمة للمنافقين حيث أمِنوا القتل ورحمة للكافرين بتأخير العذاب وروى سعيد بن جبير عن ابن[1] عباس قال: من آمن بالله ورسوله فله الرحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي أن يصيبه ما كان يصيب الأمم السالفة قبل ذلك فهو رحمة للمؤمنين والكافرين وذكر في الخبر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل عليه السلام: يقول الله عز وجل: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فهل أصابك من هذه الرحمة قال: نعم أصابني من هذه الرحمة أني كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك لثناء أثنى الله تعالى عليَّ بقوله عز وجل: (ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: ربكم رب واحد ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون بالتوحيد ويقال: مخلصون بالعبادة اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر يعني: أسلموا ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوا﴾ قال: فإن أعرضوا عن الإيمان ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ﴾ يعني: أعلمتكم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: على بيان علانية غير سر ويقال أعلمتكم بالوحي الذي يوحي إليّ لنستوي في الإيمان به ويقال: معناه أعلمتكم فقد صرت أنا وأنتم على سواء وهذا من الاختصار ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ يعني: وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ من نزول العذاب بكم في الدنيا فقل لهم: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: العلانية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمون﴾ يعني: ما تسرون من التكذيب بالعذاب ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ يعني: وما أدري ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا فتنة لكم لأنهم كانوا يقولون لو كان حقاً لنزل بنا العذاب ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: بلاغ إلى منتهى آجالكم يعني: تعيشون إلى الموت قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ يعني: اقض بيني وبين أهل مكة بالعدل، ويقال: بالعذاب ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: العاطف على خلقه بالرزق ﴿الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يعني: أستعين به على ما تقولون وتكذبون ويقال: المطلوب منه العون والنصرة وروي عن الضحاك أنه قرأ: (قل رب احكم بالحق) على معنى الخبر على ميزان افعل يعني: هو أحكم الحاكمين قال: لأنه لا يجوز أن يسأل أن يحكم بالحق وهو لا يحكم إلَّا بالحق وقرأه العامة[2] (قل رب احكم) على معنى السؤال معناه أحكم بحكمك ثـم يخبر عن ذلك الحكم أنه حق قرأ عاصم في رواية حفص قال: رب احكم على معنى الحكاية وقرأ الباقون قل رب احكم وقرأ ابن عامر[3] في إحدى الروايتين على ما يصفون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ حمزة الزبور بضم الزاي وقرأ الباقون بالنصب والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٣ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في الدلائل.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٧١ النشر ٢/٣٢٥.

(٣) انظر النشر ٢/٣٢٥.



وهي سبعون وثمان آيات مدنية(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يقول أطيعوا ربكم ويقال: إخشوا ربكم ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ﴾ يعني: قيام الساعة ﴿شيء عَظِيم﴾ يقول هـولها عظيم والزلزلة والزلزال شدة الحركة على الحال الهائلة من قولهم زلت قدمه إذا

(١) سميت هذه السورة سورة الحج في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووجه تسميتها سورة الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حج البيت الحرام وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويهاً بالحج وما فيه من فضائل ومنافع وتقريعاً للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران. واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية أو كثير منها مكي وكثير منها مدني.

فعن ابن عباس ومجاهد وعطاء: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله ﴿هذان خصمان﴾ إلى ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ قال ابن عطية: وعد النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات.

وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وقتادة والحسن: هي مدنية إلا آيات ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ إلى قوله تعالى ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ فهن مكيات.

وعن مجاهد عن ابن الزبير: أنها مدنية ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال الجمهور هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني وهي مختلطة أي لا يعرف المكي بعينه والمدني بعينه. قال ابن عطية: وهو الأصح. وعدت آياتها عند أهل المدينة ومكة: سبعاً وسبعين، وعدها أهل الشام: أربعاً وسبعين، وعدها أهل البصرة: خمساً وسبعين، وعدها أهل الكوفة: ثمانياً وسبعين. واشتملت السورة على مقاصد كثيرة منها: ـ

خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهواله. والاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالآلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعاً لوساوس الشياطين وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئاً ولا ينصرونهم في الدنيا والآخرة.

وتفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يُعرضون عن الحجة ليضلوا الناس. وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه وكيف يرتابون فيه بعلة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أن الله يوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوره أطواراً. وأن الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتخرج من أصناف النبات فالله هو القادر على كل ذلك فهو=

(٢) في أ [مكية].

زالت عن الجهة سرعة ثم وصف ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ يعني: تشغل كل مرضعة ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يعني: كل ذات ولد رضيع ويقال: تحير كل والدة عن ولدها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم وروى منصور عن إبراهيم عن علقمة (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) قال: هذا بين يدي الساعة وقال مقاتل: وذلك قبل النفخة الأولى ينادي ملك من السماء يا أيها الناس أتى أمر الله فيسمع الصوت أهل الأرض جميعاً فيفزعون فزعاً شديداً ويموج بعضهم في بعض فيشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير وتضع الحوامل ما في بطونها وتزلزلت الأرض وطارت القلوب وعن سعيد بن جبير أنه قال: إنما هو عن النفخة الأولى التي هي الفزع الأكبر ويقال هو يوم القيامة وقال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم قال: حدثنا الدبيلي قال: حدثنا أبو عبد الله قال: حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جذعان قال سمعت الحسن[١] يقول: حدثنا عمران بن الحسين قال كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مسير فنزلت عليه هذه (يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أتدرون أي يوم ذلك قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله عز وجل لآدم: قم فابعث بعث أهل الجنة قال فيقول آدم: وما بعث أهل الجنة يقول: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون في النار وواحد في الجنة قال فأنشأ القوم يبكون فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إنه لم يكن نبي قط إلا كانت قبله جاهلية فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن لم يكن كمل العدد من الجاهلية أخذ من المنافقين وما مثلكم في الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع وكالشامة في جنب البعير ثم قال عليه الصلاة والسلام إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال: إن معكم لخليقتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من كفرة الجن والإنس وروى أبو سعيد[٢] الخدري عن رسول الله ـ صلى الله عليه

= يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير. وأن مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول عليه الصلاة والسلام. ووصف المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام. والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم ـ عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين. وتذكير لهم بما مَنَّ الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته. وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحل بهم العذاب. وأنه يوشك أن يحل بهولاء مثله فلا يغرهم تأخير العذاب فإنه إملاء من الله لهم كما أملى للأمم من قبلهم وفي ذلك تأنيس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين آمنوا وبشارة لهم بعاقبة النصر على الذين فتنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق. وأن اختلاف الأمم بين أهل هدى وأهل ضلال أمر به افترق الناس إلى ملل كثيرة. وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم لمشاهدة جزاء أهل الهدى وجزاء أهل الضلال. وأن المهتدين والضالين خصمان اختصموا في أمر الله فكان لكل فريق جزاؤه.

وسَلَّى الله رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين بأن الشيطان يفسد في قلوب أهل الضلالة آثار دعوة الرسل ولكن الله يُحكم دينه ويبطل ما يُلقي الشيطان فلذلك ترى الكافرين يعرضون وينكرون آيات القرآن. وفيها التنويه بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر ووصف الكفار بكراهيتهم القرآن، وبغض المرسل به والثناء على المؤمنين وأن الله يسر لهم اتباع الحنيفية وسماهم المسلمين. والإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض لهم. وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأن الله اصطفى خلقاً من الملائكة ومن الناس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى الله زلفى وأن الله هو مولاهم وناصرهم. انظر التحرير ١٧/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٣ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وعبد الله بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق. والحديث عند الترمذي في السنن (٣١٦٩) وأحمد ٤/ ٤٣٥ وابن جرير ١٧/ ٨٦ والحاكم ١/ ٢٨، ٢/ ٢٣٣، ٣٨٥، ٤/ ٥٦٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٤ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء=

وسلم ـ أنه قال: يقول الله تعالى لآدم: قم فابعث أهل النار فقال يا رب وما بعث أهل النار فيقول من كل ألف تسعماية وتسعة وتسعون فعند ذلك يشيب الصغير وتضع الحامل ما في بطنها ويقال: هذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه حامل ولا صغير ولكنه بين هول ذلك اليوم أنه لو كان حاملاً لوضعت حملها من شدة ذلك اليوم ثم قال تعالى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ يعني: ترى الناس سكارى من الهول أي كالسكارى وما هم بسكارى من الشراب ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] (وَتَرَى النَّاسَ سَكْرَى وما هم بِسَكْرَى) بغير ألف وقرأ الباقون كلاهما بالألف وروي عن ابن مسعود[2] وحذيفة أنهما قرآ سَكْرَى وهو اختيار أبي عبيدة وروي عن أبي زرعة أنه قرأ على الربيع بن خثيم (وتُرَى) بضم التاء وقراءة العامة بالنصب.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ يعني: يخاصم في الله يعني: في وحدانية الله ويقال في دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بغير حجة ويقال بغير علم يعلمه وهو النضر بن الحارث وأصحابه ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيْدٍ﴾ يعني: يطيع ويعمل بأمر كل شيطان متمرد في معصية الله عز وجل ويقال معناه ويتبع ما سول له الشيطان والمريد الفاسد يقال مرد الشيء إذا بلغ في الشر غايته ويقال مرد الشيء إذا جاوز حد مثله ثم قال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيهِ﴾ يعني: قضى عليه يعني الشيطان ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ يعني من يتبع الشيطان ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن الهدى ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ يعني: يدعوه ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني: إلى عمل عذاب النار قوله عز وجل ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا كفار مكة ﴿إِنْ كُنْتُم فِيْ رَيْبٍ﴾ يعني: في شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ بعد الموت فانظروا إلى بدء خلقكم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني من آدم عليه السلام من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الغبيط الجامد وجمعها علق ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ (وهي اللحمة القليلة قدر ما يمضغ)[3] مثل قطعة كبد ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ أي تامة ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ يعني:

= والصفات وهو عند البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) (٤٧٤١) (٦٥٣٠) (٧٤٨٣)، ومسلم في الإيمان (٢٢٢/٣٧٩)، وعبد بن حميد (٩١٧) منتخب وأحمد ٣٢/٣، والطبري ٨٧/١٧.

(١) انظر حجة القراءات ٤٧٢، النشر ٣٢٥/٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٤٤/٤ وعزاه لسعيد بن منصور.

(٣) سقط في ظ.

غير تامة وهو السقط ويقال: مصورة وغير مصورة ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بدء خلقكم ويقال يخرج السقط من بطن أمه مصوراً أو غير مصور لنبين لكم بدء خلقكم كيف نخلقكم في بطون أمهاتكم ويقال لنبين لكم في القرآن أنكم كنتم كذلك ﴿ونُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ فلا يكون سقطاً ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني إلى وقت خروجه من بطن أمه ويقال إلى وقت معلوم لتسعة أشهر ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ من بطون أمهاتكم أطفالاً صغاراً وقال القتبي: لم يقل أطفالاً لأنهم لم يخرجوا من أم واحدة ولكنه أخرجهم من أمهات شتى فكأنه قال: يخرجكم طفلاً طفلاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ يعني ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة ويقال إلى ست وثلاثين سنة والأشد هو الكمال في القوة والخير ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ أن يبلغ أشده ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي أضعف العمر وهو الهرم ويقال: يعني يرجع إلى أسفل العمر يعني يذهب عقله ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ يعني لكيلا يعقل بعد عقله الأول ثم دلهم على إحياء الموتى بإحيائه الأرض فقال تعالى ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يعني ميتة يابسة جافة ذات تراب ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ يعني المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ يعني تحركت بالنبات كقوله عز وجل (فَلَمَّا رَاهَا تَهْتَزُّ) يعني: تتحرك ويقال اهتزت يعني: استبشرت ﴿وَرَبَتْ﴾ يعني انتفخت للنبات وأصلهُ من ربا يربو وهو الزيادة ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ يعني: من كل صنف من ألوان النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ يعني: حسناً حتى يُبْهَجَ به فدلهم للبعث بعد إحياء الأرض ليعتبروا ويعلموا)بأن الله هو الحق وعبادته هي الحق وغيره من الآلهة باطل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: يعلم أنه يحيى الموتى ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كل شيء من البعث وغيره.

وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ يعني: يَعْلَمُوا أَنَّ السَّاعة ﴿آتِيَةٌ﴾ أي: كائنة أي: جائية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: لا شك فيها عند المؤمنين وعند كل من كان له عقل وذهن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ يعني: يخاصم في دين الله عز وجل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بلا بيان وحجة ﴿وَلَا هُدًى﴾ يعني: ولا دليل واضح من المعقول ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ يعني: ولا كتاب منزل مضيء فيه حجة ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ يعني: لاوى عنقه عن الإيمان وهو على وجه الْكِنَايَةِ ومعناه: يجادل في الله بغير علم متكبراً ويقال ثانيَ عطفه أي: معرضاً عنه ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو[1] ﴿لِيَضِلَّ﴾ بنصب الياء يعني: ليعرض عن دين الله عز وجل والباقون بالضم يعني: ليصرف الناس عن دين الإسلام قال الله تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يعني النضر بن الحارث قتل يوم بدر صبراً ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ يعني: عذاب النار فأخبر الله تعالى أن ما أصابه في الدنيا من الخزي لم يكن كفارة[2] لذنوبه ثم قال عز وجل ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ذلك العذاب يعني: يقال له

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٧٢، النشر ٢/٣٢٥.
(٢) سقط في أ.

يوم القيامة هذا الْعَذَابُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ يعني: بما عملت يداك وذكر اليدين كناية يعني ذلك العذاب بكفرك وتكذيبك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يعني: لا يعذب أحداً بغير ذنب قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ يعني: على شك وعلى وجه الرياء ولا يريد به وجه الله تعالى ويقال: على شك والعرب تقول: أنت على حرف أي على شك ويقال على حرف: بلسانه دون قلبه وروي عن الحسن قال يعبد الله على حرف أي: على إيمان ظاهر وكفر باطن ويقال على حرف أي: على انتظار الرزق وهذه الآية مدنية نزلت في أناس من بني أسد أصابتهم شدة شديدة فاحتملوا العيال حتى قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأغلوا الأسعار بالمدينة ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يعني: إن أصابه سعة وغنية وخصب اطمأن به وقال نعم الدين دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلية وضيق في المعيشة ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: رجع إلى كفره الأول وقال: بئس الدين دين محمد ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ أي: غبن الدنيا والآخرة في الدنيا بذهاب ماله وفي الآخرة بذهاب ثوابه ويقال: خسر الدنيا والآخرة لأنه لم يدرك ما طلب من المال وفي الآخرة بذهاب الجنة وروي عن حميد أنه كان يقرأ (خَاسِرَ) بالألف وقراءة العامة خسر بغير ألف ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ يعني: الظاهر البين.

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

قوله عز وجل: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: يعبد من دون الله ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُ﴾ إن لم يعبده يعني الصنم ﴿وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ﴾ إن عبده ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ يعني: الخطأ البين ويقال في خطأ طويل بعيد عن الحق ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يعني: يعبد لمن إثمه وعقوبته أكثر من ثوابه ومنفعته ويقال: ضره في الآخرة أكثر من نفعه في الدنيا فإن قيل: لم يكن في عبادته نفع البتة فكيف يقال من نفعه ولا نفع له قيل له إنما قال هذا على عاداتهم وهم يقولون لشيءٍ لا منفعة فيه ضره أكثر من نفعه كما يقولون لشيء لا يكون هَنَا بَعِيدٌ كما قالوا (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) ثم قال تعالى ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ يعني: بئس الصاحب ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ يعني: بئس الخليط ويقال: معناه: من كانت عبادته عقوبة عليه فبئس المعبود هو ثم ذكر ما أعد الله تعالى لأهل الصلاح والإيمان فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني: يحكم في خلقه ما يشاء من السعادة والشقاوة قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ الهاء كناية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجوز في اللغة الإضمار في الكفاية وإن لم تكن مذكورة إذا كان الأمر ظاهراً كقوله تعالى: (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) يعني: على ظهر الأرض وكقوله عز وجل: (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) يعني: الشمس ومعناه: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالغلبة والحجة ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾ الشفاعة في ﴿الآخِرَةِ﴾ قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني: فليربط بحبل من سقف البيت لأنه كلما علاك فهو سماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يعني: ليختنق ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ يعني: آخْتِنَاقُه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ معناه: هل

ينفعه ذلك قال ابن عباس: نزلت الآية في نفر من أسد وغطفان فقالوا: نخافُ أن لن ينصر الله محمدا عليه السلام فيقطع ما بيننا وبين حلفائنا من المودة يعني اليهود وقال القتبي: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على المشركين يستبطئون ما وعد لهم من النصرة وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يتم لهم أمره فنزل (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أن لَّنْ يَنْصرَهُ اللَّهُ) يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ما سمعوا منه النصرة والإظهار ولكن كلام العرب على وجه الاختصار يعني إن لم تثق بما أقول لك فاذهب واختنق أو اجتهد جهدك قال وفيه وجه آخر وهو أن يكون هاهنا السماء بعينها لا السقف فكأنه قال فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ أي: بحبل وليرتق فيه ثم ليقطع يعني الحبل حتى يخر فيهلك فلينظر هل ينفعه كقوله عز وجل (وإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْرَاضهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفقاً فِيْ الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّمَاءِ) وقال أبو عبيدة: (من كان يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيا والآخِرَة) يعني أن لن يرزقه الله وذهب إلى قول العرب أرض منصورة أي: ممطورة فكأنه قال: من كان قانطاً من رزق الله ورحمته فليفعل ذلك فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُه أي: حيلته ما يغيظ أي: غيظه لتأخير الرزق عنه وقال الزجاج: من كان يظن أن لن ينصره الله يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يظهره الله على الدين كله فليمت غيظاً.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ**﴾ يعني: جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿**آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ يعني: واضحات بالحلال والحرام ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ**﴾ يعني: يرشد إلى دينه من كان أهلاً لذلك فيوفقه لذلك وهذا كقوله (واللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ) ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ يعني: أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن كان مثل حالهم ﴿**وَالَّذِينَ هَادُوا**﴾ يعني: مالوا عن الإسلام يعني اليهود ﴿**وَالصَّابِئِينَ**﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿**وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ**﴾ يعني: عبدة النيران ﴿**وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ يعني: عبدة الأوثان والأديان ستة فواحد لله تعالى والخمسة للشيطان ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ**﴾ يعني: يقضي ويحكم بينهم ﴿**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ يعني: بين هذه الأديان الستة وقال بعضهم: إن الفاء مضمرة في الكلام ومعناه: فإن الله يفصل بينهم على معنى جواب الشرط ويقال: جوابه في قوله: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا ثم قال ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ من أعمالهم ثم قال عز وجل: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ يعني ألم تعلم ويقال ألست تعلم ويقال: ألم تخبر في الكتاب ﴿**أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ**﴾ من الملائكة ﴿**وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾ من الخلق ﴿**والشَّمْسُ والْقَمَرُ وَالنُّجُومِ وَالْجِبَالُ**﴾ قال مقاتل: سجود هؤلاء حين تغرب الشمس تحت العرش ويقال: سجودها دورانها ﴿**وَ**﴾ سجود ﴿**الشَّجَرُ وَالدَّوابُّ**﴾ إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده قوله: ﴿**وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**﴾ أي: المؤمنين ﴿**وَكَثِيرٌ حَق عَليهِ الْعَذابُ**﴾ أي: بترك سجودهم في الدنيا ويقال (وَكَثِيرٌ حَق عَلَيهِ الْعَذَابُ) بعدم الطاعة. ويقال: سجود الشجر، أي هو سجود ظلّها ويقال: يسجد أي: يخضع وفيه آية الخلق فهو سجودهم ﴿**وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**﴾ يعني: من قضي الله عز وجل عليه بالشقاوة فما له من مسعد ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ يعني: يحكم ما يشاء في خلقه من الإهانة والإكرام.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿هَذَانِ خَصْمَان﴾ يعني: أهل دينين ﴿إِخْتَصَمُوا فِيْ رَبِّهِم﴾ يعني: احتجوا في دين ربهم قال أبو ذر[1] الغفاري رضي الله عنه نزلت هذه الآية في الذين بارزوا يوم بدر يعني حمزة وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث من المؤمنين رضي الله عنهم وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من المشركين يعني أن المؤمنين يخاصمون الكفار ويجاهدونهم ويقاتلونهم ثم بين مصير كلا الفريقين بقوله ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقال مجاهد[2] (هَذَانِ خَصْمَانِ) يعني: المؤمنين والكافرين اختصما في البعث فالكافرون ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ والمؤمنون يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار وقال عكرمة[3]: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا) أي: اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة: خلقت للرحمة وقالت النار: خلقت للعذاب وروي عن ابن[4] عباس أنه قال: (هَذَانِ خَصْمَانِ) وذلك أن اليهود قالوا كتابنا ونبينا أفضل وقالت النصارى ونبينا كان يحيى الموتى وهو أفضل من نبيكم فنحن أولى بالله وقال المؤمنون: نحن آمنا بالله وبجميع الأنبياء عليهم السلام وبجميع الكتب وأنتم كفرتم ببعض الرسل وببعض الكتب فديننا أولى من دينكم فنزل (هَذَانِ خَصْمَانِ) الآية وقال هذان خصمان اختصموا ولم يقل اختصما لأن كل واحد من الخصمين جمع قرأ ابن كثير[5] (هَذَانِّ) بتشديد النون والباقون بالتخفيف وفي الآية دليل أن الكفر كله ملة واحدة لأنه ذكر ستة ملل من الأديان ثم قال: هذان خصمان ثم بين مصير كلا الفريقين فقال (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) أي: جحدوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن هيئت لهم ثياب أي: قُمُصٌ من نار ويقال: نحاس ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ قال مقاتل: يضرب الملك رأسه بالمقمع فيثقب رأسه ثم يصب من فوق رؤسهم الحميم الذي قد انتهى حَرُّهُ ﴿يُصْهرُ﴾ بِهِ يعني: يذاب به ﴿مَا فِي بُطُونِهِم وَالْجُلُودُ﴾ يعني: تنضح الجلود فتسلخ ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ يضرب بها هامتهم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ يعني: من الغم والشدة التي أدركته ضرب بمقمعة من حديد فيهوي بها كذلك فذلك قوله: ﴿أُعِيْدُوا فِيْهَا﴾ أي: ردوا إليها ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: المحرق يعني يقال لهم ذوقوا عذاب النار وهذا الجزاء لأحد الخصمين ثم بين جزاء الخصم الآخر فقال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٨ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل. والحديث عند البخاري في المغازي (٣٩٦٦، ٣٩٦٨)، (٣٩٦٩)، ومسلم في التفسير (٣٤/٣٠٣٣)، والنسائي في التفسير ٢/٨٤ وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٥).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٩ وعزاه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٩ وعزاه لابن جرير وابن مردويه.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٧٤.

مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ يعني: يلبسون في الجنة **﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾** يعني: اقلبه **﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾** قرأ نافع وعاصم في رواية حفص،[1] ولؤلؤاً بالهمز والنصب وقرأ عاصم في رواية أبي بكر هكذا إلا أنه لم يهمز الواو الأولى وقرأ الباقون بالهمز والكسر فمن قرأ بالكسر فلأجل مِنْ ومن قرأ بالنصب فمعناه يحلون لؤلؤاً نصب لوقوع الفعل عليه وهو اختيار أبي عبيد ثم قال: **﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾** أي في الجنة قوله عز وجل: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** يعني: أرشدوا ويقال دعوا إلى قول التوحيد لا إله إلا الله ويقال القرآن **﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾** يعني: الطريق المحمود في أفعاله وهو دين الإسلام.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** يعني: أهل مكة **﴿وَيُصدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** يعني صرفوا الناس عن دين الإسلام **﴿وَالمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** يعني: وعن المسجد الحرام وهذه الآية مدنية وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما خرج مع أصحابه من الحديبية منعهم المشركون عن المسجد الحرام ثم وصف المسجد الحرام فقال: **﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً﴾** يعني: عاماً للمؤمنين جميعاً **﴿الْعَاكِفُ فِيْهِ وَالْبَادِ﴾** يعني: سواء المقيم في الحرم ومن دخل مكة من غير أهلهما ومعناه: المقيم والغريب فيه سواء ويقال في تعظيمه وحرمته ويقال المسجد الحرام أراد به جميع الحرم المقيم وغيره في حق النزول سواء وقال عمر رضي الله عنه يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء ولهذا قال أبو حنيفة: إن بيع دور مكة لا يجوز وفي إحدى الروايتين يجوز وهذا قول أبي يوسف والأول قول محمد[2] قرأ عاصم في رواية حفص سواءً بالنصب يعني: جعلناه سواء وقرأ الباقون سواءٌ بالضم على معنى الابتداء ثم قال: **﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيْهِ بِإِلْحَادٍ﴾** وهو الظلم والميل عن الحق ويقال أصله ومن يرد فيه إلحاداً فزيد فيه الباء كما قال (تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ) ويقال: من اشترى الطعام بمكة للاحتكار فقد ألحد **﴿بِظُلْمٍ﴾** يعني: بشرك أو بقتل **﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** أي: مؤلم قال الزجاج: الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد وقال مقاتل: نزلت الآية في عبد الله بن أنيس بن خطل القرشي وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث رجلين أحدهما مهاجري والآخر أنصاري فافتخرا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة بقتله فقتل قرأ أبو عمرو[3] (وَالْبَادِي) بالباء عند الوصل وكذلك نافع في رواية ورش وقرأ حمزة والكسائي[4] وابن عامر بغير ياء في الوصل والقطع وقرأ ابن كثير بالياء في الوصل والقطع وهو الأصل في اللغة ومن أسقطه لأن الكسر يدل عليه.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ

---

(١) انظر المصدر السابق، وانظر النشر ٢/٣٢٦.

(٢) انظر تفصيل ذلك في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٧٥ - ١٢٧٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٧٥.

(٤) سقط في أ.

ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ قال مقاتل: يعني: دللنا لإبراهيم موضع البيت فبناه مع إسماعيل عليهما السلام ولم يكن له أثر ولا أساس البيت لأن البيت كان أيام الطوفان مرفوعاً قد رفعه الله إلى السماء وهو البيت المعمور وقال الكلبي: وَإِذْ بَوَّأْنَا أي جعلنا لإبراهيم مكان البيت يتكلم فيقول بموضع البيت جعله الله منزلاً لإبراهيم بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت فيها رأس يتكلم فيقول: يا إبراهيم ابن على قدري وحيالي فأسس عليها البيت وذهبت السحابة ثم بناه حتى فرغ منه فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ وقال أبو قلابة: بناه من خمسة أجبل حراء وثبير وطور سيناء ولبنان وجبل أحد وقال الزجاج: وإذ بوأنا أي: جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم والمبوأ المنزل يعني أن الله تعالى علم إبراهيم عليه السلام مكان البيت فبناه على إسه القديم وكان البيت قد رفع إلى السماء قال ويروى أن البيت الأول كان من ياقوتة حمراء.

وروي عن ابن عباس أنه قال: رفع السماء إلى السادسة يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك وهو بحيال الكعبة ثم قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ يعني أوحى الله تعالى إلى إبراهيم: أن طهر بيتي من النجاسات ومن عبادة الأوثان ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ يعني: المقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يعني: أهل الصلاة بالأوقات من كل وجه. ثم قال الله عز وجل ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ يعني: ناد في الناس وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء الكعبة أمره الله تعالى أن ينادي فصعد إبراهيم على أبي قبيس ونادى يا أيها الناس أجيبوا ربكم إن الله تعالى قد بنى بيتاً وأمركم بأن تحجوه. وقال مجاهد: فقام إبراهيم على المقام فنادى بصوت أسمع من بين المشرق والمغرب يأيها الناس أجيبوا ربكم فأجابوه من أصلاب الرجال لبيك قال: فإنما يحج من أجاب إبراهيم يومئذ[1] ويقال التلبية اليوم جواب الله عز وجل من نداء إبراهيم عن أمر ربه فذلك قوله ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ يعني: على أرجلهم مشاة ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾[2] يعني على الإبل وغيرها فلا يدخل بعيره ولا غيره الحرم إلا وقد ضمر من طول الطريق ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من نواحي الأرض عميق يعني: بعيد. وقال مجاهد: الفج الطريق والعميق البعيد[3] وقال: إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حجا ماشيين[4]. وقال ابن عباس: ما آسى على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً لأن الله تعالى قال: (يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)[5] قال الفقيه أبو الليث: هذا إذا كان بيته قريباً من مكة فإذا حج ماشياً فهو أحسن وأما إذا كان بيته بعيداً فالركوب أفضل وروي عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: الراكب أفضل لأن في المشي يتعب نفسه ويسوء خلقه وإن كان الرجل يأمن على نفسه أن يصبر فالمشي أفضل لأنه روي في الخبر أن الملائكة عليهم السلام تتلقى الحاج فيسلمون على أصحاب المحامل ويصافحون أصحاب البعير والبغال والحمير ويعانقون المشاة.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٤ وعزاه لعبد بن حميد.
(٢) الضُمْرُ والضُمُر مثل العُسْر والعُسُر: الهزال ولحاق البطن. لسان العرب (ضمر) ٤/٢٦٠٦.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٥ عن مجاهد وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.
(٥) ذكره السيوطي في الموضوع السابق عن ابن عباس وعزاه للخطيب في التاريخ.

ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ يعني: الأجر في الآخرة في مناسكهم ويقال: وليحضروا مناحرهم وقضاء مناسكهم ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ يعني: ولكي يذكروا الله ﴿فِي أيامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ يعني: يوم النحر ويومين بعده وقال مجاهد وقتادة: المعلومات أيام العشر والمعدودات أيام التشريق[1] وقال سعيد بن جبير: كلاهما أيام التشريق ويقال المعلومات أيام النحر والمعدودات أيام التشريق وهو طريق الفقهاء وأشبه بتأويل الكتاب لأنه ذكر في أيام معلومات الذبح وذكر في أيام معدودات الذكر عند الرمي ورخص بتركه في اليوم الآخر بقوله (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه)[2] ثم قال: ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني ليذكروا اسم الله عند الذبح والنحر على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وهو البقر والإبل والغنم ثم قال ﴿فكلوا منها﴾ يعني من لحوم الأنعام ﴿وأطعموا البائس[3] الفقير﴾ يعني الضرير والزمن[4] والفقير الذي ليس له شيء وقال الزجاج البائس الذي أصابه البؤس وهو الشدة قوله عز وجل (ثم ليقضوا تفثهم) يعني مناسكهم، وقال مجاهد التفث حلق الرأس وتقليم الأظفار[5] وروي عن عطاء عن ابن عباس قال التفث الرمي والحلق والتقصير وحلق العانة ونتف الإبط وقص الأظافير والشارب والذبح[6] وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال التفث ما عليه من المناسك[7] وقال الزجاج: التفث لا يعرف أهل اللغة ما هو وإنما عرفوا في التفسير وهو الأخذ من الشارب وتقليم الأظافر والأخذ من الشعر كأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال ثم قال: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ يقول من كان عليه نذر في الحج والعمرة مما أوجب على نفسه من هدي أو غيره فإذا نحر يوم النحر فقد أوفى بنذره ثم قال ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ يعني طواف الزيارة بعدما حلق رأسه أو قصر، وقال مقاتل: العتيق يعني عتقه في الجاهلية من القتل والسبي والجراحات وغيرها، وقال الحسن: العتيق يعني القديم[8] كما قال (إن أول بيت)[9] وقال مجاهد: عتيق يعني: أعتق من

---

(١) ذكر جزءاً منه السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٦ وعزاه لعبد بن حميد عن عطاء ومجاهد رضي الله عنهم.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣٥.

(٣) قال في اللسان (بأس) ١/٢٠٠ البائس المبتلي وقال سيبويه البائس من الألفاظ المترحم بها كالمسكين قال: وليس كل صفة يترحم بها وإن كان فيها معنى البائس والمسكين.

(٤) الضرير: يقال للرجل إذا أضربه المرض رجل ضرير والزمن المريض مرضاً مزمناً. انظر اللسان (ضرر) ٤/٢٥٧٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٧. وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد بلفظ (قال) «ليقضوا تفثهم» قال حلق الرأس والعانة ونتف الإبط وقص الشارب والأظفار ورمي الجمار وقص اللحية.

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٧) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي شيبة وغيره.

(٨) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن بلفظ إنما سمي العتيق لأنه أول بيت وضع.

(٩) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

الجبابرة[١] ويقال أعتق من الغرق يوم الطوفان وهذا قوله الكلبي[٢] وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: (ليقضوا) بجزم اللام وكذلك (وليوفوا) وقرأ أبو عمرو الثلاثة كلها بالكسر بمعنى لام كي وقرأ ابن كثير بكسر اللام الأولى خاصة[٣] فمن قرأ بالجزم جعلها أمر الغائب ومن قرأ بالكسر جعله خبراً عطفاً على قوله (ليذكروا) وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (وليوفوا) بنصب الواو وتشديد الفاء وقرأ الباقون بالتخفيف من أوفى يوفي والأول من وفى يوفي ومعناهما واحد.

ثم قال عز وجل ﴿ذلك﴾ يعني: هذا الذي ذكر من أمور المناسك ثم قال ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ يعني أمر المناسك كلها ﴿فهو خير له عند ربه﴾ يعني أعظم لأجره ﴿وأحلت لكم الأنعام﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم وغيره ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ في التحريم في سورة المائدة[٤] ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ يعني: اتركوا عبادة الأوثان ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ يعني: اتركوا ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ يعني: الكذب وهو قولهم هذا حلال وهذا حرام ويقال: معناه اتركوا الشرك ويقال: اتركوا شهادة الزور ثم قال عز وجل: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ يعني: مخلصين [مسلمين لله ويقال: معناه كونوا مخلصين بالتلبية][٥] لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ويقال إن هذا القول بالزور الذي أمرهم الله باجتنابه ثم قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: وقع من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ يعني: تختلسه الطير ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ يعني: تذهب الريح ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ يعني: بعيد فكذلك الكافر في البعد من الله عز وجل ويقال: معناه من يشرك بالله فقد ذهب أصله وقال الزجاج: الخطف هو أخذ الشيء: السرعة فهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين في من بعدهم من الحق فأخبر أن بعد من أشرك من الحق كبعد من خر من السماء فذهبت به الطير وهوت به الريح في مكان (سَحِيقٍ) يعني: بعيد قرأ نافع فتَخطفه الطَّير بنصب الخاء والتشديد وقرأ الباقون بالجزم والتخفيف[٦] من خطف ومن قرأ بالتشديد فلأن أصله فتختطفه فادغم التاء في الطاء وألقيت حركة التاء على الخاء.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾ يقول هذا الذي أمر من اجتناب الأوثان ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني: البدن

---

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق بنحوه عن سعيد بن جبير وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٧٣.

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة...﴾ الآية المائدة ٢، ٣.

(٥) سقط في ظ.

(٦) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٢٦.

فيذبح أعظمها وأسمنها وروي عن ابن عباس أنه قال: تعظيمهما استعظامها وأيضاً استسمانها واستحسانها[(١)] ثم قال: ﴿فإنّها مِنْ تَقْوَى القلوب﴾ يعني: من إخلاص القلوب ويقال من صفاء القلوب وشعائر الله: معالم الله ودينه ندب الله إليها وأمر بالقيام بها وواحدها شعيرة قوله عز وجل: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ يعني: في البدن وقال مجاهد: يعني في ركوبها وشرب ألبانها وأوبارها[(٢)] ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى﴾ يعني إلى أَجَلٍ مسمىً بدناً فمحلها إلى البيت العتيق وروي عن ابن عباس نحو هذا قول بعض الناس: إنه يجوز ركوب البدن وقال أهل العراق: لا يجوز إلا عند الضرورة ويضمن ما نقصها الركوب وهذا القول أحوط الوجهين ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يعني: منحرها في الحرم ورُوي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال. جميع فجاج مكة منحر[(٣)] ثم قال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكل أهل دين ويقال لكل قوم من المؤمنين فيما خلا ﴿جعلنا منسكاً﴾ يعني: ذبحاً لهراقة دمائهم ويقال: مذبحاً يذبحون فيه قال الزجاج: معناه: جعلنا لكل أمة أن تتقرب بأن تذبح الذبائح لله تعالى قرأ حمزة والكسائي (مَنْسِكاً) بكسر السين وقرأ الباقون بالنصب[(٤)] فمن قرأ بالكسر يعني مكان النسك ومن قرأ بالنصب فعلى المصدر وقال أبو عبيد: قراءتنا هي بالنصب لفخامتها ثم قال ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ يعني: يذكرون اسم الله تعالى عند الذبح ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: ربكم رب واحد ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ يعني: أخلصوا بالتسمية عند الذبيحة وفي التلبية ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ يعني: المخلصين بالجنة ويقال: المخبتين المجتهدين في العبادة والسكون فيها، قال قتادة: المخبتون المتواضعون وقال الزجاج: أصله من الخبت من الأرض وهو المكان المنخفض من الأرض ويقال: المخبت الذي فيه الخصال التي ذكرها الله بعده وهو قوله ﴿الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: خافت قلوبهم ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من أمر الله من المرازي والمصائب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ﴾ يعني: يقيمونها بمواقيتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون وينفقون في الطاعة ثم ذكر البدن يعني ينحرون البدن فهذه الخصال الحسنة صفة المخبتين.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم﴾ قرأ بعضهم (والبُدُن) بضم الدال والباء وقراءة العامة بسكون الدال والمعنى واحد ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ يعني: جعلنا البدن من مناسك الحج ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يعني: في نحرها أجر في الآخرة ومنفعة في الدنيا ﴿فَاذْكُرُوا آسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ يعني [إذا نحرتم فاذكروا اسم الله عليها صواف أي][(٥)]

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) أخرجه أبو داود ٢/١٩٣ كتاب المناسك باب الصلاة بجمع (١٩٣٦)، وابن ماجه ٢/١٠١٣ كتاب المناسك باب الذبح (٣٠٤٨)، وأحمد في المسند ٣/٣٢٦، والبيهقي في السنن ٣/٣١٧، ٤/١٥٢ والحاكم في المستدرك ١/٤٦٠.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٧٦، ٤٧٧.

(٥) سقط في ظ.

قائمة قد صفت قوائمها والآية تدل على أن الإبل تنحر قائمة وروي عن عبد الله بن عمر أنه مر برجل قد أناخ بعيره لينحره فقال له: انحره قائماً فإنه صفه أبي القاسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروي عن ابن مسعود وابن عباس[١] أنهما كانا يقرآن (فَاذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافِنَ)[٢] والصوافن التي تقوم على ثلاثة قوائم إذا أرادوا نحره تعقل إحدى يديه فهو الصافن وجماعته صوافن وقال مجاهد من قرأ صوافن قال قائمة معقولة من قرأها صواف قال يصف بين يديها[٣] وروي عن زيد بن أسلم أنه قرأ: صوافي بالياء منتصبة ويقال خالصة من الشرك[٤] وروي عن الحسن مثله وقال: خالصة لله تعالى[٥] وهكذا روي عنهما أبو عبيدة وحكى القتبي عن الحسن قال: كان يقرأ (صواف) مثل قاض وغاز أي: خالصة لله تعالى يعني: لا تشرك به في حال التسمية على نحرها ثم قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَت جُنُوبُها﴾ يعني: إذا ضربت بجنبيها على الأرض بعد نحرها يقال: وجب الحائط إذا سقط ووجب القلب إذا تحرك من الفزع ويقال: وجب البيع [إذا أبرم][٦] ﴿فَكُلوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فالقانع الراضي الذي يقنع بما أعطي وهو السائل والمعتر الذي يتعرض للمسألة ولا يتكلم ويقال القانع المتعفف الذي لا يسأل ويقنع بما أرسلت إليه والمعتر السائل الذي يعتريك للسؤال وقال الزهري: السنة أن يأكل الرجل من لحم أضحيته قبل أن يتصدق وروي عن عطاء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ليأكل أحدكم من لحم أضحيته[٧] وروى منصور عن إبراهيم قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين بقوله . (فَكُلُوا مِنْهَا فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل) قال الفقيه أبو الليث رحمه الله والأفضل أن يتصدق بثلثه على المساكين ويعطي ثلثه للجيران والقرابة أغنياء كانوا أو فقراء ويمسك لنفسه ثلثه وروي عن ابن مسعود نحو هذا وروي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن القانع والمعتر فقال: القانع الذي يقنع بما أعطي والمعتر الذي يعتري بالأبواب قال: أما سمعت قول زهير:

عَلَى مُكْثِريهِمُ حق مَن يَعْتَرِيهِمُ ... وعِنْدَ المقلينَ السماحة والبذل[٨]

وقال مجاهد: القانع جارك وإن كان غنياً ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرنَاهَا لَكُمْ﴾ أي: ذللناها لكم وهي البدن ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني: لكي تشكروا رب النعمة قوله عز وجل: ﴿لَنْ ينالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا﴾ وذلك أن ـ أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن عند زمزم وأخذوا دماءها ولطخوها حول الكعبة وعلقوا لحومها بالبيت وقالوا

---

(١) في أ [عبد الله بن مسعود].

(٢) أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن أبي ظبيان قال سألت ابن عباس عن قوله ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ قال إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ثم قل (بسم الله والله أكبر واللهم منك ولك). انظر الدر المنثور ٤/٣٦٢.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن مجاهد.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن عبيدة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٢ وعزاه لعبد الرزاق وأبي عبيد وعبد بن حميد وابن الأنباري وابن المنذر في المصاحف وابن أبي حاتم.

(٦) سقط في ظ.

(٧) أخرجه مسلم بنحوه ٣/١٥٦٢ كتاب الأضاحي باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي والترمذي ٤/٩٤ كتاب الأضاحي باب ما جاء في كراهية أكل الأضحية.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٣ وعزاه للطستي في مسائله.

اللهم تقبل منا فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزل (لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحومُها ولاَ دِماؤُها) يعني: لن يصل إلى الله عز وجل لحومها ولا دماؤها ﴿وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾ أي يصل إليه التقوى من أعمالكم الزاكية والنية الخالصة قرأ الحضرمي (لَنْ تَنالَ اللَّه) بالتاء لأن لفظ اللحوم ـ مؤنثة ولكن تناله بالتاء لأن لفظ التقوى مؤنث وقراءة العامة بالياء[١] وانصرف إلى المعنى لأن الفعل مقدم ثم قال: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ يعني: ذَلَّلها لكم ﴿لِتُكَبِّروا اللَّهَ﴾ يقول لتعظموا الله ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ يعني: أرشدكم لأمر دينه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالجنة فمن فعل ما ذكر في هذه الآيات فهو محسن ويقال: المحسن الذي يحسن الذبيحة فيختار بغير عيب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: يدفع كفار مكة عن الذين آمنوا فلا ينالون منهم شيئاً وقال الزجاج: إذا فعلت هذا وخالفتم أهل الجاهلية فيما يفعلون في نحرهم وإشراكهم فإن الله يدافع عن حزبه أي المؤمنين ويقال: إن أهل مكة آذوا المسلمين قبل الهجرة فاستأذنوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قتالهم في السر فنهاهم الله عز وجل عند ذلك ثم قال عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: يدفع أذاهم عن المسلمين فأمرهم بالصبر قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ) بغير ألف والباقون يدافع بالألف من دافع يدافع بمعنى دفع[٢] ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ يعني: أثيم لأمانته كفور لربه ولنعمته وقال أهل اللغة: الخوان الفعال من الخيانة وهو المبالغة في الخيانة فمن ذكر اسماً غير اسم الله وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوان كفور قوله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ يعني: أذن للمؤمنين بقتال المشركين ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ يعني: أذن لهم بالقتال بسبب أنهم ظلموا قرأ عاصم في رواية حفص (أُذن) بضم الألف على معنى [فعل ما لم يسم فاعله][٣] أذن الله للذين يقاتلون بنصب التاء [على معنى أنهم مفعولون وقرأ ابن عامر أذن بنصب الألف على معنى أَذن الله للذين يقاتلون بنصب التاء][٤] وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو أذن بالضم يقاتلون بالكسر وقرأ الباقون بالنصب قرأ حمزة والكسائي وابن كثير يقاتلون بالكسر[٥] ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يعني: قادر وكان

---

(١) انظر إتحاف فضلاء النشر ٢/٢٧٥.

(٢) وحجة ابن كثير وأبي عمرو أن الله تعالى لا يدافعه شيء وهو يدفع عن الناس، فالفعل وحده له لا لغيره وحجة الباقين أن يدافع عن مرات متواليات لأن قول القائل: دافعت عن زيد يجوز أن يراد به دفعت عنه مرة بعد مرة وليس ينحى به نحو قاتلت زيداً بل ينحى به نحو قوله قاتلهم الله «والفعل له لا لغيره». حجة القراءات ٤٧٨.

(٣) سقط في ظ. (٤) سقط في ظ. (٥) انظر حجة القراءات ٤٧٨. النشر ٢/٣٢٦. إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٧٦.

المشركون لا يزالون يؤذونهم باللسان وباليد فشكوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما هاجروا أمروا بالقتال ثم أخبر الله عن ظلم كفار مكة فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني: بلا جرم أجرموا ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يعني لم يخرج كفار مكة المؤمنين بسبب سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله فأخرجوهم بهذا السبب ويقال: في الآية تقديم ومعناه (أذن للذين يقاتلون) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌ) ثم قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد [وإقامة][1] الحدود وكف الظلم يقول: لولا أن يدفع المشركين بالمؤمنين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ ويقال: ولولا دفع الله بالأنبياء وبالمؤمنين من غيرهم لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ يعني: كنائس اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ المسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ وقال مجاهد: لولا دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض في الشهادة في الحق لهدمت هذه الصوامع وما ذكر معها[2] وقال الزجاج: تأويل هذا ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض لهدمت في شريعة كل نبي المكان الذي يصلي فيه [فكان معناه لولا دفع الله][3] لهدم في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى البيع وفي زمن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [وعلى جميع الأنبياء][4] المساجد قرأ نافع ولولا دفاع الله بالألف والباقون بغير ألف[5] وقرأ ابن كثير ونافع لهدمت بالتخفيف والباقون بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير[6] ثم قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يعني: لينصرن بالغلبة على عدوه من ينصره بنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال لينصرن الله من ينصره يعني: ينصر الله من ينصر دينه بالغلبة كما قال في آية أخرى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ﴾ أي منيع قادر على أن ينصر محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير عونكم قوله عز وجل ﴿الَّذِيْنَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِيْ الأَرْضِ﴾ يعني إن أنزلناهم بالمدينة وهم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني بالتوحيد واتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: عن الشرك ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ يعني: لله ترجع عواقب الأمور يعني: عاقبة أمور العباد في الآخرة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني إن يكذبوك يا محمد أهل مكة ﴿فقد كذبت قَبْلَهُم﴾ يعني: قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ كذبوا نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ كذبت هوداً ﴿وَثَمُودُ﴾ كذبوا صالحاً ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيْمَ﴾ كذبوا إبراهيم ﴿وَقَوْمُ لُوْطٍ﴾ كذبوا لوطاً ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ كذبوا شعيباً ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ يعني كذبه قومه ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ يعني: أمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ يعني: عاقبتهم بعد المهل بالعذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني: كيف رأيت تغييري

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٤ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) سقط في ظ. (٤) سقط في ظ. (٥) انظر حجة القراءات ٤٧٩.

(٦) وهما لغتان غير أن التشديد للتكثير «هدّمت» شيئاً بعد شيء مثل ذبحت وذبّحت المصدر السابق.

وإنكاري عليهم يعني: أليس قد وجدوا حقاً فكذلك كفار مكة تصيبهم العقوبة كما أصابهم ثم قال عز وجل: ﴿**فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ**﴾ يعني: وكم من أهل قرية ﴿**أَهْلَكْنَاهَا**﴾ يعني: أهلكنا أهلها ﴿**وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾ يعني: كافرة ﴿**فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ يعني: ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿**وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ**﴾ يعني: خالية ليس عندها ساكن ﴿**وَقَصْرٍ مَشِيدٍ**﴾ يعني: طويلاً في السماء ويقال: معناه: كم من بئر معطلة عطلها أربابها وليس عليها أحد يستسقي وقصر مشيد يعني: قيل من حصن حصين طويل مشيد ليس فيه ساكن ويقال [المشيد هو المبني بالشيد وهو الجص وهو المشيد المطول ويقال][1]: المشيد والمشيد سواء أي المطول قرأ أبو عمرو أهلكتها بالتاء وقرأ الباقون أهلكناها بلفظ الجماعة[2] وقرأ نافع في رواية ورش وأبو عمرو في إحدى الروايتين وبير[3] بالتخفيف وهي لغة لبعض العرب وقرأ الباقون بالهمز وهي اللغة المعروفة.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِيْ الأَرْضِ**﴾ يعني أو لم يسافروا في الأرض فيعتبروا ﴿**فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ يعني: فتصير لهم قلوب بالنظر والعبرة يعقلون بها ﴿**أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ التخويف ﴿**فَإِنَّهَا**﴾ أي: النظرة بغير عبرة ويقال كلمة الشرك ﴿**لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِيْ الصُّدُورِ**﴾ يعني: العقول التي في الصدور وذكر الصدر للتأكيد ثم قال عز وجل ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**﴾ وهو النضر بن الحارث ﴿**وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ في العذاب ﴿**وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ**﴾ يعني إن يوماً من الأيام التي وعد لهم في العذاب عند ربك في الآخرة ﴿**كَأَلْفِ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ في الدنيا ثم بين لهم العذاب في الآخرة حيث قال: (وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) [ووصف طول عذابهم ويقال: إنه أراد في الدنيا ثم بين لهم العذاب في الآخرة حيث قال: (وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)][4] ووصف طول عذابهم ويقال إنه أراد بذلك قدرته عليهم مجال استعجالهم أنه يأخذهم متى شاء قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (مِمَّا يَعُدُّونَ) بالياء وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة[5] ثم قال عز وجل: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ**

---

(١) سقط في ظ.

(٢) وحجة هؤلاء إجماع الجميع على قوله ﴿وكم أهلكنا من قرية﴾. ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ ﴿ألم نهلك الأولين﴾ ولم يأت شيء من ذكر الإهلاك بلفظ الواحد بل كله أتى بلفظ الجمع فكان إلحاق هذا الحرف بنظائره أولى. حجة القراءات ٤٧٩.

(٣) وبير أي بالياء بدلاً عن الهمزة.

(٤) سقط في ظ.

(٥) وحجة من قرأ بالياء أن ما قبله ويستعجلونك بالعذاب) فكذلك تعدون إخبار عنهم وحجة الباقين أن التاء أعم لأنه عنى الناس كلهم فكأنه قال: كألف سنة مما تعدون أنتم وهم ويقوي التاء قوله تعالى: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة﴾ مما تعده أنت يا محمد ومن استعجلك بعذابي. حجة القراءات ٤٨٠.

قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ فلم أعجل عليها العقوبة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: كافرة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ولكن لم يذكر العذاب لأنه سبق ذكره ثم قال ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيْرُ﴾ يعني: المرجع في الآخرة قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِيْنٌ﴾ يعني: رسول مبين أبلغكم بلغة تعرفونها ﴿فَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوا فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: عملوا في القرآن بالتكذيب ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين بغير ألف والتشديد في جميع القرآن والباقون بالألف والتخفيف[1] فمن قرأ معجزين أي: يعجزون من اتبع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويثبطونهم ومن قرأ معاجزين أي ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم يظنون أنهم لا يبعثون وقيل معاجزين أي: معاندين ومعناه ليسوا بفائتين ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني: النار.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ يعني: حدث نفسه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في حديثه ويقال: تمنى أو قرأ كما قال القائل:

تَـمَـنَّـى كِـتَـابَ الـلَّـهِ أَوَّلَ لَـيْـلَـةٍ ... وَآخِـرَهُ لاَقَـى حِـمَـامَ الْـمَـقَـادِرِ

وقال آخر:

تَـمَـنَّـى دَاوُدُ الـزَّبُـورَ عَـلَـى الـرِّسْـلِ ... أَلْـقَـى الـشَّـيْـطَانُ فِـيْ أُمْـنِـيَّـتِـهِ

أي في تلاوته ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِيْ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: يذهب الله به ويبطله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ يعني: بين الله عز وجل الناسخ من المنسوخ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أتاه الشيطان في صورة جبريل وهو يقرأ سورة (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)[2] عند الكعبة حتى انتهى إلى قوله (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)[3] ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق[4] العلى منها الشفاعة ترتجى فلما سمعه المشركون يقرأ ذلك أعجبهم فلما انتهى إلى آخرها سجد، وسجد المشركون معه والمسلمون فأتاه جبريل عليه السلام فقال ما جئتك بهذا فنزل (وَمَا أَرْسَلْنَا

(١) حجة القراءات ٤٨١.
(٢) النجم (١).
(٣) النجم ١٩ ـ ٢٠.
(٤) الغرانيق جمع واحدها غرنوق وغرنيق وهي الأصنام وهي في الأصل الذكور من طير الماء سمي به لبياضه كانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه فشبهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء قال ابن الأنباري: ويجوز أن تكون الغرانيق في الحديث جمع الغرانق قال في اللسان وهو الحسن. انظر لسان العرب ٥/٣٢٤٩.

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الآية وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[١] نحو هذا قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا إبراهيم بن محمد قال حدثنا جعفر بن زيد الطيالسي قال: حدثنا إبراهيم بن محمد قال حدثنا أبو عاصم عن عمار بن الأسود عن سعيد بن جبير وعن ابن عباس قال قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) ثم قال تلك الغرانيق العلى وإن الشفاعة منها ترتجى فقال المشركون قد ذكر آلهتنا فنزلت الآية[٢] وقال مقاتل قرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنجم بمكة عند مقام إبراهيم فنعس فقرأ تلك الغرانيق العلى فلما فرغ من السورة سجد وسجد من خلفه فنزل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) وقال قتادة: لما ألقى الشيطان ما ألقي قال المشركون قد ذكر الله آلهتنا بخير ففرحوا بذلك فذلك قوله (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) روى أسباط عن السدي قال: خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المسجد فقرأ سورة النجم فلما انتهى إلى قوله (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى حتى بلغ إلى آخر السورة سجد وسجد أصحابه وسجد المشركون لذكره آلهتهم فلما رفع رأسه حملوه وأسندوا به بين قطري مكة حتى إذا جاءه جبريل عليه السلام عرض عليه فقرأ عليه الحرفين فقال جبريل عليه السلام معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا واشتد عليه فأنزل الله تعالى لتطييب نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وأخبره أن الأنبياء عليهم السلام قبله قد كانوا مثله ويقال إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل المسجد وجلس عنده جماعة من المشركين فتمنى في نفسه أن لا يأتيه من الله شيء ينفرون منه فابتلاه الله تعالى بما ألقى الشيطان في أمنيته وقال بعضهم: تمنى أي تفكر وحدث تلك الغرانيق العلى ولم يتكلم به لأن قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حجة فلا يجوز أن يكون يجري على لسانه كلمة الكفر وقال بعضهم: لما رآه الشيطان يقرأ خلط صوته بصوت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ الشيطان تلك الغرانيق فظن الناس أنه قرأها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٦٦/٤ وعزاه لعبد بن حميد من طريق السدي عن أبي صالح.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه للبزار والطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس لكن تعقبت تلك القصة وقد ضعف طرقها الحافظ ابن كثير فقال: رويت من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح. وقال الشيخ ابن عاشور وهي قصة يجدها السامع ضغثاً على إبَالة ولا يلقى إليها التحرير باله.

وما رويت إلا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسندها إلى ابن عباس سند مطعون على أن ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين لأنها تخالف أصل عصمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا التباس عليه في تلقي الوحي. ويكفي تكذيباً لها قوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾. وفي معرفة الملك. فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ إلى قوله ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها ﴿الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجي﴾ وهل هذا إلا كلام يلعن بعضه بعضاً. وقد اتفق الحاكمون أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ سورة النجم كلها حتى خاتمتها ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون فدل على أنهم سمعوا السورة كلها وما بين آية ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين. وتزييف كثير لعقائد المشركين فكيف يصح أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها: أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة للدخل لاختلاف كلمات في مدحهن وهي هذه الكلمات وروجوها بين الناس تأنيساً لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيمان. وفي شرح الطيبي على الكشاف نقلاً عن بعض المؤرخين أن كلمات (الغرانيق) (أي هذه الجمل من مفتريات ابن الزِّبعري) انظر التحرير ٣٠٤/١٧ ـ ٣٠٥. انظر تفسير ابن كثير ٤٣٩/٥. تفسير الطبري ١٣٣/١٧. وتفسير البغوي ٢٩٣/٣ ـ ٢٩٤.

قرأها وقال بعضهم: قال ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على وجه التعيير والزجر يعني: أنكم تعبدونها كأنهن الغرانيق العلى كما قال إبراهيم عليه السلام (فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقال الزجاج: ألقى الشيطان في تلاوة فذلك محنة يمتحن الله تعالى بها من يشاء فجرى على لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيء من صفة الأصنام فافتتن بذلك أهل الشقاوة والنفاق وروي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أن ابن عباس كان يقرأ (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث[1][2] والمحدث الذي يرى أمره في منامه من غير أن يأتيه الوحي ثم قال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بِمَا ألقى الشيطان (حكيم) حكم بالناسخ وبين قوله عز وجل ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ يعني: بلية ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني الذين قست قلوبهم من ذكر الله وهم المشركون ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق يعني: المشركين في خلاف طويل عن الحق ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني الذين أكرموا بالتوحيد والقرآن ويقال هم مؤمنو أهل الكتاب ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنَ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: فيصدقوا به ويقال: لكي يعلموا أن ما أحكم الله في آياته حق وأن ما ألقى الشيطان باطل ويزداد لهم يقين وبيان فذلك قوله (فيؤمنوا به) أي: يثبتوا على إيمانهم ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ يعني: فتخلص له قلوبهم ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ يعني: إن الله عز وجل لحافظ قلوب المؤمنين في هذه المحنة حتى لم ينزع المعرفة من قلوبهم عند إلقاء الشيطان.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي: في شك منه يعني: من القرآن ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾ يعني فجأة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ لا فرح فيه ولا راحة ولا رحمة ولا رأفة وهو عذاب يوم القيامة وقال السدي وقتادة يوم عقيم يوم بدر ويقال إنما سمي يوم عقيم لأنه أعقم كثيراً من النساء وقال عمرو بن قيس يوم عقيم يوم القيامة يوم ليس له ليلة ولا بعده يوم والعقيم أصله في اللغة المرأة التي لا تلد وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد له وكذلك كل شيء لا يكون فيه خير يعني لا يكون للكافرين خير في يوم القيامة كما قال الله تعالى (يوم على الكافرين غير يسير) ثم وصف ذلك اليوم فقال عز وجل ﴿الملك يومئذ لله﴾ لا ينازع فيه أحد ﴿يحكم بينهم﴾ يعني يقضي بين الخلق لا حاكم في ذلك اليوم غيره ثم قال ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني: أن حكمه في يوم القيامة إن المؤمنين ﴿في جنات النعيم﴾ قوله عز وجل ﴿الذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾ يعني: الشدة ثم قال عز وجل: ﴿والذين هاجروا﴾ وذلك أن المسلمين قاتلوا فاستشهدوا ﴿في سبيل الله﴾ فقال الذين لم يستشهدوا وهل لنا

---

(١) مُحَدَّثٌ بضم الميم وفتح الحاء والدال المشددة يعني موحى إليه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف.

أجر فنزل (والذين هاجروا في سبيل الله) يعني: في طاعة الله من مكة إلى المدينة ﴿ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ يعني يرزقهم الغنيمة في الدنيا لمن لم يموتوا ولم يقتلوا ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾ يعني: أفضل الرازقين وأقوى المعطين ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾[1] يعني: الجنة إذا قتلوا وماتوا ﴿وإن الله لعليم حكيم﴾ حيث لم يعجل بالعقوبة وهذه الآية مدنية.

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ذلك ومن عاقب﴾ قال مقاتل: وذلك أن مشركي العرب لقوا المسلمين في الشهر الحرام فكره المسلمون القتال فقاتلهم المشركون فبغوا عليهم فنصر الله المسلمين عليهم فوقع في أنفس المؤمنين من القتال في الشهر الحرام فنزل (ذلك ومن عاقب) يقول هذا جزاء من عاقب ﴿بمثل ما عوقب به﴾ وقال بعضهم ذلك يعني ما وصفنا من صفة أهل الجنة وأهل النار فهو كذلك فقد تم الكلام (ومن عاقب) ابتداء الكلام بمثل ما عوقب به في الدنيا وقال الكلبي: الرجل يقتل وله الحميم فله أن يقتل به قاتله ﴿ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾ على من بغى عليه. ويقال إذا زاد على القتل لينصرنه الله ويقال إن الرجل إذا وجب له القصاص فله أن يقتل أو يأخذ الدية فإن أخذ أكثر من حقه بالقتل وأخذ الدية (ثم بغى عليه) أي: ظلم عليه يعني: غضب عليه أولياء المقتول باستيفاء حقه فجنوا عليه لينصرنه الله أي: له أن يطلب بجنايته ويقال له إذا ظلم على ولي المقتول بالاستطالة بالقتل أو بأخذ الدية لينصرنه الله بأخذ حقه ﴿إن الله لعفو غفور﴾ بقتالهم ثم قال عز وجل ﴿ذلك﴾ يعني ذلك القدرة ﴿بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾ ثم قال: ﴿ذلك﴾ يعني هذا الذي ذكر من صفته وقدرته ﴿بأن الله﴾ يعني: لعلموا أن الله ﴿هو الحق﴾ وأن عبادته الحق ﴿وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ ولا يقدرون على شيء ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ يعني هو أعلى وأكبر من أن يعدل به الباطل قرأ ابن عامر ثم قتلوا بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وأن ما يدعون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ليدخلنهم مدخلاً بنصب الميم وقرأ الباقون بالضم[2].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٩ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) وقرأه نافع (ليدخلنهم مدخلا) بفتح الميم جعله مصدراً واسم كان تقول: دخل يدخل مدخلاً وهذا مدخلنا وكل ما كان على؛ فعل يفعل فالمصدر واسم المكان على مفعل ودل قوله تعالى: ﴿ليدخلنهم﴾ على المصدر لأنهم إذا أدخلوا دخلوا فكأنه قال ليدخلنهم فيدخلون مدخلاً وقراءة الباقون مدخلاً بضم الميم حجتهم قوله تعالى ليدخلهم تقول: أدخل يدخل إدخالاً ومدخلاً. كما قال: وقل رب أدخلني مدخل صدق. حجة القراءات ٤٨٢.

لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء**﴾ يعني: المطر ﴿**فتصبح الأرض مخضرة**﴾ يعني: تصير الأرض مخضرة بالنبات ويقال ذات خضرة ﴿**إن الله لطيف**﴾ باستخراج النبات ﴿**خبير**﴾ أي عليم به وبمكانه ثم قال عز وجل ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ من الخلق ﴿**وإن الله لهو الغني**﴾ عن الخلق وعن عبادتهم ﴿**الحميد**﴾ يعني: المحمود في أفعاله. قوله عز وجل ﴿**ألم تر أن الله سخر لكم**﴾ يعني: ذلل لكم ﴿**ما في الأرض والفلك تجري**﴾ يعني: تسير ﴿**في البحر بأمره**﴾ يعني: بإذنه. وروي عن عبد الرحمن الأعرج أنه قرأ الفلك بضم الكاف على معنى الابتداء وقراءة العامة بالنصب لوقوع التسخير عليها يعني: سخر لكم الفلك ويقال: صار نسباً بمنطلق على أن تعني أن الفلك تجري ثم قال ﴿**ويمسك السماء أن تقع على الأرض**﴾ يعني: لكيلا تقع على الأرض ويقال كراهية أن تقع على الأرض. ﴿**إلا بإذنه**﴾ يعني بأمره يوم القيامة ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾ يعني رحيم مع شركهم ومعصيتهم حيث يرزقهم في الدنيا ولم يعاقبهم في العاجل ثم قال عز وجل ﴿**وهو الذي أحياكم**﴾، يعني خلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿**ثم يميتكم**﴾ في الدنيا ﴿**ثم يحييكم**﴾ للبعث ﴿**إن الإنسان لكفور**﴾ أي كفور لنعمه لا يشكره ولا يطيعه قوله عز وجل ﴿**لكل أمة**﴾ يعني: لكل قوم ﴿**جعلنا منسكاً**﴾ يعني مذبحاً ﴿**هم ناسكوه**﴾ يعني ذابحوه وفي منسك من الاختلاف ما سبق ﴿**فلا ينازعنك في الأمر**﴾ لا يخالفنك في أمر الذبيحة نزلت في قوم من خزاعة قالوا ما ذبح الله فهو أحل مما ذبحتم وقال الزجاج: المعنى فيه أي فلا يجادلنك ولا تجادلهم والدليل عليه وإن جادلوك ويقال فلا ينازعنك في الأمر يعني لا يغلبونك في المنازعة ﴿**وادع إلى ربك**﴾ يعني أدع الخلق إلى معرفة ربك وإلى توحيد ربك ﴿**إنك لعلى هدى مستقيم**﴾ يعني: على دين مستقيم قوله عز وجل ﴿**وإن جادلوك**﴾ يعني إن حاجوك في أمر الذبيحة والتوحيد ﴿**فقل الله أعلم بما تعملون**﴾ يعني عالماً بأعمالكم فيجازيكم وذلك قوله ﴿**الله يحكم بينكم**﴾ يقضي بينكم ﴿**يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون**﴾ من الدين والذبيحة قال عز وجل ﴿**ألم تعلم**﴾ يا محمد ﴿**أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب**﴾ يعني إن ذلك العلم مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿**إن ذلك**﴾ في كتاب يعني إن كتابته ﴿**على الله يسير**﴾ يعني هين حال حفظه على الله أي: كتابته على الله يسير ثم قال عز وجل ﴿**ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً**﴾ يعني عذر ولا حجة قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ما لم ينزل بالتخفيف والباقون بالتشديد[1] ﴿**وما ليس لهم به علم**﴾ يعني ليس لهم بذلك حجة من المعقول ﴿**وما للظالمين من نصير**﴾ أي مانع يمنعهم من العذاب.

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٢٧٩.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

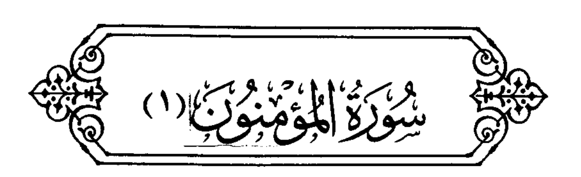
ثم قال عز وجل ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**﴾ يعني يعرض عليهم القرآن ﴿**تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر**﴾ يعني الغم والحزن والكراهية ﴿**يكادون يسطون**﴾ أي: هموا لو قدروا يضربون ويبطشون أشد البطش ﴿**بالذين يتلون عليهم آياتنا**﴾ يعني يقرأون عليهم القرآن وقال القتبي: يسطون أي يتناولونهم بالمكروه من الضرب والشتم ويقال يسطون يعني يفرطون عليهم والسطوة العقوبة ﴿**قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار**﴾ يعني بأشد وأسوأ من ضربكم وبطشكم ويقال إنهم كانوا يعيرون أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببذاذة حالهم ورثاثتها قال الله تعالى: **قل** لهم يا محمد أفائنبكم بشر من ذلك يعني مما قلتم للمؤمنين قالوا ما هي قال النَّارُ ﴿**وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ يعني: للكافرين قوله: ﴿**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ صاروا إليه قوله عز وجل: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾ يعني: بين ووصف شبه به لآلهتكم أي: أجيبوا عنه وقال بعضهم ليس هاهنا مثل وإنما أراد به قطع الشغب لأنهم كانوا يقولون (لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) فقال: يا أيها الناس ضرب مثل فاصغوا إليه استماعاً للمثل فأوقع في أسماعهم عيب آلهتهم فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ ويقال مثلكم مثل من عبد آلهة ﴿**لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً**﴾ أي: لن يقدروا على خلق الذباب ويقال المثل في الآية لا غير وهو قوله: **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلفوا ذباباً** أي: لن يقدروا ان يخلقوا ذباباً من الذباب في المثل ﴿**وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾ أي: على تخليقه ثم ذكر من أمرها ما هو أضعف من خلق الذباب فقال: ﴿**وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذبَابُ شَيْئاً**﴾ وذلك أنهم كانوا يلطخون العسل على فم الأصنام فيجيء الذباب فيسلب منها ما لطخوا عليها ﴿**لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ**﴾ أي: لا يقدرون أن يستنقذوا من الذباب ما أخذ منهم ﴿**ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ يعني: الذباب والصنم ويقال ضعف العابد والمعبود.

مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله عز وجل: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظموا الله حق عظمته حين أشركوا به غيره ولم يوحدوه ويقال ما وصفوه حق صفته ويقال ما عرفوه حق معرفته كما ينبغي وقال ابن عباس نزلت الآية في يهود المدينة حين قالوا خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استلقى فاستراح وضع إحدى رجليه على الأخرى وكذب أعداء الله فنزل ما قدروا الله حق قدره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي في أمره (عزيز) يعني: منيع في ملكه ومعبودهم لا قوة له ولا منفعة ويقال إن الله لقوي على عقوبة من جعل له شريكاً عزيز للانتقام منهم قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ قيل: جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت والحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني: ويختار من الناس مثل منهم محمد وعيسى وموسى ونوح عليهم السلام فجعلهم أنبياء ورسلاً إلى خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميع لمقالتهم بصير بمن يتخذه رسولاً وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: أأنزل عليه الذكر من بيننا فأخبر الله تعالى أنه سميع مقالة من يكفر بصير بمن يصلح للرسالة فيختاره ويجعله رسولاً ثم قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني: من أمر الآخرة وأمر الدنيا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يعني: عواقب الأمور في الآخرة ويقال معناه: منه بدأ وإليه يرجع قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ يعني: صلوا لله تعالى وقال بعض الناس: يسجد في هذا الموضع، يذكر ذلك عن عمر وابن عمر وروي عن ابن عباس أنه قال السجدة في الحج في الأولى منهما وهذا قول أهل العراق لأن السجدة سجدة الصلاة بدليل أنها مقرونة بالركوع معناه: اركعوا واسجدوا في الصلوات المفروضات التطوع وروي عن ابن عباس أنه قال: أول ما أسلموا كانوا يسجدون بغير ركوع فأمرهم الله تعالى بأن يركعوا ويسجدوا ثم قال: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي وحدوه وأطيعوه ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي: أكثروا من الطاعات والخيرات ما استطعتم وبادروا إليها ويقال: التسبيحات ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني: تنجون من عذاب الله تعالى قوله عز وجل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حق جِهَادِهِ﴾ يعني: إعملوا لله عز وجل حق عمله ويقال: جاهدوا في طاعة الله عز وجل وطلب مرضاته وقال الحسن: حق جهاده أن تؤدي جميع ما أمرك الله عز وجل به وتجتنب جميع ما نهاك الله عنه وأن تترك رغبة الدنيا لرهبة الآخرة وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلاً سأله فقال: أي الجهاد أفضل فقال كلمة عدل عند السلطان(1) ثم قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ يعني: إختاركم واصطفاكم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: في الإسلام من ضيق ولكن جعله واسعاً ولم يكلفكم مجهود الطاقة وإنما كلفكم دون ما تطيقون ويقال: وضع عنكم إصركم والأغلال التي كانت عليكم ويقال وما جعل عليكم في الدين من حرج وهو ما رخص في الإفطار في السفر والصلاة قاعداً عند العلة وقال قتادة: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يعطها إلا نبي كان يقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذهب فليس عليك من حرج وقال لهذه الأمة: وما جعل عليكم في الدين من حرج وكان يقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنت شهيد على قومك وقال لهذه الأمة: لتكونوا شهداء على الناس وكان يقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سل تعط وقال لهذه الأمة: ادعوني استجب لكم ثم قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال الزجاج: إنما صار منصوباً لأن معناه اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم قال: وجائز أن يكون وافعلوا الخير فعل أبيكم إبراهيم ويقال: معناه، وما جعل عليكم في الدين من حرج ولكن جعل لكم ملة سمحة سهلة كملة أبيكم إبراهيم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الله تعالى سماكم المسلمين ويقال: إبراهيم سماكم أي: من آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن [ويقال

(1) أخرجه أبو داود ١٢٤/٤ كتاب الملاحم (٤٣٤٤). والترمذي ٤٠٩/٤ كتاب الفتن (١٧٤) وابن ماجه ١٣٢٩/٢ كتاب الفتن (٤٠١١).

إبراهيم سماكم المسلمين يا أمة محمد] والطريق الأول أصح لأنه قال: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: القرآن [الله سماكم المسلمين في سائر الكتب من قبل هذا القرآن وفي هذا القرآن] ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمته بأنه بلغهم الرسالة بالتصديق لهم ﴿وَتَكُونُوا شُهداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: على سائر الأمم أن الرسل قد بلغتهم وقال مقاتل: وتكونوا شهداء على الناس يعني: للناس يعني للرسل على قومهم كقوله وما ذبح على النصب أي المنصب ثم قال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأتموها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأدوها ثم قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ يعني: وثقوا بالله إذا فعلتم ذلك ويقال: معناه تمسكوا بتوحيد الله وهو قول لا إله إلا الله ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم وحافظكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ يعني: نعم الحافظ ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني: نعم المانع لكم برحمته والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



وهي مائة وسبع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال حدثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد قال: حدثنا محمد بن علي بن طرخان قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثنا عبد الرزاق عن يونس بن سليم عن زيد الأيلي عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عيد القارىء عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

---

(١) تدور هذه السورة حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده والتنويه بالإيمان وشرائعه. فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك. وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله تعالى بالإلهية لتفرده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدىء الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة. ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله لم يخلق الخلق سدى ولعباً. وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى. وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل. ومن تسخير المنافع للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر. وورد ذكر الحمل على الفلك فكان منه تخلص إلى بعثة نوح وحدث الطوفان.

وانتقل إلى التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرق وما كان من عقاب المكذبين وتلك أمثال لموعظة المعرضين عن دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعقب ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا. وبتنبيه المشركين على أن حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة فهم عرضة لأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية المكذبة. وقد أراهم الله مخايل العذاب لعلهم يقلعون عن العناد فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم. وذكروا بأنهم يقرون إذا سئلوا بأن الله مفرد بالربوبية ولا يجرون على مقتضى إقرارهم وأنهم سيندمون على الكفر عندما يحرضهم الموت وفي يوم القيامة. وبأنهم عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته ونصحه المجرد عن طلب المنفعة لنفسه إلَّا ثواب الله فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة ولكنهم متبعون أهواءهم معرضون عن الحق. وما تخلل ذلك من جوامع الكلم. وختمت=

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات[١] وروي عن كعب الأحبار قال: إن الله تعالى لما خلق الجنة قال لها: تكلمي فقالت (قد أفلح المؤمنون)[٢] وروي عن غيره أنها قالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو هذا وقوله قد أفلح المؤمنون أي: سعد وفاز ونجا المصدقون بإيمانهم ثم نعتهم ووصف أعمالهم فقال: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ يعني: متواضعين وقال الزهري سكون المرء في صلاته لا يلتفت يميناً ولا شمالاً وقال الحسن البصري: أي: خائفون وروي عنه أنه قال خاشعون الذين لا يرفعون أيديهم في الصلاة إلا في التكبيرة الأولى وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال الخشوع في الصلاة أن لا تلتفت في صلاتك يميناً ولا شمالاً وذكر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان إذا قام في الصلاة رفع بصره إلى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى بصره نحو مسجده وروي عن أبي هريرة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ثم قال عز وجل[٣] ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ يعني الحلف والباطل من الكلام تاركون قال قتادة كل كلام أو عمل لا يحتاج إليه فهو لغو يقال: الذين هم عن الشتم والأذى معرضون كقوله عز وجل (وإذا مروا باللغو مروا كراماً)[٤] ثم قال ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ يعني: مؤدون ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ عن الفواحش وعن ما لا يحل لهم ثم استثنى فقال ﴿إلا على أَزْوَاجِهِمْ﴾ يعني على نسائهم الأربع وذكر عن القراءة أنه قال: على بمعنى من يعني إلا من نسائهم مثنى وثلاث ورباع ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يعني: الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لا يلامون على الحلال ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ يعني: طلب بعد ذلك ما سوى نسائه وإمائه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يعني المعتدين من الحلال إلى الحرام ويقال: وأُولئك هم الظالمون الحائرون الذين تعمدوا الظلم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يعني: ما ائتمنوا عليه من أمر دينهم مما لا يطلع عليه أحد ومما يأتمن الناس بعضهم بعضاً (وعهدهم) يعني: وفاء بالعهد راعون يعني: حافظين وأصل الرعي في اللغة[٥] القيام على إصلاح ما يتولاه قرأ ابن كثير والذين هم لأمانتهم بلفظ الوحدان وقرأ الباقون بلفظ الجمع[٦] يعني: بيع الأمانات ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني على المواقيت

= بأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يغض عن سوء معاملتهم ويدفعها بالتي هي أحسن ويسأل المغفرة للمؤمنين وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة. انظر التحرير ١٨/٦، ٧.

(١) أخرجه الترمذي ٣٠٥/٥ كتاب التفسير باب ومن سورة المؤمنين (٣١٧٣) وأحمد في المسند ٢٢٣. والحاكم في المستدرك ٥٣٥/١، ٣٩٣/٢ وصححه وأقره الذهبي وذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٥. والبغوي في تفسيره ٣٠١/٣ وفي سنده يونس من سليم الصنعاني وهو مجهول ويونس بن يزيد الأيلي في روايته عن الزهري وهم قليل.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن حكيم عن أبي هريرة ورمز له بالضعف وقال المناوي في شرحه ٣١٩/٥ رواه الحكيم الترمذي في النوادر عن صالح بن محمد عن سليمان بن عمر عن ابن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة قال رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فذكره قال العراقي في شرح الترمذي وسليمان بن عمر وهو أبو داود النخعي متفق على ضعفه وإنما يعرف هذا عن ابن المسيب وقال في المغني ضعيف والمعروف أنه من قول سعيد ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه وفيه رجل لم يسم وقال ولده فيه سليمان بن عمر مجمع على ضعفه وقال الزيلعي بن عدي أجمعوا على أنه يضع الحديث.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

(٥) لسان العرب ١٦٧٦/٣.

(٦) وحجة من قرأ لأمانتهم، قوله تعالى: ﴿وعهدهم راعون﴾ ولم يقل (وعهودهم) وقال بعض النحويين: وجه الإفراد أنه مصدر واسم جنس فيقع على الكثرة وإن كان مفرداً في اللفظ ومن هذا قوله ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ فأفرد وحجة الباقين إجماع الجميع

يحافظون لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ويتمونها بركوعها وسجودها قرأ حمزة والكسائي على صلاتهم بلفظ الوحدان وقرأ الباقون صلواتهم(١) بلفظ الجماعة ومعناهما واحد لأن الصلاة اسم جنس يقع على الواحد والأكثر فهذه الخصال صفة المؤمنين المخلصين في أعمالهم ثم بين ثوابهم فقال عز وجل ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ يعني النازلين ثم بين ما يرثون فقال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وهي البساتين بلغة الروم عليها حيطان ويقال: لم يكن أحد من أهل الجنة إلا وله نصيب في الفردوس لأن هناك كلها بساتين وأشجار ويقال أُولئك هم الوارثون يعني: يرثون المنازل التي للكفار في الجنة وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ(٢) ويقال الفردوس البستان الحسن ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: في الجنة دائمون وقال القتبي: حدثني أبو حاتم السجستاني(٣) قال كنت عند الأخفش وعنده الثوري فقال: يا أبا حاتم ما صنعت بكتاب المذكر والمؤنث قلت قد عملت شيئاً فقال: ما تقول في الفردوس قلت مذكر قال: فإن الله يقول (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) قلت أراد الجنة فأنث فقال: يا غافل أما تسمع الناس يقولون أسألك الفردوس الأعلى فقلت يا نائم إنما الأعلى ها هنا أفعل وليس بفعلى.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: آدم قال الكلبي ومقاتل: السلالة إذا عصر الطين يسيل الطين والماء بين أصابعه وقال الكلبي: خلقنا الإنسان يعني ابن آدم من نطفة سُلّت تلك النطفة من طين والطين آدم عليه السلام والنطفة ما يخرج من صلبه فيقع في رحم المرأة وقال الزجاج: سلالة من طين أي [من طين](٤) آدم والسلالة القليل من أن ينسل وكل مبني على فعالة فهو يراد به القليل مثل النخالة والنطفة سلالة وإنما سميت النطفة سلالة لأنها تنسل من بين الصلب والترائب ثم جعلناه ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يعني: في مكان حريز حصين ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: حولنا الماء دماً ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: حولنا الدم مضغة ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾ أي: خلقنا في المضغة عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ قال عكرمة وأبو العالية والشعبي: معناه نفخ فيه الروح وروى الأخفش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه (قَالَ إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ عز وجل مَلَكاً فَيُؤْمَرُ بِأَنْ يَكْتُبَ أَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَهِيَ أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ)(٥) وروي عن عطاء

= على قوله ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. حجة القراءات ٤٨٣.

(١) وحجة من قرأ على التوحيد إجماع الجميع على التوحيد في سورة الأنعام وسأل سائل عند قوله ﴿والذين هم على صلاتهم دائمون﴾ فرّد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه وحجة الباقين أن هذه مكتوبة بالمصحف بواو وكذلك في براءة وهود فكان هذا دليلاً على الجمع وكتبوا ما عدا هذه الثلاث (الصلاة بألف من غير واو ولم يكتبوا الألف بعد الواو اختصاراً وإيجازاً) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك بنحوه ٢/٣٩٣ كتاب التفسير وقال حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) هو سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد أبو حاتم السجستاني إمام البصرة في النحو والقراءة واللغة والعروض له تصانيف كثيرة أحسبه أول من صنف في القراءات توفي سنة خمس وخمسين ومائتين ويقال سنة خمسين ومائتين. غاية النهاية ١/٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٤) سقط في ظ.

(٥) أخرجه البخاري ١٢/٤٨٦ كتاب القدر (٦٥٩٤).

عن ابن عباس في قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) قال نفخ فيه الروح وروى ابن نجيح[١] عن مجاهد[٢] (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) قال: حين استوى شاباً وروى معمر عن قتادة ثم أنشأناه خلقاً آخر قال: هو نبات الشعر والأسنان وقال بعضهم: هو نفخ الروح[٣] ويقال ذكراً أو أنثى ويقال: معناه ثم أنشأناه خلقاً آخر يعني: الجلد وروي عن عطاء عن ابن عباس أنه قال ينفخ فيه الروح[٤] وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ ثم أنشأته خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعني: أحكم المصورين وروى أبو صالح عن عبد الله بن عباس قال: كان عبد الله بن أبي سرح يكتب هذه الآيات للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما انتهى إلى قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) عجب من تفضل الإنسان أي من تفضل خلق الإنسان فقال ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أكتب هكذا أنزلت فشك عند ذلك وقال: لئن كان محمد صادقاً فيما يقول: إنه يوحى إليه فقد أوحي إلي كما أوحي إليه ولئن قال من ذات نفسه فلقد قلت مثل ما قال فكفر بالله تعالى وقال مقاتل والزجاج: كان عمر رضي الله عنه عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذْ أُنْزِلَتْ عليه هذه الآية فقال عمر: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هكذا أنزلت عليّ فكأنه أجرى على لسانه هذه الآية قبل قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [٥]وقد قيل إن الحكاية الأولى غير صحيحة لأن ارتداد عبد الله ابن أبي سرح كان بالمدينة وهذه الآية مكية قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً وقرأ الباقون بالألف معناهما واحد لأن الواحد يغني عن الجنس.

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعني: تموتون عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعني: تحيون بعد الموت فذكر أول الخلق لأنهم كانوا مقرين بذلك ثم أثبت الموت لأنهم كانوا يشاهدونه ثم أثبت البعث الذي كانوا ينكرونه ثم ذكر قدرته فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني: سبع سموات بعضها فوق بعض كالقبة وقال مقاتل والكلبي: غِلَظُ كل سماء خمسمائة عام وبين كل سمائين كذلك وقال أهل اللغة[٦]: الطرائق واحدها طريقة ويقال طارقت الشيء يعني: إذا جعلت بعضه فوق بعض وإنما سمي الطرائق لأن بعضها فوق بعض ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: عن خلقهن عاجزين تاركين ويقال لكل سماء طريقة

---

(١) هو يسار المكي أبو نجيح مولى ثقيف مشهور بكنيته ثقة وهو والد عبد الله بن أبي نجيح مات سنة تسع ومائة. التقريب ٢/٣٧٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٥/٤٦٣ والدر المنثور ٥/٧.

(٦) لسان العرب ٤/٢٦٦٦٤.

لأن على كل سماء ملائكة عبادتهم مخالفة لعبادة ملائكة السماء الأخرى يعني لكل أهل سماء طريقة من العبادة وما كنا عن الخلق غافلين أي لم نكن نغفل عن حفظهن كما قال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً) قوله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يعني: بوزن ويقال بقدر ما يكفيهم لمعايشهم ويقال بقدر يعني كل سنة (تمطر بقدر) السنة الأولى كما روي عن ابن مسعود أنه قال: ليست سنة بأمطر من سنة ولكن الله عز وجل يصرفه حيث يشاء ويقال وأنزلنا من السماء ماء أي أربعة أنهار تخرج من الجنة دجلة والفرات وسيحان وجيحان ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فأدخلناه في الأرض ويقال: جعلناه ثابتاً فيها من الغدران والعيون والركايا ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ يعني: يغور في الأرض فلا يقدر عليه كقوله عز وجل (إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً) ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ﴾ يعني: وأخرجنا بالماء جنات يعني الخضرة ويقال: جعلنا لكم بالماء البساتين ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني: الكروم ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ يعني: ألوان الفواكه سوى النخيل والأعناب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ثم قال عز وجل ﴿وَشَجَرَةً﴾ أي وأنبتنا شجرة ويقال: خلقنا شجرة ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ قال قتادة: طور سيناء جبل حسن وقال الكلبي: جبل ذو شجرة وقال مجاهد: الطور جبل والسيناء حجارة وقال القتبي: الطور جبل والسيناء إسم وقال مقاتل: خلقنا في الجبل الحسن الذي كلم الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ قرأ ابن كثير وأبو عمر ونافع طور سيناء بكسر السين وقرأ الباقون بالنصب[1] ومعناهما واحد ثم قال ﴿تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي: تخرج بالدهن قرأ ابن كثير وأبو عمرو تُنْبِت بضم التاء وكسر الباء يعني: تخرج الدهن وقرأ الباقون تَنْبُت بنصب التاء وضم الباء[2] وهو إختيار أبي عبيد أي: تنبت معه الدهن كما يقال: جاءني فلان بالسيف ﴿وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ يعني: الزيت يصطبغ به وجعل الله عز وجل في هذه الشجرة إداماً ودهناً وهي صبغ للآكلين.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ يعني: في الإبل والبقر والغنم لمن يعتبر فيها يقال العير بأوقار والمعتبر بمثقال ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ يعني من ألبانها وهي تخرج من بين فرث ودم قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (نَسْقِيكُمْ) بنصب النون وقرأ الباقون بالضم وهذا مثل ما في سورة النحل ثم قال: ﴿وَلَكُمْ

---

(١) وحجة من قرأ بكسر السين قوله تعالى ﴿وطور سينين﴾ والسيناء والسينين الحسن وكل جبل نبتت الثمار فيه فهو سينين وهما لغتان إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٨٢، حجة القراءات ٤٨٤.

(٢) قال الفراء هما لغتان: نبت الشجر وأنبت. قال الشاعر:

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتها قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل

المصدران السابقان.

﴿فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ يعني: في ظهورها وأصوافها وألبانها وأشعارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: من لبنها ولحومها وأولادها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ يعني: على الأنعام في المفازة وعلى السفينة في البحر تسافرون قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ يعني: أرسلناه إلى قومه كما أرسلناك إلى قومك فإن قيل: إيش الحكمة في تكرار القصص قيل له لأن في كل قصة كررها ألفاظاً وفوائد ونكتاً ما ليس في الأخرى ونظمها سوى نظم الأخرى وقال الحسن للقصة ظهر وبطن فالظهر خبر يخبرهم والبطن عظة تعظهم ويقال: إنما كررها تأكيداً للحُجة والعظة كما أنه كرر الدلائل ويكفي دليل واحد لمن يستدل به تفضلاً من الله تعالى ورحمة منه فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ) ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: أطيعوا الله عز وجل ووحدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني: ليس لكم رب سواه ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ عبادة غير الله عز وجل فتوحدونه يعني: اتقوه ووحدوه قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الأشراف الذين كفروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعني: خلقاً آدمياً مثلكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بالرسالة (ويقال يريد أن يتفضل عليكم يعني: يريد أن يجعل لنفسه فضلاً عليكم بالرسالة) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو شاء أن يرسل إلينا رسولاً لأنزل ملائكة ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يعني: مما يدعونا إليه نوح من التوحيد ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يعني: الجنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ يعني: انتظروا به حتى يتبين لكم أمره وصدقه من كذبه ويقال: حتى حين أي حتى يموت فتنجوا منه فلما أبوا على نوح دعا عليهم.

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ يعني: أعني عليهم بالعذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يعني: بتحقيق قولي في العذاب لأنه أنذر قومه بالعذاب فكذبوه قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: إعمل السفينة بأعيننا يعني: بمنظر منا وبعلمنا ثم قال: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ يعني: بوحينا إليك وأمرنا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يعني: بنبع الماء من أسفل التنور ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ يعني: فأدخل في السفينة ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني من كل حيوان صنفين ولونين ذكراً وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني: وأدخل فيها أهلك ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ يعني: إلا من وجب عليه العذاب وهو ابنه كنعان ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني ولا تراجعني بالدعاء في الذين كفروا وهو ابنه ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ بالطوفان: قرأ عاصم في رواية حفص من كل زوجين بتنوين اللام وقرأ الباقون بغير تنوين

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ يعني: ركبت في السفينة ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني: الشكر لله ﴿الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين قوله عز وجل ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ يعني: إذا نزلت من السفينة إلى البر فقل رب أنزلني ﴿مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر منزلاً بنصب الميم وكسر الزاي يعني موضع النزول وقرأ الباقون: منزلاً بضم الميم ونصب الزاي وهو اختيار أبي عبيدة وهو المصدر من أنزل ينزل فصار بمعنى أنزلني إنزالاً مباركاً[1] ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ من غيرك وقد قرأ في الشواذ وأنت خير المنزلين بنصب الزاي يعني أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام قل هذا القول حتى تكون خير المنزلين ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في إهلاك قوم نوح ﴿لَآيَاتٍ﴾ يعني: لعبرات لمن بعدهم ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ يعني: وقد كنا لمختبرين بالغرق ويقال بالطاعة والمعصية وإن بمعنى قد كقوله (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ) يعني: وقد كان مكرهم قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: خلقنا من بعدهم ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ وهم قوم هود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ يعني: بينهم هوداً عليه السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: قال لهم هود احمدوا الله وأطيعوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني: اتقوه، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ يعني: بالبعث بعد الموت ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ يعني: أنعمنا عليهم ويقال وسعنا عليهم حتى أترفوا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا﴾ يعني: قالوا ما هذا ﴿إِلَّا بَشَرٌ﴾ يعني: آدمياً ﴿مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ يعني: كما تأكلون منه ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يعني: كما تشربون ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً﴾ يعني: آدمياً ﴿مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ أي: لمغبونون ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً﴾ أي: صرتم تراباً ﴿وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ يعني: محبون.

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

قوله عز وجل: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ قرأ أبو جعفر المدني هيهات هيهات كلاهما بكسر التاء قال أبو عبيد قراءتها بالنصب لأنه أظهر اللغتين وأفشاهما وقال بعضهم: قد قُرِىء هذا الحرف بسبع قراءات بالكسر والنصب والرفع والتنوين وغير التنوين والسكون[2] وهذه الكلمة يعبر بها عن البعد يعني: بعيداً بعيداً ومعناه أنهم قالوا هذا لا يكون

(١) انظر حجة القراءات ٤٨٦.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٢٨٤.

أبداً يعني البعث ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: بَعِيداً بعيداً لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿إِنْ هِيَ﴾ يعني: ما هي ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: نحيا ونموت على وجه التقديم ويقال: معناه يموت الآباء وتعيش الأبناء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يعني: لا نبعث بعد الموت ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هو ﴿إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين فلما كذبوه دعا عليهم ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ يعني: قال هود أعني عليهم بالعذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ﴾ الله تعالى ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ يعني عن قريب وماصلة كقوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ) ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ يعني: ليصيرن نادمين فأخبر الله تعالى عن معاملة الذين كانوا من قبل مع أنبيائهم وسوء جزائهم وأذاهم لأنبيائهم ليصبر النبي - صلى الله عليه وسلم - على أذى قومه ثم أخبر عن عاقبة أمرهم فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: العذاب وهو الريح العقيم ويقال: وهي صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ يعني: يابساً ويقال: هلكى كالغثاء وهو جمع غثاء وهو ما على السيل من الزبد لأنه يذهب ويتفرق وقال الزجاج: الغثاء البالي من ورق الشجر أي: جعلناه يبساً كيابس الغثاء ويقال: الغثاء النبات اليابس كقوله (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) ثم قال: ﴿فَبُعْداً﴾ يعني: سحقاً ونكساً ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: بعداً من رحمة الله تعالى قوله عز وجل ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً﴾ يعني: خلقنا من بعدهم قروناً ﴿آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ وفي الآية مضمر ومعناه فأهلكناهم بالعذاب في الدنيا ما تسبق من أمة يعني: ما يتقدم ولا تموت قبل أجلها طرفة عين ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بعد أجلهم طرفة عين قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ يعني: بعضها على إثر بعض قرأ ابن كثير وأبو عمرو (تترىً) بالتنوين وقرأ حمزة والكسائي بكسر الراء بغير تنوين وقرأ الباقون بنصب الراء وبغير تنوين وهو التواتر قال مقاتل: كلما في القرآن (تَتْراً وَمِدْرَاراً وَأَبَابِيلَ وَمُرْدِفِينَ يعني بعضها على إثر بعض قال القتبي: أصل تترى وتراً فقلبت الواو تاءً كما قلبوها في التقوى والتخمة وأصلها وتراً والتخمة وأصلها ثم قال عز وجل ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ بالهلاك الأول فالأول ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً وعبراً لمن بعدهم ويقال فجعلناهم أحاديث لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم وقال الكلبي: ولو بقي واحد منهم لم يكونوا أحاديث ﴿فَبُعْداً﴾ لِلْهَالِكِ ويقال فسحقاً ﴿لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني: بحجة بينة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلاَئِهِ﴾ أي: قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تعظموا عن الإيمان والطاعة ﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ يعني متكبرين ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ﴾ يعني أنصدق ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يعني: خلقين آدميين ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ أي: مستهزئين ذليلين ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ يعني: موسى وهارون ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ يعني: صاروا مفرقين في البحر.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: لكي يهتدوا يعني: بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ يعني: عبرة وعلامة لبني إسرائيل ولم يقل آيتين وقد ذكرناه ثم

قال ﴿وَآويناهما إِلَى رَبْوَةٍ﴾ يعني: أنزلناهما إلى ربوة وذلك أنها لما ولدت عيسى عليه السلام هم قومها أن يرجموها فخرجت من بيت المقدس إلى أرض دمشق والربوة المكان المرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ يعني: أرضاً مستوية ومعين يعني الماء الجاري الطاهر وهو مفعول من العين وأصله معيون كما يقال: ثوب مخيط وقال سعيد بن المسيب الربوة هي دمشق ويقال هي بيت المقدس لأنها أقرب إلى السموات من سائر الأرض ويقال: إنها الرملة وفلسطين قرأ ابن عامر وعاصم ربوة بنصب الراء وقرأ الباقون بالضم ومعناهما واحد قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّها الرُّسُلُ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما خاطب به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته كما يجيء في مخاطبتهم ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: من الحلالات قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا ابن صاعد قال: حدثنا أحمد بن منصور قال: حدثنا الفضيل بن دكين قال: حدثنا الفضل بن مرزوق قال: أخبرني عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وقال: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك[1] وقال الزجاج: خوطب بهذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل يأيها الرسل وتضمن هذا الخطاب أن الرسل عليهم السلام جميعاً كذا أمروا قال: ويروى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه وكان رزق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغنيمة وأطيب الطيبات الغنائم ثم قال تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ يعني: خالصاً ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يعني: قبل أن تعملوا قوله عز وجل ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: دينكم الذي أنتم عليه يعني ملة الإسلام دين واحد عليه كانت الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ يعني: أنا شرعته لكم فأطيعون قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو أن بنصب الألف وتشديد النون وقرأ ابن عامر بنصب الألف وسكون النون وقرأ الباقون بكسر الألف والتشديد على معنى الابتداء[2] ثم قال عز وجل ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يقول فرقوا دينهم وتفرقوا في دينهم ومعناه أن دين الله تعالى واحد فجعلوه أدياناً مختلفة زبراً قرأ ابن عامر ﴿زُبَراً﴾ بنصب الباء أي قطعاً وفرقاً وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي (زُبُراً) بضم الباء أي كتباً معناه جعلوا دينهم كتباً مختلفة ويقال فتقطعوا كتاب الله وحرفوه وغيروه (زُبُراً) ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يعني بما هم عليه من الدين معجبون راضون به.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله عز وجل ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ يعني اتركهم في جهالتهم ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ يعني إلى حين يأتيهم ما

(١) أخرجه مسلم ٢/٧٠٣ كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (٦٥ ـ ١٠١٥). وأحمد في المسند ٢/٣٢٨.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٨٥، حجة القراءات ٤٨٨.

وعدوا به من العذاب ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ يعني أيظنون وهم أهل الفرق ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ يعني أن الذين نزيدهم به ﴿مِنْ مَالٍ وَبَنِيْنَ﴾ في الدنيا ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِيْ الْخَيْرَاتِ﴾ يعني هو خير لهم في الآخرة قرأ بعضهم يُسَارَعُ بالياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقراءة العامة نُسارِع بالنون وكسر الراء يعني يظنون أنا نسارع لهم في الخيرات بزيادة المال والولد بل هو استدراج لهم وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام أيفرح عبدي أن أبسط له في الدنيا وهو أبعد له مني ويجزع عبدي المؤمن أن أقبض منه الدنيا وهو أقرب له مني ثم قال (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ)[1] وقد تم الكلام يعني أيظنون أن ذلك خير لهم في الدنيا ثم قال نسارع لهم في الخيرات ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك فتنة لهم ويقال إنما نمدهم به من مال وبنين وقد تم الكلام يعني أيظنون أن ذلك خير لهم في الدنيا ثم قال عز وجل نسارع لهم في الخيرات يعني نبادرهم في الطاعات، وهو خير لهم أي في الآخرة بل لا يشعرون أن زيادة المال والولد أن ذلك مكر بهم وشر لهم في الآخرة ثم ذكر المؤمنين فقال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ يعني: خائفين من عذابه ويقال هذا عطف على قوله (وَالَّذِيْنَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) ثم قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن يصدقون قوله ﴿وَالَّذِيْنَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: لا يشركون معه غيرهم ولكنهم يوحدون ربهم ويقال: بربهم لا يشركون وهو أن يقول لولا فلان ما وجدت هذا ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ يعني: يعطون ما أعطوا من الصدقة والخبر ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يعني: خائفة وروى سالم بن معول عن عبد الرحمن بن سعيد الهمداني أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا بُقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ويزنون قال لا يا بنت أبي بكر ولكنهم هم الذين يصومون ويتصدقون ويصلون وروي عن أبي بكر بن خلف أنه قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقلنا كيف تقرئين يا أم المؤمنين (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتوا) قالت سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا) فقلت يا نبي الله هو الرجل الذي يسرق ويشرب الخمر قال لا يا بنت أبي بكر هو الرجل الذي يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه[2] وقال الزجاج: من قرأ يؤتون[3] ما آتوا معناه يعطون ما أعطوا ويخافون أن لا يقبل منهم ومن قرأ يأتون ما أتوا أي: يعملون من الخيرات ما يعملون ويخافون مع اجتهادهم أنهم مقصرون ثم قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ يعني: لأنهم إلى ربهم راجعون ومعناه يعملون ويوقنون أنهم يبعثون بعد الموت قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِيْ الْخَيْرَاتِ﴾ يعني: يبادرون في الطاعات من الأعمال الصالحة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ يعني: هم لها عاملون يعني الخيرات وقال الزجاج: فيه قولان أحدهما: معناه هم إليها سابقون كقوله عز وجل: (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ٥/١١ وعزاه لابن أبي حاتم عن أبي ميسرة قال أجد فيما أنزل الله على موسى أيفرح عبدي المؤمن أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له مني أو يجزع عبدي المؤمن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له مني ثم تلا «أيحسبون. . . إلخ».

(٢) أخرجه الترمذي ٥/٣٠٦ (٣١٧٥) كتاب التفسير، وابن ماجه ٢/١٤٠٤ (٤١٩٨) كتاب الزهد، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١١ وعزاه أيضاً للفريابي وأحمد وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عائشة.

(٣) قراء الجمهور ﴿يؤتون ما آتوا﴾ وقرأت عائشة رضي الله عنها وابن عباس والنخعي وقتادة والأعمش والحسن ﴿يأتون ما آتوا من الإتيان﴾. انظر البحر المحيط ٦/٤١٠. تفسير القرطبي ١٢/٨ ـ ٨٩.

لَها)[١] يعني: إليها ويجوز هم لها سابقون أي لأجلها أي: من أجل اكتسابها كقولك: أنا أكرم فلاناً لك أي: من أجلك.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ يعني: بقدر طاقتها ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يعني: وعندنا نسخة أعمالهم التي يعملون وهي التي تكتب الحفظة عليهم ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: يشهد عليهم بالصدق وقال الكلبي (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) أي: طاقتها فمن لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل قاعداً ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق﴾ وهو الذكر يعني اللوح المحفوظ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا يزاد في سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعني في غفلة من الإيمان بهذا القرآن ويقال هم في غفلة من هذا الذي وصفنا من كتابة الأعمال ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ قال مقاتل: يقول لهم أعمال خبيثة دون الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: لتلك الأعمال لا محالة التي في اللوح المحفوظ وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ذكر الله تعالى (الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) ثم قال للكفار: (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) ثم رجع إلى المؤمنين فقال (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) الأعمال التي عددتهم لها عاملون ثم قال عز وجل: ﴿حَتَّى إذا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعني أغنياءهم وجبابرتهم بالعذاب قال مجاهد: يعني بالسيوف يوم بدر وقال الكلبي: بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يصيحون ويتضرعون إلى الله تعالى حين نزل بهم العذاب ويقال: يدعون ويستغيثون قول الله تعالى: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ يعني: لا تضجوا ولا تتضرعوا اليوم ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ يعني: من عذابنا لا تمنعون قوله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِيْ تُتلى عَلَيْكُمْ﴾ أي: تقرأ وتعرض عليكم ﴿فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ أي: ترجعون إلى الشرك وتميلون إليه ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي ـ متعظمين ويقال: تنكصون أي: تقيمون عليه مستكبرين به يعني: بالبيت صار هذا كناية من غير أن يسبق ذكر البيت لأن ذلك البيت كان معروفاً عندهم وقال مجاهد: مستكبرين به أي بمكة بالبلد ﴿سَامِراً﴾ بالليل لجلسائهم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بالقول الذي في القرآن ويقال تهجرون يعني تتكلمون بالفحش وسب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ [زوروها يعني المقابر ولا تقولوا هُجْراً][٢] يعني: فحشاً وقال القتبي: مستكبرين به يعني: بالبيت العتيق تهجرون به ويقولون نحن أهله سامراً والسمر حديث الليل وقال أهل اللغة: السمر في اللغة ظل القمر ولهذا سمي حديث الليل سمراً لأنهم كانوا يجتمعون في ظل القمر ويتحدثون قرأ نافع (سَامِراً تُهْجِرونَ) بضم التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بنصب التاء وضم الجيم وقال أبو عبيد: هذه القراءة أحب إلينا فيكون من الصدود والهجران كقوله (فكنتم على

---

(١) الزلزلة ٥.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٦١، ٦٢ وعزاه للطبراني في الصغير وقال: وفيه محمد بن كثير بن مروان وهو ضعيف جداً وقوله هجراً بضم الهاء وسكون الجيم يعني فحشاً. انظر لسان العرب ٦/٤٦١٨.

أعقابكم تنكصون) يعني: تهجرون القرآن ولا تؤمنون به ومن قرأ تهجرون أراد الإفحاش في المنطق وقد فسرها بعضهم على الشرك.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ**﴾ وأصله يتدبروا فأدغم التاء في الدال يعني أفلم يتفكروا في القرآن ﴿**أَمْ جَاءَهُمْ**﴾ من الأمان ﴿**مَا لَمْ يأت آباءهم الأَوَّلِينَ**﴾ حتى يؤمنوا وقال معناه جاءهم الذي لم يجيء آباءهم الأولين وهذا كقوله (لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ)(١) وقال الكلبي: أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين من البراءة من العذاب ثم قال تعالى: ﴿**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ**﴾ يعني نسبة رسولهم ﴿**فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**﴾ يعني: جاحدين قال أبو صالح عرفوه ولكن حسدوه ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ**﴾ يعني بل يقولون به جنون ﴿**بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ**﴾ يعني الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسالة والقرآن من عند الله عز وجل أن لا تعبدوا إلا الله ﴿**وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ يعني: جاحدين مكذبين وهم الكفار قوله عز وجل ﴿**وَلَو اتَّبَعَ الْحَقّ أَهْوَاءهم**﴾ والحق هو الله تعالى يعني لو اتبع الله أهواءهم يعني: مرادهم ﴿**لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ**﴾ يعني لهلكت لأن أهواءهم ومرادهم مختلفة ويقال لو كانت الآلهة بأهوائهم كما قالوا لفسدت السموات كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)(٢) ثم قال: ﴿**بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ**﴾ يعني: أنزلنا إليهم جبريل عليه السلام بعزهم وشرفهم لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم ﴿**فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ**﴾ يعني عن القرآن: أي تاركوه لا يؤمنون به ﴿**أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً**﴾ قرأ حمزة والكسائي خراجاً ﴿**فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ**﴾ يعني: فثواب ربك خير ويقال ـ قوت ربك من الحلال خير من جعلهم وثوابهم ﴿**وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ أي: أفضل الرازقين قوله عز وجل: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ يعني دين مستقيم وهو الإسلام لا عوج فيه ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**﴾ يعني لا يصدقون بالبعث ﴿**عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ**﴾ أي عن الدين لعادلون ومائلون.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾

﴿**وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ**﴾ يعني: من الجوع الذي أصابهم ﴿**لَلَجُّوا**﴾ أي: مضوا وتمادوا ﴿**فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ يعني: في ضلالتهم يترددون قوله عز وجل ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ**﴾ يعني: بالجوع ﴿**فَمَا**

---

(١) سورة يس: الآية ٦٠. (٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

﴿اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يعني: ما تضعفوا وما خضعوا لربهم **﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾** يقول: ما يرغبون إلى الله في الدعاء وبالطاعة **﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾** يعني: نفتح عليهم قال السدي: هو فتح مكة **﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾** قال أبلسوا يومئذ وتغيرت وجوههم وألوانهم حين ينظرون إلى أصنامهم تكسرت وقال عكرمة: ذا عذاب شديد يعني: فتح مكة ويقال الجوع الشديد إذا هم فيه مبلسون أي آيسون من كل خير ورزق.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

قوله عز وجل: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾** فهذه الأشياء من النعم **﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾** يعني: أنتم لا تشكرون ويقال شكركم فيما صنع إليكم قليل **﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾** يعني: خلقكم في الأرض **﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** في الآخرة **﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** أي: يحيي الموتى ويميت الأحياء **﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾** أي: ذهاب الليل ومجيء النهار **﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** أمر الله ويقال أفلا تعقلون توحيد ربكم فيما ترون من صنعه فتعتبرون ثم قال عز وجل: **﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾** يعني: كذبوا مثل ما كذب الأولون **﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾** يعني: هذا القول **﴿إِنْ هَذَا﴾** يعني: ما هذا **﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾** يعني: أحاديثهم وكذبهم قوله عز وجل: **﴿قُلْ﴾** لكفار مكة **﴿لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾** من الخلق **﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** أن أحداً يفعل ذلك غير الله تعالى فأجيبوني **﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** يعني: تتعظون فتطيعونه وتوحدونه **﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾** وكلهم قرؤا الأول بغير ألف وأما الآخر فإن كلهم قرؤوا بغير ألف غير أبي عمرو فإنه قرأ الله والباقون[1] لله قال أبو عبيد: وجدت في مصحف الإمام كلها بغير ألف قال وحدثني عاصم الجحدري[2] أن أول من قرأ هاتين الألفين نصر بن عاصم الليثي[3] فأما من قرأ الله فهو ظاهر لأنه جواب السائل عما يسأل ومن قرأ لله فله مخرج في العربية

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٢) عاصم بن أبي الصباح العجاج أبو المجشر الجحدري البصري أخذ القراءة عرضاً عن سليمان بن قته عن ابن عباس. انظر طبقات القراء ١/٣٤٩.

(٣) نصر بن عاصم الليثي البصري النحوي تابعي سمع من مالك بن الحويرث وأبو بكرة الثقفي عرض القرآن على أبي الأسود مات سنة تسعين. طبقات القراء ٢/٣٣٦.

سهل وهو ما حكي الكسائي عن العرب أنه يقال للرجل من رب هذه الدار فيقول لفلان يعني هي لفلان والمعنى في ذلك أنه إذا قيل من صاحب هذه الدار فكأنه يقول ـ لمن هذه الدار وإذا قال المجيب هي لفلان أو قال فلان فهو جائز ولو كان الأول الله لكان يجوز في اللغة ولكنه لم يقرأ والاختلاف في الآخرين[1] ثم قال: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادة غير الله تعالى فتوحدونه قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: خزائن كل شيء ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يعني: يقضي ولا يقضى عليه ويقال وهو يؤمن من العذاب ولا يؤمن عليه أي ليس له أحد يؤمن الكفار من عذابه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّـى تُسْحَرُونَ﴾ يعني: من الذين تصرفون عن الإسلام وعن الحق ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ قال الكلبي: يعني القرآن وقال مقاتل: يعني جئناهم بالتوحيد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم إن الملائكة عليهم السلام كذا وكذا ثم قال:

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أي من شريك ﴿إِذاً لذهب﴾ يعني: لو كان معه آلهة لذهب ﴿كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ﴾ يعني؛ لاستولى كل إله بما خلق وجمع لنفسه كلما خلق ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: ولغلب بعضهم على بعض ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّـا يَصِفُونَ﴾ من الكذب قوله عز وجل: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني: عالم السر والعلانية ويقال عالم بما مضى وهو كائن ﴿فتعالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: هو أجلّ وأعلى مما يوصف له من الشريك والولد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص (عَالِمِ الغيب) بكسر الميم على معنى النعت لقوله: (سُبْحَانَ اللَّهِ) وقرأ الباقون بالضم[2] على معنى الابتداء قوله: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب وما صلة ويقال إن أريتني عذابهم ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِيْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: أخرجني منهم قبل أن تعذبهم فلا تعذبني معهم بذنوبهم ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ قال الكلبي: هذا أمر قد كان بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهده أصحابه وقد مضى بعد الفتنة التي وقعت في الصحابة بعد قتل عثمان رضي الله عنه وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم ير بعد نزول هذه الآية ضاحكاً ولا مبتسماً وقال مقاتل (وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) يعني: يوم بدر ويقال يوم فتح مكة ويقال قل رب إما تريني ما يوعدون يعني الفتنة (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) يعني: مع الفئة الباغية وهذا كقوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظلموا مِنْكُمْ خَاصَّة) وذكر عن الزبير أنه كان إذا قرأ هذه الآية يقول قد حذرنا الله فلم نحذر ثم قال عز وجل ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئة﴾ يعني ادفع بحلمك جهلهم ويقال بالكلام الحسن الكلام القبيح ويقال: ادفع بقول لا إله إلا الله الشرك من أهل مكة ثم قال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يعني: بما يقولون من الكذب (ويقال معناه نحن أعلم بما يقولون)[3]

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٠.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٩١.
(٣) سقط في أ.

فلا تعجل أنت أيضاً ﴿وَقُلْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني: أعتصم بك من نزغات الشيطان وضرباته ووساوسه ثم قال: ﴿وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ يعني قل رب أعوذ بك من قبل أن يحضرون الشياطين عند تلاوة القرآن ويقال يحضرون عند الموت ويقال عند الصلاة وأصله أن يحضرونني إلا أنه يكتب يحضرون بحذف إحدى النونين للتخفيف.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

قوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني: أمهلهم وأجلهم حتى إذا حضر أحدهم الموت وهم الكفار ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يعني: يقول لملك الموت وأعوانه يا سيدي ردني ويقال: يدعو الله تعالى ويقول يا رب ارجعون ويقال إنما قال بلفظ الجماعة لأن العرب تخاطب جليل الشأن بلفظ الجماعة ويقال معناه يا رب مرهم ليرجعوني إلى الدنيا ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً﴾ يعني: خالصاً ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الدنيا قال الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ وهو رد عليهم يعني أنه لا يرد إلى الدنيا ثم قال ﴿إِنها كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ يعني: مقولها ولا تنفعه ثم قال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ يعني: من بعدهم القبر ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة ويقال: كل حاجز بين الشيئين فهو برزخ ويقال هو بين النفختين وقال قتادة البرزخ بقية الدنيا وقال الحسن: القبر بين الدنيا والآخرة قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ﴾ يعني: النفخة الأخيرة ﴿فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: لا ينفعهم ﴿يومئذ﴾ النسبُ ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن ذلك فهذه حالات لا يتساءلون في موضع ويتساءلون في موضع آخر ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ يعني: الناجون من الآخرة ﴿ومن خفت موازينه﴾ يعني رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِيْ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحَ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ يعني: تنفح قال أهل اللغة: النفح واللفح بمعنى واحد إلا أن اللفح أشد تأثيراً وهو الدفع يعني تضرب وجوههم النار ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ يعني في النار ﴿كَالِحونَ﴾ يعني: كلحت وعبست وجوههم والكلح الذي قد قلصت شفتاه عن أسنانه ونحو ما تُرى من رؤوس الغنم مشوبة إذا بدت الأسنان يعني كلحت وجوههم فلم تلتق شفاههم وقال ابن مسعود كالرأس النضوج ثم قال ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ يعني يقال لهم ألم تكن ﴿آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني ألم يكن يقرأ عليكم القرآن فيه بيان هذا اليوم وما هو كائن فيه ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يعني بالآيات قوله عز وجل ﴿قَالُوا﴾ يعني إن الكفار قالوا

﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي كتبت علينا (والتي قدرت علينا)[١] في اللوح المحفوظ ﴿وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ عن الهدى قرأ حمزة والكسائي شقاوتنا بنصب الشين والألف وقرأ الباقون شِقوتنا بكسر الشين وسكون القاف بغير ألف[٢] وروي عن ابن مسعود شقاوتنا وشقوتنا ومعناهما قريب ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ يعني: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ قال﴾ أي: فحينئذ يقول الله تعالى ﴿إِخْسَئُوا فِيهَا﴾ يعني: اصغروا فيها واسكتوا أي: كونوا صاغرين ﴿وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ولا تكلمون بعد ذلك قال أبو الليث رحمه الله، حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو حفص عن سعيد عن قتادة عن أبي أيوب الأزدي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن أهل النار يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم إنكم ماكثون ثم يدعون ربهم ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فلا يجيبهم مقدار ما كانت الدنيا مرتين ثم يجيبهم إخسئوا فيها ولا تكلمون فوالله ما نبت بعد هذا بكلمة إلا الزفير والشهيق وروي عن ابن عباس أنه قال: لما قال الله تعالى: اخسئوا فيها ولا تكلمون فإنما بقت أفواههم وانكسرت ألسنتهم فمن الأجواف يعوون عواء الكلب ويقال اخسئوا أي: تباعدوا تباعد سخط يقال خسأت الكلب إذا زجرته ليتباعد ثم بين لهم السبب الذي استحقوا تلك العقوبة به فقال ﴿إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ وهم المؤمنون ﴿رَبَّنَا امَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ قوله عز وجل ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ يعني هزواً ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ يعني: أنساكم الهزء بهم العمل بطاعتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ في الدنيا قرأ عاصم وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو (سِخرِيا) بكسر السين وكذلك في سورة ص وكانوا يقرؤون في الزخرف بالرفع قالوا لأن في هذين الموضعين من الاستهزاء وهناك من الزخرف من السخرة والعبودية فما كان من الاستهزاء فهو بالكسر وما كان من التسخير فهو بالضم وقرأ حمزة والكسائي ونافع (سُخْرِياً) كل ذلك بالضم[٣] وقال أبو عبيد: هكذا نقرأ لأنهن يرجعن إلى معنى واحد وهما لغتان سِخْرِيٌّ وسُخْرِيّ وذكر عن الخليل وعن سيبويه[٤] أن كلاهما واحد قوله عز وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَومَ بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: جعلت جزاءهم الجنة وهم المؤمنون بما صبروا يعني بصبرهم على الأذى وعلى أمر الله تعالى ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الناجون قرأ حمزة والكسائي إنهم بكسر الألف على معنى الابتداء والمعنى إني جزيتهم ثم أخبر فقال إنهم هم الفائزون وقال أبو عبيد: وقرأ الباقون أنَّهم بالنصب[٥] أنِّي جزيتهم لأنهم هم الفائزون وقال أبو عبيد: الكسر أحب إلى علي ابتداء المدح من الله تعالى.

---

(١) سقط في أ.

(٢) وهما مصدران تقول شقى من الشقاوة والشَقْوة والشِقْوة كالفطنة والشقاوة كالسعادة. انظر حجة القراءات ٤٩١. والنشر ٢/٣٢٩.

(٣) قال الخليل: (هما لغتان) وقال آخرون: (بل ما كان في الاستهزاء فهو بالكسر وما كان من جهة السخرى فهو بالضم). والكسر أحسن لاتباع الكسرة ويقوي الكسرة قوله (بعدها): ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ والضحك بالهزء أشبه وحجة الرفع: إجماع الجميع على الرفع في سورة الزخرف: ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِياً..﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر حجة القراءات ٤٩٢.

(٤) هو عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه أبو بشر وسيبويه كلمة فارسية معناها بالعربية (رائحة التفاح ولد سنة ١٤٨ أخذ عن الخليل ويونس والأخفش الأكبر كان إمام البصريين في النحو له الكتاب من كتب النحو المشهورة. وفيات الأعيان ٣/٤٦٣، بغية الوعاة ٢/٢٢٩.

(٥) الفتح على وجهين أحدهما أن يكون (أنهم في موضع المفعول الثاني لأن جزيت تتعدى إلى مفعولين قال الله جل وعز: ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ ويجعل (أنهم) في موضع نصب على تأويل (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) الفوز يعني الجنة وإن شئت لم تأت بالمفعول الثاني في (جزيت) فكان معناه: (أثبتهم) ولم تذكر ما أَثْبَتهم) ثم قلت: لأنهم هم الفائزون بأعمالهم السابقة. قال محمد بن يزيد: (التفسير الأول أجود لأن الفوز هو الجزاء وليس بعلة للجزاء) ومن كسر (إنَّ) يقول: إن الكلام مذناه=

قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

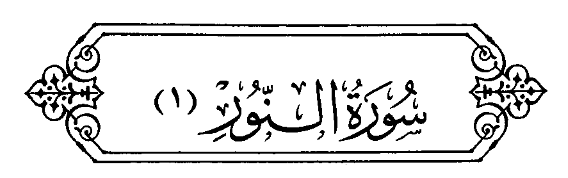
قوله عز وجل: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ يعني: في القبر ويقال في الدنيا ويروى عن ابن عباس في بعض الروايات أنه قال لا أدري في الأرض أم في القبر وقال مقاتل: كَـمْ لَبِثْتُم فِيْ القبر عدد سنين ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْض يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ قال الأعمش: يعني الحافظين وقال مقاتل: يعني ملك الموت وأعوانه وقال قتادة: يعني فاسأل الحساب وقال مجاهد: يعني الملائكة عليهم السلام وهكذا قـال السدي: ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ في القبر أو في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كنتم تَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كنتم تصدقون أنبيائي عليهم السلام في الدنيا لعرفتم أنكم ما مكثتم في القبور إلا قليلاً قرأ حمزة والكسائي وابن كثير قل كم لبثتم على معنى الأمر وكذلك قوله قل إن لبثتم وقرأ الباقون (قال) بالألف[١] وقرأ حمزة والكسائي (فاسال العادين بغير همز وقرأ الباقون فاسأل بالهمزة ثم قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ أي: لعباً وباطلاً لغير شيء يعني: أظننتم أنكم لا تعذبون بما فعلتم ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت قرأ حمزة والكسائي لا ترجعون بنصب التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بضم التاء[٢] ونصب الجيم وكذلك التي في القصص قالوا: لأنها من مرجع الآخرة وما كان من مرجع الدنيا فقد اتفقوا في فتحه مثل قوله: ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال أبو عبيد: وبالفتح نقرأ لأنهم اتفقوا في قوله تعالى: (أَنَّهُمْ لَا يُرْجِعُونَ) وقال إنهم لا يرجعون (وَقَالَ إِنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) كقولـه (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) فأضاف الفعل إليهم ثم قال عز وجل: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ يقول ارتفع وتعظم من أن يكون خلق شيئاً عبثاً وإنما خلق لأمر كـائن ثم وحد نفسه فقال: ﴿لَا إِلَهَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ يعني: السرير الحسن قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ يقول لا حجة له بالكفر ولاعذر يوم القيامة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في الآخرة يعني عذابه ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: لا يأمن الكافرون من عذابه ويقال: معناه جزاء كل كافر أنه لا يفلح الكافرون في الآخرة عند ربهم قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغفر وارحم﴾ يعني: تجاوز عني ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ يعني: من الأبوين وهذا قول الحسن ويقال من غيرك ويقال: إنما حسابه عند ربه فيجازيه كما قال: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ وقل رب اغفر وارحم فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يستغفر للمؤمنين ويسأل لهم المغفرة ويقال: أمره بأن يستغفر لنفسه ليعلم غيره أنه محتاج إلى الاستغفار كما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إني أستغفر الله ربي وأتوب إلى الله في كل يوم سبعين مرة أو قال مائة مرة والله[٣] سبحانه وتعالى أعلم.

= عند قوله: (بما صبروا) ثم أخبر فقال: (إنهم هم الفائزون قال أبو عبيد: هذا مدح من الله لهم كما أشار المصنف. انظر حجة القراءات ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(١) انظر المصدر السابق النشر ٢/٣٣٩.

(٢) حجة من قرأ بنصب التاء قوله تعالى: ﴿وإنا إليه راجعون﴾ وحجة الباقين قوله تعالى ﴿وإليه تقلبون﴾ و﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ انظر حجة القراءات ٤٩٤.

(٣) أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة ١١/١٠١٠. كتاب الدعوات باب استغفار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٦٣٠٧) ومسلم ٤/٢٠٧٥ كتاب الذكر باب استحباب الاستغفار (٤١/٢٧٠٢).



وهي ستون وأربع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ قرأ بعضهم (سُورَةً) بنصب الهاء وقراءة العامة بالضم[٢] فمن قرأ بالضم فمعناه هذه سورة أنزلناها ومن قرأ بالنصب فمعناه: أنزلنا سورة ويقال اقرأ سورة وقد قرئت سؤرة بالهمزة وبغير

---

(١) اشتملت هذه السورة من الأغراض ما يتعلق بأحكام معاشرة الرجال للنساء وآداب الخلطة والزيارة وأول ما نزلت بسببه قضية التزوج بامرأة اشتهرت بالزنى وصدر ذلك ببيان حد الزنى.
- وعقاب الذين يقذفون المحصنات.
- وحكم اللعان.
- والتعرض إلى براءة عائشة رضي الله عنها مما أرجفه عليها أهل النفاق. وعقابهم والذين شاركوهم في التحدث به.
- والزجر عن حب إشاعة الفواحش بين المؤمنين والمؤمنات.
- والأمر بالصفح عن الأذى مع الإشارة إلى قضية مسطح بن أثاثة.
- وأحكام الإستئذان في الدخول إلى بيوت الناس المسكونة ودخول البيوت غير المسكونة.
- وآداب المسلمين والمسلمات في المخالطة.
- وإفشاء السلام.
- والتحريض على تزويج العبيد والإماء.
- والتحريض على مكاتبتهم أي إعتاقهم على عوض يدفعونه لمالكيهم.
- وتحريم البغاء الذي كان شائعاً في الجاهلية.
- والأمر بالعفاف.
- وذم أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويتهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم -.
- والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.
- وضرب المثل لهدى الإيمان وضلال الكفر.
- والتنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها.
- وتخلل ذلك وصف نعمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته وما فيها من منن على الناس.
- وقد أردف ذلك بوصف ما أعد الله للمؤمنين وأن الله علم بما يضمره كل واحد وأن المرجع إليه والجزاء بيده. انظر التحرير ١٤٠ - ١٤١.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٩١.

همز فمن قرأ بالهمز جعلها من أسأرت يعني: أفضلت كأنها قطعة من القرآن ومن لم يهمز جعلها من سور المدينة (سوراً) وقال النابغة للنعمان ابن المنذر:

ألـم تـر أن الله أعـطاك سـورة ترى كـل ملك دونهـا يتـذبـذب[1]

وإنما خص هذه السورة بذكر السورة لما فيها من الأحكام فذلك كله يرجع إلى أمر واحد وهو أمر النساء ثم قال تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ يعني: بيَّنا حلالها وحرامها وقال القتبي: أصل الفريضة الوجوب وهاهنا يجوز أن يكون بمعنى بيّناها وقد يجوز أوجبنا العمل بما فيها وقال بعض أهل اللغة[2]: أصل الفرض هو القطع ولهذا سمي ما يقطع من حافة النهر فرضة ويسمى الموضع الذي يقطع من السواك أي ليشد فيه الخيط فرض ولهذا يسمى الميراث فريضة لأن كل واحد قطع له نصيب معلوم قرأ ابن كثير وأبو عمرو (وَفَرَّضْنَاهَا) بتشديد الراء وقرأ الباقون بالتخفيف[3] فمن قرأ بالتخفيف، فمعناه ألزمناكم العمل بما فرض ومن قرأ بالتشديد فهو على وجهين أحدهما على معنى التكثير أي إنا فرضنا فيها فروضاً ومعنى آخر وبيَّنا وفصلنا فيها من الحلال والحرام ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا﴾ يعني في السورة ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: الحدود والفرائض والأمر والنهي ويقال: الآيات يعني العلامات والعبرات ويقال: يعني آيات القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: تتعظون فلا تعطلون الأحكام والحدود قوله عز وجل: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ وقرأ بعضهم: (الزَّانيةَ)بالنصب على معنى اجلدوا الزانية والزاني وهكذا السارق والسارقة بالنصب على هذا المعنى ويقال: في الزنا بدأ بذكر المرأة لأن الزنا في النساء أكثر وفي السرقة بدأ بالرجال لأن السرقة في الرجال أكثر وقراءة العامة بالرفع على معنى الابتداء وقيل: إنما بدأ بالمرأة لأنها أحرص على الزنا من الرجال ويقال لأن الفعل ينتهي إليها ولا يكون إلا برضاها ثم قال: ﴿فَاجْلِدُوا[4] كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يعني: إذا كانا غير محصنين ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير رآفة بالهمزة والمد وقرأ أبو عمرو بالمد بغير همز وقرأ الباقون بالهمز بلا مد[5] ومعنى الكل واحد وهو الرحمة وقال بعضهم: الرأفة اسم جنس والرحمة إسم نوع قال بعضهم الرأفة للمذنبين والرحمة للتائبين وهو قول سفيان الثوري وقال بعضهم الرأفة تكون دفع المكروه والرحمة إيصال المحبوب يعني: لا يحملنكم الشفقة عليهما على ترك الحد ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: في دين الله أي: في حكم الله إن كنتم تؤمنون بالله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: يوم القيامة وإنما سمي اليوم الآخر لأنه لا يكون بعده ليل ولا نهار فيصير كله بمنزلة يوم واحد وقد قيل: إنه تجتمع الأنوار كلها وتصير في الجنة يوماً واحداً وجمعت الظلمات كلها في النار وتصير كلها ليلة واحدة ثم قال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ليحضر عند إقامة الحد طائفة من المؤمنين وفي حضور الطائفة ثلاث فوائد أولها: أنهم يعتبرون بذلك ويبلغ الشاهد الغائب والثانية: أن الإمام إذا إحتاج إلى الإعانة أعانوه والثالثة: لكي يستحي المضروب فيكون زجراً له من العود إلى مثل

---

(١) البيت للنابغة الذبياني انظر ديوانه ص ١٣ وانظر المصون لأبي أحمد العسكري ١٥٤.

(٢) انظر لسان العرب ٥/٣٣٨٧.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٩٤، النشر ٢/٣٣٠.

(٤) لا خلاف أن المخاطب بهذا الأمر الإمام ومن ناب منابه وزاد الشافعي ومالك: السادة في العبيد قال الشافعي: في كل جلد وقطع وقال مالك: في الجلد دون القطع وقال أبو حنيفة: لا يقيمه إلا الإمام. وقيل: الخطاب للمسلمين لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين ثم الإمام ينوب عنهم إذ لا يمكنهم الإجتماع على إقامة الحدود. انظر تفسير القرطبي ١٢/١٠٨ التحرير والتنوير ١٨/١٤٨.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٩٥، إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٩٢.

ذلك الفعل وقال الزهري: الطائفة ثلاثة فصاعداً وذكر عن أنس بن مالك أنه قال: أربعة فصاعداً لأن الشهادة على الزنا لا تكون أقل من أربعة وقال بعضهم: اثنان فصاعداً وقال بعضهم: الواحد فصاعداً وهو قول أهل العراق وهو استحباب وليس بواجب وروي عن ابن عباس أنه قال رجلان وعن مجاهد قال: واحد فما فوقه طائفة وروي عن ابن عباس مثله.

ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً يقال له مرثد بن أبي مرثد قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أأنكح عناقاً يعني امرأة بغية كانت بمكة قال: فسكت عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلت هذه الآية (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً) ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فقال: يا مرثد لا تنكحها[1] وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ليس هو على النكاح ولكنه الجماع[2] ويقال إن أصحاب الصفة استأذنوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يتزوجوا الزواني وكانت لهن رايات كعلامة البيطار ليُعرف أنها زانية وقالوا لنا في تزويجهن مراد فأذن لنا فإنهن أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيراً والمدينة غالية السعر وقد أصابنا الجهد فإذا جاءنا الله تعالى بالخير طلقناهن وتزوجنا المسلمات فنزلت الآية الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة[3] وقال سعيد بن جبير والضحاك: الزاني لا ينكح إلا زانية أي لا يزني حين يزني إلا بزانية مثله في الزنا والزانية لا تزني إلا بزان مثلها في الزنا ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: الزنا وقال الحسن البصري: الزاني المجلود بالزنا لا ينكح إلا زانية مجلودة مثله في الزنا وروي عن علي بن أبي طالب أن مجلوداً تزوج امرأة غير مجلودة ففرق بينهما[4] ويقال: أراد به النكاح لا ينكح يعني لا يتزوج وكان التزويج حراماً بهذه الآية ثم نسخ بما روي أن رجلاً قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن امرأتي لا ترد يد لامس فقال: طلقها، قال: إني أحبها، فقال: أمسكها وقال سعيد[5] بن المسيب الزاني لا ينكح إلا زانية كانوا يرون الآية التي بعدها

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/٢٢٠ كتاب النكاح باب في قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ (٢٠٥١) والترمذي ٥/٣٠٧ كتاب تفسير القرآن (٣١٧٧) والنسائي ٦/٦٦ كتاب النكاح.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٩ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي داود في ناسخه والبيهقي في السنن والضياء المقدس في المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٢/١١٣، أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٢٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠ وعزاه لابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن من حديث ابن عباس ٢/٥٤١ كتاب النكاح باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء الحديث (٢٠٤٩) وأخرجه النسائي ٦/١٦٩ ـ ١٧٠ كتاب الطلاق باب ما جاء في الخلع وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/١٥٤ ـ ١٥٥ كتاب النكاح باب ما يستدل به على قصر الآية..

وأخرجه من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلاً الشافعي في المسند ٢/١٥ كتاب النكاح الباب الثالث في الترغيب في الزواج الحديث (٣٧) وأخرجه النسائي ٦/٦٧ ـ ٦٨ كتاب النكاح باب التزويج الزانية وأخرجه من طريقين الأولى: عن هارون من رئاب

نسختها (وأنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم)[1] الآية ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني: يقذفون العفائف من النساء الحرائر المسلمات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على صدق مقالتهم ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ يقول: للحكام ويقال هذا الخطاب لجميع المسلمين ثم إن المسلمين فوضوا الأمر إلى الإمام وإلى القاضي ليقيم عليهم الحد ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ يعني: ثمانين سوطاً ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ أي: لا تقبلوا لهم شهادة بعد إقامة الحد عليهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني: العاصين قال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني: القذف ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ يعني: العمل بعد التوبة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم بعد التوبة ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة وقال شريح: يقبل توبته فيما بينه وبين الله تعالى فأما شهادته فلا تقبل أبداً وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: إذا تاب ذهب عنه الفسق ولا تقبل شهادته أبداً وروي عن ابن عباس أنه قال (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) تاب الله عليهم من الفسق وأما الشهادة فلا تقبل أبداً وهكذا عن سعيد بن جبير ومجاهد وروي عن جماعة من التابعين أن شهادته تقبل إذا تاب مثل عطاء وطاوس وسعيد بن المسيب والشعبي وغيرهم وهو قول أهل المدينة والأول قول أهل العراق وبه نأخذ.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

ثم قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ يعني: يقذفون أزواجهم بالزنا قال أبو الليث: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا أبو الحسن علي بن أحمد قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا يزيد بن هارون عن عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس (عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ)[2] قال: لما نزل والذين يرمون المحصنات الآية قال مسعد بن عبادة وهو سيد الأنصار أهكذا أنزلت يا رسول الله فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا معشر الأنصار لا تسمعون إلى ما يقول سيدكم فقال سعد والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وإنها من الله تعالى ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله إني لا آتي بأربعة شهداء حتى يقضي حاجته قال فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاء فوجد عند امرأته رجلاً فرأى بعينه وسمع بإذنه فلم ينجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله: إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني فكره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت الأنصار فقالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة

= عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلاً والثانية: عن عبد الكريم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن ابن عباس موصولاً مرفوعاً وقال (هذا الحديث ليس بثابت وعبد الكريم ليس بالقوي وهارون بن رئاب أثبت منه وقد أرسل الحديث وهارون ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم).

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد الرحمن بن حميد وأبي داود وأبي عبيد معاً في التاريخ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) سقط في ظ.

الآن يضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هلال بن أمية ويبطل شهادته في المسلمين فقال هلال والله إني لأرجو أن يجعل الله لي مخرجاً فوالله إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي فعرفوا بذلك في تربد[١] وجهه فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزل والذين يرمون أزواجهم ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ فسري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: أبشر يا هلال فقد جعل الله لك مخرجاً فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهما وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليهما فقالت كذب علي فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لاعنوا بينهما فقيل لهلال إشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فلما كانت الخامسة قيل يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب قال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم قيل لها إشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فلما كانت الخامسة قيل لها اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فمكثت ساعة ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهما وقضى أن لا يدعي ولدها لأب وقال إن جاءت به أصيهب أريسج أثيبج خمش الساقين فهو لهلال وإن جاءت به أورق[٢] جعداً[٣] جمالياً[٤] خدلج الساقين[٥] سابغ الإليتين[٦] فهو للذي رميت به فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الإليتين فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لولا الايمان لكان لي ولها[٧] شأن،[٨] قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر ولا يدعي لأب وروى بن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي أن عويمر العجلاني أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله أرأيت إن وجد الرجل مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه أو كيف يفعل قال: قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك قرآناً فاذهب فأت بها فتلاعنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما فرغا قال: كذبت عليها يا رسول الله إني أمسكتها فهي طالق ثلاثاً فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٩] قال ابن شهاب: تلك سنة المتلاعنين وفي رواية أخرى أنه فرق بينهما وقال الزهري: صار ذلك سنة في المتلاعنين فذلك قوله: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) يعني: الزوج

---

(١) تربد وجهه أي في إحمرار وجهه وتغيره. انظر لسان العرب ١٥٥٥/٣.

(٢) الأورق من الناس الأسمر والسمرة الورقة أنظر لسان العرب ٤٨١٧/٦.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية ٢٧٥/١: في حديث الملاعنة (إن جاءت به جعداً) الجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً فالمدح معناه أن يكون شديد الأسر والخلق أو يكون جعد الشعر وهو ضد السبط وأما الذم فهو القصير المتردد الخلق وقد يطلق على البخيل أيضاً.

(٤) رجل جمالي أي ضخم الأعضاء نام الخلق على التشبيه بالجمل لعظمه. انظر لسان العرب ٦٨٤/١.

(٥) الخدل الغليظ الممتلىء الساق. انظر لسان العرب ١١١٤/٣.

(٦) قال ابن منظور: في حديث الملاعنة: إن جاءت سابغ الاليتين أي عظيمهما من سبوغ الثوب والنعمة. انظر لسان العرب ١٩٢٧/٣.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣/٥. وعزاه لأبي يعلى وابن مردويه عن أنس.

(٨) أخرجه أبو داود ٢٧٦/٢ كتاب الطلاق (٢٢٥٦) وأخرجه البخاري بنحوه ٤٤٩/٨ كتاب التفسير (٤٧٤٧).

(٩) أخرجه البخاري ٤٤٩/٨ كتاب التفسير باب ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ (٤٧٤٥)، ومسلم ١١٢٩/٢، ١١٣٤ كتاب اللعان (١٤٩٢/١).

خاصة ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: يحلف الزوج أربع مرات فيقول (في كل مرة) أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أني صادق فيما رميتها به من الزنا ﴿والخامسة﴾ يعني: ويقول في المرة الْخَامِسَةِ ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا قوله: ﴿وَيَدْرَؤُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يعني: يدفع الحاكم الحد عن المرأة ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: بعد ما تحلف المرأة أربع مرات فتقول في كل مرة أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أن الزوج من الكاذبين في قوله: ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ يعني: وتقول المرأة في الخامسة ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في مقالته قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص أربع شهادات بضم العين وقرأ الباقون بالنصب[1] فمن قرأ بالضم يكون على معنى خبر الابتداء فشهادة أحدهم التي تدرؤ حد القذف أربع شهادات ومن (قرأ بالنصب فالمعنى فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات)[2] قال أبو عبيد: وبهذا نقرأ ومعناه فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات فيكون الجواب في قوله إنه لمن الصادقين وقرأ عاصم أن لعنة الله بتخفيف أَنْ والجزم وقرأ الباقون بالتشديد وقرأ عاصم في رواية حفص (والخامسة أن غضب الله عليها) بالنصب وقرأ الباقون بالرفع[3] فإذا فرغا من اللعان فرق القاضي بينهما (وقال بعضهم: بعد اللعان وهو قول الشافعي رحمه الله أوفى قول علمائنا رحمهم الله لا تقع الفرقة ما لم يفرق بينهما ثم قال عز وجل):[4] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ وجوابه: مضمر ومعناه: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لبين لكم الصادق من الكاذب ويقال ولولا فضل الله عليكم ورحمته لنال الكاذب منكم بما ذكرناه من عذاب عظيم ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ يعني: تواب لمن تاب ورجع حكيم بينهما بالملاعنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ يعني: قالوا بالكذب وقال الأخفش الإفك أسوأ الكذب وهذه الآية نزلت ببراءة عائشة رضي الله عنها قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: أخبرني الثقة بإسناده عن عائشة رضي الله عنها[5] أنها قالت: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد أن يخرج في سفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه قالت فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب وكان ذلك في غزوة بني المصطلق قالت: فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه في مسيرنا حتى إذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوته وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فحملوا هودجي ورحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب قالت: فجلست

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٥، النشر ٢/ ٣٣٠. (٢) سقط في ظ. (٣) المصدران السابقان.
(٤) سقط في أ. (٥) ذكره ابن كثير في تفسيره ٦/١٨ ـ ١٩.

مكاني فظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي إذ غلبني النوم فنمت وقد كان صفوان بن المعطل السلمي يمكث في المعسكر إذا ارتحل الناس يتبع ما يقع من الناس من أمتعتهم فيحمله إلى المنزل الآخر فيعرفه فتجيء الناس ويأخذون أمتعتهم وكان لا يكاد يذهب من العسكر شيء فأصبح صفوان عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب على الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي فوالله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فركبتها فانطلق بي يقود بي الراحلة قالت: وكان عبد الله بن أبيّ إذا نزل في العسكر نزل في أقصى العسكر فيجتمع إليه ناس فيحدثهم ويتحدثون قالت: وكان معه في مجلسه يومئذ حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة فافتقد الناس عائشة حين نزلوا صحوة وهاج الناس في ذكرها أن عائشة قد فقدت (ودخل علي بن أبي طالب على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبر أن عائشة قد فقدت)[١] فبينما الناس كذلك إذ دنا صفوان بن المعطل فتكلم عبد الله بن أبي بما تكلم وحسان بن ثابت وسائرهم وأفشوه في العسكر وخاض أهل العسكر فيه فجعل يرويه بعضهم من بعض ويحدث بعضهم بعضاً قالت: وقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل ويسلم ثم يقول كيف تيكم فذلك يُريبُني ولا أشعر بالسر فلما رأيت ذلك قلت يا رسول الله لو أذنت لي فانقلبت إلى أبوي يمرضاني قال: لا بأس عليك وإنما قلت ذلك لما رأيت من جفائه قالت: فانقلبت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان حتى قمت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة قالت: وكانوا لا يتخذون الكنف في بيوتهم إنما كانوا يذهبون في فسح المدينة قالت: فخرجت في بعض الليل ومعي أم مسطح حتى فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فقالت: تعس مسطع فقلت لها: بئس ما صنعت تسبين رجلاً وقد شهد بدراً فقالت: أولم تسمعي ما قال: قلت: وماذا قال قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي وأخذتني الحمى مكاني فرجعت أبكي ثم قلت لأمي: يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي منه شيئاً فقالت: هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط رضية عند رجل يحبها ولها ضرائر لأكثرت عليها قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقا[٢] لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله فأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك والنساء كثير فاستبدل وأما أسامة بن زيد فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله ما علمت منها إلا خيراً فلا تعجل وانظر واسأل أهلك قال: فسأل حفصة بنت عمر عنها فقالت: يا رسول الله ما رأيت عليها سوءاً قط وسأل زينب بنت جحش فقالت: مثل ذلك وسأل بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من أمر عائشة قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق نبياً ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله قالت: فأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى دخل علي وعندي أبواي فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة لقد بلغك ما يقول الناس فإن كان ما يكون منك زلة ما يكون من الناس فتوبي إلى الله تعالى فإن الله يقبل التوبة عن عباده فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فانتظرت أبواي أن يجيبا عني فلم يفعلا فقلت: يا أبت أجبه فقال ماذا أقول فقلت: يا أماه أجيبيه فقالت: ماذا أقول ثم استعبرت فبكيت فقلت: لا والله لا أتوب مما ذكروني به وإني لأعلم

---

(١) سقط في آ.

(٢) لا يرقأ لي دمع أي لا ينقطع ولا يجف لي دمع. انظر لسان العرب ١٦٩٩/٣.

أنني لو أقررت بما يقول الناس لقلت وأنا منه بريئة ولا أقول فيما لم يكن حقاً ولئن أنكرت فلا تصدقني قالت: ثم أنسيت اسم يعقوب فلم أذكره فقلت ولكني أقول كما قال العبد الصالح أبو يوسف (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) قالت: فوالله ما برح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تغشاه من الله ما كان يغشاه قالت: أنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله عز وجل يبرئني ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله في شأني وحياً يتلى ولساني كان أحقر من أن يتكلم الله في بقرآن يقرأ به في المساجد ولكنني كنت أرجو أن يرى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في منامه شيئاً ببراءتي فلما سري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال:

يا عائشة أبشري أما والله فقد برأك الله تعالى فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى هو الذي أنزل براءتي[١] وفي رواية قالت: أحمد الله تعالى وأذمكم قالت: فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي برجل ما رأيت عليه سوءاً قط ولا دخل على أهلي إلا وأنا معه فقام سعد بن معاذ فقال أخبرنا يا رسول الله من هو فإن يكن من الأوس نقتله وإن يكن من الخزرج نرى فيه رأياً أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن حملته الحمية فقال: كلا ولكنها عداوتك للخزرج قال فاسْتَبَّا فقام أسيد بن حضير الأوسي وقال: يا سعد بن عبادة أتقول هذا كلا والله ولكنك منافق تحب المنافقين فاستب حي هذا وحي هذا فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللغط[٢] نزل وتركهم وقد تلى عليهم ما أنزل الله عليه[٣] في أمر[٤] عائشة رضي الله عنها (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) يعني: جماعة منكم وهو ما قال عبد الله بن أبي وأصحابه ما برئت عائشة من صفوان وما برىء عنها صفوان والعصبة[٥] عشرة فما فوقها كما قال الكلبي ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ يعني: عائشة ومن كان ينسبها والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبا بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأنه لو لم يكن قولهم لم يظهر فضل عائشة رضي الله عنها وإنما ظهر فضل عائشة بما صبرت على المحنة فنزل بسببها سبعة عشر آية من القرآن من قوله (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ) إلى قوله: (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ووجه آخر بل هو خير لكم لأنه يؤخذ من حسناته ويوضع في ميزانه يعني: عائشة وصفوان وهذا خير له ثم قال: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ يعني: لكل واحد منهم العقوبة بمقدار ما شرع في ذلك الأمر لأن بعضهم قد تكلم بذلك وبعضهم ضحك وبعضهم سكت فكل واحد منهم ما اكتسب من الإثم بقدر ذلك ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ يعني: الذي تكلم بالقذف ﴿مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: الحد في الدنيا فأقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحد عليهم وكان حميد[٦] يقرأ والَّذي تَوَلَّى كُبْرَهُ بضم الكاف يعني: عظمه قال أبو عبيد: والقراءة عندنا بالكسر وإنما الكبر في النسب وفي الولاء.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٤ ـ ٢٥ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد والبخاري وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

(٢) اللغط واللغط: الأصوات المبهمة المختلطة والجلبة التي لا تفهم وقيل: هو الكلام الذي لا يبين. انظر لسان العرب ٥/ ٤٠٤٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٦ ـ ٢٧ وعزاه للبخاري والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ٧٦.

(٥) قال ابن منظور: والعصبة والعصابة جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين وفي التنزيل (ونحن عصبة) وقال الأخفش: العصبة والعصابة جماعة ليس لها واحد. انظر لسان العرب ٤/ ٢٩٦٥.

(٦) حميد بن قيس الأعرج أبو صفوان المكي القارىء ثقة أخذ القراءة عن مجاهد بن جبير وعرض عليه ثلاث مرات توفي سنة ثلاثين ومائة. طبقات القراء ١/ ٢٦٥.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني: هلا إذ سمعتم قذف عائشة وصفوان ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾ يعني: هلا ظننتم به كظنكم بأنفسكم ويقال ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم كظن المؤمنين والمؤمنات بأمثالهم وبأهل دينهم خيراً ويقال يعني: هلا ظننتم كما ظن المؤمنون والمؤمنات ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ يعني: هلا قلتم حين بلغكم هذا الكذب هذا كذب بيّن وعلمتم أن أمكم لا تفعل ذلك ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يعني: هلا جاءوا بها ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ في قولهم اللفظ لفظ الماضي والمراد به المستقبل يعني اطلبوا منهم أربعة شهداء فإن لم يأتوا بها فأقم عليهم الحد ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ يعني: منته ونعمته عليكم ﴿فِيْ الدُّنْيَا والآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ يعني: أصابكم ﴿فِيمَا أَفَضْتم فِيْهِ﴾ يعني: فيما قلتم من القذف ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة على وجه التقديم قوله عز وجل ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يرويه بعضكم من بعض ويتلقاه بعضكم من بعض وقرىء (إذ تلِقُونه) بكسر اللام وضم القاف والتخفيف أي: تكذبون بألسنتكم ويقال: معناه تسرعون إلى الكذب يقال ولق يلق إذا أسرع إلى الكذب وروى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقرأ (إِذْ تَلِقونه) بكسر اللام[1] وقال ابن أبي مليكة هي أعلم لأن الآية نزلت فيها وروي عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ إذ يتلقونه وقال أبو عبيد: لولا قراءة أبي وكراهة الخلاف على الناس ما كان أحد أولى أن يتبع فيها من عائشة كما احتج ابن أبي مليكة ثم قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من الفرية ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً﴾ أي: تحسبون عقوبته هينة ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر والعقوبة.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني: وهلا إذ سمعتم القذف ﴿قُلْتُم مَا يَكُونَ لَنَا﴾ يعني: ما ينبغي لنا ولا يجوز لنا ﴿أَنْ نَتَكَلَّم بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ وفي هذا بيان فضل عائشة رضي الله عنها حيث نزهها الله باللفظ الذي نزه به نفسه وهو لفظ سبحان الله ويقال: سبحان الله أن تكون امرأة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ زانية ما كانت امرأة نبي زانية قط ثم وعظ الذين يخوضون في أمر عائشة فقال عز وجل: ﴿يَعِظُكُم اللَّهُ﴾ يعني: ينهاكم الله عز وجل: ﴿أَنْ تَعُودُوا لمثله أبداً﴾ يعني: القذف ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بالله وبرسوله عليه السلام

(١) انظر تفسير القرطبي ١٢/١٣٦.

وباليوم الآخر ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: الأمر والنهي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ونزل في عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ يعني: يظهر الزنا ويفشو ويقال: تحبوا ما شاع لعائشة رضي الله عنها من الثناء السيء[1] ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: عائشة وصفوان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ الحد ﴿وَالآخِرَةِ﴾ النار إن لم يتوبوا ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ﴾ أنهما لم يزنيا ﴿وَأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك منهما ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ وجوابه مضمر يعني: لولا منُّ الله عليكم ونعمته لعاقبكم فيما قلتم في أمر عائشة وصفوان ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالعقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: (لا تتبعوا) تزيين الشيطان ووساوسه بقذف المؤمنين والمؤمنات ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ وفي الآية مضمر ومعناه ومن يتبع خطوات الشيطان وقع في الفحشاء والمنكر ﴿فَإِنَّه﴾ يعني: به الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ يعني: المعاصي ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سنة وروي عن أبي مجلز قال: خطوات الشيطان النذور في معصية الله تعالى فيه قال: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ﴾ يعني: ما ظهر وما صلح منكم ﴿مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ يعني: أحداً ومن صلة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّيْ﴾ يعني: يوفق للتوحيد ﴿مَنْ يَشَاء﴾ ويقال: ما زكى أي ما وحد ولكن الله يزكي أي يطهر ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَقالتهم ﴿عليم﴾ بهم ثم قال عز وجل: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ﴾ يعني: لا يحلف وهو يفتعل من الألية وهي اليمين قرأ أبو جعفر المدني وزيد بن أسلم ولا يتأل على معنى يتفعل ويقال: معناه ولا يدع أن ينفق ويتصدق وهو يتفعل من ألوت أني أصنع كذا ويقال ما ألوت جهدي أي: ما تركت طاقتي وذلك أن أبا بكر كان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره فلما تكلم بما تكلم به حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق عليه فنزلت هذه الآية ولا يَأْتَلِ ﴿أُوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُم﴾ في طاعة الله لأنه كان أفضل الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ يعني: السعة في المال وهذا من مناقب أبي بكر رضي الله عنه حيث سماه الله أولو الفضل في الإسلام ويقال: ولا يأتل يعني ولا يحلف أولو الفضل منكم يعني أولو الغنى والسعة في المال والأول أشبه لكي لا يكون حمل الكلام على التكرار ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ أولي القربى يعني: لا يحلف أن لا يعطي ولا ينفق على ﴿أُوْلِي الْقُرْبَى﴾ يعني: على ذوي القربى وهو

---

(١) من أدب هذه الآية أن شأن المؤمن أن لا يحب لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه فكما أنه لا يحب أن يشيع عن نفسه خبر سوء كذلك يجب عليه أن لا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو بالكذب مفسدة أخلاقية فإن مما يزع الناس عن المفاسد تهيبهم. وقوعها وتجهمهم وكراهتهم سوء سمعتها وذلك مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها بله الإقدام عليها رويداً رويداً حتى تنسى وتنمحي صورها من النفوس فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكرتها الخواطر وخف وقع خبرها على الأسماع فدب بذلك إلى النفوس التهاون بوقوعها وخفة وقعها على الأسماع فلا تلبث النفوس الخبيثة أن تقدم على اقترافها وبمقدار تكرر وقوعها وتكرر الحديث عنها تصير متداولة. هذا إلى ما في إشاعة الفاحشة من لحاق الأذى والضر بالناس ضراً متفاوت المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب. انظر التحرير ١٨٥.

مسطح ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكان مسطح من فقراء المهاجرين ومن أقرباء أبي بكر ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ يقول: ليتركوا وليتجاوزوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فقال أبو بكر: أنا أحب أن يغفر الله لي فقد تجاوزت عن قرابتي ويقال: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لأبي بكر: ألا تحب أن يغفر الله لك قال نعم فقرأ عليه هذه الآية وأمره بأن ينفق على مسطح[١] وفي الآية دليل على أن من حلف على أمر فرأى الحنث أفضل منه فله أن يحنث ويكفر عن يمينه ويكون له ثلاثة أجور أحدها ائتماره بأمر الله تعالى والثاني أجر بره وذلك صلته في قرابته والثالث أجر التكفير ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: غفور لذنوبكم رحيم بالمؤمنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني: العفائف ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ يعني: عن الزنا والفواحش ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: المصدقات بالألسن والقلوب ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وأصل اللعنة هي الطرد[٢] والبعد ويقال للشيطان اللعين لبعده عن الرحمة وروي في الخبر أن يوم القيامة تكون هذه الأمة شاهدة على الأمم الأولين إلا الذين تجري على لسانهم اللعنة وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سمع رجلاً يلعن بعيره فقال أتلعنها وتركبها فنزل عنها ولم يركبها أحد[٣] قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي شديد يوم القيامة وذكر أن حسان بن ثابت ذهب بصره في آخر عمره فدخل يوماً على عائشة فجلس عندها ساعة ثم خرج فقيل لها إن الله تعالى قال: (لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) فقالت عائشة: أوليس هذا أعظم يعني: ذهاب بصره ويقال عذاب عظيم إن لم يتوبوا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما تكلموا ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يعني: يوفيهم جزاء أعمالهم قرأ حمزة والكسائي يشهد بالياء بلفظ المذكر والباقون بالتاء بلفظ التأنيث[٤] لأن الفعل مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث وقرأ مجاهد (الْحَقُّ) بضم القاف فيكون الحق نعت لله وتكون قراءة أبي بن كعب شاهدة له كأنه يقول يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم وقراءة العامة الحق بالنصب وإنما يكون نصباً لنزع الخافض أي: يوفيهم الله ثواب دينهم بالحق أي: بالعدل وجه آخر أن يكون الحق نعتاً للدين ويكون كقوله (حَقاً) ثم يدخل عليه الألف واللام قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي: عبادة الله

---

(١) ذكره بنحوه في مجمع الزوائد ٨٢/٧ وعزاه للطبراني وقال فيه ابن لهيعة وفيه ضعف.

(٢) انظر لسان العرب ٤٠٤٤/٥.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه من حديث عمران بن حصين قال: بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد. مسلم ٢٠٠٤/٤ كتاب البر والصلة (٨٠ - ٢٥٩٥) وأحمد في المسند ٤٣١/٤ والطبراني في الكبير ١٩٠/١٨.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٩٦، النشر ٣٣١/٢.

هي الحق المبين ويقال ما يعلمون أن ما قال الله هو الحق ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ قال الكلبي: الخبيثات من الكلام للخبيثين من الرجال يعني عبد الله بن أبي ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من الكلام على معنى التكرار والتأكيد ويقال الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال مثل عبد الله بن أبي تكون له زوجة خبيثة زانية وامرأة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تكون زانية خبيثة ويقال: الخبيثات للخبيثين يعني: لا يتكلم بكلام الخبيث إلا الخبيث ولا يليق إلا بالخبيث ويقال الكلمات الخبيثات إنما تلتصق بالخبيثين من الرجال ثم قال: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ يعني: الطيبات من الكلام للطيبين من الرجال ويقال الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ على معنى التكرار والتأكيد ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني: عائشة رضي الله عنها وصفوان مما يقولون من الفرية ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: رزقاً في الجنة كثيراً ويقال كريم يعني: حسن وذكر عن ابن عباس أنه دخل على عائشة رضي الله عنها في مرضها الذي ماتت فيه فذكرت ما كان منها من الخروج في يوم الجمل وغيره فقال لها ابن عباس أبشري فإن الله تعالى يقول (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) والله تعالى ينجز وعده فسري بذلك عنها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ يعني: بيوتاً ليست لكم حتى تستأنسوا يعني: حتى تستأذنوا وروي عن سعيد بن جبير أن عبد الله بن عباس كان يقرأ حتى تستأذنوا ويقال تستأذنوا خطأ من الكاتب[1] وروي عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال أخطأ الكاتب في قوله حتى تستأنسوا، وقراءة العامة تستأنسوا وقال القتبي الاستئناس أن تعلم من في الدار يقال استأنست فما رأيت أحداً أي استعلمت وتعرفت ومنه قوله (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً) أي علمتم وروي عن[2] عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال جاءت امرأة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها أحد فيأتي الأب فيدخل فكيف أصنع قال ارجعي[3] فنزلت هذه الآية (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ قال مجاهد؛ وهو التنحنح ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني: التسليم والاستئذان خير لكم من أن

---

(١) قال القرطبي بعد ذكره ما ذكره المصنف: هذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها (حتى تستأنسوا) وصح الإجماع فيها من لدن مدة عثمان فهي التي لا يجوز خلافها وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس وقد قال عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ وقد روي عن ابن عباس أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا حكاه أبو حاتم وقال ابن عطية: ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس وغيره أن تستأنسوا متمكنة في المعنى بينة الوجه في كلام العرب. انظر الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٤٢.

(٢) عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي ثقة رمي بالتشيع مات سنة ست عشرة. التقريب ٢/١٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٨ والواحدي في أسباب النزول ١٨٠، والطبري في تفسير ١٨/١١١.

تدخلوا بغير إذن وسلام ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن التسليم والإستئذان خير لكم قال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً﴾ يعني: في البيوت يأذن لكم في الدخول ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدخول ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تقيموا على أبواب الناس فلعل لهم حوائج ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ يعني: الرجوع أصلح لكم من القيام والقعود على أبواب الناس ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ إذا دخلتم بإذن أو بغير إذن ثم رخص لهم في البيوت على طريق الناس مثل الرباطات والخانات وذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله فكيف بالبيوت التي بين الشام ومكة والمدينة التي على ظهر الطريق ليس لها ساكن فنزل قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ مثل الخانات وبيوت السوق ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ يعني: منافع لكم ويقال في الخربات التي يدخل فيها لقضاء الحوائج فيها منفعة لكم ويقال في الخانات منفعة لكم من الحر والبرد ﴿والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من التسليم والاستئذان.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ يعني: يكفوا أبصارهم ومن صلة في الكلام ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل لهم وقال أبو العالية الرياحي: كلما ذكر حفظ الفرج في القرآن أراد به الحفظ عن الزنا إلا هاهنا فإن المراد به هاهنا الستر عن النظر يعني: قل للمؤمنين يغضوا أبصارهم عن عورات النساء ويحفظوا فروجهم عن أبصار الناس وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - [لعلي رضي الله عنه يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والأخرى عليك][1] وروي عن عيسى بن مريم أنه قال: إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب

(١) أخرجه أبو داود ٢/٦١٠ كتاب النكاح باب ما يؤمر به من غض البصر (٢١٤٩). والترمذي ٥/١٠١ كتاب الأدب باب ما جاء في

قوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ وأطهر من الزينة يعني غض البصر والحفظ خير لكم من ترك الحفظ والنظر ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: عالم بهم قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ يعني: يحفظن أبصارهن عن الحرام ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الفواحش ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: لا يظهرن مواضع زينتهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: وجهها وكفيها وهكذا قال إبراهيم النخعي وروي أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الوجه والكفان وهكذا قال الشعبي وروى نافع عن ابن عمر أنه قال: الوجه والكفان وقال مجاهد: الكحل والخضاب وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: الكحل والخاتم وروي عن ابن عباس في رواية أخرى إلا ما ظهر منها أي: فوق الثياب وروى أبو إسحاق عن ابن مسعود أنه قال ثيابها[1] وروي عن ابن مسعود رواية أخرى أنه سئل عن قوله (إلا ما ظهر منها) فتقنع عبد الله بن مسعود وغطى وجهه وأبدى عن إحدى عينيه ثم قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: على الصدر والنحر قال ابن عباس: وكان النساء قبل هذه الآية (يسدلن خمرهن من ورائهن كما تفعل النبط فلما نزلت هذه الآية)[2] سدلن الخمر على الصدر والنحر ثم قال ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: لا يظهرن مواضع زينتهن وهو الصدر والساق والساعد والرأس لأن الصدر موضع الوشاح والساق موضع الخلخال والساق موضع السوار والرأس موضع الإكليل فقد ذكر الزينة وأراد بها موضع الزينة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ يعني: لأزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ يعني: يجوز للآباء النظر إلى مواضع زينتهن ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخوانهن أو بنيْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ وقد ذكر في الآية بعض ذوي الرحم المحرم فيكون فيه دليل على ما كان بمعناه لأنه لم يذكر فيها الأعمام والأخوال ولكن الآية إذ نزلت في شيء فقد نزلت فيما هو في معناه والأعمام والأخوال بمعنى الإخوة وبني الإخوة لأنه ذو رحم محرم وقد ذكر الأبناء في آية أخرى وهي قوله (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ) والنظر إلى النساء على أربع مراتب في وجه يجوز النظر إلى جميع أعضائها وهو النظر إلى زوجته وأمته وفي وجه يجوز النظر إلى الوجه والكفين وهو النظر إلى المرأة التي لا يكون محرماً لها ويأمن كل واحد منهما على نفسه فلا بأس بالنظر عند الحاجة وفي وجه يجوز النظر إلى الصدر والرأس والساق والساعد وهو النظر إلى امرأة ذي رحم أو ذات رحم محرم مثل الأخت والأم والعمة والخالة وأولاد الأخ والأخت وامرأة الأب وامرأة الابن وأم المرأة سواء كان من قبل الرضاع أو من قبل النسب وفي وجه لا يجوز النظر إلى شيء وهو أن يخاف أن يقع في الإثم إذا نظر ثم قال تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: نساء أهل دينهن ويكره للمرأة أن تظهر مواضع زينتها عند امرأة كتابية لأنها تصف ذلك عند غيرها ويقال: نسائهن يعني العفائف ولا ينبغي أن تنظر إليها المرأة الفاجرة لأنها تصف ذلك عند الرجال ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني الجواري فإنها نزلت في الإماء وقال سعيد بن المسيب لا تغرنكم هذه الآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني: الجواري فإنها نزلت في الإماء لا ينبغي للمرأة أن ينظر العبد إلى شعرها ولا إلى شيء من محاسنها[3] وقال مجاهد: في بعض القراءات (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) الذين لم يبلغوا الحلم[4] وروى سفيان عن ليث قال كان بعضهم يقرأ (أو ما ملكت

= نظرة المفاجأة (٢٧٧٧) وأحمد في المسند ٣٥٣/٥ ضمن مسند بريدة الأسلمي رضي الله عنه والدارمي ٢٩٨/٢ والحاكم في المستدرك ١٩٤/٢ كتاب النكاح وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(١) انظر تفسير الطبري ٩٢/١٨ ـ ٩٣ تفسير ابن كثير ٤٧/٦.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٣/٥ وعزاه لابن أبي شيبة.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٣/٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

أيمانهن من الصغار) وقال الشعبي: لا ينظر العبد إلى مولاته ولا إلى شعرة منها ثم قال تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ يعني الخادم أو الأجير للمرأة يعني غير ذوي الحاجة مثل الشيخ الكبير ونحوه وقال مجاهد: هو الذي لا أرب له أي لا حاجة له بالنساء مثل فلان وكذا روى الشعبي عن علقمة وقال الحسن والزهري: غير أولو الإربة هو الأحمق وقال الضحاك: هو الأبله ويقال: هو الذي طبعه طبع النساء فلا يكون له شهوة الرجال وسئلت عائشة رضي الله عنها هل يرى الخصي حسن المرأة قالت: لا ولا كرامة أليس هو رجل قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر غير أولي الإربة بنصب الراء وقرأ الباقون بالكسر[١] فمن قرأ بالكسر يكون على النعت للتابعين فيكون معناها التابعين الذين هذه حالهم ومن نصب أراد به الاستثناء والمعنى إلا أولي الإربة ثم قال: ﴿مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يعني: لم يطلعوا ولم يشتهوا الجماع ثم قال ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني: لا يضربن بإحدى أرجلهن على الأخرى ليقرع الخلخال بالخلخال ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ يعني: ما يواري الثياب من زينتهن وروى سفيان عن السدي قال: كانت المرأة تمر على المجلس وفي رجلها الخلخال فإذا جازت بالقوم ضربت رجلها ليصوت خلخالها فنزلت ولا يضربن بأرجلهن وقال بعض المفسرين: قد علم الله تعالى أن من النساء من تكون حمقاء فتحرك رجلها ليعلم أن لها خلخالاً فنهي النساء أن يفعلن كما تفعل الحمقاء[٢] ثم قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ يعني: من جميع ما وقع التقصير من الأوامر والنواهي التي ذكر من أول السورة إلى هاهنا ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أيها المصدقون بالله ورسوله وفي هذه الآية دليل أن الذنب لا يخرج العبد من الإيمان لأنه أمر بالتوبة والتوبة لا تكون إلا من الذنب ولم يفصل بين الكبائر وغيرها فقال بعدما أمر بالتوبة أيها المؤمنون سماهم مؤمنين بعد الذنب ثم قال ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تنجون من العذاب قرأ ابن عامر (أيهُ) بضم الهاء وكذلك في قوله (يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ) (وأَيُّهُ الثَّقَلانِ) وقرأ الباقون بالنصب[٣] قوله عز وجل: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُم) والأيامى الرجال والنساء الذين لا أزواج لهم يقال رجل أيم وامرأة أيم كما يقال رجل بكر وامرأة بكر ويقال الأيم من النساء خاصة كل امرأة لا زوج لها فهي أيم فأمر الأولياء بأن يزوجوا النساء وأمر الموالي بأن يزوجوا العبيد والإماء إذا احتاجوا إلى ذلك فقال للأولياء: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ يعني: من قومكم ومن عشيرتكم ثم قال المولى سبحانه: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ يعني: من عبيدكم زوجوهم امرأة وهذا أمر استحباب وليس بحتم ﴿وَإِمَائِكُمْ﴾ يعني: زوجوا إماءكم لكيلا يقعن في الزنا ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: يرزقهم الله من فضله وسعته وقال بعضهم: هذا منصرف إلى الحرائر خاصة دون العبيد والإماء وقال بعضهم: انصرف إلى جميع ما سبق ذكرهم من الأحرار والمماليك يغْنهم الله من فضله يعني: من رزقه والغني على وجهين غني بالمال وهو أضعف الحالين وغنيٌ بالقناعة وهو أقوى الحالين كما روي في الخبر الغنى غنى النفس[٤] وروى هشام[٥] ابن

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٤ وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير بنحوه.

(٣) المصدر السابق في (١).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ١١/٢٧٦ كتاب الرقاق باب الغنى غنى النفس (٦٤٤٦) ومسلم ٢/٧٢٦ كتاب الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض (١٢٠ ـ ١٠٥١).

(٥) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي ثقة فقيه ربما دلس مات سنة خمس أو ست وأربعين. التقريب ٢/٣١٩.

عروة عن أبيه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [أَنْكِحُوا النِّسَاءَ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَّكُمْ بِالْمَالِ][(١)] وقال عمر رضي الله عنه ابتغوا الغنى في النكاح ثم قرأ يغنهم الله من فضله وروي عن جعفر بن[(٢)] محمد أن رجلاً شكى إليه الفقر فأمره أن يتزوج فتزوج الرجل ثم جاء فشكى إليه الفقر فأمره بأن يطلقها فسأل عن ذلك فقال قلت لعله من أهل هذه الآية (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فلما لم يكن من أهلها قلت لعله من أهل آية أخرى (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ) ثم قال ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل ويقال واسع أي موسع في الرزق يوسع على من يشاء عليم بقدر ما يحتاج إليه كل واحد منهم ثم أخبر أنه لا رخصة لمن لم يجد النكاح في الزنا وأمر بالتعفف للذي لا امرأة له فقال عز وجل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ﴾ أي: ليحفظ نفسه عن الحرام الَّذِينَ ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ يعني: سعة بالنكاح المهر والنفقة ويقال: يعني امرأة موافقة ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: من رزقه بالنكاح وقد قيل إنَّ الصبر والطلب خير من الهرب ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ قال ابن عباس وذلك أن مملوكاً لحُويطب يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية والذين يبتغون الكتاب[(٣)] يعني: يطلبون الكتابة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ يعني: حرفة قال مجاهد وعطاء : يعني مالاً وروي عن ابن سيرين عن عبيدة السلماني قال: أَدَباً وصلاحاً وقال إبراهيم: يعني وفاءً وصدقاً وروى يحيى بن أبي كثير قال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً] أي حرفة ولا ترسلوهم كلًّا على الناس] وقال ابن عباس الخير المال كقوله [إِنْ تَرَكَ خَيْراً] أي: مالاً وقيل: خيراً يعني: صلاحاً في دينه لكيلا يقع في الفساد بعد العتق وهذا أمر استحباب لا إيجاب وقال بعضهم: هو واجب وروى معمر عن قتادة قال: سأل سيرين أبو محمد بن سيرين أنس بن مالك بأن يكاتبهُ فأبى أنس بن مالك فرفع عليه عمر الدرة وتلى عليه هذه الآية (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً)[(٤)] ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يعني أعطاكم يعني: يعطه من الكتابة شيئاً ويقال: يعطى من بيت المال حتى يؤدي كتابة وقال عمرو عن علي رضي الله عنه يترك له ربع الكتابة[(٥)] وقال قتادة: يترك له العشر[(٦)] وقال: آتوهم أي: حث الموالي وغيرهم أن يعينوهم هذا أمر استحباب وليس بواجب وقال بعضهم : الحظ واجب والأول أصح ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ يعني لا تكرهوا إماءَكم على الزنا وقال عكرمة: كانت جارية لعبد الله بن أبي يقال لها: معاذة وكان يكلفها الخراج على الزنا فنزل (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ) ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ يعني: تعففاً ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لتطلبوا بكسبهن وولدهن المال ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ﴾ يعني: يجبرهن على الزنا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ يعني: من بعد إجبارهن على الزنا ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهن ﴿رَحِيمٌ﴾ بهن يعني الإماء لأنهن كن مكرهات على فعل الزنا قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني واضحات ﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: فيه خير من قبلكم من الأمم الماضية ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ لكي يعتبروا بما أصابهم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٥ وعزاه للبزار وابن مردويه والديلمي من طريق عروة عن عائشة وابن أبي شيبة وأبي داود في مراسيه عن عروة مرفوعاً مرسلاً.

(٢) جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الصادق أبو عبد الله المدني توفي سنة ثمان وأربعين ومائة. انظر طبقات القراء ١/١٩٦.

(٣) سقط في أ.

(٤) ذكر السيوطي نحوه في الدر المنثور ٥/٤٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٦.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله عز وجل)﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه هادي أهل السموات وأهل الأرض ويقال هادي أهل السموات والأرض من يشاء وبين ذلك في آخر الآية بقوله: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) ويقال: معناه الله مَنوِّرُ السموات والأرض وقال ابن عباس بدليل قوله ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فأضاف النور إليه وبدليل ما قال في سياق الآية (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) وروي عن أبي العالية أنه قال: معناه الله منور قلوب أهل السموات وقلوب أهل الأرض بالمغفرة والتوحيد يعني من كان أهلاً للإيمان ويقال الله منور السموات والأرض أما السموات فنورها بالشمس والقمر والكواكب وأما الأرض فنورها بالأنبياء والعلماء والعباد ـ عليهم السلام ـ ثم قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعني: مثل نور المعرفة في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يعني: كمثل كوة فيها سراج ويقال: المشكاة الكوة التي ليست بنافذة وهي بلغة الحبشة وروي في قراءة ابن مسعود مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح ثم وصف المصباح فقال: ﴿المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ يعني: كمثل سراج في قنديل في كوة فكذلك الإيمان والمعرفة في قلب المؤمن والقلب في الصدر والصدر في الجسد فشبه القلب بالقنديل والماء الذي في القنديل شبه بالعلم والدهن بالرفق وحسن المعاملة وشبه الفتيلة باللسان وشبه النار بالجوف في زجاجة يعني: في قلب مضيء ويقال: إنما شبَّه القلب بالزجاجة لأن ما في الزجاجة يرى من خارجها فكذلك ما في القلب يرى من ظاهره ويبين ذلك في أعضائه ويقال لأن الزجاجة تسرع الكسر بأدنى آفة تصيبها فكذلك القلب بأدنى آفة تدخل فيه فإنه يفسد ثم وصف ﴿الزُّجَاجَةُ﴾ فقال: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌ﴾ يعني: استنار القنديل بصفاء الزجاجة من قرأ بضم الدال فهو منسوب إلى الدر يعني: يشبه في ضوئه الدر ومن قرأ بكسر الدال يعني الذي يدرأ عن نفسه يعني: لا يكاد يقدر النظر إليه من شدة ضوئه قرأ (نافع وابن كثير وعاصم في رواية حفص دري بضم الدال غير مهموز وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال وبهمز الياء وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر بالضم والهمز[٢] ثم قال تعالى)[٣] ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعني: السراج يوقد بدهن من شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ قرأ أبو عمر وابن كثير تِوقد بنصب التاء والواو والقاف بلفظ التأنيث وأصله تتوقد فحذف إحدى التائين وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي بضم التاء والتخفيف بلفظ التأنيث على فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون توقد بلفظ[٤] التذكير والتفسير على معنى فعل ما لم يسم فاعله فمن قرأ بالتأنيث انصرف إلى الزجاجة ومن قرأ بالتذكير انصرف إلى المصباح والسراج ثم وصف الشجرة المباركة فقال: زَيْتُونَةٍ ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: لم تكن بحال تصيبها الشمس في أول النهار وآخره فكذلك هذا المؤمن تكون كلمة الإخلاص في قلبه ثابتة مثل ثبوت الشجرة فلا يكون مشبهياً ولا معطلياً ولا قدرياً ولا جبرياً ولكنه على الاستقامة ويقال لا شرقية ولا غربية يعني: تكون في وسط الأشجار حتى لا تحرقها الشمس فكذلك هذا المؤمن بين أصحاب صلحاء يثبتونه على الاستقامة وروي عن الحسن أنه قال: ليس هذه من أشجار الدنيا لكن من أشجار الآخرة يعني: أن أشجار الدنيا لا تخلو من أن تكون شرقية أو غربية ولكن هذه

---

(١) سقط في أ.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٩٩، النشر ٢/٣٣٢.
(٣) سقط في ظ.
(٤) المصدران السابقان.

من أشجار الآخرة فكذلك هذا المؤمن أصاب المعرفة بتوفيق الله عز وجل قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يعني: أن الزيت في الزجاجة يكاد أن يضيء وإن لم يكن موقداً فكذلك المؤمن يعرف الله تعالى ويخافه ويطيعه وإن لم يكن له أحد يذكره ويأمره وينهاه ثم قال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني: الزجاجة نور والسراج نور والزيت نور فكذلك المؤمن اعتقاده نور وقوله نور وفعله نور وقال أبو العالية فهو يتقلب في خمسة أنوار فكلامه نور وعمله نور ومخرجه نور ومدخله نور ومصيره إلى النور يوم القيامة ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوفق ويعطي من يشاء يعني: الهدى وللآية وجه آخر الله نور السموات والأرض يعني الله مرسل الرسل لأهل السموات وأهل الأرض مثل نوره يعني: مثل نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسماه نوراً كقوله: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ) ثم قال مثل نوره (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) يعني: مثل نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صلب أبيه كالقنديل يضيء البيت المظلم فكما أن البيت يكون مضيئاً بالقنديل فإذا أخذ منه القنديل يبقى البيت مظلماً فكذلك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كالقنديل في صلب أبيه فلما خرج بقي صلب أبيه مظلماً (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يعني: نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نور إبراهيم خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ (زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) يعني: لم يكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ويقال: لا شرقية ولا غربية يعني: يعطي الله النبوة لمن يشاء ولها وجه آخر (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يعني منزل القرآن فنور بالقرآن السموات والأرض (مَثَلُ نُورِهِ) يعني: مثل نور القرآن في قلب المؤمن (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) يعني قلب المؤمن بالقرآن توقد من شجرة مباركة يعني ينزل القرآن من رب كريم ذي بركة لا شرقية ولا غربية أي ليس القرآن بلغة السريانية ولا بلغة العبرانية ولكنه عربي مبين (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) يعني: القرآن يضيء وألفاظه مهذبة وإن لم تفهم معانيه يهدي الله لنوره من يشاء يعني: يوفق ويكرم بفهم القرآن من يشاء ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: الله عز وجل يبين الأشياء للناس لكي يفهموا ويقال: المثل كالمرآة يظهر عنده الحق ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من ضرب الأمثال ثم

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

قال عز وجل ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ يعني: ما ذكر من القنديل المضيء يعني: هو في المساجد ثم وصف المساجد ويقال: هذا ابتداء القصة وفيه معنى التقديم يعني أذن الله أن ترفع البيوت وهي المساجد أذن الله أن ترفع أي تبنى وتعظم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يعني توحيده ويقال بالأذان والإقامة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ فيها يعني: يصلى لله في المساجد ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني عند الغداة والعشي قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر يسبح بنصب الباء على معنى فعل ما لم يسم فاعله ثم قال عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ يعني: هم رجال وقرأ الباقون يسبح بكسر الباء[1] ويكون الفعل للرجال يعني: يسبح فيها رجال لا تلهيهم يعني: لا يشغلهم البيع والشراء عن ذكر الله يعني: عن طاعة الله وعن مواقيت الصلاة ﴿وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ يعني: عن إتمام الصلاة قال

(١) انظر حجة القراءات ٥٠١.

بعضهم: نزلت الآية في أصحاب الصفة وأمثالهم الذين تركوا التجارة ولزموا المسجد وقال بعضهم: هم الذين يتجرون ولا تشغلهم تجارة عن الصلوات في مواقيتها وهذا أشبه لأنه قال: ﴿وَإِيْتَاءِ الزَّكَـاةِ﴾ وأصحاب الصفة وأمثالهم لم يكن عليهم الزكاة وقال الحسن: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ) أما أنهم كانوا يتجرون ولم تكن تشغلهم تجارة عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وروي عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا بياعاتهم وقاموا إلى الصلاة فقال هؤلاء: من الذين (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)[1] ثم قال ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ يعني: من اليوم الذي ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ﴾ يعني يتردد فيه القلوب والأبصار في الصدر إن كان كافراً فإنه يبلغ الحناجر من الخوف وإن كان تقياً مؤمناً تقول الملائكة: (هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فبين ما في قلبه في البصر وإن كان حزناً فحزن وإن كان سروراً فسرور ويقال: يتقلب يعني: يتحول حالاً بعد حال مرة يعرفون ومرة لا يعرفون ويقال يتقلب يعني: يتحول عما كانت عليه في الدنيا من الشك حين رأى بالمعاينة فيتحول قلبه وبصره من الشك إلى اليقين ثم قال عز وجـل ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني: يجزيهم الله بإحسانهم ويقال: يجزيهم أحسن وأفضل من أعمالهم وهو الجنة ويقال ويجزيهم أكثر من أعمالهم بكل حسنة عشرةً وأضعافاً مضاعفةً ويقال: يجزيه ويغفر له بأحسن أعماله ويبقى سائر أعماله فضلاً ثم قال: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يرزقهم من عطائه ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يرزقه ولا يحاسبه ويقال: يرزقه رزقاً لا يدرك حسابه ويقال: ليس أحد يحاسبه فيما يُعطي ويقال: بغير حساب أي: من غير حساب أي: من حيث لا يحتسب ثم ضرب مثلاً لعمل الكفار فقال عز وجل:

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمَالُهُـمْ كَسَرَابٍ بِقِيْعَـةٍ﴾ يعني: مثـل أعمالهـم الخبيثـة في الآخـرة كسراب بقيعة يعني: كمثل سراب في مفازة ويقال قاع وقيعة وقيعان يعني أرضاً مستوية كما يقال: صبي وصبية وصبيان ثم قال: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ يعني: العطشان إذا رأى السراب من بعيد يحسبه ماء ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ يعني: فإذا أتاه ليشرب منه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ يعني: لم يجده ماء ويقال لم يجده شيئاً مما طلبه وأراده فكذلك الكافر يظن أنه يثاب في صدقته وعتقه وسائر أعماله فإذا جاءه يوم القيامة وجده هباءاً منثوراً ولا ثواب له قوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ أي: يوم القيامة عند عمله وهذا كما قال: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) يعني: مصير الخلائق إليه ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ يعني: يوفيه ثواب عمله ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فكأنه حاسب ويقال: سريع الحفظ ويقال إذا حاسب فحسابه سريع فيحاسبهم جميعاً فيظن كل واحد منهم أنه يحاسبه خاصة فلا يشغله حساب أحدهم عن الآخر لأنه لا يحتاج إلى أخذ الحساب ولا يجري فيه الغلط ولا يلتبس عليه ويحفظ على كل صاحب حسابه ليذكره فهذا المثل لأعمال الكفار والتي في ظاهرها طاعة فأخبر أنه لا ثواب لهم بها ثم ضرب مثلاً آخر للكافر فقال عز وجل ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير والطبراني والبيهقي في الشعب.

قال بعضهم: الألف زيادة ومعناه: وكظلمات يعني مثلهم أيضاً كظلمات ويقال: أو للتخيير يعني إن شئت فاضرب لهم المثل بالسراب وإن شئت بالظلمات فقال: أو كظلمات ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ يعني: مثل الكافر: كمثل رجل يكون في بحر عميق في الليل كثير الماء ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ﴾ يعني يكون في ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة السحاب فكذلك الكافر في ظلمة الكفر وظلمة الجهل وظلمة الجور والظلم ويقال: (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) يعني المعاصي ومن فوقه العداوة والحسد والبغضاء ومن فوقه سحاب يعني الخذلان من الله تعالى ثم قال: (ظُلُمَاتٌ) ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ كما قال للمؤمن نور على نور فيكون للكافر ظلمة على ظلمة قوله ظلمة وعمله ظلمة واعتقاده ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلى الظلمة وهو النار ويقال: شبه قلب الكافر بالبحر العميق وشبه أعضاءه بالأمواج الثلاث طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فهذه الظلمات الثلاث تمنعه عن الحق ثم قال: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ يعني: لم يكن أقرب إليه من نفسه فإذا أبرز يده لم يكد يراها من شدة الظلمة ومع ذلك لم ير نفسه فكذلك الكافر لم ينظر إلى القبر ولم يتفكر في أمر نفسه أيضاً كقوله عز وجل (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ يعني: من لم يكرمه الله بالهدى (فما له من مكرم) بالمعرفة قرأ ابن كثير ظلماتٍ بكسر التاء والتنوين فكأنه يجعله بمنزلة قوله كظلمات قرأ الباقون بالضم[1] على معنى الابتداء وقرىء في الشاذ سحاب ظلمات على معنى الإضافة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ يعني يصلي له ويذكر له ويقال: يخضع له ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الخلق ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ يعني مفتوحة الأجنحة وأصل الصف هو البسط ولهذا يُسمى اللحم القديد صفيفاً لأنه يبسط ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: كل واحد من المسبحين يعلم كيف يصلي وكيف يسبح يعني: والله يعلم عمل كل عامل فيجازيهم بأعمالهم إلا أنه لا يعجل بعقوبة المذنبين والكافرين لأنه قادر عليهم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا معنى قوله وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قال مجاهد: في قوله (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) الصلاة للإنسان والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه ثم قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة قوله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾ يعني: يسوق سحاباً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يعني: يجمع بينه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ يعني: قطعاً قطعاً ويقال: يجعل بعضها فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ (يعني: من وسط السحاب قرأ ابن عباس يخرج من خلله وقراءة العامة من خلاله)[2] وهي جمع خلل ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ

(١) انظر حجة القراءات ٥٠٢، النشر ٢/٣٣٢.
(٢) سقط في أ.

﴿السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ يعني: من جبال في السماء قال مقاتل: روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال جبال السماء أكثر من جبال الأرض فيها من برد أي: في الجبال من برد ويقال: وهو الجبال من البرد أي ينزل من السماء من جبال البرد وروي عن ابن عباس أنه قال: البرد هو الثلج وما رأيته ويقال: الجبال عبارة عن الكثرة يعني: ينزل الثلج مقدار الجبال كما يقال: عند فلان جبال من مال أي: مقدار جبال من كثرته ويقال البرد هو الذي له صلابة كهيأة الجمد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: البرد يصيب الزرع والإنسان إذا كان في مفازة، قوله: ﴿وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ فلا يصيبه ويقال: يصيب به يعني: يعذب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ يعني: ضوء برقه ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ يعني: من شدة نوره قرأ أبو جعفر المدني يُذهب بضم الياء وكسر الهاء وقراءة العامة يذهب بنصب الياء [1] والهاء ثم قال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني: يذهب الله بالليل ويجيء بالنهار ويقال ينقص من النهار ويزيد في الليل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في تقلبهما واختلاف ألوانهما ﴿لَعِبْرَةً﴾ يعني: لآية ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ يعني: لذوي العقول والفهم في الدين وسئل سعيد بن المسيب أي العبادة أفضل فقال: التفكير في خلقه والتفقه في دينه ويقال: [العِبَرُ بِالوقَارِ وَالْمُعْتَبِرُ بِمِثْقَالٍ] ثم قال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ يعني: من ماء الذكور قرأ حمزة والكسائي خالق كل دابة على معنى الإضافة وقرأ الباقون خلق كل دابة [2] على معنى فعل الماضي ويقال هذا معطوف على ما سبق (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) فكأنَّه يقول يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما أنه يخلق ما يشاء من الخلق ألواناً ثم وصف الخلق فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ مثل الحية ونحو ذلك فإن قيل لا يقال: للدواب منهم وإن هذا اللفظ يستعمل للعقلاء قيل له الدابة اسم عام وهو يقع على ذي روح فيقع ذلك على العقلاء وغيرهم فإذا كان هذا اللفظ يقع على العقلاء وغيرهم فذكر بلفظ العقلاء ولو قال فمنه كان جائزاً وينصرف إلى قوله: كل ولكنه لم يقرأ وإنما قال يمشي على وَجْهِ المجاز وإن كان حقيقته المشي بالرجل لأنه جمعه مع الـذي يمشي على وجه التبع ثم قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ مثل الإنسان ونحوه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ أي: على أربع قوائم مثل الدواب وأشباهها فإن قيل إيش الحكمة في خلق كل شيء من الماء قيل له لأن الخلق من الماء أعجب لأنه ليس شيء من الأشياء أشد طوعاً من الماء لأن الإنسان لو أراد أن يمسكه بيده أو أراد أن يبني عليه أو يتخذ منه شيئاً لا يمكنه والناس يتخذون من سائر الأشياء أنواع الأشياء قيل: فالله تعالى أخبر أنه يخلق الماء ألواناً من الخلق وهو قادر

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٠٠.

(٢) حجتهم أن المقصود من ذلك هو التنبيه على الاعتبار بما بعد الفعل من المخلوقات وإذا كان ذلك كذلك فأكثر ما يأتي فيه الفعل على (عفعَل) وهذا الموضع موضعه كما قال: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾. وقال ﴿وخلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً﴾ فنبههم بذلك أن يعتبروا ويتفكروا في قدرته فكذلك قوله ﴿والله خلق كلَّ دابة من ماء﴾. وحجة من قرأ: (خالقُ كلِّ دابة) فلظ قوله (خالق) أعم وأجمع لأنه يشتمل على ما مضى وما يحدث مما هو كائن. ويدل عليه قوله (خالق كل شيءٍ فاعبدوه). انظر حجة القراءات ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

على كل شيء ثم قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: كما يشاء وكيف يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخلق وخلقه ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: قادر قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم ونافع وابن كثير وأبو بكر (مُبيَّنَاتٍ) بنصب الياء في جميع القرآن يعني: مفصلات وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر مُبَيِّنَاتٍ بكسر الياء يعني: يبين للناس دينهم ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرشد من كان أهلاً لذلك ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: دين مستقيم وهو دين الإسلام.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ قال مقاتل: نزلت في شأن[1] بشر المنافق وذلك أن رجلاً من اليهود كانت بينه وبين خصومة وأن اليهودي دعا بشراً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال بشر نتحاكم إلى كعب بن الأشرق فإن محمداً يعيف علينا فنزل: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) وقال في رواية أخرى: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه اشترى أرضاً من علي فندمه قومه وقالوا عمدت إلى أرض سبخة لا ينالها الماء فاشتريتها ردها عليه فقال قد اتبعتها منه فقالوا ردها فلم يزالوا به حتى أتاه فقال اقبض مني أرضك فإني قد اشتريتها ولم أرضها لأنه لا ينالها الماء فقال له علي رضي الله عنه: بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها مني وأنت تعرفها وتعلم ما هي فلا أقبلها منك قال: فدعا على عثمان رضي الله عنهما أن يخاصمه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال قوم عثمان لا تخاصمه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن أنت خاصمته إليه قضي له عليك وهو ابن عمه وأكرم عليه منك ثم أختصما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقضي لعلي على عثمان فنزل في قوم عثمان[2] وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ يعني: صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي: يعرض عن طاعتهما طائفة منهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الإقرار ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بمصدقين قال بعضهم: هذا التفسير الذي ذكره الكلبي نغير صحيح لأن قوم عثمان إن كانوا مؤمنين من الذين هاجروا معه إلى المدينة وقد ذكر أنهم ليسوا بمؤمنين وقال بعضهم: هو الصحيح لأن قوم عثمان بعضهم منافقون ميفضون لبني هاشم لعداوة كانت بينهم في الجاهلية وكان عثمان يميل إلى قرابته ولا يعرف نفاقهم ويقال وما أولئك بالمؤمنين يعني: ليس عملهم عمل المؤمنين المخلصين ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إلى حكم الله ورسوله ويقال إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: ليقضي بينهم بالقرآن ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني طائفة منهم معرضون عن طاعة الله ورسوله قوله عز وجل ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني: القضاء ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ يعني: خاضعينَ مسرعين طائعين قال الزجاج: الإذعان الإسراع مع الطاعة ثم قال ﴿أَفِي

---

(١) أسباب النزول ١٨٨.

(٢) هذه كلام بعيد عن عثمان وقومه وذكر المصنف بعده ذكر ما يؤيد هذا.

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ يعني: شكوا في القرآن ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ يعني: يجور الله عليهم ورسوله قال بعضهم: اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الإفهام فكأن الله تعالى يعلمنا بأن في قلوبهم مرض وأنهم شكوا ويقال: في قلوبهم مرض يعني: بل في قلوبهم مرض أم ارتابوا بل شكوا ونافقوا ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: هم الظالمون لا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إلى كتاب الله ورسوله يعني: أمر رسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: ليقضي بينهم بالقرآن ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأطعنا أمره فإن/فعلوا ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: الناجون الفائزون.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يطع الله في الفرائض ويطع الرسول في السنن ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما مضى ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الناجون وروي عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله تعالى: (ومن يطع الله ورسوله) فيوحده ورسوله فيصدقه بالرسالة ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما بقي من عمره فأولئك هم الفائزون يعني: الناجون من العذاب آمنون عند سكرات الموت قال: فلما نزلت هذه الآية أقبل عثمان إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: يا رسول الله إن شئت لأخرجن من أرضي ولأدفعنها إليه وحلف على ذلك فمدحه الله عز وجل بذلك فقال عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: حلفوا بالله وإذا حلفوا بالله كان ذلك جهد اليمين ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ من الأموال قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ يعني هذه منكم طاعة معروفة لا طاعة نفاق فكأن فيه مضمراً لأن بعض الناس منافقون فأخبر أن هذه طاعة ليس فيها نفاق ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: في السر والعلانية ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني: أطيعوا الله في الفرائض وأطيعوا الرسول في السنن ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الطاعة لله والرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يعني: ما أمر بتبليغ الرسالة وليس عليه من وزركم شيء ﴿وعليكم ما حملتم﴾ يعني: ما أمرتم والإثم عليكم وإذا تركتم الإجابة ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿تَهْتَدُوا﴾ من الضلالة ثم قال ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وفي الآية مضمر فكأنه يقول: وإن تعصوه وما على الرسول إلا البلاغ المبين يعني: ليس عليه إلا التبليغ قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وذلك أن كفار مكة لما صدُّوا المسلمين عن مكة عام الحديبية فقال المسلمون: لو فتح الله مكة ودخلناها آمنين فنزل قوله:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِيْ الأَرْضِ﴾ يعني: لينزلنهم في أرض مكة ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: من قبل أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني إسرائيل وغيرهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾ يعني: ليظهرن لهم ﴿دِيْنَهُمُ﴾ الإسلام ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ من الكفار ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ يعني: لكي يعبدونني ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِيْ شَيْئاً﴾ ويقال: معناه يعبدونني لا يشركون بي شيئاً أي: يظهر عبادة الله تعالى ويبطل الشرك وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بمكة زماناً نحواً من عشر سنين وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى إذا أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة أمرهم الله تعالى بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فقال رجل من أصحابه يا رسول الله نحن أبداً خائفون هل يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يكون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة ونزلت هذه الآية (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِيْ الأَرْضِ) الآية ويقال: نزلت في شأن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ليستخلفنهم يعني: يكونوا خلفاء بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واحداً بعد واحد ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني: بعد الأمن والتمكين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: العاصين قرأ عاصم في رواية أبي بكر كما استخلف بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون بنصب التاء لأنه سبق[١] ذكر الله تعالى وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر (وليبدلْنهم) بالتخفيف وقرأ الباقون بتشديد الدال من بدل يبدل والأول من أبدل يُبدل[٢].

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأتموها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأعطوها ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد والطاعة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا تعذبون قوله عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: فائتين ويقال: سابقين أمر الله تعالى ويقال معناه لا تظن أنهم يهربون منا وأنهم يفوتون من عذابنا ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني: صاروا إليه وبئس المرجع قرأ حمزة وابن عامر (لا يَحْسَبن) بالياء ونصب السين[٣] وقرأ الباقون بالتاء بلفظ المخاطبة وكسر السين قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٠٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) يجوز أن يكون فاعل الحسبان أحد شيئين: إما أن يكون قد يضمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنه قال: (لا يحسبن محمد الذين =

قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث غلاماً من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظهيرة ليدعوه فانطلق الغلام ليدعوه فوجده نائماً قد أغلق الباب فأخبر الغلام أنه في هذا البيت فقرع الباب على عمر فلم يستيقظ فدخل فاستيقظ عمر فجلس فانكشف منه شيء فرآه الغلام فعرف عمر أنه قد رآه فقال عمر وددت أن الله تعالى نهى ابناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا هذه الساعة إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم[1] فنزلت هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: العبيد والإماء والولاية ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ يعني: وليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم يعني: الاحتلام وهم الأحرار من الغلمان ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنها ساعات غرة وغفلة ثم بين الساعات الثلاث فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأن ذلك وقت لبس الثياب ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقت القيلولة ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ وذلك وقت النوم ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ يعني: ثلاث ساعات وقت غرة أي عورة وغفلة وهن أوقات التجرد وظهور العورة وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية واحدة (ثَلَاثَ) عورات بنصب الثاء وقرأ الباقون بالضم فمن قرأ بالنصب فمعناه ليستأذنكم ثلاث عورات أي: ثلاث ساعات ومن قرأ بالضم معناه هي ثلاث عورات فيكون خبراً عن الأوقات الثلاثة وروى عكرمة أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس عن قوله: لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فقال ابن عباس إن الله تعالى ستير يحب الستر وكان الناس لم يكن لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب في بيوتهم فربما فاجأ الرجل ولده أو خادمه أو يتيم في حجره وهو مع أهله فأمرهم الله تعالى أن يستأذنوا في ثلاث ساعات التي سمى الله تعالى ثم جاء الله باليسر وبسط الرزق عليهم فاتخذوا الستور واتخذوا حجاب فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي قد أمروا به وقد[2] قيل: إن فيه دليلاً أن ذلك الحكم إذا ثبت فإذا زال المعنى زال الحكم وقال مجاهد: الاستئذان هو التنحنح ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ليس عليكم معشر المؤمنين ولا عليهم يعني الخدم ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ يعني: بعد الساعات الثلاث ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: يتقلبون فيكم ليلاً ونهاراً يدخلون عليكم بغير استئذان في الخدمة ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يدخل بعضكم على بعض بغير إذن ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني: أمره ونهيه في الاستئذان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بصلاح الناس ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالاستئذان قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ يعني: الاحتلام ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الكبار من ولد الرجل وأقربائه معناه: فليستأذنوا في كل وقت كما استأذن الذين من قبلكم يعني: من الرجال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: أمره ونهيه في كل وقت و ﴿الله عليم﴾ بِصَلَاحِكم ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالاستئذان.

وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

= كفروا معجزين) و (الذين) المفعول الأول والمفعول الثاني (معجزين). ويجوز أن يكون فاعل الحسبان (الذين كفروا) ويكون المفعول الأول محذوفاً تقديره: (لا يحسبن الذين كفروا إياهم معجزين في الأرض). انظر حجة القراءات ٥٠٥.

(١) أسباب النزول ١٨٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٥٦ وعزاه لأبي داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن.

ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني :الآيسة من الحيض والقاعدة المرأة التي قعدت عن الزوج وعن الحيض والولد والجماعة قواعد ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ يعني: لا يحتجن إلى الزوج ولا يرغب فيهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: جلبابهن ويخرجن بغير جلباب ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ والتبرج إظهار الزينة يعني: لا يردن بوضع الجلباب أن ترى زينتهن ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ يعني: يتعففن فلا يضعن الجلباب ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضع ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن يعني: أن العجوز إذا وضعت جلبابها وتبدي زينتها وتقول من يرغب في ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتها وبفعلها ويقال: سميع عليم بجميع ما سبق في هذه السورة ويقال: سميع عليم انصرف إلى ما بعده فيما يتحرجون عن الأكل قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ قال في رواية الكلبي كانت الأنصار يتنزهون عن الأكل مع الأعمى والمريض والأعرج وقالوا إن هؤلاء لا يقدرون أن يأكلوا مثل ما نأكل فنزل لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ يعني: ليس على من أكل مع الأعمى حَرَجٌ ﴿وَلَا عَلَى﴾ من أكل مع ﴿الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى﴾ من أكل مع ﴿الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إذا أنصف في مؤاكلته وقال بعضهم: هذا التفسير خطأ وهو غير محتمل في اللغة لأنه أضاف الحرج إلى الأعمى لا إلى من أكل معه وقد قيل إن هذا صحيح لأنه ذكر الأعمى وأراد به الأكل مع الأعمى كقوله: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي حب العجل قال: وكما قال: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) وللآية وجه آخر وهو أن الأعمى كان يتحرج عن الأكل مع الناس مخافة أن يأكل أكثر منهم وهم لا يشعر والأعرج أيضاً يقول إني أحتاج لزمانتي أن يوسع لي في المجلس فيكون عليهم مضرة والمريض يقول الناس يتأذون مني لمرضي ويقذرونني فيفسد عليهم الطعام فنزل (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني: لا بأس بأن يأكلوا مع الناس ولا مأثم عليهم ولها وجه آخر وهو ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان الناس يخرجون إلى الغزو ويدفعون مفاتيحهم إلى الزَّمْنى والمرضى ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا في منازلنا وكانوا يتورعون منازلهم حتى نزلت هذه الآية وإلى هذا يذهب الزهري رضي الله عنه وذكر أيضاً أن مالك بن زيد وكان صديقه الحارث[1] بن عمرو خرج غازياً وخلف مالكاً في أهله وماله وولده فلما رجع الحارث رأى مالكاً متغيراً لونه فقال ما أصابك فقال: لم يكن عندي شيء اكله فجهدت من الشدة والجوع ولم يكن يحل لي أن آكل شيئاً من مالك فنزلت هذه الآية إلى قوله (أَوْ صَدِيقِكُمْ) وقوله: (وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم أو من بيوت عيالكم وأزواجكم ويقال بيوتكم أي بيوت أولادكم ويقال: من بيوتكم يعني: من بيوت بعضكم وذلك أنه لما نزل (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) امتنع الناس من أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزل في ذلك: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ يعني: من بيوت بعضكم بعضاً ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ يعني: لا

(١) الحارث بن عمرو بن الحارث السهمي الباهلي أبو مسقبة صحابي له حديث واحد. التهذيب ٢/١٥١، التقريب ١/١٤٢.

بأس أن يأكل من بيت هؤلاء بغير إذنهم لأنه يجري بينهما من الانبساط ما يعني عن الإذن ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: خزائنه يعني: عبيدكم وإمائكم إذا كان له عبد مأذون فلا بأس أن يأكل من ماله لأن ذلك من مال مواليه ويقال: يعني حافظ البيوت فلا بأس أن يأكل مقدار حاجته ثم قال: ﴿وَصَدِيقِكُمْ﴾ يعني لا جناح على الصديق أن يأكل من بيت صديقه إذا كان بينهما انبساط وروي عن قتادة أنه قال: لو دخلت على صديق ثم أكلت من طعامه بغير إذنه كان حلالاً ثم قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ يعني: جماعة أو متفرقين في بيت هؤلاء ويقال: إنهم كانوا يمتنعون عن الأكل وحده وذكر في قوله تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود) يعني: الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده فرخص في هذه الآية لأن الإنسان لا يمكنه أن يطلب في كل مرة أحداً يأكل معه وروى معمر عن قتادة قال نزلت الآية في حي من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكل معه فنزل (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً) ثم قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ قال مقاتل: يعني دخلتم بيوتاً للمسلمين ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض كما قال (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني: بعضكم بعضاً وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس قال: فإذا دخلتم بيوتاً قال: هو المسجد فسلموا على أنفسكم فقولوا السلام علينا من ربنا ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني السلام ﴿مُبَارَكَةً﴾ بالأجر ﴿طَيِّبَةً﴾ بالمغفرة وقال إبراهيم النخعي (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) إذا كان في البيت إنسان يقول السلام عليكم وإذا لم يكن فيه أحد يقول السلام علينا من ربنا وعلى عباد الله الصالحين وهكذا قال مجاهد وقال الحسن والكلبي (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض وروى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [أبخل الناس الذي يبخل بالسلام][1] ويقال معنى السلام إذا قال السلام عليكم يعني السلامة لكم مني فكأنه أمنه من شر نفسه ويقال: يعني: حفظكم الله من الآفات ويقال: السلام هو الله فكأنه الله حفيظ عليكم ومطلع على ضمائركم فإن كنتم في خير فزيدوا وإن كنتم في شر فانزجروا (تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) وأصل التحية هو البقاء والحياة كقوله حياك الله وإنما صار نصباً على المصدر ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: أمره ونهيه في أمر الطعام والشراب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا وتفهموا.

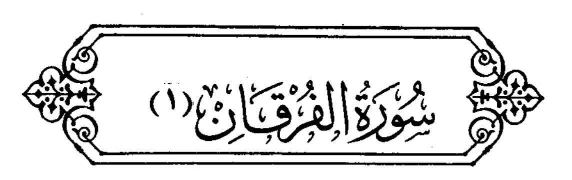
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: المصدقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٢/١٢٣ مطولاً عن عبد الله بن مغفل وعزاه للطبراني في الثلاثة وقال رجاله ثقات.

جامع﴾ يعني مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا جمعهم على أمر لتدبير في أمر جهاد. أو في أمر من أمور الله تعالى فيه طاعة لله ولرسوله ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يعني: لم يفارقوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجمعهم يوم الجمعة فيستشيرهم في أمر الغزو فكان يثقل على بعضهم المقام فيخرجون بغير إذنه وقال بعضهم[1] نزلت في يوم الخندق وكان بعض الناس يرجعون إلى منازلهم بغير إذن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأمرهم بأن لا يرجعوا إلا بإذنه عليه السلام وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو ولا ينبغي لأحد أن يرجع بغير إذنه وفي الآية بيان حفظ الأدب بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين ينبغي أن لا يرجعوا إلا بإذنه وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو ولا ينبغي لأحد أن يرجع إلا بإذنه ولا يخالف أمر السرية وروي عن مكحول أنه سئل عن هذه الآية وعنده عطاء فقال هذا في الجمعة وفي الزحف وفي كل أمر جامع ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وليسوا بمنافقين وكان المؤمنون بعد نزول هذه الآية لم يكونوا يرجعون حتى يستأذنوا وأما المنافقون ـ فيرجعون بغير إذن ثم قال ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ يعني: لبعض أمورهم وحوائجهم ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ولا تأذن لمن شئت لأن بعض المنافقين لم يكن لهم في الرجوع حاجة فإن أرادوا أن يرجعوا فلم يأذن لهم وأذن للمؤمنين وقال مقاتل نزلت في شأن عثمان حين استأذن في غزوة تبوك بالرجوع إلى أهله فأذن له ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ أي: فيما استأذنوك من الرجوع بغير حاجة لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ رَحِيمٌ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾ به ثم قال عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ يعني: لا تدعوا محمداً باسمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ ولكن وقروه وعظموه وقولوا يا رسول الله ويا نبي الله ويا أبا القاسم وفي الآية بيان توقير معلم الخير لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلم الخير فأمر الله عز وجل بتوقيره وتعظيمه وفيه معرفة حق الأستاذ وفيه معرفة أهل الفضل ثم ذكر المنافقين فقال عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ يعني: يرى الله ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ﴾ يعني: يخرجون من المسجد ﴿لِوَاذاً﴾ يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يشق عليهم المقام هناك يوم الجمعة وغيره فيتسللون من بين القوم ويلوذ الرجل بالرجل أو بالسارية لئلا يراه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يخرج من المسجد يقال لاذ يلوذ إذا عاذ وامتنع بشيء ويقال: معنى (لِوَاذاً) هنا، من الخلاف يعني: يخالفون خلافاً فخوفهم الله تعالى عقوبته فقال ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يعني: عن أمر الله تعالى ويقال عن أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال عن زيادة في الكلام للصلة ومعناه يخالفون أمره إلى غير ما أمرهم به ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: الكفر لأن أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجب فمن تركه على وجه الجحود كفر ويقال فتنة يعني: بلية في الدنيا ويقال: فساد في القلب ويقال: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: يصيبهم عذاب عظيم في الآخرة ويقال: القتل بالسيف ويقال: يجعل حلاوة الكفر في قلبه وقوله أو على معنى الإبهام لا على وجه الشك والتخيير ثم قال عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق عبيده وإماؤه في مملكته ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من خير أو شر فيجازيكم بذلك ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير أو شر فيجازيهم بذلك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالهم وأقوالهم وبما في أنفسهم وروي عن الأعمش عن سفيان بن سلمة قال: شهدت ابن عباس ولي الموسم وقرأ سورة النور على المؤمنين وفسرها على المنبر فلو سمعتها الروم لأسلمت وقال عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) انظر السيرة النبوية لابن إسحاق ٣/ ٣٣٠.



وهي سبع وسبعون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه يعني: تعالى وتعظم قال ابن عباس ويقال: تفاعل من البركة [٢] وهذه لفظة مخصوصة ولا يقال يتبارك كما يقال يتعالى ولا يقال متبارك كما يقال متعال ويقال تبارك أي ذو بركة والبركة هي كثرة الخير ويقال: أصله من بروك الإبل ويقال للواحد بارك وللجماعة برك وكان الإنسان إذا كان له إبل كثيرة وقد برك هو على الباب يقولون فلان ذو بركة ويقولون للذي كان له إبل تحمل إليه الأموال من بلاد بعيدة فلان ذو بركة فصار ذلك أصلاً حتى أنه لو كان له مال سوى الإبل لا يقال فلان ذو بركة قال الله تعالى (تَبَارَكَ) أي: ذو البركة ويقال: أصله من الدوام ويقال: بارك في موضوع إذا دام فيه ويقال معناه البركة في اسمه وفي الذي

---

(١) اشتملت هذه السورة على الابتداء بتمجيد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية فيها. وادمج في ذلك التنويه بالقرآن وجلال منزله وما فيه من الهدى وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك والتنويه بشأن النبي - صلى الله عليه وسلم -. وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الأولى: إثبات أن القرآن منزل من عند الله والتنويه بالرسول المنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - ودلائل صدقه ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا وأنه على طريقة غيره من الرسل ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب. الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء والإنذار بالجزاء في الآخرة والتبشير بالثواب فيها للصالحين وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذ وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتباع كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانية الله وتفرده بالخلق وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك وإبطال إلهية الأصنام وما زعموه من بنوة الملائكة لله تعالى. وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة (تبارك الذي) الخ.

قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه - صلى الله عليه وسلم - مبعوثاً إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾**. وذكر بدائع من صنعه تعالى جمعاً بين الاستدلال والتذكير. وأعقب ذلك بتثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - على دعوته ومقاومته الكافرين. وضرب الأمثل للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط. والتوكل على الله والثناء على المؤمنين به ومدح خصالهم ومزايا أخلاقهم. والإشارة إلى عذاب قريب يحل بالمكذبين. انظر التحرير ١٨/٣١٤، ٣١٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٢ وعزاه لابن أبي حاتم.

ذكر عليه اسمه ثم قال ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ يعني: أنزل جبريل عليه السلام بالقرآن والفرقان هو المخرج من الشبهات ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ يعني: ليكون الفرقان نذيراً للإنس والجن ويقال: يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: يعني: الله تبارك وتعالى وأرادها هنا جميع الخلق وقد يذكر العام ويراد به الخاص من الناس كقوله عز وجل (وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم ويذكر ويراد به جميع الخلائق كقوله (ربِّ الْعَالَمِينَ) ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خزائن السموات والأرض ويقال: له نفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ ليورثه ملكه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فينازعه في عظمته ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما ينبغي أن يخلقهم ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ يعني: بين الصلاح في كل شيء وجعله مقدراً معلوماً ويقال: كل شيء خلقه من الخلق فقدره تقديراً أي: قدر لكل ذكر وأنثى قوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني: تركوا عبادة الله الذي خلق هذه الأشياء وعبدوا غيره ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ يعني: عبدوا شيئاً لا يقدر أن يخلق ذباباً ولا غيره ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يتخذونها بأيديهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَراً﴾ أي: لا تقدر الآلهة أن تمتنع ممن أراد بها سوءاً ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ أي: لا تقدر أن تسوق إلى نفسها خيراً ويقال: لا يملكون دفع مضرة ولا جر منفعة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً﴾ يعني: لا يقدرون أن يميتوا أحداً ﴿وَلَا حَيَاةً﴾ أي: ولا يحيون أحداً ﴿وَلَا نُشُوراً﴾ يعني: بعث الأموات ويقال: ولا يملكون موتاً يعني: الموت الذي كان قبل أن يخلقوا ولا حياة يعني: أن يزيدوا في الأجل ولا نشوراً بعد الموت ويقال: (لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً) يعني: أن يبقوا أحداً (وَلَا نُشُوراً) يعني: أن يحيوه بعد الموت وإنما ذكر الأصنام بلفظ العقلاء لأن الكفار يجعلونهم بمنزلة العقلاء فخاطبهم بلغتهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ يعني: ما القرآن إلا كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ يعني: كذباً اختلقه من ذات نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعني: جبراً ويساراً ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ وقال بعضهم: هذا قول الله تعالى رداً على الكفار بقولهم هذا (فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً) يعني: شركاً وكذباً ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ يعني: أباطيل اكتتبها أي كتبها من جبر ويسار يعني أساطير الأولين ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ يعني: تقرأ وتملى عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يعني: غدوة وعشية قوله عز وجل: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَنْزَلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: يعلم السر والعلانية ومعناه: لو كان هذا القول من ذات نفسه لعلمه الله تعالى وإذا علمه عاقبه كما قال تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فكأنه يقول: إرجعوا وتوبوا فإنه كان غفوراً لمن تاب رحيماً بالمؤمنين قوله عز وجل:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ مثل ما نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ يعني: يتردد في الطريق ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ يعني: معيناً يخبره بما يراد به من الشر ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيهِ كَنْزٌ﴾ يعني: يعطى له كنز ﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ يعني: بستاناً ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: وذلك أن كفار قريش اجتمعوا في بيت فبعثوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاهم فقال له العاص بن وائل السهمي وقريش معه: قد تعلم يا محمد أن لا بلاد أضيق من بلادنا ساحة ولا أقل أنهاراً ولا زرعاً ولا أشد عيشاً فادع ربك أن يسير عنا هذه الجبال حتى يفسح لنا في بلادنا ثم يفجر لنا فيها أنهاراً حتى نعرف فضلك عند ذلك ونراك تمشي في الأسواق معنا تبتغي من سير العيش فاسأل ربك أن يجعل لك قصوراً أو جناناً وليبعث معك ملكاً[1] يصدقك فنزل حكاية عن قولهم (أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) قرأ حمزة والكسائي نأكل بالنون وقرأ الباقون بالتاء[2] ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ يعني: ما تطيعون يا أصحاب محمد ﴿إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ يعني: مغلوب العقل ويقال: مسحوراً أي مخلوقاً لأن الذي يكون مخلوقاً يكون حياته بالمعالجة بالأكل والشرب فيسمى مسحوراً ويقال: مسحوراً أي: سحر به قوله عز وجل: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ يعني: انظر يا محمد كيف وصفوا لك الأشباه إلى ماذا شبهك قومك بساحر وكاهن وكذاب ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الهدى ويقال: ذهبت حيلتهم وأخطأوا في المقالة ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعونَ سَبِيلاً﴾ يعني: لا يجدون حيلة ولا حجة على ما قالوا لك ولا مخرجاً لأنه تناقض كلامهم حيث قالوا مرة مجنون ومرة ساحر.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى وقد ذكرناه ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني: خيراً مما يقول الكفار في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ في الجنة ويقال: في الدنيا إن شاء أعطاك وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت قال عن خيثمة قال: قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتحها لم نعط من قبلك أحداً ولا نعطي من بعدك أحداً ولا ينقصك ذلك مما عند الله شيئاً وإن شئت جمعناهما لك في الآخرة قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل اجمعوها لي في الآخرة فنزل (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ) الآية قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (وَيَجْعَلُ) بضم اللام على

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره عن سفيان عن حبيب ١٨/١٤٠ وانظر تفسير ابن كثير ٦/١٠٤.

(٢) حجتهم قوله تعالى: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ فخصه بالوصف ولم يقل: (جعل لكم) فيدخلوا معه في الوصف ومن قرأ بالنون: أخبر المتكلم عن نفسه مع جماعة كأنهم أرادوا أن يكون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جنة له دونهم يرونها ويأكلون منها حتى يتيقنوا صحة ذلك بأكلهم منه نظير ما أخبر عنهم في قيلهم له: ﴿لنْ نُؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً﴾ وقيلهم أيضاً له ﴿ولنْ نُؤْمِنَ لرُقِيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه﴾ ولم يقل (تقرؤه أنت علينا) (حتى تفجر لنفسك). انظر حجة القراءات ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

معنى خبر الابتداء والباقون بالجزم[١] لأنه جواب الشرط ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ معناه: ولكن كذبوا بالساعة يعني: بالقيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ يعني: هيأنا لمن كذب بالقيامة وقوداً وهُوَ نار جهنم ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ جهنم ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: من مسيرة خمسمائة عام ويقال من مسيرة خمسمائة سنة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يعني: منها ﴿تَغَيُّظاً﴾ على الكفار ﴿وَزَفِيراً﴾ يعني: صوتاً كصوت الحمار وقال قوم معناه يسمعون منها تغيظ المعذبين وزفيرهم كما قال (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) وقال عامة المفسرين التغيظ زفير يسمع من النار ألا ترى أنه قال (سَمِعُوا لَهَا) ولم يقل سمعوا منها ولا فيها وقال في آية أخرى (وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) وروي في الخبر أن جهنم تزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر على وجهه ترعد فرائصهم حتى أن إبراهيم الخليل عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول يا رب لا أسألك إلا نفسي ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا﴾ يعني: فيها ﴿مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ يعني: يضيق عليهم المكان كتضييق الزّجّ[٢] من الرُّمح ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي: مسلسلين في القيود موثقين في الحديد قرنوا مع الشياطين ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ فعند ذلك دعوا بالويل يعني: يقولون واهلاكاه فتقول لهم الخزنة: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ يعني: ادعوا ويلاً كثيراً دائماً قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة: ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: هذا الذي وصف من العذاب خير ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ فإن قيل كيف يقال: خير وليس في النار خير قيل له: قد يقال على وجه المجاز وإن لم يكن فيه خير، والعاقبة: تقول العاقبة خير من البلاء وإنما خاطبهم بما يتعارفون في كلامهم ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني الذين يتقون الشرك والكبائر ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ يعني: جزاء بأعمالهم الحسنة ومرجعاً إليها ثم قال عز وجل: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ﴾ أي يحبون ﴿خالدينَ﴾ أي: دائمين في الجنة ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً﴾ منه في الدنيا ﴿مَسْؤُولاً﴾ يسأله المتقون ويقال: مسئولاً يسأل لهم الملائكة عليهم السلام وهو قوله عز وجل: (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ) ويقال: وعداً على لسان رسولهم وقد سألوا الله عز وجل ذلك وهو قوله (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) ويقال وعداً لا خلف فيه لمن سأله.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ يعني: نجمعهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يعني: ونحشر ما يعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ويقال: المسيح وعزير ويقال: الملائكة عليهم السلام ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ يعني: أأنتم أمرتم ﴿عِبَادِي هؤُلاءِ﴾ أن يعبدوكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ يعني: أم هم أخطأوا الطريق فتبرأت الملائكة والأصنام قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ أي: ما يجوز لنا ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر المدني أن (نُتَّخَذَ) بضم النون ونصب الخاء ومعناه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من

---

(١) انظر المصدر السابق النشر ٢/٣٣٣.

(٢) الزج الحديدة التي تركب في أسفل الرمح انظر لسان العرب ٣/١٨١١.

دونك إلهاً فيعبد وقراءة العامة بنصب النون وكسر الخاء يعني: ما كان ينبغي[١] لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فيعبدوننا ويقال: معناه ما كان فينا روح نأمرهم بطاعتنا ويقال: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فنعبدهم فكيف نأمر غيرنا بعبادتنا كقوله تعالى: (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ) قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص ويوم يحشرهم بالياء فيقول بالياء وقرأ ابن عامر كلاهما بالنون وقرأ الباقون الأول بالنون والثاني بالياء[٢] ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني: أن هذا كان بكرمك وفضلك حيث لما عصوك لم تمنع عنهم الدنيا حتى اغتروا بذلك وظنوا أنهم على الحق حيث لم يصبهم بلاء ولم تمنع منهم النعمة فذلك قوله تعالى: (وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ) يعني: تركتهم في الدنيا يتمتعون وأجلتهم وآباءهم في المتاع والسعة ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ يعني: تركوا التوحيد والإيمان بالقرآن ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي: هلكى فاسدين وأصله الفساد يقال بارت السوق إذا كسدت وقال الكلبي بوراً يعني: هالكين فاسدة قلوبهم غير متقين ولا محسنين يقول الله تعالى لعبدة الأوثان ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ يعني: الأصنام ويقال الملائكة ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً﴾ يعني: لا يستطيع الكفار انصرافاً إلى غير حجتهم التي تكلموا بها ويقال لا يستطيعون صرفاً أي: إنصرافاً عن حجتهم ولا نصراً يعني: ولا ينتصرون من آلهتهم حين كذبتهم ويقال لا يقدرون يعني الأصنام ولا الملائكة صرف العذاب عنهم ولا نصراً يعني لا يمنعونهم منه ويقال الصرف الحيلة ويقال لا يقبل منهم فدية أن يصرفوا عن أنفسهم بالفدية قرأ عاصم في رواية حفص (فما تستطيعون بالتاء) على معنى المخاطبة يعني يقال لهم: لا تستطيعون صرف ذلك وقرأ الباقون بالياء[٣] ومعناه أن الله تعالى يقول للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما يستطيعون صرف ذلك عنهم ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ يعني: يشرك بالله في الدنيا ويقال: يكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ في الآخرة وهو عذاب النار.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواباً لقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ يعني: كانت الرسل من الآدميين ولم يكونوا من الملائكة عليهم السلام ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ يقول: ابتلينا بعضكم ببعض الفقير بالغني والضعيف بالقوي وذلك أن الشريف إذا رأى الوضيع قد أسلم أنف عن الإسلام وقال: أأسلم فأكون مثل هذا فثبت على دينه حمية يقول الله تعالى للشريف (أَتَصْبِرُونَ) أن تكونوا شرعاً سواء في الدين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي عالماً بمن يؤمن ومن لا يؤمن ويقال (جعلنا بعضكم لبعض فتنة يعني بلية الغني للفقير والقوي للضعيف لأن ضعفاء المسلمين وفقراءهم إذا رأوا الكفار في السعة والغنى ـ يتأذون منهم وكان في ذلك بلية لهم فقال تعالى (أتصبرون) اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر يعني اصبروا كقوله (أفلا يتوبون إلى الله) يعني توبوا إلى الله ويقال: أهل النعم بلية لأهل الشدة لأن أهل الشدة إذا رأوا أهل النعمة تنغص عيشهم فأمرهم الله تعالى بالصبر وذكر عن بعض المتقدمين أنه كان إذا رأى غنياً من الأغنياء يقول: نصبر يا رب نصبر يا رب أراد جواباً لقوله تعالى (أتصبرون) وكان ربك بصيراً يعني: عالماً بمن

---

(١) النشر ٢/٣٣٣، انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٠٦.
(٢) انظر حجة القراءات ٥٠٨.
(٣) المصدر السابق.

يصلح له الغنى والفقر ويقال (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً) يعني: عالماً بثواب الصابرين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ يعني: لا يخافون البعث بعد الموت ويقال لا يرجون الجنة والمغفرة وهم كفار أهل مكة ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ يعني: هلا أنزل علينا الملائكة فيخبروننا بأنك رسول الله إلينا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بأنك مرسل قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَروا في أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: تعظموا في أنفسهم وأعرضوا عن الإيمان ويقال: لقد استكبروا في أنفسهم يعني: وضعوا لأنفسهم قدرا ومنزلة حيث أرادوا لأنفسهم الرسل من الملائكة عليهم السلام ورؤية الرب عز وجل: ﴿وعتوا عتواً كبيراً﴾ يعني: أبوا إباءً كثيراً ويقال: اجترءوا على الله اجتراء كثيراً وقال أهل اللغة[1] العاتي الذي لا ينفعه الوعظ والنصيحة ثم أخبر متى يرون الملائكة فقال عز وجل: ﴿يوم يرون الملائكة﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: للمشركين وتكون البشارة للمؤمنين ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ حِجراً مَحْجُوراً﴾ يعني: تقول لهم الملائكة: حراماً محرماً أي: تكون لهم البشرى يومئذ بما يبشر به المتقون وإنما قيل للحرام حجر لأنه حجر عليه وقال مجاهد: تقول الملائكة: حراماً محرماً أن يدخلوا الجنة[2] وقال الحسن وقتادة: وهي كلمة كانت العرب تقولها كان الرجل إذا نزلت به الشدة قال: حجراً محجوراً أي: حراماً محرماً[3] ويقال إن قريشاً كانوا إذا استقبلهم أحد كانوا يقولون له حاجورا حاجورا حتى يعرف أنهم من الحرم فلا يضرونهم وأخبر أنهم كانوا يقولون ذلك ولا ينفعهم ويقال: إن المشركين في الشهر الحرام إذا استقبلهم أحد يقولون حجراً محجوراً ويريدون أن يذكروه أنه في الشهر الحرام وذلك القول لا ينفعهم يوم القيامة وقرأ الحسن (حجراً) بضم الحاء وقراءة العامة بكسر الحاء[4] ﴿وَقَدِمْنا إلى مَا عَملوا مِن عَمل﴾ قال الكلبي يعني: عمدنا إلى ما عملوا من عمل لغير الله تعالى ويقال: قصدنا إلى ما عملوا من عمل ومعناه نظرنا في أعمالهم ولم نجد فيها خيراً فأبطلناها ولم نجعل لها ثواباً فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَباءً مَنْثوراً﴾ قال الضحاك: هو الغبار ما لا يستطاع جمعه ولا أخذه بيد وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الهباء المنثور الذي تراه في شعاع الشمس في الكوة[5] وهذا قول عكرمة والكلبي وقال قتادة: هو ما ذرت الريح من حطام الشجر ويقال الغبار الذي يسطع من حوافر الدواب ثم قال عز وجل: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ يعني: أفضل منزلاً ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[6]

(١) قال ابن منظور: العاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل موعظة. انظر لسان العرب ٤/٢٨٠٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٦ وعزاه للعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٠٧.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٦ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) سقط في أ.

(يعني: مرجعاً ومجلساً وروي عن الأعمش عن إبراهيم في قوله: (خير مستقراً وأحسن مقيلاً) يعني: قال: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس إلى مقدار نصف النهار فيقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار وروي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا لا ينتصف النهار من ذلك اليوم حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار[(١)] عنيا بذلك يوم القيامة ولأن مقدار ذلك اليوم خمسون ألف سنة وإنما أراد بتلك القيلولة القرار لا النوم لأنه لا يكون في الجنة نوم ولا في النار نوم قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تشّقق بتشديد الشين لأن أصله يتشقق فأدغم إحدى التائين في الشين وقرأ الباقون بالتخفيف[(٢)] وهذا مثل الإختلاق في قوله (تسألون) فقال (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ) ﴿بِالْغَمَامِ﴾ يعني: الغمام والغمام هو شيء مثل السحاب الأبيض فوق سبع سموات كما روي في الخبر أن دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام يعني: تشقق السماء وتظهر بالغمام ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ قرأ ابن كثير وننزل الملائكة بنونين ونصب الهاء ومعناه: أن الله تعالى يقول: ننزل الملائكة وقرأ الباقون (ونزل) على فعل ما لم[(٣)] يسم فاعله معناه: أن الله تعالى ينزل ملائكة السموات وروي في الخبر أنه تشقق سماء الدنيا فينزل ملائكة سماء الدنيا بمثلَيْ من في الأرض من الجن والإنس ويقول لهم الخلائق: أفيكم ربنا يعني: هل جاء أمر ربنا بالحساب فيقول: لا وسوف يأتي ثم تنزل ملائكة السماء الثانية بمثلي من في الأرض من الملائكة والإنس والجن ثم تنزل ملائكة كل سماء على هذا التضعيف حتى تنزل ملائكة سبع سموات فيظهر بالغمام وهو كالسحاب الأبيض فوق سبع سموات ثم ينزل بالأمر بالحساب فذلك قوله: (وَيَوْم تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً) ويقال: الغمام الذي قال في سورة البقرة (فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالمَلَائِكَة) ثم قال عز وجل: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ وفي الآية تقديم ومعناه الملك يومئذ الحق للرحمن الحق صفة الملك والمعنى الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن لأنه لا يدعي الملك يومئذ أحد ويقال الحق يومئذ الملك الخالص ويقال: يعني: الملك الصدق ثم قال تعالى: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ يعني: شديداً وفي الآية دليل أن ذلك اليوم يكون على المؤمنين يسيراً وهذا كما قال في آية أخرى (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِير).

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يعني: عقبة بن أبي معيط وذلك أن عقبة (كان لا يقدم من سفر)[(٤)] إلا صنع طعاماً وكان يدعو إلى الطعام من أهل مكة من أحب وأراد وكان يكثر مجالسة النبي ـ صلى الله

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٧ وعزاه لابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٠. النشر ٢/٣٣٤.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) سقط في ظ.

عليه وسلم ـ ويعجبه حديثه فقدم ذات يوم من سفره وصنع طعاماً ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى طعامه فأتاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما قدم الطعام إليه فأبى أن يأكل وقال ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وكان عندهم من العار أن يخرج أحدهم قبل أن يأكل (من الطعام شيئاً فألح عليه أن يأكل)[1] فلم يأكل فشهد بذلك عقبة فأكل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طعامه وكان أبيٌّ بن خلف الجمحي غائباً وكان خليله فلما قدم أخبر بذلك فأتاه فقال صبوت يا عقبة فقال لا والله ما صبوت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت فطعم فقال له: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتشتمه وتكذبه ففعل ذلك فنزلت هذه الآية (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ) يعني: عقبة على يديه يعني: على أنامله وروي عن أنس بن مالك أنه قال يعض عقبة بن أبي معيط على يديه يوم القيامة يأكل لحم يديه حتى يبلغ العضد من الندامة وهو ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ يعني: اتخذت طريق الهدى وكنت معه على الإسلام قوله عز وجل: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ يعني: أبيٌّ بن خلف وقال إنما قال فلاناً ولم يذكر اسمه لحقارته ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي: عن الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي: حين جاءني ويقال إنه لم يذكر اسمه لأنه دخل في جميع الظالمين لأن مَنْ صَنَعَ مِثْلَ هَذَا الصَّنِيعِ يكون جزاؤه هذا وقتل عقبة يوم بدر صبراً وقتل أبيٌّ بن خلف يوم أحد ويقال: (لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيْلاً) يعني: الشيطان بدليل قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ يعني: يتبرأ منه يوم القيامة ونزل فيه (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ يعني: متروكاً لا يؤمنون به ولا يعملون بما فيه وقال القتبي يعني: جعلوه كالهذيان[2] ويقال: فلان يهجر في منامه أي يهذب وقال مجاهد: يهجرون منه بالقول يعني يقولون فيه بالقبيح فبين الشكاية من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الرب عز وجل ثم إن الله عز وجل عزاه وأخبره أن الرسل من قبله كانوا يتأذون بقومهم فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: من المشركين فيهجرون الكتاب ثم قال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ يعني: هادياً إلى دينه من كان أهلاً لذلك ويقال وكفى بربك حافظاً على الدين ونصيراً أي: مانعاً ويقال: وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً يعني: فرعوناً كما جعلنا أبا جهل فرعونك ويقال سلطنا على كل نبي متكبراً ليتكبر عليه ويكذبه ويؤذيه وروي في الخبر لو أن مؤمناً ارتقى على ذروة جبل فقبض الله تعالى إليه منافقاً يؤذيه فيؤجر عليه (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً) يعني: اكتف بربك واصبر على أذاهم، صار هادياً ونصيراً نصباً على الحال أي: وكفى بربك في حال الهداية والنصرة نصيراً، ويقال: الباء زائدة للصلة ومعناه: كفى بربك هادياً إلى دينه ونصيراً.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا﴾ يعني: هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى

---

(١) سقط في ظ.

(٢) الهذيان الكلام الغير معقول مثل كلام المبرسم والمعتوه. انظر لسان العرب ٦/٤٦٤٥.

والإنجيل على عيسى عليهما السلام ويقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يعني: ليحفظ ويقوى به قلبك ونفرحك دخل قلبه الغم نزلت عليه آية وآيتان فيفرح بها ويقال: لنثبت به فؤادك يعني ليكون قبوله على المسلمين أسهل لأنه لو أنزلت الأحكام والشرائع كلها جملة واحدة شق على المسلمين قبولها كما شق على بني إسرائيل ويقال: أنزلناه هكذا لنرسخ القرآن في قلبك لكي تحفظ الآية والآيتين ويقال: كذلك أنزلناه لتحكم عند كل حادثة وعند كل واقعة لتقوي به قلبك في ذلك ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ يعني: بيناه تبييناً ويقال شيء رتل ورتيل إذا كان مبيناً وقال مجاهد: ورتلناه ترتيلاً أي بعضه على أثر بعض وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك جبريل عليه السلام به في عشرين سنة وهو قوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (وَقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تنْزِيلاً) ﴿وَلاَ يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: لا يخاصمونك بمثل مثل قوله: (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) ثم قال: (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) يعني: أنزلنا عليك جبريل بالقرآن فتخاصمهم به ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ يعني: وأحسن بياناً لترد به خصومهم ويقال: معناه: ولا يأتونك بحجة إلا بينا لك في القرآن ما فيه نقض لحجتهم وأحسن تفسيراً أي: جواباً لهم ويقال: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بما هو أحسن من مثلهم ويقال كل نبي إذا قال له قومه قولاً كان هو الذي يرد عليهم وأما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قالوا له شيئاً فالله تعالى هو الذي يرد عليهم ثم أخبرهم بمستقرهم في الآخرة فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يعني: يسحبون على وجوههم ﴿إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: منزلاً في النار وضيقاً في الدنيا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً وذلك أن كفار مكة قالوا ما كان محمد وأصحابه أولى بهذا الأمر منا والله إنهم لشر خلق الله فأنزل الله عز وجل: (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ وروي في الخبر أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أصناف فصنف على النجائب[1] وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم فقيل يا رسول الله: كيف يحشرون على وجوههم فقال إن الذي أمشاهم على أقدامهم فهو قادر على أن يمشيهم على جوههم[2] فذلك قوله (أُولَئِكَ شَرٌّ مكاناً).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة. ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾ أي: معيناً ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلى الْقَوْمِ﴾ يعني: به موسى كقوله عز وجل في سورة طه (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ) خاطب موسى خاصة إلى القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: فرعون وقومه كذبوا بآياتنا أي بتوحيدنا وديننا وقال الكلبي يعني: كذبوا بآياتنا التسع وقال بعضهم هذا التفسير خطأ لأن الآيات التسع أعطاها الله تعالى موسى بعد ذهابه إليه وقد قيل

---

(١) قال في اللسان ٤٣٤٢/٥: النجيب من الإبل والجمع النجب والنجائب وقد تكرر في الحديث ذكر النجيب من الإبل مفردا ومجموعاً وهو القوي منها الخفيف السريع.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٧٤/٣.

معناه اذهبا إلى القوم وهذا الخطاب لموسى عليه السلام ثم قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) يعني: بالعلامات التي خلق الله تعالى في الدنيا ويقال بآياتنا يعني: بالرسل وبكتب الأنبياء عليهم السلام الذين قبل موسى ثم قال: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ يعني: كذبوهما فأهلكناهم إهلاكاً ويقال: في الآية تقديم قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب يعني: كتاباً قبل التوراة قوله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ يعني: واذكر قوم نوح عليه السلام: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ يعني: نوحاً وحده كما قال (يَأَيُّهَا الرُّسُل) ولم يكن إلا واحد وقت هذا الخطاب فيجوز أن يذكر الجماعة ويراد به الواحد كما يذكر الواحد ويراد به الجماعة كقوله (وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) وإنما أراد به الناس ألا ترى أنه استثنى منه جماعة ويقال: إن نوحاً كان يدعو قومه إلى الإيمان به وبالأنبياء الذين بعده فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل فلهذا قال (لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُل) ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ يعني: عبرة لمن بعدهم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: وجيعاً ثم قال عز وجل: ﴿وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ يعني: واذكر عاداً وثمود وأصحاب الرس وهم قوم قد نزلوا عند بئر كانت تسمى الرس فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله تعالى ويقال إنما سُمُّوا أصحاب الرس لأنهم قتلوا نبيهم ورسولهم في بئر لهم وقال مقاتل: يعني: البئر التي كان فيها أصحاب ياسين بأنطاكية التي بالشام[1] ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ يعني: أهلكنا أمماً بين قوم ونوح وعاد وبين عاد وثمود إلى أصحاب الرس كثيراً ﴿وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ يعني: بينا لهم العذاب أنه نازل بهم في الدنيا ﴿وَكُلاً تَبَّرْنَا تتبيراً﴾ أي: دمرناهم بالعذاب تدميراً يقال تبره إذا أهلكه.

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَتَوا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ يعني: أهل مكة مروا على القرية ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: قريات لوط أمطرنا عليهم الحجارة قوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ يعني: أفلم يبصرونها فيعتبروا بها ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ يعني: بل كانوا لا يخافون البعث ويقال لا يرجون ثواب الآخرة وإنما جاز أن يعبر به عنهما لأن في الرجاء طرفاً من الخوف لأن كل من يرجو شيئاً فإنه يخاف وربما يدرك وربما لا يدرك قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ يعني: ما يقولون لك إلا سخرية فيما بينهم ويقولون ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ يعني: إلينا وهو قول أبي جهل حين قال لأبي سفيان بن حرب أهذا نبي بني عبد مناف

---

(١) الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ الآية وهم الذين قتلوا حبيباً النجار وذكر المفسرون أقوالاً في أصحاب الرس منها أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة فبعث الله تعالى إليهم نبياً من ولد يهوذا بني يعقوب فحفروا له بئراً وألقوه فيها فهلكوا وهذا قول علي كرم الله وجهه. انظر زاد المسير ٦/ ٩٠.

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يعني: أراد أن يصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ يعني: عن عبادة آلهتنا ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعني: ثبتنا على عبادتها لأدخلنا في دينه حكى قولهم ثم بين مصيرهم فقال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً يعني: تبين لهم أن الذي قلت لهم كان حقاً قوله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهه هواه﴾ يعني: اتخذ هوى نفسه إلهاً يعني: يعمل بكل ما يدعوه إليه هواه ويقال: إنهم كانوا يعبدون حجراً فإذا رأوا الحجر أحسن منه تركوا الأول وعبدوا الثاني ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ يعني: أتريد أن تكون بيدك المشيئة في الهدى والضلالة ويقال معناه أفأنت تكون عليه وكيلاً يعني: أتريد أن تكون رباً لهم فتجزيهم بأعمالهم يعني: لست كذلك فأنذرهم فإنما أنت منذر ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني: أتظن أنهم يريدون الهدى أو ﴿يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الهدى ﴿إِنْ هُمْ﴾ يعني: ما هم ﴿إِلَّا كَالأَنْعَامِ﴾ في الأكل والشرب ولا يتفكرون في أمر الآخرة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً من البهائم لأن البهائم ليسوا بمأمورين ولا بمنهيين وقال مقاتل البهائم تعرف ربها وتذكره وكفار مكة لا يعرفون ربهم فيوحدونه قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال بعضهم: فيه تقديم ومعناه ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وقال بعضهم فيه مضمر ومعناه ألم تر إلى صنع ربك كيف مد الظل يعني: بسط الظل بعد انفجار الصبح إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ يعني: دائماً كما هو لا شمس معه كما يكون في الجنة ظل ممدود ويقال تلك الساعة تشبه ساعات الجنة إلا أن الجنة أنور ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ حيث ما تكون الشمس يظهر الظل وقال القتبي إنما يكون دليلاً لأنه لو لم تكن الشمس لم يعرف الظل لأن الأشياء تعرف بأضدادها ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ يعني: الظل بعد غروب الشمس وذلك أن الشمس إذا غابت عاد الظل وذلك وقت قبضه لأن ظل الشمس بعد غروب الشمس لا يذهب كله جملة وإنما يقبض الله ذلك الظل قبضاً خفياً شيئاً فشيئاً دلَّ الله تعالى بهذا الوصف على قدرته ولطفه في معاقبته بين الظل والشمس (لمنافع الناس ولمصالح) عباده وبلاده ويقال ثم قبضناه أي: قبضناه سهلاً ويقال: يسيراً عند طلوع الشمس ثم قبضناه يسيراً يعني: هيناً سهلاً ويقال يسيراً يعني: خفياً فلا يدري أحد أين يصير وكيف يصير ويقال: ثم قبضناه يعني: ورفعناه رفعاً خفيفاً.

ويقال قوله (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) أي: على الأوقات في النهار ليعرف زوال الشمس وأوقات الصلاة

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ يعني: سكناً لتسكنوا فيه ويقال لباساً ستراً يستر جميع الأشياء ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ يعني: راحة للخلق ليستريحوا فيه بالنوم ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ أي: للنشور ينتشرون فيه لابتغاء الرزق ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً﴾ يعني: تنشر السحاب والاختلاف في القراءات كما ذكرنا في سورة الأعراف ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: قدام المطر ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ يعني: مطهراً يطهر به الأشياء ولا يطهر بشيء ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ يعني: أرضاً لا نبات فيها فينبت بالمطر ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ يعني: نسقي

بالمطر ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ وهو جماعة الإنس يعني: نسقي به الناس والدواب لفظ البلدة مؤنث إلا أن معنى البلدة والبلد واحد فانصرف إلى المعنى ولو قال ميتة لجاز إلا أنه لم يقرأ ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: قسمناه بين الخلق ويقال نصرفه من بلد إلى بلد مرة بهذا البلد ومرة ببلد آخر كما روي عن ابن مسعود[1] أنه قال ما من عام بأمطر من عام ولكن الله تعالى يصرفه (في الأرض ثم قرأ هذه الآية كما روي عن ابن مسعود عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم فإذا ـ عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي[2] والبحار وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما من عام بأكثر من عام ولكن يصرفه)[3] حيث يشاء فذلك قوله تعالى: ولقد صرفناه بينهم ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ يعني: ليتعظوا في صنعه فيعتبروا في توحيد الله تعالى فيوحدوه وقرأ حمزة والكسائي ليذكروا بالتخفيف وضم الكاف قرأ والباقون بالتشديد والنصب ثم قال:[4] ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ يعني: كفراناً في النعمة وهو قولهم مطرنا بنوء كذا[5] ويقال: إلا جحوداً وثباتاً على الكفر قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ قال مقاتل: ولو شئنا لبعثنا في زمانك في كل قرية رسولاً ولكن بعثناك إلى القرى كلها رسولاً اختصصناك بها ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ وذلك حين دعـوه إلى ملة آبائه ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ يعني: شديداً.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: أرسل ويقال حلي البحرين ويقال: فلق البحرين ويقال خلق البحرين العذب والمالح ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يعني: حلواً ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ يعني: مر مالح ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي: حاجزاً ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي: حرم على العذب أن يملح وحرم على المالح أن يعذب وحرم على كل واحد منهما أن يختلط بصاحبه وأن يغير كل واحد منهما طعم صاحبه قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً﴾ أي: من النطفة إنساناً ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ فالنسب ما لا يحل لك نكاحه من القرابة والصهر ما يحل لك نكاحه من القرابة وغير القرابة وهذا قول الكلبي وقال الضحاك: النسب القرابة والصهر الرضاع ويحرم من الصهر ما يحرم من النسب ويقال النسب الذي يحرم بالقرابة والصهر الذي يحرم بالنسب وهو ما ذكر في قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمَّهَاتُكُمْ وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وَبَنَاتُ الأُخْتِ)[6] فهذه السبع تحرم بالقرابة والسبع التي تحرم بالنسب فهو ما ذكر بعده وهو قوله تعالى: (وَأُمَّهَاتكم اللاتي أَرْضَعْنَكُمْ) إلى آخر الآية وامرأة الأب ثم قال

(١) ذكره ابن كثير عن ابن مسعود وابن عباس ١٢٤/٦.

(٢) الفيافي: قال في السان: الفيف والفيفاة والمفازة لا ماء فيها. انظر لسان العرب ٣٥٠٢/٥.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥١١، النشر ٣٣٤/٢.

(٥) النوء النجم إذا مال للمغيب والجمع أنواء ونوان. انظر لسان العرب ٤٥٦٧/٦.

(٦) انظر النشر في القراءات العشر ٣٣٤/٢.

تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ فيما أحل من النكاح وفيما حرم ويقال: قديراً على ما أراد قوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوهم ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوهم ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ أي: عوناً للشياطين على ربه قال بعضهم: نزلت في شأن أبي جهل بن هشام ويقال في شأن جميع الكفار ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً ونذيراً﴾ يعني: ما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ونذيراً بالنار لمن عصاه ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: قل لكفار مكة ما أسألكم يعني: على القرآن والإيمان ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: من جُعل ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ يعني: إلا من شاء أن يوحده ويتخذ إلى ربه بذلك التوحيد سبيلاً يعني: مرجعاً ويقال: يعمل فيتخذ عند ربه مرجعاً صالحاً فيدخل به الجنة يعني: لا أريد الأجر ولكن أريد لكم هذا الذي ذكر وقصدي هذا لا أنْ آخذ منكم شيئاً.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِيْ لَا يَمُوتُ﴾ وذلك حين دعي إلى ملة آبائه فأمره الله تعالى بأن يتوكل على ربه قال الكريم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ قال مقاتل: واذكر بأمره وقال الكلبي: صل بأمره ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ يعني: عالماً معناه وكفى بالله عالماً بذنوب عباده وبمجازاتهم فلا أحد أعلم بذنوب عباده ومجازاتهم منه ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقد ذكرناه وتم الكلام ثم قال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ يعني: استوى الرحمن على العرش قال: ويجوز أن يكون على معنى الابتداء ثم قال: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْراً﴾ يعني: فاسأل (عنه عالماً ويقال معناه ما أخبرتك به من شيء فهو كما أخبرتك فاسأل)[1] بذلك عالماً حتى يبين لك ذلك كقوله: (فَإِنْ كُنْتَ فِيْ شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) الآية خاطب به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد به أمته قوله عز وجل: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ يعني: صلوا للرحمن ويقال: اخضعوا له ووحدوه ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ يعني: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ لذلك الكذاب قرأ حمزة والكسائي بالياء على معنى المغايبة قرأ الباقون على المخاطبة ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ يعني: زادهم ذكر الرحمن تباعداً عن الإيمان فمن قرأ بالياء فمعناه لما يأمرنا الرحمن بالسجود ويقال لما يأمرنا محمد يعني لا نسجد لما يأمرنا كقوله: (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ) يعني: من طاب لكم ومن قرأ بالتاء أراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو عبيد: هذا هو الوجه لأن المشركين خاطبوه بذلك وكانوا غير مقرين بالرحمن.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾

(١) المصدر السابق.

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قوله عز وجل: **﴿تَبَارَكَ﴾** وقد ذكرناه **﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾** يعني: خلق في السماء بروجاً يعني: نجوماً وكواكب ويقال: قصوراً وذكر أنه جعل في القصور حراساً كما قال في آية أخرى (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً) الآية ويقال: البروج الكواكب العظام وكل ظاهر مرتفع فهو برج وإنما قيل لها بروج لظهورها وارتفاعها ثم قال تعالى: **﴿وَجَعَلَ﴾** يعني: خلق فيها **﴿سِرَاجاً﴾** يعني: شمساً **﴿وَقَمراً منيراً﴾** يعني: منوراً مضيئاً قرأ حمزة والكسائي (سُرُجاً) بلفظ الجمع يعني الكواكب وقرأ الباقون (سِرَاجاً) وبه قال أبو عبيدة: بهذا نقرأ كقوله (وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً) ولأنه قد ذكر الكواكب بقوله: (بُرُوجاً) ثم قال عز وجل: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهار﴾** أي: خلق الليل والنهار **﴿خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّر﴾** أي خلفة يخلف كل واحد منها صاحبه يذهب الليل ويجيء النهار ويذهب النهاء ويجيء الليل ويقال: خلفة يعني: مخالفاً بعضه لبعض أحدهما أبيض والآخر أسود فهما مختلفان كقوله عز وجل: (إِنَّ فِيْ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) الآية وعن الحسن أنه قال: النهار خلف من الليل لمن أراد أن يعمل بالليل فيفوته فيقضي فإذا فاته بالنهار يقضي بالليل لمن أراد أن يذكر قرأ حمزة (يَذْكُر) بتسكين الذال وضم الكاف يعني: يذكر ما نسي إذا رأى اختلاف الليل والنهار وقرأ الباقون بالتشديد[1] (يَذَّكَّر) وأصله يتذكر يعني: يتعظ في اختلافهما ويستدل بهما **﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾** يعني: العمل الصالح ويترك ما هو عليه من المعصية ويقال أو أراد شكوراً أو أراد توحيداً وإقراراً فيمكنه ذلك قوله عز وجل: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾** يعني: وإن من عباد الرحمن عباداً يمشون **﴿عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾** يعني: يمضون متواضعين وهذا جواب لقولهم وما الرحمن أنسجد فقال الرحمن الذي جعل في السماء بروجاً وهو الذي له عباد مثل هؤلاء يعني أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن كان مثل حالهم وهذا كقوله (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ) وكقوله: (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ) الآية وقال مجاهد: يمشون على الأرض هوناً قال في طاعة الله متواضعين ويقال: هوناً أي هيناً لا جور فيه على أحد ولا أذى ويقال: هوناً يعني: سكينة ووقاراً وحلماً **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾** يعني: كلمهم الجاهلون بالجهل **﴿قَالُوا سَلَاماً﴾** يعني: سداداً من القول ويقال: ردوا إليهم بالجميل وقال الحسن: أي حلماً لا يجهلون وإن جهل عليهم حلموا[2] وقال الكلبي: نسخت بآية القتال وقال بعضهم: هذا خطأ لأن هذا ليس بأمر ولكنه خير من حالهم والنسخ يجري في الأمر والنهي ثم وصف حال لياليهم فقال عز وجل: **﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً﴾** يعني: يقومون بالليل في الصلاة سجداً **﴿وَقِيَاماً﴾** يعني: يكونون في ليلتهم مرة ساجدين ومرة قائمين وروي عن ابن عباس أنه كان يقول: من صلى ركعتين أو أربعاً بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً ثم وصف خوفهم فقال إنهم مع جهدهم خائفون من عذاب الله عز وجل ويتعوذون منه فقال عز وجل: **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾** يعني: عباد الرحمن **﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَراماً﴾** يعني: لازماً لا يفارق صاحبه وقال بعض أهل اللغة: الغرام في[3] اللغة أشد العذاب وقال محمد بن كعب القرظي: (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً) قال سألهم عن النعم فلم يأتوا بثمنها فأغرمهم ثمن النعم

---

(١) أنظر إتحاف فضلاء البشر، ٢/ ٣١٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٧٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) قال في اللسان ٥/ ٣٢٤٧ قال الزجاج: الغرام أشد العذاب في اللغة.

وأدخلهم النار ثم قال: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقراً ومُقَاماً﴾ يعني: بئس المستقر وبئس الخلود والمقام الخلود كقوله: (دَارَ المُقَامَةِ) يعني: دار الخلود ويقال نصب المستقر للتمييز ومعناه لأنها ساءت في المستقر ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا﴾ وقرأ نافع وابن عامر يُقْتِرُوا بضم الياء وكسر التاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو لم يَقْتِروا بنصب الياء وكسر التاء وقرأ أهل الكوفة بنصب الياء وضم التاء[1] ومعنى ذلك كله واحد يعني: لم يسرفوا فينفقوا في معصية الله ولم يقتروا فيمسكوا عن الطاعة ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ يعني: بين ذلك عدلاً ووسطاً وقال الحسن: ما أنفق الرجل على أهله في غير إسراف ولا فساد ولا إقتار فهو في سبيل الله تعالى وقال مجاهد: لو كان لرجلٍ مثل أبي قبيس ذهباً فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ يعني: لا يشركون بالله ويقال: الشرك ثلاثة أولها أن يعبد غير الله تعالى والثاني أن يطيع مخلوقاً بما يأمره من المعصية والثالث أن يعمل لغير وجه الله تعالى فالأول كفر والآخران معصية ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بإحدى خصال ثلاث وقد ذكرناه ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ يعني: لا يستحلون الزنا ولا يقتلون النفس ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعني: الشرك والقتل والزنا ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ قال الكلبي يعني: عقاباً في النار وذكر عن سيبويه والخليل أنهما قالا: معناه جزاء الآثام ويقال: الآثام العقوبة وقال الشاعر:

جَـزَى اللَّهُ ابْـنَ عُـرْوَةَ حِـيـنَ أَمْـسَـى ... عَـقُـوقـاً فَـالْـعُـقُـوقُ لَـهُ أَثَـامُ[2]

أي: عقوبة ثم قال عز وجل: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ يعني: في العذاب صاغراً يهان فيه قرأ عاصم يضاعف له بالألف وضم الفاء وقرأ ابن عامر وابن كثير يضعف بغير ألف والتشديد وجزم الفاء وقرأ الباقون يضاعفون بالألف وجزم الفاء وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر ويخلدُ بضم الدال وروى حفص عن عاصم وابن كثير ويخلد بالإشباع والباقون بجزم[3] الدال ثم قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: تاب

---

(١) انظر حجة القراءات ٥١٣، النشر ٢/٣٣٤.

(٢) البيت لبلعاء بن قيس الكناني أنظر الكامل للمبرد ص ٤٤٦، تفسير الطبري ١٩/٢٤، مجاز القرآن ٢/٨١.

(٣) قال ابن زنجلة: قرأ ابن كثير (يُضَعَّفْ له العذابُ) بالتشديد والجزم. وقرأ ابن عامر: (يضعَّفُ بالتشديد والرفع (ويخلُدُ) بالرفع أيضاً. وقرأ أبو بكر: (يُضاعَفُ) بالرفع والألف (ويخلُدُ) بالرفع. وقرأ الباقون: (يُضاعَفْ) (ويَخْلُدْ) بالألف والجزم فيهما. فمن جزم جعله بدلاً من جواب الشرط والشرط قوله: (ومنْ يفعـل ذلك) جوابه: يلقَ وعلامة الجزم فيه سقوط الألف و (يُضاعفْ) بدل من يلق ويخلُدْ نسقٌ عليه قال الزجاج: (وتأويل الأثام تأويل المجازاة على الشيء) قال أبو عمرو الشيباني: (يقال: لقد لقى أثام ذلك أي جزاء ذلك). وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه: يلقى جزاء الأثام ومثله (مُشْفقين مما كسبوا). قال أبو عبيدة: يلق (أثاماً) أي عقوبة أي عقوبته. ومن رفع فقد استغنى الكلام وتمّ جواب الشرط فاستأنف على تأويل تفسير (يلق أثاماً) كأن قائلاً قال: (ما لقى الآثم؟). فقيل: (يضاعف للآثم العذاب) و (يخلُدُ) نسق عليه و (يُضعِّف) جيد تقول: ضاعفْتُ الشيء وضعَّفْتُه. انظر حجة القراءات ٥١٤ ـ ٥١٥.

من الشرك والزنا والقتل وصدَّق بتوحيد الله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ يعني: مكان الشرك الإيمان ومكان القتل الكف ومكان الزنا العفاف ومكان المعصية العصمة والطاعة ويقال: إنه يبدل في الآخرة مكان عمل السيآت والحسنات وروي عن ابن مسعود أنه قال: إن يوم القيامة إذا أعطى الإنسان كتابه لينظر في كتابه فيرى في أوله معاصي وفي الآخر حسنات فلما رجع إلى أول الكتاب رآه كله حسنات وروى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يعرض عليه أصاغر ذنوبه وهو مشفق من الكبائر أن تجيء ذنوبه العظام فإذا أريد به خيراً قيل أعطوه مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب إن لي ذنوباً ما أراها هنا قال: ولقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[1] يضحك ثم تلا (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ) وذكر عن أبي هريرة أنه قال: خرجت من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألتني امرأة في الطريق فقالت زنيت ثم قتلت الولد فهل لي من توبة فقلت: لا توبة لك أبداً ثم قلت: أفتيتها ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهرنا فرجعت إليه فأخبرته بذلك فقال هلكت وأهلكت فأين أنت من هذه الآية (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ) إلى قوله: (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ) فخرجت وقلت من يدلني على امرأة سألتني مسألة والصبيان يقولون جن أبو هريرة حتى أدركتها وأخبرتها بذلك فسرت وقالت: إن لي حديقة جعلتها لله ولرسوله[2] وقال بعضهم: هذه الآية مدنية نزلت في شأن وحشي وقال بعضهم: الآية قد كانت نزلت بمكة فكتب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المدينة إلى وحشي ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يعني: غفوراً لما فعلوا قبل التوبة لمن تاب رحيم [بالمؤمنين][3] بعد التوبة.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: تاب من الشرك والمعاصي وعمل صالحاً بعد التوبة ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ يعني: مناصحاً لا يرجع ويقال متاباً له في الجنة ويقال متاباً يعني: توبة يعني يتوب توبة مخلصة ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ يعني: لا يحضرون مجالس الكذب والفحش والكفر ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ يعني: مجالس اللهو والباطل ﴿مَرُّوا كِرَاماً﴾ يعني: حُلماء عُلماء معرضين عنها وقال القتبي: مروا كراماً لم يخوضوا فيه وأكرموا أنفسهم ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: وعظوا بالقرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾

---

(١) أخرجه مسلم ١/١٧٧ كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة (٣١٤ ـ ١٩٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٧٩ وعزاه لأحمد وهناد والترمذي وابن جرير والبيهقي وفي الأسماء والصفات عن أبي ذر.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره ٦/١٣٩ وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف.

(٣) سقط في أ.

يعني: لم يقعوا عليها ﴿صُمّاً وعُمْياناً﴾ يعني: لا يسمعون ولا يبصرون ولكنهم سمعوا وانتفعوا به وهذا قول مقاتل وقال القتبي لم يخروا عليها أي لم يتغافلوا عنها فكأنهم صم لم يسمعوها عمي لم يروها ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني: اجعل أزواجنا وذريتنا من الصالحين تقر أعيننا بذلك ويقال: وفقهم للطاعة واعصمهم من المعصية ليكونوا معنا في الجنة فتقر بهم أعيننا قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وذريتنا بلفظ الوحدان وقرأ الباقون وذرياتنا بلفظ الجماعة(١) ثم قال ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ يعني: اجعلنا أئمة في الخير يقتدي بنا المؤمنون كما قال: «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا» أي: قادة في الخير وروي عن عروة أنه كان يدعو بأن يجعله الله ممن يحمل عنه العلم فاستجيب دعاؤه وروي عن مجاهد معناه واجعلنا ممن نقتدي بمن قبلنا حتى يقتدي بنا من بعدنا ويقال: معناه اجعلنا ممن يقتدي بالمتقين ويقتدي بنا المتقون فهذا كله من خصال عباد الرحمن من قوله: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ إلى هاهنا فوصف أعمالهم ثم بين ثوابهم فقال عز وجل: ﴿أولئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ﴾ يعني: غرف الجنة كقوله: (غُرَفٌ مِنْ فَوقِهَا غُرَف مَبْنِيَّة) ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: صبروا على أمر الله تعالى في الدنيا وعلى طاعته ﴿وَيُلَقَّونَ فِيهَا﴾ يعني: في الجنة ﴿تَحِيَّة﴾ يعني: التسليم ﴿وَسَلاماً﴾ يعني: سلام الله تعالى لهم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر وإحدى الروايتين عن ابن عباس ويلقون فيها بنصب الياء وجزم اللام والتخفيف وقرأ الباقون ويُلقون بضم الياء ونصب اللام وتشديد القاف(٢) فمن قرأ بالتخفيف يعني: يلقي بعضهم بعضاً بالسلام ومن قرأ بالتشديد يعني: يجيء إليهم سلام الله يعني يلقى إليهم السلام من الله تعالى ثم قال عز وجل: ﴿خَالِدِينَ فِيْهَا﴾ يعني: دائمين في الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقراً وَمُقَاماً﴾ يعني: موضع القرار وموضع الخلود قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي لولا عبادتكم ويقال: ما يفعل بعذابكم لولا عبادتكم غير الله تعالى ويقال: ما ينتظر بهلاككم لولا عبادة من يعبدوني لأنزلت عليكم عذابي ويقال: لولا دعاؤكم يعني: يقول لولا إيمانكم ثم قال عز وجل سبحانه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونَ لِزَاماً﴾ يعني: عذاباً يلزمهم فقتلوا ببدر وعجلت أرواحهم إلى النار فتلك عقوبتهم فيها ويقال: لزاماً يعني: موتاً وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: خمس قد مضين من ذلك اللزام واللزم والقمر والدخان والبطشة(٣) (ويقال ما يحتاج بعذابكم لولا عبادتكم الأصنام ويقال ما يفعل الله بعذابكم لولا عبادتكم غير الله ويقال ما ينتظر بهلاككم لولا عبادة من يعبدني لأنزلت عذابي إلى غير ذلك)(٤) والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد.

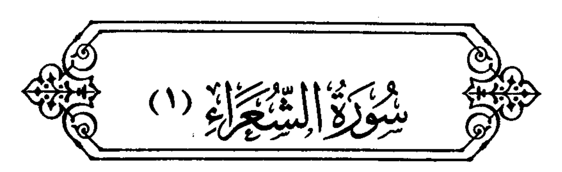
---

(١) انظر النشر ٢/٣٣٥، حجة القراءات ٥١٥.

(٢) انظر النشر ٢/٣٣٥. إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٨٢ وعزاه للطبراني.

(٤) سقط في ظ.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ (١)

وهي مائة وعشرون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

قول الله سبحانه وتعلى ﴿طسم﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بإمالة الطاء وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتفخيم وهما لغتان معروفتان عند العرب ويجوز كلاهما وقرأ نافع بين ذلك وقرأ حمزة بإظهار النون والباقون بالإدغام(٢) لتقارب مخرجهما ومن لم يدغم أراد التبيين وكلاهما جائز وأما التفسير فروى معمر عن قتادة أنه قال: إسم من أسماء القرآن ويقال والطاء طوْله والسين سَنَاؤُهُ والميم ملكه ومجده ويقال: الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال بعضهم عجزت العلماء عن تفسيرها وقال بعضهم هو قسم الله تعالى به ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني: هذه آيات الكتاب ويقال: تلك آيات الكتاب التي كنت وعدت في التوراة أن أنزلها على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكتاب ﴿الْمُبِينُ﴾ يعني: القرآن بين لكم الحق من الباطل ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ يعني: مهلك نفسك ويقال: قاتل نفسك بالحزن ﴿أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني:

---

(١) اشتملت السورة على التنويه بالقرآن والتعريض بعجزهم عن معارضته وتسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن. وفي ضمنه تهديدهم على تعرضهم لغضب الله تعالى وضرب المثل لهم بما حل بالأمم المكذبة رسلها والمعرضة عن آيات الله. وأحسب أنها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق فافتتحت بتسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتثبيت له ورباطة لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنة الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ولذلك ختم كل إستدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تسجيلاً عليهم بأن آيات الوحدانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلب الحق ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون وأن الله عزيز قادر على أن ينزل بهم العذاب وأنه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم.

قال في الكشاف: كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه وفيها من الإعتبار ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به صاحبتها ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقرت عن الإنصات للحق فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذهناً. ثم التنويه بالقرآن وشهادة أهل الكتاب له والرد على مطاعنهم في القرآن وجعله عضين وأنه منزه عن أن يكون شعراً ومن أقوال الشياطين وأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإنذار عشيرته وأن الرسول ما عليه إلا البلاغ وما تخلل ذلك من دلائل. انظر التحرير ١٩/٩٠، ٩١.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٣.

إذا لم يصدقوا بالقرآن وذلك حين كذبه أهل مكة شق ذلك عليه وحزن بذلك فقال له: ليس عليك سوى التبليغ ولا تقتل نفسك إن لم يؤمنوا ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ يعني: علامة ﴿فَظَلَّتْ﴾ يعني: فصارت ﴿أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ يعني: وننزل عليهم آية تضطرهم إلى أن يؤمنوا ولكنه لم يفعل لأنه لو فعل ذلك لذهبت المحنة فلم يستوجبوا الثواب إذا آمنوا بعد معاينة العذاب كمن آمن يوم القيامة لا ينفعه إيمانه لأنه قد ظهر له بالمعاينة ويقال فظلت أعناقهم يعني: ساداتهم وكبراؤهم والأعناق الكبراء فإن قيل: جمع الأعناق مؤنث، قال: خاضعين ولم يقل خاضعات، قيل له لأن الكلام انصرف إلى المعنى فكأنه قال: هم لها خاضعون قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ يعني: مكذبين معرضين عن الإيمان به ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ يعني: كذبوا بالقرآن كما قال في آية أخرى فَقَـدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ يعني: ﴿فَسَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ يعني: أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: يوم القيامة ويقال: قد جاءهم بعض ذلك في الدنيا وهو القتل والقهر والغلبة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله عز وجل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني: أو لم ينظروا في عجائب الأرض ويتفكروا فيها ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: من كل نوع من النبات ويقال: من كل لون حسن وقال القتبي: الكريم يقع على الأنواع والكريم الشريف الفاضل قال الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيماً) (إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) أي: شريف فاضل والكريم الصفوح وذلك من الشرف كما قال: (فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم) أي الصفوح والكريم الكثير كما قال (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي كثير والكريم الحسن كما قال (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) أي: حسن (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً) أي: حسناً وروي عن الشعبي أنه قال: (كم أنبتنا فيها) يعني: بني آدم فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ الآيَةً﴾ يعني: في اختلاف النبات وألوانه (لآيَةً) يعني لعبرة لأهل مكة أنه إله واحد ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بالتوحيد ولو كان أكثرهم مؤمنين يعني: وما كانوا مؤمنين بل كلهم كافرين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن لم يجب الرسل ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث لم يعجل بعقوبتهم ويقال رحيم بالمؤمنين قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ يعني: أتل عليهم اذ نادى ربك موسى كما قال: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) وقال مقاتل: إذ نادى ربك موسى يعني: أمر ربك يا محمد لموسى ﴿أَنْ ائتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: إذهب إلى القوم المشركين ﴿قَوْمَ فِرْعَونَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ قال مقاتل: يعني قل لهم ألا تتقون عبادة غيره وتوحدونه ويقال: (ألا يتقون) يعني: ألَا تعبدون الله تعالى ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ﴾ أي: قال يا رب ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ بما أقول ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ إذا كذبوني في رسالتك ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ لمهابته قرأ يعقوب الحضرمي ويضيقَ صدري ولا ينطلق كلاهما بنصب القاف وجعله نصباً بأن ومعناه أخاف أن يكذبون وأن يضيق

صدري وأن لا ينطلق لساني وقراءة العامة بالضم[1] على معنى الإستئناف ثم قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ يعني: أرسله معي لكي يكون عوناً لي في أداء الرسالة ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ يعني: قصاص بقتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به قال القتبي: على معنى عندي أي لهم عندي ذنب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا تخف وقال الزجاج: كلا رَدْعٌ وتنبيه أي: لا يقدرون على ذلك ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ خاطب به موسى خاصة بأن يذهب مع أخيه إلى فرعون بآياتنا التسع ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ يعني: سامعين وقد بين ذلك في موضع آخر وهو قوله (أَسْمَعُ وَأَرَى) والاستماع سبب للسمع فيعبر به عنه.

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: موسى وحده ويضاف الشيء إلى اثنين ويراد به الواحد وقال القتبي: الرسول يكون بمعنى الجمع كما يكون الضيف بمعنى الجمع (قَالَ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي) وقال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة ويقال: رسول يعني به: رسولين كقوله: (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) فقال: (أَنَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: قل لفرعون ذلك ولم يذكر إتيانه إلى فرعون لأن في الكلام دليلًا عليه وقد بين في موضع آخر حيث قال: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ) وقال مقاتل: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وانقطع الكلام ثم انطلق موسى وكان هارون بمصر فانطلقا إلى فرعون قال مقاتل: فلم يأذن لهما سنة ثم أخبر البواب فرعون أن هاهنا إنساناً يذكر أنه رسول رب العالمين فقال: آئذن له لعلنا نضحك منه وقال السدي: لما أتى باب فرعون ضرب موسى ـ عليه السلام ـ عصاه على الباب ففزع فرعون من ذلك فأذن له في الدخول من ساعته فلما دخل عليه عرفه فأدى الرسالة فقال له فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ (قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: أول ما بدأ فرعون بكلام السفلة ومن على نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أطعمه فقال: (ألم نربك فينا وليداً)[2] يعني: ألم تكن صغيراً قد ربيناك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ يعني: مكثت عندنا ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ يعني: ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتلت النفس التي قتلتها وقرأ في الشاذ (فِعلتك) بكسر الكاف هي قراءة

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٤.
(٢) سقط في أ.

الشعبي وقراءة العامة بالنصب والنصب يقع على فعل واحد والكسر على المرات يعني: قتلت مرة وهممت بالقتل ثانياً ثم قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي ويقال: كفرت بي حيث قتلت النفس ويقال: وأنت من الجاحدين للقتل يعني: لم تقر بالقتل فأخبره موسى أنه غير جاحد للقتل ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً﴾ يعني: قتلت النفس ﴿وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾ عن النبوة كقوله: (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) ويقال: من الجاهلين ولم أتعمد القتل قال القتبي: أصل الضلالة العدول عن الحق ثم يكون لمعاني منها النسيان لأن الناسي عادل عنه فكما قال هاهنا: (فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ) أي: من الناسين وكما قال: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَى) ثم قال عز وجل: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ﴾ يعني: هربت منكم إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ على نفسي أن تقتلوني ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ قال الكلبي: يعني النبوة وقال مقاتل: يعني العلم والفهم ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إليكم ثم قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أو كان هذا نعمة تمنها علي أن عبدت بني أسرائيل فكأنه أنكر عليه فقال كيف تكون نعمتك التى تمن علي فإنك قد عبدت بني إسرائيل أي: استعبدتهم وتمن علي ويقال قد اعترف له بالنعمة فقال وتلك نعمة تمن علي حيث عبدت بني إسرائيل ولم تعبدني ويقال: معناه تلك نعمة إنما صارت نعمة بتعبيدك بني إسرائيل ولم تعبدني لأنك لو لم تعبدهم لم تجعلني أمي في التابوت حتى صرت في بيتك ولكن إنما صارت نعمة لأجلك حيث عبدت بني إسرائيل وقال مقاتل: وتلك نعمة تمنها علي يا فرعون بإحسانك إلي خاصة وبترك أبنائك أن عبدت بني إسرائيل وقال الكلبي: يقول تستعبد بني إسرئيل وتمن علي لذلك ﴿قَالَ فرعون﴾ لموسى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ منكراً له وهذا جواب لقوله: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ) فجاء بجواب قطع حجته ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بتوحيد الله تعالى فعجز فرعون عن الجواب ﴿فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى قول موسى ـ عليه السلام ـ قالوا له فيما تقول يا موسى فجاء بحجة أخرى ليؤكد عليهم ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: أدعوكم إلى ربكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني إلى توحيد خالقكم وخالق آبائكم الأولين ﴿قَالَ﴾ فرعون لجلسائه ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ليس بمجنون مثلي أدعوكم إلى ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني إن كان لكم ذهن الإنسانية فلما عجز عن الجواب مال إلى العقوبة كما يفعل السلاطين ﴿فَقَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي﴾ يعني: لئن عبدت رباً غيري ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ يعني: لأحبسنك في السجن قال إبن عباس وكان سجنه أشد من القتل ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ يعني: ولو جئتك بحجة بينة يستبين لكم أمري ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ يعني: فأرناه ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ بأنك رسول ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ يعني: حية صفراء أعظم الحيات ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ يعني: أخرج يده فقال ما هذه فقالوا يدك فأدخلها في جيبه وأخرجها ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يعني: لها شعاع كشعاع الشمس وانتشر الضوء حوالي مصر للناظرين لمن نظر إليها من غير برص فعجبوا من ذلك.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾

قوله عز وجل: فـ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ (إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: قال فرعون لمن حوله من)[1]يعني الرؤساء والأشراف وأصله في اللغة من ملأ قال بعضهم: الملأ إنما بما يراد بهم مائتان وخمسون وقال بعضهم: ثلاثمائة وخمسون وهم جماعة المـلأ ويقال ملأ العين هيبة يعني إذا نظر إليها الناظر ثم قال: إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ يعني: من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يعني: تشيرون ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني احبسهما وأخرجهما ولا تقتلهما ولا تؤمن بهما وأصله من التأخير يعني أخر أمرهما حتى تنظر ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون عليك السحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يعني حاذقاً ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو يوم عيد لهم وهو يوم الزينة قال مقاتل وكانوا اثنين وسبعين ساحراً ويقال سبعون ألفاً وقال الزجاج ذكر أن السحرة كانوا اثني عشر ألفاً ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: أهل مصر ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ للسحرة للميعاد ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ على أمرهم ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ قوله عز وجل ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ يعني: إلى الميقات ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً﴾ يعني: لجعلاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ يعني: أتجازينا إن غلبناه ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ نجازيكم ﴿وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني: لكم مع الجائزة الكرامة والمنزلة عندي ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ يعني: اطرحوا ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يعني: نغلب موسى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يعني: تلتقم وتبتلعُ ما يطرحون من الحبـال والعصي قولـه عز وجـل: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي: خروا سجداً لله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال فرعون: إياي تعنون قالوا ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يعني: خالق موسى وهارون ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ماذا أصنع بكم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على شاطىء نهر مصر ﴿قَالُوا﴾ يعني: السحرة ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا يضرنا ما فعلت بنا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يعني إلى خالقنا راجعون ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ يعني: نرجـو ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ يعني: شركنا وسحرنا ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أول المصدقين من قوم فرعون وذكر عن الفراء أنه قال: كان أول مؤمني أهل دهرهم وقال الزجاج: لا أحسبه عرف الرواية لأن الذين كانوا مع موسى روي في التفسير أنهم ستمائة ألف وسبعين ألفاً ولكن معناه أول من آمن في هذه الساعة

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

(١) سقط في أ.

لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ يعني: ببني إسرائيل ﴿إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ﴾ يعني: يتبعكم فرعون وقومه ويقال: أسرى يسري إسراء إذا سار ليلاً يعني: اذهبْ بهم بالليل ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون الناس لقتال موسى عليه السلام وخرج في طلبه وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يعني: طائفة وعصبة وجماعة قليلون وقال الزجاج الشرذمة في كلام العرب القليل ويروى أنهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ يعني: لمبغضين ويقال: إنا لغائظون بخلافهم لنا وذهابهم بحيلتنا ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي: مودون شاكون في السلاح قرأ ابن كثير ونافع حذرون بغير ألف والباقون بالألف حاذرون والحاذر المستعد والحذر المستيقظ ويقال الحاذر الذي يحذر في الفور والحذر الذي لا تلقاه إلا حذراً وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: (حَاذِرُونَ) بالألف وكان يقول يعني ذا أداة من السلاح ومعناه إنا قد أخذنا حذرنا من عدونا بسلاحنا قال الله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ يعني: البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ يعني: الأنهار الجارية ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يعني: من الأموال الكثيرة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: المنازل الحسنة ويقال: المنابر التي يعظم عليها فرعون قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وعيون بضم العين في جميع القرآن والباقون بالكسر[1] وهما لغتان وكلاهما جائز وقال بعضهم: (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيونٍ﴾ كلام فرعون إنا أخرجنا بني إسرائيل من أرض مصر والطريق الأول أشبه كما قال في آية أخرى (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيونٍ) الآية ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا أفعل بمن عصاني ثم استأنف فقال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ ويقال لك أورثناها يعني: هكذا أنزلنا في مساكن فرعون ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد ما غرق فرعون ثم قال: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ يعني: طلوع الشمس قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ﴾ يعني: تقاربا ورأى بعضهم بعضاً وذلك أن فرعون أُرسل في المدائن حاشرين ليحشروا الناس فركب وركب معه ألف ألف ومائتا ألف فارس سوى الرحالة أي: المشاة فلما دنوا من عسكر موسى ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ لموسى عليه السلام ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يعني: يدركنا فرعون ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿كَلَّا﴾ لا يدرككم ﴿إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ يعني: سينجيني ويهديني إلى طريق النجاة.

فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٦.

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾

قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فانْفَلَقَ﴾ يعني: وفي الآية مضمر ومعناه فضربه بالعصا فانفلق البحر ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: كالجبل العظيم ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ يعني: قربنا قوم فرعون إلى البحر وأدنيناهم إلى الغرق ومنه قوله تعالى: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: أدنيت وقربت وروي عن الحسن قال وأزلفنا يعني: أهلكنا وقال غيره: وأزلفنا أي: جمعناهم في البحر حتى غرقوا ومنه قوله قبل الجمع المزدلفة ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: من البحر ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ يعني: فرعون وقومه وقد ذكرنا القصة في موضع آخر ثم قال ﴿إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: فيما صنع لآية يعني: لعبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني مصدقين يعني: لو كان أكثرهم مؤمنين لم يهلكهم الله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ﴾ بالنعمة ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب قوله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني أخبر أهل مكة خبر إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: كيف قال لقومه ثم أخبرهم عن ذلك وذلك أن إبراهيم عليه السلام لما ولدته أمه في الغار فلما كبر وخرج دخل المصر فأراد أن يعلم على أي مذهب هم وهكذا ينبغي للعاقل إذا دخل بلدة أن يسألهم عن مذهبهم فإن وجدهم على الاستقامة دخل معهم وإن وجدهم على غير الاستقامة أنكر عليهم فقال لهم إبراهيم ما تعبدون ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي: نقوم عليها عابدين فأراد أن يبين عيب فعلهم فقال: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ يعني: هل تجيبكم الآلهة سمّي الإجابة سمعاً لأن السمع سبب الإجابة ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ يعني: هل يجيبونكم إذا دعوتموهم ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ إذا عبدتموهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ يعني: يضرونكم إن لم تعبدوهم ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: وجدنا آباءنا يعبدونهم هكذا فنحن نعبدهم قال لهم إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الإعلام يعني اعلموا أن الذي كنتم تعبدون ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ وَأَجدَادُكُم يعني: معبودكم ومعبود آبائكم وأجدادكم ﴿الأَقْدَمُونَ﴾ يعني الماضين ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيْ﴾ يعني: إنهم أعدائي ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يقال: معناه: إلا من يعبد رب العالمين ويقال: كانوا يعبدون مع الله الآلهة فقال لهم: جميع ما تعبدون من الآلهة فإنهم عدو لي إلا رب العالمين فإنه ليس لي ويقال: معناه: أتبرأ من أفعالكم وأقوالكم إلا الذي تقولون رب العالمين وهو قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ) ويقال إلا بمعنى لكن ومعناه فإنهم عدو لي لكن رب العالمين يعني: لكن أعبد رب العالمين ثم وصف لهم رب العالمين فقال ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ يعني: يحفظني ويثبتني على الهدى ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ يعني: هو الذي يرزقني ويرحمني ثم قال: ﴿وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فقد أضاف سائر الأنبياء إلى الله تعالى وأضاف المرض إلى نفسه لأن المرض كسب يده كقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فِبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وفيه كفارة وإذا كان أصله من كسب نفسه أضافه إلى نفسه ثم قال: ﴿وَالَّذِي يُمِيْتُنِي ثُمَّ يُحْيِيْنِ﴾ يعني: يميتني في الدنيا ويحييني في المبعث ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيْئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ يعني: أرجو أن يغفر خطيئتي وهو قوله: إِنِّيْ سَقِيْمٌ ويقال وقوله: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقوله لسارة هذه أختي ويقال: يعني ما كان مني من الزلل ويقال: هو قوله (هَذَا رَبِّي) ويقال ما

كان نبي من الأنبياء إلا وقد هم بزلة ثم قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ يعني: النبوة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني: بالمرسلين في الجنة ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ يعني: الثناء الحسن في الباقين وإنما أراد بالثناء الحسن لكي يفيدوا به فيكون له مثل أجر من اقتدى به ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ يعني: اجعلني ممن ينزل فيها.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

ثم قال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يعني: اهده إلى الحق من الضلالة والشرك يعني: إنه كان من المشركين في الحال كقوله عز وجل: (مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) يعني من هو في الحال صبي ويقال إنه كان من الضالين حين فارقته كقوله: (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ) وهذا الاستغفار حين كان وعده بالإسلام وقال مقاتل: إن إبراهيم عليه السلام قد كذب ثلاث كذبات وأخطأ ثلاث خطيئات وابتلي بثلاث بليات وسقط سقطة فأما الكذبات فقال (إِنِّي سَقِيمٌ) وقوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقوله لسارة حين قال هي أختي والخطايا قوله للنجم والشمس والقمر (هَذَا رَبِّي) وأما البليات حين قذف في النار والختان والأمر بذبح الولد وسقط سقطة حين دعا لأبيه وهو مشرك وقال غيره: لم يكذب ولم يخطىء ولم يسقط لأنه قال إني سقيم يعني: سأسقم لأن كل آدمي سيصيبه السقم وقوله بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا قد قرنه بالشرط وهو قوله إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ وقوله لسارة هي أخته فكانت أخته في الدين وقوله (هَذَا رَبِّي) كان على وجه الاسترشاد لا للتحقيق ويقال كان ذلك القول على سبيل الإنكار والزجر يعني أمثل هذا ربي وأما دعاؤه لأبيه فعن وعدة وعدها إياه وقد بين الله تعالى بقوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ) الآية يعني أن أباه وعده أنه سيؤمن فما دام حياً يرجو أو يدعو وإذا مات ضالاً ترك الاستغفار ويقال: إن إبراهيم كان وعده أن يستغفر له حيث قال: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي فاستغفر له ليكون منجزاً لوعده ثم قال ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ يعني: لا تعذبني يوم يبعثون من قبورهم إلى هاهنا كلام إبراهيم وقد انقطع كلامه ثم إن الله تبارك وتعالى وصف ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ يعني: يوم القيامة لا ينفع المال الذي خلفوه في الدنيا وأما المال الذي أنفقوا في الخير فليس ينفعهم وَلاَ بَنُونَ يعني الكفار لأنهم كانوا يقولون (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً) فأخبر الله تعالى أنه لا ينفعهم في ذلك اليوم المال ولا البنون وأما المسلمون ينفعهم المال والبنون لأن المسلم إذا مات ابنه قبله يكون له ذخراً وأجراً في الجنة وإن تخلف بعده فإنه يذكره بصالح دعائه فينفعه ذلك ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من جاء بقلب سليم يوم القيامة ينفعه المال والبنون ويقال: إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ فذلك ينفعه والقلب السليم هو القلب المخلص وقال ابن عباس: يعني: بقلب خالص من الشرك وروى أبو أسامة بن عوف قال: قلت لابن سيرين ما القلب السليم قال أن تعلم أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ويقال: سليم من اعتقاد الباطل ويقال: سليم من النفاق والهوى والبدعة وسئل أبو القاسم الحكيم عن القلب السليم فقال: له ثلاث علامات أولها أن لا يؤذي أحداً والثاني أن لا يتأذى من أحد والثالث إذا اصطنع مع أحد معروفاً لم يتوقع منه المكافأة فإذا هو لم يؤذ أحداً فقد جاء بالورع وإذا لم يتأذ من أحد فقد جاء بالوفاء وإذا لم يتوقع المكافأة بالاصطناع فقد جاء بالإخلاص.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ

هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: قربت الجنة للمتقين الذين يتقون الشرك والفواحش يعني: أن المتقين قربوا من الجنة ثم قال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ يعني: أظهرت الجحيم وكشفت غطاءها للكافرين ويقال: يؤتى بها في سبعين ألف زمام ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يقال للكفار أين معبودكم الذين كنتم تعبدون من دون الله ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ يعني: هل يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ يعني: هل يمتنعون من العذاب فاعترفوا أنهم لا ينصرونهم ولا ينتصرون فأمر بهم إلى النار ويقال أينما كنتم تعبدون من دون الله يعني الشياطين لأنهم أطاعوها في المعصية فكأنهم عبدوها قوله عز وجل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ يعني: جمعوا فيها هم والغاوون ويقال: فكبكبوا فيها فقدموا من النار هم والغاوون يعني: الكفار والآلهة والشياطين الذين أغووا بني آدم وهذا قول مقاتل ويقال: فكبكبوا فيها يعني: ألقي بعضهم على بعض وقال القتبي: الأصل كببوا[1] أي ألقوا على رؤوسهم فيها فأبدل مكان إحدى الباءين كاف وقال الزجاج هو تكرير الانكباب لأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها ويقال جمعوا فيها ومنه حديث جبريل عليه السلام أنه ينزل في كبكبة من الملائكة يعني: جماعة من الملائكة عليهم السلام ثم قال عز وجل: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ يعني: جمعوا فيها جميعاً ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (يعني: الكفار والأصنام ويقال: الكفار والشياطين ويقال: الرؤساء والأتباع ومعناه: قالوا وهم يختصمون)[2] فيها على ما معنى التقديم ﴿تَاللَّهِ﴾ يعني: والله ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: في خطأ بين ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: نطيعكم كما يطيع المؤمنون أمر الله عز وجل ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: ما صرفنا عن الإيمان إلا الشياطين ويقال: رؤساؤنا ويقال: آباؤنا المشركون ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ يعني: حيث يرون الأنبياء عليهم السلام يشفعون للمؤمنين والملائكة عليهم السلام يشفعون ولا يشفع أحد للكفار فيقولون ليس أحد يشفع لنا ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يعني: قريب يهمه أمرنا قوله عز وجل ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المصدقين على دين الإسلام ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعبد غير الله ليعلم أنه يتبرأ منه في الآخرة ولا ينفعه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: الذين جمعوا في النار ولم يكونوا مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن عبد غيره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: نوحاً عليه السلام وحده ويقال جميع

---

(١) قال ابن منظور: كبكبة أي كبه وفي التنزيل (فكبكبوا فيها) يقال: كب الشيء يكبه وكبكبه قلبه. انظر لسان العرب ٣٨٠٣/٥.

(٢) سقط في أ.

الأنبياء عليهم السلام لأن نوحاً عليه السلام دعاهم إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ يعني: نبيهم سماه أخوهم لأنه كان منهم وابن أبيهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني ألا تخافون الله تعالى فتوحدوه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فيما بينكم وبين ربكم وجعلني الله عز وجل أميناً في أداء الرسالة إليكم ويقال: إنه كان أميناً فيهم قبل أن يبعث ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: خافوا الله واتبعوني فيما أمركم به ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: على الإيمان (مِنْ أَجْرٍ) أيَّ أجر ﴿إِن أَجْرِيَ﴾ يعني: ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقد ذكرناه.

قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ يعني: أنصدقك واتبعك سفلتنا ويقال: الضعفاء قرأ يعقوب الحضرمي وأتباعك الأرذلون وهو جمع تابع ومعناه وأتباعك الأرذلون وقراءة العامة ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[1] بلفظ الماضي فيقال: من اتبع قال لهم نوح ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: ما كنت أعلم أن الله تعالى يهديهم من بينكم ويدعكم ﴿إِنْ حِسَابُهُم إِلاَّ عَلَى رَبِّي﴾ يعني: ما حسابهم إلا على ربي ويقال ما سرائرهم إلا عند ربي ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ إن الله تعالى علام الغيوب قالوا لنوح أطردهم حتى نؤمن لك قال لهم نوح ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ما أنا إلا منذر لكم بلغة تعرفونها ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: من المقتولين ويقال: من المرجومين بالحجارة قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ بالعذاب والتوحيد ﴿فَافْتَح بَيْنِي وبَيْنَهُم فَتْحاً﴾ يعني: إقض بيني وبينهم قضاء ويقال للقاضي: فتاح وهذه لغة أهل اليمن ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب ومن أذى الكفار ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني: السفينة المملوءة الموقرة من الناس والأنعام وغير ذلك ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ يعني: من بقي ممن لم يركب السفينة ولفظ البعد والقبل إذا كان بغير إضافة يكون بالرفع مثل قوله (لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) وكقوله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِين﴾ وإذا كانت بالإضافة يكون نصباً في موضع النصب كقوله (وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخرِينَ) ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن استخف بفقراء المسلمين واستكبر عن قول الحق ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ فلم يؤمن من قومه إلا ثمانون من الرجال والنساء ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن تعظم عن الإيمان واستخف بضعفاء المسلمين واستهزأ بهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٨.

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

وقوله عز وجل ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: كذبوا هوداً عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي نبيهم هود وقد ذكرناه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تقدم ذكره ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾ يعني: بكل طريق علامة ويقال بكل شرف علماً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ يعني: تلعبون ويقال: تضربون فتأخذون المال ممن مر بكم وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ يعني: تبنون ما لا تسكنون وقال أهل اللغة: كل لعب لا لذة فيه فهو عبث واللعب ما كان فيه لذة فهم إذا بنوا بناء ولا منفعة لهم فيه فكأنهم يعبثون ثم قال عز وجل ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ يعني: القصور وقال مجاهد: المصانع قصور وحصون وقال القتبي: المصانع البناء واحدها مصنعة ويقال الريع الإرتفاع من الأرض ومعناه: أنكم تبنون البناء والقصور وتظنون أن ذلك يحصنكم مِنْ أقدار الله تعالى ويقال: وتتخذون مصانع يعني: الحياض ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ يعني: كأنكم تخلدون في الدنيا قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ يعني: عاقبتم ويقال يعني: ضربتم بالسوط وقتلتم بالسيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يعني: فعلتم كفعل الجبارين لأن الجبارين يضربون ويقتلون بغير حق وأصل البطش في اللغة[1]: هو الأخذ بالقهر والغلبة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أعطاكم ما تعلمون من الخير ثم بين فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ يعني: أعطاكم الأموال والبنين ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: البساتين والأنهار الجارية فاعرفوا رب هذه النعمة واشكروه ليديم عليكم النعمة فإنكم إن لم تشكروه ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: أعلم أنه يصيبكم العذاب في الدنيا والآخرة قوله عز وجل ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ﴾ يعني: أنهيتنا وخوفتنا من العذاب ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ يعني: من الناهين روي عن ابن عباس أنه قال: هو الوعظ بعينه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وابن كثير إن هذا إلا خلق بنصب الخاء وقرأ الباقون بالضم[2] فمن قرأ بالنصب فمعناه ما هذا العذاب الذي تذكره إلا أحاديث الأولين ويقال الإحياء بعد الموت لا يكون وإنما هذا خلق الأولين أنهم يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قال القتبي: الخلق الكذب كقوله: (إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاق) وكقوله: (إِنْ هذا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ) أي: خوضهم للكذب والعرب تقول: للخرافات أحاديث الخلق قال: وأعمل الخلق[3]: التقدير وها هنا أراد بهم اختلاقهم وكذبهم وأما من قرأ بضم الخاء فمعناه إن هذا إلا عادة الأولين والعادة أيضاً تحتمل المعنيين مثل الأول ثم قال عز وجل:

---

(١) انظر لسان العرب ١/٣٠١.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٨، النشر ٢/٣٣٥.

(٣) واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة من موالي بني حنيفة أو بني مخزوم رأس المعتزلة سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري توفي سنة ١٣١ هـ. انظر شذرات الذهب ١/١٨٢. الأعلام ٨/١٠٨ ـ ١٠٩.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني: كذبوا هوداً فأهلكناهم بالريح ﴿إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعمل عمل الجبارين ولا يقبل الموعظة وهو تخويف لهذه الأمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم عاد ولو كان أكثرهم لم يهلكهم الله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن يعمل عمل الجبارين ولا يقبل الموعظة وهو تخويف لهذه الأمة لكيلا يسلكوا مسالكهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: صالحاً ومن قبله من المرسلين عليهم السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ يعني: نبيهم ﴿صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وقد ذكرناه. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا أَمِنِينَ﴾ يعني: في هذا الخير والسعة آمنين من الموت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيونٍ﴾ يعني: البساتين والأنهار ويقال: العيون ها هنا الآثار لأن قوم صالح لم يكن لهم أنهار جارية ويقال: كانت لهم بالشتاء آبار وكانوا يسكنون في الجبال وفي أيام الصيف كانوا يخرجون إلى القصور والكروم والأنهار ثم قال عز وجل: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال مقاتل يعني: متراكباً بعضه على بعض وقال القتبي: الهضيم الطلع قبل أن تنشق عنه القشر يريد أنه ينضم متكثر يقال رجل أهضم الكشحين إذا كان منضماً ويقال هضيم أي طري لين ويقال هضيم متهشهش في الفم ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع فرهين بغير ألف وقرأ الباقون فارهين بالألف[1] فمن قرأ فرهين فهو بمعنى أشرين بطرين وهو الطغيان في النعمة وإنما صار نصباً على الحال ومن قرأ فارهين أي حاذقين[2] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به قوله عز وجل ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: قول المشركين وهم التسعة رهط ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ يعني: لا يأمرون بالصلاح ولا يجيبونه ولا يطيعونه فأجابوه قوله ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ

---

(١) قال الفراء: هما لغتان مثل طمع وطامع انظر حجة القراءات ٥١٩.

(٢) قال ابن منظور: الفاره الحاذق بالشيء والفروهة والفراهة والفراهية: النشاط وفره بالكسر أشر وبطر ورجل فره: نشيط أشر. وفي التنزيل (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) فمن قرأه كذلك فهو من هذا شرهين بطرين ومن قرأه فارهين فهو من فره بالضم. انظر لسان العرب ٥/٣٤٠٦.

﴿الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعني: من المخلوقين ويقال: ذو سحر والسحر هو الدية يعني إنك مثلنا وروي عن ابن عباس أنه قال: من المسحرين أي من المخلوقين وقال: أما سمعت قول لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسحر[1]

ويقال إنما أنت من المسحرين يعني سوقة مثلنا والسوق إذا كان دون السلوك ثم قال عز وجل ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يعني: آدمي مثلنا ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنك رسول الله تعالى ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾ والشرب في اللغة النصيب من الماء والشُرب بضم الشين المصدر والشَرب بنصب الشين جماعة الشراب فكان للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم فذلك قوله: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ يعني: لا تصيبوها بعقر يعني لا تقتلوها فإنكم إن قتلتموها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: قتلوا الناقة ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ يعني: فصاروا نادمين على عقرها قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: عاقبهم الله تعالى بالعذاب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعظم آيات الله تعالى وكانت النَّاقة علامة لنبوة صالح عليه السلام فلما أهلكوها ولم يعظموها صاروا نادمين والقرآن علامة لنبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - فمن رفضه ولم يعمل بما فيه ولم يعظمه يصير نادماً غداً ويصيبه العذاب ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم صالح عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن لم يعظم آيات الله تعالى الرحيم لمن تاب ورجع.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: لوطاً وغيره ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقد ذكرناه، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: أتجامعون الرجال من بين العالمين ﴿وَتَذَرُونَ﴾ يعني: وتتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني: من نسائكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ يعني: معتدين من الحلال إلى الحرام ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ من مقالتك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا ﴿قَالَ﴾ ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ يعني: من المبغضين ويقال: قلت الرجل إذا بغضته ومنه قوله: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى). قوله عز وجل: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من الفواحش ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعني: الباقين في

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري انظر ديوانه ٧١.

العذاب يعني: وامرأته ويقال إن هذا من أسماء الأضداد يقال: غبر الشيء إذا مضى وغبر الشيء إذا بقى[١] وقال بعض أهل اللغة: القالي التارك للشيء الكاره له غاية الكراهية ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ يعني: أهلكنا الباقين ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ يعني: بئس مطر من أنذر فلم يؤمن ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن عمل الفواحش أي وارتكب الحرام. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن ارتكب الفواحش وعمل الحرام رحيم لمن تاب وقد ذكرناه.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي الأيكةِ بكسر الهاء والألف والباقون ليكة بغير ألف ونصب الهاء إسم بلد ولا ينصرف من قرأ الأيكة فلأنها عرفت بالألف واللام فيصير خفضاً بالإضافة في الشاذ ليكة بكسر الهاء بغير ألف[٢] لأن الأصحاب مضاف إلى ليكة فصار إسماً واحداً ويقال الأيكة هي الشجرة الملتفة يقال: أيك وأيكة[٣] مثل أجم وأجمة ويقال: شجرة الدوم وهو شجر المقل ثم قال عز وجل: ﴿إِذَا قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم قال بعضهم: كان شعيب بعث إلى قومين أحدهما مدين وكان شعيب منهم فسماه أخاهم حيث قال وإلى مدين أخاهم شعيباً والآخر أصحاب الأيكة ولم يكن شعيب ـ عليه السلام ـ منهم فلم يقل أخوهم وقال بعضهم: كان مدين والأيكة واحداً وهو الغيضة بقرب مدين فذكره في موضع أخوهم ولم يذكره في الآخر ثم قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني: ألا تخافون الله تعالى فتوحدوه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه

﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ يعني: من الناقصين في الكيل والوزن وفي هذا

---

(١) غَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ غُبُورا مَكَثَ وَذَهَبَ وغَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ أي: بَقِيَ والغابر: الباقي والغابر الماضي وهو من الأضداد. انظر لسان العرب ٥/٣٢٠٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٩.

(٣) الأيكة الشجر الكثير الملتف. وقيل هو الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر قال أبو حنيفة: قد تكون الأيكة الجماعة من كل الشجر حتى من النخل وجمع الأيكة: أيك. انظر لسان العرب ١/١٩٠.

دليل على أنه أراد بهذا أهل مدين لأنه ذكر في تلك الآية (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ) كما ذكرها هنا ثم قال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يعني: بميزان العدل بلغة الروم ويقال هو القبان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يعني: لاتنقصوا الناس حقوقهم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بالقسطاس بكسر القاف والباقون بالضم[1] وهما لغتان ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تسعوا فيها بالمعاصي يقال: عثى يعثو وعاث يعيث وعثى يعثي إذا ظهر الفساد ثم قال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: الخليقة الأولى ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وقد ذكرناه ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: ما نظنك إلا من الكاذبين ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: جانباً من السماء وقريء كِسَفاً بنصب السين أي: قطعاً وهو جمع كسفة ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ﴾ لهم شعيب ـ عليه السلام ـ ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من نقصان الكيل ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في العذاب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ لأنه أصابهم حر شديد فخرجوا إلى غيضة فاستظلوا بها فأرسل عليهم ناراً فأحرقت الغيضة فاحترقوا كلهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ صار العذاب نصباً لأنه خبر كان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن نقص في الكيل والوزن ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم شعيب ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن نقص الكيل والوزن ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ورجع.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: القرآن ويقال: إنه إشارة إلى ما ذُكر في أول السورة تلك آيات الكتاب المبين وأنه يعني: الكتاب لتنزيل رب العالمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر نزل بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف[2] فمن قرأ بالتشديد فمعناه نَزَّلَ الله تعالى بالقرآن الروح الأمين يعني جبريل ـ عليه السلام ـ نصب الروح لوقوع الفعل عليه يعني: أنزل الله تعالى جبريل بالقرآن ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: نزل جبريل ـ عليه السلام ـ بالقرآن فجعل الروح رفعاً لأنه فاعل ثم قال: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: نزله عليك ليثبت به قلبك ويقال أي يحفظ به قلبك ويقال: على قلبك أي: نزل على قدر فهمك وحفظك ويقال: أي: نزله عليك فوعاه قلبك وثبت فيه فلا تنساه أبداً كما قال (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) ويقال: على قلبك يعني: على موافقة قلبك ومرادك ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ يعني: من المخوفين بالقرآن للكفار من النار ثم قال عز وجل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ يعني: مبين لهم بلغتهم ويقال: بلغة قريش وهوازن وكان لسانهما أفصح قال

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٢٠.

(٢) حجتهم قوله تعالى ﴿قُلْ: نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ من رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿فإنَّهُ نزَّلَه على قلبك بإذن الله﴾ فلما كان في هذين الموضعين جبرائيل هو الفاعل بإجماع ردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه والباء للتعدية كما أن التشديد في قوله (نزّله) للتعدية. وحجة الباقين أن ذلك أتى عقيب الخبر عن تنزيل القرآن وهو قوله: ﴿وإنه لتنزيلُ رب العالمين﴾ والتنزيل مصدر (نزّل) بالتشديد فكأن قوله: (نزّلَ به روح الأمين) كانَ مردوداً على ما تقدمه من ذكر الله تعالى ليكون آخر الكلام منظوماً على لفظ أوله إذ كان على سياقه. انظر حجة القراءات ٥٢٠، ٥٢١.

مقاتل: وذلك أنهم كانوا يقولون إنه يُعلمه أبو فكيهة وكان أعجمياً رومياً فأخبر أن القرآن بلغة قريش ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - ونعته وصفته في كتب الأولين كما قال: (يجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ) والزبر الكتب واحدها زبور مثل رسل ورسول ويقال إنه يعني القرآن لفي زبر الأولين يعني بعضه كان في كتب الأولين ويقال نعت القرآن وخبره كان في كتب الأولين ثم قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ بالتاء وضم الهاء وقرأ الباقون بالياء بلفظ التذكير آية بالنصب فمن قرأ بلفظ التذكير والنصب جعل أن يعلمه إسم كان وجعل آية خبر كان والمعنى أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل على جهة المعنى ومن قرأ بلفظ التأنيث والضم جعل آية هي الإسم وأن يعلمه خبر تكن ومعنى القراءتين واحد وذلك أن كفار مكة بعثوا رسولاً إلى يهود المدينة وسألوهم عن بعثته فقالوا هذا زمان خروجه ونعته كذا فنزل أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً يعني: لكفار مكة علامة ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: إن هذا علامة لهم ليؤمنوا به ثم قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ يعني: القرآن لو نزلناه بالعبرانية على رجل ليس بعربي اللسان من العبرانيين ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على كفار مكة ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني بالقرآن فهذا منة من الله تعالى حيث خاطبهم بلغتهم ليعرفوه وليفهموه وقال القتبي: في قوله على بعض الأعجمين يقال رجل أعجمي إذا كان في لسانه عجمة وإن كان من العرب ورجل عجمي بغير ألف إذا كان من العجم وإن كان فصيح اللسان

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني: جعلنا التكذيب بالقرآن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين مجازاة لهم أن طبع على قلوبهم وسلك فيها التكذيب ويقال: جعل حلاوة الكفر في قلوبهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن ويقال بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني يأتيهم العذاب فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به فيتمنون الرجعة والنظرة ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ فلما وعدهم العذاب قالوا فأين العذاب تكذيباً به يقول الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أبمثل عذابنا يستهزؤن ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ يعني: سنين الدنيا كلها ويقال سنين كثيرة ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب قوله عز وجل: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ يعني: ما ينفعهم ﴿مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا ثم خوفهم فقال ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: من أهل قرية فيما خلا ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ يعني: رسلاً ينذرونهم ﴿ذِكْرَى﴾ يعني: العذاب تذكرة وتفكراً قال بعضهم: إن ذكرى في موضع النصب وقال بعضهم: في موضع رفع أما من قال في موضع النصب فيقول لها منذرون يذكرونهم ذكرى يعني: يعظونهم عظة ومن

قال أنه في موضع رفع فيقول لها منذرون هم ذكرى ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعني: بإهلاكنا إياهم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ روي عن الحسن أنه قرأ وما تنزلت به الشياطون شبههُ بقوله كافرون ومسلمون قال أبو عبيدة وهذا وهم لأن واحدها شيطان والنون فيه أصلية وأما مسلمون وكافرون فالنون فيهما زائدة في الجمع لأن واحدهما مسلم وكافر وقال بعضهم: هذا غلط على الحسن لأنه كان فصيحاً لا يخفى عليه وإنما الغلط من الراوي ومعنى الآية أن المشركين كانوا يقولون إن الشيطان هو الذي يقرأ عليه قال الله تعالى: رداً لقولهم (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ يعني: وما جاز لهم ﴿وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك وقد حيل بينهم وبين السمع وقد روي عن ابن عباس أنه قال: لا يستطيعون أن يحملوا القرآن ولو فعلوا ذلك لاحترقوا ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ يعني: إنهم عن الاستماع لمحجوبون وممنوعون ثم قال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ وذلك حين دُعي إلى دين آبائه فأخبر الله تعالى أنه لو اتخذ إلهاً آخر عذبه الله تعالى وإن كان كريماً عليه كقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) فكيف بغيره وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: أرميا بأن يخبر قومه بأن يرجعوا عن المعصية فإنهم إن لم يرجعوا أهلكتهم فقال أرميا: يا رب إنهم أولاد أنبيائك وأولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - أفتهلكهم بذنوبهم فقال الله تعالى: وإنما أكرمت أنبيائي لأنهم أطاعوني ولو أنهم عصوني لعذبتهم وإن كان إبراهيم خليلي ويقال فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - المراد به غيره لأنه علم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يتخذ إلهاً آخر ثم قال: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ يعني: إن عبدت غيري فتكون من الهالكين.

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

قوله عز وجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ يعني: خوف أقرباءك بالنار لكي يؤمنوا أو يثبتوا على الإيمان من كان منهم مؤمناً وروى هشام عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) جمع النبي - صلى الله عليه وسلم - أهل بيته فقال لهم: يا بني هاشم يا بني عبد المطلب تعلمون أني رسول الله إليكم وأني لا أملك لكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم وإنما أوليائي منكم المتقون فلأعرفن ما جاء الناس يوم القيامة بالآخرة وجئتم بالدنيا تحملونها على رقابكم وذكر السدي هكذا ثم قال ألا فاتقوا النار ولو بشق تمرة[١] وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: لما نزل (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصفا فصعد عليه ثم نادى بأعلى صوته يا صباحاه فاجتمع الناس فقال - صلى الله عليه وسلم - : يا بني عبد المطلب يا بني هاشم أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أصدقتموني قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا دعوتنا [٢] فنزل تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ثم قال عز

(١) أخرجه مسلم بنحوه ١٩٢/١ كتاب الإيمان باب في قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠١/٨ كتاب التفسير باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. (٤٧٧٠)، ومسلم ١٩٣/١ - ١٩٤ كتاب الإيمان (٣٥٥ - ٢٠٨).

وجل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لين جانبك لمن اتبعك من المؤمنين يعني: من المصدقين ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ﴾ قال مقاتل: فيها تقديم يعني: الأقربين أي: فإن خالفوك ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالفاء فتوكل لأنه متصل بالكلام الأول ودخلت الفاء للجزاء وقرأ الباقون (وتوكل)[1] بالواو على وجه العطف وتوكل على العزيز الرحيم يعني: أي: ثق بالله وفوض جميع أمورك إلى العزيز الرحيم ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في الصلاة وحدك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (أي وحين تصلي في الجماعة وقال عكرمة: وتقلبك في الساجدين)[2] قال في حال القيام والركوع والسجود يعني: يرى قيامك وركوعك وسجودك ويراك مع المصلين ويقال: الذي يراك حين تقوم من مقامك للصلاة بالليل ويقال: حين تقوم وتدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله ويقال وتقلبك في الساجدين يعني تقلبك في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات من آدم إلى نوح وإلى إبراهيم وإلى من بعده صلوات الله عليهم قوله عز وجل ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني: بآبائهم وبأعمالهم

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

ثم قال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: هل أخبركم ﴿عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ هذا موصول بقوله: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يعني: كذاب صاحب الإثم فاجر القلب الأفاك الكذاب والأثيم الفاجر يعني به كهنة الكفار ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ يعني: يلقون بآذانهم إلى السمع من السماء لكلام الملائكة عليهم السلام ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يعني: حين يخبرون الكهنة وروى معمر عن الزهري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الشياطين تسترق السمع فتجيء بكلمة حق فتقذفها في أذن وليها فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة وهذا كان قبل أن يحجبوا من السماء[3] ثم قال عز وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال قتادة ومجاهد: يتبعهم الشياطين وقال في رواية الكلبي الغاوون هم الرواة الذين كانوا يروون هجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فيتبعهم ويقال الغاوون هم الضالون ويقال شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله - صلى الله عليه وسلم -)[4] ثم قال عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يعني: في كل وجه وفن يذهبون ويخوضون يأخذون مرة يذمون ومرة يمدحون وذكر عن القتبي أنه قال: في كل واد يهيمون من القول وفي كل مذهب يذهبون كما تذهب البهائم على وجهها وقال غيره هام الرجل والبعير إذا مضى على وجهه لا يدري أن يذهب فكذلك الشاعر يأخذ كلامه لا يدري أين ينتهي قرأ نافع وحده يتبعهم بجزم التاء والتخفيف وقرأ الباقون يتبعهم بنصب التاء والتشديد وهما بمعنى واحد يتبعهم ويتبعهم ثم

---

(١) انظر النشر ٢/٣٣٦.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره ٦/١٨٣ وعزاه للبخاري بنحوه.

(٤) سقط في أ.

قال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: أن الشعراء يقولون قد فعلنا كذا وكذا وقلنا كذا فيمدحون بذلك أنفسهم وهم كذبة ثم استثنى شعراء المسلمين حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك رضي الله عنهم فقال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ يعني: ذكروا الله في أشعارهم ويقال: وذكروا الله عز وجل في الأحوال كلها ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[1] يعني: نتصر شعراء المسلمين من شعراء الكافرين فكافؤوهم والباديء أظلم ويقال انتصروا من أهل مكة من بعد ما أخرجوا لأن الحرب تكون بالسيف وباللسان فأذن القتال بالشعر كما أذن بالسيف إذ فيه قهرهم ثم أوعد شعراء الكافرين فقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: الذين هجوا المسلمين ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ يعني: أي مرجع يرجعون إليه في الآخرة يعني إلى الخسران والنار ويقال: هاتان الآيتان مدنيتان يذكر أنه لما نزل والشعراء يتبعهم الغاوون جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وهما يبكيان فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (والشُّعَرَاءُ) إلى قوله (إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فقال عليه السلام هذا أنتم (وَانْتَصرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)[2] وروي عن عكرمة قال: عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن من الشعر لحكمة وإن من الشعراء لحكماء وفي رواية أخرى وإن من البيان لسحراً[3] (والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم)[4].

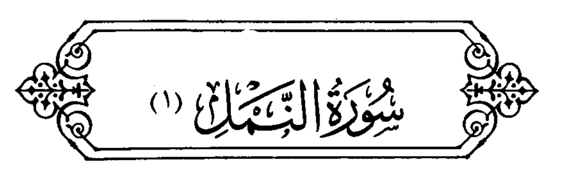
---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٩٩ وعزاه لعبد بن حميد والحاكم.

(٣) أخرجه البخاري ١١/٥٣ كتاب الأدب باب ما يجوز من الشعر (٦١٤٥).

(٤) سقط في ظ.



وهي تسعون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ يعني: هذه الأحكام ويقال: تلك الآيات التي وعدتم بها وذلك أنهم وعدوا بالقرآن في كتبهم ويقال: يعني العلامات جميع الأحرف للقرآن ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ كلاهما واحد وإنما كرر اللفظ للتأكيد مبين يعني: بين ما فيه من أمره ونهيه ويقال مبين للأحكام الحلال والحرام ثم قال ﴿هُدًى﴾ يعني: القرآن هدى وبياناً من الضلالة لمن عمل به ويقال هدى يعني: هادياً ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني ما فيه من الثواب للمؤمنين قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وورش عن نافع[٢] وبشرى بإمالة الراء وقرأ الباقون

---

(١) أول أغراض هذه السورة افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه بما يشير إليه الحرفان المقطعان في أولها.
والتنويه بشأن القرآن وأنه هدى لمن ييسر الله الإهتداء به دون من جحدوا أنه من عند الله. والتحدي بعلم ما فيه من إخبار الأنبياء.
والإعتبار بملك أعظم ملك أوتيه نبي وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام وما بلغه من العلم بأحوال الطير ومابلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة.

وأشهر أمة في العرب أوتيت قوة وهي أمة ثمود. والإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ. وفي ذلك إيماء إلى أن نبوءة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسالة تقارنها سياسة الأمة ثم يعقبها ملك وهو خلافة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن الشريعة المحمدية سيقام بها ملك للأمة عتيد كما أقيم لنبي إسرائيل ملك سليمان. ومحاجة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كهانهم وعرافيهم وسدنة آلهتهم وإثبات البعث وما يتقدمه من أهوال القيامة وأشراطها. وأن القرآن مهيمن على الكتب السابقة ثم موادعة المشركين وإنباؤهم بأن شأن الرسول الإستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأن آيات الصدق سيشاهدونها والله مطلع على أعمالهم.

قال ابن الفرس ليس في هذه السورة إحكام ولا نسخ. ونفيه أن يكون فيها إحكام ولا نسخ معناه أنها لم تشتمل على تشريع قار ولا على تشريع منسوخ. وقال القرطبي في تفسير آية **﴿وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾** الآية نسختها آية القتال. انظر التحرير ١٩/٢١٥، ٢١٦.

---

(٢) سقط في ظ.

بالتفخيم وكلاهما جائز والإمالة أكثر في كلام العرب والتفخيم أفصح وهي لغة أهل الحجاز للمؤمنين يعني: للمصدقين بالقرآن أنه من الله تعالى ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ يعني: يقرون بها ويتمونها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني: يقرون بها ويعظمونها ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بأنها كائنة ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث بعد الموت ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: ضلالتهم عقوبة لهم ولما عملوا ومجازاة لكفرهم زينا لهم سوء أعمالهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يترددون فيها ويتحيرون في ضلالتهم قوله عز وجل: ﴿أولَئِكَ﴾ يعني: أهل هذه الصفة ﴿الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يعنِي: شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ يعني: الخاسرون بحرمان النجاة والمنع من الحسنات ويقال هم أخسر من غيرهم وقال أهل اللغة: متى ذكر الأخسر مع الألف واللام فيجوز أن يراد به الأخسر من غيرهم وإن لم يذكر غيرهم وإن ذكر بغير ألف ولام فلا يجوز أن يقال هو أخسر إلا أن يبين أنه هو أخسر من فلان أو من غيره قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ يعني: كقوله: وما يلقاها يعني: مما يؤتي بها ويقال: وما يؤتى وإنك لتلقى القرآن يعني: لتلقن القرآن وقال أهل اللغة[1]: تلقى وتلقن بمعنى واحد إذا أُخِذَ وَقُبِلَ من غيره ويقال: وإنك لتلقى القرآن أي: يلقى إليك القرآن وحياً من الله عز وجل ثم قال: ﴿مِن لَّدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: نزل عليك جبريل من عند حكيم عليم في أمره عليم بأعمال الخلق قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ﴾ قال بعضهم: معناه إنه عليم بما ينزل عليك كعلمه بقول موسى عليه السلام ويقال: حكمت لك بالنبوة كماحكمت لموسى إذ قال لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾ يعني: رأيت ناراً ﴿سَآتِيكُم مِّنها بِخَبَرٍ﴾ يـعني: خبر الطريـق ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ يعني: بنارٍ ويقـال: كل أبيض ذو نور فهو شهاب والقبس كلما يقتبس من النار والقبس يعني المقبوس كما يقال: ضرب فلان يعني مضروبه قرأ عاصم وحمزة والكسائي شهاب قبس بالتنوين وقرأ الباقون بغير تنوين فمن قرأ منوناً جعل القبس نعت الشهاب ومن قرأ بشهاب غير منون أضاف الشهاب إلى القبس ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ يعني: تستدفئون من البرد.

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ يعني: النار ويقال يعني: الشجرة ﴿نُودِيَ أن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ يعني: بورك مَنْ عند النار وهو موسى عليه السلام ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة عليهم السلام وهوعلى وجه التقديم يعني فلما جاءها ومن حولها من الملائكة نودي أن بورك من في النار أي عند النار ويقال من في طلب النـار أو قصدهـا والمعنى: بورك فيك يا موسى وقال أهل اللغة[2]: باركه وبارك فيه وبارك عليه واحد وهذا تحية من الله تعالى

(١) انظر لسان العرب ٥/٤٠٦٤.
(٢) انظر لسان العرب ١/٢٦٥.

لموسى عليه السلام ثم قال: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ يعني: قيل له: قل سبحان الله تنزيهاً لله تعالى من السوء ويقال: إنه أي الله في النداء قال فسبحان الله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال بعض المفسرين: كان ذلك نور رب العزة وإنما أراد به تعظيم ذلك النور كما يقال للمساجد بيوت الله تعظيماً لها ثم قال عز وجل: ﴿يَا مُوسَى إِنَّه أنَا اللَّهُ﴾ وذكر عن الفراء أنه قال: هذه الهاء عماد وإنما يراد به وصل الكلام كما يقال: إنما وما يكون للوصل كذلك ها هنا فكأنه قال: يا موسى إني أنا الله ﴿العزيز الحكيم﴾ ويقال: معناه: إن الذي تسمع نداءه هو الله العزيز الحكيم قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ يعني: من يدك فألقاها فصارت حية وقد يجوز أن يضمر الكلام إذا كان في ظاهره دليل ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ يعني: تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ يعني: حية والجان هي الحية الخفيفة الأهلية فإن قيل: إنه قال في آية أخرى: فإذا هي ثعبان مبين والثعبان الحية الكبيرة فأجاب بعض أصحاب المعاني: إنه كان في كبر الثعبان وفي خفة الجان قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: والجواب الصحيح أن الثعبان كان عند فرعون والجان عند الطور ثم قال: ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ يعني: أدبر هارباً من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يعني: لم يرجع ويقال: لم يلتفت يقول الله تعالى: لموسى ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ من الحية ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني: لا يخاف عندي ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ قال مقاتل: إلا من ظلم نفسه من المرسلين مثل آدم وسليمان وإخوة يوسف وداود وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويقال: إلا من ظلم يعني: لكن من ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي (فعل إحساناً)[1] بعد إساءته ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال الكلبي: إلا من ظلم يعني (أشرك) فهذا الذي يخاف ثم بدل حسناً يعني: توحيداً بعد سوء يعني: بعد شرك فإني غفور رحيم قال أبو الليث رحمه الله: ويكون إلا على هذا التفسير بمعنى لكن لا وعلى وجه الاستثناء وذكر عن الفراء أنه قال الاستثناء وقع في معنى مضمر من الكلام كأنه قال: لا يخاف لدي المرسلون بل غيرهم الخائف وقال القتبي: هذا لا يصح[2] لأن الإضمار يصح إذا كان في ظاهره دليل ولكن معناه: أن الله تعالى لما قال إني لا يخاف لدي المرسلون علم أن موسى كان مستشعراً خيفة من قبل القبطي فقال: إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنه يخاف ولكني أغفر له فإني غفور رحيم ويقال: إلا من ظلم يعني: ولا من ظلم ولا يبين ظلمه ثم بدل حسناً بعد سوء فإنه لا يخاف أيضاً ثم قال عز وجل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يعني: جيب المدرعة[3] ثم أخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ﴾ يعني: من غير برص ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ يعني: هذه الآية من تسع آيات كما تقول أعطيت لفلان عشرة أبعرة فيها فحلان أي: منها وقد بين في موضع آخر حيث قال: «ولقد آتينا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيناتٍ» وقد ذكرناها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: إذهب إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: إنهم كانوا قوماً عاصين قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ يعني: جاءهم موسى بآياتنا التسع ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني: معاينة ويقال مبينة أي: علامةً لنبوته ويقال: مبصرة يعني: مضيئة واضحة ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ يعني: بالآيات بعد المعرفة ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم﴾ أنها من الله تعالى وإنما استيقنتها قلوبهم لأن كل آية رأوها استغاثوا بموسى وسألوا منه بأن يشكف عنهم فكشفنا عنهم فظهر لهم بذلك أنه من الله تعالى وفي الآية تقديم ومعناه وجحدوا بها ﴿ظُلْماً﴾ يعني: شركاً ﴿وَعُلُوّاً﴾ يعني: تكبراً وترفعاً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى واستيقنتها أنفسهم يعني: وهم يعلمون أنها من الله ثم قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: الذين يفسدون في الأرض بالمعاصي فكانت عاقبتهم الغرق.

---

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في أ.

(٣) قال في اللسان ٢/١٣٦١ والدراعة والمدرع ضرب من الثياب التي تلبس وقيل: جبة مشقوقة المقدم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً**﴾ يعني: علم القضاء والعلم بكلام الطير والدواب ﴿**وَقَالاَ**﴾ يعني: داود وسليمان ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ بالكتاب والنبوة وكلام البهائم والطير والملك ويقال: فضلنا على كثير من الأنبياء حيث لم يعط أحداً من الأنبياء عليهم السلام ما أعطانا وقال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً وأقضى من داود وكان داود أشد تعبداً من سليمان عليهما السلام ثم قال عز وجل: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**﴾ يعني: ورث ملكه وقال الحسن: ورث المال والملك لا النبوة والعلم لأن النبوة والعلم من فضل الله ولا يكون بالميراث ويقال: ورث العلم والحكم لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون دراهم ولا دنانير ﴿**وقال**﴾ سليمان: لبني إسرائيل ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ**﴾ يعني: أفهمنا وألهمنا منطق الطير وذلك أن سليمان كان جالساً في أصحابه إذ مر بهم طير يصوت فقال لجلسائه: أتدرون ماذا يقول قالوا: لا قال: إنه يقول ليت الخلق لم يخلقوا فإذا خلقوا: علموا لماذا خلقوا قال: وصاح عنده ديك فقال: هل تدرون ماذا يقول قالوا لا قال إنه يقول اذكروا الله يا غافلين ثم قال تعالى: ﴿**وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ يعني أعطينا علم كل شيء ويقال النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح ﴿**إِنَّ هَذَا**﴾ الذي أعطينا ﴿**لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ يعني: المبين ويقال: المبين تبين للناس فضلهم ثم قال عز وجل: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ**﴾ يعني: جموعه والحشر هو أن يجمع ليساق ثم قال: ﴿**مِنَ الْجِنِ وَالإنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ يعني: يساقون ويقال: يوزعون يعني: يكفون ويحبس أولاهم على آخرهم وأصل الوزع الكف يقال: وزعت الرجل إذا كففته وعن الحسن أنه قال: لا بد للناس من وزعة أي من سلطان يكفهم وقال مقاتل: إنه استعمل جنياً عليهم يرد أولهم على آخرهم ويقال هكذا إعادة القوافل والعساكر (ويقال: وحشر أي: جمع لسليمان جنوده مسيرة له من الجن والإنس والطير فهم يوزعون يجلس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا قوله عز وجل:)[1] ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ**﴾ وذلك أن سليمان كان له بساط فرسخ في فرسخ ويقال أربع فراسخ في أربع فراسخ وكان يضع عليه كرسيه وجميع عساكره ثم يأمر الريح فترفعه وتذهب به مسيرة شهر في ساعة واحدة فركب ذات يوم في جموعه فمر بواد النمل في أرض الشام ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم**﴾ يعني: بيوتكم ويقال: حجركم ﴿**لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ**﴾ أي: لا يهلكنكم ويقال: لا يكسرنكم ﴿**سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ**﴾ وإنما خاطبهم بقوله: ادخلوا بخطاب العقلاء لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء ثم قال: ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ يعني: قوم سليمان لا يشعرون بكم ولو كانوا يشعرون بكم لا يحطمونكم لأنهم علموا أن سليمان عليه

---

(١) سقط في أ.

السلام ملك عادل لا بغي فيه ولا جور ولئن علم بها لم توطأ ويقال: وهم لا يشعرون يعني: جنوده خاصة لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده ويقال: وهم لا يشعرون يعني: النمل لا يشعرون بجنود سليمان حتى أخبرتهم النملة المنذرة فرفع الريح صوتها إلى سليمان ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه يعني: أنه لو شعر بكم لم يحطمكم ويقال: فتبسم ضاحكاً أي: متعجباً ويقال: فرحاً بما أنعم الله تعالى عليه صار ضاحكاً نصباً على الحال ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني: ألهمني ويقال: أزعني من الكف أيضاً كأنه قال: احفظ جوارحي لكيلا تشتغل بشيء سوى شكر نعمتك التي أنعمت عليَّ ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ يعني: النبوة والملك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ يعني: تقبله مني وذكر أنه مر بزارع فقال الزارع: إنه ما أعطى مثل هذا الملك لأحد؟ فقال له سليمان: ألا أنبئك بما هو أفضل من هذا: القصد في الغنى والفقر وتقوى الله تعالى في السر والعلانية والقضاء بالعدل في الرضا والغضب ثم قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أدخلني بنعمتك مع عبادك الصالحين يعني: المرسلين في جنتك فوقف سليمان عليه السلام بموضعه ليدخل النمل مساكنهم ثم مضى قرأ يعقوب الحضرمي وأبو عمرو في إحدى الروايتين لا يحطمنكم بسكون النون وقراءة العامة بنصب النون وتشديدها وهذه النون تدخل للتأكيد فيجوز التخفيف والتثقيل ولفظه لفظ النهي ومعناه: جواب الأمر يعني: إن لم تدخلوا مساكنكم حطمكم.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ يعني: طلب الطير وذلك أنه أراد أن ينزل منزلاً فطلب الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ وكان رئيس الهداهد وكان سليمان قد جعل على كل صنف منهم رئيساً ثم جعل الكركي[1] رئيساً على جميع الطيور قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة مالي بسكون الياء وقرأ الباقون بنصب الياء وهما لغتان يجوز كلاهما ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ يعني: أم صار غائباً لم يحضر بعهد ويقال: الميم للصلة ومعناه: أكان من الغائبين يعني: أصار (من الغائبين)[2] وذكر أن الهدهد كان مهندساً يعرف المسافة التي بينهم وبين الماء ويقال كان يعرف الماء من تحت الأرض ويراه كما يرى من القارورة وروى عكرمة أنه قال: قلت لابن عباس كيف يرى الماء من تحت الأرض وأن صبياننا يأخذونه بالفخ فلا يرى الخيط والشبكة (من تحت التراب)[3] فقال ابن عباس ما ألقى هذه الكلمة على لسانك إلا الشيطان أما علمت أنه إذا نزل القضاء ذهب البصر[4] فدعا سليمان أمير الطير فسأله عن الهدهد فقال: أصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته مكاناً فغضب سليمان عند ذلك وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يعني: لانتفن ريشه فلا يطير مع الطيور حولاً ولأشمسنه في الحر حتى يأكله الذر ﴿أَوْلَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني لأقتلنه حتى لا يكون له نسل ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ﴾ يعني: بحجة بينة واضحة أعذره بها ﴿مُبِينٍ﴾ بين فإن قيل: كيف يجوز أن يعاقب من لا يجري عليه القلم قيل له: تجوز العقوبة على وجه التأديب إذا

---

(١) الكركي طائر والجمع الكراكي. انظر لسان العرب ٥/ ٣٨٦٠.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠٤ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي حاتم بنحوه.

كان منه ذنب كما يجوز للأب أن يؤدب ولده الصغير وأما الذبح فيجوز وإن لم يكن منه ذنب قرأ ابن كثير ليأتينني بنونين وقرأ الباقون بنون واحدة[1] فمن قرأ بنونين فهو للتأكيد لأن النون الأولى مشددة وتسمى تلك نون القسم وهي في الحقيقة نونين والنون الثانية للإضافة ومن قرأ بنون واحدة فقد استقل الجمع بين النونات واقتصر على نونين فأدغم إحداهما في الأخرى.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٖ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ قرأ عاصم بنصب الكاف وقرأ الباقون بالضم[2] وهما لغتان ومعناهما واحد يعني: لم يلبث إلا قليلاً ويقال لم يظل الوقت حتى جاء الهدهد ﴿**فَقَالَ أَحَطتُ**﴾ وفي الآية مضمر ومعناه فمكث غير[3] بعيد أن جاءه الهدهد فقال له سليمان: أين كنت فخر له ساجداً وقال **أحطت** ﴿**بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**﴾ يعني: علمت ما لم تعلم وجئتك بخبر لم تكن تعلمه ولم يخبرك عنه أحد ثم أخبره فقال: ﴿**وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾ فإن قيل كيف يجوز أن يقال أن سليمان لم يعلم به وكانت أرض سبأ قريبة منه وهناك ملك لم يعلم به سليمان قيل له علم به سليمان ولكنه لم يعلم أنهم يسجدون للشمس ويقال أنه علم بها ولكنه لم يعلم أن ملكها قد بلغ هذا المبلغ وعلم أنهم أهل الضلالة والإحاطة هي العلم بالأشياء بما فيها وجهتها كما قال: وجئتك من سبأٍ يعني: من أرض سبأ وهي مدينة باليمن بنبأ يقيني يعني: بخبر صدق لا شك فيه ويقال: بخبر عجيب قرأ ابن كثير وأبو عمرو سبأَ بالنصب بغير تنوين وقرأ الباقون بالكسر والتنوين فمن قرأ بالنصب جعله اسم مدينة وهي مؤنثة لا تنصرف ومن قرأ بالكسر والتنوين جعله اسم الرجل ويقال: جعله اسم مكان فقال له سليمان: وما ذلك الخبر فقال: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**﴾ يعني تملك أرض سبأ ﴿**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ يعني: أعطيت علم ما في بلادها ويقال من كل صنف من الأموال والجنود وأنواع الخير مما يعطى الملوك ﴿**وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾ يعني: سريراً كبيراً أعظم من سريرك ويقال: كان طول سريرها ثمانون ذراعاً في ثمانين مرصعاً بالذهب والدر والياقوت وقوائمه من اللؤلؤ والياقوت واسمها بلقيس قال مقاتل: كانت أمها من الجن ويقال ولها عرش عظيم أي: شديد قوله عز وجل: ﴿**وَجَدتُّهَا**﴾ يعني: رأيتها ﴿**وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ**﴾ يعني: يعبدون الشمس ﴿**مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**﴾ الخبيثة ﴿**فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ**﴾ يعني: طريق الهدى ومعناه: صدهم الشيطان عن الإسلام فهم لا يهتدون يعني لا يعرفون الدين قوله عز وجل: ﴿**أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ**﴾ قرأ الكسائي ألا بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد[4] فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: أن الهدهد قال عند ذلك أنْ لَا تسجدوا لله؟ وقال مقاتل: هذا قول

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٢٦ النشر ٢/٣٣٧.

سليمان قال لقومه: ألا يسجدوا (ويقال: هذا كلام الله ألا يسجدوا لله)[١] وهذا من الاختصار فكأنه قال: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله ومن قرأ بالتشديد فمعناه فصدهم عن السبيل أن لا يسجدوا لله يعني: لأن لا يسجدوا ويقال: معناه: وزين لهم الشيطان أعمالهم لأن لا يسجدوا وإذا قرىء بالتخفيف فهو موضع السجدة وإذا قرىء بالتشديد فليس بموضع سجدة في الوجهين جميعاً وهذا القول أحوط ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ يعني المخبئات ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مثل الثلج والمطر وفي الأرض مثل النبات والأشجار والكنوز والموتى ويقال: الذي يظهر سر أهل السموات والأرض ويعلنها فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ثم قال عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك قرأ عاصم والكسائي في رواية حفص ما تخفون وما تعلنون بالتاء على معنى المخاطبة لهم وقرأ الباقون[٢] بالياء على معنى الخبر لهم.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾

﴿قَالَ﴾ سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ في قولك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: أم أنت فيها من الكاذبين فكتب كتاباً وقال له ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يعني: على ماذا يتفقون ثم تول عنهم يعني: ارجع عنهم[٣] ويقال ليس فيها تقديم ومعناه اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم يعني: استأخر في ناحية غير بعيد فانظر ماذا يرجعون أي ماذا يريدون من الجواب قرأ ابن عامر وابن كثير فألقهى إليهم بالياء وبعد الهاء وقرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين وقرأ حمزة وعاصم بالجزم وقرأ نافع فألقه إليهم بكسر الهاء[٤] ولا يبلغ الياء وكل ذلك جائز في اللغة والقراءة بالياء أوسع اللغتين. وأكثر استعمالاً قال مقاتل: فجعل الهدهد الكتاب في منقاره ثم طار حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها وروي في بعض الروايات أنها كانت نائمة في البيت وقد أغلقت بابها فدخل من الكوة ووضع الكتاب على صدرها ويقال عند رأسها وأكثر الروايات أنه ألقاه في حجرها فقرأت الكتاب قرأت فيه الخاتم فارتعدت وخضعت وخضع من معها من الجنود لأن ملك سليمان كان في خاتمه فقرأت الكتاب وأخبرتهم بما فيه قال مقاتل: ولم يكن في الكتاب إلا قوله: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) لأن كلام الأنبياء عليهم السلام على الإجمال ولا يكون على التطويل[٥] وقال في رواية الكلبي نكتب فيه أن كنتم من الإنس فعليكم بالطاعة وإن كنتم من الجن فقد عبدتم إلى قوله عز وجل ﴿قَالَتْ﴾ أي المرأة ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: حسن ويقال كتاب مختوم وروي عن ابن عباس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال كرامة الكتاب ختمه[٦].

(١) سقط في ظ. (٢) المصدران السابقان.
(٣) سقط في أ. (٤) انظر حجة القراءات ٥٢٨.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٠٦ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٦) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٢/١٦٠ وعزاه للقضاعي عن ابن عباس مرفوعاً بزيادة إني ألقي إلي كتاب كريم وأخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بسند فيه متروك.

ويقال: كل كتاب لا يكون مختوماً فهو مغلوب ويقال: كان سليمان عليه السلام إذا كتب إلى الشياطين ختمه بالحديد وإذا كتب إلى الجن ختمه بالصفر وإذا كتب إلى الإنس ختمه بالطين وإذا كتب إلى الملوك ختمه بالفضة فجعل ختم كتابها من ذهب ويقال: إن المرأة إنما قالت كتاب كريم لأنها ظنت أنه نزل من السماء فلما نظرت إليه قرأت عنوان (﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني: عنوانه من سليمان)[١] وأنه يعني: في داخله وأول سطره بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي: لا تتعظموا علي ولا تتطاولوا علي ويقال: لا تترفعوا علي وإن كنتم ملوكاً قوله عز وجل ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مستسلمين خاضعين ويقال يعني: مخلصين منقادين طائعين (قال محمد بن موسى: إنما بدأ سليمان بنفسه لعلمه بأن ذكره على سائر الملوك أعظم من ذكر معبوده فهول عليها بذكر نفسه ثم ذكر)[٢] (معبوده فذهب بنفسها وانقادت في مملكتها وإنما خافت من هول سليمان حين آمنت بالله فقالت عند ذلك: رب ظلمت نفسي بعبادة الشمس وما خفت منك فالآن عرفتك وتبت إليك وأنت رب العالمين ﴿قَالَتْ﴾ المرأة)[٣] ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يعني: الأشراف والقادة ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ وكان لها ثلثمائة وثلاثة عشر قائداً تحت يد كل قائد ألف رجل وقد قيل أكثر من هذا أفتوني في أمري يعني: أجيبوني في أمري ويقال بينوا لي أمري وأخبروني ويقال: أشيروا علي ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: قاضية أمراً ويقال: فاصلة أمراً ﴿حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ يعني: تحضرون أي: لا أقطع أمراً دونكم ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها ﴿نَحْنُ أُولُوا قوة وأولوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: عدة وكثرة وسلاحاً وقتال شديد ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ يعني: أخبرناك بما عندنا أيتها الملكة ومع ذلك لا نجاوز ما تقولين يعني: إن أمرتينا بقتال قاتلنا وإن أمرتنا بغير ذلك أطعناك ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ يعني: ماذا تشيرين إلينا.

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِۦَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ﴾ يعني: المرأة ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ على وجه القوة والغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يعني: أهلكوها وخربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ يعني: أهانوا أشرافها وكبراءها ليستقيم لهم الأمر ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: هذا قول الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: وكذلك يفعلون تصديقاً لقول المرأة قال الحسن: هذا قول بلقيس إن سليمان وجنوده كذلك يفعلون وأكثر المفسرين على خلاف ذلك ثم قالت المرأة ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ يعني: أصانعهم بالمال فإن كان من أهل الدنيا فإنه يقبل ويرضى بذلك ويقال: أختبره أملك هو أم نبي فإن كان ملكاً قبلها وإن كان نبياً لم يقبلها ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني: أنظر بماذا يرجع المرسلون من الجواب من عنده وذكر في الخبر أنها بعثت إليه لبنتين من ذهب والمسك والعنبر وبعثت بعشرة غلمان وعشرة جواري وكان في الجواري بعض الغلظة وكان في الغلمان بعض اللين وأمرت بأن تخضب أيديهم جميعاً وجعلتهم على هيئة الجواري وبعثت إليه جوهرة في ثقبها اعوجاج وطلبت أن يدخل الخيط فيها وكتبت إلى سليمان إن كنت نبياً فميز بين الجواري والغلمان فأمر سليمان الشياطين بأن يلقوا في طريق الرسل لبناً كثيراً من

---

(١) سقط في ظ.
(٢) سقط في ظ.
(٣) سقط في ظ.

الذهب فلما جاءت رسل بلقيس استحقروا هديتهم فلما قدموا على سليمان أمر بماء فوضع وأمر الغلمان والجواري بأن يتوضأ فجعل الغلام يحدر الماء على يده حدراً وأما الجواري فكن يصببن صباً وفي رواية أُخرى كانت الجارية تأخذ الماء بكفها وتدلك ذراعها وأما الجوهرة فأخذ بوردة حمراء عقد فيها خيطاً ثم أدخلها في الحجر حتى خرجت من الجانب الآخر فرد الهدية وقال للوافد (أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ) يعني أتغرونني بالمال قوله عـز وجل: ﴿فَلَمـا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ قال بعضهم: يعني جاء الرسول وقال بعضهم يعني: جاء بريدها والأول أشبه لأنه خاطب الرسول ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ قرأ حمزة أتمدونني بمال بنون واحدة والتشديد وقرأ الباقون بنونين[1] وأصله نونان إلا أن حمزة أدغم إحداهما في الأخرى وشددها وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو أتمدونني بالياء في الوصل لأنه في الأصل الياء وهو ياء الإضافة وقرأ الباقون بغير ياء[2] لأن الكسر يدل عليه ثم قال ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ يعني: ما أعطاني الله عز وجل من النبوة والحكمة والدين والإسلام والملك ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ يعني: خير مما أعطاكم من الدنيا والمال ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ يعني: إذا أهدى بعضكم إلى بعض يقال معناه بل أنتم تفرحون بهديتكم إذا ردت إليكم لأنكم قليلون المال ويقال لأنكم مكاثرة بالدنيا قوله عز وجل: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: قال سليمان للأمير الوافد ارجع إليهم بالهدية فإن لم يحضروني ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ يعني: لا طاقة لهم بها قال بعض المتقدمين: ومتى يكون لهم طاقة بجنود سليمان وكان جنود سليمان من الجن والإنس والشياطين ﴿وَلَنُخرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ يعني: من أرض سبأٍ ﴿أَذِلَّةً﴾ يعني: مغلولة أيديهم إلى أعناقهم ﴿وهم صاغرون﴾ أي: ذليلون فلما بلغ الخبر إلى المرأة ورسالة سليمان لم تجد بداً من الخروج إليه فخرجت نحوه فلما علم سليمان بمسيرها إليه ﴿قال﴾ لجلسائه ﴿يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها﴾ يعني: بسرير بلقيس ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: موحدين لأنه قد كان أوحي إلى سليمان بأنها تسلم وقال بعضهم: إنما أراد سليمان بإحضار سريرها قبل أن تسلم ليكون السرير له لأنها لو أسلمت حرم عليه ما كان لها وقال بعضهم: إنـما أراد أن يبين دلالة نبوته عندها فتعلم المرأة أنه نبي فتسلم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ عفريت من الجن﴾ يعني: ما أراد من الجن والعفريت هـو الشديـد القوي ويقـال العفريت من كل شيء المبالغ والحاذق في أمره ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ يعني في مجلس القضاء وكان قضاؤه إلى إنصاف النهار ويقال: إلى وقت الضحى ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ قوله عليه أي: على إتيان السرير القوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر واللؤلؤ وغير ذلك فقال سليمان: أنا أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: آصف بن برخيا وكان وزيره ومؤدبه في حال صغره وكان يعلم الاسم الأعظم ويقرأ كتاب الله فقال يـا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ويقال: هو قوله: يا حي يا قيوم ويقال: يا ذا الجلال والإكرام ويقال: إن الذي عنده علم من الكتاب هو جبريل عليه السلام وهو قول المعتزلة قال الشيخ الإمام لأنهم لا

(١) انظر حجة القراءات ٥٢٨، النشر ٢/٣٣٨.
(٢) المصدران السابقان.

يرون كرامة الأولياء وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا رضي الله عنه قال: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ يعني: قبل أن ينتهي إليك الذي وقع عليه منتهى بصرك وهو جاءٍ إليك ويقال قبل أن تطرف قال له سليمان: لقد أسرعت إن فعلت ذلك فدعا بالاسم الأعظم فإذا بالسرير قد ظهر بين يدي سليمان ﴿فَلَمَّا رَآه﴾ أي: رأى سليمان السرير ﴿مستقراً عنده﴾ أي: موجوداً عنده ﴿قال﴾ سليمان: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ يعني: ليختبرني ﴿أَأَشْكُرُ﴾ هذه النعمة ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ نعم الله تعالى إذا رأيت من دوني هو أعلم مني قال مقاتل: فلما رفع رأسه قال: الحمد لله الذي جعل في أهلي من يدعوه فيستجيب له ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: يفعل لنفسه لأنه يعود إليه حيث يستجيب المزيد من الله تعالى ﴿ومن كفر﴾ النعم يعني: ترك الشكر ﴿فإن ربي غني﴾ عن شكر العباد ﴿كَرِيمٌ﴾ في الإفضال على من شكره بالنعمة ويقال كريم لمن شكر من عباده (ويقال لما رأى آصف السرير مستقراً عنده خرج من فضل نفسه ورجع إلى فضل الله ورأى الحول والقوة لله تعالى فقال هذا من فضل ربي لا من فضل نفسي ولو لم يقل من فضل ربي لسقط عن المنزلة أسرع من إتيان السرير حيث قال: أنا آتيك به حيث شهر نفسه بالفضيلة ويقال: أنا آتيك به يعني بالله آتيك لا بالمدة والحيلة فأسقط الحول والقوة عن نفسه وسلم الأمر إلى الله فقال هذا من فضل ربي فلما رأى سليمان السرير عنده علم أن هذا ليس من قوة جلسائه إنما هو من صنع ربه)[1] قوله عز وجل ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ يعني: قال سليمان عليه السلام غيروا لها عرشها عن صورته والتنكير هو التغيير يقال: نكرته فنكر أي: غيرته فتغير وروى الضحاك عن ابن عباس قال: التنكير أن يزاد فيه أو ينقص منه يعني زيدوا في سريرها وانقصوا منه حتى نرى أنها تعرف سريرها[2] أم لا وذلك قوله: ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ يعني: أتعلم أنه عرشها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ يعني: لا يعلموه يقال: إنه جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ويقال: إنه إنما أمر بذلك لأن الجن قالوا لسليمان عليه السلام: في عقلها شيء من النقصان فأراد سليمان أن يمتحن عقلها فأمر بأن يغير السرير ويسألها عن ذلك.

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يعني: بلقيس وجلست على السرير ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ يعني: أهكذا سريرك ﴿قَالَتْ﴾ بلقيس ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبهته به قال مقاتل: شبهوا عليها فشبهت عليهم ولو قيل لها أهذا عرشك لقالت: نعم ويقال: إنها شكت في ذلك لأنها تركت سريرها في سبعة أبيات مقفلة أبوابها ومفاتيح الأقفال بيدها فقال سليمان ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ يعني: حمد الله على ما أعطاه من إتيان السرير وحضورها وعلى ما أعطاه قبل إتيانها من النبوة والإسلام فقال: وأوتينا العلم من قبلها يعني: أعطينا العلم من قبل مجيئها ويقال: أعطينا علم ملكها وعرشها من قبل مجيئها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مخلصين لله تعالى ويقال: مسلمين منقادين له قوله عز وجل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: عبادتها التي كانت تعبد الشمس منعها عن الإسلام ويقال:

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٠٩ وعزاه لابن جرير ولابن أبي حاتم.

معناه صدها إبليس عن الإيمان فتكون ما هاهنا بمعنى الفاعل ويقال: ما هنا بمعنى المفعول فكأنه يقول: صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله كرجل يقول منعت فلاناً الماء يعني: عن الماء ويقال: معناه: أن الله تعالى صدها عما كانت تعبد من دون الله ووفقها للإسلام ويقال: صدها عن الإسلام العبادة التي كانت تعبدها لأنها نشأت ذلك وربيت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس ثم قال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: من قوم جاحدين لله تعالى قوله عز وجل: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ يعني: القصر وذلك لأنها لما أقبلت قالت الجن: لقد لقينا من سليمان ما لقينا من التعب فلو اجتمع سليمان وهذه وما عندها من العلم لهلكنا وخشوا أن يتزوجها ويكون بينهما ولد فيرث الملك فيبقون في ذلك العناء إلى الأبد فأرادوا أن يبغضوها إلى سليمان فقالوا: إن رجليها شعراوان وقال مقاتل: كانت أمها جنية وروى ابن أبي نجيح عن (مجاهد قال: كانت أمها جنية)[١] وكانت شعراء وقال بعضهم: هذا لا يصح لأن الجن ليسوا من جنس الآدميين فلا يكون بينهما شهوة ونسل وقد قال الله تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى). يعني: آدم وحواء عليهما السلام فلا يجوز أن يكون النسل من غيرهما ويقال: إنهم قالوا لسليمان إن رجلها تشبه حافر الدواب فأراد سليمان أنْ ينظر إلى رجليها فأمر بأن يوضع سريرها في الصرح المبني من القوارير يعني من الزجاج وجعل تحت الصرح الماء فيه السمك فجلس سليمان على سريره في الصرح ومقدميه ثم أمر بلقيس بأن تدخل الصرح ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: فلما جاءت إلى الصرح رأت ما فيه من السمك حسبته لجة أي: ظنت أنه ماء كثير بين يدي سرير سليمان فأرادت أن تخوض في الماء فشمرت ثيابها ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فنظر سليمان إلى ساقيها وكانت شعراً فاستشار سليمان الإنس في ذلك فأشاروا عليه بالموسى فقال سليمان: الموسى تخدش ساقيها فاستشار الجن فأشاروا عليه بالنورة[٢] فأصل النورة من ذلك الوقت وروي أن سليمان ما نظر إلى ساق أحسن من ساقيها ولا خلاف بين الروايتين لأنه يكون أحسن الساقين شعراوين وروي «عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت أنا أحسن ساقين أم بلقيس فقال النبيَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت هي أحسن ساقين منك في الدنيا وأنت أحسن ساقين منها في الآخرة[٣] فلما كشفت عن ساقيها قال لها: سليمان لا تكشفي عن ساقيك ﴿قال إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مَنْ قَوَارِيرَ﴾ يقول: قصر مملس ولهذا يسمى الذي لم ينبت له شعر أمرد ويقال ممرد يعني: قوي شديد كما يقال: شيطان مريد «من قوارير» يعني من الزجاج: فلما رأت السرير والصرح علمت أن ملكها ليس بشيء عند ملك سليمان وأن ملكه من الله تعالى وأنه نبي حقاً ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام فأجابت فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي للشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ أي: مع سليمان بالتوحيد وقيل إن سليمان لما عرفها الجنة فقالت ظلمت نفسي بسوء الظن لسليمان وأسلمت مع سليمان أي وأخلصت ديني لله)[٤] مع سليمان بالتوحيد ويقال مع سليمان يعني: أسلمت على يدي سليمان لله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتابت من شركها إلى الله تعالى قال مقاتل: فاتخذها سليمان لنفسه فولدت له داود بن سليمان «قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم: هي أحسن الساقين من نساء العالمين وهي من أزواج سليمان في الجنة عليه السلام[٥].

---

(١) سقط في ظ.

(٢) النورة: أخلاط من أملاح الكلسيوم والباريسون تستعمل لإزالة الشعر. انظر المعجم الوسيط ٢/٩٧١.

(٣) ذكره القرطبي في تفسير ١٣/١٣٩ ونسبه للقشيري.

(٤) سقط في ظ.

(٥) ذكره القرطبي في الموضع السابق بلا نسبة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ يعني: أمرهم بأن يعبدوا الله ويطيعوه ويوحدوه ﴿**فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**﴾ يعني: مؤمنون وكافرون فإذا قوم صالح مؤمن وكافر يختصمون يقول كل فريق الحق معي وقد ذكرنا خصومتهم في سورة الأعراف وهي قوله: (قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) الآية فطلبت الفرقة الكافرة على تصديق صالح العذاب ﴿**قَالَ**﴾ لهم صالح عليه السلام ﴿**يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ**﴾ أي: بالعذاب ﴿**قَبْلَ الْحَسَنَةِ**﴾ يعني: العافية ويقال: التوبة وهو قولهم: يا صالح إن كان ما أتيت به حقاً فأتنا بما تعدنا من العذاب ثم قال: ﴿**لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ**﴾ يعني: لكي تُرحموا فلا تعذبوا قوله عز وجل: ﴿**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ**﴾ وأصله تطيرنا بك يعني: تشاءمنا بك ﴿**وَبِمَنْ مَّعَكَ**﴾ وذلك أنه قد أصابهم القحط بتكذيبهم إياه فقالوا: هذا الذي أصابنا بشؤمك وشؤم أصحابك ﴿**قَالَ**﴾ لهم صالح: ﴿**طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ**﴾ يعني: ما أصابكم فمن الله ويقال: هذا الذي يصيبكم هو مكتوب عند الله ويقال: خيركم وشركم ورخاؤكم وشدتكم من عند الله عليكم بفعلكم ويقال: عقوبتكم عند الله ﴿**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**﴾ أي: تبتلون بذنوبكم ويقال: تختبرون بالخير والشر وأصل الفتنة هي الإختبار ويقال: فتنت الذهب بالنار لينظر إلى جودته قوله عز وجل: ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ**﴾ يعني: في قرية صالح وهي الحجر[1] ﴿**تِسْعَةُ رَهْطٍ**﴾ كانوا أغنياء قوم صالح ﴿**يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ**﴾ يعني: يعملون بالمعاصي في أرض قريتهم ولا يصلحون أي: لا يطيعون الله تعالى فيها ولا يتوبون من المعصية ولا يأمرون بها فسأل قوم صالح منه ناقة فصارت الناقة بلية لهم فكانت تأتي مراعيهم فتأكل جميع ما فيها فتنفر منها دوابهم وتشرب ماء بئرهم العذب الذي يشربون منه فجعلوا نيابة لشرب الماء اللبن فتشرب ذلك اليوم الماء كله وتسقيهم اللبن حتى يرووا فجاء هؤلاء التسعة وفيهم «قدار بن سالف» عاقر الناقة وكان ابن زانية أحمر أزرق «ومصدع بن دهر» وكانا قد قعدوا لها فلما مرت بهما رماها مصدع بسهم ثم قال: يا قدار اضرب فضرب عرقوبها فعقروها ثم سلخوها واقتسموا لحمها فأوعدهم الله الهلاك وبين لهم العلامة بتغيير ألوانهم فاجتمعوا التسعة ﴿**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ**﴾ يعني: تحالفوا بالله ﴿**لَنُبَيِّتَنَّهُ**﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء وضم التاء الثاني ﴿**وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ**﴾ بالتاء وضم اللام والباقون بالنون ونصب التاء ثم لنقولن بالنون ونصب اللام[2] فمن قرأ بالنون جعل تقاسموا خبراً فكأنهم قالوا: متقاسمين فيما بينهم لنبيتنه وأهله أي: لنقتلنه وعياله ويقال: وأهله يعني: ومن آمن معه ومن قرأ بالتاء فمعناه جعل تقاسموا أمراً فكان أمر بعضهم بعضاً وقال بعضهم لبعض تحالفوا لنبيتنه وأهله ثم لنقولن ﴿**لِوَلِيِّهِ**﴾ يعني: لولي صالح إن سألونا فنقول: ﴿**مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ**﴾ يعني: إهلاك أهله وقومه ويقال: ما حضرنا عند إهلاك أهله

---

(١) مكان بين المدينة والشام كانت مساكن ثمود. معجم البلدان ٢/ ٢٥٥.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٣٠.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يعني: إنا لصادقون بما نقول لهم ويقال: معناه إنا لصادقون عندهم فيصدقونا إذا أخرجنا من بيوتنا.

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً﴾ يعني: أراد قتل صالح ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ يعني: جثم[1] عليهم الجبل فماتوا كلهم ويقال: رجمتهم الملائكة عليهم السلام بالحجارة فماتوا فذلك قوله تعالى: (ومكروا مكراً) أي: أرادوا قتل صالح ومكرنا مكراً يعني: أراد الله عز وجل قتلهم جزاء لأعمالهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأن الملائكة يحرسون صالحاً في داره ـ قرأ عاصم في رواية أبي بكر: مهلك بنصب الميم واللام وفي رواية حفص مهلك بنصب الميم وكسر اللام وقرأ الباقون بضم الميم ونصب اللام ثم قال:[2] ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ يعني: جزاء مكرهم ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي أنا بالنصب وقرأ الباقون بكسر[3] الألف فمن قرأ بالنصب فمعناه فانظر كيف كان عاقبة مكرهم لأنا دمرناهم ويجوز أن يكون خبر كان ومن قرأ بالكسر لأنه لما قال: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم يعني: إيش كان عاقبة مكرهم ثم فسر فقال: إنا دمرناهم على وجه الإستئناف ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: أهلكناهم بصيحة جبريل عليه السلام ويقال: خرجت النار من تحت أرجلهم وأحرقتهم ويقال: إنهم خرجوا ليلاً لإهلاك صالح فدمغتهم الملائكة بأحجار من حيث لا يرونهم فقتلوهم وقومهم أجمعين قوله عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ يعني: خالية من الناس ويقال: بيوتهم خاوية يعني: مساكنهم خربة ساقطة ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ويقال: بكفرهم بالله تعالى صارت خاوية نصباً على الحال يعني: فانظر إلى بيوتهم خاوية وقرىء في الشاذ خاوية بالضم على معنى النعت للبيوت ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: في إهلاكهم وفيما أصابهم لغيره لمن بعدهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يعقلون ويصدقون ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا صالحاً برسالته ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

---

(١) جَثَم الإنسان يَجْثِمُ ويَجْثُمُ وجُثُوماً فهو جاثِمٌ: لَزِمَ مكانه فلم يبرح أي تلبد بالأرض وقيل هو أن يقع على صدره. انظر لسان العرب ١/٥٤٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٣١، النشر ٢/٣٣٨.

(٣) المصدران السابقان.

ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلُوطاً إِذا قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني: وأرسلنا لوطاً عطفاً على قوله ولقد أرسلنا إلى ثمود ويقال: معناه: واذكر لوطاً إذا قال لقومه يعني: حين قال لقومه قوله عز وجل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ يعني: تجامعون الرجال شهوة منكم ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: جاهلون ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وإنما نصب الجواب لأنه خبر كان واسمه ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يعني: يتنزهون ويقذروننا بهذا الفعل وإنا لا نحب أن يكون بين أظهرنا من ينهانا عن أعمالنا قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاه وَأَهْلَهُ﴾ يعني: ابنتيه ريثا وزعورا ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ لم ننجها من العذاب ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ أي: تركناها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الباقين في العذاب ويقال: قضينا عليهما أنها من الباقين في العذاب قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ يعني: بئس مطر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ثم قال عز وجل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ﴾ قال بعضهم: معناه: قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قل: الحمد لله وقال بعضهم: معناه: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الماضية يعني: ما ذكر في هذه السورة من هلاك فرعون وقومه وثمود وقوم لوط ويقال: قال: الحمد لله الذي علمك وبين لك هذا الأمر ويقال: إن هذا كان للوط حين أنجاه، أمره بأن يحمد الله تعالى ثم قال: وسلام على عباده يعني: المرسلين ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يعني: إختارهم الله تعالى للرسالة والنبوة وروي عن مجاهد أنه قال: هم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك قال مقاتل وقال سفيان الثوري: هم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1] ثم قال: ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: الله تعالى أفضل أم الآلهة التي تعبدونها اللفظ لفظ الإستفهام والمراد به التقرير يعني: الله تعالى خير لهم مما يشركون فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قرأ هذه الآية قال: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم[2] ويقال: معناه: أعبادة الله خير أم عبادة ما يشركون به من الأوثان وقال القتبي: الله خيراً أما يشركون يعني أم من يشركون فتكون ما مكان من كما قال: «والسَّماء وَمَا بَنَاهَا» يعني: ومن بناها «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى» يعني: ومن خلق.

أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١١٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٣/١٤٧ بلا نسبة.

صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ يعني: بالمطر ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ يعني: البساتين وأحدها حديقة وإنما سميت حديقة لأنها محاطة بالحيطان وقال بعضهم: إذا كانت ذا شجر يقال لها: حديقة سواء كان لها حائط أو لا ذات بهجة يعني: ذات حسن ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ يعني: ما كان لمعبودكم قوة ويقال: ما كان ينبغي لكم أن تنبتوا شجرها ويقال ما قدرتم عليه وقرأ أبو عمرو وعاصم أما يشركون بالياء على معنى الخبر وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة وقرأ عاصم في رواية أبي بكر قدرناها بتخفيف الدال والباقون بالتشديد ثم قال: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يعينه على صنعه اللفظ لفظ الإستفهام والمراد به الإنكار والزجر ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعدِلُونَ﴾ يعني: يشركون الأصنام ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ يعني: مستقراً لا تميد بأهلها ويقال: قراراً أي سكناً لأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً﴾أي: فجر بسواد الأرض أنهاراً ويقال: شق بينهما أنهاراً ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ إلى خلق لها ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي: خلق للأرض الجبال الثوابت ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ يعني: العذب والمالح حاجزاً يعني: ستراً مانعاً بقدرته لا يختلطان بعضهما في بعض ﴿أَإِلَهٌ مَع اللَّهِ﴾ يعينه على صنعه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ولكن أكثرهم لا يعلمون بتوحيد الله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ يعني: أمن يستجيب في البلاء للمضطّر إذا دعاه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ يعني: ومن يكشف الضر ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ يعني: سكان الأرض بعد هلاك أهلها ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون تذكرون بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ حمزة والكسائي بتخفيف الذال وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية قالون أإله مع الله بالهمز والمد وقرأ الباقون بغير مد بهمزتين[2] ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني: من يرشدكم في أهوال البر والبحر ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: قدام المطر ﴿أَإِلَهٌ مع اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعظم الله عما يشركون ﴿أَمَّن يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: خلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم يعيدهم في الآخرة ﴿وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: المطر ﴿وَالأَرْضِ﴾ يعني: النبات ﴿أَإِلَهٌ مع اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني: حجتكم وعلتكم بأنه صنع شيئاً من هذا غير الله ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن مع الله آلهة أخرى ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة: ﴿لاَ يَعْلَمُ مَن في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الملائكة والناس ﴿الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ يعني: متى تقوم الساعة إلا الله رفع على معنى البدل فكأنه يقول لا يعلم أحد الغيب إلا الله أي: لا يعلم ذلك إلا الله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يعني: متى يبعثون أو أن يبعثون ومتى يبعثون قوله عز وجل: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأدرك قرأ الباقون ادراك بالألف[3] فمن قرأ أدرك فمعناه: أدرك علمهم علم الآخرة وروي عن السدي

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٣٣، النشر ٢/٣٣٨.
(٢) انظر حجة القراءات ٥٣٣.
(٣) المصدر السابق.

قال: اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا ويقال: معناه: علموا في الآخرة أن الذين كانوا يوعدون حق ولا ينفعهم ذلك ومـن قرأ إدراك فأصله تدارك فادغم التاء في الدال وشددت وأدخلت ألف الوصل ليسلم السكون للدال ومعناه تتابع علمهم أي حكمهم على الآخرة واستعمالهم الظنون في علم الآخرة فهم يقولون تارة: إنها تكون وتارة: لا تكون الساعة ويقال: معناه: تدارك أي: تكامل علمهم يوم القيامة بأنهم يبعثون ويشاهدون ما وعدوا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: من قيام الساعة في الدنيا ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ يعني: يتعامون عن قيامها ويقال: بل هم منها عمون أي: من علمها جاهلون وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: بل إدراك وهذه القراءة أشد إيضاحاً للمعنى الذي ذكرناه ثم حكى قول الكفار فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُراباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ يعني: أحياء من القبور ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ يعني: هذا الذي يقول محمد عليه السلام: ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا﴾ الذي يقول ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديث الأولين وكذبهم مثل حديث رستم واسفنديار ويقال: إن هذا إلاّ مثل رسل الأولين مما كذبوا.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ يعني: فاعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: آخر أمر المشركين ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا بل ويقال ولا تحزن عليهم أي: على تكذيبهم وإعراضهم عنك ﴿وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ يعني: لا يضيق صدرك ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يعني: بما يقولون من التكذيب ويقال: ولا يضيق قلبك بمكرهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بالمكذب ويقال: ولا تكن في ضيق مما يمكرون بقولهم فهذا دأبنا ودأبك أيام الموسم وهم الخراصون فكانوا يأمرون أهل الموسم بأن لا يسمعوا كلامه ثـم قال عز وجل: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ[1] لَكُمْ﴾ يعني: قرب وحضر لكم قال

(١) قال في التهذيب قوله تعالى ﴿ردف لكم﴾ قال: قرب لكم وقال الفراء: جاء في التفسير دنا لكم. انظر لسان العرب ١٦٢٧/٣.

الأعراف وفي سورة الشعراء. والمقصود من التفصيل ما يتضمنه من زيادة المواعظ والعبر. وإذ قد كان سوق تلك القصة إنما هو للعبرة والموعظة ليعلم المشركون سنة الله في بعثة الرسل ومعاملته الأمم المكذبة لرسلها. وتحدي المشركين بعلم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا خالط أهل الكتاب ذيل الله ذلك بتنبيه المشركين إليه وتحذيرهم من سوء=

القتبي أي تبعكم واللام زائدة فكأنه قال: ردفكم قال: وقيل في التفسير: دنا منكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب وهو عذاب القبر ويقال: يعني: القحط ويقال: يوم بدر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حين لم يأخذهم بالعذاب عند معصيتهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بتأخير العذاب عنهم حتى يتوبوا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ يعني: ما تسر قلوبهم من عداوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الكفر والشرك قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ يعني: من أمر العذاب ويقال: ما من شيء غائب عن العباد ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: مكتوب في اللوح المحفوظ ويقال: أي: جملة غائبة عن الخلق إلا في كتاب مبين ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مقاتل: يعني: أن هذا القرآن يبين للناس أهل الكتاب ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يعني: إختلافهم وقال ابن عباس: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أهواءً وأحزاباً يطعن بعضهم على بعض ويبرأ بعضهم من بعض فنزل القرآن بتبيان ما اختلفوا فيه ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَهُدًى﴾ يعني: لبياناً من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يعني: بين المختلفين في الدين ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي: بقضائه يوم القيامة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة ويقال: العزيز يعني: القوي فلا يرد له أمر ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه سبحانه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: ثق بالله ويقال: فوض أمرك إلى الله ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ يعني: الدين المبين وهو الإسلام ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ فهذا مثل ضربه للكفار أي: فكما أنك لا تسمع الموتى فكذلك لا تتفقه كفار مكة ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ قرأ ابن كثير ولا يسمع بالياء والنصب والصُّم بالرفع والباقون بالتاء وضم التاء وكسر الميم والصُّم بالنصب[1] فمن قرأ بالياء فلا يسمع فالفعل للصم ومن قرأ بالتاء فالخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك لا تسمع الصم الدعاء ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ يعني: أعرضوا عن الحق مكذبين قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة تهدي العمي بغير ألف وقرأ الباقون بالألف[2] فمن قرأ تهدي فمعناه ما أنت يا محمد بالذي تهدي الذين عميت بصائرهم عن آياتنا ولكن عليك الدعاء ويهدي الله من يشاء ومن قرأ بهادي فإن الباء دخلت لتأكيد النفي كقولك ما أنت بعالم فالياء لتأكيد النفي وخفض العمي للإضافة ثم قال: ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: لا تسمع الهدى إلا من صدق بالقرآن أنه من الله تعالى ويقال: بآياتنا يعني: أدلتنا ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصون مقرون بها ويقال: مسلمون في علم الله تعالى.

= عاقبة الشرك وأنذرهم إنذاراً بليغاً. وفند قولهم (لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) من الخوارق كقلب العصا حية ثم انتقاضهم في قولهم إذ كذبوا موسى أيضاً.

وتحداهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدى التوراة. وأبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حال بالأمم المكذبة رسل الله. وساق لهم أدلة على وحدانية الله تعالى وفيها كلها نعم عليهم وذكرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء. وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم وما لهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى. وأعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى وتخلص من ذلك إلى التذكير بأن أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأن العاقبة للمتقين. وتخلل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة وإيماء إلى أن الله مظهرهم على المشركين بقوله **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾** الآية. وختم الكلام بتسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتثبيته ووعد بأنه يجعل بلده في قبضته ويمكنه من نواصي الضالين. ويقرب عندي أن يكون المسلمون ودوا أن تفصل.

(١) انظر حجة القراءات ٥٣٦، النشر ٢/٣٣٩.

(٢) المصدران السابقان.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: إذا وجب عليهم العذاب والسخط وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانه ولم يبق إلا من يموت كافراً في علم الله تعالى ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ بما يسوءهم يعني: الدابة التي تكلم الناس وخروجها من أول أشراط الساعة ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي أن بالنصب قرأ والباقون بالكسر فمن قرأ بالنصب يكون حكاية قول الدابة ومعناه تكلمهم بأن الناس ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بآيات ربهم وهو خروج الدابة ومن قرأ بالكسر يكون بمعنى الابتداء ويتم الكلام عند قوله تكلمهم ثم يقول الله تعالى: أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون يعني لا يؤمنون قال أبو عبيد: حدثنا هشام عن المغيرة أن أبا زرعة بن عمر وابن عباس قرأها تكلمهم بنصب التاء وكسر اللام وبسكون الكاف والتخفيف يعني تسمهم فيتبين الكافر من المؤمن قال الفقيه أبو الليث رحمه الله وحدثني الثقة عن أبي بكر الواسطي عن إبراهيم بن يوسف عن محمد بن الفضل الضبي عن أبيه عن سعيد بن مسروق عن ابن عمر رضي الله عليهم قال: ألا أريكم المكان الذي قال فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخرج الدابة منه فضرب بعصاه قبل الشق الذي في الصفا وقال إنها ذات زغب وريش وإنها لتخرج تلبها أول ما تخرج كحضر الفرس الجواد ثلاثة أيام ولياليهن وإنها لتدخل عليهم وإنهم ليفرون منها إلى المساجد فتقول: أترون أن المساجد تنجيكم مني وروى مقاتل قال: تخرج الدابة من الصفا ولا يخرج إلا رأسها وعنقها فتبلغ رأسها السحاب فيراه أهل المشرق والمغرب ثم يقود إلى مكانها ثم تزلزل الأرض في ذلك اليوم في ست ساعات فيمسون خائفين فإذا أصبحوا جاءهم الصريخ بأن الدجال قد خرج وروي عن أبي هريرة أنه قال تخرج الدابة ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتجلو وجه المؤمن بعصا موسى وتختم وجه الكافر بخاتم سليمان ثم تقول لهم: يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار فترى أهل البيت مجتمعين على خوانهم يقول لهذا يا مؤمن ولهذا يا كافر وروى ابن جريج عن أبي الزبير قال رأسها رأس ثور وعيناها خنزير وأذناها فيل وقرناها قرنا أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين منها اثني عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتنكت على وجه المؤمن حتى يبيض وتختم الكافر بخاتم سليمان حتى يسود فيعرف المؤمن من الكافر وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: تنكت في وجه الكافر نكتة سوداء فتفشو في وجهه حتى يبيض وجهه ويتابعون في الأسواق فيعرفون المؤمن من الكافر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُل أُمَّةٍ فَوْجاً﴾ يعني: نوجب عليهم العذاب في يوم نحصر من كل أمة فوجاً يعني من أهل كل دين جماعة ويقال: يوم نحشر يعني: نجمع من كل أمة فوجاً يعني: جماعة ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يعني: يحبس أولهم لآخرهم: يجتمعوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جاءوا﴾ يعني: اجتمعوا للحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ يعني: قال الله تعالى لهم: أكذبتم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن اللفظ لفظ الإستفهام

والمراد به التقرير يعني: قد كذبتم بآياتنا ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ اللفظ لفظ النفي والمراد به المناقشة في الحساب يعني: كذبتم كأنكم لم تعلموا ويقال: لم تعرفوها حق معرفتها ثم قال: ﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اللفظ لفظ السؤال والمراد به التوبيخ ومعناه ماذا كنتم تعملون. أن تؤمنوا بالكتاب والرسل يعني أي عمل منعكم عن ذلك ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: نزل عليهم العذاب ووجب عليهم ﴿بِمَا ظَلَموا﴾ يعني: بما أشركوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُون﴾ يعني: لا يمكنهم أن يتكلموا من الهيبة لما ظهر لهم من المعاينة ولما تحيروا في ذلك ثم وعظ كفار مكة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: ألم يعتبروا: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوْا فِيه والنَّهار مُبصراً﴾ يعني: مضيئاً وأضاف الفعل إلى النهار لأن الكلام يخرج مخرج الفاعل إذا كان هو سبباً للفعل كما قال: بل (مَكْر اللَّيْلِ والنَّهارِ) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فيما ذكر من الليل والنهار لعبرات لقوم يصدقون بتوحيد الله تعالى.

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وقال عز وجل ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ أي: من شدة الصوت والفزع ويقال: ماتوا وقال بعضهم: النفخ ثلاثة أحدها: الفزع وهو قوله «فَفَزِعَ مَن فِي السَّمٰواتِ» ونفخة أخرى للموت: وهو قوله: «فَصَعِقَ من فِي السَّمٰوَاتِ» ونفخة للبعث: وهي قوله: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرَىٰ فإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ» وقال بعضهم: إنما هما نفختان والفزع والصعق كناية عن الهلاك ثم نفخة للبعث ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ثم يموتوا بعد ذلك ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ روى سفيان بإسناده عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ وكل أتوه بغير مد ونصب التاء وهي قراء حمزة وعاصم في رواية حفص والباقون بالمد والضم ومن قرأ بالمد وضم التاء فمعناه كل حاضروه ﴿داخرين﴾ أي: صاغـرين ويقال: متواضعين ومن قرأ بغير مد يعني يأتوا الله ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي: تحسبها واقفة مكانها ويقال: مستقرة ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ حتى يقع على الأرض فتستوي أي: في أعين الناظرين كأنها واقفة قال القتبي: وكذلك كل عسكر غض به الفضاء فينظر الناظر فيرى أنها واقفة وهي تسير ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ يعني: ملأ كل أي: أحكم خلق كل شيء ويقال: الشيء المتقن أن يكون وثيقاً ثابتاً فما كان من صنع غيره يكون واهياً ولا يكون متقناً ﴿إنه خبير بما يفعلون﴾ أي: عليم بما فعلتم ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي بالإيمان والتوحيد وكلمة الإخلاص وشهادة أن لا إله إلا الله ﴿فله خير منها﴾ على وجه التقديم وله منها خير أي: حين ينال بها الثواب والجنة ويقال: فله خير منها أي: خير من الحسنة يعني: أكثر منها للواحد عشرة ويقال: فله خير منها من الحسنة وهي الجنة لأن

الجنة هي عطاؤه وفضله والعمل هو اكتساب العبد فما كان من فضله وعطائه فهو أفضل وهذا تفسير المعتزلة والأول قول المفسرين **﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾** أي: من فزع يوم القيامة قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع في رواية ورش من فزع يومئذ بغير تنوين ويومئذ بكسر الميم والباقون بالتنوين ونصب الميم قال أبو عبيد: وبالإضافة نقرأ لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم وإذا قال: فزع بالتنوين صار كأنه قال: فزع دون فزع وقال غيره، إنما أارد به الأكبر لأن بعض الأفزاع تصيب الجميع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: إنه خبير بما يفعلون بالياء على معنى الإخبار عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة **﴿ومن جاء بالسيئة﴾** أي: بالشرك **﴿فكبت وجوههم في النار﴾** ويقال: يكبون على وجوههم ويجرون إلى النار وتقول لهم خزنة النار **﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾** من الشرك ويقال: فكبت أي: ألقيت وطرحت **﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾** أي: قل يا محمد لأهل مكة: أمرني الله تعالى أن أستقيم على عبادة رب هذه البلدة يعني: مكة الذي حرمها بدعاء إبراهيم عليه السلام وحرم فيها القتل والصيد قال بعضهم: كان حراماً أبداً قال بعضهم وهو أصح: إن إبراهيم لما دعا فجعلها الله حراماً بدعوته وقد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن إبراهيم حرم مكة وأنا حرمت المدينة ما بين لابتيها[1] ثم روي أنه قد رخص في المدينة ثم قال تعالى: وله كل شيء أي: وخلق كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين أي: من المخلصين **﴿وأن أتلوا القرآن﴾** يعني: أمرت أن أقرأ عليكم القرآن يا أهل مكة **﴿فمن اهتدى﴾** أي: آمن بالقرآن **﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾** أي: يؤمن لنفسه ويثاب عليها **﴿ومن ضل﴾** ولم يوحد ولم يؤمن بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿فقل إنما أنا من المنذرين﴾** أي: من المخوفين ومن المرسلين فليس عليَّ إلا تبليغ الرسالة **﴿وقل الحمد لله﴾** أي: الشكر لله على ما هداني **﴿سيريكم﴾** أيها المشركون آياته يعني: العذاب في الدنيا **﴿فتعرفونها﴾** أنها حق وذلك أنه أخبرهم بالعذاب فكذبوه فأخبرهم أنهم يعرفونها أنها حق وذلك إذا نزل بهم وهو القحط والقتل ويقال: هو فتح مكة **﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾** فهذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم وقال الزجاج في قوله (سيريكم) آياته أي سيريكم الله آياته في جميع ما خلق وفي أنفسكم قرأ نافع وعاصم في رواية حفص وابن عامر في إحدى الروايتين (تعملون) بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر عنه والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) أخرجه مسلم ٢/١٠٠١ كتاب الحج باب الترغيب في سكنى المدينة (٤٧٥ ـ ١٣٧٤).

(٢) انظر حجة القراءات ٥٤١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٣٧.

سُورَةُ القَصَصِ (١)

ثمانون وثمان آيات مكية إلا قول «إنّ الذي فَرضَ عَليكَ القرآن» لأنه نزل بين مكة والمدينة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿طَسمٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ المبين﴾ أي: القرآن وهو مبين للأحكام وقد ذكرناه (قال أبو سعيد الفاريابي في قوله تعالى (طا) قال: هو طاهر عما يعلوه والسين سامع لما وصفوه والميم ماجد حين سألوه والماجد كثير العطاء ويقال: أمجدني فلان إذا أكثر إعطاؤه ويقال: (طا) أي: أقسم الله بطالوت وسين أقسم الله بسليمان وميم أقسم الله بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ)[٢] ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ﴾ يعني: ننزل عليك جبريل عليه السلام يقرأ عليك ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي: من خبر موسى وفرعون بالصدق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الآية وإنما أنزل القرآن لجميع الناس ولكن المؤمنين هم الذين يصدقون فكأنه لهم وذلك أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يؤذونهم المشركون فيشكون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه السورة في شأنهم لكي يعرفوا ما نزل في بني إسرائيل من فرعون وقومه ليصبروا كصبرهم وينجيهم ربهم كما أنجا بني إسرائيل من فرعون وقومه وهذا كقوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ ان تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ» الآية ثم أخبر عن فرعون فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: اسْتكبر وتعظم عن الإيمان وخالف أمر موسى في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ يعني: أهل مصر فرقاً ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ يعني: يستقهر ﴿طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني: من أهل مصر وهم بنو إسرائيل فجعل بعضهم ينقل الحجارة من الجبل وبعضهم يعملون له عمل النجارة وبعضهم أعمال الطين ومن كان لا يصلح لشيء من أعماله يأخذ منه

---

(١) اشتملت هذه السورة على التنويه بشأن القرآن والتعريض بأن بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بسورة مثله وعلى تفصيل ما أجمل في سورة الشعراء من قول فرعون لموسى ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ إلى قوله ﴿وأنت من الكافرين﴾ ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون. وبين فيها سبب زوال ملك فرعون. وفيها تفصيل ما يجمل في سورة النمل من قوله: ﴿إذ قال موسى لأهله إني ءانست ناراً﴾ ففصلت سورة القصص كيف سار موسى وأهله وأين آنس الناس ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون فكانت هذه السورة أوعب الأحوال لنشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم جعلت ما بعد ذلك لأن تفصيله في سورة لهم قصة رسالة موسى عليه السلام فكان المقصود انتفاعهم بما في تفاصيلها من معرفة نافعة لهم تنظيراً لحالهم وحال أعدائهم. فالمقصود ابتداء هم المسلمون ولذلك قال تعالى في أولها: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ أي للمؤمنين. انظر التحرير ٢٠/٦٢، ٦٣.

(٢) سقط في ظ.

كل يوم ضريبة درهماً فإذا غابت الشمس ولم يأت بالضريبة غلت يده اليمنى إلى عنقه ويأمره بأن يعمل بشماله هكذا شهراً. ثم قال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي يعني: أبناء بني إسرائيل صغاراً ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يعني: يستخدم نساءهم وأصله من الاستحياء يعني يتركهن أحياء وروى أسباط عن السدي قال: بلغنا أن فرعون رأى فيما يرى النائم كأن ناراً أقبلت من أرض الشام فاشتملت على بيوت مصر وكانت الشام أرض بني إسرائيل أول ما كانوا فأحرقتها كلها إلا بيوت بني إسرائيل فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: يولد في بني إسرائيل مولود يكون على يديه هلاك أهل مصر فأمر فرعون بأن لا يولد في بني أسرائيل ذكر إلا ذبح وعمد إلى ما كان من بني إسرائيل خارج المصر فأدخله المدينة واستعبدهم ورفع العمل عن رقاب أهل مصر ووضعه على بني[1] إسرائيل» ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: فرعون كان يعمل بالمعاصي.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استضعفوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أردنا أن نمن بالنجاة على الذين استضعفوا في الأرض وهم بنو إسرائيل نمن. يعني: ننعم عليهم ﴿وَنَجْعَلَهُم أَئِمَّةً﴾ يعني: قادة في الخير ﴿وَنَجْعَلَهُم الْوَارِثِينَ﴾ يعني: أرض مصر وملك فرعون وقومه بعد هلاك فرعون ﴿وَنُمَكِنَ لَهُمْ﴾ يعني: نملكهم ويقال: ننزلهم في الأرض ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: في أرض مصر ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: ويرى بالياء والنصب وفرعون وهامان ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ بالرفع كل ذلك قرأ والباقون: ونرى بالنون والضم وفرعون وهامان وجنودهما كلها بالنصب[2] ونصب نرى لأنه معطوف على قوله أن نمن فكأنه قال: أن نمن وأن نرى ونصب فرعون لوقوع الفعل عليه ومن قرأ بالياء رفعه لأن الفعل منه ثم قال: وهامان وجنودها ﴿مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ يعني: يرون ما كانوا يخافون من ذهاب الملك وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ موسى﴾ يعني: ألهمنا أم موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وذلك أن أم موسى حبلت فلم يظهر بها أثر الحبل حتى ولدت موسى وأرضعته ثلاثة أشهر أو أكثر فألهمها الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ يعني: إلى صباحه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ يعني: في البحر قال: مقاتل وهو النيل فعلمها جبريل ويقال: رأت في المنام بأنها تؤمر أن تلقيه في البحر ويقال كان هذا إلهاماً ويقال: كانت دلالة حيث علمت بالرؤيا أو شيء خيل لها أن تفعل ما فعلت كما أن إبراهيم عليه السلام رأى في المنام ذبح إسحاق

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١١٩ مطولاً وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) حجتهم أن ما قبله للمتكلم فينبغي أن يكون ما بعده أيضاً كذلك ليكون الكلام من وجه والذي قبله «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم» فأجروا على لفظ ما تقدمه ليأتلف الكلام ومن قرأ» (يرى) حجتهم أن المعنيين يتداخلان لأن فرعون ومن ذكر معه إذا أراهم الله من المستضعفين ما كانوا يحذرون رأوا ذلك وإذا رأوه فلا شك أن الله جل وعز أراهموه. وانظر حجة القراءات ٥٤٢، وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٤٠.

وإسماعيل عليهما السلام وذكر أنها كانت تخبز يوماً وكان موسى عليه السلام على رأس التنور إذ دخل قوم فرعون يطلبون الولد فوضعته في التنور فدخلوا فلم يجدوا موسى عليه السلام فجاءت إلى التنور فوجدته يلعب بأصابعه في الأرض فاستيقنت أن الله تعالى يحفظه فجعلته في التابوت وألقته في النيل ثم قال: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ الغرق ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ أن لا يرد إليك ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: رسولاً إلى فرعون وقومه فلما ألقته في النيل جاء به الماء وكان ممر الماء في دار فرعون فوجدته جواري فرعون بين الماء والشجر فمن ثم سمي موسى بلفظ القبط موسى فذلك قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ يعني: إن أخذهم إياه كان سبباً لحزنهم فكأنهم أخذوه لذلك وإنما كان أخذهم لم يكن لذلك قرأ حمزة والكسائي: وحزناً بضم الحاء وسكون الزاي وقرأ الباقون: بنصب الحاء والزاي وهما لغتان[1] ومعناهما واحد ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ يعني: مشركين ويقال عاصين آثمين.

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسية لفرعون هذا الغلام ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فإنه آتانا به الماء من مصر آخر ومن أرض أخرى وليس من بني إسرائيل ويقال: أنها قالت إن هذا كبير ومولود قبل هذه المدة التي أخبر لك ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ فإنه لم يكن له ولد ذكر قال فرعون: فهو قرة عين لك فأما أنا فلا وروي عن ابن عباس أنه قال: لو قال فرعون أيضاً هو قرة عين لي لنفعه الله تعالى به ولكنه أبى ويقال قرة عين لي وقد تم الكلام ثم قالت ولك لا تقتلوه (قال: وروى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقف على قرة عين لي ولك ثم قال: لا تقتلوه أي: لا تقتلوه فلا الثاني إضمار في الكلام)[2] والتفسير الأول أصح ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعر فرعون وقومه أن هلاكهم على يديه ثم قال عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ يعني: خالياً من كل ذكر وشغل إلا ذكر موسى عليه السلام ويقال صار قلبها فارغاً حين بعثت أخته لتنظر فأخبرتها بأنه قد أخذ في دار فرعون فسكنت حيث لم يغرق ويقال: صار قلبها فارغاً لأنها علمت أنه لا يقتل وروي عن فضالة بن عبيد أنه قرأ: وأصبح فؤاد أم موسى فزعاً[3] يعني: خائفاً وقراءة العامة فارغاً وتفسيره ما ذكرناه وقد قيل أيضاً فارغاً من شغل نفقته ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ يعني: وقد كادت لتظهر به قال مقاتل: وذلك أنها لما ألقت التابوت في النيل فرآت التابوت يدفعه مرة ويضعه أخرى فخشيت عليه الغرق فعند ذلك فزعت عليه وكادت أن تصيح ويقال: أنه لما كبر كان الناس

---

(١) قال تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ بضم الحاء وقال تعالى ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ بفتح الحاء وقال الفراء كأن الحزن الإسم والحزن المصدر تقول حزن حزناً. انظر حجة القراءات ٥٤٢، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤١.

(٢) سقط في ظ.

(٣) هي قراءة فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبي العالية وابن محيصن وقرأ ابن عباس وقرأ عامر بالقاف وكسر الراء وإسكانها من قرع رأسه إذا أنحر شعره وكأنه خلا من كل شيء إلا من ذكر موسى. انظر البحر المحيط ١٠٧/٧ تفسير القرطبي ١٣/١٦٩.

يقولون: هو ابن فرعون فكان ذلك شق عليها وكادت أن تظهر أن هذا ولدي وليس بولد فرعون ويقال: لما دخل الليل دخل الغم في قلبها حيث لم تدر أين صار ولدها فأرادت أن تظهر ذلك ﴿لَوْلَا أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي: ثبتنا قلبها ويقال: قوينا قلبها وألهمناها الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المصدقين بوعد الله تعالى حيث وعد لها بإنا رادوه إليك فلم تجزع ولم تظهر قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ يعني: قالت أم موسى: لأخت موسى وكان اسم أخته مريم (قصية) يعني: اتبعي أثره ويقال يعني: امشي بجنبه في الحد وهو في الماء حتى تعرف من يأخذه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ يعني: بصرته عن بعد كما قال «والجار الجنب» يعني البعيد منهم من قوم آخرين ويقال عن جنب يعني في جنب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخت موسى ويقال: وهم لا يشعرون يعني وهم لا يعرفون[1] أنها ترقبه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أمه ويقال في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس أن أم موسى عليها السلام قالت لأخته قصيه أي اطلبي أثره بعد ما أخذه آل فرعون ولم يقبل رضع أحد وحرمنا عليه المراضع من قبل مجيء أخته ويقال: حرمنا عليه المراضع يعني: منعنا موسى أن يقبل ثدي مرضع من قبل أن نرده على أمه ﴿فقالت﴾ أخته حين تعذر عليهم إرضاعه ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ يعني: يضمنونه لكم رضاعه ويقال: يضمنونه ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ يعني: مشفقون للولد ويقال: مخلصون شفقة فقال هامان: خذوها حتى تخبرنا بقصة هذا الغلام فأخذت فألهمها الله تعالى أن قالت عند ذلك إنما ذكرت النصيحة لفرعون أعني وهم له ناصحون لفرعون لا لغيره فقال هامان لفرعون دعوها فقد صدقت فأرسل إليها فلما جاءت أمه وضعت الثدي في فمه فأخذ ثديها وسكن فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: كائن صدق وهو قوله إنا رادوه إليك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن وعد الله حق يعني أهل مصر قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشده﴾ ثم قال: قال مجاهد: يعني بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿وَاسْتَوَى﴾ يعني: بلغ أربعين سنة قال وفي رواية الكلبي الأشد ما بين ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة ويقال: ولما بلغ أشده يعني منتهى قوته وهو ما فوق الثلاثين واستوى يعني: بلغ أربعين سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني: علماً وعقلاً ويقال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٢/٥ وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب المعمرين بنحوه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وانظر تفسير القرطبي ١٧١/٣.

النبوة وعلم التوراة وروى مجاهد عن ابن عباس قال: الأشد ثلاثاً وثلاثين سنة وأما الاستواء فأربعون سنة والعمر الذي أعذر الله تعالى ابن آدم فيه إلى ستين سنة يعني: قوله: «أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: المؤمنين قوله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ قال مقاتل يعني: قرية على رأس فرسخين وقال غيره يعني: المصر ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ يعني: نصف النهار وقت القيلولة ويقال ما بين المغرب والعشاء ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ يعني: من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِن عَدُوِّهِ﴾ يعني: من القبط وقال القتبي: هذا من شيعته أي: من أصحابه وهذا من عدوه أي من أعدائه والعدو يدل على الواحد والجمع وذكر أن خباز فرعون أخذ رجلاً من بني إسرائيل سخرة فأمره بأن يحمل الحطب إلى دار فرعون ﴿فاستغاثه الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ يعني: هذا الذي من شيعة موسى استغاث بموسى ﴿عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ يعني: ضربه بكفه ضربة في صدره وقال القتبي: فوكزه يعني: لكزه ويقال لكزته ووكزته إذا دفعته ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ يعني: مات الخباز بضربته وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه فمعنى قوله فقضى عليه أي قتله ولم يتعمد قتله وكان موسى شديد البطش ثم ندم على قتله فقال إني لم أؤمر بالقتل وإن كان كافراً ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني هو الذي حملني على هذا الفعل ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: يضل الخلق مبين يعني: ظاهر العداوة ثم استغفر إلى الله تعالى ﴿فقال﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ يعني: غفر الله ذنبه عز وجل ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب لمن تاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني: بالمغفرة كقوله «بِمَا أَغْوَيْتَنِي» يعني أما إذا أغويتني ثم قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني (أعوذ بالله أن أكون) معيناً للكافرين لأن الإسرائيلي كان كافراً ولم يستثن على كلامه فابتلاه الله عز وجل في اليوم الثاني بمثل ذلك وكانوا لا يعرفون من قتل خباز الملك وكانوا يطلبون قاتله ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ أن يؤخذ فيقتل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يعني: ينتظر الطلب ويقال: ينتظر الأخبار ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يعني: رأى الإسرائيلي كان يقاتل مع رجل آخر من القبط يستصرخه يعني: يستغيثه كقوله «ما أنا بِمُصرِخِكُم» يعني: بمغيثكم ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ يعني: للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: ضال بين ويقال: جاهل بين ويقال: ظاهر الغواية وقد قتلت لك الأمس رجلاً وتدعوني إلى آخر ثم أقبل إليه فظن الذي من شيعته أنه يريده فذلك قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ يعني يريد أن يضرب القبطي فظن الإسرائيلي أنه يريده بعد ما عاتبه قرأ أبو جعفر المدني يبطش بضم

الطاء وقراءة العامة بالكسر ومعناهما واحد (فظن الإسرائيلي أن موسى يريد ضربه فـ)(١) ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ وقال بعضهم كان ذلك إبليس تشبه بالرجل الإسرائيلي ليظهر أمر موسى وقال بعضهم: كان ذلك الرجل بعينه فقال ذلك الرجل من الخوف ﴿إِن تُرِيدُ﴾ يعني: ما تريد ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ يعني: قتالاً قال الكلبي: من قتل رجلين فهو جبار ويقال: أن من سيرة الجبابرة القتل بغير حق ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يعني: المطيعين لله تعالى فلما قال الإسرائيلي هذا علم القبطي أن موسى هو قاتل القبطي فرجع القبطي فأخبرهم أن موسى هو القاتل فائتمروا بينهم بقتل موسى قال فأذن فرعون بقتله فجأة خزيلي وهو مؤمن من آل فرعون وأخبر موسى بذلك فذلك قوله ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يعني: من وسط المدينة يمشي على رجليه ويقال يسرع ويشتد في مشيته فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ﴾ يعني: الأشراف من أهل مصر ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال أبو عبيد: يعني يتشاورون في أمرك وقال القتبي يعني: يهمون بك ليقتلوك ﴿فَأَخْرُجْ﴾ من هذه المدينة ﴿إِنِّي لَكَ من الناصحينَ﴾ قوله عز وجل ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي من مصر ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ يعني: ينتظر الطلب قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي بوجهه نحو مدين وذلك أن موسى عليه السلام حين خرج وتوجه نحو مدين وكان بينه وبين مدين ثمانية أيام كما بين الكوفة والبصرة ويقال تلقاء مدين يعني: سلك الطريق الذي تلقاء مدين ويقال لما قال رب نجني من القوم الظالمين استجاب الله تعالى دعاءه فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بأن يسير تلقاء مدين فسار إلى مدين في عشرة أيام وهو قوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سواءَ السَّبِيلِ﴾ يعني: يرشدني قصد الطريق إلى مدين.

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ومدين بن إبراهيم عليهما السلام وكانت البير تنسب إليه الماء وصار مدين اسم قبيلة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ أي: جماعة ﴿مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أنعامهم وأغنامهم ويقال هم أربعون رجلاً ويقال عشرة رجال ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ يعني: من دون الناس ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تطردان وقال سعيد بن جبير يعني: حابستان ويقال تحبسان غنمهما وقال القتبي: تذودان أي تكفان غنمهما وحذف الغنم اختصاراً ويقال كانتا تحبسان الغنم لكيلا تختلط بغيرها ويقال تحبسان الغنم لتصدر مواشي الناس وتسقيان بفضل الماء ومما فضل من أغنام الناس وهما ابنتا شعيب النبي عليه السلام ﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما ترعيان الغنم مع الرجال وما بالكما لا تسقيان ﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر يصدر بنصب الياء وضم الدال وقرأ الباقون يصدر بضم الياء وكسر الدال فمن قرأ

(١) سقط في أ.

بالنصب فهو من صدر يصدر إذا رجع من الماء ومعناه لا نسقي حتى يرجع الرعاء ونسقي بفضلهم لأنا لا نقدر أن نسقي وأن نزاحم الرجال إذا صدروا سقينا بفضل مواشيهم ومن قرأ يصدر بالضم فهو من أصدر يصدر والمعنى حتى يصدر الرعاة أغنامهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لم يقدر على الخروج وليس له عوناً يعينه غيرنا فرجع الرعاة ووضعوا صخرة على البئر فانتهى موسى إلى البئر وقد أطبقت عليها الصخرة فاقتلعها ثم سقى لهما حتى أروتا أغنامهما وقال في رواية الكلبي كان للبئر دلو يجتمع عليه أربعون رجلاً حتى يخرجوه من البئر فجاء موسى أهل الماشية فسألهم أن يهيؤا له دلواً من الماء فقالوا إن شئت أعطيناك الدلو على أن تسقي أنت قال نعم فأخذ موسى عليه السلام الدلو فسقى بها وحده فصب في الحوض ثم قربتا غنمهما فشربت فذلك قوله عز وجل: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ يعني: أغنامهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ يعني: تحول إلى ظل الشجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي لما أنزلت إلي من الطعام فأنا محتاج إلى ذلك إنه كان جائعاً فسأل ربه ولم يسأل الناس ففطنت الجاريتان فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة فقال أبوهما هذا رجل جائع وقال لإحداهما اذهبي فادعيه فلما أتته عظمته وغطت وجهها فذلك قوله[1] ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قوله على استحياء يعني على حياء لأنها كانت مقنعة ولم تك متبرجة ويقال: على استحياء يعني: على حياء لأنها كانت واضعة يدها على وجهها ويقال: على استحياء أي: مستترة بكم درعها (قال: فالوقف على تمشي إذا كان قولها على الحياء فأما إذا كان مشيها على الحياء فالوقف على استحياء والقول بالحياء أشبه من المشي بالحياء فكيف ما يقف يجوز بالمعنى)[2] فقالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال ويقال: أقل من ذلك فتبعها فلم يجد بداً من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال خائفاً مستوحشاً فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها وتظهر عجيزتها وجعل موسى عليه السلام يعرض مرة ويغض أخرى فلما عيل صبره ناداها يا أمة الله كوني خلفي وأريني السمت بقولك يعني: دليني الطريق فلما دخل على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء مهيأ فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال له شعيب: لم لا تأكل أما أنت جائع فقال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً فقال: لا يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي إنا نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل وأخبره بقصة القتل والهرب فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: خرجت من ولاية فرعون ولا سلطان له في أرضنا وقال في رواية الكلبي: كان هذا الرجل اسمه نيرون ابن أخي شعيب وشعيب كان توفي قبل ذلك وقال عامة المفسرين: إن هذا كان شعيباً.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في ظ.

جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي: قالت إحدى الابنتين التي جاءت به وقال في رواية مقاتل: هي الكبرى وقال في رواية الكلبي: هي الصغرى يا أبت استأجر موسى ليرعى لك الغنم ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ يعني: خير الأجراء من يكون قوياً في العمل أميناً على المال والعورة ثم قال: إيش تعلمين أنه قوي أمين بماذا فأخبرته بالقصة قال أبو الليث: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنامحمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو معاوية عن الحجاج عن الحكم قال: كان سريع لا يفسر شيئاً من القرآن إلا ثلاث آيات (الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) قال: الزوج وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب قال: الحكمة: الفقه والعلم وفصل الخطاب: البينة والإيمان وقوله: (إن خير مَن اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) قال: كانت قوته أن يحمل صخرة لا يقوى على حملها إلا عشرة رجال وكانت أمانته أن ابنة شعيب مشت أمامه فوصفتها الريح فقال لها: تأخري وصفي لي الطريق ﴿قَالَ﴾ شعيب لموسى ـ عليهما السلام ـ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ يعني: أزوجك إحدى ابنتي على أن ترعى غنمي ثمان سنين وهذا الحكم في هذه الأمة جائز أيضاً لو تزوج الرجل المرأة على أن يرعى غنمها كذا وكذا سنة أو يرعى غنم إبيها يجوز النكاح ويكون ذلك مهراً لها ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً﴾ (يعني: عشر سنين)[1] ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ يعني: فإن أتممت عشر سنين فبفضلك وليس ذلك بواجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في السنتين يعني: أنت بالخيار في ذلك ويقال: بأن أشرط عليك العشر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من الوافين بالعهد وقال مقاتل: يعني: من المرافقين بك كقوله: (اخلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِح) يعني: أرفق بهم ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يعني: ذلك الشرط بيني وبينك أيما الأجلين أتممت لك إما الثماني وإما العشر ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا سبيل لك علي ويقال: لا ظلم علي بأن أطالب أكثر منه فإن قيل كيف تجوز الإجارة بهذا الشرط على أحد الأجلين بغير وقت معلوم قيل له العقد قد وقع على الثماني وهو قوله: أن تأجرني ثماني حجج وإنما خير في الزيادة والإجارة بهذا الشرط في الشريعة جائزة أيضاً ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يعني: شهيد فيما بيننا ويقال: شاهد على ما نقول وعلى عقدنا وذكر مقاتل أن رجلاً من الأزد سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيما الأجلين قضى موسى قال الله أعلم حتى سأل جبريل فأتاه جبريل فسأله فقال الله أعلم حتى أسأل إسرافيل ـ عليه السلام ـ فقال الله أعلم حتى أسأل رب العزة فأوحى الله تعالى إلى إسرافيل ـ عليه السلام ـ أن قد قضى موسى أبرهما وأوفاهما[2] وروي عن ابن عباس أنه قال قضى موسى أيم الأجلين وقد كان شرطه له أن ما ولدت في ذلك العام ولداً أبلق فهو له فولدت في ذلك العام كلها بلقا فأخذ البلق، ومثل هذا الشرط في شريعتنا غير واجب إلا أن الوعد من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ واجب فوفاه بوعده فلما أراد أن يخرج قال لشعيب ـ عليه السلام ـ يا شيخ أعطني عصا أسوق بها غنمي فقال لابنته التمسي له عصا فجاءت بعصا شعيب فقال شعيب ـ عليه السلام ـ ردي هذه وكانت تلك العصا أودعها إياه ملك في صورة إنسان وكان من عود آس الجنة فردتها والتمست غيرها فلم يقع في يدها غيرها فأعطته فخرج مع أهله فضل الطريق وكانت ليلة باردة مظلمة فذلك قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ يعني بامرأته ﴿آنَسَ﴾ يعني: أبصر ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امكُثُوا﴾ يعني: قفوا مكانكم ﴿إِنِّي انَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي خبر الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ قرأ عاصم جذوة بنصب الجيم وقرأ حمزة بضم الجيم وقرأ الباقون بالكسر فهذه

---

(١) سقط في أ.

(٢) هي من الإسرائيليات التي لا يلتفت إليها.

لغات[1] معناها واحد وهو قطعة من النار ويقال شعلة وهو عود قد احترق ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تصطلوا من البرد فترك امرأته في البرية وذهب.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني النار ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ يعني من جانب الواد الأيمن عن يمين موسى - عليه السلام - ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ يعني من الموضع المبارك الذي كلم الله فيه موسى - عليه السلام - ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني الذي يناديك رب العالمين قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وقد ذكرناه قال الله تعالى ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ يعني من الحية يعني قد [آمنت أذينا لك][2] منها مكروه ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾ أي أدخل يدك ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ واضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي يدك قال بعضهم هذا ينصرف إلى قوله ولم يعقب من الرهب أي لم يلتفت من الخوف ويقال كان خائفاً فأمره بأن يضم يده إلى صدره ففعل حتى سكن عن قلبه الرعب قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو من الرهب بنصب الراء والهاء وقرأ عاصم في رواية حفص بنصب الراء وجزم الهاء والباقون الرهب بضم الراء وجزم الهاء ومعنى ذلك كله واحد[3] وهو الخوف وقال بعضهم هو الكريم ثم قال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني اليد والعصا آيتان وعلامتان من ربك وحجتان لنبوتك قرأ ابن كثير وأبو عمرو فذانك بتشديد النون وقرأ الباقون: بالتخفيف[4] وهما لغتان وهو الإشارة إلى شيئين يقال للواحد ذلك وذاك والاثنين

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢ /٣٤١، حجة القراءات ٥٤٣

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٤٤.

(٤) قال بعض النحويين: إنما شددت النون في الإثنين للتأكيد لأنهم زادوا على نون الإثنين نوناً كما زادوا قبل كاف المشار إليه لاماً للتأكيد فقالوا في (ذاك): (ذلك) فلما زادوا في (ذاك) لامـاً زادوا في (ذانك) نوناً أخرى فقالوا: (ذانك) (وقال آخرون: إن الأصل في (ذانك): (ذاانك) بألفين، فحذفت الألف وجعل التشديد عوضاً من الألف المحذوفة التي كانت في (ذا) ومن العرب من إذا حذف عوض ومنهم من (إذا حـذف) لم يعوض. من عوض آثر تمام الكلمة ومن لم يعوض آثر التخفيف. ومثل ذلك في تصغير (مغتسـل)؛ منهم من يقول (مغيسل) فلا يعوض ومنهم من يقول (مغيسيل) فيعوض من التاء ياء. انظر حجة القراءات ٥٤٤-٥٤٥.

ذانك وذانك ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ ومعناه أرسلناك إلى فرعون بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: عاصين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ يعني: أبين مني لساناً وكانت في لسان موسى عقدة من النار التي أدخلها فاه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً﴾ أي عوناً ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ يعني: لكي يصدقني ويعبر عن كلامي قرأ نافع رداً بغير همز والباقون بالهمز فمن قرأ بالهمز فهو الأصل ومن قرأ بغير همز فإنما ألقى فتحة الهمزة على الدال ولين الهمزة وقرأ عاصم وحمزة يصدقني بضم القاف والباقون بالجزم[1] فمن قرأ بالجزم جعله جواب الأمر ومن قرأ بالضم جعله صفة ردءاً أي ردءاً مصدقاً ثم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي فرعون وقومه ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي نقويك بأخيك ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ يعني: حجة ثابتة وهي اليد والعصا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: لا يقدرون على قتلكما ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ يعني: من آمن بكما الغالبون في الحجة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ (يعني: جاء إلى فرعون وقومه بعلاماتنا وذكر في رواية مقاتل أن فرعون لم يأذن لهما إلى سنة وقال)[2] في رواية السدي وغيره أنه لما جاء إلى الباب لم يأذن له البواب فضرب عصاه على باب فرعون ضربة ففزع من ذلك فرعون وجلساؤه فدعا البواب وسأله فأخبره أن بالباب رجلاً يقول أنا رسول رب العالمين فأذن له فدخل فأدى الرسالة وأراهم العلامة فقالوا هذا سحر فذلك قوله عز وجل ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ يعني ما هذا الذي جئت به إلا كذب مختلق يعني: الذي جئت به ما هو إلا سحر قد اختلقته من ذات نفسك ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَى﴾ قرأ ابن كثير بغير واو وقرأ الباقون بالواو فمن قرأ بالواو فهو عطف جملة على جملة ومن قرأ بغير واو فهو إستئناف قال موسى ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ يعني أنا جئت بالهدى من عند الله ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يعني: هو أعلم بمن تكون له الجنة والنار ويقال بمن يكون له عاقبة الأمر والدولة قرأ حمزة والكسائي: ومن يكون بلفظ التذكير وقرأ الباقون تكون بلفظ التأنيث[3] ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: لا يأمن الكافرون من عذابه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لأهل مصر ﴿يَأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ فلا تطيعوا موسى وهذه إحدى كلمتيه التي أخذه الله بهما والأخرى (وقال أنا ربكم الأعلى) ثم قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي أوقد النار على اللبن حتى يصير آجراً قال مقاتل وكان فرعون أول من طبخ الآجر وبنى به ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾ أي قطراً طويلاً منه وهو المنارة ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ﴾ السماء ﴿إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يعني: وأقف عليه فبنى الصرح وكان بلاطه خبث القواير وكان الرجل لا يستطيع القيام

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٤١، حجة القراءات ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

(٢) سقط في ظ.

(٣) النشر في القراءات العشر ٢/٣٤١، انظر حجة القراءات ٥٤٦.

عليه من طوله مخافة أن تنسفه الرياح وكان طوله في السماء خمسة آلاف ذراع وعرضه ثلاثة آلاف ذراع فلما فزع من بنائه جاء جبريل ـ عليه السلام ـ فضرب جناحه على الصرح فهدمه ثم قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ أي أحسب موسى بما يقول أن في السماء إلهاً من الكاذبين.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: استكبر فرعون عن الإيمان هو وقومه ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني: بغير حجة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ﴾ يعني: وحسبوا أنهم ﴿إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت قرأ نافع وحمزة والكسائي لا يرجعون بنصب الياء وكسر الجيم على فعل لأنهم وقرأ الباقون بضم الياء أي لا يردون بمعنى التعدي قول الله تعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ يعني: عاقبناه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَاهُم فِي الْيَمِّ﴾ يعني: أغرقناهم في البحر وقال مقاتل في النيل ﴿فانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يعني: خذلناهم حتى صاروا قادة ورؤساء للضلال والجهال ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يعني: إلى عمل أهل النار ويقال إلى الضلالة التي عاقبتها النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون من عذابي ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: عقوبة وهو الغرق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المهلكين والعرب؛ تقول قبحه الله أهلكه الله ويقال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة وذلك أنهم لما أهلكوا لعنوا فهم يعرضون على النار غدوة وعشية إلى يوم القيامة ويوم القيامة هم من المقبوحين الممقوتين المهلكين ويقال من المقبوحين أي: من المعذبين ويقال إنه قبح صورتهم ويقال: من المقبوحين أي من المشوهين قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطيناه التوراة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى﴾ بالعذاب أي: من بعد قوم نوح وعاد وثمود ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: هلاكهم بصيرة للناس وغيرهم ويقال بصائر يعني الكتاب بياناً لبني إسرائيل ومعناه ولقد آتينا موسى الكتاب بصائر أي مبيناً للناس ﴿وَهُدىً﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به من العذاب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتعظوا فيؤمنوا بتوحيد الله ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي: ما كنت يا محمد بناحية الجبل من قبل المغرب ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ يعني: إذ عهدنا إليه بالرسالة ويقال: أحكمنا معه وعمدنا إليه بأمرنا ونبينا ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني: حاضرين لذلك الأمر ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي الأجل فنسوا عهد الله ونسوا أمره ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: مقيماً في أهل مدين ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: تتلوا على أهل مكة القرآن يعني: أن الله تعالى أعلمك أخبار الأمم الماضية من حديث موسى وشعيب عليهما السلام ليكون علامة لنبوتكم

حيث يخبرك بخبر موسى ولم تكن حاضراً هناك ولم تكن تقرأ القرآن ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إليك لتخبرها بخبر أهل مدين وبخبر موسى ويقال: (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) يعني: أرسلناك رسولاً وأنزلنا هذه الأخبار لتخبرهم لولا ذلك لما علمتها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ يعني: بناحية الجبل الذي كلم الله به موسى يعني عن يمين موسى ولولا ذلك ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ يعني: كلمنا موسى ويقال: إذ نادينا أمتك وذلك أن الله تعالى لما وصف نعت أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأحب موسى أن يراهم قال الله تعالى لموسى إنك لن تراهم وإن أحببت أسمعتك كلامهم فأسمعه الله تعالى كلامهم وقال أبو هريرة رضي الله عنه: معنى قوله: (إذ نادينا) يعني نودوا يا أمة محمد أعطيهم قبل أن تسألوني واستجبت لكم قبل أن تدعوني[1] وروي أن عمر عن ابن مدرك[2] عن أبي زرعة قال نرفع الحديث في قوله: وما كنت بجانب الطور إذ نادينا قال: نودي يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني (وعن عمرو بن شعيب قال سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوله «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » ما كان النداء وما كانت الرحمة قال كتاب كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خلقه بألفي عام وستمائة عام على ورقة أمن ثم وضعه على عرشه ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أدخلته[3] الجنة[4]) ثم قال ﴿وَلَكِنْ رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: القرآن نعمة من ربك حيث اختصصت به نصب رحمة لأن معناه فعلنا ذلك للرحمة كقوله: فعلت ذلك ابتغاء الخير يعني لابتغاء الخير ثم قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ﴾ يعني: لم يأتهم ﴿مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: لم يأتهم رسول من قبلك وهم أهل مكة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: لكي يتعظوا قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ يعني: عقوبة ونقمة وفي الآية تقديم، ومعناها لولا أن يقولوا ربنا لولا أرسلت

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٩/٥ وعزاه للفريابي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

(٢) علي بن مدرك النخعي أبو مدرك الكوفي ثقة مات سنة ١٢٠ هـ. التقريب ٤٤/٢.

(٣) أخرجه البخاري مختصراً ٥٣٢/١٣ كتاب التوحيد (٧٥٥٣)، ومسلم ٢١٠٨/٤ كتاب التوبة (٢٧٥١/١٥).

(٤) سقط في ظ.

إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين لعذبوا في الدنيا ولأصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهذا هو قول مقاتل ويقال معناه: لولا أن يصيبهم عذاب ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لعذبوا في الدنيا فيكون جوابه مضمراً، ويقال: معناه لو إني أهلكتهم قبل إرسالي إليك لقالوا يوم القيامة ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك أي: يقولوا لولا ذلك لم نحتج إلى إرسال الرسل فأرسلناك لكي لا يكون لهم حجة علي ثم قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني: الكتاب والرسل ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من قبل يعني هلا أعطي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن جملة واحدة كما أعطي موسى التوراة جملة يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: بالتوراة فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعني: تعاونا وذلك أن أهل مكة سألوا اليهود عنه فأخبروهم أنهم يجدون في كتبهم نعته وصفته فأمروهم بأن يسألوه عن أشياء فلما أجابهم قالوا: ساحران تظاهرا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدين قرأ حمزة والكسائي وعاصم سحران بغير ألف عنوا محمداً وموسى عليهما السلام ويقال: التوراة والفرقان ويقال: التوراة والإنجيل وقال سعيد بن جبير: يعني: موسى وهارون عليهما السلام ويقال موسى وعيسى عليهما السلام واحتج من يقرأ بغير ألف بما في سياق الآية ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ واحتج من قرأ بالألف بقوله تعالى تظاهرا تعاونا والتظاهر يكون بالناس يقول الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل لهم فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه يعني: من التوراة والقرآن اتبعه أي أعمل به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنهما ساحران ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يعني: إن لم يجيبوك إلى الإثبات بالكتاب ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعبادة الأوثان ويقال: يؤثرون أهواءهم على الدين ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني ومن أضر بنفسه ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: بغير بيان من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يريد كفار مكة يعني: لا يرشدهم إلى دينه.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ينالهم في القرآن خبر الأمم الماضية كيف عذبوا لعلهم يتذكرون: أي لكي يخافوا فيؤمنوا بما في القرآن ويقال ولقد وصلنا لهم القول أي وصلنا لهم الكتب بعضها ببعض يعني: بعثنا بعضها على إثر بعض، ويقال: ولقد وصلنا أي أوصلنا لهم القول يعني: أنزلنا لهم القرآن آية بعد آية أنه هداية لعلهم يتذكرون يعني: لكي يتعظوا ثم وصف مؤمني أهل الكتاب فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني: من قبل القرآن ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب وهم أربعون رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين قبل أن يبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنان وثلاثون من أهل أرض الحبشة قدموا مع جعفر الطيار وثمانية من أهل الشام ويقال إنهم ثمانية عشر رجلاً: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي صدقنا ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ يعني: القرآن وذلك أنهم عرفوا بما ذكر في كتبهم من نعت النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ وصفته وكتابه فقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يعني: من قبل هذا القرآن ومن قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنا مخلصين ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: يعطون ثوابهم ضعفين مرة بكتابهم ومرة بـإيمانهم بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: بصبرهم على ما أوتوا ويقال: بما صبروا أي بصبرهم على دينهم الأول وبما صبروا على أذى المشركين فصدقوا وثبتوا على إيمانهم حيث قال لهم أبو جهل وأصحابه: ما رأينا أحداً أجهل منكم تركتم دينكم وأخذتم دينه فقالوا ما لنا لا نؤمن بالله فذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون قول المشركين بالمعروف ويقال: يدفعون الشرك بـالإيمان ويقـال: يدفعون بالكلام الحسن الكلام القبيح ويقـال يـدفعون ما تقدم لهم من السيآت بما يعملون من الحسنات ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ يعني: إذا سمعوا الشتم والأذى والقبيح لم يردوا عليهم ولم يكافئوهم به ولم يلتفتوا إليه يعني إذا شتمهم الكفار لم يشتغلوا بمعارضتهم بالشتم ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ يعني: ديننا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يعني: دينكم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: وردوا معروفاً عليهم ليس هذا تسليم التحية وإنما هو تسليم المتاركة والمسالمة أي بيننا وبينكم المتاركة والمسالمة وهذا إن يؤمر المسلمون بالقتال ويقال السلام عليكم يعني: أكرمكم الله تعالى بالإسلام ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نطلب دين الخاسرين ولا نصحبهم ويقال: هذه الآية مدنية نزلت في شأن عبد الله بن سلام وروى أسباط عن السدي قال لما أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقال يا رسول الله ابعث إلى قومي فاسألهم عني فبعث إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فستر بينهم وبينه ستراً، وقال: أخبروني عن عبد الله بن سلام كيف هو فيكم قالوا ذاك سيدنا وأعلمنا قال أرأيتم إن آمن بي وصدقني أتؤمنون بي وتصدقوني قالوا هو أفقه من أن يدع دينه ويتبعك قال أرأيتم إن فعل قالوا لا يفعل قال أرأيتم إن فعل قالوا إنه لا يفعل ولو فعل إذا نفعل فقال عليه السلام: أخرج يا عبد الله فخرج فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فوقعوا فيه وشتموه وقالوا ما فينا أحد أقل علماً ولا أجهل منك قال ألم تثنوا عليه آنفاً قالوا: إنا استحينا أن نقول اغتبتم صاحبكم فجعلوا يشتمونه وهو يقول (سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) فقال ابن يا مني وكان من رؤساء بني إسرائيل: أشهد أن عبد الله بن سلام صادق فابسط يدك يا محمد فبسط يده فبايع ابن يامني مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1] فنزل (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ) إلى قوله (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وإلى قوله لا نبتغي الجاهلين.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ١٣٣/٥ وعزاه لابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ يعني: لا ترشد من أحببته إلى الهدى. ويقال من أحببت هدايته إلى دينك وذلك أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا عماه قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه ويكلمه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى مات على الكفر فنزل (إنك لا تهدي من أحببت)[1] بهدايته ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يرشد من يشاء إلى دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يعني: بمن قدر له الهدى قوله عز وجل: ﴿وقالوا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ يعني: الإيمان بك ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: نسبى ونخرج من مكة لإجماع العرب على خلافنا وهذا قول الحارث ابن عامر النوفلي حين قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كذبت كذبة قط فنتهمك اليوم ولكن متى ما نؤمن بك فتحسنا العرب من أرضنا[2] يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ يعني: أولم ننزلهم مكة حرماً أميناً يعني: كان الحرم أمناً لهم في الجاهلية من القتل والسبي وهم يعبدون غيري فكيف يخافون إن أسلموا أن لا يكون الحرم أمناً لهم فذلك قوله أولم نمكن لهم يعني أولم ننزلهم مكة حرماً آمناً من الغارة والسبي ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ﴾ بالتاء يعني: يحمل إليه ﴿ثَمَرَاتُ كُلِ شَيْءٍ﴾ أي من ألوان الثمرات (قرأ نافع تجبى بالتاء لأن الثمرات)[3] مؤنثة وقرأ الباقون بالياء[4] لتقديم الفعل ثم قال: ﴿رِزْقاً مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يأكلون رزقي ويعبدون غيري وهم آمنون في الحرم ويقال لا يعلمون أن ذلك من فضل الله عليهم ثم خوفهم فقال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فيما مضى ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ كفرت برزق ربها ذكر القرية وأراد به أهل القرية يعني أنهم كانوا ينقلبون في رزق الله تعالى فلم يشكروه في نعمته ويقال بطرت معيشتها يعني: طغوا في نعمة الله فأهلكم الله تعالى بالعذاب في الدنيا ويقال عاشوا في البطر وكفران النعم ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ يعني: انظروا واعتبروا في بيوتهم وديارهم بقيت خالية ﴿لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وهم المسافرون ينزلون بها يوماً أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين﴾ أي نرث الأرض ومن عليها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ يعني: لم يعذب أهل القرى ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ يعني: معظمها ويقال في أكبر قراها ويقال أم القرى مكة قرأ حمزة والكسائي في أمها بكسر الألف والباقون بالضم ومعناهما واحد يبعث في أمها رسولاً ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ يعني: لم نهلكها إلا بظلم أهلها ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما أعطيتم من مال ويقال ما أعطيتم من الدنيا فهو ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: فهو متاع الحياة الدنيا ينتفعوا بها أيام حياتهم ﴿وَزِينَتُهَا﴾ يعني: وزهراتها ولا تبقى دائماً ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب والجنة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعني: أفضل وأدوم لأهله مما أعطيتم في الدنيا ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني قرأ عمرو يعقلون بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء[6] على معنى المخاطبة.

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٣٦٥ كتاب التفسير باب إنك لا تهدي من أحببت (٤٧٧٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٣ ونسبه لعبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٤ وعزاه للنسائي وابن المنذر.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٤٨، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٢.

(٥) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٢، حجة القراءات ٥٤٨.

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله عز وجل: ﴿أفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ يعني الجنة ﴿فَهُوَ لاَقِيهِ﴾ يعني: مدركه ومصيبه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمال ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار هل يستوي حالهما قال في رواية الكلبي نزل في عمار بن ياسر وأبي جهل بن هشام. وقال غيره هذا في جميع المؤمنين وجميع الكافرين ويقال نزلت في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي أبي جهل يعني من كان له في هذه الدنيا عدة مع دين الله خير ممن كان له سعة وفرج مع الشرك ثم هو يوم القيامة من المحضرين يعني من المعذبين في النار وقال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني واذكر يوم يدعوهم يعني المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ﴾ يعني المشركين ﴿كُنتُم تَزْعُمُونَ﴾ لهم شركاتي في الدنيا ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وجبت عليهم الحجة فوجب عليهم العذاب ويقال وجب عليهم القول وهو قوله لأملأنَّ جهنَّم ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ يعني القادة يقولون ربنا هؤلاء الذين أضللنا يعني السفلة أغويناهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أضللناهم كما كنا ضالين ويقال: يقول الكافرون ربنا هؤلاء الذين أغوينا يعني الشياطين فقالت الشياطين أغويناهم يعني أضللناهم كما غوينا أي أضللنا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ يعني: ما كانوا يأمرونا بعبادة الآلهة ﴿وَقِيلَ﴾ للكفار ﴿ادْعُوا شُرَكَائَكُمْ﴾ يعني آلهتكم التي تعبدون من دون الله ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُم كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ يعني يودون لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا ويقال يودون أن لم يكونوا اتبعوهم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم أي لم يجيبوهم بحجة تنفعهم فيودون أنهم لم يعبدوهم لما رأوا العذاب ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيْهِمْ﴾ يعني يسألهم يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ في التوحيد ﴿فَعَمِيَت عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ﴾ يعني ألبست عليهم الحجج ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من الهول ﴿فَهُمْ لاَ يَتَسآءلون﴾ يعني: لا يسأل بعضهم بعضاً عما يحتجون به رجاء أن يكون عنده من الحجة ما لم يكن عند غيره لأن الله تعالى ادحض حجتهم وفي الدنيا إذا اشتبهت عليه الحجة ربما يسأل عن غيره فيلقنه الحجة وفي الآخرة آيس من ذلك.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

ثم قال الله عز وجل ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: من الشرك ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي من الناجين الفائزين بالخير قوله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ وذلك إن الوليد بن المغيرة كان يقول لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ يعني به نفسه وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف فقال تعالى «وربك يخلق ما يشاء ويختار» للرسالة من يشاء ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ يعني: ليس (الخيار إليهم ويقال هو ربك يخلق ما يشاء ويختار لهم ما يشاء ما كان لهم الخيرة أي ما كان لهم طلب الخيار والأفضل ويقال ما كان لبعضهم على بعض فضل والله تعالى هو الذي يختار وقال الزجاج الوقف على قوله ويختار والمعنى وربك يخلق ما يشاء ويختار ثم قال ما كان لهم الخيرة أي لم يكن لهم أبداً)[1] يختاروا على الله ويكون ما للنفي قال ووجه آخر أن تكون بمعنى الذي يعني وربك يخلق ما يشاء ويختار الذي لهم الخيرة أن يدعوهم إليه من عبادته ما لهم فيه الخيرة، ويقال: ما كان لهم الخيرة يعني: ليس لهم أن يختاروا على الله عز وجل وليس إليهم الإختيار، والمعنى لا نرسل الرسل إليهم على اختيارهم ثم قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: ما تضمر وتسر قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق غيره ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أي في الدنيا والآخرة وقال مقاتل: يعني يحمده أولياؤه في الدنيا ويحمدونه في الجنة ويقال له الألوهية في الدنيا والآخرة وله الحكم. يعني: نفاذ الحكم والقضاء يحكم في الدنيا والآخرة بما يشاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ﴾ يعني ألا تنظرون إلى نعمة الله تعالى في خلق الليل والنهار لمصلحة الخلق فلو جعل ﴿عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً﴾ أي دائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ المواعظ وتعتبرون بها قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني دائماً ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ يعني: تقرّون تريحون فيه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ من يفعل ذلك بكم لأن العيش لا يصلح إلا بالليل والنهار فأخبر عن صنعه لمصلحة الخلق ليشكروه ويوحدوه ويعبدوه فقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي ومن نعمته وفضله ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني في الليل وجعل لكم النهار ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يعني: لتطلبوا من رزقه في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون رب هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يعني: (أنذرهم) بذلك اليوم ويقال معناه اذكر ذلك اليوم الذي يناديهم أي يدعوهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ انها لي شريك ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي أخرجنا من كل أمة نبيها ورسولها (شَهِيْداً) بالرسالة والبلاغ ﴿فَقُلْنَا﴾ للمشركين ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حجتكم بأن معي شريكاً فلم يكن لهم حجة ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ يعني أن عبادة الله هي الحق ويقال علموا أنه التوحيد لله ويقال أن الحق ما دعا إليه الله وأتاهم به الرسول ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني:

---

(١) سقط في أ.

اشتغل عنهم بأنفسهم ما كانوا يفتدون يعني يكذبون في الدنيا يعني الأصنام ويقال يعني: الشياطين ويقال وضل عنهم ما كانوا يفترون يعني تشفعوا بما عبدوه من دون الله.

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يعني من بني إسرائيل ويقال كان ابن عم موسى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِم﴾ يعني: تطاول وتكبر على بني إسرائيل وكان فرعون قد ملكه على بني إسرائيل حين كانوا بمصر فلما قطع موسى البحر ببني إسرائيل ومعه قارون فأغرق الله تعالى فرعون وجنوده يرجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض مصر وسكنوا ديارهم كما قال في رواية أخرى «وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» وجعلت (جنوده لهارون)[1] وهو الرأس والذي بقرب القربان، فقال قارون لموسى لك النبوة ولهارون الحبورة والمذبح وأنا لست في ذلك من شيء فقال له موسى أنا لم أفعل ذلك ولكن الله تعالى فعل ذلك فقال له قارون لا أصدقك على ذلك واعتزل قارون ومن تبعه من بني إسرائيل وكان كثير المال والتبع وروى عن الحسن أنه قال أول من شرف الشرف قارون لما بنى داره وفرغ منها وشرفها صنع للناس طعاماً سبعة أيام يجمعهم كل يوم ويطعمهم وروي عن ابن عباس أنه قال لما أمر الله تعالى موسى بالزكاة قال لقارون إن الله أمرني ان اخذ من مالك الزكاة فأعط من كل مائتي درهم خمسة دراهم فلم يرض بذلك فقال له اعط من كل ألف درهم درهماً فلم يرض بذلك وقال لبني إسرائيل إن موسى لم يرض حتى تناول أموالكم فما ترون قالوا رأينا لرأيك تبع قال: فإني أرى أن ترموه فتهلكوه فبعثوا إلى امرأة زانية فأعطوه حكمها على أن ترميه بنفسها ثم أتوه في جماعة بني إسرائيل فقالوا يا موسى ما على من يسرق من الحد، قال: تقطع يده قالوا

(١) سقط في أ.

وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا، قالوا وما على الزاني إذا زنا، قال: يرجم قالوا وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا قالوا فأنت قد ازنيت قال أنا، وجزع من ذلك فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت وعظها وعظم عليها موسى الحلف بالله وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت قالت أما إذا حلفتني فإني أشهد أنك بريء وإنك رسول الله وقالت أرسلوا إليَّ فأعطوني حكمي على أن أرميك بنفسي قال: فخر موسى عليه السلام لله ساجداً يبكي فأوحى الله تعالى إليه ما يبكيك قد أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت فقال موسى خذيهم فأخذتهم[1] وقال في رواية الحسن خرج موسى عليه السلام مغضباً فدعى الله عز وجل: وقال: عبدك قارون الذي عبد (غيرك) دونك وجحدك فأوحى الله تعالى إلى موسى أني قد أمرت الأرض بأن تطيعك فجاء موسى حتى دخل إلى قارون حين اجتمع الناس في داره فقال يا عدو الله كذبتني بكلام له غيظ حتى غضب قارون وأقبل عليه بكلام شديد وهم به فلما رأى موسى ذلك قال يا أرض خذيهم قالوا: وكان قارون على فرش على سرير مرتفع في السماء فأخذت الأرض أقدامهم وغاب سريره ومجلسه وقد دخل من الدار في الأرض مثل ما أخذت منهم على قدرها فأقبل موسى يوبخهم ويغلظ لهم المقالة فلما رأى القوم ما نزل بهم عرفوا أن هذا الأمر ليس لهم به قوة فنادوا يا موسى كف عنا وارحمنا وجعلوا يتضرعون إليه ويطلبون رضاه وهو لا يـزداد إلا غضباً وتوبيخاً لهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم فجعلوا يتضرعون إليه ويسألونه وهو يوبخهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أوساطهم وكانت الأرض تأخذ من الدار كل مرة مثل ما تأخذ منهم وهم يتضرعون في ذلك إلى موسى ويسألونه ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى آباطهم فمدوا أيديهم إلى وجه الأرض رجاء أن يمتنعوا بها ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فلم يبق على وجه الأرض منهم شيء إلا رؤوسهم ولم يبق من الدار إلا شرفها وقال قارون يا موسى أنشدك بالله وبالرحم فقال يا أرض خذيهم فاستوت الأرض عليهم وعلى الدار فانطلق موسى وهو فرح بذلك فأوحى الله تعالى إلى موسى يا موسى يتضرع إليك عبادي ودعوك وسألوك فلم ترحمهم أما وعزتي وجلالي لو أنهم سألوني واستغاثوا بي لرحمتهم ولكن تركوا أن يجعلوا رغبتهم ورجاءهم إلي وجعلوها إليك فتركتهم فذلك قوله تعالى: إن قارون كان مـن قـوم مـوسى (فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) يعني تطاول على بني إسرائيل وعلى موسى ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ يعني: من المال ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ يعني خزائنه ﴿لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ﴾ قال مقاتل العصبة من العشرة إلى أربعين فإذا كانوا أربعين فهم أولوا قوة يقول لتعجز العصبة أولـو القوة عن حمل مفاتيح الخزائن وقال أهل اللغة ناء به الحمل إذا أثقله وقال القتبي تنوء بالعصبة أي تميل بها العصبة أي تميل بهم العصبة إذا حملتها من ثقلها وقال ابن عباس في رواية أبي صالح العصبة في هذا الموضوع أربعون رجلاً وخزائنه كانت أربع مابة ألف ما يحمل كل رجل منهم عشرة إلا أن[2] ويقال مفاتحه يعني: مفاتيح خزاينه يحملها أربعون رجلاً ويقال أربعون بغلاً وروى وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال كان مفاتيح كنوز من جلد كل مفتاح مثل الإصبع كل مفتاح على خزانة على حدة فإذا ركب حمل المفاتيح على ستين بغلاً كل بغل أغر محجل[3] ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ يعني لا تفخر بما أديت من الأموال ويقال لا تفرح بكثرة المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ يعني المرحين المفاخرين، ويقال: البطرين، ويقال: لا تفرح أي لا تأشر والأشر أشد الفرح الذي يخالطه حرص شديد حتي يبطر يعني يطغى وقالوا له ﴿وَابْتَغِ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٦/٥ وعزاه لابن أبي شيبة في المنصف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه بنحوه عن ابن عباس.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٧/٥ وعزاه لابن أبي حاتم بنحوه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٦/٥ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ يعني أطلب مما أعطاك الله من الأموال والخير **﴿الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾** يعني لا تترك حظك من الدنيا أن تعمل لآخرتك **﴿وَأَحْسِنْ﴾** العطية من الصدقة والخير **﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾** يعني أعط الناس كما أعطاك الله ويقال أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك **﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾** يعني أنفقه في طاعة الله ولا تنفقه في معصية الله **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾** أي المنفقين في المعصية (وقوله «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك في الدنيا» أي لا تضيع عمرك فإنه نصيبك من الدنيا **﴿قَالَ﴾**[1] قارون **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾** قال مقاتل أي على خير علمه الله عندي[2]) وقال في رواية الكلبي يعني: علم التوراة وكان قارون اقرأ رجل في بني إسرائيل في التوراة فأعطيت ذلك لفضل علمي وكنت بذلك العلم ومستحقاً بفضل المال ويقال على علم عندي يعني علم الكيميا وكان يعمل كيميا الذهب وقال الزجاج الطريق الأول أشبه لأن الكيميا لا حقيقة لها يقول الله تعالى **﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾** تعالىٰ **﴿قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾** من الأموال منهم نمرود وغيره **﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾**يعني: لا يسأل الكافرون عن ذنوبهم لأن كل كافر يعرف بسيماه وهذا قول الكلبي وقال مقاتل لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية وقيل لا يسأل الكافرون يوم القيامة عن ذنوبهم سؤال النجاة بل يسألون سؤال العذاب والمناقشة قوله عز وجل: **﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾** يعني خرج قارون على بني إسرائيل(قال مقاتل: وهو على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليها أرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاثمائة جارية بيضاء عليهن من الحلل والثياب الحمر على البغال الشهب وقال قتادة خرج معه أربعة ألاف دابة عليها ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء عليها قطائف أرجوان[3] وقال في رواية الكلبي خرج على ثلثمائة دابة بيضاء عليها نوع من الكساء وعليها ثلثمائة قطيفة حمراء عليها جواري وغلمان **﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** وكانوا من أهل التوحيد **﴿يَا لَيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾** يعني مثل ما أعطي من الأموال قارون **﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾** يقول ذو نصيب وافر في الدنيا. قوله عز وجل: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾** يعني أكرموا بالعلم بما وعد الله في الآخرة للذين تمنوا ذلك **﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾** يعني: ويحكم ثواب الله في الآخرة خير يعني أفضل **﴿لمن آمن﴾** يعني: صدق بتوجيه الله تعالى **﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾** فيما بينه وبين الله تعالى مما أعطى قارون في الدنيا **﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا﴾** يعني ولا يلقن ولا يوقف ويرزق في الجنة **﴿إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾** في الدنيا على أمر الله تعالى ويقال ولا يلقاها أي لا يعطى الأعمال الصالحة إلاَّ الصابرون على الطاعات وعن زينة الدنيا ويقال ولا يلقاها يعني ولا يلقن)[4] بهذه الكلمة إلاَّ الصابرون عن زينة الدنيا يقول الله تعالى.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ يعني قارون **﴿وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾** يعني: بقارون وبداره وأمواله فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل إلى يوم القيامة **﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾** يعني: لم يكن له جنة وأعوان يمنعونه من عذاب الله عز وجل: **﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾** يعني: وما كان قارون من الممتنعين مما نزل به من عذاب الله.

قوله عز وجل: **﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾** حين رأوه في زينته وقالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم بنحوه عن قتادة.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه بنحوه.

(٤) سقط في ظ.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ قال القتبي قد اختلف في هذه اللفظة فقال الكسائي معناها ألم تر أن الله يبسط ويكأنه يعني ألم تر أنه لا يفلح الكافرون روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال ويكأن الله يعني أو لا يعلم أن الله ﴿يَبْسُطُ﴾ وهذا شاهد يقول الكسائي وذكر الخليل بن أحمد أنها مفصولة وي ثم يبتدىء فيقول كأن الله وقال ابن عباس في رواية أبي صالح كان الله يبسط ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كأنه لا يفلح الكافرون وقال وي صلة في الكلام وهذا شاهد لقول الخليل وقال الزجاج الذي قاله الخليل أجود وهو أن قوله وي مفصولة من كان لأن من يدم على شيء يقول وي يعاتب الرجل على ما سلف يقول: وي كأنك تصدت مكروهاً وقال مقاتل معناه ولكن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴿مِن عِبَادِهِ﴾ يعني: يوسعه على من يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يقتر ويقال ويضيق على من يشاء يعني: لولا أن الله من علينا لكنا مثل قارون في العذاب ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بنا﴾ معهم ويقال لولا من الله علينا بالإيمان لكنا مثل قارون في العذاب ويقال لولا أن من الله علينا يعني: عصمنا مثل ما كان عليه من البطر والبغي لخسف بنا كما خسف به قال قرأ عاصم في رواية حفص بنصب الخاء وكسر السين لخسف الله بنا وقرأ الباقون بالضم على فعل ما لم يسم فاعله[1] ﴿ويكَأَنَّهُ﴾ يعني: ولكنه ﴿لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ أي الجاحدون للنعم.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني: الجنة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ﴾ يعني: نعطيها للذين لا يريدون تعظيماً وتكبراً وتجبراً فيها عن الإيمان ﴿وَلَا فَسَاداً﴾ في الأرض يعني: لا يريدون المعاصي في الدنيا وروى وكيع عن سفيان عن مسلم[2] البطين لا يريدون علواً في الأرض يعني: التكبر بغير حق ولا فساداً قال أخذ المال بغير حق[3] ويقال العلو الخطرات في القلب والفساد فعل الأعضاء ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: الجنة للذين يتقون الشرك والمعاصي ويقال عاقبة الأمر وما يستقر عليه للمتقين الموحدين ويقال في العاقبة المحمودة للمتقين قوله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يعني: بكلمة الإخلاص وهي قول لا إله إلا الله ﴿فَلَهُ خَيْرٌ

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٤٩.

(٢) مسلم بن عمران البطين ويقال ابن أبي عمران أبو عبد الله الكوفي ثقة التقريب ٢/٢٤٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٩ للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

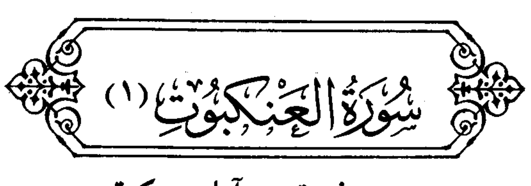
مِنْهَا﴾ وقد ذكرناه ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى﴾ يعني: لا يثاب ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يصيبهم بأعمالهم قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ يعني: أنزل عليك (القرآن) ويقال أمرك بالعمل بما في القرآن ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الموت(١) وقال السدي إلى معاد يعني الجنة وهكذا روي عن مجاهد وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال يعني إلى مكة(٢) وقال القتبي معاد الرجل بلده لأنه يتصرف في البلاد وينصرف في الأرض ثم يعود إلى بلده والعرب تقول رد فلان إلى معاده يعني إلى بلده وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خرج من مكة إلى المدينة اغتم لمفارقته مكة لأنها مولده وموطئه ومنشأه وبها عشيرته واستوحش فأخبر الله تعالى في طريقه أنه سيرده إلى مكة وبشره بالظهور والغلبة ثم قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى﴾ أي يعني: بالرسالة والقرآن وذلك حين قالوا إنك في ضلال مبين ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وذلك حين قالوا فنزل قل ربي أعلم من جاء بالهدى يعني: فأنا الذي جئت بالهدى وهو يعلم بمن هو في ضلال مبين نحن أو أنتم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ يعني: أن يلقى وينزل عليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ ويقال في الآية تقديم ومعناه أن الذي فرض عليك القرآن يعني: جعلك نبياً ينزل عليك القرآن وما كنت ترجو قبل ذلك أن تكون نبياً بوحي إليك لرادك إلى معاد إلى مكة ظاهراً قاهراً ويقال إلا رحمة من ربك يعني لكن دين ربك رحمة واختارك لنبوته وأنزل عليك الوحي ثم قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: عوناً للكافرين حين دعوه إلى دين ابائه ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: لا يصرفنك عن آيات الله القرآن والتوحيد ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: بعد ما أنزل إليك جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني: أدع الخلق إلى توحيد ربك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: لا تكونن مع المشركين على دينهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ أي: لا تعبد غير الله ثم وحد نفسه فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق غيره ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ يعني: تهلك جميع الأشياء إلا الله فإنه لم يزل ولا يزال ويقال كل شيء هالك إلا وجهه أي كل عمل هالك لا ثواب له إلا ما يراد به وجه الله عز وجل ويقال كل شيء متغير إلا ملكه فإن ملكه لا يتغير ولا يزال إلى غيره أبداً ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي له القضاء وله نفاذ الأمر والحكم على ما يريد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة ليجازيكم بأعمالكم وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من قرأ سورة القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة إنه كان صادقاً في قوله كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. (صدق الله جل ربنا وهو أصدق الصادقين وصدق رسله قوله صدق ووعده حق)(٣)

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٤٠ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٤٠ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٣) سقط في ظ.



ستون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿آلٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ يعني: أيظن الناس ﴿أَن يُتركُوا﴾ يعني: أن يمهلوا ﴿أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ يعني: لا يبتلون قال في رواية الكلبي لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بأْسَ بَعْضٍ) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا جبريل ما بقاء أمتي على هذا فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ فادع الله لأمتك فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم سأل ربه عز وجل أن لا يبعث عليهم العذاب قال فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال يا محمد إن الله عز وجل قد أجار أمتك من خصلتين وألزمهم خصلتين قال فعاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتوضأ ثم صلى فأحسن الصلاة ثم سأل ربه عز وجل لأمته أن لا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال يا محمد قد سمع الله عز وجل مقالتك فإنه يقول: ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك فصدقهم مصدقون وكذبهم مكذبون ثم لم يمنعنا أن نبتليهم بعد قبض أنبيائهم ببلاء يعرف فيه الصادق من الكاذب ثم نزل قوله عز وجل «ألم أحسب الناس» الآية. قال مقاتل في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول قتيل قتل من المسلمين يوم بدر وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة فجزع أبواه وأمرأته وقد كان الله بين للمسلمين أنه لا بد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله عز وجل فنزل «ألم أحسب الناس أن يتركوا» وقال بعضهم لما أصيب المسلمون يوم أحد وكانت الكرة عليهم فعيرهم اليهود والنصارى والمشركون فشق ذلك على المسلمين فنزلت هذه الآية ويقال نزلت في عباس بن أبي ربيعة وفي نفر معه أخذهم المشركون وعذبوهم على الإسلام فنزلت

---

(١) هذه السورة تثبيت للمسلمين الذين فتنهم المشركين وصدوهم عن الإسلام أو عن الهجرة مع من هاجروا. ووعد الله بنصر المؤمنين وخذل أهل الشرك وأنصارهم وملقنيهم من أهل الكتاب. والأمر بمجافاة المشركين والابتعاد منهم ولو كانوا أقرب القرابة. ووجوب صبر المؤمنين على أذى المشركين وأن لهم في سعة الأرض ما ينجيهم من أذى أهل الشرك. ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ما عدا الظالمين منهم للمسلمين. وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالثبات على إبلاغ القرآن وشرائع الإسلام. والتأسي في ذلك بأحوال الأمم التي جاءتها الرسل وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بمثل ما جاؤوا به. وما تخلل أخبار من ذكر فيها من الرسل من العبر والإستدلال على أن القرآن منزل من عند الله بدليل أمية من أنزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتذكير المشركين بنعم الله عليهم ليقلعوا عن عبادة ما سواه وإلزامهم بإثبات وحدانيته بأنهم يعترفون بأنه خالق من في السموات ومن في الأرض. والاستدلال على البعث بالنظر في بدء الخلق وهو أعجب من إعادته. وإثبات الجزاء على الأعمال. وتوعد المشركين بالعذاب الذي يأتيهم بغتة وهم يتهكمون باستعجاله. وضرب المثل لاتخاذ المشركين أولياء من دون الله بمثل وهي بيت العنكبوت. انظر التحرير ٢٠/٢٠١.

هذه الآية ويقال نزلت في جمع المسلمين ومعناه أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ثم لا يفرض عليهم الفرائض، وقال الزجاج: هذا اللفظ لفظ الإستخبار والمعنى تقرير وتوبيخ معنى أحسب الناس أن يقنع منهم بأن يقولوا آمنا فقط ولا يختبروا ويقال أن لا يعذبوا في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: اختبرنا الذين كانوا من قبل هذه الأمة وابتليناهم ببلايا ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني: إنما يبتليهم ليبين الذين صدقوا من المؤمنين في إيمانهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ منهم فشكوا عند البلاء ويقال: معناه ليبين صدق الصادق وكذب الكاذب بوقوع صدقه ووقوع كذبه وقال القتبي: يعني ليميزن الله الذين صدقوا ويميز الكاذبين.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيئاتِ﴾ يعني: الشرك والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ يعني: أن يفوتونا، ويقال: يعجزونا، ويقال: يهربوا منا فلا نجازيهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني: بئس ما يقضوا لأنفسهم، قال الكلبي: نزلت في عتبة وشيبة والوليد بن عتبة بارزوا يوم بدر فبارزهم من المسلمين علي وحمزة وعبيدة بن الحارث فنزل في شأن مبارزي المسلمين ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾ يعني: الآخرة لكائن ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ السميع لمقالتهم، العليم بهم وبأعمالهم وقوله عز وجل: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: علي بن أبي طالب وصاحباه رضي الله عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ يعني: عن نصرة العالمين يوم بدر ويقال نزلت في جميع المسلمين من كان يرجو لقاء الله أي يخاف الآخرة، ويقال: يخاف الموت فيستعد للآخرة والموت بالعمل الصالح، فإن أجل الله لآت ويعني كائن وهو السميع لدعائهم العليم بأمر الخلق ومن جاهد يعني: عمل الخيرات فإنما يجاهد لنفسه يعني: ثوابه لنفسه إن الله لغني عن العالمين يعني: عن أعمالهم فإنما ثوابهم لأنفسهم ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: لنمحون عنهم ﴿سَيِّآتِهِمْ﴾ يعني: ذنوبهم ويقال لنجزينهم يعني: ثواباً أفضل من أعمالهم لكل حسنة عشرة وأكثر، ويقال: لنجزينهم يعني: لنثيبنهم أحسن الذي كانوا يعملون أي أفضل من أعمالهم يعني يجازيهم بأحسن أعمالهم الذي كانوا يعملون في الدنيا فذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ يعني: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن يعني: براً بهما وقال الكلبي نزلت الآية في سعد بن أبي وقاص لما أسلم قالت له أمه: يا سعد بلغني أنك صبوت إلى دين محمد فوالله لا يظلني سقف بيت وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد، وترجع إلى دينك الذي كنت عليه فأبى عليها ذلك فثبتت على حالها لا تطعم ولا تشرب ولا تسكن بيتاً فلما خلص إليها الجوع لم تجد بداً من أن تأكل وتشرب[1] فحث الله سعد بالبر إلى أمه ونهاه أن يطيعها على الشرك فقال ﴿وَإِن

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤١ ـ ١٤٢ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بنحوه.

جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما ليس لك به حجة يعني: الشرك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك ثم حذره ليثبت على الإسلام فقال ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مصيركم في الآخرة ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر وأثيبكم على ذلك.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى وبنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: مع الأنبياء والرسل عليهم السلام في الجنة ويقال لندخلنهم في جملة الصالحين ونحشرهم مع الصالحين قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ نزلت في عياش بن أبي ربيعة هاجر إلى المدينة قبل قدوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها فجزعت أمه من ذلك جزعاً شديداً فقالت لأخويه أبي جهل بن هشام والحارث بن هشام وهما أخواه لأمه وأبناء عمه فخرجوا في طلبه فظفروا به، وقالوا له إن بر الوالدة واجب فعليك أن ترجع فتبرها فإنها حلفت أن لا تأكل ولا تشرب، وأنت أحب الأولاد إليها فلم يوالوا به حتى تتابعهم فجاءوا به إلى أمه فعمدت أمه فقيدته، وقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بمحمد وضربوه حتى رجع إلى دينهم فنزل «ومن الناس من يقول آمنا بالله» ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ يعني: عذب في دين الله عز وجل: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ يعني: عذاب أخوته في الدنيا ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة ويقال نزلت في قوم من المسلمين أخذوهم إلى مكة وعذبوهم حتى ارتدوا فنزل «من الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله» يعني: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله فينبغي للمسلم أن يصبر على إيذائه في الله (وصارت الآية لجميع المسلمين ليصبروا على ما أصابهم في الله عز وجل ثم قال)[1] ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: لو يجيء نصر من الله عز وجل بظهور الإسلام والغلبة على العدو بمكة وغيرها ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: على دينكم ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾ يعني: أوليس الله عليم ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من التصديق والتكذيب أعلم بمعنى عليم يعني: هو عليم بما في قلوب الخلق، ويقال معناه هو أعلم بما في صدورهم فهم أي بما في صدور أنفسهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: ليميزن الله الذين ثبتوا على دين الإسلام ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ يعني: ليميزن المنافقين الذين لم يكن إيمانهم حقيقة قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا وأنكروا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك أن أبا سفيان بن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن شيبة قالوا لعمر بن الخطاب

(١) سقط في أ.

رضي الله عنه أو خباب بن الأرت وأناس آخرين من المسلمين ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ يعني: ديننا الذي نحن عليه واكفروا بمحمد ودينه ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ يعني: نحن الكفلاء لكم بكل تبعة من الله عز وجل تصيبكم وأهل مكة شهداء علينا يقول الله عز وجل ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لا يقدرون أن يحملوا خطاياهم يعني وبال خطاياهم عنهم ولا يرفعون عنهم لأنهم لو استطاعوا أن يدفعوا لدفعوا عن أنفسهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مقالتهم ثم قال عز وجل ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ يعني يحملون من أوزار الذين يضلونهم من غير أن ينقص من أوزار العاملين شيء وهذا كقوله عز وجل (لِيَحْمِلُوا أوزارهم كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وهذا كما روي في الخبر «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[1] ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني عما يقولون من الكذب قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ يدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم وينذرهم فأبوا إن يجيبوه فكذبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ يعني الغرق ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وقال القتبي: الطوفان المطر الشديد، وكذلك الموت إذا كثر، وقال مقاتل: الطوفان ما طغى فوق كل شيء[2]، وقال بعض أهل اللغة: هذا الاشتقاق غير صحيح لأنه لو كان هذا لقال طغوان لأنه يقال طغى يطغوا، وقال بعضهم: هذا على وجه القلب كما يقال جذب وجبذ، ويقال أصله من الطوف أي سار وطاف في الأرض وقال الزجاج الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً كالقتل الذريع الكثير يسمى طوفان[3] ثم قال عز وجل ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ يعني نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ من الغرق ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني جعلنا السفينة عبرة لمن بعدهم، وقد بقيت السفينة على الجودي إلى وقت قريب من وقت خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان ذلك علامة وعبرة لمن رأها ومن لم يرها لأن الخبر قد بلغه، ويقال: رسم السفينة التي بقيت بين الخلق وقت نوح وتجري في البحر علامة للعالمين.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

---

(١) أخرجه مسلم مطولاً ٢/٧٠٥ كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة (٦٩ ـ ١٠١٧) والنسائي ٥/٧٥ كتاب الزكاة.

(٢) انظر لسان العرب ٤/٢٧٢٣ ـ ٢٧٢٤.

(٣) قال ابن منظور: الطوفان الماء الذي يغشى كل مكان وقيل: المطر الغالب الذي يُغرِقُ من كثرته وقيل الطوفان: الموت العظيم. انظر لسان العرب ٤/٢٧٢٣.

قوله عز وجل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: أرسلنا إبراهيم عطفاً على قوله «ولقد أرسلنا نوحاً» ويقال: معناه واذكر إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ يعني وحدوا الله عز وجل واتقوه يعني اخشوه ولا تعصوه ﴿ذلكم خير لكم﴾ يعني التوحيد وعبادة الله عز وجل خير من عبادة الأوثان ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً﴾ يعني أصناماً ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ يعني: تعملونها بأيديكم ثم يقولون إنها آلهة ويقال: تتخذونها آلهة كذباً ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ يعني لا يقدرون أن يعطوكم مالاً ولا يقدرون أن يرزقوكم ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ يعني الله عز وجل هو الذي يملك رزقكم فاطلبوا الرزق من الله عز وجل ﴿وَاعْبُدُوه وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي وحدوه واشكروا له في النعم فإن مصيركم إليه ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الممات قال الله عز وجل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل لأهل مكة ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ بما أخبرتكم من قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام ﴿فَقَدْ كَذبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني كذبوا رسلهم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ يعني إلا أن يبلغ الرسالة ويبين أمر العذاب ويقال إلا أن يبلغ الرسالة ويبين مراد الرسالة ثم قال الله عز وجل ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر «أو لم تروا» بالتاء على معنى المخاطبة يعني قل لهم يا محمد أو لم تروا وقرأ الباقون بالياء ومعناه يا محمد أو لم يروا هؤلاء الكفار ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني يخلقهم في الابتداء ولم يكونوا نسياً ثم يعيدهم كما خلقهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني إن الذي خلق الخلق يقدر أن يعيدهم وهو عليه هين قوله عز وجل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: سافروا في الأرض يعني فتعتبروا في أمر البعث، ويقال سيروا في الأرض يعني اقرؤوا القرآن ﴿فانظروا﴾ أي فاعتبروا ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ يعني: كيف خلق الخلق ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت للمبعث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من أمر البعث وغيره ثم قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يعني: يخذل من يشاء ولا يهدي من لم يكن أهلاً لذلك ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يهديه إن كان أهلاً كذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ يعني: ترجعون إليه في الآخرة قوله عز وجل ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني لا تهربون منه ولا تفوتونه ﴿وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني إن كنتم في الأرض ولا في السماء لا يقدرون أن يهربوا منه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني: من قريب ينفعكم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يعني ولا مانع يمنعكم من عذاب الله عز وجل.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَلِقَائِهِ﴾ يعني كفروا بالبعث بعد الموت ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ يعني من جنتي ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ثم رجع إلى قصة إبراهيم حيث قال لقومه اعبدوا الله واتقوه قوله عز وجل ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ وفي الآية مضمر، ومعناه فقذفوه في النار فأنجاه الله من النار فلم تحرقه وجعلها برداً

وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما أنجاه الله من النار بعد ما قذفوه فيها ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون بتوحيد الله تعالى فقال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً﴾ يعني إنما عبدتم من دون الله أوثاناً يعني أصناماً ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على عبادة أصنامكم قرأ نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر مودة بنصب الهاء مع التنوين بينكم بنصب النون يعني اتخذتم أوثاناً آلهة مودة بينكم على عبادتها صار نصباً لوقوع الفعل عليه، وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص مودة بنصب الهاء بغير التنوين بينكم بكسر النون على معنى الإضافة، وقرأ الباقون مودة بالضم بينكم بالكسر(١) وروي عن الفداء أنه قال إنما صار المودة رفعاً بالصفة بقوله عز وجل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وينقطع الكلام عند قوله «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً» ثم يبني ضرر مودتهم في الحياة الدنيا فقال تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني ليس مودتكم تلك الأصنام بشيء لأن مودة ما بينكم في الحياة الدنيا تنقطع ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعني الأصنام من العابد والشياطين ممن عبدها ويقال يعني الاتباع والقادة تتبرأ القادة من الأتباع ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ يعني الأتباع يلعن القادة والعابد يلعن المعبود ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يعني مصيركم إلى النار ﴿وَمَا لَكُمْ مِن نَاصِرِينَ﴾ يعني ما نعين من عذاب الله عز وجل.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾

قوله عز وجل: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ يعني صدق لوط إبراهيم عليهما السلام على الهجرة ويقال صدقه بالنبوة حين لم تحرقه النار ﴿وقال﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ يعني إلى رضاء ربي وطاعة ربي، ويقال إلى أرض مصر في أرض ربي فهجر قومه الكافرون وخرج إلى الأرض المقدسة ومعه سارة ثم قال ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره ويقال حكيم حكم أن من لم يقدر في بلدة على طاعة الله عز وجل فليخرج إلى بلدة أخرى قوله

---

(١) فمن رفع فله مذهبان: أحدهما أن يجعل (إنما) كلمتين ويكون معنى (ما) بمعنى الذي وهو إسم (إن) و(مودة) خبر إن ومفعول (اتخذتم) محذوف، المعنى: إن الذي اتخذتموه مودةُ بينكم والثاني أن ترفعها بالابتداء و(في الحياة الدنيا) خبرها وتجعل (ما) كافة على هذا الوجه. وقال الزجاج: يجوز أن ترفع (مودة) على إضمار (هي) كأنه قال: (تلك مودة بينكم في الحياة الدنيا) أي: ألفتكم وإجماعكم على الأصنام مودة بينكم في الحياة الدنيا. ومن نصب جعل (المودة) مفعول (اتخذتم) وجعل (ما) مع (أن) كافة ولم يعد إليها ذكراً كما أعاد في الوجه الأول وانتصب (مودة) على أنه مفعول له أي: (اتخذتم الأوثان للمودة) (بينكم) نصب على الظرف. .

والمعنى: (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً آلهة) فحذف كما حذف من قوله: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم﴾ معناه اتخذوا العجل إلهاً. انظر حجة القراءات ٥٥٠ ـ ٥٥١. النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٣.

عز وجل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني المهاجر إلى طاعة الله عز وجل أكرمه الله في الدنيا وأعطاه ذرية طيبة وهو ولده إسحاق وولد ولده يعقوب عليهم السلام ووهب له أربعة أولاد إسحاق من سارة وإسماعيل من هاجر ومدين ومداين من غيرهما ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ يعني من ذرية إبراهيم النبوة والكتاب: يعني أكرم الله عز وجل ذريته بالنبوة وأعطاهم الصحف، ويقال: أخرج من ذريته ألف نبي ﴿وَالْكِتَابَ﴾ يعني الزبور والتوراة والإنجيل والفرقان ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني أعطيناه في الدنيا الثناء الحسن ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني مع النبيين في الجنة قوله عز وجل ﴿وَلُوطاً﴾ يعني وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص إنكم على معنى الخبر وقرأ أبو عمرو أئنكم بالمد على معنى الاستفهام، لتأتون الفاحشة يعني المعصية ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ واتفقوا في هذا الحرف على لفظ الاستفهام واختلفوا في الأول فقرأ الذين سميناهم على وجه الإخبار عنهم إنكم تفعلون وتكون على وجه التعيير وقرأ الباقون الأول على وجه الاستفهام فيكون اللفظ لفظ الاستفهام والمعنى منه التوبيخ والتقريع ثم قال ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ يعني تعترضون الطريق لمن مر بكم بعملكم الخبيث ويقال: وتقطعون السبيل يعني: تأخذون أموالكم كانوا يفعلون ذلك لكيلا يدخلوا في بلدهم ويتناولوا من ثمارهم، ويقال تقطعون السبيل النسل ﴿وَتَأْتُونَ فِي ناديكم المنكر﴾ يعني تعملون في مجالسكم المنكر وقال بعضهم: يعني به اللواطة كانوا يفعلون ذلك في المجالس بالعلانية ويقال أراد به المعاصي وهي الرمي بالبندق الصغير والحذف ومضغ العلك وحل إزار القباء واللعب بالحمام وشرب الخمر وضرب العود والمزامير. وغير ذلك من المعاصي وروت أم هانيء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله «وتأتون في ناديكم المنكر» قالوا كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم[1] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بالعذاب وإن العذاب نازل بنا ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ أي أعني ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني المشركين.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ يعني بالبشارة بالولد ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني قريات لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني كافرين ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ يعني أتهلكهم

(١) أخرجه الترمذي ٥/٣١٩ كتاب تفسير القرآن باب من سورة العنكبوت (٣١٩٠) وقال حديث حسن إنما نعرفه من حديث حاتم ابن =

وفيهم لوط ﴿قَالُوا﴾ يعني قال جبريل عليه السلام ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني من الباقين في الهلاك ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ يعني ساء مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ يعني اغتم بقدومكم فلا يدري أيأمرهم بالخروج أم بالنزول ويقال ضاق بهم القلب ﴿وَقَالُوا لاَ تَخَفْ﴾ علينا ﴿وَلاَ تَحْزَنْ﴾ من العذاب ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي لننجينه وإنا منجوك كلاهما بالتخفيف وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم كلاهما بالتشديد وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم الأول بالتشديد والثاني بالتخفيف ومعناهما واحد ويقال أنجيته ونجيته بمعنى واحد[1] ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ثم قال عز وجل ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين منزلون بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناهما واحد[2] ﴿رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني أنزلنا عذابنا من السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني يعصون الله عز وجل، قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ يعني من قريات لوط ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ يعني علامة ظاهرة واضحة يعني هلاكهم علامة ظاهرة، ويقال قرياتهم علامة ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني لمن كان له ذهن الإنسانية (ولقد تركنا منها آية يعني الحجارة التي أنزلها الله تعالى من السماء على كل واحد منها اسم صاحبها ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ يعني وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾[3] يعني نبيهم شعيباً ﴿فَقَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ يعني وحدوا الله وأطيعوه ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ يعني خافوا يوم القيامة لأنه آخر الأيام، ويقال: يوم الموت وهو آخر أيامهم ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني لا تعملوا في الأرض بالمعاصي في نقصان الكيل والوزن ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني أوعدهم بالعذاب على نقصان الكيل والوزن فكذبوه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يعني العذاب ويقال الزلزلة وأصله الحركة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ يعني صاروا في دارهم يعني في محلتهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ يعني ميتين أو يقال خامدين فصاروا كالرماد ويقال جثم بعضهم على بعض بالموت وقال أبو سهل جاثمين: أي ساقطين على وجوههم وركبهم وقال مقاتل شبه أرواحهم في أجسادهم وهم أحياء بالنار إذا اتقدت ثم طفيت فبينما أحياء إذ صاح بهم جبريل فصعقوا أمواتاً أجمعين.

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

= أبي صغيرة عن سماك. وأخرجه أحمد في المسند ١/٣٤١، ٤٢٤

وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٤ وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وفي كتاب الصمت وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والشاشي وفي مسنده والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر.

(١) انظر حجة القراءات ٥٥١.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٥٢، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٣.

(٣) سقط في ظ.

ثم قال عز وجل ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ وقال بعضهم انصرف إلى قوله ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثموداً وقال بعضهم انصرف إلى قوله «فأخذتهم الرجفة» يعني أخذهم العذاب، وأخذ عاداً وثموداً، ويقال: معناه اذكر عاداً وثموداً، أو يقال: صار نصباً لنزع الخافض ومعناه وأرسلنا الرسل إلى عاد وثمود ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ يعني: ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم آية في إهلاكهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ضلالتهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ يعني صرفهم عن الدين، ويقال منعهم عن التوحيد ويقال صد يصد صداً إذا منعه وصد يصد صدوداً إذا امتنع بنفسه وأعرض قوله ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في دينهم وهم يرون أنهم على الحق وهم على الباطل ويقال كانوا مستبصرين أي ذوي بصيرة ومع ذلك جحدوا ثم قال عز وجل: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ يعني أهلكنا قارون وفرعون وهامان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالعلامات والآيات ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني طغوا فيها وتعظموا عن الإيمان ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ يعني بفائتين من عذابنا قوله عز وجل ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ يعني كلهم أهلكناهم بذنوبهم ويقال معناه أهلكنا كل واحد منهم بذنبه لا بذنب غيره ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ يعني الحجارة وهم قوم لوط ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم فرعون وقومه، وقال العتبي: الآخذ أصله باليد ثم يستعار في مواضع فيكون بمعنى القبول كقوله عز وجل وأخذتم على ذلكم إصري أي قبلتم عهدي والأخذ التعذيب كقوله ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ وكقوله ﴿فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ يعني عذبنا وكقوله (وَهَمَّت كُل أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) يعني ليعذبوه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني لم يعذبهم من غير جرم منهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بجرمهم يستوجبون العقوبة.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني مثل عبادتهم الأصنام في الضعف وقلة نفعهم إياهم ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ يعني أضعف البيوت ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لأنه لا يغني من حر ولا من برد ولا من مطر وكذلك آلهتهم لا يدفعون عنهم ضراً ولا يقدرون لهم نفعاً ثم قال ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام كذلك، لأنهم قد علموا أن بيت العنكبوت أوهن البيوت، ولكن قوله «لو كانوا يعلمون» انصرف إلى قوله اتخذوا يعني لا يعلمون أن هذا مثله ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ وهذه كلمة تهديد يعني يعلم بعقوبتهم ويقال: إن الله يعلم أن الآلهة لا شفاعة لهم ولا قدرة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنعمة لمن عصاه ﴿الْحَكِيمُ﴾ حكم بالعقوبة على من عبد غيره، ويقال: حكم أن لا يعبد غيره ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يعني أمثال آلهتهم نبينها للناس ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ يعني لا يفهمها ويعلمها إلا الموحدون ويقال: يعني العاقلين، قرأ أبو عمرو وعاصم أن الله يعلم ما يدعون بالياء على لفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء[1] على لفظ المخاطبة يعني قل لهم يا محمد إن الله يعلم ما تدعون من دونه ثم قال عز وجل ﴿خَلَقَ اللَّهُ

(١) انظر حجة القراءات ٥٥٢.

﴿السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني بالعدل ويقال لبيان الحق ولم يخلقها باطلاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي خلق السموات والأرض ﴿لَآيَةً﴾ يعني لعبرات ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين وإنما أضاف إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بها.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يعني اقرأ عليهم ما أنزل إليك ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني من القرآن، ويقال: هو أمر بتلاوة القرآن يعني اقرؤوا القرآن واعملوا بما فيه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني وأتم الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني ما دام العبد يصلي لله عز وجل انتهى عن الفحشاء والمنكر والمعاصي، ويقال: وأقم الصلاة يعني وأدِّ الصلاة الفريضة في مواقيتها بركوعها وسجودها والتضرع بعدها إن الصلاة تنهى عن الفحشاء يعني إذا صلى العبد لله صلاة خاشع يمنعه من المعاصي لأنه يرق قلبه فلا يميل إلى المعاصي وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده صلاته عند الله إلا مقتاً»[1] وروي عن الحسن البصري رحمه الله عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «من لم تنهه صلاته عن فحشاء ولا منكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً»[2] وقال الحسن: إذا لم تنته بصلاتك عن الفحشاء فلست بمصلي ثم قال ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني أفضل من سائر العبادات وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال قراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من صلاة لا يكون فيها كثير القراءة ثم قرأ هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال مقاتل: ولذكر الله إياك أفضل من ذكرك إياه بالصلاة وقال الكلبي يقول ذكره إياكم بالخير أكبر من ذكركم إياه والله يذكر من ذكره بالخير قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرجسي قال حدثنا إسحاق قال حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٥ وعزاه لابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس وانظر تفسير القرطبي ١٣/٢٣١.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/٥٤ والقضاعي في مسند الشهاب ٢/٤٣ وابن أبي حاتم كما في ابن كثير من طريق ليث عن طاووس عن ابن عباس وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان. انظر فتح الوهاب ١/٣٩٤، ابن كثير ٦/٢٩٠.

سألني ابن عباس عن قوله (وَلَذِكْر اللَّهِ أَكْبَر) فقلت هو التسبيح والتهليل والتقديس فقال: لقد قلت شيئاً عجيباً وإنما هو ذكر الله العباد أكثر من ذكر العباد إياه[1] وقال قتادة: ولذكر الله أكبر أي ليس شيء أفضل من ذكر الله. وسئل سلمان الفارسي أي العمل أفضل قال ذكر الله ويقال ذكر الله أفضل من الاشتغال بغيره، ويقال: ذكر الله حين كتبكم في اللوح المحفوظ من المسلمين أفضل، ويقال ذكر الله عز وجل لك بالمغفرة أفضل من ذكرك إياه، وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من ذكر الله في نفسه ذكره الله في نفسه ومن ذكره في مـلأ ذكره الله عز وجل في مـلأ أكبر من الملأ الذي ذكره فيهم وأطيب ومن تقرب من الله شبراً تقرب الله منه ذراعاً يعني بإجابته وتوفيقه ورحمته ومن تقرب إلى الله تعالى ذراعاً تقرب الله منه باعاً، ومن أتى الله ماشياً أتاه هرولة يعني بإجابته وتوفيقه[2] ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكـم به قوله عز وجل ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قال مقاتل ولا تجادلوا أهل الكتاب البتة يعني مؤمنيهم ثم استثنى كفارهم فقال ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ إلا بالتي هي أحسن فيها تقديم ثم نسخته آية قتال أهل الكتاب وقال الكلبي ولا تجادلوا أهل الكتاب إن الله عز وجل أمر المسلمين إذ كانوا بمكة قبل أن يأمرهم بالقتال، فقال: «ولا تجادلوا من آتاكم من أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن بالقرآن تعظونهم به وتدعونهم إلى الإسلام وهي التي أحسن إلا الذين ظلموا منهم في الملاعنة وهم أهل نجران: ويقال: ولا تجادلوا أهل الكتاب يعني لا تخاصموهم إلا بالتي هي أحسن يعني إلا بالكلمة التي هي أحسن وهي كلمة التوحيد إلا الذين ظلموا منهم يعني ولا الذين ظلموا منهم ويقال إلا الذين ظلموا منهم فلا بأس بأن تجادلوهم بما هو أشد ثم بين الكلمة التي هي أحسن فقال ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن والتوراة ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ يعني ربنا وربكم واحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني مخلصون بالتوحيد ثم قال عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن كما أنزلنا إلى موسى وعيسى عليهما السلام ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني يصدقون بالقرآن. ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني قريشاً ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ من اليهود ومشركي العرب ثم قال عز وجل ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني من قبل القرآن ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي لم تكن تكتب شيئاً بيدك ﴿إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني فلو كنت قرأت الكتب أو كنت تكتب بيدك لشك أهل مكة في أمرك ويقولون إنه قرأ الكتب وأخذ منها ويقال معناه لارتاب المبطلون يعني لشك أهل الكتاب في أمرك لأنهم وجدوا في كتبهم نعته وصفته أنه أمي لا يقرأ الكـتب كيـلا يشـكوا في صفته ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني بل هو يقين إنه نبي عند أهل العلم، ويقال يعني القرآن آيات بينات يعني واضحات ويقال بل إنه لا يقرأ ولا يكتب آيات بينات لأنه أخبر عن أقاصيص الأولين في صدور الذين أوتوا العلم يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ يعني الكافرون قوله عز وجل ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي علامة من ربه ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ يعني العلامات ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني من عند الله عز وجل وليس بيدي شيء ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني مخوفاً مفقهاً لكم أنبئكم بلغة تعرفونها قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص آيات بلفظ الجماعة يعني آيات القرآن والباقون آية يعني آية واحدة يعني أنه كان لا يكتب وكان له في ذلك آية بينة لنبوته ويجوز أن يكونا معناه الآيات للجنس.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٦ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/٣٨٤ كتاب التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم ٤/٢٠٦١ كتاب الذكر (٢ ـ ٢٦٧٥).

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾ يعني القرآن فيه خير ما مضى وخير ما يكون أو لم يكفهم هذا علامة، ويقال: أو لم يكفهم أنهم فصحاء فجاءهم بالقرآن الذي أعجزهم عن ذلك وقال الزجاج كان قوم من المسلمين كتبوا شيئاً عن اليهود فأتوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفى هذا حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما أتاهم به نبيهم إلى ما أتى به غير نبيهم[١] فقال عز وجل«أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ» ﴿**يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً**﴾ يعني في هذا القرآن لنعمة لمن آمن به ﴿**وذكرى**﴾ أي موعظة ويقال تفكر ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ يعني يصدقون بالقرآن فقال له كعب بن الأشرف فقد كان قدم مكة من يشهد لك أنك رسول الله إن لم يشهد لك فنزل ﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً**﴾ بأني رسول الله ﴿**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ**﴾ يعني بالصنم ويقال بالشيطان ويقال بالطاغوت وهو كعب بن الأشرف ﴿**وَكَفَرُوا بِاللَّهِ**﴾ يعني جحدوا وحدانية الله ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ يعني المغبونين في العقوبة، ويقال: خسروا حيث استوجبوا لأنفسهم العقوبة ثم قال عز وجل ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**﴾ وذلك أنهم قالوا إئتنا بعذاب الله يقول الله عز وجل ﴿**وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمّى**﴾ أي لولا الوقت الذي وقت لهم ﴿**لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً**﴾ يعني فجأة ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ بنزول العذاب ﴿**يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ يعني جعلت لهم النار تحيط بهم قوله عز وجل ﴿**يَوْمَ يَغْشَاهُم الْعَذَابُ**﴾ يعني يعلوهم ﴿**مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو، ونقول ذوقوا بالنون[٢] يعني نقول لهم نحن ذوقوا وهي حكاية عن الله سبحانه وتعالى بلفظ الجماعة وهو لفظ الملوك وقرأ الباقون بالياء[٣] يعني يقول الله عز وجل ويقال وتقول

---

(١) قال الحافظ في الكافي الشافي ٣/٤٥٩ أخرجه الطبري وأبو داود في المراسيل من طريق يحيى بن جعدة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاه قوم من المسلمين بكتاب في كتف «فذكر نحوه».

(٢) انظر حجة القراءات ٥٥٣. إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٥١.

(٣) وحجة من قرأ بالنون أن الكلام أتى عقيب لفظ الجمع في قولهم ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا﴾ وبعد ذلك ﴿ثم إلينا يرجعون﴾ ولنبوئنهم فجعلوا ما بين ذلك بلفظ الجمع ليأتلف الكلام على نظام واحد. وحجة من قرأ بالياء قوله تعالى: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم=

لهم الخزنة ذوقوا ما كنتم تعملون يعني جربوا عقوبة ما كنتم تعملون في الدنيا ثم قال عز وجل ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو بسكون الياء وقرأ الباقون بنصب الياء[١] وقرأ ابن عامر وحده ﴿إِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ﴾ بنصب الياء وقرأ الباقون بسكونها، في مثل هذه المواضع لغتان يجوز كلاهما، ومعناه إن أرضي واسعة إذا أُمِرْتم بالمعصية والبدعة فاهربوا ولا تطيعوا في المعصية نزلت في ضعفاء المسلمين إن كنتم يعني إذا كنتم في ضيق من إظهار الإسلام بمكة «فَإِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ» يعني المدينة واسعة بإظهار الإسلام وروي عن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام»[٢] وإنما خص إبراهيم لأنه قال (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) ففر بدينه إلى أرض المقدسة إنما خص محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه هاجر من مكة إلى المدينة، ويقال: إن القوم كانوا في ضيق من العيش فقال إن كنتم تخافون شدة العيش فإن أرضي واسعة ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي موحدون بالمدينة علانية، ثم خوفهم بالموت ليهاجروا فقال ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم بالخروج فقال لهم: لا تخافوا فإن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم قرأ عاصم في رواية أبي بكر يرجعون بالياء بلفظ المغايبة على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء على معنى الخطاب[٣] لهم ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني صدقوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات يعني الطاعات وهاجروا فسمى الهجرة من الأعمال الصالحة لأنها كانت فريضة في ذلك الوقت ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ يعني لننزلنهم ولنسكننهم ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ يعني غرفاً من الجنة قرأ حمزة والكسائي لنثوينهم بالثاء وقرأ الباقون لنبؤنهم بالياء، فمن قرأ بالثاء[٤] فهو من ثويت بالمكان يعني أقمت به كقوله «وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِيْ أَهْلِ مَدْيَنَ» ومن قرأ بالباء يعني لننزلنهم وذكر عن الفراء أنه قال كلاهما واحد بوأته منزلاً أي أنزلته وأثويته منزلاً: يعني أنزلته سواء كقوله (وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً) ثم قال ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي ثواب الموحدين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الهجرة، ويقال: صبروا على أمر الله تعالى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يثقون به ولا يهتمون للرزق لأنهم كانوا يقولون كيف نهاجر وليس لنا مال ولا معيشة فوعظهم الله ليعتبروا فقال.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

= شهيداً﴾ وقوله ﴿وكفروا بالله﴾ وهذان أقرب من لفظ الجمع فكان رده على لفظ ما قرب منه أولى من رده على الأبعد المصدران السابقان.

(١) وحجة من قرأ بإسكان الياء أن النداء باب الحذف كما تقول (يا رب). ويا قوم: فتحذف الياء وإذا وقفوا على الياء والباقون على أن أصل كل ياء الفتح. انظر حجة القراءات ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٢) قال الحافظ في الكافي الشافعي ١/٤٥٥ أخرجه الثعلبي من رواية عباد بن منصور الباجي عن الحسن مرسلاً.

(٣) المصدر السابق.

(٤) وحجة من قرأ بالتاء قوله تعالى ﴿وما كن ثاوياً﴾ والباقون حجتهم قوله تعالى: ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق﴾. انظر المصدر السابق والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٤.

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني وكم من دابة في الأرض أو من طائر في السماء ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها ولا يجمع للغداء إلا النملة والفأرة ويقال لا تخبيء رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني يرزق الدواب حيث ما توجهت وإياكم إذا هاجرتم إلى المدينة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالتكم ﴿العَلِيمُ﴾ بكم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يعني من أين يكذبون بتوحيد الله عز وجل ثم رجع إلى (أهل)[1] الهجرة ورغبهم فيها فقال ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني يوسع على من يشاء ﴿مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويقتر لمن يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من البسط والتقتير ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني من بعد يبسها وقحطها ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم بذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربهم وهم مقرون بالله عز وجل خالق هذه الأشياء.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ﴾ يعني باطل ﴿وَلَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان، ولهو كلهو الشبان، ويقال: فرح لا يبقى للخلق ولا يبقى فيها إلا العمل الصالح روى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إن الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه أو عالماً أو متعلماً[2]» وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مرَّ بسخلة منتنة فقال والذي نفسي بيده للدنيا على الله أهون من هذه السخلة على أهلها[3] ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ﴾ يعني هي دار الحياة لا موت فيها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لو كانوا يصدقون بثواب الله عز وجل ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ يعني في السفن ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني موحدين وتركوا دعاء أصنامهم ويعلمون أنه لا يجيبهم أحد إلا الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يعني إلى القرار ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ به قوله عز وجل ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يعني ما أعطيناهم من النعمة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر ونافع في رواية ورش وليتمتعوا بكسر اللام وقرأ الباقون بالجزم[4] فمن قرأ بالكسر فمعناه لكي يتمتعوا لأن الكلام

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/٥٦١ كتاب الزهد (٢٣٢٢) وابن ماجه ٢/١٣٧٧ كتاب الزهد باب مثل الدنيا (٤١١٢).

(٣) أخرجه الترمذي في الموضع السابق حديث (٢٣٢١)، وابن ماجه ٢/١٣٧٧ كتاب الزهد باب مثل الدنيا (٤١١١).

(٤) انظر حجة القراءات ٥٥٥.

عطف على ما قبله يعني يشركون لكي يكفروا ولكي يتمتعوا في الدنيا ومن قرأ بالجزم فهو على معنى التهديد والتوبيخ بلفظ الأمر وتشهد له قراءة أبي كان يقرأ تمتعوا﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه وليتمتعوا يعني وليعشوا فسوف يعلمون إذا نزل بهم العذاب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أو لم يعلموا ويعتبروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يعني يختلس الناس فيقتلون ويسبون وهم آمنون يأكلون رزقي ويعبدون غيري فكيف أسلط عليهم، إذا أسلموا ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أفبالشيطان يصدقون أن لي شريكاً ويقال أفبالأصنام يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ يعني وبخالق هذه النعمة ورسوله يجحدون ثم قال عز وجل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ بأن معه شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ يعني بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي حين جاءه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ مثوى أي مقاماً للكافرين بالتوحيد كما قال «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني رغبوا في طاعتنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يعني لنعرفنهم طريقنا، ويقال: معناه لنرشدنهم طريق الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني في العون لهم ويقال والذين عملوا بما علموا لنوفقنهم لما لم يعلموا، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المحتويات

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة التوبة

تفسير سورة يونس

تفسير سورة هود

تفسير سورة يوسف

تفسير سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة الإسراء

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة مريم

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

تفسير سورة الحج

تفسير سورة المؤمنون

تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

تفسير سورة القصص

تفسير سورة العنكبوت